الحركة العربية القومية في مائة عام

1875 - 1982

إشراف وتحرير

ناجي علّوش

إبراهيم ابراش
أحمد الجباعي
الياس سحاب
امين اسكندر
انطوان داغر
تركي علي الربيعو
خيرية قاسمية
ذوقان قرقوط
سهيلة الريماوي
سي ارنست دون
شبلي العيسمي
شفيق السامرائي
عبد الله الجيزاني
فهمية شرف الدين
محمد جعفر الحيالي
مصطفى بلاوني
ناجي علّوش
نجاح محمد
نديم البيطار
هاني فارس





الحركة العربية القومية

في مائة عام

الحركة العربية القومية في مائة عام

1875 - 1982

إشراف وتحرير

ناجي علوش

إبراهيم ابراش
أحمد الجباعي
الياس سحاب
امين اسكندر
انطوان داغر
تركي علي الربيعو
خيرية قاسمية
ذوقان قرقوط
سهيلة الريماوي
سي ارنست دون

شبلي العيسمي
شفيق السامرائي
عبد الله الجيزاني
فهمية شرف الدين
محمد جعفر الحيالي
مصطفى بلاوني
ناجي علوش
نجاح محمد
نديم البيطار
هاني فارس



1997

■ إشراف وتحرير ناجي علوش (الحركة العربية القومية في مائة عام)

■ الطبعة العربية:

الاصدار الاول ١٩٩٧



الناشر

■ دار الشروق للنشر والتوزيع

هاتف ٦١٨١٩٠ / ٦١٨١٩١ / ٦٢٤٣٢١ فاكس ٦١٠٠٦٥

ص.ب ٩٢٦٤٦٣ الرمز البريدي ١١١١٠ عمان - الأردن

التوزيع في فلسطين

■ دار الشروق للنشر والتوزيع

رام الله . المنارة . الشارع الرئيسي هاتف: ٩٩٨٥٩٧٨

الصف والاخراج وتصميم الغلاف

■ الشروق للاعلان والتسويق

هاتف: ٦١٨١٩٠ فاكس: ٦١٠٠٦٥ عمان - الأردن.

■ رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(١٩٩٧/٢/١٧٤)

رقم التصنيف: ٩٥٦،٥٤٩٥٦ر٣٢٠

المؤلف ومن هو في حكمه: إشراف وتحرير ناجي علوش

عنوان المصنف: الحركة العربية القومية في مائة عام

الموضوع الرئيسي: ١- العلوم الاجتماعية

٢- القومية العربية

رقم الايداع: (١٩٩٧/٢/١٧٤)

بيانات النشر: عمان- دار الشروق

* تم اعداد بيانات الفهرسة الاولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية



هذا الكتاب

يسعى هذا الكتاب، الى سد فراغ في المكتبة العربية، يتعلق بتطور الحركة العربية القومية.

ذلك أن الحركة العربية القومية، ورغم الدور الذي كان منتظراً منها، ورغم ما واجهته من عداء القوى المعادية، مازالت حتى الآن لا تجد الاهتمام الكافي من أبنائها ومؤيديها. ولذلك، فان تاريخها لم ينل ما يستحق من الدراسة، ومفكريها مازالوا غير مدروسين جيداً، وقضاياها مازالت غير مطروحة طرحاً علمياً ومنهجياً.

واذا راجعنا ماصدر من كتب عن تاريخ الحركة القومية، وعن قضاياها ومفكريها، وجدناه قليلاً وغير كاف. هذا بالاضافة الى أن ماصدر في حينه، اختفى من واجهات المكتبات، ولم يحتفظ به في كثير من المكتبات العامة. ويجد الدارس صعوبة في الحصول على المراجع الأساسية، في تاريخ الحركة القومية.

ولذلك خططنا لاصدار هذا الكتاب، ليسد بعض النقص الحاصل، وليضيف جديداً في المعلومات والأسلوب،حيث نستطيع.

وهذا الذي دعانا إلى إشراك اكبر عدد من الباحثين في انجاز الكتاب، لتغطية أوسع مساحة ممكنة، ولتوظيف معارف وخبرات عديدة.

ثم إننا، وعندما قررنا اصدار الكتاب، درسنا ما حوته الكتب التي صدرت، وما لم تحوه، ووجدنا أن كل الكتب تناولت التطور العام لتاريخ الحركة القومية بأساليب مختلفة وان كانت عموماً غير كافية. ولكنها لم تتناول الأحزاب والشخصيات تناولاً خاصاً.

ونتج عن ذلك أننا رأينا ان اي كتاب جديد، يجب ان يتناول الأحزاب الأساسية والشخصيات الأساسية. فوضعنا ذلك في جدول أعمالنا، ونحن نخطط لصدور الكتاب. ورأينا أن يتضمن كل قسم من اقسام الكتاب تغطية مرحلة تاريخية، بما يعنيه ذلك، من تناول تطورات المرحلة، وأبرز حزب فيها، أو واحد من أحزابها البارزة، وشخصية من الشخصيات البارزة.

وأدى ذلك الى أن نختار في كل مرحلة حزباً وشخصية على الأقل، لا لأننا أردنا هذا الحزب دون غيره، أو هذه الشخصية دون غيرها، ولكن لأننا طلبنا مثلاً دراستين عن

حزبين ، فلم نحصل إلا على واحدة، وكذلك بالنسبة للشخصيات.

ورغم النقص الذي حصل، فان الكتاب، يضم دراسات عن الأحزاب والحركات التالية :-

١- حزب اللامركزية الادارية العثماني.

٢- عصبة العمل القومي.

٣- حزب الاستقلال

٤- حزب البعث العربي الاشتراكي.

٥- حركة القوميين العرب.

٦- الناصرية.

كما أنه يضم دراسات عن الشخصيات التالية :

١- د. صلاح الدين القاسمي أبرز رواد الحركة العربية القومية.

٢- أسعد داغر.

٣- ساطع الحصري.

٤- قسطنطين زريق.

٥- ياسين الحافظ.

وكان بودنا لو استطعنا الحصول على دراسة لحزب البعث ، تتناول تاريخه ودوره إلا اننا لم نستطع، فاكتفينا بالمادة التي حصلنا عليها.

كما أننا حاولنا أن نقدم كل مرحلة من المراحل بدراسة عن المرحلة، كما فعلنا في القسمين الأول والثاني، وحيث لم يتوافر ذلك أعددنا مقدمات موجزة.

ولهذا جاء الكتاب ، كما جاء ، يقدم أبرز تطورات الحركة العربية القومية، وأبرز احزابها وشخصياتها ، في كتاب واحد.

ونأمل ان يسعفنا الوقت والظروف على تقديم إسهامات اخرى، تسد ما لم نستطع توفيره في هذا الكتاب.

كما نأمل أن يعطي المعنيون بتاريخ الحركة القومية المزيد من الوقت والجهد لكتابة تاريخها ، والتعريف بأحزابها وقواها وشخصياتها وقضاياها.

ناجي علوش

القسم الأول



الحركة العربية القومية:
مرحلة النشوء والتأسيس
١٨٧٥-١٩١٨

١- مدخل

٢- الفصل الأول

■ أصول القومية العربية . د. سي ارنست دون.

٣- الفصل الثاني

■ في نشأة الحركة العربية القومية. د. ذوقان قرقوط.

٤- الفصل الثالث

■ حزب اللامركزية الادارية العثماني . د.سهيلة الريماوي.

٥- الفصل الرابع

■ صلاح الدين القاسمي والمفهوم الحديث للقومية .أ. ناجي علوش.

مدخل



يضم هذا القسم الأول من الكتاب أربع دراسات، تتناول الأولى منها أصول القومية العربية. والدراسة للأستاذ سي ارنست دون، تناول فيها أطروحات جورج انطونيوس ومن حذا حذوها في اعتبار الحركة العربية القومية نتاج المدارس التبشيرية، لينقضها من أساسها. وهي دراسة جديدة وجادة، تستحق أن تدرس، لأنها تؤسس لاعادة نظر كاملة في الحركة العربية القومية. وتتناول الدراسة الثانية التي كتبها د. ذوقان قرقوط علاقة العرب بالامبراطورية العثمانية، وهو يرى ان الاسلام كان جامع العرب بالسلطنة، وأن النزعة الطورانية، كانت نتيجة استيلاء حزب الاتحاد والترقي على السلطة.

ثم تناول محاولات الاختراق الأوروبية، بدءاً من لبنان، ليصل الى المؤتمر العربي في باريس، والحرب العالمية الأولى، وانخداع العرب بوعود الانجليز، ومن ثم انهيار هذه الوعود. ويلقي د. قرقوط أضواء على علاقة مصر بالحركة القومية، من حملة بونابرت الى العشرينيات.

وتتناول د. سهيلة الريماوي حزب اللامركزية الادارية العثماني بدراسة موثقة شاملة.

ويتناول أ. ناجي علوش د. صلاح الدين القاسمي صاحب المفهوم الحديث عن القومية عامة، والقومية العربية خاصة.

« المحرر»

أصول القومية العربية

د. سي. ايرنست دون

طوال سنين، كان التفسير الأكثر انتشاراً بلا شك لأصول القومية العربية، يرى بأن الاتصال مع الغرب قد أحيى الشعور القومي العربي الكامن، الذي طال قمع الاسلام أو الأتراك له، في أوساط العرب المسيحيين اللبنانيين ، الذين قادوا بعد ذلك مواطنيهم في التحرك من أجل تأسيس الحياة السياسية والثقافية على القومية، لا على الدين. وطبقاً لوجهة النظر هذه، كان نشوء القومية العربية جزءا من اليقظة العربية، التي أدخلت العرب الى العالم المعاصر للعلم والعلمانية الغربيين. وكان جورج انطونيوس أول من نشر هذا الرأي في أوساط المراقبين والطلاب الغربيين. وقد احتفظ الرأي بشهرته .

وربما قدَّم ألبرت حوراني وهشام شرابي أفضل بيان لبعض عناصره. لقد سعى المسلمون الى أن يجدوا في الثقافة الغربية وسيلة لدرء القوة الغربية. لكنهم عندما فعلوا ذلك ، حصلوا على « احساس غير مريح بكونهم غير صادقين مع أنفسهم». لكن المسيحيين لم يشعروا بأن أوروبا المسيحية كانت غريبة(١).

ويفسر دور المسيحيين أكثر شرابي وبسام طيبي باستخدامهما للفكرة المشتركة، بان القومية هي حركة بورجوازية. وهما يعتقدان بان المسيحيين العرب كانوا العنصر البورجوازي الوحيد في المجتمع العربي في ذلك الوقت(٢).

ويواجه التفسير المسيحي صعوبات لا يمكن التغلب عليها.فأصحابه لا يقدمون أي دليل أو حجة مقنعة، تؤيد التعاطف المفترض للعرب المسيحيين، والمسيحيين الاوروبين، أو تؤيد الطبيعة البورجوازية للعرب المسيحيين أو للقوميين العرب. والحجة المشتركة التي تُعطى لهذا التفسير هي نشاط المدارس التبشيرية الغربية، وبخاصة الأميركية، التي كانت، كما يزعمون ، أول من أدخل الأفكار الغربية الى العالم العربي(٣). ومن الواضح ان هذه الحجة طرحها بعض العرب قبل عام ١٩١٤، لأننا نجد مثقفاً قومياً عربياً سورياً، هو محمد كرد علي، يرفضها حتى في ذلك الوقت.

وعندما طرح أنيس نصولي هذه الحجة في عام ١٩٢٦، رفضها كرد علي مرة أخرى(٤).، وأصر كرد علي على ان المتعلمين والمؤسسات التعليمية للدولة المصرية كانوا حتى ذلك الوقت هم أهم دعاة اليقظة العربية.

ومع أنه أعطى بعض الفضل للمدارس التبشيرية، (وبخاصة لاستخدامها العربية كلغة للتعليم في سنواتها الأولى)، فانه انضم الى النقد القومي العربي العام للمدارس التبشيرية، باعتبارها تضعف الشعور القومي(٥). وقصرت المدارس التبشيرية جهودها لفترة طويلة على التعليم الطائفي المحض، لا على التعلم العلماني المعاصر. وكان المتعلمون والمؤسسات التعليمية للدولة المصرية، كما أكد كرد علي، هم القوة الأهم حتى ذلك الحين في إدخال الفكر الغربي. وربما كانت مدارس الدولة العثمانية بنفس أهمية المؤسسات المصرية(٦).

وكان عدد الاشخاص الذين تعلموا في مدارس الدولة العثمانية (٦٣ بالمائة) اكبر كثيرا من عدد مَنْ تعلموا في المدارس التقليدية أو الغربية (٢٠ في المائة، ١٧ في المائة على التوالي)، في أوساط القوميين العرب السوريين قبل عام ١٩١٤. علاوة على ذلك، كان المسيحيون يمثلون ٦ في المائة فقط من «العروبيين» قبل عام ١٩١٤، بينما كانوا في عام ١٩٢٦ (١٠ في المائة، أو ١٢ في المائة) من مجموع السكان السوريين(٧). ان حوراني، الذي كانت معالجته في «الفكر العربي» لدور العرب المسيحيين في القومية العربية غامضة، كتب فيما بعد يقول: «لم تكن الحركة المسيحية اللبنانية عاملاً رئيسياً» (٨).

بدأت عملية تكوين رأي ذاتي قومي بين العرب بتكييف فكرة الوطن والوطنية الأوروبية مع ظروف الشرق الأدنى. وتوضح الأدلة المتوفرة حالياً ان العرب المسلمين والأتراك هم الذين أخذوا الريادة في ذلك. ومن العرب، كان رفاعة رافع الطهطاوي هو الأكثر نفوذاً. ففي الفترة الواقعة بين عام ١٨٣٤، ومنتصف ذلك القرن، وفي روايته عن إقامته في باريس وفي شعره، نشر الطهطاوي الأفكار عن ان الأرض تتكون من بلدان لها خصائصها الخاصة بها، وأن سكان كل بلد من هذه البلدان كانت لهم علاقة مميزة به، ومحبة خاصة له.

وترجم كلمة (Patrie) الفرنسية الى كلمة «وطن» العربية، وتحدث عن حب الـ «وطن»، ثم عن «الوطنية» في النهاية. وكان «وطن» الطهطاوي هو مصر، وكان شعب مصر كيانًا متميزًا منذ زمن الفراعنة(٩). وخلال الفترة نفسها، كان المثقفون ورجال الدولة الأتراك ينشرون فكرة أن الأراضي العثمانية هي «الوطن» العثماني، الذي ينبغي على الشعب العثماني أن يحبه (١٠).

إن جاذبية الفكرة الاوروبية عن الوطنية للبيروقراطيين المثقفين المصريين والعثمانيين، نجمت عن رغبتهم في التغلب على الحرمان الملموس للبلدان الاسلامية ،أو للامبراطورية العثمانية. وكانوا على اتصال مباشر مع الحضارة الغربية، نتيجة لمواقع السلطة المحتلة ومسؤوليتها في حكم بلدان هذه الحضارة. وكانوا يدركون بألم ان البلدان الاوروبية والفرنجة المسيحيين، كانوا اكثر تقدماً الى حد بعيد في المدنية من البلدان الاسلامية. وكانوا يرغبون بحماسة في رفع البلدان الاسلامية إلى مستوى الغرب. وقال الطهطاوي، في وصفه للغرض من كتابه الذي يسجل إقامته المؤقتة في باريس: « جعلته يتكلم لتحريك بلاد الاسلام، لكي تستقصي أسباب العلوم والفنون والصناعات الأجنبية، لأن بلوغها حد الكمال في أرض الفرنجة حقيقة لا ريب فيها معروفة تماماً، والحق أحق بان يُتبع». واعتقدوا بان تقدم أوروبا كان نتيجة للوطنية ، ولحب الفرنسيين، على سبيل المثال، لوطنهم. وهكذا كانت الوطنية مصدراً للتقدم والقوة، ووسيلة لسد الفجوة بين بلاد الاسلام وأوروبا(١١).

والنظر إلى «الذات» باعتبارها محرومة بالنسبة الى « الضد» غالباً ما يجرح رأي المرء في نفسه. والمثقفون ورجال الحكم العرب والأتراك لم يكونوا استثناءً. فقد أعقب الطهطاوي اعترافه بكمال علوم وفنون وصناعات الفرنجة بصيحة تعجب: **«يا لله أثناء اقامتي في هذا البلد كنت متألماً لانه يتمتع بذلك «الكمال» الذي لا وجود له في بلاد الاسلام»**

وخف الألم الناجم عن المقارنة الحاسدة ، كما يحدث عادة، بملاحظة بعض الفضائل التي تمتلكها« الذات» ويفتقدها « الضد»، وبالعثور على الأمل لمستقبل «الذات» في ماضيها. فالمسلمون كانوا ما زالوا ينعمون ببركة الدين الكامل، بينما كان الفرنجة،المسيحيون بالاسم فقط، يعتمدون على العقل وحده. علاوة على ذلك، كان المسلمون في الماضي معلمين للفرنجة في العلوم الطبيعية، كما اعترف بعض الفرنجة أنفسهم. وهكذا فان على المسلمين ان يستعيروا العلوم الغربية،وان يتشبثوا بالدين الحق. وكان يعتقد بأن الفجوة ستغلق قريباً ان هم فعلوا ذلك.

وكانت إعادة التأكيد الدفاعية هذه للفكرة عن الذات بقدر ما هو ممكن اصدار الحكم في مثل هذه المسائل تعبيرات شخصية صادقة عن الحزن على الحاضر وعن الأمل في المستقبل، وعن الثقة في قيمة الكُتاب وقيمة مواطنيهم.

وفي الوقت عينه، نشأت هذه الأفكار عن انقسام ضمن المجتمع. فقد كان للعثمانيين والمصريين من دعاة الاصلاح على النمط الغربي منافسون. وكان هؤلاء الدعاة من أعضاء الحكومة، غير ان معارضيهم اتهموهم بالردة والخيانة، وبالتجارة مع أغراب أعداء، وردوا

عليهم بالتأكيد على سلامة المعتقدات والقوانين والمؤسسات الموروثة للمجتمع. وبالرغم من هذه المعارضة، احتفظ الاصلاحيون بالسلطة في مصر والامبراطورية، وواصلوا سياساتهم.

ومع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أصاب الشك الايديولوجيتين الحكومية والمعارضة على حد سواء: اذ بحلول منتصف القرن، كانت إخفاقات مصر والدولة العثمانية بالمقارنة مع أوروبا غنية عن البيان.

وكان المرء يستطيع الشك في فعالية الاصلاحات والثقافة الموروثة معاً. لكن لم يبدُ هناك أي مهرب من تبني الأساليب الغربية. وزاد هذا الادراك من جرح الفكرة الذاتية عن النفس. ولم يعد من الممكن تخفيف هذا الجرح بأفكار مثل أفكار الطهطاوي، التي كانت مازالت تمثل ايديولوجية المؤسسة. ونتيجة لذلك، تمكنت المعارضة من طرح فكرة ذاتية معارضة عن النفس، تمثلت في مجموعة المعتقدات التي أصبحت معروفة فيما بعد بوصف الحداثة والاحياء الاسلامي. وربما كان من أوائل الدعاة لوجهة النظر الجديدة«العثمانيون الشباب»، من أتباع مصطفى رشيد باشا، مؤسس الـ« التنظيمات» الاصلاحية، التي دافع عنها مفكرون مثل الطهطاوي، الذي كان قد سقط من السلطة. وظهرت بعض العناصر الحاسمة، التي تحمل شبهاً واضحاً بالأفكار السابقة،في الأعمال العربية لخير الدين التونسي والطهطاوي في أواخر العقد السابع من القرن التاسع عشر.

ومنذ بداية عقد الثمانينيات من القرن عينه، أعطى جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده للمبدأ التعبير الأكمل عنه باللغة العربية(١٢).

ان الحاجة الواضحة الى تقليد الغرب، وسعت جرح فكرة العثمانيين والشرقيين عن أنفسهم. وحمل الانتاج الأدبي بعد ستينيات القرن التاسع عشر حدة عاطفية لم تكن موجودة في كتابات الطهطاوي. وهوجمت الحكومة بأقوى العبارات، لأنها خانت الاسلام وأرض الآباء والأجداد لمصلحة الغرب المسيحي، الذي صوِر كعدو لدود بلا مبادئ. وكانت نقطة البداية تفجعاً مريراً على السلطة والمجد الضائعين، اللذين كانا للاسلام لكنهما انتقلا الآن الى الغرب المسيحي. فالاسلام والشرق لم يكونا دائماً في مثل تلك الحالة المحزنة . وتم استذكار الأمجاد، العسكرية والثقافية، للماضي الاسلامي، والتأكيد على ما يفترض بأنه دين للاسلام في عنق الحضارة الغربية. وتم الاعلان،في الحقيقة، بان حداثة أوروبا اصلها اسلامي، ومستعارة من المسلمين، وبأنها استخدمت استخداماً مفيداً، بينما انحرف المسلمون عن الاسلام الصحيح الأصيل، وعانوا نتيجة لذلك من الركود والانحطاط. وحملت المسؤولية المباشرة عن هذا الوضع المحزن للحكومات الاصلاحية، التي أذعنت للأوروبيين بالاستعارة التدريجية للممارسات الغربية والتي لا يمكن الا ان تتمخض عن شرقيين مهجنين.

وكان الطريق الصحيح يتمثل في التخلص من الفساد في التراث والعودة الى الاسلام الأصيل، الذي سيؤدي إلى إقامة حكومة تمثيلية دستورية، وإلى الحرية، الخ، وهذه ذات أصول اسلامية، مع أن أفضل تعبير راهن عنها كان يوجد في الغرب.

وبهذه الطريقة يسترد الاسلام سلطته ومجده الضائعين.

وشارك العرب المسلمين في رد فعلهم على الغرب الذي بلغ ذروته في حداثة (محمد) عبده الاسلامية كثير من العرب المسيحيين، ومنهم معظم من كان يطلق عليهم عامة اسم خالقي القومية العربية العلمانية. اذ كانت كتاباتهم بعيدة عن التعبير عن مشاعر القربى للغرب، وشاركت في دفاع المسلمين عن الفكرة الذاتية المجروحة عن النفس. فقد استاء بطرس البستاني، مثل كثير من المسيحيين الشرقيين، من الغطرسة المتعالية المحسوسة للمبشرين البروتستانت الانغلو- ساكسون، وحذر من تشويهات الغرب ورذائله، كما فعل أحمد فارس الشدياق، وأديب اسحق. وشاع نقد الافراط في « التفرنج » بين الكتاب العرب المسيحيين. وفي النهاية لم يكن أي منهم من القوميين العرب. فالبستاني والشدياق واسحق كانوا وطنيين عثمانيين، كما كانت شخصيات بارزة فيما بعد، أمثال سليمان البستاني، وشبلي الشميّل وفرح أنطون(١٣). ويعترف طيبي وشرابي كلاهما أحيانا بعثمانية هؤلاء المثقفين، لكنهما لا يستطيعان التخلص من إيمانهما بعروبتهم.

وكلاهما يتسم بالغموض وعدم الثبات، ويعرض قلة من التفاصيل ، لكنهما يعتبران اولئك العرب المسيحيين خالقين ودعاة لقومية عربية ثقافية غلبت على عثمانيتهم. ولا يوجد اي شك في ان هؤلاء العرب قد اعتبروا أنفسهم عرباً بالفعل(١٤).

لقد حمل كثير من مثقفي البلاد العثمانية ومصر الأوائل، ممن تأثروا بالغرب، وربما جميعهم، وجهات نظر متداخلة عن الذات، دون اي احساس بالتناقض. فقد أعلن البستاني، والى حد أقل، إسحق، فعلا بانهما عربيان، واعتزا بتراثهما العربي.

لكن الطهطاوي فعل ذلك أيضاً. ولم يبن أي منهم ، سواء كان مسيحياً أم مسلماً، نتائج سياسية ، أو حتى نتائج ثقافية في النهاية، على العروبة . ولم يعرب أي منهم عن عدم الولاء للامبراطورية العثمانية. وكانت الانتماءان السياسيان للمسيحيين الاثنين عثمانيين بصورة قاطعة. كما كانت هوياتهم الثقافية أعم.

فقد كان الطهطاوي مهتمًا باعادة إحياء بلاد المسلمين. وكان البستاني واسحق، مثل الشدياق، يحنان بقوة الى استعادة مجد الشرق الضائع.

وتحدثوا جميعهم عن أرض الآباء والأجداد والوطنية، عن« الوطن» و« الوطنية». لكن كان من الممكن أن يكون للشخص الواحد أكثر من « وطن» واحد، وأكثر من «أمة» واحدة.

وفي أوساط بعض منهم، بدا «الوطن» الأصغر أحيانا هو مركز الولاء الأكثر أهمية. وقد كانت «مصرية» الطهطاوي لفترة طويلة موضوعاً لاهتمام المثقفين. وبالقدر نفسه من الأهمية كانت وطنية البستاني «السورية». لكنهم، لم يجعلوا هوياتهم الأوسع تابعة لهوياتهم الأضيق، ولم يكن ذلك صحيحاً بالنسبة لبعضهم.

ان بعضهم في سوريا ولبنان مزجوا العروبة والوطنية الاقليمية وغلّبوهما على العثمانية. ومنذ عام ١٨٦٨، دعا ابراهيم اليازجي العرب الى استرداد حيويتهم القديمة الضائعة، والى الانعتاق من نير الأتراك(١٥). كما شارك في جمعية سرية عملت لتحقيق هذا الهدف في أواخر عقد السبعينيات من القرن التاسع عشر، وعلّقت بضع إعلانات على الجدران تدعو إلى التمرد في بيروت.

وخلال الفترة عينها، كان هناك تحرك مماثل في أوساط الوجهاء اللبنانيين والدمشقيين. وكان معظمهم من المسلمين لكن من الممكن بمشاركة بعض من المسيحيين. ومع ان الحركتين سرعان ما اختفتا، فان إحداهما تحدثت بشكل كامل تقريباً باسم العرب المسيحيين. وكان هدفها إقامة لبنان مستقل، بينما طغى العرب المسلمون على الثانية التي سعت إلى قيام سوريا ذات حكم ذاتي(١٦).

وقد تحدث إبراهيم اليازجي عن سوريا أيضاً. ومن المحتمل أن تكون أفكار مثل أفكاره قد اسهمت في تطور القومية اللبنانية والسورية بين مسيحيي لبنان، والتي ظهرت مع نهاية القرن.

وبحلول السنوات الأولى للقرن العشرين، كان العرب المسلمون قد طوروا وجهة نظر ذاتية قومية عربية، كانت ستوفر النواة للأيديولوجيا القومية العربية في القرن العشرين.

وكانت العروبة الجديدة وليدة دعوة عبده الى الحداثة والاحياء الاسلامي. فالاسلام لم يكن يحمل التخلف في تكوينه، في وجهة النظر الذاتية عن النفس لهذه الدعوة. فقد أنعم الاسلام الصحيح للأجداد بالعقلانية على البشرية، وأنشأ اسس الحداثة، التي استعارها الغرب. وبينما تقدمت أوروبا على أساس هذه الاستعارة، سقط المسلمون في الخطأ، وفسدوا وهجروا الاسلام الصحيح. وكان العلاج لذل المسلمين الراهن وانحطاطهم يتمثل في العودة الى الاسلام الصحيح للسلف.

فان حدث ذلك، ستعود السلطة والمجد اللذان فقدهما الاسلام للغرب المسيحي إلى من هم اصحابهما بحق. وان يكون الاسلام الصحيح هو اسلام السلف. وأن يكون السلف، هم العرب، كان يعني احياء العروبة والثقافة العربية، واعادة العرب الى مركزهم القيادي بين المسلمين. وقد طوّر هذه الأفكار أتباع عبده، ومحمد رشيد رضا، وعبد الرحمن

الكواكبي. وقد تردد عبده على الحافة ،وامتنع عن الدعوة الى الحكم الذاتي السياسي، لكن الآخرين دعيا الى اقامة امبراطورية عثمانية عربية وتركية مزدوجة، يمارس العرب فيها القيادة الدينية والثقافية(١٧).

وتبنى هذه النسخة للحداثة الاسلامية الدعاة الأوائل للقومية العربية. وبينما لم تكن هناك أية دراسة منهجية لكتاباتهم، فان ما هو معروف عن محمود شكري الألوسي وعبد الحميد الزهراوي* ومحمد كرد علي، وعبد الغني العريسي*، يكفي لتسويغ تصنيفهم كمحدثين اسلاميين، تحولوا الى قوميين عرب.

لقد تباينت تفسيرات العلاقة بين الحداثة الاسلامية والعروبة. ان سليفيا جي. حاييم، وربما تكون أول مثقف يبحث في هذا الموضوع، لم تستنتج أيديولوجيا قومية عربية من الحداثة الاسلامية. وفي احدث دراسة لها عن الموضوع، تشير الى: « تمجيد عبده غير المباشر للإسلام العربي، وحطه من قيمة الاسلام العثماني»، وتصف الكواكبي بأنه «المبشر المثقف الصادق الأول بالقومية العربية العلمانية المعاصرة». لكنها تعتبر بأن تأثيرهما الرئيسي كان، مثل تأثير الأفغاني وغيره: « زيادة الشك في الاسلام»بين المسلمين. ويشبه تفسيرها تفسير ايلي خدوري، الذي يصف القومية العربية باعتبارها نشأت نتيجة لانتشار المبادئ اللاهوتية والسياسية التي أضعفت سلطة الاسلام والمسيحية . ويعتقد خدوري بأن القومية العربية ، انشأها ضباط عسكريون، نصبهم البريطانيون في السلطة بعد الحرب العالمية الأولى، فنشروها مع البريطانيين وملك مصر فاروق وحاشيته. كما تعتقد سلفيا حاييم بان القومية العربية الحقيقة كانت مستوردة من الغرب في زمن الحرب العالمية الأولى، وبأنه لم تجر اية « محاولة جادة لتحديد معناها» حتى أواخر عقد الثلاثينيات من القرن العشرين.ولكي تتمكن من البقاء، في رأي حاييم، كان لا بد للعروبة العلمانية المستوردة حديثاً من ان تتحول الى« رديف» للاسلام(١٩).

وبطريقة مماثلة، ينكر شرابي وطيبي أبوة الحداثة الاسلامية للعروبة. ويميز الأول منهما المصلحين الاسلاميين(مثل عبده) عن العلمانيين الاسلاميين(مثل الكواكبي). ويعتبر ان الكواكبي قاد الحركة القومية العربية، منذ ما قبل عام ١٩١٤، وحتى انتهاء فترة ما بين الحربين، عندما انهارت هذه الحركة أمام القومية العربية العلمانية التي بدأها المسيحيون اللبنانيون. أما طيبي فيرى بان الحداثة الاسلامية أسهمت في تكوين القومية العربية، وبأن الكواكبي كان « رائداً هاماً للقومية العربية».

---

* يراجع، ناجي علوش: مدخل الى قراءة عبد الحميد الزهراوي، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٥.

* يراجع، عبد الغني العريسي: مختارات المفيد، دار الطليعة ١٩٨١، تحرير وتقديم ناجي علوش.

لكن القومية العربية كانت حركة علمانية، نشأت مع المسيحيين اللبنانيين، «وكانت ستحطم في النهاية حركة الاحياء الاسلامي» ،حتى ولو لم يتخلَّ القوميون العرب عن الاسلام(٢٠).

ان أولئك الذين ينكرون ولادة العروبة من الحداثة الاسلامية، لم يقدموا أي تعريف محدد لنسبها. إنهم يكتبون عن القومية العربية دون القوميين العرب، وعن حركة دون مشاركين فيها. وهم في ذلك لا يختلفون ، لسوء الحظ، عن معظم الذين كتبوا عن القومية العربية.

وقد تم الافتراض ببساطة ان القومية العربية لا بد وان تكون قد استوردت من الغرب. ولذلك فانها علمانية. ولم يجر إلا القليل جدا من البحث العلمي لكتابات القوميين العرب، والقلة التي درستها كانت متأخرة، بعد عام ١٩٣٩ عملياً ، ولم يكن هناك ما يشير إلى ان هذه القلة كانت نموذجية أو مؤثرة.

وتوجد أدلة مقنعة على أن أيديولوجيا القوميين العرب السائدة في القرن العشرين، قد تكونت في العشرينيات من هذا القرن، على أبعد تقدير من جذور تعود للحداثة الاسلامية. ومن المستحيل في الوقت الحاضر تحديد المرجعية والتأثيرات الأولى لها ، لكن من الممكن التعرف على عدد من المطبوعات والمؤلفين القوميين العرب. ومن هؤلاء الأمير شكيب أرسلان، أحد الذين تحولوا عن العثمانية الى العروبة بعد الحرب(لكنه يظل مجدداً اسلامياً في كل الأوقات)، واثنان من دعاة العروبة قبل الحرب وهما محمد كرد علي – ومحب الدين الخطيب، وفي كتاباتهما المنشورة، توفر الحداثة الاسلامية للكواكبي، وطاهر الجزائري، ومحمود شكري الألوسي– وهؤلاء أساتذة معترف بهم– الأساس لفكرة عن تاريخ عالمي يتضمن نظرية الموجة السامية، كما عبر عنها بريستد في الأيام الغابرة (Ancient Times)، وبعض الأفكار شبه الماركسية(٢١) .وهذه الأفكار تم ايرادها في عدد من كتب تدريس التاريخ لعمر صالح البرغوثي وخليل طوطح(٢٢) ، ومحمد عزة دروزة (٢٣)، ودرويش المقدادي (٢٤) والتي ظهرت في طبعات متكررة في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين

وبحلول عام ١٩٣١ حظيت صياغة نموذجية بهذا القدر أو ذاك للفكرة العربية عن الذات بالبيان في هذه الكتب الدراسية .

وكان المؤلفون على صلة بسياسيين قوميين قياديين في الهلال الخصيب. واعتمدت كتبهم في مدارس فلسطين وسوريا والعراق. ومنذ أواخر عشرينيات القرن العشرين فصاعداً ،كان هناك استخدام متزايد للأفكار نفسها من قبل السياسيين والتنظيمات

المصرية (٢٥). وأخيراً تظهر الافكار عينها في الأيديولوجيا التي تضمنتها الكتب المدرسية المقررة الناصرية والبعثية في مصر وسوريا والعراق (٢٦).

لقد كانت الايديولوجيا القومية العربية تطوراً نشأ من الحداثة الاسلامية. غير أن بعض العرب المسيحيين شاركوا في الحركة القومية العربية. ويقدم شرابي نجيب عازوري وأمين الريحاني باعتبارهما قوميين عربيين. ويمكن الافتراض انهما من ضمن أولئك المسيحيين الذين لم يذكروا على وجه التحديد، الذين خلقوا القومية العربية العلمانية التي قضت على الحداثة الاسلامية، طبقاً لشرابي(٢٧).

وما زالت معرفة ما إذا كان لأي منهما أي تأثير بحاجة الى اثبات. ولا حاجة لأن تؤخرنا سيرة عازوري اللافتة(٢٨). فقد كان الريحاني اديباً وقوميًا عربياً بارزاً، وحظي كتابه («ملوك العرب»: ٢٤–١٩٢٥) بالمديح،بينما ادان كرد علي بقوة مخطوطته عن التاريخ السوري،(«النكبات»، ١٩٢٨)(٢٩).

لقد قبل الريحاني وأتباعه من دعاة العروبة المسيحيين المكانة الخاصة للاسلام، والنبي محمد في حياة الأمة العربية. وكان العرب المسيحيون قد اعترفوا فعلاً بهذه المكانة قبل عام ١٩١٤(٣٠). وكان لهذا التقليد مفسرون لاحقون، وبخاصة ميشيل عفلق(٣١).

نشر القوميون العرب الأوائل مبادئهم بواسطة المطبوعات، في مصر عادة، وبالاتصال الشخصي. ومع ثورة« تركيا الفتاة» وإعادة البرلمان، وتخفيف القيود على الصحافة والنشاط السياسي، دخل« العروبيون » الحياة السياسية.

أما الى اي حد كسبت العروبة ملتزمين بها، ولماذا كسبتهم، فيظلان موضع جدل.

وقلة هي التي تقبل وجهة نظر جورج أنطونيوس عن القومية العربية التي تغلي تحت السطح، والتي قمعتها البربرية التركية. ويعتقد زين زين بان القوميين العرب كانوا قلة في القرن التاسع عشر، وكانوا مازالوا أقلية في عام ١٩١٤. لكنه لا يسند اعتقاده هذا بأي دليل أو حجة واضحة(٣٢).

وفي رأيي، نشأت القومية العربية نتيجة للصراع في أوساط النخبة العربية. وكانت على وجه التحديد(كما هي الحال في المناطق التي ضمتها الجمهورية السورية فيما بعد)حركة معارضة للوجهاء السوريين، موجهة بشكل رئيسي ضد وجهاء سوريين منافسين، ممن كانوا قانعين بالمراكز التي كانوا يشغلونها في الحكومة العثمانية. وهي معارضة ظلت أقلية حتى عام ١٩١٨(٣٣). ويعتبر طيباوي ان دعاة العروبة لم تكن لهم

أهمية قبل فترة «تركيا الفتاة»، وربما كانوا ما زالوا أقلية في عام ١٩١٤(٣٤). ويرى شرابي بان القوميين قبل عام ١٩١٤ كانوا أقلية نخبوية، كما يرى طيبي والخالدي وحوراني، الذين يوافقون بوضوح على هذا الجزء من عملي(٣٥). ويخالف زين وطيباوي وشرابي وطيبي والخالدي وجهة نظري في التأكيد على ان سياسة « تركيا الفتاة» كانت سبباً رئيسياً للعروبة.

وفي رأيهم أن العروبة نشأت كرد فعل على القومية التركية لجمعية الاتحاد والترقي، والتي عبرت عن نفسها في الصحافة، وفي القوانين التي تشترط استعمال اللغة التركية فقط في الادارة، والمحاكم، والمدارس(٣٦).

ويضيف الخالدي الى ذلك الصهيونية. وجميعهم يعتقدون بأن القومية العربية كانت تزداد قوة أثناء فترة « تركيا الفتاة». والخالدي غامض، لكنه، كما يبدو، يعتقد بان العروبة كانت هي حركة الأغلبية بحلول عام ١٩١٤(٣٧).

والاعتقاد بان القومية العربية كانت حركة نامية بسرعة في فترة« تركيا الفتاة»، وبأن سياسة جمعية الاتحاد والترقي كانت هي السبب الرئيسي في هذا النمو، هو اعتقاد نجم عن تقليد أنشأه الدبلوماسيون الاوروبيون(وبخاصة البريطانيون)والقوميون العرب. وقدم زين والخالدي التوثيق الأوسع لذلك. وكان المصدر الرئيسي لزين هو مجموعة الكتيبات التي أعدتها وزارة الخارجية البريطانية للاستعمال في مؤتمر السلام بباريس. أما الخالدي فانه رجع الى المصادر الأولية في التقارير الدبلوماسية البريطانية والفرنسية المعاصرة، وفي الأدبيات القومية العربية، وبخاصة في الصحف المعاصرة.

ان تحيز دعاة العروبة غني عن البيان. لقد فضل معظم الدبلوماسيين البريطانيين والفرنسيين، على حد سواء، تأييد الانفصالية العربية.

والتحيز الواضح لهذه الشهادة لا يمكن إزالته بالتكرار. علاوة على ذلك، فان معظم هذه الشهادة يقتصر على العموميات، ولا تعطى الا تفاصيل قليلة. وعند النظر في مزاعمهم عن نطاق المشاعر العربية المعادية للعثمانيين، يجدر بالمرء ان يتذكر السجل الضعيف للصحفيين الأميركيين وغيرهم من المراقبين في التنبؤ بنتائج الانتخابات الأميركية، وان يتذكر بان الكفاءة الفنية لهؤلاء لاصدار أحكام كهذه تتجاوز كثيراً كفاءة الدبلوماسيين الأوروبيين. بايجاز، هذه المصادر مشكوك بها جداً، ولا نفع منها ما لم تقدم تفاصيل يمكن فحصها في ضوء غيرها من الأدلة.

ومن أجل تقدير قوة القومية العربية في عام ١٩١٤، لا بد للمرء من تعريف القوميين العرب. وقد فعلت ذلك في عملي بالتعرف على أعضاء الجمعيات التي كانت ناشطة قبل عام ١٩١٤ لتحقيق الأهداف القومية العربية.

ومن (١٢٦) شخصاً تم التعرف عليهم، لم يخضع للدراسة الا (٥١) منهم فقط، بسبب توافر المعلومات عن سير حياتهم. ويعتقد الخالدي بأن هذا العدد أقل من اللازم، ويستشهد: بوثيقة دبلوماسية فرنسية قالت ان ما «لا يقل» عن أربعين ضابطاً عربياً في القسطنطينية كانوا يخططون لاقامة دولة عربية، تمتد من مصر الى بغداد في حالة انهيار الامبراطورية، وبأن أمين سعيد أكد على ان (٣١٥) من (٤٩٠) ضابطاً عربياً في اسطنبول في عام ١٩١٤، كانوا ينتمون الى «العهد»، وبادعاء انطونيوس بان «الفتاة» كانت تضم أكثر من مائتي عضو بحلول عام ١٩١٤(٣٩). غير أن الوصف الوارد في الوثيقة الفرنسية للضباط العرب، ينطبق على الموالين منهم للعثمانين، بقدر ما ينطبق على الموالين للعروبة. ولا يمكن التحقق من البيانات الثلاثة على كل حال لخلوها من أية أسماء. ودروزة هو المصدر الوحيد الذي كان مشاركاً قيادياً في الحركة القومية العربية من قبل عام ١٩١٤، وطيلة سنوات ما بين الحربين. وقد قال عن تأكيد سعيد: «انه لا يذكر أي مصدر. لذلك، من المحتمل ان يكون العدد مبالغاً فيه. ومن الواضح، ان عدد أعضاء الحزب كان قد وصل الى عدد لا يستهان به عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى(٤٠). ولا حاجة هذه الأيام الى بحث عيوب انطونيوس كمصدر.

ولا توجد أية طريقة لمعرفة العدد الاجمالي للملتزمين بالعروبة قبل الحرب العالمية الأولى.

غير أنه من الواضح ان امكانية العثور على ناشطين معروفين في سوريا، كانت اكبر منها في لبنان أو فلسطين أو العراق. ويمكن اعطاء فكرة عن عدد الأتباع من برقيات التأييد المرسلة الى «المؤتمر العربي الأول» الذي انعقد في باريس عام ١٩١٣. وتظهر في هذه البرقيات أسماء تسعة وسبعين سورياً، كان منهم اثنا عشر أعضاء في الجمعيات(٤١). ولا ينبغي الافتراض بأن هؤلاء الأعضاء يعكسون أهمية «العروبيين» في سوريا العثمانية. فالقادة كانوا في معظمهم من الوجهاء الذين لهم عدد كبير من الأتباع. وكان هؤلاء يمثلون قوة سياسية قوية.

ويقدم الخالدي حجتين أخريين لاعطاء قوة أكبر للحركة القومية العربية قبل عام ١٩١٤. الأولى ان عدد الصحف «العروبية» كان يزيد الى حد كبير على عدد الصحف «الاتحادية». ومع انه لم تكن هناك أية دراسة وافية للصحافة، ربما تكون هذه الحجة صحيحة تماماً. لكن الصحافة مؤشر ضعيف جدا للقوة السياسية. ففي الولايات المتحدة، ومنذ عام ١٩٣٦، كان نجاح المرشحين للرئاسة والأحزاب السياسية في الانتخابات مرتبطاً ارتباطاً عكسياً الى حد كبير بتأييد الصحافة.

أما حجة الخالدي الأخرى فانها تستفيد من النشاطات العربية في البرلمان العثماني.(يراجع بحث رشيد الخالدي في كتاب اصول القومية العربية المشار اليه سابقاً، ص (٥٠).

وربما توفر مشاركة القوميين العرب في الحياة السياسية البرلمانية مقياساً لنطاق العروبة في فترة ما قبل الحرب. وقد طرق الخالدي مجالاً جديداً ببحث مبتكر في الانتخابات البرلمانية، وهو يستنتج بأن أغلبية من نواب الأقاليم السورية (وتشمل سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن في عهد الانتداب) كانوا عرباً.

وكان أحدث تصريح له هو ان ثمانية عشر من واحد وعشرين نائباً من الأقاليم السورية كانوا أعضاء في المعارضة،انضموا الى (Entente Liberale) (حزب الحرب والائتلاف)، عشية انتخابات عام ١٩١٢. لقد اكتسحت المعارضة الحملة الانتخابية ، لكن جمعية الاتحاد والترقي قمعتها، وأجبرت بعض (Ententists) الائتلافيين على الانضمام الى «الاتحاديين» في الانتخابات ، وأدارت الانتخابات بالاكراه. وكانت النتيجة ان ستة فقط من اثنين وعشرين عربياً كانوا قد انتخبوا في عام ١٩٠٨، قد عادوا الى البرلمان في عام ١٩١٢. ان ما يعنيه ذلك، هو ان «العروبيين» في الانتخابات الحرة قبل عام ١٩١٢، فازوا باثنين وعشرين مقعدًا، وانهم كانو ا سيفوزون بمعظم هذه المقاعد في عام ١٩١٢، لو كانت الانتخابات حرة، أو لو كان لديهم الاستعداد للتعاون مع جمعية الاتحاد والترقي(٤٢).

وهناك عدد من المشاكل . فالمصادر الوحيدة المذكورة لعدد المعارضين، هي الصحف العربية المعاصرة المعادية لجمعية الاتحاد والترقي. لكن الأسماء الواردة فيها قليلة جدا. وفي بحث الخالدي، تم إحصاء المعارضين والـ(Ententists) الائتلافيين ضمناً باعتبارهم «عروبيين». وذلك ليس صحيحاً بالضرورة ، بل من المعروف أنه خاطئ في بعض الحالات . ولم ترد في البحث تفاصيل محددة إلا لبضعة أفراد فقط. كما أن البيانات الانتخابية التي يستخدمها الخالدي غير كاملة، وتحتوي على أخطاء . غير انه يمكن تصحيحها جزئيًا بدراسة أحمد وروستاو (Rustows) عن برلمانات « تركيا الفتاة»(٤٣).
ومن بين النواب العرب الاثنين والعشرين الذين يوفرون الأساس لما قاله الخالدي ضمنا عن القوميين العرب الثمانية عشر الذين انتخبوا قبل عام ١٩١٢ وهزمهم الاكراه «الاتحادي» في عام ١٩١٢، توفي اثنان قبل عام ١٩١١، واستقال واحد، وواحد آخر كان تركياً أصبح فيما بعد نائباً عن الأناضول، ثم بعد وقت أطول كثيراً عضواً في الجمعية الوطنية العظمى. وبمراجعة من كانوا يشغلون مقاعد في عام ١٩١٢، وهم كما يفترض مرشحون محتملون لاعادة الانتخاب، لا يوجد أي سبب للاعتقاد بان نصراً ساحقاً كان

منتظرا للمعارضين لجمعية الاتحاد والترقي، أو للقوميين العرب. وتظل هناك قلة من الشكوك الخاصة بالأعضاء العرب في برلمان « تركيا الفتاة». غير أنه يمكن إعداد إحصاء محتمل جداً. ففي عام ١٩١٢، كان يوجد ثلاثة وعشرون نائباً، كان اثنان منهم تركيين، وواحد أرمنياً، ومن العشرين نائباً عربياً الباقين، كان ستة عرباً معروفين. وهؤلاء الستة مع قومي واحد غير عربي(هو كامل الأسعد) خاضوا انتخابات عام ١٩١٢ باعتبارهم ائتلافيين، لكن قبل الادلاء بالأصوات مباشرة انتقل أحد« العروبيين» والأسعد الى جمعية الاتحاد والترقي. وفاز المنشقان، غير ان الائتلافيين الخمسة الباقين– وجميعهم قوميون عرب– انهزموا. ومن النواب العرب العشرين في عام ١٩١٢، أعيد انتخاب خمسة بالتأكيد، وربما ستة أوسبعة(منهم الأسعد والقومي العربي المنشق). لكن استنتاج الخالدي بأن ستة فقط ممن انتخبوا قبل عام ١٩١٢ تعاونوا مع جمعية الاتحاد والترقي ليس مسوغاً. ففي انتخابات عام ١٩١٤، التي جرت عندما كان« الاتحاديون» في أقوى مركز لهم حتى ذلك الوقت، انتخب خمسة ممن كانوا نواباً في عام ١٩١٢(أعيد انتخاب واحد منهم، وربما اثنين، في عام ١٩١٢). وهكذا، فان عدد الأعضاء العرب السوريين في برلمان عام ١٩١٢، ممن اعيد انتخابهم في عام ١٩١٢، أو في عام ١٩١٤ برعاية جمعية الاتحاد والترقي كان تسعة أعضاء، ويمكن عشرة (لا ستة) ،بالمقارنة مع ستة قوميين عرب، منهم خمسة رفضوا التعاون مع « الاتحاديين». وليس معروفاً المزيد من سيرَ أعمال النواب الخمسة أو الستة الباقين. فهم لم يلعبوا أي دور هام في الحياة السياسية السورية بعد عام ١٩١٢. هناك تسعة وربما عشرة، من بين الاعضاء العرب العشرين في برلمان ١٩١٢، تعاونوا مع جمعية الاتحاد والترقي، في عام ١٩١٢ أو عام ١٩١٤. ويمكن التعرف على ستة فقط كقوميين عرب، خاض خمسة منهم حملة انتخابية ضد«الاتحاديين». وهكذا كان القوميون العرب أقلية في آخر برلمان عثماني–عرف عنه بانه كان حراً– كانت أقلية هامة، لكنها كانت ما تزال أقلية.

ومن الواضح ان وضع الأقلية للقوميين العرب السوريين في البرلمان، تطابق مع وضعهم في أوساط الوجهاء السوريين ككل. ولا تتوفر أدلة مباشرة. غير ان الأدلة غير المباشرة قدمها المشاركون في الحكومة والحركة القومية العربية في سوريا في الفترة من ١٩–١٩٢٠، عندما أعلن المؤتمر السوري العام (المنتخب طبقاً لقانون الانتخابات العثماني)، ومجلس وزراء سوري، بان الشعب السوري كان جزءاً من الأمة العربية وعندما سيطرت الجمعيات التي كانت تتبنى العروبة على الحياة السياسية. غير أن هذه النشاطات القومية العربية، في فترة ما بعد الحرب، سيطر عليها قادمون جدد إلى القومية العربية . ومن أعضاء هذه الهيئات القومية العربية، لم يكن ٨٢ في المائة قوميين عرباً قبل عام ١٩١٨، ولم يكن ٨٥ في المائة منهم كذلك قبل عام ١٩١٤. وبما ان « العروبيين» في فترة ما قبل الحرب كانوا أقلية في عام ١٩–١٩٢٠، فانه لم يكن من المرجح أن يكونوا

أغلبية قبل عام ١٩١٤. لقد قام بالثورة الوطنية العربية في سوريا قادمون متأخرون الى العروبة. وتوجد أسس للاعتقاد بأن القوميين العرب، بعد عام ١٩١٨، كانوا من الموالين للعثمانيين قبل عام ١٩١٤، أو عام ١٩١٨. وكان قوميو ما، بعد ١٩١٨،اكثر نجاحاً من«العروبيين» ما قبل عام ١٩١٤ في شغل مناصب في الدولة (٣٥ في المائة بالمقارنة مع ١٦ في المائة على التوالي). وحصل الآباء على العلاقة عينها (٧٣ في المائة بالمقارنة مع ١٢ في المائة). وتوجد بعض الأدلة منذ مدة طويلة على أن القوميين بعد عام ١٩١٨، قد عارضوا «العروبيين» قبل الحرب، أو أنهم خدموا الحكم العثماني حتى الحرب، أو حتى عام ١٩١٨(٤٤). وبعد ذلك، تؤيد الأدلة التي توفرت كلتا الفرضيتين (٤٥).

وكانت الحكومة العربية في سوريا قبل الحرب حركة معارضة بين الوجهاء، وظلت حركة أقلية حتى انتهاء الحرب، عندما تحولت الأغلبية، التي كانت عثمانية حتى ذلك الوقت، إلى العروبة.

وظلت القومية العربية حركة معارضة للأقلية حتى انتهاء الحرب العالمية الأولى. وظلت أغلبية الوجهاء العرب موالية للعثمانيين. وبالرغم من ذلك ، قام القوميون العرب بحملة هامة ضد « الاتحاديين»، وربما تكون فترة « تركيا الفتاة» قد وفرت للقوميين العرب فرصة أكبر من الفرصة التي وفرها حكم عبد الحميد. فقد كانت العروبة حركة ظاهرة قبل ثورة « تركيا الفتاة»، لكن يبدو فعلاً انه كانت هناك زيادة نسبية فيها بعد عام ١٩٠٨. ويبدو من المحتمل أن يكون استرداد البرلمان، وانتشار النشاط الحزبي الذي أعقب ذلك، وتوسع الصحافة ، قد سهل الحوار السياسي، ووفر فرصة لكي يكسب« العروبيون» أعضاء، كما اقترح الخالدي، مع أن التغييرات بدأت في « التنظيمات ». ومن المصادر المعقولة الأخرى لنمو العروبة حدوث زيادة في أعداد الموظفين المدنيين والضباط العسكريين والمدرسين والصحفيين كما يقترح الخالدي(٤٧)، وان كررنا الاستدراك بأن العملية بدأت بعد نصف قرن قبل ذلك. وبالنسبة للوقت الحاضر، لا يوجد اي دليل قاطع على كيفية انقسام هذه العناصر الجديدة المفترضة الى عثمانيين وعروبيين، أو على أصولهم الاجتماعية، وان يكون هؤلاء قد دخلوا الحياة السياسية خلف وجهاء معروفين، وهم أنفسهم من أصول ليست وجيهة، هو التفسير الأرجح لبعض الأدلة الصعبة(٤٨).

أما التغيرات التي اقترحها حوراني كعوامل سببية في تطور القومية العربية، فانها غامضة أو ذات طبيعة عامة، بحيث لا يمكن فهم صلتها بهذا التطور على الفور(٤٩).

لقد هاجم القوميون العرب حكومة« تركيا الفتاة» باتهامات محددة. وكان أحد هذه الاتهامات أن « الأتراك الفتيان» أيّدوا الصهيونية .

وكان الاتهام الآخر هو ان « الأتراك الفتيان» كانوا قوميين أتراكاً، بدأوا سياسة لـ « التتريك» . واقترح بان هذين التغييرين نجما عن تطورات أو تغيرات سياسية جديدة مميزة لتلك الفترة، حركت نمو القومية العربية (راجع بحث رشيد الخالدي في هذا الموضوع في المقالة المشار اليها سابقاً).

وتحول النشاط الصهيوني المرئي بصورة متزايدة في فلسطين الى قضية سياسية في عهد« تركيا الفتاة». وواصل القوميون العرب بلا انقطاع هجومهم على جمعية الاتحاد والترقي، بتوجيه الاتهامات لها بأنها كانت تؤيد الصهيونية. وفي الحقيقة، لم يكن قلق القوميين العرب يختلف عن قلق الاتحاديين. وكان مركز التحريض ضد الصهيونية هو فلسطين. فهنا كان النواب والصحفيون وجمعية الاتحاد والترقي والمعارضة، يعارضون الصهيونية (٥٠). وفي خارج فلسطين، ميّز القوميون العرب أنفسهم بالاشارة الى الخطر الصهيوني.

وفي البرلمان ، انضم النواب العروبيون من دمشق وبيروت الى النواب الفلسطينيين(وكانوا اتحاديين)، لكن نواباً سوريين آخرين لم يقوموا بأي دور فعال(٥١). وبطريقة مماثلة، كانت جميع الصحف في فلسطين توجه الانظار باستمرار الى الخطر الصهيوني، لكن في خارج فلسطين كانت معظم الصحف القومية العربية تطرح القضية مقرونة بهجمات على الحكومة، بينما تجاهلت المسألة معظم الصحف المؤيدة لجمعية الاتحاد والترقي(٥٢). وفي الحقيقة أن مواقف وسياسات الاتحاديين تجاه الصهيونية كانت مثل مواقف وسياسات الائتلافيين والقوميين العرب. فقد رحبوا جميعاً بالمهاجرين اليهود (بشرط ان يجلبوا معهم المال والخبرات، وأن يستقروا موزعين في أرجاء الامبراطورية، وان يصبحوا مواطنين عثمانيين)، ودخلوا جميعاً في مفاوضات متطابقة عمليا مع الصهاينة(٥٣). ووقع في الشرك الاتحاديون ، الذين كانوا في الحكم معظم الفترة. وأحبطت القوى الأوروبية محاولاتهم للحد من النشاطات الصهيونية(٥٤). وفيما يتعلق بالصهيونية، لم يكن الاتحاديون مذنبين بالاتهامات الموجهة اليهم من القوميين العرب، ومن الواضح ان تأثير هذه القضية كان قليلاً جداً على الاعضاء العرب في البرلمان.

واتهمت التقارير الدبلوماسية الاوروبية المعاصرة والقوميون العرب جمعية الاتحاد والترقي بالقومية التركيةوبـ« التتريك» ، واتهموها بخاصة بتطبيق قوانين تفرض استعمال اللغة التركية في ادارة المحاكم وفي المدارس. واعتبرت الاتهامات صحيحة على نطاق واسع، واعتبرت القومية العربية بشكل متكرر كثيراً رد فعل على هذه التجديدات لـ تركيا

الفتاة». وبالرغم من ذلك، فان هذا التفسير مشكوك فيه. ففي المقام الاول، لم تكن الأيديولوجية القومية العربية ،المشتملة على عداء حاد للقومية التركية، قد صيغت صياغة كاملة قبل ثورة « تركيا الفتاة»، وفي المقام الثاني، لم يكن « الفتيان الاتراك»، طبقاً للمعلومات المتوفرة حالياً، مذنبين بالتهم التي وجهت اليهم .

وبينما كان للقومية التركية دعاتها قبل عام ١٩٠٨، فان هؤلاء الدعاة كانوا أقلية تماماً، وكانت أيديولوجيا جمعية الاتحاد والترقي قبل عام ١٩٠٨ عثمانية، دون اي تحيز تركي(٥٥) (راجع مقالة هانيوغلو في الكتاب المشار اليه سابقاً ص ٣١) واستمر الاتحاديون عثمانيين من الناحية الأيديولوجية لفترة لا بأس بها بعد عام ١٩٠٨، بينما كان القوميون العربيون يصبحون صريحين بشكل متزايد. ان المنظر الاتحادي الأكثر أهمية، ضياء غوكالب، لم يتحول الى داعية نشيط للقومية التركية حتى عام ١٩١٣، أو نحو ذلك. وظل مؤمناً بالعثمانية ، حتى أواخر الحرب العالمية الأولى (٥٦). وزاد القوميون الأتراك اتباعهم ابتداء من عام ١١-١٩١٢، لكن لا يوجد أي سبب للاعتقاد بانهم سيطروا على عقول الأغلبية. وقد واجهت القومية التركية معارضة قوية من «الغربيين» و «الاسلاميين» ، وظل هؤلاء معاً عثمانيين. لقد عرّف «الاسلاميون الأتراك»، حقاً الكثير من معين دعاة الحداثة المصريين (بما في ذلك تمجيدهم للعرب).

وكان أحدهم ، سعيد حليم ابن الأسرة الخديوية المصرية، وزيراً كبيراً في الفترة من عام ١٩١٣ الى عام ١٩١٦. وخلال وزارته، نشر مقالات تهاجم العرقية والقومية باعتبارهما من أسباب الانحطاط الاسلامي، وأشار الى المغول- وضمنا إلى الأتراك- باعتبارهم الوغد الرئيسي بين القوميات الذي أفسد الاسلام النقي للسلف. وكان يعني، طبعاً، العرب. وكتب مثقف تركي بارز، هو أحمد نعيم، ممجداً «جنس العرب، الذي تعتبر محبته واجبا على كل مسلم» وفي رأيه، « يجب امتداح الجنس العربي من كل شخص، فوق أي جنس، حتى فوق جنسنا نفسه، بسبب حماسه الاسلامي، وبسبب صلته العرقية بمحمد، وبسبب لغته التي هي لغة القرآن، ومن أجل امتناننا لهم لانهم جاءوا بالاسلام»(٥٧). ومن المحتمل جداً أن الجدل بين« الاسلاميين» و« الغربيين» ، وبين «العثمانيين» و« العرب» و« الاتراك »لم يشغل إلا أقلية فقط من مجموع السكان.

وقد سيطرت هذه التطورات على اهتمام المراقبين والطلاب الى حد كبير، بحيث لم يتم الا ايلاء القليل من الاهتمام بكتابات« العلماء» الذين لم يكونوا هم أنفسهم من الناشطين سياسياً. وأوضح فرتيز ستيبات بان بعض كبار « العلماء» في سوريا ومصر ظلوا غير متأثرين نسبياً بالتيارات الجديدة (٥٨). وظلوا، وربما ظلت معهم أغلبية من السكان،

يقيسون شرعية الدولة العثمانية على أسس اسلامية تقليدية، كما كان حال أمير مكة، الحسين بن علي بن عون، قائد الثورة العربية في المستقبل(٥٩). وخلال الحرب، وكما بيّن كليفلاند، كانت الشرعية والتضامن الاسلامي التقليدي، هما الأساس للنداءات الموجهة الى الجماهير العربية للحصول على تأييدها من الحسين والحكومة الاتحادية على حد سواء(٦٠). قال طالب مشتاق، وهو سياسي – بيروقراطي عربي عراقي بدأ عمله الطويل في أيام العثمانيين: «هل كنا حقاً خاضعين للامبريالية عندما كان العراق تحت الحكم العثماني؟ أبداً: لقد كنا أمة واحدة، نعيش تحت علم واحد. وربطتنا رابطة الدين بأوثق الروابط، ووحد الاسلام قلوبنا ومشاعرنا، وجعلنا كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضاً»(٦١).

وتبدو شهرة جمعية الاتحاد والترقي كجماعة «مُترّكين» شهرة لا تستحقها. وعلى أساس الأدلة المتوفرة حالياً، لم تتميز فترة «تركيا الفتاة» بأي تغيرات في لغة الادارة أو المحاكم أو التعليم. فقد كانت التركية دائما هي اللغة الرسمية ولغة الادارة. ونص دستور عام ١٨٧٦ بوضوح على ذلك، وجعل معرفة اللغة التركية شرطاً لشغل المناصب العامة ولعضوية البرلمان(٦٢). وحدد قانون صدر في عام ١٨٨٨ درجة اتقان اللغة التركية اللازمة للمناصب المختلفة(٦٣). وطبقا ليوسف الحكيم، وهو مسؤول عربي سوري، خدم قبل ثورة «تركيا الفتاة» وبعدها، فان: «اللغة العثمانية كانت هي اللغة المعتمدة لجميع الأعمال في جميع دوائر الحكومة»(٦٤). ويفترض أيضاً بأن التركية كانت هي لغة المحاكم «النظامية» قبل عام ١٩٠٨. وكانت المادة ١٨٢٥ من المجلة* هي النص الوحيد في القانون، الذي اشترط وجود مترجم فوري موثوق لترجمة ما يقوله أي شخص لم يكن يعرف اللغة التي تستعملها المحكمة(٦٥).

وطبقاً لهايدبورن (Heldborm)، جرت العادة على استعمال التركية في المحاكم، بوجود المترجمين اللازمين، لكن في الأقاليم العربية كانت اللغة العربية مصرحاً بها(٦٦). وطبقا ليوسف الحكيم، كانت العربية هي اللغة الدارجة في اجراءات المحاكم في الأقاليم العربية، لكن وجود المترجم كان ضرورياً لأن القضاة في الغالب لم يعرفوا العربية جيداً، كما كانت المعاملات مع المحاكم العليا تجري باللغة التركية(٦٧).

وخضع التعليم لقانون صدر في عام ١٨٦٩، ووضع جميع المدارس تحت إشراف الحكومة. وأعاد الدستور التأكيد على هذا القانون. ويعني ذلك ضمناً أن القانون اشترط أن يكون التعليم في مدارس الدولة باللغة التركية، باستثناء المدارس الابتدائية الأدنى لغير المسلمين، حيث كان لا بد للتعليم أن يكون باللغة المحلية. وفي المدارس الابتدائية العليا،

والثانوية، والمدارس المتقدمة، حيث كانت التركية هي الموضوع الرئيسي للدراسة- ويعني ذلك ضمنا كونها لغة التعليم الوحيدة- كان يجب أيضا تعليم العربية والفارسية و(في مدارس غير المسلمين) اللغة المحلية.

ولم يتم انشاء اي مدارس دولة لغير المسلمين. ولذلك كانت التركية بالنتيجة هي لغة التعليم في جميع مدارس الدولة (٦٨). وتوضح الأدلة المتوفرة أن التركية في الأقاليم العربية كانت لغة التعليم الرئيسية في جميع مدارس الدولة. ويقول يوسف الحكيم ان المدارس الابتدائية الدنيا والعليا علمت العربية والتركية « دون وصولهما الى مرحلة كبيرة» ، وان جميع التعليم في المدارس الثانوية الدنيا كان باللغة التركية (٦٩).

ومن الواضح أن المدارس غير الحكومية قد أعفيت من تطبيق قانون التعليم. وظل الدستور حتى صدر مرسوم في عام ١٨٩٤، يفرض عليها التعليم بالتركية، غير ان الالتزام بهذا المرسوم لم يكن عاما بشكل واضح(٧٠).

ولم يُجر الأتراك الفتيان أية تغييرات راديكالية فيما يتعلق بلغة الادارة أو التعليم أو القضاء. إن برامج جمعية الاتحاد والترقي، التي أقرت بقرارات حزبية على مراحل من عام ١٩٠٨ الى عام ١٩١٣، أعادت ببساطة التأكيد على القانون المعمول به. فقد أعلنت التركية لغة للدولة ولجميع المراسلات والعرائض. وكان على المدارس الخاصة ان تخضع لاشراف الدولة. وأصبح لزاما تعليم التركية في جميع المدارس، بما في ذلك الابتدائية. وكانت التركية هي لغة التعليم المطلوبة في المدارس بعد مستوى الابتدائية الدنيا، لكن دون التدخل في تعليم لغة أية قومية ومعتقداتها وأدبها. وفي المدارس الابتدائية، على التعليم أن يكون باللغة المحلية (٧١). ومن الواضح أن تشريعات جمعية الاتحاد والترقي الخاصة بالمدارس لم تغير أياً من نصوص القانون المعمول به فيما يتعلق باللغة، كما لم تؤثر تشريعاتها الخاصة بالقضاء على لغة المحاكم (٧٢).

ولم يكن رد فعل القوميين العرب موجها إلى تجديدات« تركيا الفتاة»، بل إنهم كانوا يواصلون حملة ضد نظام تأسس قبل الأتراك الفتيان بفترة طويلة. والحملة التي بدأها ضد الأتراك رضا والكواكبي انضم اليها مثقفون مزجوا تمجيد الحداثة الاسلامية للعربية ببعض الأفكار الأحدث، من المفترض أنها من أصل اوروبي، التي لا يمكن طبقاً لها الفصل بين حيوية أمة ولغتها، وبرز بين هؤلاء الكاتب الدمشقي محمد كرد علي. ومنذ المجلد الأول لمجلته الشهرية « المقتبس»، خصص الجزء الأكبر من المسؤولية عن الانحطاط العربي والاسلامي الى التتار- الأتراك، وبخاصة العثمانيين. وكانت الخطيئة الأعظم لهؤلاء هي فرض اللغة البربرية لشعب غير متحضر على العرب(٧٣).وكان كرد علي غاضبا من مواطنيه العرب في سوريا، بقدر ما كان غاضبا من الأتراك. وقد اتهمهم بمرارة

بتفضيل مدارس الدولة واللغة التركية على المدارس الوطنية العربية واللغة العربية من أجل الحصول على المراكز الحكومية أو لأغراض التجارة(٧٤). ووجه اتهامات مماثلة لمن التحقوا بمدارس تبشيرية أجنبية، أو لمن فضلوا لغة أوروبية على العربية من أجل تحقيق مكسب مادي(٧٥). وربما كان كرد علي أكثر انتقادا للمدارس التبشيرية منه للمدارس العثمانية (٧٦). وكان هجومه على المدارس العثمانية هجوماً على مواطنيه العرب، بقدر ما كان هجوماً على الحكام الأتراك.

لقد كانت الايديولوجيا القومية العربية، مثل سابقاتها في القرن التاسع عشر، رديفاً للتنافس السياسي بين العناصر المتميزة في المجتمع العربي. ومن الطهطاوي إلى كرد علي، أضفت التصريحات المتعاقبة عن الفكرة الذاتية عن النفس الشرعية على ادعاءات أحزاب محددة من أجل الاحتفاظ بالسلطة، أو من أجل الحصول عليها، ودحضت ادعاءات المنافسين. وربما يكون التصدع الاجتماعي اوالسياسي في المجتمعات كافة، ومنها المجتمع العربي، مقدمة وسبباً للتناقض الايديولوجي. ويوجد وقع فوري محتمل لما قاله شاعر عربي من القرن الرابع عشر: «إن نصف الناس اعداء لمن ولي الاحكام هذا إن عدلْ»، مما اعتبر اقتباسا مناسبا اقتبسه رجل دولة عربي بدأ عمله الطويل في عهد عبد الحميد الثاني(٧٧). وفي المجتمع العربي، كما في مجتمعات كثيرة، يستطيع المرء ان يشير الى تغيرات انتهازية في الايديولوجيا، والى صراعات بين قبيلة أوفئة تبدو ممتدة عبر الاجيال، باعتبارها الثوابت الوحيدة في سيل من المتغيرات الايديولوجية. لكن يجوز أيضاً أن ينشأ الانشقاق والمعارضة عن عجز إنساني عن الاتفاق على ما هو عدل أو خير.

وفي البحث عن مكانة، وما يتبعها من مكاسب، كان المثقفون والسياسيون يتطوعون أيضاً لتحمل المسؤولية عن مشاكل مجتمعهم وحكومتهم. وقد سيطرت عليهم جميعا مشكلة واحدة. فمن ألم الطهطاوي لرؤيته الفرنجة يمتلكون القيم التي كانت مفقودة في بلاد الاسلام، الى ادراك كرد علي لـ «الدونية» و«الأفكار المريضة» لشعبه بالمقارنة مع الغربيين(٧٨)، كانت تجربة الغرب سبباً للعذاب. وخف الألم الناجم عن ذلك، وانغرس الأمل في المستقبل باستذكار المجد الغابر للذات بالمقارنة مع ذلها الحاضر، واستذكار الدونية الماضية لـ«الغير» الخطر الآن. لقد كانت العودة الى « الذات» الحقيقية في الماضي المجيد، هي العلاج لهذا المرض. وهذا ما بدأت تفعله الحكومات اللاحقة، غير أن كلاً منها بدورها لم تنجح في إزالة الحرمان المحسوس لـ الذات»، بالمقارنة مع « الضد» الخطر، وبالتالي فانها لم تقضِ على الفرصة للمعارضة والانشقاق.

وظلت المشكلة الغربية هي محور العمل السياسي، ومشكلة لا يمكن حلها كانت تتطلب الحل. وربما كان عجز الحكومات المتعاقبة في وجه خطر محسوس عالمياً، هو السبب الذي دفع البعض الى المعارضة والانشقاق، ويمكن بالتأكيد أن يكون قد أعطى الشرعية للمعارضة والانشقاق، أياً كان السبب فيهما.

إن حكومة جمعية الاتحاد والترقي، مثل الحكومات التي سبقتها، لم تستطع تحقيق مسوغ أساسي من مسوغات أيديولوجيتها نفسها التي تتطلب إحراز تقدم واضح في صراعها مع الغرب، « الضد» المهدد للامبراطورية العثمانية. ولم يكن الأتراك الفتيان أكثر ترويجاً للصهيونية من معارضيهم، لكن جمعية الاتحاد والترقي بصفتها الحزب الحاكم لم تستطع تجنب الملامة عن الظهور المتزايد للصهيونية. ونتيجة لذلك، وكلما أمكن، تجاهل مشايعو الاتحاديين الصهيونية، بينما دفعها معارضوهم الى المقدمة. ومن الواضح ان هذه القضية لم يكن لها اى تأثير كبير خارج فلسطين، لكن في فلسطين لم يكن هناك اي مهرب من تأثيرها. وتقدم فلسطين مثالاً لتحول ظاهر في القناعات السياسية، حول قضية عامة ملموسة في مثال الصحافي نجيب نصار، وهو اتحادي وعدو أبدي للصهيونية لفترة طويلة.

فاخفاقات الحكومة فيما يتعلق بهذه القضية تمخضت عن تغير في الولاء(٧٩). والاخفاقات المماثلة لتركيا الفتاة في الحروب مع ايطاليا ودول البلقان، لم يكن في وسعها ان تزيد الثقة بالاتحاديين والعثمانية. ان التقارير الدبلوماسية المعاصرة، وروايات القوميين العرب اللاحقة، تعطي وزناً كبيراً لهذه الاخفاقات العسكرية في تحريك الانشقاق والمعارضة العربيين(٨٠).

لقد نشأت القومية العربية كحركة معارضة في الامبراطورية العثمانية. وكانت موجهة ضد العرب العثمانيين، بقدر ما كانت موجهة ضد الأتراك العثمانيين أنفسهم. وكان الصراع يدور بين عناصر النخبة العربية العثمانية التي تنافست على المناصب، صراع من النوع الذي نجده في كل المجتمعات. وهو على الأرجح نقطة البداية للعمل السياسي في كل مكان. وكما في كل مجتمع من المجتمعات، عرض المتنافسون أنفسهم باعتبارهم الأفضل تأهيلاً لتحقيق المثل العليا للمجتمع، ولدرء المخاطر التي كانت تهدده. وطوال القرن التاسع عشر، اضطر المتنافسون على المناصب للتعامل مع الدونية المحسوسة للاسلام، أو للشرق بالمقارنة مع الغرب. ولم تحقق المحاولات المتنوعة لمواجهة هذه المشكلة أية نتيجة مرضية.

لقد نشأت القومية العربية من فشل سابقتها مباشرة وحاضنتها الأيديولوجية، العثمانية الاسلامية الداعية للحداثة. وأحرزت الحركة تقدماً قبل عام ١٩١٤، لكنها ظلت حركة أقلية حتى عام ١٩١٨، عندما لم تترك الثورة العربية، والاتفاق البريطاني مع الامير حسين، والهزيمة البريطانية للعثمانيين، أمام الجناح المسيطر من الوجهاء العرب السوريين والعراقيين أي بديل للعروبة.

الهوامش

٠١ البرت حوراني : الفكر العربي،ص ٩٥ (اقتباس).

وهشام شرابي : المثقفون العرب،ص٢-٣و٨و٥٩و ٦٠.

٠٢ شرابي : المثقفون العرب، ص ٢-٣,١١٥,١٢٨.

وبسام طيبي : القومية العربية ،ص ٦٩-٧٠و ٧١.

٠٣ شرابي : المثقفون العرب،ص ٥٤-٥٦.

وطيبي: القومية العربية،ص٥٤-٧٥،كلام حوراني، مع أنه يؤكد تعاطف المسيحيين مع الغرب ، فانه لا يعطي لهم ولمدارس الارساليات النفوذ عينه(حوراني، الفكر العربي ، ص٩٥-٩٧,٢٤٥).

٠٤ المقتبس ١(١٣٢٤-١٩٠٦):٤٣٢-٤٣٣,٢(١٣٢٥-١٩٠٧):٦٢٠-٢١،و٣(١٣٢٧-١٩٠٩): ١٠٩-٢٢٨,٣-٥٠٣-٥٠٨,١١-٥١٣,٦(١٣٢٩-١٩١١):٥٢,٧(١٣٣٠-١٩١٢):٣٠-٣٣، ٥٤-٥٦,١٦٢-١٦٤). وأنيس زكريا النصولي: أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر (بيروت، مطابع طبارة ١٣٤٥-١٩٢٦)، مراجعة ،كتبها محمد كرد علي ، مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق، العدد٦ (١٩٢٦): ٣٨١-٣٨٢.

٠٥ يراجع أيضاً: محمد عزت دروزة :دروس التاريخ العربي من أقدم الأزمنة الى الآن، ص٢٩٩.

ودرويش المقدادي: تاريخ الأمة العربية ، ط/٢(بغداد ١٣٥٠-١٩٣١)،ص٣٣٧,٤٩٤-٤٩٥.

٠٦ ابراهيم ابو لغد ، إعادة اكتشاف العرب Arab Rediscovery ،ص٢٨-٦٥.

وعبد اللطيف الطيباوي: تاريخ سورية الحديث، ص١٤٠-١٤٧,١٩٤-١٩٥.

٠٧ سي ارنست دون:من العثمانية الى العروبة(From Ottomanism to Arabism) ،ص١٥٩-١٦٣و١٧٧.

٠٨ البرت حوراني: ظهور الشرق الاوسط الحديث ، ص ٢٠٤.

٠٩ دون: المرجع السابق،ص١٢٢-١٢٨. وأبو لغد: المرجع السابق،ص٧٧-٧٨.٨٨-٩٦,١٠٨-١٠٩,١١٥-١٢٠,١٢٥-١٢٦,١٣٠-١٣١,١٣٧-١٤٠

١٤٤،١-١٤٥،١٥٣،١. وحوراني : الفكر العربي، ص ٦٨-٨٣. وخلدون ساطع الحصري: ثلاثة مصلحين ، ص ١١- ٣١.

١٠- نيازي بركس: تطور العلمانية في تركية ،ص ١٣٠.

وبرنارد لويس: ظهور تركية الحديثة،ص ٣٢٤-٣٢٦.

٠١١ لهذه الفقرة والتي تليها ، يراجع :

دون : من العثمانية الى العروبة ، ص ١٢٤-١٢٧، والاقتباس من الطهطاوي ، من كتاب : تخليص الابريز الى تلخيص باريز (القاهرة ١٣٢٣-١٩٠٥)،ص ٤.

٠١٢ دون: من العثمانية الى العروبة، ص ١٣١-١٣٢،١٣٣-١٣٦، ويضاف الى المراجع المذكورة هنا: كتاب خلدون الحصري: ثلاثة مصلحين ، ص ١٩-٢٣و٣٣-٥٣، وخير الدين التونسي، أوضح المسالك : الدراسة السياسية لسياسي مسلم من القرن التاسع عشر ،حررها وترجمها ليون كارل برون (كامبردج:١٩٦٧) ،ص ٧٣،٧٤-٧٥،٧٩،٨١-٨٣،٨٨-٨٩،٩٩-١٠٧،١١١-١١٣،١٢٠،١٣٥-١٣٦،١٣٨،١٤٧، ١٦٠-١٦١، وحوراني: الفكر العربي ، ص ٩١-٩٤.

٠١٣ دون : من العثمانية الى العروبة ،ص ١٢٩-١٣٠،١٤١-١٤٢،١٤٦، وبطرس أبو منّه: «المسيحيون بين العثمانية والقومين السورية » ص ٢٨٧-٣٠٤، وحوراني : الفكر العربي ، ص ٩٩-١٠٢،١٩٥-١٩٦،٢٠٠-٢٥٠،٢٥٢-٢٥٣-٢٥٩.

ودونالد م.ريد: اوديسة فرح انطون.

٠١٤ شرابي: المثقفون العرب ، ص ٥٨-٦٠،و٦٤-٦٥،١١٥.

وطيبي : القومية العربية ، ص ٧٦-٧٩.

٠١٥ دون: من العثمانية إلى العروبة ، ص ١٣٢-١٤٠.

٠١٦ زين زين: ظهور القومية العربية، ص ٥٩-٦٧. وطيباوي : تاريخ سورية الحديث، ص ١٦٣-١٦٧. وفرتز ستيبات: حركة بين أعيان سورية (بالألمانية) ص ٦٣١-٦٤٩. ويعقوب لاند،:« إعلان يدوي عربي ضد الاتراك ١٨٨١»،ص٢١٥-٢٢٧.

٠١٧ دون: من العثمانية الى العروبة ، ص ١٣٥-١٤٠.

٠١٨ إيلي خدوري: مذكرات سياسية عربية ، ص ١٢٥-١٢٨.(ويراجع د. رشيد الخالدي حول الألوسي والزهراوي ، رشيد الخالدي : عبد الغني العريسي وجريدة المفيد، الصحافة

والقومية العربية ، قبل ١٩١٤ ،ص٣٨–٦١ ، وسمير صيقلي :«الحياة الثقافية الدمشقية» ،ص١٢٥–١٥٣(حول محمد كرد علي والمقتبس).

١٩٠ سيلفيا حاييم(محرر) : القومية العربية، مختارات (بيركيلي: دار نشر جامعة كاليفورنيا،١٩٦٢)،ص١٠،١٥،١٦،١٨–١٩،٢١–٢٢،٢٧،٣٥،٤٩،٥٣–٦١،٧٠(الهامش)، ٧٢،١٤٨ (الهامش)٤ ، ١٥٦(اقتباسات ، ص١٦،٢١،٢٧،٣٥،٥٤). وخدوري: مذكرات سياسية عربية ، ص ١٢٥،١٣٦،١٦٥–١٦٦،١٦٨،١٧٨.

وايلي خدوري: The Chatham House Version ،ص٢٠٦،٢١٣–٢٢٠،٢٨٧–٢٩٠، ٣٠١–٣٠٣،٣٠٦،٣١٩–٣٢٠،٣٢٤،٣٣٠،٣٣٣،٣٣٨،٣٤٢،٣٦٩،٣٧٨–٣٧٩،٣٨١.

٢٠–شرابي:المثقفون العرب،ص٦٤،٧٦–٧٧،٩١،١٠٢–١٠٣،

١٠٧–الهامش ٤،١٠٨،١٠٩–١١١،١١٢–١١٨،١٢٢،١٢٣،

١٢٨،١٣١–١٣٢،١٤٤.وطيبي:القومية العربية،ص ٥٠و٦٧–٦٨،٧٠،٧١،٩٠(إقتباسات ص ٦٧،٦٨).

٢١٠ لوثروف ستيوراد: حاضر العالم الاسلامي (محرر) شكيب أرسلان، ترجمة عجاج نويهض، مجلدان القاهرة ،مطبعة عيسى البابي الحلبي ،١٣٤٣–١٩٢٥)، الطبعة الثانية اربعة مجلدات (١٣٥٢–١٩٣٣). ويمكن متابعة اعمال كرد علي في مجلة المقتبس الشهرية ١–٨ (١٣٢٤–١٩٠٦–١٣٣٤،١٩١٦) ومجلة المجمع العلمي العربي في دمشق ،١–(١٩٢١)والاعداد التالية . ومحيي الدين الخطيب: «اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب» (القاهرة ،(١٣٤٤–١٩٢٥). وجيمس هنري برستد: « العصور القديمة، وهو تمهيد لدرس التاريخ القديم وعمل الانسان الأول» ترجمة داود قربان (بيروت ١٩٢٦، الطبعة الثانية ١٩٣٠).

٢٢٠ عمر صالح البرغوثي وخليل طوطح : تاريخ فلسطين (القدس ١٩٢٣).لقد كتب الكتاب لمدارس فلسطين، ولكنه ، وطبقاً لعبد اللطيف الطيباوي ، منع بالحاح من هربرت صموئيل.ورغم ذلك ،فان نظام التعليم في فلسطين ، كما وصفه طيباوي وهمفري بومان، كان يسمح للمسؤولين والاساتذة العرب الذين كانوا قوميين بلا استثناء في انتاج كتب التاريخ واعتمادها. وعبد اللطيف الطيباوي: التعليم العربي في فلسطين الخاضعة للانتداب(لندن ١٩٥٦) ص ٢٨–٢٨،٩٥–٩٧،١٩٢–١٩٩. وهمفري بومان: نافذة الشرق الأوسط (لندن ، نيويورك، تورنتو ١٩٤٢)،ص٣١٠–٣١٤، ويراجع خدوري: نص شاتام هوس، ص ٢٤١، حول قومي عربي متحمس له سيرة طويلة ناجحة في التربية.

٢٣ - محمد عزت دروزة: مختصر تاريخ العرب والاسلام، مجلدان (القاهرة ١٩٢٤) الطبعة الثانية (١٣٤٣هـ ١٩٢٤م، ١٣٤٤-١٩٢٥) الطبعة الثالثة. كان هذا كتاباً مدرسياً ابتدائياً، واستبدل بكتاب المؤلف: دروس التاريخ العربي من اقدم الازمان الى الآن. وتابع دروزه بكتب مدرسية ابتدائية: دروس التاريخ القديم، والقاهرة ١٣٥٠-١٩٣١، الطبعة الثانية (القدس ١٣٥٥-١٩٣٦). ان كتب دروزه المورسية، بالنظر الى المراجعات المستحسنة لها، وعددها وعدد طبعاتها، وعلاقة مؤلفيها البارزة مع السياسيين الفلسطينيين والسوريين والعراقيين الكبار، خلال فترة ما بين الحربين، فانه من المحتمل جداً ان تكون قد استخدمت استخداما واسعا في فلسطين وسورية. وحسب رأي ريفا سيمون، فان بعض هذه الكتب استخدمت للمساعدة في التدريس في المدارس العراقية (مجلة المجمع العلمي العربي دمشق عدد ٤(١٩٢٤)٤٢٨-٤٢٩ وعدد ١١(١٩٣١): ٧٠٤، ريفا، س سيمون: تدريس التاريخ في العراق، قبل انقلاب رشيد عالي الكيلاني ١٩٤١، العدد ٢٢ من مجلة «دراسات الشرق الاوسط. (Middle Eastern Studies) سنة ١٩٨٦ : ٤٢.

٢٤ - درويش المقدادي: تاريخ الامة العربية (بغداد ١٣٥٠-١٩٣١) الطبعة الثانية)، و(١٣٥١-١٩٣٢) الطبعة الثالثة و(١٣٥٣-١٩٣٤)، الطبعة الرابعة (بغداد ١٣٥٥-١٩٣٦) وطبعة منقحة (بغداد ١٩٣٩). ولم يكن ممكنا الوصول الى الطبعة الرابعة. ولكن د. ريفا سيمون زودتني بالمعلومات عنها. وقد تم تبني كتاب المقدادي رسمياً في مدارس العراق المتوسطة. وتكمن أهمية هذا الكتاب في ان اثنين من المؤرخين والمربين العرب البارزين قد شهدا له، وكانا تلميذين، من خلال تلك المرحلة، هما: نبيه امين فارس، ونقولا زيادة. وبالنسبة للاول، فان كتاب المقدادي: «اختير على انه المرجع في تدريس التاريخ في المدارس الثانويةُ في فلسطين، وسورية والعراق، حيث استمر في كونه المرجع المقرر للشباب العرب لأجيال عدة من الطلاب». وفي رأي الثاني لقد كان الكتاب: «كتاب التاريخ الاول الذي تعامل مع التاريخ العربي على أسس قومية». نبيه أمين فارس: «العرب وتاريخهم» صحيفة الشرق الاوسط (Middle East Journal)، العدد ٨(١٩٥٤) ١٥٦-١٥٧، ونقولا زيادة: الأدبيات العربية الاخيرة عن القومية العربية» العدد السادس من (Middle East Journal)(١٩٥٢)، ٤٧١.

٢٥ - ولاستخدام سياسي عراقي لهذه الافكار، يراجع: خيري العمري: يونس السبعاوي، سيرة سياسي اسلامي (بغداد ١٩٧٨)، وخلدون ساطع الحصري: «الافكار السياسية ليونس السبعاوي» في كتاب اشرف على تحريره مروان البحيري: حياة المثقفين ١٦٥-١٧٥. وقد قام اسرائيل جيرشوني: (ISRAEL GERSHONI) بأكثر المعالجات شمولاً للفكر المصري المبكر حول الجامعة العربية (Pan Arab)، يراجع كتابه: «تعريب الاسلام» ص ٢٢-٥٧. و«ظهور الجامعة القومية في مصر» ص ٥٩-٩٤، و«ظهور الرابطة العربية في مصر. «ويحتوي كتاب تشارلز د.سميث «الاسلام والبحث عن نظام اجتماعي في مصر»

مواد مهمة و: «سيرة محمد حسين هيكل» (الباني ALBANY ١٩٨٣)، وكتاب ريتشارد ميتشيل: جمعية الاخوان المسلمين، كراسات شرق أوسطية، رقم ٩(لندن ١٩٦٩)، وجيمس جانكوسيكي: ثوار مصر الفتيان: «مصر الفتاة» ١٩٣٣-١٩٥٢(ستانفورد كاليفورنيا ١٩٧٥).

٢٦. وبشأن الدراسة العميقة والمنهجية للإيديولوجيا البعثية والناصرية، يراجع: إوليفير كاري (O.Carre)، «موقف الشريعة الإسلامية للاشتراكيين العرب «تحليل مفاهيم موحد للكتب المدرسية المصرية والسورية والعراقية» (باريس ١٩٧٩) ويراجع ايضاً للمؤلف المذكور: التعاليم الاسلامية والمثل الاشتراكية: تحليل مفهومي لكتب التعليم الاسلامي في مصر (بيروت ١٩٧٤). والاسلام السياسي في الشرق العربي مستقبلية(Futuribles)، عدد ١٨ (تشرين الثاني - كانون الاول ١٩٧٨): ٤٤٧-٧٦٣.

٢٧. شرابي: المثقفون العرب، ص ١١٨-١١٩.

٢٨. خدوري: مذكرات عربية سياسية، ص ١١-١٢١.

٢٩. مجلة المجمع العلمي العربي، العدد ٥(١٩٢٥): ١٥١-١٥٢، العدد ٨(١٩٢٨)،٤٤٢-٤٤٣.

٣٠. خدوري: (The Chatham House Version)، ص ٣٢١-٣٢٥، ٢٤٣،٣٣٩-٣٥٠.
ودون: من العثمانية الى القومية العربية، ص ١٤٢-١٤٣.

٣١. حوراني: الفكر العربي، ص ٣١٠-٣١١، وحاييم: القومية العربية، ص ١٠٩-١١٥،١٦٧-١٧١، وبشأن عفلق، يراجع خاصة دراسة نورا سالم بابكيان «اعادة بناء جزئية لفكر ميشيل عفلق: دور الاسلام في تكوين القومية العربية (Muslim World)، العدد ٦٧ (١٩٧٧): ٢٨٠-٢٩٤ وسبنسر لافان ايضاً: «اربعة قوميين عرب مسيحيين» (Muslim World) العدد ٥٩(١٩٦٧): ١١٧-١١٩.

٣٢. زين: ظهور القومية العربية، ص ٥٢و٦٨-٦٩، و٨٣، و١٠٥،١٤٩-١٥٠.

٣٣. دون: من العثمانية الى العروبة، ص ١٤٨-١٧٩.

٣٤. طيباوي: تاريخ سورية الحديث، ص١٦٧، ١٧١، ٢٠١-٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤.

٣٥. شرابي: المثقفون العرب، ص٨٨-٨٩، ١١٥، ١١٦-١١٧، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٧.

وطيبي: القومية العربية، ص٨٧-٨٩ والخالدي: السياسة البريطانية، ص ٢٠٢-٢٠٣، ٢٢٤-٢٢٥و٢٣٩-٢٤٠ و ٣٧١ -٣٧٢، والخالدي: «العوامل الاجتماعية في نهوض الحركة العربية في سورية»، ص٥٤، ٦٢، وحوراني «ظهور الشرق الاوسط

الحديث» ،ص ٢٠١-٢٠٢.

٣٦٠ زين :ظهور القومية العربية ، ص٨٣, ٨٩-٩٥, ١٠٠, ١١٢-١١٤.وطيباوي ، التاريخ المعاصر لسورية ،ص ٢٠١, ٢٠٢. وشرابي :المثقفون العرب،ص١٠٢, ١٠٧, ١٠٨, ١٢٣, ١٢٤. وطيبي : القومية العربية،ص ٨١-٨٣. والخالدي السياسة البريطانية، ص ٢١٧-٢٢١, ٢٣٥, ٢٤١, ٢٦٠, ٢٧١و٢٩٧.

٣٧٠ الخالدي: السياسة البريطانية ،ص٢٤٠, ٢٧٢,واكثر قوة في « العوامل الاجتماعية» ،ص٥٤, ٥٦, ٥٧-٦١, ٦٢.

٣٨٠ دون :من العثمانية الى العروبة ،ص١٤٨-١٥٢.

٣٩٠ الخالدي :« العوامل الاجتماعية » ،ص ٥٦-٥٧, ٥٧ هامش.٤٦و٦٩-٧٠. وهناك نص آخر للتقرير الدبلوماسي الفرنسي في الخالدي: السياسة البريطانية ،ص ٢٤٣.

٤٠ - دروزة: حول الحركة العربية الحديثة، المجلد الاول:٣٣.

٤١٠ دون: من العثمانية الى العروبة،ص١٥٤.

٤٢٠ الخالدي :« حملة انتخابات ١٩١٢»ص ٤٦١-٤٧٤، والخالدي: السياسة البريطانية ،ص٢٣٦-٢٤٢.

٤٣٠ القائمة التي يقدمها الخالدي في كتابه « السياسة البريطانية» ،بين الصفحات «٢٥٨-٢٥٩»، والمرجع الوحيد الذي يقدمه للانتماءات المظنونة للاعضاء، هي تقارير الصحف العربية(« الحملة الانتخابية سنة ١٩١٢»ص ٤٦١، هامش ٤، و٤٦٣ هامش ٨و٩). وقد استخدمت دراسة فيروز أحمد، ودانكوارت أ.روستو.

Ikinci, Mesrutiyet Doneminde Meclisle R : 1908-1918" , Guney-) (Dogu Avrupa Arastirmalar , Dergisi, 5 (1976) : 279-283.

(الحقت بمعلومات قدمها المؤلفان شخصياً).

٤٤٠ دون :من العثمانية الى العروبة.ص١٥٠-١٥١، ١٥٧-١٥٨، ١٦٧, ١٦٩, ١٧٠, ١٧٥, ١٧٦, ١٧٨(الملحق٢, ١٧٨(الملحق ٧ لـ ١٧٩ الملحق ٩).

٤٥٠ وبالنسبة للدراسات حول اثنين من المتحولين عن العثمانية ، يراجع وليام ل. كليفلاند :« تكوين قومي عربي» ، وأيضاً : « الاسلام ضد الغرب» ان التقرير الاوفى عن المشاركة العربية في السياسات العثمانية المتأخرة ، توجد في كتاب فيليب خوري ،« الأعيان المدنيون والقوميه العربية» ، الفصول ٣و٤، ويراجع ايضاً روث رودد (Ruth Roded) « الخدمة

العثمانية» ص ٨١–٩٢,٨٥,٨٢–٩٤، وروث رودد: «الاطر الاجتماعية»، ص١٥٨–١٦٩، وسي ارنست دون: «ارتباطات عثمانية»، ص ١٧٨–١٨٠.

٤٦٠ بيركيس: تطور العلمانية، ص٣٤٩ هامش٥.

٤٧٠ الخالدي: «العوامل الاجتماعية»، ص٥٢–٧٠.

٤٨٠ دون: «ارتباطات عثمانية» ص ١٧٢–١٨٧.

٤٩٠ حوراني: «ظهور الشرق الاوسط المعاصر»، ص٢٠٥–٢٠٦.

٥٠٠ نيڤيل ماندل: العرب والصهيونية، ص٧٢–٧٧، ٨٥، ١١٠–١١٢، ١٢٨–١٣٠، ١٣٨–١٣٩، ١٧٤–١٨٥، ٢١٦، ٢١٩، ٢٢٦، ٢٣٠ ويوهشوا بوراث(Yehoshua Porath): «الحركة الفلسطينية – العربية القومية». الجزء الأول ٢٥–٢٧، ٣٠.
والخالدي: السياسة البريطانية، ص٢٢٦–٢٢٨، ٢٣١، ٢٩٧–٢٩٨، ٢٥٦–٢٥٧

٥١٠ نيڤيل ماندل: العرب والصهيونية: ص٨٨–٩٠، ١٠٠–١٠١، ١١٢–١١٥.

والخالدي: السياسة البريطانية، ص٢٢٦–٢٢٨.

٥٢٠ ماندل: العرب و الصهيونية، ص١٣٠.

وبوراث: الحركة الفلسطينية العربية، الجزء الأول ٣٠.

٥٣٠ ماندل: العرب والصهيونية، ص١٠٢، ١٠٤–١٠٦، ١١٥، ١١٧، ١٤١–١٧٢، ١٨٧–٢٠٦، ٢٠٨، ٢٢٤–٢٢٥.

٥٤٠ المرجع السابق، ص١٠٤–١٠٦، ١١٥–١١٩، ١٦٧–١٦٨.

٥٥٠ بيركيس: تطور العلمانية، ص٣٠٤–٣٠٥ و٣١٧–٣١٨، ٣٢١–٣٢٢،

٣٢٨، ٣٢٩.

ولويس: ظهور تركيا الحديثة، ص٣٤٩، ومن أجل مادة حول ايديولوجية «تركيا الفتاة»، يراجع ارنست ادمونسون رامسور الصغير(Ramsaur)، ص٢٣–٢٥، ٤٠–٤٥، ٦٧–٧٠، ٨١–٨٦، ٩٠–٩٣.

٥٦٠ اوريل هيد(Uriel Heyd): أسس القومية التركية، ص٣٣–٣٤، ٧١–٧٤.

وبيركيس: تطور العلمانية، ص٣٣٢–٣٣٣، ٣٤٤، ٣٤٦، ٣٧٣

٥٧٠ وفي سبيل الحصول على حوارات مرحلة « تركية الفتاة» يراجع: بيركيس: تطور العلمانية ،ص٣٣٧–٤٢٨. وحول مدح العرب ومعارضة النزعة التركية ، يراجع: بيركيس،ص٣٤٨–٣٥٠، ٣٥٣–٣٥٥، ٣٧٣–٣٧٦. وحول بدايات تلك الحوارات ، يراجع: بيركيس: ص٢٦٣–٢٦٤، ٢٩٧–٢٩٩. ويراجع أيضاً: ديفيد كوشنر: صعود القومية التركية، وخاصة ص ٣٥–٣٧و ٦١–٨٠.

٥٨٠ فرتز ستبّات :«خليفة دار الاسلام وولاء العرب للامبراطورية العثمانية لدى الفقهاء الحنفية في القرن التاسع عشر». أعمال المؤتمر الدولي الخامس للمعنيين بقضايا العرب والاسلام (بروكسل ١٩٧٠) ،ص ٤٤٣–٤٦٢.

٥٩٠ دون :من العثمانية إلى العروبة،ص٧٥–٨٦.

٦٠٠ وليام كليفلاند:« دور الاسلام» ،ص٨٤–١٠١.

٦١٠ طالب مشتاق : أوراق أيامي ١٩٠٠–١٩٥٨،ص ١٩.

٦٢٠ المقالات ١٨و٥٧و٦٨، الترجمة الانجليزية في سونا كيلي (Suna kili) : التطورات الدستورية التركية ومناقشات المجلس حول دستور ،سنة ١٩٢٤و ١٩٦١(استانبول:مركز دراسات كلية روبرت، ١٩٧١)،ص ١٥١، ١٥٤، ١٥٥.

٦٣٠ جورج يونغ: مجلة الأحكام العدلية العثمانية ١ :٢٠–٢١.

٦٤٠ يوسف الحكيم:« ذكريات الحكيم »، الجزء الاول ٤٢.

٦٥٠ يونغ: مجلة الاحكام العدلية العثمانية ،٦: ٤٤٢.

٦٦٠ أ.هيدبورن:(A. Heidborn) الكتب المدرسية– الحقوق العامة والادارية في الامبراطورية العثمانية (فينا وليبزج C.W.Stern، ١٩٠٩)هامش ١:٢ ،٣٩٨. هامش ٥٥٤.

٦٧٠ الحكيم : ذكريات الحكيم : الجزء الاول :١١٤.

٦٨٠ يونغ: مجلة الاحكام العدلية العثمانية ، الجزء الثاني ٣٦٥–٣٧٥، والمواد ١٥و١٦ من الدستور (كيلي : التطورات الدستورية التركية ،ص ١٥١).

٦٩٠ الحكيم: ذكريات الحكيم، الجزء الاول ٩٨–٩٩، ١٠٦. وطيباوي :تاريخ سورية الحديث، ص ١٦٨–٩٩، ١٠٦. وانجن د.أكارلي: (Engen D.A karli) ،« محاولات عبد الحميد الثاني لدمج العرب في النظام العثماني » ،ص ٨٠. وعبد العزيز محمد عوض: « الادارة العثمانية في ولاية سورية »(١٨٦٤–١٩١٤). (القاهرة ١٩٦٩)،ص٢٦٢.

٧٠٠ كشنر:صعود القومية التركية ،ص ٩١–٩٥.

٠٧١ تراجع البرامج التي تبنتها المؤتمرات السنوية للاتحاد والترقي وتنفيذها (de Monde Musulan Revue)، العدد ١١(نوفمبر ١٩٠٨):٥١٥-٥١٦، ٩،٥١٦-٥١٦، العدد٩(ايلول ١٩٠٩)، ١٦٧،١٠، العدد ٢(شباط ١٩١٠)، ٢٥٠،١٥ العددان ٧-٨ (تموز -آب ١٩١١،١٤٢-١٤٣،٢٢(آذار ١٩٢٢):١٥٥-١٥٦. وطارق ز.تونايا (Tarik Z. Tu-naya: TurKye de Siyasl partiler) ص ٢٠٩، ٢١١-٢١٢،٢١٧-٢١٨،(وقد ترجم رونالد جيننجز (R. Jenninges) الاقسام ذات العلاقة من برامج الاتحاد والترقي للمؤلف). وعبد اللطيف الطيباوي: التربية الاسلامية ،ص ٦٧، ومن الواضح انه يصف مرحلة تركيا الفتاة، وهو يقول ان التركية كانت لغة التعلم، من المستوى الابتدائي الاعلى (الرشدية) صعداً.

٠٧٢ تركية (Dustur tertib I sani) احد عشر مجلداً(استانبول ١٣٢٩/ ١٩١١) ١:٦٦٥-٦٦٦،٧٩٠-٧٩١،٢:٣٢-٣٧،٧٧،٣:٣٩٥،٤٦٧-٤٦٨. ويراجع ايضاً التلخيصات العامة لسياسة تركيا الفتاة وممارستها في ستانفورد شو وايزيل كورال شو :« تاريخ الامبراطورية العثمانية وتركيا الحديثة»، ٢،٢٧٥،٢٨٢-٢٨٣،٢٨٥-٢٨٧،٣٠٠. انها المعالجة الوحيدة التي استخدمت على نطاق واسع الوثائق الشرعية والسياسية التركية .(وإنني أدين بالمراجع للقوانين التركية وبرامج الاتحاد والترقي الواردة عند تونايا والمذكورة هنا، وفي الهامش ٧١ الى هذا الكتاب). ويراجع ، بشأن التشريع التركي (١٠ تموز ١٩٠٨، الى ١ تشرين الثاني ١٩٠٩). ادريان بليوتي واحمد سداد(Adrlien Bil-lottti and Ahmed Sedad) : التشريع العثماني منذ اعادة الدستور في ٢٤ جمادى الآخر، ١٣٢٦، و١٠ تموز ١٩٠٨.(باريس :١٩١٢) المجلد الاول.

٧٣. المقتبس. ١(١٣٢٤/ ١٩٠٦): ٤٣٠،٤٩٣-٤٩٤،٤(١٣٢٧-١٩٠٩):

٣٠-٣١،١١٠-١١١،٢،٥٠٢،٦(١٣٢٩-١٩١١)،٥١-٥٢،٧(١٣٣٠-١٩١٢):٤٠٢.

٠٧٤ المقتبس:٥(١٣٢٨-١٩١٠)٤٣٢-٤٣٣،٤(١٣٢٧-١٩٠٩)٢٢٨-٢٣٩،٥(١٣٢٨-١٩١٠):-٣٠-٣١،٣٧٦.

٠٧٥ المقتبس:١(١٩٠٦)٤٣٢-٤٣٣،٤(١٣٢٧-١٩٠٩)،٢٣٧-٢٣٨،٦(١٣٢٩-١٩١١) (١٣٣٠-١٩١٢)،٣٤.

٠٧٦ المقتبس:٤(١٣٢٧-١٩٠٩)٢٢٨-٢٣٩،٥(١٣٢٨-١٩١٠)٥١٢،٥١٤-٥٢٥،٦(١٣٢٩-١٩١١)، ٧(١٣٣٠-١٩١٢) ٣١،٥٥،١٦١-١٦٨.

٠٧٧ الحكيم : ذكريات الحكيم: ١-١٣٦، وقد عُرف الشاعر بأنه ابن الوردي وبيت الشعر:

إن نصف الناس اعداء لمن ولي الاحكام هذا إن عدل «المحرر».

٠٧٨ المقتبس: ٧(١٣٣٠-١٩١٢):٣٠.

٠٧٩ ماندل: العرب والصهيونية ، ص ٨٥، ١١٠-١١٢،١٣٠،١٧٩،٢١٩.

٠٨٠ الخالدي: السياسة البريطانية ،ص ٢٢٣،٢٣٥،٢٦-٢٦٥.

الفصل الثاني

نشأة الحركة العربية وتطورها

د. ذوقان قرقوط

العرب في ظل الدولة العثمانية

تميز القرن الثالث الهجري من تاريخ الامبراطورية الاسلامية، بتسرب جموع غفيرة من الأتراك، ولا سيما الى بلاد الفرس وايران وسوريا، في عهد السلاطين الاتراك السلجوقيين. لانه في هذا القرن اسقطت اسماء العرب من دواوين الجند: « لان العرب كانت قد زايلتهم عصبتهم وافسدتهم حياة المدن المترفة، وضعفت ريحهم»، كما يقول ابن خلدون فاستعيض عنهم بالجند الاتراك. وهكذا كان على الاتراك العثمانيين من بناة الدولة العثمانية الجديدة ان ينتزعوا البلدان العربية، من ايدي المماليك الاتراك(١). على حد تعبير برنارلويس. ففيما عدا زعامات فردية، متفرقة، لم يُذكر ان العرب كانوا ناقمين وغير راضين عن عدم توليهم قيادات الحكم السياسية والعسكرية. لعل قواهم كانت قد خارت، وحيويتهم أفرغت ونضبت، فقنعوا بأن يكونوا في دولةٍ تحافظ على دينهم، الذي اصبح هو وهم سواء.

ومن هنا كان القول بان الاتراك العثمانيين يختلفون عن المماليك يحتاج الى تمحيص، لأن الأصل واحد. واذا كان المماليك خاضوا معاركهم ضد المغول باسم الإسلام، فالعثمانيون يخوضونها ضد الغرب الان باسمه، فضلا عن أن الظروف تميل الى جانب العثمانيين. فانقسام « العالم» الذي يُسميه توينبي « العالم الايراني» حسم الامر فيه لمصلحة الاتراك في معركة جولديران، واسفر عن عداء مميت باعتناق الدولة الكاجارية للمذهب الشيعي نهائياً، والدولة العثمانية للسنة. وراحت كل واحدة من الدولتين، تنصب نفسها حامية لرعاياها من المذهبين، وتعمل السيف في المذهب الآخر، ناهيك القول بان الشاه اسماعيل اخذ يغازل الاسبان والبرتغال في البحر الاحمر. وكان البابوات يُعلون من الغرب راية الحرمان في وجه كل من يتعامل مع العرب. وكانت محاكم التفتيش تشدد قبضتها ضد المسلمين في اسبانيا وصرخات الاستنجاد تتعالى من الاندلس، وشمال افريقيا(٢). وبات العرب في الامبراطورية الاسلامية محاصرين.

لذلك كانت انتصارات العثمانيين تلقى أصداء الاستحسان في الأقطار العربية ، ولا سيما ان السلاطين العثمانيين دأبوا منذ بايزيد على ارسال عدد من الاسرى، اثر معركة نيقوبولس ،المدججين بأسلحتهم الثقيلة الى السلطان طاهر سيف الدين برقوق، سلطان مصر. وقد استعرضهم السلطان في أسواق القاهرة. وبعد معركة فارنا ارسل السلطان مراد الثاني بعض الاسرى الهنغاريين الى سلطان هرات في بلاد الافغان الذي جعل منهم « كتيبة دبابات»(٣).. واذا كانت اصوات الاستغاثة ببايزيد، واشعار وصف الغدر وعدم الوفاء بالوعود التي كان يقطعها على انفسهم الحكام المسيحيون، في اواخر حكومات العرب في الاندلس لم تجد النجدة المطلوبة.. فان بايزيد الثاني، قد غزا شواطئ اسبانيا وخربها ،نزولاً عند طلب المغاربة (٤). الى جانب ما كان من أهمية ان يصبح العثمانيون سادة البحر الابيض المتوسط في اذهان المسلمين ،الذين كانوا، منذ الحروب الصليبية يعانون من قرصنة الغرب. وبحق كتب الدكتور سيار الجميل: « لقد بدأ العثمانيون اتصالهم بالمحيط العربي اثر سيطرتهم على اجزاء استراتيجية كبرى من العالم العربي الحضارية والثقافية، اضافة الى التهديدات التي كانت تتعرض لها الارض والسواحل العربية من قبل الاساطيل الاسبانية في البحر المتوسط.. كانت الاولى تهدد المغرب العربي على درجة كبيرة من التوسطات والانزال العسكري واحتلال المدن.. في حين كانت القوى البرتغالية تهدد المشرق من خلال توغلات عسكرية في الخلج والامتداد من نحو البر العربي بمدنه ومسالكه ومراكزه التجارية» .

وعندما وصل العثمانيون الى الموصل وبغداد(١٥٣٢) ،عظم الظن بانهم سيعملون من الخليج على ايقاف ذلك « الانقلاب العظيم» الذي ابتدأه البرتغال والاسبان بالالتفاف حول جناح العرب، وتدمير تجاراتهم وعلاقاتهم، حتى ان الدكتور محمد انيس، وتبعه كثيرون، حسب ان في هذا الزحف العثماني نوعاً من التسابق مع هاتين الدولتين للوصول الى المحيط الهندي العربي . وقد خاب فألهم، لان هذا الامر كان اعمق من مدارك السياسة العثمانية حينئذ،وان كانت الدولة العثمانية فيما بعد، فطنت وأمرت والي مصر بالتصدي لهما، ولكن بعد فوات الاوان(٥).

وبعد معركة جالديران، وضم شمالي العراق بما فيها كردستان،ارتكب مماليك مصر غلطة قاتلة معاكسة لتلك الظروف، فعقدوا معاهدة مع الشاه اسماعيل الصفوي، وقطعوا العلاقات السياسية مع الحكومة العثمانية . فسار السلطان سليم على رأس جيش قوي، متجهاً الى شمالي سوريا لملاقاة جيش المماليك في مرج دابق، وعلى رأسه قانصوه الغوري. وفي ساعات قتل قانصوه ،فولى المماليك الادبار ولم يتوقفوا للاشتباك الا في الريدانية امام القاهرة. وبانكسارهم انتهى حكم المماليك.

ولم يأسف على انتهائه مؤرخ،بل على العكس قال مؤرخ الفترة ابن اياس في موت السلطان الغوري:«.. فكانت هذه المدة كل منها كألف سنة مما تعدون..»(٦).

ولم نسمع ولم نقرأ لمؤرخ انه قامت حرب في وجه الاتراك القادمين الجدد من غير زمر المماليك. فبالاستدلال من « دراسة ملفات الدوائر الرسمية وقوائم الواردات المتعلقة بسوريا والعراق ومصر» ،يذهب زين نور الدين الى ان هذه البلدان العربية لم تكن تحكم مباشرة من القسطنطينية ،فضلاً عن ان الجزيرة العربية، مهد الاسلام، لم تخضع للحكم العثماني المباشر، « ولم يكن الحرمان الشريفان مكة والمدينة، يدفعان خراجاً.. اذ كانت الحكومة التركية ترسل اليهما سنوياً اعانة مالية على حساب مصر».

هذا الى جانب ان الحكم اعطى الامراء الاقطاعيين والزعماء المحليين في الاقطار العربية ، لا سيما في لبنان استقلالاً داخلياً، يكاد يكون استقلالاً ناجزاً. وبعد عودته من مصر ،اقام السلطان سليم الغزالي، والياً على سوريا، بما فيها ولاية القدس وغزة وصفد والكرك.«اما في جنوب سوريا، وكان جنوب سوريا يشمل لبنان،فان جميع الزعماء الاقطاعيين ادوا الطاعة له، باستثناء الامراء التنوخيين ، إذ ظل هؤلاء على ولائهم للمماليك.. وقد تركت شخصية الأمير فخر الدين الوقورة اثراً عميقاً في نفس السلطان، فاقره السلطان اميراً على الشوف»(٧)

ولم يمس الحكم العثماني حركة ترحال القبائل برحلتيها:« التشريق والتغريب» في بلاد الشام، اي رحلة الشتاء والصيف، وما يقابلها في البلدان الاخرى، واكتفى بولاء شيوخ القبائل. وظلت اعمال الغزو، وطلب الثارات سائدة حتى زمن الاستعمار الحديث. والبادية يحكمها قانون العشائر ولا قيود على تنقلات سكانها، كما انه لم تكن هناك قيود على التنقلات عموما. من قطر عربي الى اخر ولا حتى على النزوحات. ولدينا ما يؤكد ان كثيرين كانوا اثناء الحج، في الذهاب او العودة،كانوا يستقرون حيث يحلو لهم، دون ما يعكر صفوهم وحتى النزوحات لم يكن يقف في وجهها مانع، ولولا هذا ما تَيسَّرَ للحركة الوهابية ان تنتشر ولولا انها امتدت واتسعت اكثر من اللازم، واظهرت روح العداء للاتراك وحكم الاتراك ، سواء في امتدادها الى العراق(٨) ،او في غزواتها لبلاد الشام،بل لولا استعداء الدول الاجنبية عليها، وبخاصة ب. بطانيا، وخوف هذه الدولة على مصالحها في الهند من اليقظة العربية، والتقائها مع القواسم في الخليج، لماطُلب من محمد علي في مصر الهجوم عليها وايقافها. وكذلك كان شأن الحركة السنوسية.

جميع الدلائل تشير وتؤكد على ان العرب انحصر حرصهم، بعد ان اقصوا عن الحكم في الدين، والتمسك بالعثمانيين ما دام يمكن بحكم العثمانيين حماية هذا الدين. وليس صحيحاً ان العرب لم يكونوا يشعرون بذلك، فلم يخبُ، هذا الشعور بقوميتهم يوما من

الايام، طوال تاريخ الاسلام المديد، تمده بالحياة رابطتان من امتن الروابط في اية قومية، وهما اللغة والدين. وعند العرب لا يمكن فصل اللغة عن الدين ،وعن تاريخهم، بخلاف جميع القوميات. فالاسلام ظهر واكتمل في بلاد العرب عن طريق نبي عربي، وبلسان عربي .«لقد جاءكم رسول من انفسكم..» ٢/ ١٢٧؛ وكذلك: انزلناه قرآناً عربيا» طه/ ١١٢، وكذلك اوحينا إليك قرآناً عربياً / الشورى/ ٦، وكتاب فصلت اياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون» فصلت / ٢ ثم انه هو الذي وحد الأمة العربية :« ان هذه امتكم امة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون» الحجرات/ ٩.

وليس لدينا اي دليل على أن الاتراك العثمانيين حاولوا التعالي، باسم حكمهم على العرب المسلمين، او تتريكهم قبل القرن العشرين، بل على العكس لدينا كل ما يشير الى التبجيل والتقديس.. كانت اللغة العربية، لغة القرآن مقدسة في نظرهم الى حد ان هذا التقديس كان سبباً من اسباب تأخير ادخال الطباعة ، فازمة «النساخين» التي انفجرت في اوائل القرن الثامن عشر تنطوي على ناحيتين: من جهة النساخون وتدبير حياتهم ومعاشهم، ومن جهة صف الحروف العربية، حروف القرآن وملامستها للجلد الحيواني في الطباعة.

ومما لا ريب فيه ان الذين وضعوا احرف اللغة التركية وقواعدها كانوا متأثرين باللغة العربية ، وبالدين الاسلامي فان ما وصلنا منها كان اكثر من ٣٥٪ منه عربياً. فكيف يمكن للغة هذا شأنها ان تقوم بدور تتريك ابناء الضاد، وابناء لغة القرآن من دون ان تكون اكثر أصالة ومن دون ان يتجرد الاتراك من الدين الاسلامي. واذا تجردوا من الاسلام، فبماذا كانوايحاربون اوروبا. كان الاتراك يحاربون بالاسلام ، وكانت اوروبا تريد القضاء على قوة الاسلام فيهم. ناهيك انه من المعروف انه كان للعرب اليد الطولى في وضع النظام القضائي للامبراطورية العثمانية. وكان لهم اثر بارز في الادارة الداخلية في هذه الامبراطورية. وحادثة عزل والي مصر، وتنصيب محمد علي بدلا عنه ، ونزول الخليفة عند رأ ي العلماء معروفة في التاريخ. ولم يكن للشريعة الاسلامية المقدسة– وهي بمثابة السلسلة الفقرية للحكومة العثمانية– ان تبقى بدون معرفة اللغة العربية. فالقرآن الكريم عربي ، وجميع المصادر التي تستقى منها الشريعة عربية. وكانت جامعة الازهر في القاهرة، والمدارس الدينية السنية في دمشق وطرابلس وحلب مركزاً لتخريج عدد كبير من علماء الدين والقضاة ورجال الافتاء الراسخين في معرفة العربية، ودقائق الشريعة الاسلامية. وكانوا يشغلون مراكز رفيعة في المحاكم الدينية في مختلف ولايات الامبراطورية، على ما لهذه المراكز الخطيرة من اهمية بعيدة الاثر. ووظيفة هؤلاء العلماء مثلثة الجوانب: دينية وقضائية وعلمية. ومن بينهم كان يختار الملا والامام والقاضي في المحاكم الشرعية.

وكان شيخ الاسلام رئيس التشريع الاسلامي، والمرجع الثقة في امور الشريعة. ويبدو ان لقب « شيخ الاسلام» كان في بادئ الامر مفتي القسطنطينية.« وكان يمثل السلطة التي يحق لها تفسير القرآن، بحيث تحرم على اية سلطة اخرى، سواء أكانت تشريعية ام تنفيذية ، ان تصدر قراراً نافذ المفعول بدون موافقته، وذلك بفتوى يؤكد فيها ان هذا القرار، او ذاك، لا يتعارض مع الشريعة الاسلامية». وكان من صلاحياته تعيين المفتين في سائر انحاء الامبراطورية. وترقيتهم،و في عهود تالية اصبح هو الذي يعين القضاة. وتدخل دار الفتوى ضمن صلاحياته . ومن دار الفتوى تصدر الفتاوي المتعلقة بشؤون الدولة كاعلان الحرب وعقد الصلح، او المتعلقة بالقوانين المدنية المقترحة او بقانون الاحوال الشخصية (٩). وكان السلاطين يعتبرون جميع حروبهم ضد الدول المسيحية حروب جهاد. وكان من حق شيخ الاسلام وحده اعلان الجهاد. ولا تكون الحرب جهاداً الا اذا صدر بشأنها فتوى من شيخ الاسلام.

كانت وظيفة شيخ الاسلام من الاهمية، بحيث كان صاحبها، يطلب الطاعة من السلطان نفسه. والواقع ان خلع السلطان كان يتطلب موافقة شيخ الاسلام بفتوى تجعل خلع السلطان امراً « قانونياً» يرضى عنه المسلمون.« وقد صدرت عن شيخ الاسلام فتاوى من هذا النوع، عندما خلع السلطان سليم الثالث (١٨٠٧)، وعبد العزيز(١٨٧٦)، ومراد الخامس(١٨٧٦)، وعبد الحميد الثاني(١٩٠٩).. وكان شيخ الاسلام ،الى جانب الصدر الاعظم ،الموظفين الاولين النافذين ، اكثر من سواهما في تصريف شؤون الامبراطورية»(١٠).فكيف والحالة هذه تلقى المسؤولية كل المسؤولية على السلطان عبد الحميد؟. وأين كان شيوخ الاسلام ، وما هو دور الشيخ الصيادي.

في القرن الثامن عشر وهنت قبضة الدولة العلية، ودب التفكك في اوصالها. فكثرت الصراعات بين قيادات من ابناء العرب وولاة الدولة تارة، وبين ابناء العرب وولاة الدولة معا والدولة العثمانية تارة اخرى(١١) ، وبات نفوذ الحكم لا يتعدى المدن الكبيرة، بل وكان في هذه المدن الكبيرة نفسها ،لا يصل الى بعض الجيوب فيها الا بواسطة زعماء احيائها، او المشايخ والمفتين والائمة ورؤساء الطوائف الحرفية، الذين كانت الفرمانات السلطانية او الاوامر العليا تطلب منهم مساعدة الولاة ورجال الادارة. اما في داخل البلاد، فيكاد النفوذ كله يكون لمشايخ القرى ورؤساء العشائر، حتى ليمكن القول بانه لم يبقَ ما يربط الدولة العثمانية في الاستانة بولاياتها العربية الا الرابطة الروحية والخراج.

وهكذا ظهرت في الاقطار العربية اسماء الدايات والبايات والامراء والولاة المستقلين،واسماء العصبيات العشائرية والطائفية: آل الجيار في السلمية، وهم شيوخ

العرب بين الرقة وحلب وآل الحرفوش في بعلبك، وهم شيعة ،وآل معن في لبنان، ثم خلفهم آل شهاب، وآل حمادة في طرابلس، والأمير الحارثي بن طرباس في جبل عجلون وابن فروخ في نابلس، والامير احمد بن رضوان في غزة، وشيوخ قبائل المنتفق والخزاعل وعبيد والسبعاوي في العراق، وشيوخ الهوارة وابن حبيب في صعيد مصر والوجه البحري، وآل الرشيد في حايل شمال نجد ، وآل سعود في عسير ، وآل حميد الدين في اليمن .. الخ

لقد التقى هذا التراخي في قبضة الحكم العثماني، مع اتجاهات العشائر العربية الى الاعتراف بحكمها في اطار التبعية اذ لم تكن «تجد في هذا غضاضة كبيرة، باعتبار ان السلطان حامي حمى الاسلام». الا انها لم تكن تتوانى من وقت لآخر عن العمل على التخلص من الحكم العثماني، وكف يده عن جمع الخراج السنوي، وهو المظهر الوحيد الذي يربطها به(١٢).

ولم يختلف الامر عنه في مصر في سائر انحاء الوطن العربي على الرغم من فقدان البيئة الجغرافية الملائمة للثورات، وقدرة من يتولى الحكم على امتلاك وسائل كثيرة للتأثير بها على الناس. فمنذ عهد الطولونيين لم تنقطع الثورات العربية، قبل الحكم العثماني بكثير .ففي عام ١٢٥٣(٦٥١هـ) قامت ثورة حصن الدين من تعلب التي تحالف فيها البدو والفلاحون واستهدفت استخلاص مصر من يد المماليك ،واقامة سلطة عربية وتوزيع الارض، وانتهت باعلان استقلال الصعيد. وكانت تنسق جهودها مع الثورة الدينية التي قامت في القاهرة عام ١٢٦٠ ،واستمرت سبعة اعوام (د.لويس عوض. تاريخ الفكر المصري ، ص٦,١٧,١٩,٢٠؛ جمال سرور ، مصدر سابق ص ٤١) . وفي ١٣٥٣ قام ابن الاحدب ،شيخ قبيلة عرك بثورة استقلالية اخرى في الصعيد.. وكان تواتر الثورات سبباً في خوف المماليك الدائم، من قيام ثورة شاملة . وكثيراً ما كان يدفعهم الى تنصيب دكتاتور عليهم (مثل بيبرس الثاني وبرقوق والمؤيد). وهذا الذعر المستمر هو الذي جعلهم يضعون حدا للاستعانة بالبدو فيما ينشب بينهم من حروب. وهو الذي كان كذلك يدفعهم لتجديد شباب الطبقة الحاكمة، باستجلاب مماليك جدد من جهة، وايصاد باب الوظائف العسكرية العليا في وجه ابناء مصر، وابناء الناس من المماليك المتمصرين، والى العيش في عزلة ثقافية تامة باصطناع الثقافة التركية كمظهر من مظاهر الامتياز الطبقي(١٣).

ويستدل من فرمان ذكره علي مبارك، نقلاً عن كتاب مجهول الاسم والمؤلف وجهه الوالي العثماني الى اعيان الصعيد ، يبرر فيه تعيين احد زعماء المماليك عليهم، أن ما يلقاه الحكم الاستقلالي في الصعيد من ترحيب، وما كان يتمتع به من سمعة طيبة، كان يقلق المماليك والعثمانيين على السواء ويثير هواجسهم(١٤). الا ان ابعدها اثرا كانت الدولة

الهمامية التي قامت في الصعيد. فعلى حين كان الناس في القاهرة يعانون من ظلم المماليك وعسفهم واستنزاف مواردهم، على شحها، كانت دولة الامير همام تعج بالخيرات، وتنعم باوفر قسط من الاهتمام والاستثمار، ويتمتع اهلها بهدوء شامل وامن مقيم(١٥) ،فهي« اول حكومة موحدة تشهدها مصر منذ امد بعيد(١٦)». وقد كتب المهندس جيرار في « وصف مصر» يصفها بقوله :« ان كان يصح الحكم على ادارة الشيخ همام على اساس الشهرة التي خلفها ، فاننا نجزم بان مصر العليا كانت سعيدة في عهد حكومته، فلا يزال الاعيان والقضاة والسكان جميعاً، سواء منهم المسلمون والمسيحيون يبجلون ذكراه، ويتأسفون لانتهاء عهد الشرطه التي اقامها، والرعاية التي كان يوليها للاعمال العامة والزراعة حتى اصبحت زاهرة(١٧). وكان الجبرتي لا يذكرها الا ويتغنى بخصال اميرها «عظيم بلاد الصعيد» ، ومن كان خيره وبره يعم الغريب والبعيد(١٨) وكانت اول اشارة لها ،ما جاء في مشرق الجنرال يعقوب الذي قدمه الفارس لاسكاريوس عام ١٨٠١ الى الدول الاوروبية، قوله : « ولتكن الحكومة الجديدة عادلة وقاسية وقومية.. كحكومة شيخ العرب همام في الصعيد التي رويت لك قصتها ، فهي بالتأكيد سوف تكون موضع الاحترام والطاعة»(١٩).

وعندما اراد الطهطاوي ان يقرب الى الاذهان ثورة فرنسا في عام ١٨٣٠م التي شهد احداثها ، قال:« ولكن لما كانت الرعية لا تصلح ان تكون حاكمة ومحكومة، وجب ان توكل عنها من تختاره منها للحكم، وهذا هو مثل مصر في زمن حكم الهمامية، فكانت امارة الصعيد جمهورية التزامية»(٢٠). والطهطاوي يرى ان « يكون الحكم بالكلية للرعية». ففضلا عن ان كلامه كلام مفكر كبير عارف بالنظم والمذاهب السياسية، فان اهميته هي ايضا في ان قائله ولد (١٨٠١)، وترعرع في مكان هذه التجربة الجمهورية التي هزت البلاد.فهو من طهطا بالصعيد الاعلى ،ولا بد ان تكون ذاكرته قد وعت كثيراً من ايام الهمامية في عهد اميرها الكبير، كما شهد ثورة الامير همام الصغير التي حدثت في عهد محمد علي ايام شبابه . لذلك يكتسب تشبيهه قيمة عظيمة، لانه شهادة معاصر عارف بحقائق احوال الهمامية وبأهداف الثورة الفرنسية.

ظهور طائفة المشايخ ودورهم في الوساطة.

وكما استفاد الصعيد من منازعات المماليك واحترابهم، ولجوء بعضهم اليه ليمدهم بالمال والرجال احياناً لمحاربة خصومهم، او للتحصن به ضدهم احياناً اخرى، فان طوائف اخرى في المدن الكبرى خاصة قد استفادت من ذلك، فانتعشت وقوي نفوذها، وعلى رأسها فئة المشايخ التي قوت مركزها من التدخل في منازعاتهم، ووقوفها حكما احياناً بينهم ولفض خلافاتهم، بالنظر لما للدين اصلاً من مكانة في نفوس الناس،

وللازهر من حرمة، وبالنظر لحاجة حكم المماليك« العثمانيين» حينئذ من تدعيم لدى الشعب ولدى السلطان.

ذلك ان الجندية– التي كانت مهمة المماليك– لم تعد مهمة الجنود في مصر بل ربما كانت « الجندية اقل ما شغل جنود الاوجاقات...» (٢١). اذ كانت الدولة «العلية» هي التي تتولى من الناحية الرسمية الدفاع عن مصر. الا انها لمدة ثلاثة قرون لم تشترك في اية عمليات حربية للدفاع عن هذه الولاية. فلم يقم احد بمهاجمتها ، ولم يسجل التاريخ للعثمانيين او للمماليك اي دور في هذا المضمار. وكان من الممكن ان يكون هذا «السلام» مدعاة للانتعاش والتقدم في ظروف حكم آخر، يمكنه ان يوفر حوافز للعمل ذاتية وداخلية غير ما توفره التحديات الخارجية. ولكن انعدام الحروب في ظل الحكم العثماني– المملوكي، حول طاقات« الجندية» الى مصائب تحل بالشعب.. لم يحل دونها اندماج افراد الاوجاقات عن طريق الزواج، او الانخراط في سلك الطوائف الحرفية الدينيةوفقدانهم الصفة العسكرية(٢٢) .فمن جهة كثرت منازعات المماليك على المراكز والمناصب، وخاصة شياخة البلد. ومن جهة أخرى كانت حاجتهم الدائمة للمال لكسب الانصار ومحاربة الخصوم وشراء المماليك والانفاق، تقع على كاهل الشعب.

ومن هنا كان لا بد لطائفة المشايخ، لشدة التصاقها بالشعب من ان تتقدم على طريق المسؤولية،في ظل تراخي السلطة العثمانية، وضعف هيبة المماليك. وما لبثت ان اصبحت« من اخصب وانشط الطبقات المصرية في القرن الثامن عشر»(٢٣). فتصدروا لخدمة الناس وقضاء حوائجهم عند ارباب الدولة، واهل الحكم، حتى لقد جعل منهم دورهم في الوساطة جهازا من اجهزة الحكم(٢٤).

وفي اواخر القرن الثامن عشر اخذ المشايخ يتجرأون على الوقوف في وجه المماليك لرفع مظالمهم، واحياناً على زجرهم. يروي الجبرتي– ابان الانشقاق الذي وقع بين علي بك(الكبير) وصالح بك في عهد الدولة الهمامية– ان الشيخ الحفناوي صرخ فيهم قائلاً: « خربتم البلاد والاقاليم، وعلى اي شيء في هذا الحال، وكل ساعة خصام ونزاع وتجاريد..»(٢٥) ، ووقوف اسماعيل افندي الخلوتي في وجه اسماعيل بك قائلاً:« ونحن اي شيء تبقى عندنا حتى نصرفه، وقد صرنا كلنا شحاتين..»(٢٦). وثورة اهل الاسكندرية على حاكمها وتوقيع عقوبة التجريس عليه بحلق نصف لحيته، والطواف به على ظهر حمار، وهم يصفعونه ويضربونه بالنعال.

بيد ان اهم هذه المواقف ما كان في عام ١٧٩٥، حينما اجبر المشايخ امراء المماليك على اعلان التوبة على ما شرطه« اسيادنا العلماء» ، امام موجة صاخبة من الجماهير.. وقال الجبرتي و « التزموا بما اشترطه المشايخ عليهم ، وانعقد الصلح على ان يدفعوا

سبعمائة وخمسين كيساً موزعة، وعلى ان يرسلوا غلال الحرمين، ويصرفوا غلال الشون واموال الرزق، ويبطلوا رفع المظالم المحدثة والكشوفيات والتقارير والمكوس. وان يكفوا اتباعهم عن امتداد ايديهم الى اموال الناس، وان يسيروا في الناس سيرة حسنة..»(٢٧).إذ « ما الباعث على الاكثار من النفقات، وشراء المماليك والامير يكون اميراً بالعطاء لا بالاخذ..». ثم كتبوا بذلك وثيقة هي التي يحلو لبعض المؤرخين الوطنيين بتسميتها: « المجناكارتا» المصرية (٢٨).

وعلى العموم اصبح المماليك موضع تندر من جانب العامة، فقلما نجد واحداً من امرائهم وكبرائهم لم يطلق عليه لقب، غدا يقترن باسمه ويُعرف به. فعلي بك الكبير هو المعروف ببلوط قبان، وصالح بك القاسمي هو المعروف بالقرد، وحسين بك هو المعروف بكشكش، وعثمان بك معروف بقفا الثور(٢٩) .ومضى نفوذ المشايخ يتزايد، وما تلبث الظروف حتى تتهيأ امامهم، ليلعبوا الدور الرئيسي في مصير البلاد، عند قدوم الحملة الفرنسية.

من الواضح، ما عدا عند العرب انفسهم، وفي ذاكرتهم ان الشعب لم تغب طيوفه عن بال قادة دول الغرب الناهضة الصاعدة. لقد اخرج اسلاف هذه الدول من الشرق في « الحروب الصليبية» وفي نفوسهم غصة، ورثوها وظلوا يتوارثونها. عاد هؤلاء الاسبان يباشرون في ديارهم محاكم التفتيش والحشد لملاحقة العرب والاسلام في اسبانيا والاندلس، ثم الالتفاف حوله لقطع سبل الحياة عنه. وهاهم يعودون منتصرين، لم ينسوا،بل تأججت ذاكرتهم، عندما نسي غيرهم.

لذلك نجدهم، في كل تعامل مع الامبراطورية العثمانية يدخلون الشعب العربي في حساباتهم: يكفي القول انهم حينما يذكرون الاسلام انهم يعنون العرب. وهكذا فان بونابرت، وهو يعد لحملته كان يدخل في حسابه عاملين: الاول السلطان العثماني، الذي يمثل العالم الاسلامي وقوة الاسلام، والثاني الامة العربية التي يحسب حساب نموها. فقد حاول ان يسترضي السلطان من جهة ،وان يعمل على استمالة العرب من جهة اخرى. فراح يقيم في مصر سياسته على التفريق بين عرب وعثمانيين ومماليك.(٣٠) لذلك اخذ يضرب في كلامه على وتر العروبة الحساس لاستمالة اهالي مصر فكان يخاطبهم قائلاً: « لماذ تخضع الامة العربية للأتراك؟.وكيف تكون مصر جنة الله في الأرض وبلاد العرب المقدسة مهبط الوحي، خاضعين لشعب يخرج من القوقاز.. انني اريد أن اعيد مملكة العرب، ومن يمنعني من ذلك..(٣١).

وعندما أملى مذكراته في سانت هيلانة،قال مسترجعاً:«والذي يقرأ بالتفات تام تاريخ الحوادث التي توالت على مصر في المائتي عام الاخيرتين- السابع عشر والثامن عشر -

يوقن انه لوعهدت الدولة العثمانية الى وال من اهل البلاد، كما هو الحال في البانيا، بدلا من ان تعهد الى اثنى عشر الفاً من المماليك، لاستقلت المملكة العربية التي تتألف من أمة تخالف الامم غيرها مخالفة كلية بعقليتها واوهامها ولغتها وتاريخها، وشملت مصر وبلاد العرب وشطراً من بلاد افريقيا(٣٢).

ويذكر الدكتور حسين مؤنس ان الشيخ المهدي كان يعرب اقوال بونابرت «وينظمها شعرا يحفظه الناس ،ويتغنون به في صحاري افريقيا وبلاد العرب» (الشرق العربي الاسلامي).

الا ان كلامه هذا لم يُغرِ أحداً ،ولم يدفع حتى الى مجرد التفكير بالانفصال. انها روابط الاسلام.

لقد استند بونابرت في حملته على تقرير وزير خارجية الدركتوار بتزكيتها حيث قال: « ان اهالي مصر قاطبة يكرهون حكامهم المماليك الذين يسومونهم الظلم والاضطهاد، وهم عزل لا سلاح معهم، واذا اعطاهم المماليك سلاحًا بحجة الدفاع عن البلاد من الغارة الاجنبية، فانهم لا شك سيحاربون به طائفه المماليك انفسهم، فليس ثمة خوف من مقاومة او وثبة من الاهالي »(٣٣).

ومن هنا كانت محاولات بونابرت للنفاذ من هذه الثغرة ولكن عبثاً. فان اهالي مصر بدلا من ممالأة الفرنسيين، كما كان متوقعًا، أو الوقوف متفرجين على انهيار صفوف المماليك امام مدافع الفرنسيين، او حمل السلاح معهم انتقاما لعسف القرون الطويلة ومظالمها، هبوا للدفاع عن بلدهم، معتبرين ما بينهم وبين المماليك تناقضاً صغيرا، كما يقول ماوتسي تنغ لا تناقضًا اساسيا. فما انهارت القوة المدافعة عن الاسكندرية، حتى تحول القتال الى الشوارع والحارات، اشتركت فيه النساء مع الرجال عدة ايام حتى اضطرت بونابرت الى ارهاب المجاهدين باعدام بعض اعيان المدينة، وفي مقدمتهم محمد كريم(٣٤)، لسعيه الى تنظيم عربان البحيرة لمقاومة الفرنسيين(٣٥). ويكفي ان نعلم ان وصول بونابرت من الاسكندرية الى القاهرة استغرق ١٧ يومًا ،في حين ان السلطان سليم العثماني وصل من مرج دابق في شمالي حلب الى القاهرة في نفس المدة، اي في سبعة عشر يوماً.

لعل ذكر هذا المقطع مما رواه ادوار جوان عن شهود عيان، يغنينا عن الاسهاب ، قال: «.. وشوهد في الثانية عشرة من عمره، جيء به الى الجنرال ديزيه، لانه اخفى بعض البنادق. وكان مصابا في ذراعه بجرح بالغ. فلما شرع في علاجه انشأ ينظر الى العملية بسكون وقلة اكتراث:

– من اغراك بهذا الفعل الذميم؟.

– لا احد.

– من حرضك على الاضرار بالفرنسيين؟.

– الله القادر على كل شيء.

– ألك اهل؟.

– لي ام فقيرة عمياء

– اخبرنا ما اسم الذي بعث بك، ونحن لا نمسك باذى.

– قلت لك انه هو الله.

– اذا اصررت على هذه الاقوال، فان راسك..

رأسي، ها هو، فاقطعوه

قال هذا ثم خلع سكته عن رأسه ، والقى بها على قدم القائد...»(٣٦).

كان فولني (Volny) في مذكراته ابعد تقديراً، عندما قرر بان اشد الحروب التي سوف يخوضها الفرنسيون هي حربهم لاخضاع الشعب (٣٧). فقد احس الفرنسيون انهم في مصر « في حرب مستمرة»، فان الثورة عليهم كانت كما وصفها ميو في مذكراته« كحية ذات مائة رأس ، كلما اخمدها السيف والنار في ناحية، ظهرت في ناحية اخرى اقوى واشد مما كانت ، فكأنها كانت تعظم ويتسع مداها كلما ارتحلت من بلد الى آخر»(٣٨).

فقد عمل الاهالي على ان لا يهدأ للفرنسيين بال، وجعلوهم في ثورة دائمة، ومدافعة مستمرة، فما خمدت المقاومة واتخذ الفرنسيون مكانهم في الازبكية ،حتى راح الاهالي في احياء متفرقة يصطدمون بالجنود عند كل مناسبة ، فيتغلبون عليهم. قتلوا الجنرال ديبوي (Dupuy)حاكم القاهرة ، وقتلوا سكرتير بونابرت، وبهجوم تلو الهجوم على مقر القيادة من الاسطح المجاورة، والمدافع من القلعة والمقطم حامية الوطيس، اياماً، حتى تبين الفرنسيون مركز المقاومة في الأزهر، وأن المدد يأتيه من طول البلاد وعرضها. فمنذ أيام الحملة الاولى لم يلتزم الازهر بمساعي كبار المشايخ، اصحاب المصالح او التجار الاجانب للحصول على الامان مقابل الاذعان . وألف صغار المشايخ في الازهر وطائفة « من غير المبصرين» ومن الطلاب اللجان ، وصاروا يتحينون فرصة الثورة (٣٩) وتولى أئمة المساجد في خطبهم ومواعظهم تحريض الناس، وصار المؤذنون يُعلنون من فوق المآذن الدعوة الى الجهاد ضد الكفار الظالمين .

وبعد ايام اربعة تمكن الفرنسيون من قطع السبل المؤدية الى الازهر ومحاصرته ، والدخول اليه لاخماد الثورة . قال الجبرتي: ودخلوا اليه: « ... وهم راكبون الخيول، وفيهم المشاة كالوعول، وتفرقوا بصحنه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته، وعاثوا بالاروقة والحارات، وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والاواني والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات ، ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الارض طرحوها وبارجلهم ونعالهم داسوها.. وشربوا الشراب وكسروا اوانيه والقوها بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه اخرجوه...» (٤٠). وفي اليوم التالي تمكنوا من القاء القبض على خمسة من صغار المشايخ، بينهم شيخ طائفة العميان واعدموهم، والقوا جثثهم من السور خلف القلعة(٤١).

واذا قيل ان الشعب هب الى القتال. وهو كبير الرجاء بمدد عثماني، فقد ثار بعد ذلك، وكانت ثورته اشد، وهو يرى ان الاتراك يفرون امام كليبر. فقد كتب الشيخ ابو الانوار السادات حينئذ الى عثمان كتخذا كتابا جاء فيه:

«.. امّا بعد فقد نقضت عهدي، وتركت مودة آل بيت جدي ، وأطعت الظلمة السفلة. وامتثلت امر المارقين السفلة، فاعنتهم على البغي والجور، وسارعت في تنجيز مرامهم الفاسد على الفور من الزامكم الكبير والصغير والغني والفقير اطعام عسكركم الذي اوقع بالمؤمنين الذل والمضرات ، وبلغ في النهب والفساد غاية الغايات. فكان جهادكم في اماكن الموبقات والملاهي» .وأضاف :

« اخفتم اهل البلاد بعد امنها، واشعلتم نار الفتنة، ثم فررتم فرار الفئران من السنور».

في هذه الهبة، وقف الشعب كله وجهاً لوجه امام الفرنسيين، فكل من كان في حارة في اطراف البلد انضم الى المعسكر، بحيث صار جميع اهل مصر والعساكر واقفين عند الابواب والمتاريس والاسوار(٤٢)، واستولوا على ما في مستودعات الجيش في العريش من غلال، وفي بولاق، واخذوا مدافعها، وانشأوا معملاً لصنع القنابل، ومصنعاً لصب المدافع، واخر لاصلاح الاسلحة. وانتزعوا من المساجد الحديد والاخشاب، وتطوع الحدادون والسباكون والنجارون وغيرهم للعمل في هذه المصانع، وتحولت الوكائل والمخازن المقامة على النيل من مصر القديمة حتى بولاق وشبرا الى قلاع يقيم فيها الثوار(٤٣).

ولم تهدأ الثورة الا بعد ان تمكن الفرنسيون من ضرب الحصار حول القاهرة، وقطع المؤن عنها لتجويعها: « فعدمت الاقوات، وغلت اسعار المبيعات، وامتنع الطوافون به على

الاطباق..»، ولم تعد الغالبية العظمى تجد ما تأكله سوى الارز مطهياً بالعسل واللبن لندرة الخضروات، حتى لقد امتدت الازمة الى الماء. واغتنم الفرنسيون في ١٨ نيسان / ابريل عام ١٨٠٠ هطول الامطار وكثرة السيول، فهاجموا بولاق من ناحية، ومن ناحية بوابة ابي العلاء، واشعلوا النار في مباني الحي، ولم يجد استبسال الثوار والاهالي، ولكن الفرنسيين« حاصروهم من كل جهة». قال الجبرتي: « وملكوا بولاق بالحرق والقتل والنهب والسلب، وفعلوا بأهلها ما يشيب من هوله النواصي، وصارت القتلى مطروحة في الطرقات والازقة، واحترقت الابنية والدور والقصور»(٤٤).

وهذا ما اقتضى المهادنة وادى الى ابرام اتفاق ٢١ نيسان/ ابريل ١٨٠٠ بتسع مواد أهمها: ان يجلو عدد من زعماء الثورة، وعلى رأسهم السيد عمر مكرم في مرحلة اقصاها ظهر ٢٥ نسيان/ ابريل . وما هي الا ايام حتى قتل كليبر بطعنات خنجر من يد كاتب عربي يقطن حلب، عمره ٢٤ سنة،سبق ان سكن مصر ثلاث سنين، ومثلها في مكة والمدينة. ولما سئل في التحقيق: « هل يعرف الوزير الاعظم، وهل له مدة ما شافه؟ فجاوب انه ابن عرب، ومثله ليس يعرف الوزير الأعظم»(٤٥) ومن يومها اقفل الازهر وسُمرت ابوابه من جميع الجهات ،وبقي مقفلاً حتى خرج الفرنسيون. ففتح ابوابه يوم ٢ حزيران / يونيو ١٨٠١.

صحيح ان مصر تلقت اكبر العبء في حملة بونابرت. فالحملة الفرنسية لم تكن تستهدفها وحدها. كانت تستهدف الحصول على الموقع للتأثير به على انجلترا، والتفوق على الصعيد العالمي. وموقع مصر لا ينفصل عما يحيط به من الوطن العربي. وكان الشعب في مصر يحس هذا . لذلك كانت المقاومة تزداد ضراوة، كلما تقدم الفرنسيون باتجاه الجنوب، واقتربوا من البحر الاحمر والاماكن المقدسة.

كذلك لم تكن الاقطار العربية الاخرى غائبة عن معركة مصر، فمنذ الايام الأولى اتجه الى بلاد الشام الذين رفضوا التعاون مع الفرنسيين ولجأوا اليها، وجعلوها مركزاً لنشاطهم ومقاومتهم. وكان الفرنسيون كلما اشتدت المقاومة من حولهم، أو فوجئوا بهجوم يظنون انه مدد من الشام، وكشفت تحرياتهم في ثورة القاهرة الأولى عن مراسلات كثيرة بين شخصيات شامية وقيادات الثورة لتنظيم المقاومة مما سبب في اعدامهم(٤٦). واذ اتجهت الحملة الفرنسية الى فتح الشام ، توحد مصير البلدين، ووجدت امامها المجاهدين المصريين وعلى رأسهم عمر مكرم، جنباً الى جنب مع الشوام. ويدل العنت الذي واجهته، والصمود، ثم منعها من الاستمرار. والنكوص، على انها لم تكن تواجه الحاميات التركية فحسب، على عكس جيش ابراهيم باشا. ومن بلاد الشام سَيّر العثمانيون حملة لنجدة ثوار مصر، واليها نكصت بعد اخفاقها.

وعندما وردت الى الحجاز« اخبار الفرنسين وانهم ملكوا الديار المصرية انزعج اهل الحجاز لذلك، وضجوا بالحرم، وصار الشيخ الكيلاني(وهو رجل مغربي) يعظ الناس، ويدعوهم الى الجهاد، ويحثهم على نصرة الحق والدين، وقرأ بالحرم كتاباً مؤلفاً في معنى ذلك، فاتعظ جملة من الناس، وبذلوا اموالهم وانفسهم. واجتمع نحو ستمائة من المجاهدين، وركبوا البحر الى القصير مع من انضم اليهم من اهل ينبع وخلافه، فورد الخبر أنه انضم اليهم جملة من اهل الصعيد، وكانت لهم وقائع مشهورة مع الفرنسيين » فيه (٤٧). وظهر احد المغاربة في البحيرة (أطلق عليه اسم المهدي) وقام بحركة ضد الاحتلال ، فكان يكاتب اهل البلاد ويدعوهم الى الجهاد ، حتى اجتمع عليه أهل البحيرة وغيرهم ،وحضروا الى دمنهور، وقاتلوا من فيها. وكانت حركته اعنف انواع المقاومة التي لقيها الفرنسويون في مصر (٤٨).

وكان المغاربة يشكلون عددا كبيرا في القاهرة ، وظلوا يلتزمون جانب السيد عمر مكرم في النضال والدفاع، ويبذل في سبيل القضية الموسرون منهم، وتدل التحريات على انهم اسهموا بدور فعال فيما بعد في تنحية خورشيد سنة ١٨٠٤-١٨٠٥.

في ١٨ آب / اغسطس غادر بونابرت الشرق تاركا لخليفته رسالة يفوضه فيها « عقد الصلح مع الباب العالي حتى ولو كان الجلاء عن مصر من شروط الصلح الاساسية»(٤٩). وهكذا نراه غير حساباته بعد سنة تقريباً (نزل في أبي قير اول تموز/يوليو ١٧٩٨). وفي ذلك الغياب الواضح للعثمانيين... لا نظن اننا بحاجة الى الوقوف طويلا عند الرأي القائل بان الفرنسيين خرجوا من مصر« بفعل الانجليز والعثمانيين»(٥٠). فالثابت ان الشعب لقيهم في طول البلاد وعرضها، من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب، في تشكيلات منفصلة عن المماليك، واحيانا موازية لهم. ولما تقرر ترحيلهم دفع النفقات، كما يقول الجبرتي، البالغة ثلاثة الاف كيس(خمسة عشر) الف جنيه ذهبا ،حينئذ:« اخرجها عن طيب قلب، وانشراح خاطر، وبادر بالدفع من غير تأخير لعلمه ان ذلك لترحيل الفرنساوية ويقول: سنة مباركة ويوم سعيد».

وفي ازمة محمد علي مع السلطنة وحربه بدا أن اهم ما كان يشغل اذهان الدول الخمس المضطربة الثائرة في باريس، امكانية اثارة الشعب العربي، وتطلعه الى الاستقلال.

وإلى حين ان بدأ محمد علي في تأسيس جيش « لم يكن ابناء العرب مبعدين كل البعد عن الاشتراك في شؤون الحكم فحسب، بل كانوا مبعدين عن الخدمة العسكرية». منذ ان سقطت اسماؤهم من ديوان الخدمة في القرن الثالث الهجري. وكان المجندون منهم في جيش محمد علي قليلين، ويفصلون اثناء الخدمة، في فرقة خاصة. ولم يبدأ رسمياً بتجنيد

العرب ،الا بعد حرب السودان(انيس صايغ ٩٤-٩٥). وقد اثار هذا التغيير مخاوف اوروبا خشية من « ان يجيء يوم يرغب فيه هذا الجيش العربي الخالص، في اقامة حكومة عربية، ثم يعمد الى المطالبة بتحقيق هذه الرغبة(محمد فؤاد شكري واخرون ٢٢٧). وقد طرح دي بوالكموت ، موفد دول اوروبا الى محمد علي، في تقريره الاول هذه المسألة على النحو التالي :« وهناك من ناحية اخرى امر لا نستطيع حتى الان ان نتكهن بنتائجه. ونعني بذلك تلك الحروب التي وضعت اوزارها منذ عهد قريب، وما سوف تبثه في نفوس الامة العربية من شعور بالقومية، وروح عسكرية على يد جيوش محمد علي الجرارة ، مما يوقظ فيها الشعور بقوتها من جديد، ويولد في ابناء العرب الرغبة في ان يحكموا انفسهم بانفسهم. وقد حلا لبعض القوم في اوروبا ان يروا في هذه الحرب انتقاضاً من العرب على الترك. غير ان ذلك لا يتفق مع الواقع ، فصاحب المشروع تركي فكّرفيه بعقل تركي،. كما ان الترك هم الذين تولوا قيادة العرب في تنفيذه. وقد حارب هؤلاء العرب لان هناك من يقودهم ، دون ان يسألوا انفسهم من هم ،ومن العدو الذي يدفعون الى مقاتلته. غير ان النصر كان حليفهم في النهاية . ولعل نشوة الانتصار تؤدي في يوم من الايام الى تبدل حالتهم النفسية. ولن يعوزهم حينذاك غير زعيم يقودهم . ولكن لم ار حتى الآن شيئاً من بوادر هذا التحول. وسأضع نصب عيني ملاحظة هذه المسألة الهامة ،حين ازور جيش ابراهيم«محمد فؤاد شكري واخرون ص ٢٤١). وقرر دي بوالكمت حقيقة، وهي ان ابن العرب لم يكن يرقى الى ما فوق رتبة اليوزباشي. وعندما أفصح عن مخاوفه لمحمد علي من نتائج اشاعه هذه الروح العسكرية ، اجابه بقوله :« لم اعمل في مصر سوى ما عمله الانجليز في الهند، فلديهم جيش من الجنود الهنود، يقودهم ضباط من الانجليز، ولدي جيش من ابناء العرب على رأسه ضباط من الترك، ولو خطر لكم انتم ان تؤلفوا في الجزائر فرقاً عسكرية من ابناء العرب، لاحتذيتم مثالي ووضعتم على رأسها ضباطا من الفرنسيين».

فقد كان محمد علي يعي تمام الوعي، بصفته اجنبياً عن الشعب، لا يمكن التعرب والالتزام باهدافه، خطورة هذا الامر عليه، فعندما طلب منه ابراهيم باشا ترقية عدد من ابناء العرب أبلوا بلاء حسناً في حرب الشام الى رتبة يوزباشي كتب إليه يقول:« .. من المعلوم يا ولدي ان مثل هذا العمل سوف تترتب عليه نتائج خطيرة على اسرتنا ولو بعد مائة عام(٥١).

وبالفعل هذا عين ما حدث عندما ترفع ابن العرب في مصر احمد عرابي الى اكثر من مرتبة يوزباشي ،فقاده وعيه وترجمته لمسيرة الظروف الى محاولة الاطاحة باسرة

محمد علي والانجليز المتحالفين معها بثورة اوشكت على الاستقلال بمصر. ولكن التجربة تكررت مرة اخرى بنجاح عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو.

الا أن بعضهم يرى ان. « فجر حركة القومية العربية انفجر في ديار الشام». وكان ذلك عام ١٨٤٧ بتأسيس جمعية ادبية متواضعة في بيروت، يرعاها الاميركان(٥٢). وقد بشر بهذا صاحب كتاب« يقظة العرب»، الذي اعتبر فتحاً جديداً لأن الجامعة العربية في مطلع تأسيسها تبنته، وانفقت على ترجمته. وقدم له مشيداً عبد الرحمن عزام امينها العام.

بيد ان هذه الفترة، التي تمتد الى ابعد من ذلك ايضا في حياة « الامة العربية» من بداية الكتابة « في اهمية اللغة العربية»، الى الاقدام والجرأة على الكلام في مزايا اللامركزية في اطار الامبراطورية العثمانية: سعياً لابراز شخصية العرب: في اقاليم أو اكتمال هذه الشخصية في وحدة مستقلة، انسياقا مع تيار القوميات الهاب من الغرب.. فهذه الفترة هي احوج واجدر ما تكون حاجة الى الدراسة والتنقيب لتصفيتها من الشوائب ، لأن هذه هي الفترة التي ادت وآلت بالنتيجة الى « الثورة العربية الكبرى»، خضعت لردود فعل مبتسرة لم يَعِها العقل العربي تمامًا، ولم يمتلك ارادته فيها... وهذا ما هيأها لكي تكون مبتسرة ولكي تتعرض للاجهاض . فمعظم جوانبها مفتعل تعوزه المعرفة والاستعلام والاطلاع على حقيقة الظروف، ومطامع الدول الغربية، ومعرفة من هم الاعداء الحقيقيون فيها.

وقد تكشف الان ما فيها من رعونة: العربي، المستعجل لئلا تداهمه ظروف الحرب التي على الابواب وتعصف بمصائر بلاد العرب، والعثمانيون المنهارون: الذين فقدوا توازنهم بفعل تطرف المهيجين الداعين الى الطورانية. ونسوا جميعاً انهم كانوا يعيشون في مناخ الماسونية، بل ربما كانوا اعضاء عاملين في الماسونية(٥٣).دون ان يقدروا خطورة ذلك، وشاركوا بتهيئة التربة الصالحة لظهور جميع اولئك المشبوهين، فأنور باشا، ابن رجل بولندي مرتد. وكان جاويد من الطائفة اليهودية المعروفة بالـ«دونمه». وكراسو من اليهود الاسبان القاطنين في مدينة سالونيكا المعروفة بالـ«دونمة»، وطلعت باشا بلغارياً من اصل غجري اعتنق الاسلامي ديناً، واحمد رضا احد زعماء تلك الفترة كان نصفه شركسياً، والنصف الاخر مجرياً، وهم من حمل لواء حركة الاتحاد الطوراني الرامية الى توثيق روابط الشعوب التي تتكلم بالتركية ، بالرجوع الى مؤسسات الشعب التركي قبل الاسلام واحياء الروح الوطنية الاصلية مضافا الى ذلك زيادة في الغرابة كتاب« قوم جديد» الذي رُوِّج كثيرا، وهو مجموعة الخطب التي كان يلقيها شيخ افغاني اسمه عبيد الله في جامع اياصوفيا، لا يعرف كيف تسرب الى الوصول ليكون خطيب جامع أياصوفيا(٥٤). وكان ثلثا الشعب الذي يتكلم بالتركية هذا الذي يريدون أن يحشدوه

في اتحـاد طوراني لا يقطن البـلاد التركيـة بل داخل الحـدود الروسـيـة. كمـا يقـول تـوينبي وكيكورد في كتابهما عن تاريخ تركيا، مضـيفين: « فكأن القصد من الحركة الطورانية، هو ان تكون عـامـلاً في تقويض الامـبراطورية الروسـيـة»(٥٥). ومع العلم، كمـا يقـول السـيـر ادوين بيرز» ان هناك اقل من جزء واحد على عشرين من السكان في معظم المدن التركية يستطيع ان يقرأ التركية ». ورغم هذا كله هيئ لمنظري القومية الطورانية، وفي مقدمتهم اليهودي فامبيري (Vampery) انه في مكنتهم تتريك الاقـوام الخـاضـعـة للامـبراطورية العثمانية، وفيهم العرب ابناء الضاد واهل القرآن(٥٦).

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر، اخذ الشرق العربي يتعرض للاختراق الغربي من لبنان، ثقافيا واقتصاديا وسياسيا، لان في لبنان تركزت نقاط ضعف الامة العربية. ففي لبنان، حيث وجدت، على هذا السـاحل، جميع تيارات مخلفات العصور الاسـلامية وغير الاسـلامية، من العقائد فرجات تستحم فيها بمياهه، عثر الغرب الناهض في تجمعات المسـيحيين، على اختلاف طوائفهم، على ركائز يمد عليها جسوره الى الداخل. وكانت سـيـاسـة الدولة العـثمانيـة الطائشـة، المبنيـة على التعـصب الطائفي والتـفرقة بين الملل، المـوروثة عن البيـزنطيين، أنست هؤلاء المسـيـحـيين تلك العصـور الزاهرة من التـعـاون والتعاطف والمحبة التي انقضت في المشاركة بين العرب المسلمين والعرب المسـيحيين، فطفقوا يوثقون ارتباطاتهم ببلاد الغرب، وشيئاً فشيئا حلت الرابطة الدينية محل القومية. فما لبث بعض مسيحيي المشرق أن انساقوا وراء «تبشيرهم» فصاروا يسعون للحصول على كراسي مجانية للتعليم الديني في روما، وفي بطريركية فرنسا. يعود الخريجون منها ليتولوا قيادة الجماعات الدينية في المشرق(٥٧). كما أن ايران اخذت تمد حبال صـلاتها بالشـيـعـة في لبنـان ايضـاً. ولذلك مـعـانٍ كبـيـرة، اذا مـا نظرنا اليـه من خـلال العـلاقـات العـثمـانيـة– الايرانيـة. وبعد ان كـان مـحـرمـاً على اية فئة الاتصـال او العـلاقة بمـا يريب بالخارج، الا من خلال الدولة القائمة، صارت العلاقة بالخارج مباهاة من فوق هامة الدولة، وحماية وتسابقاً الى هذه الحماية .

ففي لبنان، ومن خلاله، وجدت الدول الكبرى « الناهضة» الغربيـة، وبخاصـة فرنسـا، ثم امريكا وروسـيا القيصرية، نقاط ضعف لاختراق سياج الهيمنة العثمانية وانفاذ« انوار التـمـدن الحـديث» الى ليلهـا المظلم الطويل. فـمنذ اوائل القـرن الثـامن عشـر، تقـاطرت الارساليات المسيحية، ومنها المنفية من بلادها، الى المشرق، وراحت تتنافس فيما بينها، وقد فتح « اليسوعيون» مدارسهم في بيروت وغزير وزحلة ودمشق وحلب، وأعاد الاباء

العازاريون فتح كليتهم في عينطورا، وتوالى ايفاد البعثات التبشيرية ،وانشاء المؤسسات الثقافية دينية كانت ام علمانية. وعلى رأسها الجامعة اليسوعية :(مدارس،كليات، مدارس راهبات، اديرة، مستشفيات، ملاجئ للايتام ، مستوصفات) امتدت إقامتها أو اثارها الى المناطق النائية في داخل سوريا. فتحت بلاد الشام، ابوابها على مصراعيها للغرب، بعد ان كانت «شام شريف» محرمة عليه، قبل حكومة ابراهيم باشا، الذي وفد اليها في زمانه اول قنصل انكليزي(٥٨)، ثم تقاطر إليها القناصل والسياح والتجار.

وكانت الارسالية المسيحية الامريكية قد وصلت لبنان عام ١٨٢٠، وحتى عام ١٨٦٠، كانت قد فتحت ما لا يقل عن ثلاث وثلاثين مدرسة. بدأت تعليم المواد فيها باللغة العربية في كل المواد خاصة التي أصبح تعريبها الان يشكل عقبة كأداء مثل الطب .ولم يكن الروس أقصر باعا في زحمة التسابق . ولا سيما بعد ما نالوه من امتيازات في معاهد كوتشك كاناردجي سنة ١٧٧٤ من العثمانيين.

و لقد بلغ عدد مدارسهم في سورية سنة ١٩١٠ أكثر من مئة مدرسة، يتعلم فيها اكثر من عشرة الاف طالب. الا ان الاسس الغربية الاجنبية التي نجحت تلك الارساليات في تنشئة الاجيال الجديدة عليها متشبعة اكثر ما تكون بالروح الفرنسية، وطرائق الفكر الفرنسي اذ جعلت الحكومة الفرنسية امداداتها المالية إليها- المعونات - على اساس مدى نجاحها في نشر التعليم ومقامها في المجتمع، وما تقدمه لفرنسا من خدمات (٥٩).بذلك انتشرت اللغة الفرنسية على نطاق واسع بين المسيحيين والمسلمين على حد سواء. وامتدت العلاقات بين الاسر. في البداية تمثل ذلك في وسيلتين: تقديم الخدمات الطبية للمرضى والتبشير بالانجيل وهما وسيلتان متلازمتان، كما يقول غريغوري ورثبرت(Worthebert) وهو من كبار المبشرين ،تكمل الواحدة منهما الاخرى»..لكن اثر هاتين الوسيلتين: الوعظ والتطبيب يظهر في نفوس البالغين والمتقدمين في السن.. غير أن « هناك وسيلة ينحصر اثرها العميق في نفوس الصغار، وسيلة تكون اذا أحسن استعمالها، وبمعونة الله جل جلاله، السبيل السوي لبعث الحياة الجديدة في البلاد السورية ، أعني تربية النشء الصغير في هذه البلاد. وحجتي هي اننا أسسنا اليوم في جميع انحاء سوريا مدارس كالمدارس التي اشرت إليها آنفاً ، لا سيما ان الحاجة ماسة اليها والناس يطالبون بها، فمن يستطيع ان يتصور خطورة النتائج التي ستسفر عنها هذه المدارس في الاجيال الطالعة. ومن منا يشك لحظة في قيمة الاثر الذي تتركه هذه المدارس في حياة سوريا الاجتماعية والخلقية».

والى جانب ذلك سعت فرنسا- قبل الحرب العامة الاولى بزمن طويل - الى ان تؤسس لها صحافتها التي تبث افكارها، وتعبر عن وجهة نظرها، وتحارب بها نفوذ الدول الأخرى، كلما امكن ذلك ،و« السكان» و« الاتحاد اللبناني» و« الاحوال» و«النفير» و« زحلة الفتاة» و« الثبات»و « البشير» .. كلها كانت جرائد تعمل على بث وتوطيد النفوذ الفرنسي وتبشر به في البلاد(٦٠). ومهدت لأعوانها البارزين من الكتاب مجالات أوسع لخدمتها والعمل فيها، ومنحهم الجنسيات التي تحميهم، والاغراءات التي تنتج فيها مواهبهم، مثل الدكتور جورج سمنة، والدكتور شكري غانم، صاحب مسرحية « عنترة» المشهورة، ثم نائب رئيس المؤتمر العربي الاول فيما بعد، ورحبت بانعقاد هذا المؤتمر في كنفها، في باريس ضد الدولة العثمانية، وعيَّنت خير الله خير الله « الداعية العربي المعروف» عضو المؤتمر العربي الاول« السوري» في جريدة الطان(E Temps) في باريس ليكتب له الفصول عن احوال سوريا ولبنان . ومكنت رزق الله ارقش وخليل زينية عضو المؤتمر« العربي» الاول ايضا فيما بعد من الهروب الى مصر . وبذلت المال، الذي كان احياناً كفيلاً باسكات الصحف المناوئة . وهكذا ما لبث محمد كرد علي، صاحب القبس الذي كان يناهض التيارات الغربية صراحة أن اخذ يكتب داعيا الى ضرورة افتتاح مدارس فرنسية، على ان تكون علمانية وذلك «لتعلق المسلمين بالثقافة الفرنسية، ولتوفير عناء ارسال اولادهم عليهم الى مدارس بيروت (٦١). ثم ما لبث ان انتقل من الدعوة للثقافة الفرنسية، الى امتداح الاستعمار الفرنسي ،وتفضيله على الاستعمار الالماني كأنه مقرر للعرب ان يختاروا احد الاستعماريين :« إذ شتان ما بين الفرنسيين الوديعين خفاف الروح، الاجتماعيين، والالمان المنطوين على انفسهم الذين يعيشون في احياء منعزلة، مغلقة على نفسها كالجيتو(شأن الاسر الثمانين التي عاشت في حيفا عام ١٨٦٨) في حياة متكاملة تكفي نفسها بنفسها، لم تتعلم من العربية حتى ولا تلك العبارات القليلة الضرورية للاحتكاك بالأهالي، على عكس الفرنسيين. فأن اللغة الفرنسية بآدابها وتاريخها وحضارتها، المنتشرة في سوريا بفضل البعثات الدينية التي تعتمدها الحكومة الفرنسية ، تجعل الفرنسي القادم الى هذه البلاد يحسب انه في بلاده، وان السوري المسافر الى فرنسا لا يجد نفسه غريبا فيها(٦٢). ولذلك ادرج اسم مجلته في قائمة الصحف العربية التي تتلقى معونة من فرنسا، ودعي ورحب به لزيارة باريس، ورأى القنصل الفرنسي في قلق صاحب جريدة الكرمل في حيفا من تغلغل النفوذ الالماني بواسطة الصهيونية، واندفاعه لمهاجمته بدافع كراهيته للصهيونية وتسربها الى فلسطين، ما يؤيد النفوذ الفرنسي بصورة غير مباشرة(٦٣)، فراح يشجعه ويستميله حتى انتقل الى التأييد صراحة :« فما دامت حكومتنا - الحكومة العثمانية تجد نفسها مضطرة لمنح فرنسا امتيازات موانئ وطرق حديدية ومشاريع اقتصادية اخرى في سوريا للحصول منها على المال اللازم

للانفاق على الجيش والموظفين والدفاع عن البلاد.. وبالنظر الى ان الدول الاوروبية متفاهمة مع فرنسا ،ومتواطئة على عدم معارضتها في سوريا..فلسنا نملك نحن امر حرمان فرنسا من مزاياها الاقتصادية، بل يجب ان نتأكد من ان كل مقاومة من جهتنا يمكنها الاضرار بمصالحنا الخاصة». وفضلاً عن هذا كان الالحاح متواصلاً من جانب وزارة الخارجية الفرنسية على قناصلها ،للعمل على استصدار صحف تنطق باللغة الفرنسية، وايجاد مدراء مسؤولين محليين ،وتقدير المعونات المالية اللازمة لذلك.(٦٤).

وعليه، كثيرًا ما قيل وتردد بان فرنسا لا تملك في سوريا الا مصالح« عاطفية» كهذه على حد قول بيكونفيلد(٦٥)(Biconfild) وانها لا تسعى الى الاستعمار كانجلترا لاسباب اقتصادية ،وانما لاعلاء شأن الامة الفرنسية والحضارة الفرنسية، وتوفير المجال لاعمال الوطنيين المتحمسين(٦٦). والحقيقة ان المصالح الاقتصادية كانت تنتشر وراء اصوات الاعتزاز بالثقافة الفرنسية، ومظاهر التهويل من دور الحضارة الفرنسية (٦٧) فان مصالح فرنسا المادية في تركية، سواء أكانت على شكل قروض للدولة، او موظفة في امور اقتصادية وتجارية، كانت تبلغ ٦٥ بالمائة إذا قيست باجمالي مصالح الدول الاخرى. وكانت غالبية البنوك والسكك الحديدية والموانئ في ايدٍ فرنسية ، وكذلك المشاريع الاخرى، من مناجم ومياه وغاز وتبغ وطرق واستثمارات زراعية وصرافة وشركات عقارية(٦٧).

وكانت تؤمن هذه المصالح منذ زمن طويل ثلاثة خطوط بحرية فرنسية تربط موانئ فرنسا بشرق البحر الابيض المتوسط : ١- الميساجيري(Messageries) البحرية التي تملك مصلحتين متميزتين: النقل السريع والنقل العادي: ٢- شركة سبريان فابر(Cyprien ,Faber) وتملك خطاً مباشراً بين بيروت ومارسيليا ماراً بيافا ، والى نيويورك ماراً ببيروت ويافا والقسطنطينية وبيريه.٣- الشركة البحرية الاستعمارية التي تربط بيروت وشرق البحر الابيض المتوسط بمارسيليا بالدرجة الاولى (٦٨). وذكرت نشرة غرفة التجارة بليون(Lyon)« أن سوريا، وهي بلاد الحرير المرتبطة بسوق ليون العظيم، الذي اصبح منذ افتتاح قناة السويس اعظم مراكز العالم للمواد الحريرية. وترسل لنا مقدار خمسمائة الف كيلو من الحرير سنوياً، بما قيمته ٢٥ مليون فرنك. ولم يكتفِ مواطنونا باستيراد المنتجات المعدّه محلياً، بل اقاموا هناك ، وخاصة في لبنان مصانع للغزل. وأصبحت تلك المنتجات التي كان شراؤها يتطلب ربيع كل سنة اموالاً هائلة تشترى بارباح أموالهم الموظفة هناك، وفضلا عن انهم اصبحوا يعرفون مراكز الانتاج في تلك الديار،باتوا يجسدون فرنسا التاريخية (٦٩).

وفي الداخل عززت فرنسا هذه العلاقات بشبكة من السكك الحديدية. صحيح أن الماليين الفرنسيين كانوا ينظرون لأي مشروع من مشاريع السكك الحديدية من زاوية المردود فحسب، ولا يهتمون بغير ذلك، كما قال السيد شارل رابوت(Charles Roibot)، لذلك نراها جميعها تنطلق من ميناء على البحر، مثلا: طرابلس، بيروت، يافا، للانتهاء بمدينة في الداخل تتجمع فيها المصالح(٧٠). الا انها كانت تؤمن المطلوب منها. وهي: أ- الطريق العريض الذي بنته شركة تأسست سنة ١٩٠٣، ويرمي الى ربط شمالي سوريا ببغداد ثم البصرة، ولم ينفذ كله. وكان القسم المنفذ منه ينطلق من حلب، فينقسم الى فرعين. احدهما يقطع الحدود السورية التركية عند تشوبان باي،(Tchoben-Bey) وينتهي عند نصيبين ماراً بجرابلس ورأس العين، والثاني: ويخترق تركيا الى القسطنطينية ماراً بطوبراق كالية (Toprak-Kale) وادن وينجيه(Yenidje) وكونيا(Konia) واسكي شير (Eski-Cheir) وهو طريق قطار الشرق السريع الذي يربط باريس بحلب في خمسة ايام. ب- الـ (.D.H.P) وهي شركة فرنسية تتفرع الى ثلاث طرق: دمشق- بيروت- رياق -حلب ١٩٠٢، وحمص - طرابلس؛ وفي عام ١٩١٤ حصلت فرنسا على امتياز خط من حمص الى دير الزور: لم ينفذ. جـ- خط الحجاز ويصل دمشق بدرعا ثم المزيريب(١٨٩٤). وفي درعا يتفرع الى فرعين، يتجه احدهما الى حيفا، ويقطع فلسطين الى مصر، ويتفرع منه طريق الى القدس، والثاني يتجه من درعا الى عمان، ويعود الى الحجاز(٧١)وفي عام ١٩١١، قبيل بدء المباحثات الدبلوماسية التي انتهت بسايكس - بيكو، كانت رؤوس الاموال الفرنسية المستخدمة في سوريا تتجاوز (١٥٠) مليون فرنك(٧٢) فضلاً عن امتلاك فرنسا لشركة الترام اللبنانية شمال وجنوب بيروت،واسهاماتها في شركة الجر والتنوير في سوريا الداخلية(٧٣).

* * *

وهكذا، على الرغم من ان الرأسماليين والاستعماريين في دول الغرب كانوا يجوبون اقطار الامبراطورية العثمانية المنهارة، في اواخر القرن التاسع عشر، واوائل القرن العشرين باحثين عن مجالات الاستثمار والاستغلال، وتركيز المصالح بلا تفريق.. إلا أنه ما ان هلّ العقد الثاني من القرن العشرين، حتى تكشفت قوى أولئك الرأسماليين عن تمركزها في اماكن معينة تنفرد بها دون غيرها او اكثر من غيرها. فبات واضحاً، مثلا، تمركز النفوذ الفرنسي بمختلف اشكاله في سوريا. فمنذ عام ١٩١٢، حصل بوانكاريه(Poinecarre)، وهو وزير للخارجية من السير ادوارد غراي(Grey) وزير خارجية انجلترا على تصريح بان انجلترا تؤكد عدم اهتمامها السياسي، فيما يتعلق بسوريا(٧٤) ومن هنا راحت الدبلوماسية، وهي تحيك خيوط تقسيماتها لحدود حصصها

على خريطة المشرق العربي ، تراعي هذه المصالح،في وضع اتفاقيات سايكس- بيكو،ثم بعدها سان-ريمو. واذا كانت مصالح فرنسا هذه ،عندها، واضحة بالارقام، إضافة الى ما تدعيه من « حقها التاريخي» في المشرق العربي، فان مرتكزات مطالبات انجلترا في تلك الاتفاقيات أوضح وامتن:« الطريق الى الهند الذي مهدت له ، منذ القرن الماضي بتمركزها في البصرة وبالخليج وصلاتها بالقبائل، وبحصولها على التأييد الصهيوني بالخدمات المتبادلة ،اذ منذ ان امتنع السلطان العثماني عن الاستجابة لمطالب وايزمن وقيدت حركة اليهود في الاماكن المقدسة التي تسامح فيها ابراهيم باشا، فراحت قنصلية بريطانيا التي فتحت منذ ايامه تؤدي الخدمات اللازمة لشراء أراضٍ باسم «الأليانس» بوسائل غير مستقيمة لمصلحة اليهود.

وبلغ العنف والحدة في القومية التركية حد تغيير اسماء الشوارع ومحو اسماء الخلفاء من الجوامع.. الخ وفي الحقيقة ان ظهور القومية التركية بهذا المظهر من العنف والتحدي هيأ التربة لبذور القومية العربية وحركة الانفصال. وأسفر برنامجها عن نتائج كانت حافزاً قوياً للتشديد على القومية العربية في المطالبة بالاستقلال التام. فقد ألهبت السياسة العرقية شعور العروبة في النفوس. لأن اللعب على القومية العربية في المطالبة بالاحاسيس القومية في امبراطورية تتالف من قوميات ، يولّد اذكاء الروح القومية في مختلف الاطراف منافسة وعداء يؤديان في النهاية الى خراب الجميع لا سيما اذا وضعنا في اعتبارنا ان هناك من ينفخ دائماً في الكور وله مصلحة في تهور جميع الاطراف، وهو الاستعمار.

وكان هناك من ينصح بان هذا التطرف ليس في مصلحة احد من الاتراك والعرب حتى ضياء غو قالب (Ziya Gokalp) « الذي يعتبره كثيرون الاب الروحي للقومية التركية..» كان يقول :« ولا شك في ان العرب الذين ينقصهم التنظيم المدني والعسكري يفيدون من هذا الاتحاد، وإلا فانهم يقعون فريسة في قبضة الدول الغربية فور انفصالهم عن اخوتهم الاتراك»(٧٥). وكان الامير صباح الدين بن الداما محمود باشا، وابن اخت السلطان عبد الحميد مؤسس اللامركزية في منفاه في باريس، والرابطة اللامركزية بعد عودته، يحث الاتراك والعرب على ان يظلوا متحدين تحت لواء العثمانية(٧٦). وكان ابرز العرب، من حملة هذا اللواء الامير شكيب ارسلان بالقول والكتابة، خصوصاً في التنبيه الدائم من مغبة علاقة العرب بالغرب(٧٧)، وخطر الغرب الاستعماري الداهم على العرب.

المؤتمر العربي(السوري) الاول في باريس:

لقد كانت ترجمة احاسيس التذمر في اوساط العرب بالمطالبة بالاصلاح. وتعالت اصوات المطالبة بالاصلاح في بيروت ودمشق، إذ رأى قادة العرب ان فساد الحكومة

المركزية في استنبول ، وفساد الحكومات في الولايات المختلفة، هو سبب البلاء ومصدر كل شر. بينما كانت الدولة تنظر الى الاصلاح على انه شيء مادي يجب ان يتحقق كتجفيف مستنقع او شق طريق، او جعل مجرى نهر صالحاً للملاحة(٧٨) وعلى هذا اسس زعماء الاصلاح في ولاية بيروت جمعية دعوها« جمعية الاصلاح العام في ولاية بيروت » ، مؤلفة من ٨٦ عضواً (٤٢ مسلماً و١٦ من الروم الارثونكس و١٠ او ١٢ من الموارنة و٦ روم كاثوليك، واثنان من الانجيليين ،واثنان من السريان الكاثوليك، واثنان من الارمن الكاثوليك، واثنان من الطائفة اللاتينية ويهوديان(٧٩)، تنتخبهم المجالس المحلية، وينتخبون هم لجنة تنفيذية عدد اعضائها خمسة وعشرون عضواً. ثم اصدروا نشرة سموها اليقظة ، واسسوا ناديا سموه نادي الاصلاح. وفي الاجتماع الثالث وضعوا برنامجاً يتضمن ١٥ بنداً، عرفوا في التوطئة الحكومة العثمانية انها« حكومة دستورية تمثيلية». وكان جوهر الاصلاح يدور حول مطلب رئيسي هو اللامركزية. واطرف ما في البرنامج المطالبة باستخدام خبراء مستشارين ومفتشين من الاجانب.

كانت ردة فعل السلطة التركية ان اعتبرت جمعية الاصلاح البيروتية غير قانونية ، فاقفلت ناديها. وبالمقابل صدرت جميع الصحف باستثناء واحدة، وعلى صفحتها الاولى قرار الوالي بإلغاء الجمعية، واقفال النادي مجللاً بالسواد، وتركت الصفحات الاخرى بيضاء(٨٠). فاضطربت الخواطر، وبعد ثلاثة ايام اقفلت المحال التجارية احتجاجا على القرار. فقد كان اعضاء الجمعية يبدون نشاطاً سياسياً غير مألوف في البلاد. وقد حدث اضطراب في مدينة بيروت ، واظهر الناس امتعاضهم. وغير حزب اللامركزية في مصر ، لم يكن في مقدور احد المدافعة علناً، فارسل برقيتين شديدتي اللهجة احتجاجاً على قرار اغلاق الجمعية، واحدة الى الصدر الاعظم في الاستانة،وواحدة الى الوالي في بيروت. غير ان الحكومة في الاستانة ظلت تعتبر أن الجمعية تخطت حدودها وتصرفت تصرفا غير قانوني. الا ان تأييد الاهالي مضى الى جمع ١٢٠٠ توقيع على عريضة تأييد للجمعية من اعيان بيروت،رفعت الى الوالي. فكان رد الصدر الاعظم أن الطريق الصحيح للمطالبة بالاصلاح ،هو ان يطالب الاهالي به بواسطة نوابهم في المبعوثان.

وصار لابد من التداول وبلورة الافكار بين العاملين في قضية العرب ،خاصة وان اعضاء الفتاة في باريس، واوساط الجالية السورية كانوا يفكرون منذ زمن بعرض القضية العربية، وابرازها الى الوجود. فجاءت مسألة جمعية الاصلاح البيروتية تهيىء الفرصة الملائمة وتعدّ النفوس.

وقد أجمل جامع كتاب المؤتمر ، محب الدين الخطيب، السكرتير الثاني في اللجنة العليا لحزب اللامركزية، فكرة تشكيل الجمعيات قال:« .. ولما تهيأت دواعي هذه النهضة الشريفة، كان كلما كاشف صديق صديقه بما يخالج نفسه من ذلك أحس هذا بانه انما

يسمع ترجمة افكاره، وينظر في مرآة مشاعره. وبهذا الحس العام المشترك الذي يكاد يشبه التواطؤ جمع عقلاء الامة شملهم وبدءوا بتنظيم سيرهم. وما كانت الفكرة الصالحة تعرض للواحد أو الاحاد حتى تلتف الجماعات من حولهم، فيكونوا من ذلك قوة جديدة لهذه النهضة الجديدة. وعلى هذا الاساس الفطري الجميل تأسس حزب اللامركزية وفروعه في البلاد...»(كتاب المؤتمر العربي الاول ص، ٤).

وبدافع الوئام هذا، كأن العرب لقوا انفسهم فيه، وتعرف بعضهم على بعض ، عندما اتخذت تركيا الفتاة من الوطنية المتطرفة وفكرة التفوق العرقي اساساً لبناء تركيا الجديدة، افراح قادة العرب يفكرون بمستقبل اوطانهم بالاسلوب ذاته، اسلوب التنظيم والاحزاب، فاسفر الامر عن تأسيس عدد من الجمعيات العربية والاحزاب السياسية للدفاع عن قضايا العرب وحقوقهم. وكان مؤسسوها من الشبان العرب المثقفين المفكرين. نذكر منها: جمعية الاخاء العربي العثماني، المنتدى الأدبي. الجمعية القحطانية، العلم الاخضر، العهد، وجميعها تأسس في اسطنبول، ثم جمعية بيروت الاصلاحية وجمعية البصرة الاصلاحية، والنادي الوطني العلمي في بغداد، ثم حزب اللامركزية الادارية العثماني، في القاهرة اسسه جماعة من السوريين من اهل الفكر والخبرة السياسيةوكان من بينهم لبنانيون وفلسطينيون هاجروا الى القاهرة، بمعرفة الحكومة التركية، وقد كان من حق كل مواطن عثماني عربياً كان ام غير عربي، ان ينضم الى الحزب ،شريطة ان تتفق مبادئه السياسية مع مبادئ الحزب.

وقد نشر هذا الحزب بيانا يوضح فيه مبادئه ومنافع اللامركزية التي يدعو اليها، في بلد يضم قوميات مختلفة ،كما كانت الحال في الامبراطورية العثمانية، واسس له فروعا في سائر البلاد الشامية . وكان يعلن ان الغاية من تأسيسه هي المحافظة على الامبراطورية من الاخطار الخارجية ومن المنازعات الداخلية، وخلق الشعور بالولاء، الخ... وكانت صحف السوريين في القاهرة (٨١) تنطق باسمه، وتجاريها احيانا الصحف المصرية.

وقد قدر للـ(فتاة)أن تلعب الدور الاكبر في حياة العرب المشرقيين من بين جميع الاحزاب والجمعيات العربية، بالنظر الى أن عناصرها المؤسسين كانوا في فترة حل الجمعية الاصلاحية البيروتية ما يزالون يتابعون دراستهم في باريس حيث لجأ عدد من اعضائها، وحيث كانت الجالية السورية غفيرة العدد، وذات نفوذ كبير، فيها شخصيات ذات شهرة وثراء: مثل شكري غانم الاديب، وعلى علاقات متينة بوزارة الخارجية، وندرة مطران، والدكتور جورج سمنه، وخير الله خير الله الكاتب في اكبر جريدة هي الطان.

وهكذا تم الترتيب لعقد مؤتمر في القاعة الجغرافية الكبرى في باريس، شارع سان جرمان، فيما بين ١٨و٢٢ حزيران/يونيو ١٩١٣، وانتخبت لجنة عن الجالية العربية مؤلفة من شكري غانم ،عبد الغني العريسي، ندرة مطران، عوني عبد الهادي، جميل مردم، شارل رباس، محمد محمصاني، وجميل معلوف . واخذت هذه اللجنة على عاتقها مراسلة الجماعات العربية الكبرى في كل جهة، ومفاوضتها في الامر، واتخذت قراراً بالارتباط بحزب اللامركزية في مصر بصفة رسمية، فارسلت في ٤ نيسان ابريل كتاباً« تعرض عليها فيه ان تكون لجنة الحزب قدوة المؤتمر، ومصدر عمله ، وتقترح عليها انتخاب من يمثلها في المؤتمر ،وانها ستعهد برئاسته الى احد ممثلي الحزب..» .فوافق حزب اللامركزية الادارية العثماني في جلسة لجنته العليا، المنعقدة في ١١ نيسان/ ابريل، وارسل رفيق العظم الموافقة بقبول الدعوة، وانتدب عبد الحميد الزهراوي، المبعوث السابق لحماة وصاحب جريدة الحضارة ، واسكندر عمون، رئيس الاتحاد اللبناني، المحامي في مصر لتمثيل الحزب في المؤتمر.

وفي شهر حزيران / يونيو قبيل انعقاد المؤتمر صرح عبد الحميد الزهراوي لمندوب جريدة الطان الفرنسية يجمل دواعي انعقاد المؤتمر قائلا :« ان ما حدث في ولايات الدولة العثمانية باوروبا من الحوادث الخطيرة ، دعانا الى التفكير ، وامعان النظر في الحالة الجديدة التي دخلنا فيها، واتخاذ الوسائل الضرورية لاتقاء نتائجها، ذلك من جهة، ومن جهة ثانية فان العرب يؤلفون عنصرا مهما بعدده، هذا اذا لم نقل عنه انه اهم العناصر العثمانية كلها .ولهذا العنصر العربي ميزة بين العناصر الاخرى بوحدة لغته وعاداته ومصالحه وميوله، وان هذه الخصائص قد احدثت له حقوقاً كانت مهملة حتى الساعة..»(٨٢). هذا ظناً منه بل ومن المشارقة كافة بان لا مطامع للغرب في بلادهم.

وانعقد المؤتمر ، وعقد اربع جلسات دارت حول المباحث التالية : الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال، وضرورة الاصلاح، وحقوق العرب والمهاجرة من سورية واليها ولا مندوحة من القول بانه لم يتطرق الى الصهيونية، لا من قريب ولا من بعيد، وان المهاجرة الى سوريا ومنها لم تكن تعني في اقوال المؤتمرين « اليهود» البتة. على الرغم من ان الحركة الصهيونية كانت تتوقع ذلك وتخشاه، وقد حشدت عددا من المراسلين بغية درء ذلك.

كذلك واضح من مباحث المؤتمر ان ما يشغل بال عرب المشرق، غير موضوع الاصلاحات هو حال الامبراطورية العثمانية، وما قد يطرأ عليها من تفكك، والتنويه بأهلية العرب بدون تصريح وبدون وضوح. ولم يتطرق احد الى الاستعمار، والى مطامع الدول في البلاد العربية.

في غضون ذلك كانت انجلترا وفرنسا تنسجان، بمحاولة التفاهم مع روسيا القيصرية اتفاقية سايكس- بيكو لتقسيم المشرق العربي. وكان بلفور وزير خارجية بريطانيا يعطي فلسطين وطناً قومياً لليهود، هو لم يحكمه بعد، وكأنه مازال عندها خاضعاً للدولة العثمانية، وتسعى انجلترا حثيثة الخطى لعقد الصلات مع الشريف حسين« شريف مكة » بوعود زاهرة للمستقبل ،ثم يعمل مدير مكتب استخباراتها في القاهرة « وينجت» على استكمالها بالوعود الى « السبعة الكبار» من السوريين واللبنانيين.

اغتيال الوعود قبل ان تتحقق:

في مصر، الخاضعة للانجليز ولاسرة محمد علي، وهي ما تزال اسمياً على ولائها للدولة العثمانية، اخذ« اللاجئون» العرب الجدد الفارون من سوريا، من صفوف الجيش العثماني، يلتقون بالـ«جالية» السورية النشطة التي تكاثرت اعدادها قبيل الحرب وتعددت مشاربها السياسية. وراح الانجليز يستعينون بالنابهين منهم لاقناع الاسرى المعتقلين في معسكرات المعادي وتجنيدهم في صفوف الحلفاء، وحشدهم للدور المنتظر وما لبث تيار الموالاة للسياسة البريطانية بينهم ان تغلب على تيار الموالاة للفرنسيين، رغم عراقة وقدم صلة الفرنسيين بالسوريين غلبة ظاهرة ، يتضح مداها وشعور الفرنسيين بخطورتها في المرارة التي يلمسها كل من يراجع تقارير بعثاتهم الدبلوماسية والعسكرية في مصر والحجاز ،حتى لقد بات دي فرانس(De france) القنصل العام في مصر يخشى اثرها على سياسة الوفاق بين الدولتين: فرنسا وانجلترا في الحرب(٨٣). ولعبت صحف السوريين ، على الرغم من ان وثائق وزارة الخارجية الفرنسية تشير الى ان بعضها كان يتلقى منها كذلك معونة- وان تكن متقطعة، دوراً متعاظماً في ترويج الدعاية للانجليز، وتغليب وجهة نظرهم على الاتراك، وخاصة جريدة الكوكب، جريدة الجيش الزاحف الى سوريا، التي كان يتولى ادارتها الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، الزعيم الدمشقي، ويشرف عليها مباشرة الجنرال كلايتون (٨٤) وتشير المصادر الفرنسية الى ان الانجليز كثيراً ما كانوا ينفردون بالاتصال بداخل البلاد، وبالدعاوة لهم فيها بإلقاء المناشير من الطائرات في داخل البلاد، او بايصالها بوسائل اخرى الى قرى الساحل.

ومنذ الايام الاولى من الحرب حصل الانجليز على تفويض من روسيا وفرنسا لتتولى حكومة الهند التصريح بتعهد انجلترا بحماية الاماكن المقدسة في حال دخول الدولة العثمانية الحرب(٨٥). ثم كان من الواضح ، ان الانجليز هم الذين يمدون« الثورة العربية» بالسلاح والمؤن ويخططون لها.

وفي ذروة الاندفاع لمحاربة العثمانيين لم تجد محاولات بذر الشك والريبة بين الحلفاء والعرب. فقد ابدت الحكومة البريطانية« عظيم الارتياح»، للدوافع المخلصة» التي

دفعت بالملك حسين الى اطلاعها على الكتابين اللذين وجههما القائد العام التركي في سوريا الى سمو الامير فيصل وجعفر باشا. واعلنت انها..«مصممة كذلك على مساندة الشعوب العربية في كفاحها لانشاء عالم عربي يحل فيه القانون محل المظالم العثمانية، عالم عربي جديد تحل فيه الوحدة محل المنافسات والحزازات المصطنعة التي كانت تثيرها سياسة الموظفين الاتراك. ان حكومة جلالته تؤكد مرة اخرى تمسكها بتعهدها المتعلق بتحرير الشعوب العربية »(٨٦).وفي ٤ كانون الثاني ١٩١٨ تلقى الملك حسين بطريق السيد د.ج. هوجارت(Hogarathe) رسالة اكدت « عزم دول الحلفاء على افساح المجال التام امام العرب مرة ثانية لينشئوا لانفسهم دولة في هذا العالم. ولا يمكن ان يتحقق هذا الامر الا على ايدي العرب انفسهم اذا ماتحدوا . وستستمر بريطانيا العظمى مع حلفائها في اتباع سياسة تستهدف هذه الوحدة العربية».

ولم تمض ستة اشهر على ذلك، حتى اصدرت الحكومة البريطانية، متفردة ايضا، تصريحاً حول استقلال العرب وسيادتهم، يعرف بالتصريح الى السبعة السوريين، وصفه بعضهم انه «اخطر ما اصدرته بريطانيا لتوضح سياستها نحو الثورة العربية»(٨٧)، وذلك على اثر هياج شعور العرب بصدور، وعد بلفور ، واذاعة اتفاقية سايكس- بيكو، والشكوك والمخاوف التي سادت الوطن العربي ،وما انتاب اعتقاد الناس من زعزعة بصدق الحلفاء. وقد تقدم سبعة من السوريين الموجودين في مصر بكتاب الى الحكومة البريطانية بطريق« المكتب العربي» في القاهرة، توخوا فيه ان يعرفوا ما اذا كان هدف الحكومة البريطانية ان ينعم سكان البلاد العربية « بالاستقلال التام الناجز» ، واذا كانت تؤثر اقامة حكومة عربية لا مركزية »، وما اذا يمكن لسوريا ان تقيم لنفسها ادارة حكومية مستقلة ضمن مملكة عربية مستقلة. ولم يغفلوا التنويه بثقة العرب ببريطانيا ، واعتمادهم عليها، واستعدادهم لمناصرتها(٨٨). وعليه صدر ما عرف بالتصريح الى السبعة السوريين في ١٦ يونيو (حزيران) ١٩١٨، وتسلمه الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في القاهرة في ٢٢ منه، من والروند(Walrand) والكومندان هوغارت(٨٩).

فضلا عن ذلك لم يستطع الفرنسيون لاسباب عديدة، لا مجال هنا للتعرض لها، المشاركة بدور فعال، معادل وموازٍ على الاقل لدور الانجليز في حملة اللنبي لتحرير سوريا. وكان تعيين جورج بيكو(٩ نيسان- ابريل- ١٩١٧) الذي عرفت الاتفاقية الثلاثية لتقسيم المنطقة، باسمه، مفوضاً سامياً في سوريا وفلسطين، في ذروة هياج الشعور العربي، بالغ الحمق وقصر النظر، في حين كان الانجليز يقلصون ما امكنهم من ذكر زميله مارك سايكس، على المسرح. واذا كان ما نشر حينئذ ورُوجّ له، على انه تعليمات وزارة الخارجية الفرنسية اليه للعمل بموجبها في فلسطين وسوريا صحيحاً، غير مدسوس او مشوه، فان قصر نظر السياسة الفرنسية يكون قد تجاوز الحدود، وبعد« تحرير »

فلسطين، واتاحة فرصة المشاركة فيه للفيلق وللجنة اليهودية لاغاثة يهود فلسطين، وكانت في حقيقتها لجنة عمل، ولا تخفي عداءها للفرنسيين، ثم دخول اللنبي الى دمشق، حرص الانجليز ، وان بقي ضباطهم ملازمين لممثلي فيصل اينما ذهبوا في ارجاء سوريا ولبنان، على ان يتواروا خلف الدعاية الشريفية، وعلى ان يعلنوا بدهاء، رضاءهم وتأييدهم لقيام دولة عربية مستقلة في سوريا الداخلية، على الاقل ، اي في« بلاد العدو المحتلة».

وفي بيروت كان عمر الداعوق قد شكل حكومة عربية بعد مغادرة الاتراك لها، وفي بعبدا ، مقر الحكومة اللبنانية، انتخب الموظفون مالك شهاب وعادل ارسلان لتسلم رئاسة الحكومة، وبعد ايام من وصول شكري باشا، وارتفاع العلم العربي على دوائر الحكومة في بيروت أمام اعين القائد الحربي الفرنسي، الذي كانت بواخره الحربية تنتظر الاشارة خارج الميناء و جيوشه الى البر. جرى الاحتفال رسمياً في بعبدا بتعيين حبيب باشا السعد، بعد مداولات طويلة. رئيسا للحكومة الجديدة في لبنان باسم الملك حسين. ورفع العلم العربي فوق سرايا بعبدا، واقسم رئيس الحكومة يمين الولاء والاخلاص لحكومة فيصل العربية في دمشق وللملك حسين، ولم يكن يهم الاهالي ان يعرفوا من الذي اوفد شكري باشا، ولم تشغلهم خفايا السياسة، بل كان المهم لديهم انهم رأوا العلم العربي يرفع على دوائر الحكومة. وصارت الخطبة باسم الملك حسين، و ساد شعور ان التاريخ العربي بعث من جديد.

وبعد نزول الفرنسيين الى البر قادمين من بور سعيد ومن حيفا :« انزلت جميع الاعلام العربية في ظلمة الليل عن مباني الحكومة»، وعمل على مغادرة القوات «الحجازية» مدينة بيروت، وان كان اللنبي قد اعطى للامير فيصل « تطمينات» توحي بانه لن يكون ثمة تغيير جوهري خارج الارادة العربية. ثم ما لبث مندوبو فرنسا ان نقضوا بصورة رسمية ما انشأه شكري باشا من اقامة حكومة عربية هاشمية في حفلة رسمية اخرى اقيمت في بعبدا. وتعجلوا الامور، ولم يطيقوا صبراً مع مجريات الواقع، فقاموا بمنع الخطبة باسم الحسين في الجوامع، وفي غمرة تلك الحماسة العربية ، حيث لم يكن يملك مؤيدو الانتداب الفرنسي أنفسهم ، الاّ مسايرته، والا ان يشاركوا المحتجين احتجاجهم على السياسة الفرنسية ظل الفرنسيون يصرون كما تقول السيدة غوليس (Gaulis) (٩٠) بمكابرة، على عدم الاعتراف بوجود رأي عام عربي في هذه المنطقة يعادي مطامعهم. وهكذا كانت تواجه الفرنسيين في هذه المنطقة بانتهاء الحرب مع تركيا المشاكل الاساسية الثلاث التالية:

١- ان قيام حكومة عربية في سوريا الداخلية « المخصصة للنفوذ الفرنسي بحسب اتفاقية سايكس- بيكو» اصبح امراً واقعاً، جاء متلائما مع « تصريح الحكومة البريطانية للعرب السبعة» ومحققًا له. وهو التصريح الذي اعلنت فيه انها تعترف بسيادة واستقلال العرب الذين يقطنون« الاراضي التي تتحرر من السيطرة

التركية بعمل العرب انفسهم(٩١). بل حاولت هذه الحكومة التي قامت في ظل الادارة العسكرية الانكليزية الامتداد لتشمل جبل لبنان وبيروت،في حركة اوحت للفرنسيين ان ثمة «امبراطورية عربية» تتحقق بتدعيم الانكليز على حساب «الحقوق» الفرنسية.

٢- لقد تعهدت انكلترا بوعد بلفور بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. وفضلاً عن ان مشكلة فلسطين كانت قد اصبحت في نهاية الحرب اكثر تعقيداً بسبب مطالب الايطاليين والفاتيكان بحماية مصالحهم في الارض المقدسة، فان الفرنسيين يعتبرونها جزءا لا ينفصل عن سوريا ، كما «ان الصهاينة من جهتهم يقاومون بشدة تولي فرنسا السيطرة على فلسطين» (٩٢) .ذلك انهم حاولوا الحصول من فرنسا قبل الحرب العامة على موافقة لاستيطانهم في فلسطين ولم يحظوا بتأييدها، ورفضت ان تعطيهم وعودا بمشاريع اقل كثيرا من وعد بلفور(٩٣).

٣- احتل الجنرال مارشال(Marshall) قائد القوات البريطانية في العراق منطقة الموصل :«الداخلة في منطقة النفوذ الفرنسي بحسب منطوق اتفاقية سايكس-بيكو» ،مع العلم انه عندما وقع على هدنة مودروس، كانت لا تزال في يد الاتراك ، وعلى بعد ثلاثين ميلا من الخط البريطاني الى الشمال. الا انه بموجب المادة السابعة من اتفاقية الهدنة التي تنص على انه « في حال قيام وضع يهدد سلامة الحلفاء فان للحلفاء الحق في احتلال جميع النقاط الاستراتيجية لضمان سلامتهم»؛ طلب من علي احسان باشا قائد الجيش التركي السادس ان يجلو بقواته عن الموصل. وامام ضغط قائد الاسطول البريطاني كالثروب(Calthrop) اصدر الصدر الاعظم عزت باشا اوامره الى القائد التركي بتسليم الموصل، فدخلتها الجيوش البريطانية في ١٥ تشرين الثاني(نوفمبر)(٩٤) باسم الحلفاء.

كان الموقف بعد الحرب اذن على هذا النحو: الانكليز يحتلون الموصل، وهو في المنطقة التابعة للنفوذ الفرنسي، حسب اتفاقية سايكس-بيكو، وهم يريدون هذه الولاية لبترولها، ولتكون بيدهم عامل تهديد للحركة الوطنية في العراق، ويحتلون فلسطين وسوريا الداخلية، ويقيمون فيها ادارة عسكرية تابعة لقيادة اللنبي في القاهرة، غرضهم في فلسطين، ان توضع تحت ادارة دولية وفقاً لاتفاقية سايكس-بيكو، وان يبعدوا فرنسا عنها، واذا لم تكن من نصيبهم، فلا بأس ان تكون لامريكا (٩٥). يستندون في ذلك الى انهم اصحاب وعد بلفور، والى دعم الحركة الصهيونية لهم، ومحاربتها تحت لوائهم وامرتهم في فلسطين، وتنسيقها في المحافل الدولية. ومن اجل ذلك كله تبقى سوريا الداخلية، وقد تركزت فيها وتجمعت حول فيصل آمال العرب، ما كان منها متجلياً في الحركات والتنظيمات السرية، وما تفجر بفعل« الثورة العربية» ، وما رافقها من دعاية ووعود، عامل

تهديد لفرنسا بيد الانكليز لاقناعها بضرورة القبول بالامر الواقع والانصياع للتسوية التي يعرضها الانكليز. يساعدهم في ذلك، بصورة غير مباشرة ، المأزق الذي ما زالت فرنسا مرتبكة فيه، وهو حربها في قلقيليا.

يروي لويد جورج عرض المسألة بينه وبين كليمنصو على الوجه التالي. قال: «عندما قدم كليمنصو الى لندن بعد الحرب، ذهبت معه بالسيارة الى السفارة الفرنسية.. وعندما وصلنا سألني كليمنصو عما تريده بريطانيا على وجه التحديد من فرنسا،فأجبته فوراً انني اريد ضم الموصل الى العراق وفلسطين من دان الى بئر السبع تحت سيطرة بريطانيا. ودون تردد وافق كليمنصو على طلبي (٩٦). لكن اندريه تارديو(-Andre Tar diew) لم يقر، وهو يتصدى للضجة التي ثارت على تنازل كليمنصو، هذه البساطة في التسوية ، بل ذكر ان كليمنصو وافق على نقل الموصل. الى منطقة نفوذ بريطانيا على ثلاثة شروط: ١- ان تنال فرنساحصة من نفط الموصل، وذلك بتعديل الاتفاقية المعقودة في ١٥-١٧ مايو(ايار) ١٩١٦ ٢- ان تؤيد بريطانيا فرنسا تأييداً تاماً ضد الولايات المتحدة الامريكية، ٣- وضع دمشق وحلب والاسكندرون وبيروت، اذا عمل بنظام الانتداب تحت انتداب فرنسي واحد(٩٧). وسواء اكانت الحقيقة هي ما يرويه هذا او ذاك، فاننا نجد فرنسا هنا تتراجع مرة اخرى امام ضغط المصالح البريطانية ، وبعد نظر سياستها.

وايا ما كان الامر، فان الانجليز لم ينكروا على فرنسا« حقها» في سوريا. فمن اول نقاش جدي جرى في شقة رئيس الوزارة البريطانية في باريس ، في الاجتماع السري الذي عقده رؤساء الدول الاربع الكبرى، يتضح ان لويد جورج« لا يحيد عن مضمون اتفاقية١٩١٦، الا بالنسبة الى الموصل وفلسطين...» (٩٨)كان ذلك في العشرين من شهر اذار مارس ١٩١٩. وفي ٢١ ايار (مايو) ١٩١٩ قدم لويد جورج مشروع تسوية لقضية الامبراطورية العثمانية، نص البند السابع منه على ان :« تحصل فرنسا على انتداب مؤقت على سوريا الى ان تقدم اللجنة التي هي في طريقها الان الى منطقة الشرق الادنى تقريرها».(٩٩). بل اكثر من ذلك طلب الى اللنبي في ١٢ حزيران(يونيو) ابلاغ فيصل« ان حكومة جلالته قد اعربت عن عدم رغبتها في قبول الانتداب على سوريا..»، كما قال اللورد كرزن، وزير الخارجية البريطانية لسفير فرنسا في لندن انه : « اذا كانت هناك من منطقة ينبغي لفرنسا ان تكون شديدة الامتنان لمناصرتنا لها فيها فان تلك المنطقة هي سوريا ذاتها..».

وفي هذه الاثناء كتبت التايمس اللندنية تقول« انه لا ينبغي ان يقلق حلفاؤنا بسبب السياسة التي نتبعها في الشرق، فان بريطانيا كانت دوما تعترف بحق فرنسا باعتبارها سورية منطقة نفوذ لها والآن ينبغي ان يعهد بالانتداب على سورية الى دولة ما.. اما بريطانيا فانها زاهدة فيه، وقد اعلن لويد جورج هذا الزهد على العالم كله. وهكذا فان الدولة الثانية الوحيدة التي ترغب فيه هي فرنسا..)(١٠٠).

ومن جانب آخر، فان توسلات فيصل الملحة بكل ما اوتي من قوة لتجنب النفوذ الفرنسي، او لحمل الانكليز على البقاء في سوريا لم تجده نفعاً. فقد اجتمع بايعاز من الجنرال اللنبي ومستشاره اليهودي لورنس بالدكتور حاييم وايزمن في اليوم الرابع من حزيران(يونيو) ١٩١٨:« في مقر قيادته في الغويرة التي تقع بين العقبة ومعان، وجرى بينهما تبادل مرض في وجهات النظر»(١٠١). وجرى تدبير لعقد اجتماع ثانٍ بينه وبين وايزمن في لندن حضره لورانس كترجمان :« وقد ركز فيصل في هذا الاجتماع على تباين الخطر الذي تتعرض له المصالح اليهودية والعربية من جراء السياسة الفرنسية، ومن جراء اتفاقية سايكس -بيكو». ثم اجتمع بزعماء يهود آخرين في وليمة اقامها اللورد روتشيلد على شرفه(١٠٢) . ولم يكن يضن بمساعدته لليهود لمصلحة بقاء الانجليز في فلسطين وفي سوريا، كما يقول لويد جورج(١٠٣). ولعلمه بتمسك الانجليز بالعراق، تقدم الوفد الحجازي الذي يرأسه في باريس بمذكرة الى لويد جورج بتوحيد سوريا والعراق« تحت حكومة واحدة» مؤلفة من ولايات فيدرالية« يكون لكل ولاية نوع من الحكم الذاتي الذي يتجاوب مع تقاليد السكان في تلك الولاية، ومع عاداتهم ودرجة رقيهم الاجتماعي»(١٠٤). ذلك كله لم يغير من موقف انجلترا في حقيقة الامر. فقد بعث بلفور من باريس الى الجنرال اللنبي في القاهرة بالبرقية التالية: « ان حكومة جلالته لم تحد عن رأيها الذي عبرت عنه شفهياً بواسطة رئيس الوزراء- واظن ان ذلك كان بحضورك لدى كليمنصو، وبحضور الرئيس ولسون والسنيور اورلندو، من ان انجلترا لا تقبل، بصورة ما وفي ظرف ما الانتداب على سوريا». وما لبث ان بعث من باريس الى لويد جورج بمذكرة حول« توزيع الممتلكات التركية» ،كانت اهم خطوطها فصل الشعوب الناطقة بالعربية نهائياً عن تركيا، ووضعها تحت الانتداب.وان يكون الانتداب على سوريا لفرنسا، وعلى العراق لبريطانيا ، وعلى فلسطين للأمريكيين او البريطانيين.

وهكذا تبدد حلم المشرق بالعمل من دمشق«بيمونت» ثانية لتحرير العرب ،كما يقول اسعد داغر في مذكراته. وباستنفاد فيصل لجميع وسائله: من اقامة حكومة دستورية، وانتخاب مجلس وطني يمثل كل بلاد الشام ،وانشاء جيش مدللاً على اهلية البلاد، لم يعد امام وزير دفاعه وقائد جيشه مفر من ان يضرب مثلاً للاجيال بخوض معركة غير متكافئة في ميسلون ،ليمنع غورو من الدخول لاستلام البلاد التي يغادرها فيصل للبحث عن عرش مزوداً بحسرات الناس.

وكم كانت خدعة قاتلة وفضيحة مكشوفة للمؤتمر «السوري »الاول ان يتقدم وزير خارجية فرنسا ، في مؤتمر الصلح ١٩١٩ في الكاي دورسيه جاراً وراءه، شكري غانم نائب رئيس المؤتمر العربي الاول في الدفاع عن حقوق العرب في الامبراطورية العثمانية ، ومعه جميل مردم، الزعيم الدمشقي المقبل ليخطب خطبة عصماء ينهيها بقوله : في طلب

الانتداب الفرنسي: « أيها السادة هل ستتركوننا نبكي على ماضينا المفجع وانتم أملنا الوحيد، انتم الذين نعتبركم ممثلي العدالة والحق والرحمة والانسانية»(١٠٥).

وللتعبير عن وقوف البلاد صفاً واحداً في رفض الانتداب، ووعد بلفور، وعن وحدة بلاد الشام ، بادرت اللجنة التنفيذية لحزب الاتحاد السوري الذي كان يعمل حينئذ بنشاط كبير وفتح ناديه لجميع الوطنيين في القاهرة بدعوة الاحزاب السورية الى عقد مؤتمر في جنيف في اواخر شهر اب/ اغسطس ١٩٢١، تمثل فيه حزب الاتحاد السوري، وحزب الاستقلال العربي ،والجمعية الاسلامية في نابلس، والوفد الفلسطيني واللجنة الفلسطينية في مصر، والجمعية السورية الوطنية في بوسطن، والحزب الوطني العربي في الارجنتين، وحزب تحرير سوريا في نيويورك ، وحزب استقلال سورية ووحدتها في سانتياغو بتشيلي (١٠٦)، الغرض منه توحيد الجهود للحصول على الاستقلال من دول اوروبا لسوريا وفلسطين ولبنان، حتى اذا ما تحقق ذلك ،وشاء كل من هذه الاقطار الاتحاد مع الاخرى فعل ذلك بملء اختياره (١٠٧) ،وقد انبثقت عن هذا المؤتمر في نهاية عشرين جلسة، اللجنة التنفيذية السورية الفلسطينية التي جعلت مركزها في مصر، أُلِّفت من مندوب واحد عن كل حزب اشترك في المؤتمر (١٠٨) وانبثق عن هذه اللجنة وفد دائم في اوروبا، اتخذ مقراً له جنيف من ثلاثة اعضاء هم الامير شكيب ارسلان واحسان الجابري، وسليمان كنعان. وقد حل رياض الصلح مكان سليمان كنعان فيما بعد (١٠٩). واصدر المؤتمر بياناً مهماً ، موجها الى رئيس عصبة الامم ومندوبي الدول الاعضاء فيها، ذكرهم بمبادئ العصبة القائمة على احترام القوميات . ومبادئ ولسن، وعهود الحلفاء للعرب، ودور العرب في الحرب ، وأظهر قومية الروابط بين البلدان العربية في الشرق في السلالة واللغة وكفاءتها لنيل الاستقلال(١١٠). وكانت اللجنة تنشط بنشاط الحركة في سوريا وفلسطين ولبنان ، وتضعف بضعفها، كما كانت خير صلة بين الداخل والخارج، وقدمت للقضية السورية الفلسطينية اعظم دعاية يمكن ان تقوم بها لجنة سياسية، مهما تكن مواردها عظيمة (١١١)، اذ قلما وقع حدث داخلي او خارجي يتعلق بالاقطار الثلاثة: سوريا وفلسطين ولبنان الا وكان لها رأي فيه، وأعلنته على الملأ ،او تقدم به وفدها الدائم في جنيف الى الجهات المسؤولة(١١٢). ولم يرتفع في وجهها صوت الا من لبنان (١١٣). ومع ذلك « بقيت وحدة بلاد الشام والسعي لاتحاد الاقطار العربية اهدافاً ابعد مؤجلة»(١١٤).

بذلك ، وبما سبقه من تبشير ، تمكن الاستعمار الغربي من فصل المشرق العربي عن جسم الامة العربية ، كما سبق للدول الاوروبية بمعاهدة لندن ١٨٤٠ عزل مصر وتقييد حركتها داخل حدودها، بفصل بلاد الشام عنها، وتأسيس حكم اسرة محمد علي .وعلى هذا، من الطريف ان تصبح مصر هذه التي اسقطها« القوميون العرب» المشرقيون مراعاة

لخواطر الانجليز من حسابهم، ملتقى العرب وجامع شملهم من كل مكان، مثقفين ومفكرين وكتاباً وناشرين ومضطهدين(١١٥) وهي المركز الذي انطلقت منه اكثر الحركات الثورية، والاعمال التي كان لها اثر حاسم في مصير العرب الحديث. ففضلاً عن اسرة الاهرام والمقطم والهلال، كان يقيم فيها الشيخ عبد القادر المغربي الليبي الاصل، واسماعيل صديق المفتش الجزائري الاصل، ورشيد رضا الطرابلسي الاصل، والكواكبي الحلبي الاصل. وكلما كانت تشتد قبضة الاستعمار على الاقطار العربية الاخرى، وعلى الحركات الوطنية والقومية فيها، كانت حركة الالتجاء الى مصر تزداد، والاقبال عليها يكثر. ففي عام ١٩١١ لجأ اليها من تونس اول زعيم لاول حزب عربي قومي ينشأ في شمال افريقيا(عام ١٩٠٤) وهو عبد العزيز الثعالبي، عندما نفته السلطات الفرنسية من بلاده، وما لبث الحبيب بورقيبة ان لحق به. وعندما اتضحت اهداف الحركة الصهيونية، ومرامي الاستعمار في المشرق العربي، كثر توافد الفلسطينيين والاردنيين والسوريين واللبنانيين والعراقيين. وفي عام ١٩٢٢ لجأ اليها السنوسي. وفي عام ١٩٣٦ نفت اليها السلطات الفرنسية من مراكش علال الفاسي، احد زعماء حزب الحركة المراكشية الذي تأسست، سنة ١٩٣٠ (١١٦). استقر بعض الهاربين من وجه الفرنسيين في سوريا، في القاهرة، وتألفت فيها لجنة لامداد رجال الثورة النازحين الى الاردن، واستوطنها شكري القوتلي، وسامي البكري، وحقي العظم من رؤساء سوريا.

وفي مصر قابل عبد الله بن الحسين اللورد كتشنر قنصل بريطانيا العام في مصر لاول مرة في شباط (فبراير) ١٩١٤، حينما تباحثا بشأن « الثورة العربية». ومن مصر جرت المكاتبات بين السلطات البريطانية والحسين، وفيها قابل زعماء الثورة العربية المختصين من الانجليز: رونالد ستورز وكلايتون وهنري ماكماهون ورينجالد وينجت. وكانت القاعدة الاولى التي تضع فيها انجلترا انبغ رجالها لمراقبة البلاد العربية، ومعرفة تطوراتها والتأثير فيها. وفيها أعد برنامج « الثورة العربية الكبرى» ووضعت خطوطها وكانت قاعدة امدادها مالا وعتادا ومراقبة تطوراتها، حتى الحركة الصهيونية اتخذت من خطر التحام مصر بالوطن العربي، على مصالح الغرب، وسيلة لاقناع الغرب باعطائها فلسطين وطنًا قوميًا. واتخذ وايزمن من القاهرة قاعدة لاقناع العرب بتأييد الانجليز والصهيونيين معا كما ان مصر كانت مركز المباحثات البريطانية السنوسية سنة ١٩١٥.

وكان سكرتير وفد الصلح البريطاني بين السنوسيين والايطاليين مصريًا. وظلت القاهرة مركزاً للمباحثات البريطانية مدة طويلة مثل مباحثات السوريين السبعة مع اللورد ملنر، ومباحثات فيصل –تشرشل في آذار (مارس) ١٩٢١، ومباحثات الامير عبد الله بن الحسين (الملك فيما بعد) ومندوب تشرشل في صيف ذلك العام، بخصوص مصير

الحجاز، وبخصوص الاردن، ومباحثات تشرشل والملك عبد العزيز بن سعود ابان الحرب العالمية الثانية(١١٧). وبالنظر لاهمية مصر خاصة، والبلاد العربية عامة، فان سياسة المدرسة الاستعمارية فيها، هي التي كانت تفوز على المدرسة الاستعمارية الهندية في الشؤون المتعلقة بالمنطقة كلها.(١١٨)

وعندما اخذت وسائل الاعلام الحديثة تنتشر وتكثر من نقل اخبار الاقطار العربية، بدا واضحاً من تفاعل الشعب المصري، وشدة تأثيره بالاحداث التي تلم بالاقطار العربية، كأن سداً عالياً كان قائماً بينه وبينها ثم انهار. فقد هبت مصر لدى احتلال الايطاليين لولايتي طرابلس وبني غازي، تجمع الاموال لتقديمها للمجاهدين وفي نصف ساعة، ، تمكن الامير عمر طوسون فقط من جمع مائة الف جنيه مصري وستة آلاف جنيه ذهباً. وارسلت مصر الى جبهات القتال بعثات طبية لاسعاف المنكوبين، واشترك بعض المصريين في القتال ضد الايطاليين. ونظم شعراء مصر عدة قصائد حماسية في نصرة القطر الجار ،نذكر منهم حافظ ابراهيم ، مصطفى الرافعي، احمد محرم، حسن الغاياتي، وزكي ابو شادي.

انفتاح مصر على الوطن العربي وبداية التفاعل:

في اعقاب الحرب العالمية الاولى بدأت مرحلة جديدة في العلاقات بين مصر والشرق العربي. فقد اظهرت ثورة ١٩١٩ ان مصر لم تكن متقدمة في مؤسساتها الحديثة فحسب، بل وفي التفافها حول زعامتها. فالى جانب نهضتها الثقافية ، وذيوع ادب اعلامها في ارجاء الوطن العربي ،فانها ما لبثت بما فازت به من صيغ الحكم على علاته ونواقصه، ان اصبحت قدوة سياسية لبلدان المشرق العربي(١١٩) الذي اخذ تقسيمه يلوح للاذهان، فغدا ينظر الى سعد لا« كرافع لواء الحرية والاستقلال في مصر وحدها، بل في الشرق الادنى كله »(١٢٠). وكانت جرائد المشرق تعقد الافتتاحيات الطوال في شرح القضية المصرية، او ما يدور في انديتها، وما يلقى في مجالسها من خطب، ،وكانها تحث الناس على اقتفاء آثار مصر(١٢١). وعندما دعا احدهم لتخليد اعمال مصر في اقامة تذكار له في السودان، كتب اخر– وهو من فلسطين– يذكر« السوريين للاشتراك مع اخوانهم المصريين حتى يكون هذا الاشتراك المبارك اداة طيبة لتوثيق عرى الرابطة الشرقية عملياً»(١٢٢). وعندما قيل ان بعض السوريين المقيمين بالقاهرة، رموا الانجليز بالرياحين، هبت الشام بأكملها تستنكر فعلتهم وتتبرأ منهم بلسان شاعرها(١٢٣).

وهكذا فمن جهة عملت الهبات الوطنية التي قامت في ربوع الشام والعراق في وجه الفرنسيين والانجليز على تبديد الغيوم التي تلبدت في جو مصر ازاء المشرق من جراء

تحالفه مع الغرب ضد الاتراك، لا حبًا بالاتراك، ولكن كراهية بالغرب. ومن جهة اخرى عمل ذلك التعاطف مع مصر في نضالها على اخراجها من عزلتها والعودة للاتجاه الى المشرق.

فعلى الرغم مما اتسمت به سياسة سعد من انعزالية، ولعلها كانت من اسباب فشل ثورة ١٩١٩، وقصورها عن اهدافها لم يكن منه، بعد ذلك، اثر اندلاع الثورة السورية الكبرى، الا ان وجه« نداء الى الامة»، من اجل نجدة « سوريا التي تربطنا بها روابط وثيقة من تاريخ ولغة ودين وعادة وجوار » يفتتح به التبرع ، ويستحث الناس للمشاركة(١٢٤). واخذت الصحف توسع صدرها للمقالات التحليلية تعريفاً بسوريا، وتأكيدا لعلاقاتها التاريخية بمصر. وكان من اوقعها مقال للسيدة زينب احمد محمد– من حي السيدة زينب–عبرت فيه عن« عواطف الاهل» نحو بلاد الشام(١٢٥). وراحت صحف المشرق، والصحف العربية في الاميركتين، تنقل هذه المقالات عن الصحافة المصرية ، او تلخصها لقرائها. فقد اعربت جريدة « البيان» الصادرة في نيويورك، في ذلك عن سرورها « بان تكون« الحكومة المصرية الحرة صارفة بعض اهتمامها لقضيتنا السورية في الوقت الحاضر، رغماً عما لديها من المشاكل الجمة والمباحث الكبيرة عن قطرها العزيز. فاننا لا نكاد نتصفح عدداً من اعداد هذه الزميلات الراقية العشر، الا نجد فيه شيئا من المدافعة عن حقوق السوريين والمباحث المتعلقة بتثقيفهم»(١٢٦).

لكن هذا الاهتمام من جانب الصحافة لم يقتصر في حقيقة الامر على معالجة القضية السياسية في المشرق والتعريف بها، وانما كان تقريباً شاملاً. ففضلاً عما نجده من ابحاث في الهلال والمقتطف والرسالة الثقافية التي كانت ملتقى ومنبراً لرجال الفكر والعلم من كل الاقطار العربية، فقد اتخذ الطابع العربي، الى جانب الانباء وبعض المقالات الاخبارية في الصحف اليومية، يعم شيئا فشيئا،فانتشرت عبارات: العالم العربي والشعوب العربية والامة العربية والدول العربية.. الخ، وخاصة في صحافة المعارضة، وفي الصحافة الاسبوعية التي اتسعت صفحاتها للمقالات التحليلية والابحاث التاريخية(١٢٧). حتى لقد خرجت احدى الصحف عن الطابع الاقليمي الى الطابع القومي. عندما حددت سياستها فقالت انها: «كانت وستظل دائما توطيد العلائق وتمتين الصلات بين بلاد العالم العربي والبلاد الشرقيه جميعا وخلق رابطة التضامن. واذا كانت « السياسة الاسبوعية»مصرية في نشأتها وتحريرها، فهي شرقية عربية في مراميها وغاياتها، اقتناعاً منها بان الشرق العربي المرتبط بالتاريخ بأوثق الصلات، لن تكون يوماً من الايام رغم الفوارق السياسية والاحداث العالمية التي تؤدي الى هذه الفوارق الا ولايات متحدة».

* * *

وكان من الطبيعي في هذه المرحلة، ان تشهد القاهرة قيام عدد من التجمعات على المبادئ العربية، فكانت جمعية الرابطة الشرقية (اسست في القاهرة عام ١٣٤١هـ)اقدمها. وقد نشطت في البحث والتنقيب عن مختلف روابط مصر بالمشرق. وأبرز ما قامت به عقد مؤتمر عربي عام في القاهرة لتكريم« امير الشعراء احمد شوقي» عام ١٩٢٧ (١٢٨). نذكر منها كذلك جمعية الرابطة العربية ،والاتحاد العربي العام الذي قرر في البيان الذي اعلن به عن وجوده :« ان العرب امة واحدة بالجنس او بالاستعراب لا فرق بين مسلم وقبطي»(١٢٩). لكن جمعية الوحدة العربية التي شكلها سوريون ومصريون كانت ابرز تلك الارهاصات لما تضمنته بياناتها من وعي متقدم، ومن نضج فكري، غير انها حصرت جهودها،كما يستدل على ذلك من قانونها الاساسي، المادة الرابعة: في اصدار جريدة باسم « الوحدة العربية » انشاء فروع للجمعية في القطر المصري وسائر الاقطار العربية تدعو لتوحيد الثقافة وتوثيق الروابط الاجتماعية والصلات الادبية(١٣٠). وعلى وجه العموم كان رجال الاحزاب الاقلية كالاحرار الدستوريين اكثر رجالات مصر نشاطاً ، بل واسبق حماساً للفكرة العربية، حيث كانوا يلجأون الى العالم العربي للتشهير بالوفد. ولكن من المؤكد انهم كانوا اكثر ثقافة ، وكانوا يرتاحون لذلك الترحيب الواسع الذي اخذ الوطن العربي يلقاهم به.. ومن هنا كان لا بد للوفد من ان يحسب حساباً للرأي العام العربي. الا ان ذلك كله ظل حتى الثلاثينات، محصوراً في نطاق الفكر، وفي الترويج للفكرة العربية، وفي مقارعة الدعوات الاخرى، الاقليمية بالحجة ، وفي نشر الاحاديث في الصحف عن اهمية ايجاد موسوعة عربية في تدعيم العلاقات العربية، وتوثيق الثقافة، وفي فوائد ومزايا الاتحاد العربي والوحدة العربية... وبالتالي في الحفلات والمآدب وبعض المظاهر التمثيلية.

لقد صارت بعض البلاد العربية بوسائل المواصلات المستحدثة بعد الحرب العامة الاولى، اقرب الى عاصمة مصر من بعض بلاد الصعيد فتكشف الاتصال والاحتكاك في المؤتمرات التي كثرت، او شهور الاصطياف ،او الزيارات المنظمة ،او الرحلات الرياضية والكشفية، عن حقائق قومية بدهية كانت غائبة عن الاذهان، او طمستها الثقافة الحديثة او حجبتها الاقليمية. فبعد ان كان المرء يذهب الى فلسطين وسوريا والعراق، وهو يظن انه ذاهب الى بلاد اجنبية، اذا به يخرج من تجواله بان« الجميع عرب في ميولهم وطريقة تفكيرهم مع المصريين على السواء. وان هناك امة عربية فعلت الايام فيها الافاعيل، فيوقن على الرغم من ذلك ان هذه الامة العربية تمتد من جبل طارق الى بلاد الفرس، وان هذه الامة ثابتة مهما كان فيها من انقسام صناعي. ولكن هذا الانقسام لا يمكن ان يكون ابدياً... ويحس انه بعد ذلك ليس فردا من امة لا يبلغ مجموعها الا ثلاثة عشر مليونا.. بل فرد من امة مجموعها نحو ثمانين مليونا..(١٣١). ووسط مظاهر الحفاوة التي احيط بها فريق خريجي الجامعة المصرية الرياضي-ثناء- زيارته لدمشق-لم يتمالك احد اعضائه الا ان

ينبري قائلاً :«اننا نشعر من صميم نفوسنا اننا لسنا غرباء: نحن اخوان التقوا باخوانهم». وكانت احداث فلسطين قد بدأت، اثناء هذه الاتصالات، وفيما تتناقله الصحف من انبائها تشد اليها الانتباه. وكان عاملا الدين والقومية، وهما في قضية فلسطين بالنسبة للعرب شيء واحد، من اهم العوامل التي تضافرت لجذب مصر الى الوعي بشخصيتها العربية وتبوء مكانتها في الشؤون العربية.

قضية فلسطين:

إن مختلف السياسات في المشرق العربي ظلت في الظاهر على الاقل تنطلق من وحدة اقطاره وتقوم على هذا المبدأ. وكانت « قضية فلسطين» كلما اتضحت ابعادها ازدادت ارتباطا– في اذهان المناضلين– بالقومية العربية وبالوحدة العربية كتحقيق سياسي لهذه القومية باعتبارها منبع القوة» (١٣٢). فكان خيالها يسود جميع المؤتمرات ، والمطمح اليها شعاراً لا يهدأ للخطب السياسية.. وبما يشبه الاجماع كانت جميعها تطالب بوجود مصر. ومن جهة اخرى لأنه ان كانت تجمع« مصر مع الاقاليم العراقي واليماني والحجازي والجزائري والمراكشي والتونسي جامعتا اللغة والدين، فان روابط اخرى متينة تجمعها بفلسطين: ففلسطين مصرية، وأهلها مصريون ودماء المصريين تحت كل حجر في ارض فلسطين. هذا بيت الله انفق عليه خراج مصر سبع سنين.. (١٣٣) فضلاً عن ان مصر، منذ ايام كتشنر، كانت ترى حدود دفاعها وحماية السويس في اقصى الشمال من سوريا(١٣٤) فنحن – كما قال احد رجال مصر من الكتاب– متاخمون من الجهة الشمالية الشرقية لفلسطين، فيجب علينا ان نتواصى بالاحتفاظ بصحراء سيناء، وجعلها معقلا حصيناً يدفع عنا غوائل المغيرين ولقد اثبتت الحرب الماضية قيمة هذه الصحراء العزيزة في صيانة بلادنا، كما نرجو ونعاهد انفسنا على ان ندافع عن فلسطين العربية، حتى نكون بجوار اهلينا واصدقائنا، فانه لا تقوم سلامة لنا الا بسلامة هذا البلد. فان جرح فلسطين جرح لمصر وعدم ابقائها عربية تهديد لمصر نفسها.. فان الصهيونية اذا قامت بفلسطين، لا يقتصر اذاها على فلسطين نفسها. بل يتعداها الى مصر والبلاد العربية المجاورة جميعاً. ويهددها في اقتصادها وصناعتها وتجارتها وثروتها واستقلالها..»(١٣٥). وهكذا يلاحظ من رصد الوقائع، انه كلما كانت تتصاعد القضية الفلسطينية وتوغل الصهيونية في عدوانها، كانت مصر تستعيد الاحساس بعروبتها.. واذا كانت قضية فلسطين،كما ادركها المناضلون الاوائل من اهلها ، مرتبطة بالقومية العربية ويقظتها ،فان يقظة العروبة في مصر مرتبطة بها، حتى لقد قيل ان من خطأ الصهيونية انها في التحليل الاخير لم تحسب حساب عروبة مصر.

فلسطين مفتاح الانفعال العربي :

وقد لاحظ احد الساسة السوريين الكبار اثر تلك الاحداث التي تكشفت عنها الحرب العامة الاولى وما تلاها،على الرأي العام في مصر، وانفتاحه على القضايا العربية. وقد مكنه من ذلك لجوؤه الى مصر في فترات مختلفة، قبل الحرب العامة وبعدها، ثم بعد ثورات المشرق الاولى(١٣٦) الا ان تحقيق الفكرة العربية، في اي شكل من اشكال الوحدة او الاتحاد، ظل املاً بعيداً في رأي مفكري مصر العروبيين . فالدكتور محمد حسين هيكل الذي لم يشك ان « مصر وفلسطين وسورية ولبنان والعراق وبلاد العرب وبلاد المغرب كلها وطن واحد لابنائها جميعاً..وان دول الغرب المستعمرة الباغية قد قسمتنا وجزأتنا وجعلت النضال بيننا في مختلف الميادين..»(١٣٧) ، ومع قناعته بان الوحدة العربية قوة مانعة في وجه الاستعمار،ظل يراها بعيده عن التحقيق. فهي المثل الاعلى للاجيال القادمة، اذ قال:« انا ممن يؤمنون بالفكرة على ان تكون اساسا لمثل اعلى...» .لا يقلل من شأن الوحدة العربية المقصود بها الى تحرير امم الشرق العربي والى تحسين احوالهم، ولكنها ليست خيرا من الفكرة القومية. الا ان «المثل الاعلى الذي دعا اليه الانبياء ما يزال هو الجدير بان يكون المثل الاعلى الذي يدعو اليه الشرق، ويعمل لاقراره في العالم.. وعلى هذا الاساس يمكن ان تتحقق الوحدة العربية ، وهي انما تتحقق يوم يقوم فيها الرجل الموهوب.. ليحقق المثل الاعلى الذي ابتغته الاجيال لينشئ حضارة تقوم مقام حضارة الغرب التي اتمت مهمتها واستنفدت جهدها»(١٢٨).

وكان الدكتور محمد عبد الله عنان اقرب الى الواقع، واكثر التزاما بالطبع.الا انه للاسف، رغم افكاره المتقدمة والتقدمية، وتطلعاته الى التغيير، ظل اسير الاشكال والمظاهر القائمة المصطنعة، كما لم يستطع النفاذ ببصيرته في صميم المشاكل الخاصة بكل من مصر وفلسطين والعراق وسوريا.. ليكشف السمات الواحدة التي تربط بينها في نضالها من اجل التحرر، والتي يمكن توحيد جهودها ، وما ينجم عن هذا التوحيد من قوة فعالة لتحقيق الهدف وقهر الاستعمار.

لذلك فرق في المسألة بين جانبها السياسي وبين الجانب الفكري والاجتماعي، وعلى الرغم من قوله:« اننا في مصر نؤمن اشد الايمان بأهمية التضامن والتعاون بين مصر والبلاد العربية، وهما تضامن وتعاون يقومان على تراث التاريخ البعيد، وعلى وحدة اللغة والدين والثقافة ، ثم على تماثل الآمال والمحن..» الا انه كان لا يزال يرى بان: « الفكرة العربية تفهم في مصر بصورة اخرى – غير الصورة التي تلقى اجماعاً او شبه اجماع في المشرق العربي لتأليف جبهة موحدة، تعمل لتحرير الشعوب العربية– يرى المفكرون انها اصلح لخدمة القضية المشتركة وتحقيق الغايات المنشودة.. وهي ان تنظيم الجهود الفكرية والاجتماعية والاقتصادية ،سلاح معنوي اقوى وانفذ في مقاومة الاستعمار من

فكرة الجامعة السياسية..»(١٣٩). وهو كلام على كل حال يشير ،اذا ما قورن بمنطلقات سكرتير الحزب الاشتراكي المصري المعلن عنه بالبيان المنشور عام ١٩٢١، الى تقدم واسع الخطى في الطريق الى الوعي العربي(١٤٠).

غير ان مكرم عبيد، وهو كعبد الله عنان، ومحمد حسين هيكل وغيرهما، ممن اثرت فيهم حرارة الاتصالات بالمشرق العربي، فتفاعلوا معه واندمجوا في تياراته، كان يرى على العكس،« ان الوحدة العربية تدفع اذى المستعمرين واطماعهم، واننا مسلمون في الوطن، وان كنا مسيحيين في الملة والدين» (١٤١). ويقول « نحن عرب، ويجب ان نتذكر في هذا العصر دائما اننا عرب قد وحدت بيننا الآلام والآمال، ووثقت روابطنا الكوارث والاشجان، وصهرتها المظالم وخطوب الزمان» (١٤٢)، ذلك ان « غرض الذين يريدون اخراج مصر من مجموعة العالم العربي غرض سياسي، لفصل دولة من (١٥) مليون لتقف سدا في هذا العالم العربي بين شرقه وغربه» (١٤٣).

* * *

عثرات على الطريق:

لكن هذا التقدم على طريق الوعي القومي والانبعاث العربي من جانب مصر– على تباطئه، لم يمر دون تفكير. ففي مصر قام من « يدافع عن فكرة القومية المصرية ، ويحاول بكل جهده التحريض على الابتعاد عن الاندماج في الوحدة العربية لعدة اسباب، اهمها ان المصريين ليسوا عرباً، ولاننا امة فقيرة(وبلادنا غنية)،فلا يمكننا الانفاق على حركة الاتحاد المرغوب فيه، ولانه ليس في مقدورنا، ونحن امة تكاد تكون امية، العمل في ساحة اوسع من وادي النيل ، ولان الاندماج مع الامم العربية يثير نفس العقبات التي قامت بن الترك والعرب.. ولان المدنية الاسلامية شاخت وتصلبت ونحن نقتبس في مبدأ نهضتنا عن غيرنا..»(١٤٤) او لأن المصالح الاقتصادية متضاربة بين مصر والبلاد العربية، وخاصة بين مصالح انجلترا وفرنسا فيها (١٤٥) الخ.. وكثر الجدل في ذلك واحتدم، حتى اذا ما كتب الدكتور طه حسين مقاله« دائرة»، وقد جاء فيه قوله«خضع المصريون لضروب من البغي والعدوان جاءتهم من الفرس والرومان والعرب»، تنادى عدد من اعضاء الجمعيات الثقافية في دمشق، فقرروا دعوة الجمعيات العربية الادبية والسياسية في العراق وفلسطين وجميع الاقطار العربية الى مقاطعة كتبه ،واتباع ذلك مع كل كاتب مصري يطعن في القومية العربية، ويشجع الروح الشعوبية. واصدرت عصبة العمل القومي بيانا هَدّدَ بحرق كتب الدكتور طه حسين(١٤٦).

كذلك لم يسلم الاتجاه العربي في مصر من النقد، واثارة الغبار في وجهه. اذ راحت :« بعض الصحف السورية والبيروتية تتهم مصر باستغلال القضية العربية بصحافتها، والمؤتمرات والاجتماعات التي تعقدها، وبالنهضة التي تدعو شعوب الشرق اليها..» ،بل ذهبت في اتهامها: « الى القول بانها قد يكون لها من وراء ذلك مطامع كالتي جاشت بنفس ابراهيم ووالده محمد علي الكبير، والتي كانت توشك ان تتحقق، لولا وقوف اوروبا في وجه الجيوش المصرية الفاتحة..»(١٤٧) .فانبرى لها كتاب آخرون من فلسطين وسوريا يتساءلون عن دوافع اولئك الذين تبرعوا بالتهم لمصر، وعن الايدي التي حركتهم الى ذلك: « فالعرب في سوريا وفلسطين وشرق الاردن والعراق ، لا يعرفون ان بينهم وبين مصر بعداً يجعلها غريبة عن القضية العربية (١٤٨). بل ان « تاريخ البلاد العربية جميعا، يكاد يكون قطعة واحدة مزجتها منذ القديم فواجع العصور ومحن الايام»(١٤٩).

* * *

الغريب ان الاحزاب والحركات التقدمية قد اغفلت تماماً، في برامجها وفي مواقفها، هذه البشائر العربية في مصر، ولم تعرها اهتماماً، ان لم نقل انها كانت تعاديها. وعلى الرغم من انطلاقها من موقف المعاداة للاستعمار نظرياً، الا انها لم تدرك ان من اهم ما يمكن ان تحاربه فيه هو رفضها للتجزئة التي فرضها في الوطن العربي، وخروجها على استراتيجيته الثابتة في فصل مصر عن البلاد العربية. فقد نشأت هذه الاحزاب والحركات من منطلق اممي لا من موقع قومي يسعى الى التعاون الاممي لتحقيق اهداف مشتركة. فجاءت صوتاً يضاف إلى الاصوات المنادية بسقوط الاستعمار لا قوة نابعة من قومية لا حد لطاقاتها وامكانياتها،اذا ما تحركت في وجه الاستعمار. ولو فعلت لكانت ابعد نجاحاً، وافعل تأثيراً، ولحالت دون تقدم الفئات الاقطاعية والبورجوازية لتولي قيادة العمل لتحقيق الوحدة العربية بهذا الاسلوب المبتذل،الممسوخ الذي تحققت به الجامعة العربية، وطرحت به مختلف مشاريع الوحدة والاتحاد بلا روح ولا محتوى، بعيدة عن الجماهير صاحبة المصلحة.

لكن الغرابة تزول اذا علمنا ان العناصر الاجنبية والغريبة عن الامة العربية ، هي التي كانت اسبق الى تنظيم تلك الاحزاب والحركات للإمساك بدفة القيادة فيها، والانخراط بها في تيارات القوى الدولية. فقد ظل الخواجات في مصر في مقدمة النقابات :« يقودونها ويكتبون محاضرها ويمسكون دفاترها بلغاتها الاصلية. وحتى الكارنيهات التي كان يحملها الاعضاء المصريون كانت مكتوبة بهذه اللغات» (١٤٩). وانصرف الحزب الاشتراكي المصري منذ اصدار بيانه الأول، عن الالتفات للقضايا العربية ، وما يصل بها، انصرافاً تاماً، على الرغم من وجود بعض العناصر العربية فيه كمحمد عبد الله عنان، الا اذا اعتبرنا عبارتي :« محاربة الاستعمار ومقاومته اينما وجد»و«تأييد حرية الشعوب واختيار المصير

والتآخي مع جميع الامم..» الواردتين في البيان، مما يتيح له انشاء علاقات مع الاقطار العربية (١٥٠) !! على الرغم من نزوع بعض الاوائل من المراقبين الروس حينئذ(ومنهم غوركو كزيازين) الى اعتبار الوحدة العربية اتجاهاً ايجابياً ومن التنبؤ بمستقبل عظيم لحركة الوحدة العربية، وبالدور الثوري العظيم الخليق بالعرب ان يقوموا به في الشرق(١٥١).

وفي فلسطين ولبنان وسوريا والعراق، ظلت كذلك ألوية القيادة معقودة زمناً طويلاً لعناصر القوميات الاجنبية من يهود وارمن واكراد او اشوريين، في هذه المنظمات الجديدة على الوطن العربي. ولقد تسلقت هذه العناصر الى مراكزها على موجات النقد المتصاعدة من جانب الكومنترن للحركة الطورانية ،واحتمال انحرافها نحو القومية الديموقراطية البورجوازية ،وبالتالي للنزعات القومية واحتمالات انحرافها.. ولاحت قيود الارتباط بالخارج اشد صرامة من الارتباط بالدول المستعمرة. وبذلك افلتت من يد هذه المنظمات ، في مر حلة الغليان القومي، بعد فشل الثورات البرجوازية .الاقطاعية من اجل الاستقلال، او المشاركة في الحكم، فرصة استسلام القيادة الجماهيرية لتحقيق الثورة التحررية.

ولقد اخذت الايام تسجل مزيداً من الالتقاء والتفاعل بين مختلف الفئات الحاكمة في الشرق العربي ومصر.، وخاصة في نقل الاساليب، وتبني ما يشبه مطالب مصر. ومع ان مواقف الاحزاب الشيوعية في الشرق (خاصة في سوريا وفلسطين) لم تخل احياناً من الاهتمام بما يجري في مصر، ولم يفتها ان تنتصر للحريات وتدعم الحركة الوطنية (١٥٢)، ظلت الحركات التقدمية في مصر سادرة في انعزالها عما يجري في الوطن العربي، ولم تعدل من اتجاهها ، ولم تلتفت الى ما في العمل على المستوى القومي من اهمية وفعالية. ولم تؤثر الحملات التي اسهمت فيها بعض الصحف المشرقية ضد الحكم الرجعي في مصر لمواقفه من الحريات العامة، ومن التقدميين المصريين، الا على الصعيد الفردي ومستوى العلاقات الشخصية.

هكذا لم يستطع القائلون بالقومية العربية في المشرق تقديم تحديد شامل للوطن العربي، الا في اواخر ١٩٣٤ في مؤتمر زحلة. واذ فشلوا في تحقيق مطالبهم التي تعاونوا من اجلها مع الدول الاوروبية– فيما عدا الانفصال عن الدول العثمانية· وتبدد ريحهم بين مصالحهم المتضاربة التي ارتبطت بالدول الناشئة وبالاقليميات،تحقق ظن المفكرين المصريين وبعض رجال السياسة فيهم، وهو الظن الذي كان من عوامل عدم الاستجابة لتلك الدعوات القومية في اواخر القرن التاسع عشر ومطالع العشرين. وكان من جراء ذلك ان عجزت تلك الطبقة من العاملين في السياسة عن اخراج اي تنظيم قومي الى حيز الوجود، على الرغم من انهم كانوا يتبارون في اظهار مزايا الوحدة العربية، ويرون فيها

الحصن الحصين من الاستعمار والصهيونية... وحين بدا- بانفتاح الاقطار العربية بعضها على بعض بفضل تزايد وسائل الاتصال الحديثة والانفعال المتبادل بالاحداث- ان مقومات الوحدة بينها لم تتراخ بين اطراف الشعب العربي بفعل السنين، وان تحقيق هذه الوحدة بات مطلباً ملحاً، طالعتها المشاريع الاستعمارية الجديدة بما يشغل كل قطر ويغرقه في مشاكل عن القطر الآخر. ووسط المحاولات المختلفة لاحياء الخلافة، وفي ظل التنازع بين الملوك والرؤساء العرب. وتقاسم النفوذ بينهم وتعدد منابر الفكر، تشتتت الآراء والاهواء.

واذا كانت القومية العربية قد ظهرت بصورة واضحة، وغدا تجسيدها في وحدة سياسية مطلباً جماهيريا ملحاً لمواجهة التحديات الماثلة للعيان ، او المحتملة، مما احبط نهائيا تلك المشاريع المطروحة ، الا ان هذه القومية، على زخمها، كانت ما تزال شعوراً يكتنفه بعض الغموض لم تعرف بعد، ولم يوضح مفهومها(١٥٢). كما كانت لا تزال تبحث عن مبرارت وجودها، وعن شكل محتواها، وعما تدفع به عنها ما قد يلحق بها كغيرها من القوميات من تهم.. واهم ما كانت لا تزال بحاجة اليه هو الفكر الذي تجتذب به المثقفين والناشئة الذين اخذت المذاهب الاخرى تشدهم اليها، والحزب القومي الذي يبلور من خلال الممارسة اليومية والتصدي للاحداث، السمات المشتركة والاهداف التي يجب ان يلتقي حولها نضال الاقطار العربية ويدفع في تيارها. وما البوادر الفكرية والبشائر التنظيمية التي كانت تطفو ثم تخبو وتتلاشى على مسرح الوطن العربي، حتى مطالع الحرب العالمية الثانية، الا ارهاصات ،ان دلت على شيء فانما تدل على ان الوطن العربي قد دخل جديا في مرحلة استيعاب التيارات العالمية والتفاعل العميق معها، وما زال عليه من خلال مقارعته للاحداث المتلاحقة، كراً وفراً ان يتم عملية التمثيل.، وفي هذه المرحلة التي اخذت فيها مصر تدخل جديا الى مسرح الاحداث العربية وتحتل مكانتها، لا بد من ان تقوم بالدور المترتب عليها كأكبر كتلة بشرية متجانسة في وسط الوطن العربي.

ذلك كله، كان يجري بتجاذب عبر « جرح العرب» ، من طعنة الرمح الصهيوني الاستعماري في فلسطين، الذي أخذ ألمه يسري في مفاصل الامة العربية، وبدأ يُحدث تغييره بما يقتضيه، وبعمقه وبمستواه ومتطلباته ، كان انفعال مصر، في تجربة ٢٣ يوليو لاقتلاع الشجرة الغربية التي زرعها الاستعمار ونماها منذ القرن التاسع عشر، وباقتلاع اسرة محمد علي واثارها عم الانفعال بالقومية العربية ارض العرب.

د. ذوقان قرقوط

الهوامش

١- برنارلويس :الاسلام من الامس الى الغد.

٢- انظر : محمد عبد الله عنان:

٣- بول وتك Witteck في محاضرة ألقاها في كلية الدراسات الشرقية والافريقية التابعة لجامعة لندن في ٨ اذار ١٩٥١، مذكوراً في زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية ،فصل اول حاشية رقم ٢٠ ص ١٧٥.

٤- زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية، دار النهار ١٩٧٢ ص ١٤.

٥- سيار الجميل (د): العثمانيون وتكوين العرب الحديث، مؤسسة الابحاث ، بيروت ١٩٨٩..

٦- محمد أحمد بن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، المجلد ٣(القاهرة ١٣١٢هـ) ص ٦٨،٥٨

٧- زين نور الدين ، نشوء القومية العربية .

٨- ذوقان قرقوط، تطور الفكرة العربية في مصر.

٩- احمد فريد علي مصطفى: توسع مصر في الشام واثره في موقف الدول من المسألة المصرية في عصر محمد علي ١٨٣١-١٨٤١، رسالة ماجستير (مخطوطه)،ص١.

١٠- حسين مؤنس(د): الشرق الاسلامي في العصر الحديث،مطبعة حجازي، القاهرة ط٢ لعام ١٩٣٨ص ١٣٥.

١١- ذوقان قرقوط، تطور الفكرة العربية في مصر ، ص٩٠.

١٢- لويس عوض (د).

١٣- انيس صايغ(د) :الفكرة العربية في مصر، مطبعة هيكل الغريب، بيروت ١٩٥٩،ص ٣٢.

١٤- مذكوراً في احمد حافظ عوض، فتح مصر، نقلاً عن ورقة رقم ٣٢٤٧ من محفوظات نابليون.

١٥- ادوارجوان: مصر في القرن التاسع عشر ،ط١، القاهرة ١٩٢١، ترجمة محمد مسعود، ص ١٥٤-١٥٦.

١٦- شارل رو Au tour d'ume Route مذكوراً في الرافعي جـ٢ ص ١٥٦.

١٧- جلال يحيى(د): مصر الحديثة ، منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٦٩ ،ص ٢٩٥.

١٨- محمود الشرقاوي: دراسات في تاريخ الجبرتي، الانجلو المصرية ١٩٥٦، جـ٢ ص ٨١؛ عبد الله عنان ، تاريخ الازهر، الخانجي، ط٢، ص ١٥٤-١٥٦.

١٩- الجبرتي: عجائب الاثار، طبعة البيان العربي،جـ٣ ،ص ٣٦ ما يليها.

٢٠- نقولا الترك: ذكر تملك جمهور الفرنساوية، ص ٦٣.

٢١- الجبرتي :عجائب الاثار جـ٢، ص ١٠٨ حوادث شوال وذي القعدة ١٢١٤هـ.

٢٢- الجبرتي :عجائب الاثار جـ٢،ص ٣٠؛ عبد الله عنان المصدر السابق ، ص ١٦٣.

٢٣- الجبرتي: عجائب الاثار ،ص ١٠٨.

٢٤- الجبرتي :عجائب الاثار ،ص ١٠١، الرافعي؛ عبد العزيز الشناوي، الشرقاوي.

٢٥- عبد العزيز الشناوي، المصدر السابق ص ٧٦.

٢٦- جلال يحيى (د): المصدر السابق ،ص ٣٩٤ .

٢٧- محمد انيس (د): والسيد رجب حراز(د) :ثورة ٢٣ يوليو واصولها التاريخية.

٢٨- انظر المصدر السابق؛ كذلك George Douin :Mohamed Aly Pasha du Caire (1805-1807).

٢٩- احمد حافظ عوض (د) :فتح مصر الحديث ،الرسالة كاملة في ص ٤٠٧-٤١١.

٣٠- محمد شفيق غربال (د): محمد علي الكبير،سلسلة اعلام الاسلام، دار احياء الكتب العربية ،ص ٤-٢٥٦.

٣١- الجبرتي: المصدر السابق ،جـ٣، ص ٨٨.

٣٢- احمد فريد مصطفى: توسع مصر في الشام واثره في موقف الدول من المسألة المصريةفي عصر محمد علي ، رسالة مخطوطة ص١ .

٣٣- مذكورا في حسين مؤنس(د) الشرق الاسلامي في العصر الحديث، مطبعة حجازي، القاهرة ط٢ لعام ١٩٣٨ ،ص ٢٥.

٣٤- مذكوراً في حسين مؤنس(د) :الشرق الاسلامي في العصر الحديث.

٣٥–انيس صايغ (د) :الفكرة العربية في مصر ، مطبعة هيكل الغريب، بيروت ١٩٥٩، ص ٣٢.

٣٦– احمد حافظ عوض : فتح ،مصر ص ٢١٧، بالاستناد الى محفوظات نابليون، ورقة نمرة ٣٢٤٧.

٣٧– ادوارجوان: مصر في القرن التاسع عشر، ط ١ بالقاهرة ،ترجمة محمد مسعود ص ص ١٥٤-١٥٦.

٣٨– مذكوراً في الرافعي :جـ٢ ص ١٥٦ Charles Roux :Autour d'ume Ro , p70

٣٩– جلال يحيى(د) :اصول ثورة يوليو، دار مطابع الشعب.

٤٠–ذوقان قرقوط: تطور الفكرة العربية في مصر، مؤسسة الدراسات ،بيروت ١٩٧٢، ص ٦٦–٧١.

٤١– الجبرتي :عجائب الاثار ،جـ٣ ص ٣٦ وما يليها.٣٩٥: محمود الشرقاوي جـ٢ ص ١٠٥، احمد حافظ عوض.

٤٢–ذوقان قرقوط: تطور الفكرة العربية في مصر ، مصدر سابق ص.ص ٦٠– ٧١.

٤٣–ذوقان قرقوط: تطور الفكرة العربية في مصر ، مصدر سابق ص.ص ٦٠– ٧١.

٤٤–ذوقان قرقوط: تطور الفكرة العربية في مصر ، مصدر سابق ص.ص ٦٠– ٧١.

٤٥–ذوقان قرقوط: تطور الفكرة العربية في مصر ، مصدر سابق ،ص.ص ٦٠– ٧١.

٤٦– الجبرتي :عجائب الاثار، جـ٢ ،ص ١١٧.

٤٧– انيس صايغ(د): المصدر السابق ،ص ٩٤–٩٥.

٤٨– محمد فؤاد شكري واخرون، مصدر سابق ،ص ٢٢٧.

٤٩– محمد فؤاد شكري واخرون، مصدر سابق ،ص ٢٤١.

٥٠– محمد فؤاد شكري واخرون، مصدر سابق ،ص ٢٢٧.

٥١–عبد العزيز نوار(د) :مقال بعنوان ثورة ١٩١٩ واثرها في الحركات النضالية ، بمجلة الهلال عدد سنة ١٩٦٥.

٥٢– انظر دي بو الكمت؛ جورج دوين.

٥٣– انظر دي بوالكمت؛ جورج دوين.

٥٤– جورج انطونيوس، يقظة العرب، تعريب على حيدر الركابي، مطبعة الترقي بدمشق ،ص ١.

٥٥– الحركة الماسونية: بحث في مجلة قضايا عربية ببيروت ،عدد ١٤؛ حسان الحلاق، موقف الدول العثمانية من الحركة الصهيونية.

٥٦– زين نور الدين زين . نشوء القومية العربية ، حاشية رقم ٤/ص ٢٠٧.

٥٧– زين نور الدين زين. نشوء القومية العربية ، حاشية رقم / ص٢٠٨. منقولة عن Toymbee and kirkwood:: Turkey p57

٥٨– Rene Ristehueber : Traditions Franeaises au Lilan 1918 flise Alean, Paris.

٥٩– ذوقان قرقوط: تطور الحركة الوطنية في سوريا،ط٢، دار طلاس دمشق: الفصل الاول

٦٠– انظر ذوقان قرقوط: تطور الحركة الوطنية في سوريا.

٦١– Roger Garody: Mon Toursr du sieele solitaire

٦٢–ذوقان قرقوط: المصدر السابق ،ص ١٦.

٦٣–ذوقان قرقوط: المصدر السابق ،ص ١٦.

٦٤–ذوقان قرقوط: المصدر السابق ،ص ١٧.

٦٥–ذوقان قرقوط: المصدر السابق ،ص ١٧–١٨.

٦٦–ذوقان قرقوط: المصدر السابق ،ص ١٧–١٨.

٦٧–ذوقان قرقوط: المصدر السابق ،ص ١٧–١٨.

٦٨–ذوقان قرقوط: المصدر السابق ،ص ١٧–١٨.

٦٩–ذوقان قرقوط: المصدر السابق ،ص ١٨–١٩.

٧٠–ذوقان قرقوط: المصدر السابق ،ص ١٨–١٩.

٧١–ذوقان قرقوط: المصدر السابق ،ص ١٩–٢٠.

٧٢–ذوقان قرقوط: المصدر السابق ،ص ١٩–٢٠.

٧٣–ذوقان قرقوط: المصدر السابق ،ص ١٩–٢٠.

٧٤–نوقان قرقوط: المصدر السابق ،ص ١٩–٢٠.

٧٥–نوقان قرقوط: المصدر السابق ،ص ٢١.

٧٦– Grey, Edward, Viseount: Twenty five 1891-1916, 2vols 9New York 1925) vol 1 P. 236.

٧٧- Grey, Edward, viseount:Twenty five years 1891-1916/ 2 Vols 9New- York 1925)vol 11 p 236.-

٧٨– Grey, Edward, viseount:Twenty five years 1891-1916/ 2 vols 9New- York 1925)vol 1 p 236.

٧٩–زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية – مصدر سابق ,ص ٩٢.

٨٠– الامير شكيب ارسلان: سيرتي الذاتية، دار الطليعة, بيروت.

٨١,٨٢,٨٣–كتاب المؤتمر العربي :نشر محب الدين الخطيب.

٨٤– امين سعيد: الثورة العربية الكبرى، مجلد ٢.

٨٥– امين سعيد: الثورة العربية الكبرى، مجلد ٢.

٨٦– كتاب المؤتمر العربي :مرجع سابق.

٨٧– Arch Aff .Etr, Guerre 1914-1918,Turquie vol.868 p.p 17, Campagne Anti-Francaise au sujet de la Syrie; p.112:Intrigusdes Anglais aves Les Syniens d'Eygtpte.

٨٨– الافكار عدد ٢٩٣ تاريخ ٣٧ ابريل (نيسان ١٩٢٢. راجع تحت عنوان: «استقالة شريفة» نص استقالة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر من الكوكب المرفوعة الى الجنرال كلايتون، وقد جاء فيها : «ان التغيير الجوهري الذي ابلغتموني انه سيطرأ على سياسة جريدة الكوكب احدث في نفسي انقلابا ما كان يدور في خلدي، وقضى على تلك الامال التي كنت اعقدها على المساعدة الخارجية لانقاذ وطني، ودعاني الى اعادة القول لكم ان الشرط الذي بنيت عليه قبولي ادارة سياسة الكوكب والتحرير فيه ،انما هو بث الدعوة العربية على مبدأ التحالف مع بريطانيا..»، ولا بد لمن يريد مزيدا من الاطلاع من ان يراجع الكشكول «المصرية» في ١١و٢٥ يونيو (حزيران) ١٩٢٢ فيقرأ مقالات فكري اباظة نشاط الدكتور الشهبندر في الدعاية للانجليز بين العرب.

٨٩- Arch.Aff.Etr.Guerre 1914-1918 Turquie vol 869 Syrie -palestine ,p.p 1,2,3.

٩٠- Nuri-Assaid : Arab Independance and Unity (Bagdad Gouvernement Press 1943)p. 32 (Appendixe E.). راجع كذلك زين نور الدين زين: الصراع الدولي في الشرق الاوسط، حيث ينقل ان الزعماء العرب اصيبوا بذهول عند اطلاعهم على اتفاقية سايكس-بيكو. ولكن ثقتهم ببريطانيا العظمى كانت راسخة، فلم يكن للكشف عن الاتفاقية هذه اي اثر في تعاونهم المخلص مع حليفتهم بريطانيا.

٩١- Great Britain, Cmd. 5974,p.3 في زين نور الدين زين: المصدر السابق ،ص ٧٥.

٩٢- امين سعيد: الثورة العربية الكبرى، مجلد ٢، ص ص ٢٧-٤٠.

٩٣- محمد حرب فرزات: الحياة الحزبية في سوريا بين ١٩٠٨-١٩٥٥ ص ٧٠، وهم: رفيق العظم، الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، فوزي البكري، الشيخ كامل القصاب، خالد الحكيم، مختار الصلح، حسن حمادة.

٩٤-جورج انطونيوس: يقظة العرب، ترجمة علي حيدر الركابي، دمشق، مطبعة الترقي ١٩٤٦ ،ص ٢٩٨.

٩٥- سليمان موسى: الثورة العربية الكبرى وثائق واسانيد،بيروت ١٩٧٠،ص١٠٧-١٠٨.

٩٦- زين نور الدين زين: المصدر السابق، ص ٧٥. صرحت الحكومة البريطانية فيه انها تعترف: « بالاستقلال التام اولا للعرب الذين يقطنون الاراضي التي كانت حرة مستقلة قبل الحرب، وثانيا للعرب الذين يقطنون « الاراضي التي حررت من السيطرة لتركية بعمل العرب انفسهم في اثناء الحرب الحالية». اما « الاراضي التي كانت في السابق تحت السيطرة العثمانية ثم احتلتها جيوش الحلفاء في الحرب الحالية ،فان رغبة حكومة جلالته ان تقوم الحكومة المقبلة لهذه الاقاليم على مبدأ موافقة المحكومين. ان هذه السياسة كانت وستبقى السياسة التي ستتبعها حكومة جلالته وتعضدها».

٩٧- الاهالي، عدد ٢٨٦٤، السنة العاشرة تاريخ ٢٢ يناير(كانون الثاني) ١٩٢ وقد نقلت عن المانشستر جارديان تحت عنوان: التعليمات السرية التي اصدرتها الحكومة الفرنسية الى المسيو بيكو بصفته مندوب فرنسا المرافق للجيوش المحاربة في فلسطين. وقد حرصت على ابراز ما يتعلق منها بفلسطين وباليهود ، جاء فيها: « ومتى دخلت في فلسطين فستحتك بطوائف عديدة من اليهود فيحسن ان تمنحهم من اول الامر مقداراً كبيراً من حمايتنا ،وان ترمز الى العهد الجديد بأن تكل اليهم ادارة امور طوائفهم ونصيباً في حكومة البلاد، فانك لا شك تعلم ان السياسة التي تتبع نحوهم ستحدث تأثيراً عميقاً لا بين اخوانهم اليهود المقيمين

ببلاد الحلفاء والممالك المحايدة فقط ،بل بين النازلين في بلاد العدو ايضا. فمن مصلحتنا لهذا السبب ان تبعث في نفوسهم اكبر الامال فيما ينوي الحلفاء ان يقوموا لهم به في البلاد التي يربطهم بها ماضٍ عريق ،والتي يرغب بعضهم في الرجوع اليها لانشاء دولة لهم فيها».

Arch.Aff.Etr.Guerre 1914-1918 Turquie vol 877 Syrie-Plaestine-٩٨
p.p.144,150.

٩٩- ينقل زين نور الدين زين عن الوثائق البريطانية ان الجنرال اللنبي قد اعطى بعض التطمينات في ١٧ تشرين الاول(اكتوبر) للامير فيصل بمناسبة مغادرة القوات الحجازية لمدينة بيروت. فقد ورد في تقريره الى حكومته ما يلي: «لقد اكدت بصورة رسمية للامير فيصل ان اي اجراءات يمكن ان تتخذ في اثناء الادارة العسكرية للبلاد، انما هي اجراءات مؤقتة، ولا يمكن بصورة ما ان تؤثر في التسوية النهائية عند عقد مؤتمر الصلح الذي لا اشك في ان يحضره ممثل عن العرب. واضفت قائلاً له ان الحكام العسكريين قد صدرت اليهم تعليمات الا يتدخلوا في الشؤون السياسية..» .المصدر السابق ،ص ٢٢١ حاشية رقم ٢٢.

١٠٠- لسان الحال (البيروتية) تاريخ ٢٦ تشرين الاول(اكتوبر) ١٩١٨.

Arch.Aff.Etr.Levant 1918-1929 Syrie-Liban vol.43 p. 166;Vol 44 p.p 38,9-44;Vol.2109 p.42. وبخاصة عريضة حسين الدادا، مفتي صيدا ،ومفتش معارف لبنان الجنوبية، ورئيس جمعية المقاصد الخيرية ونقيب السادة الاشراف وإمام المسلمين الحالي.

١٠١- كتب محمد بدر الدين الخطيب في خاتمة مقالاته تحت عنوان: المعاهدات العربية، قال: وافاني الدكتور الشهبندر عن عهد السوريين السبعة ان بوادر القلق في السياسة العربية التي ظهرت سنة ١٩١٨ اثارت اهتمام عدد من السوريين منهم رفيق العظم وحسن حمادة ومختار الصلح وخالد الحكيم والشيخ كامل القصاب والدكتور عبد الرحمن الشهبندر، فعقدوا اجتماعات متوالية لبحث الموضوع وتحقيق الاماني القومية، وبعد اجتماعات متكررة مع المستر وولروند سكرتير اللورد ملز (الاصح انه تابع للمكتب العربي في القاهرة) (Walrand) والكومندور هوجرت(Hogorth) العالم الاثري المشهور ورئيس جامعة اكسفورد ، كتبوا المطالب العربية القائمة على الجهود التي يقوم بها الجيش العربي، وقبل الهدنة بشهرين او ثلاثة جاء الرد ،وكلف الكومندور هوجرت ان يبلغه، وخلاصته ما نقلته وحفظته في مجموعة اوراقي (ان كل بلد عربي تابع للحكومة العثمانية يفتحه الجيش العربي يعد مستقلاً استقلالاً تاما .وقد نشر الكولونيل لورنس هذه الاتفاقية في جريدة التيمس، في صيف ١٩١٩، وكانت احدى الحجج الاساسية التي بنى عليها استقلال المنطقة السورية، لان الادارة العسكرية للحلفاء اعتبرت الخدمات العسكرية الجليلة التي قام بها الجيش العربي

في درعا ودمشق وحمص وحماه كافية لعدّه فاتحا لتلك المنطقة. وقال الدكتور الشهبندر :ان هذا العهد كان شفهيًا رسميًا) المقطم، عدد ١٢ يونيو(حزيران)١٩٣٠.

١٠٢– زين نور الدين زين: المصدر السابق، ص ٩٩.

Arch. Aff.Etr, Guerre 1914-1918, Sionisme vol II,III,IV.(1198 et1191).–

La Qustion de Mossoul de la signature du Traite d'Armistice de,–١٠٣ Maudrass ,30 October 1918 au ler Mars 1925 , publice en 1925 a Constantinople p.p. 15, 26,34,37.

١٠٤– دكتور عبد الرحمن البزاز: محاضرات عن العراق، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٠، طبعة ثانية ص:٨٧–٩٢,٨٨–٩٧.

١٠٥– تقع فلسطين في المنطقة الملونة باللون البني ،وهي المنطقة التي ستنشأ فيها ادارة دولية، باستثناء مينائي حيفا وعكا اللذين يعطيان لبريطانيا. وقد حاول لويد جورج في حديثه مع الكولونيل هوسي (House) ممثل الرئيس ولسن الخاص، يوم توقيع الهدنة مع تركيا، تركيز حديثه حول اتفاقية سايكس–بيكو بغية جس النبض. وبعد شهر تلقت السفارة الامريكية في لندن من وزارة الخارجية البريطانية، بصورة غير رسمية، مخططاً لمشروع الصلح البريطاني المتعلق بالشرق الادنى ،وفيه ان بريطانيا تسيطر على العراق ،وامريكا على فلسطين والقسطنطينية والمضايق، اما نصيب فرنسا فربما كان سوريا.. وتشير وثائق وزارة الخارجية الايطالية الى ان السيد مارك سايكس كان قد لمح قبل اجتماع لويد جورج بالكولونيل هاوس بثلاثة أشهر الى احتمال فرض وصاية امريكية على فلسطين، وذلك في حديث رسمي جرى بينه وبين الماركيز امبريالي (Imperiali) السفير الايطالي في لندن. راجع زين نور الدين زين: الصراع على الشرق الاوسط.

Liyod George: The Truth about the peace Treaties, vol,II p. 1018–١٠٦

Andre' Tardieu: Mossoul et le Petrole :L'illustration cev p.p. 381–١٠٧ 382; ainsi que:Le Matin11 et 17 Juin 1920.(B.N. Paris).

R.Szanmad Bakar: Woodrow Wilson and Settlement, Written from–١٠٨ his unpulished and personal and ;aucl 3 Vols.(London 1923) P.P.1-19., وقد نشرت وزارة الخارجية الامريكية وقائع هذه الجلسة عام ١٩٤٦.

١٠٩– زين نور الدين زين: المصدر السابق، ص ١١٧–١١٨.

١١٠– زين نور الدين زين: المصدر السابق، ص ١١٦.

١١١– حاييم وايزمن: التجربة والخطأ.

١١٢– Frish Wasser- Ra'anan,H.F, Frontiers of a Nation p.104 and Eses Fondation for Palestine, vol.I p. 139.

١١٣– دكتور انيس صايغ: الهاشميون والثورة العربية، ص١٣٧–١٣٨.

١١٤– زين نور الدين زين: المصدر السابق، ص١٢٣.

١١٥– كتب بريموند: اصبح موقفنا في سورية على جانب كبير من الخطورة، اولا بسبب مهزلة اللجنة الامريكية الخبيثة التي كانت موجهة في الدرجة الاولى ضد فرنسا، فانها لم تتوجه الى بغداد ، ولا الى الموصل حيث كان من المتوقع ان تلاقي معارضة شديدة ضد انكلترا..ثانياً لان التحقيقات التي قامت بها كانت تمثيلية مفجعة، فانها لم تقابل الا الوفود التي كان يبعث الانكليز بها او الامير فيصل وكانت ترفض مقابلة اي وفد يبدي عطفاً على فرنسا، كانت تستقبلهم ببرودة وخشونة » (Bremond,E.opt.cit.p. 327.©)

١١٦– خيرية قاسمية : حكومة فيصل في سوريا ،ص ٦١.

١١٧– اسعد داغر: مذكراتي على هامش القضية العربية، ص ١٠٠–١٠١. راجع ما يرويه عن سفره وسفر فوزي البكري، رشيد رضا: المنار مجلد ٢١ جـ ٤ تاريخ ٢٨ حزيران (يونيو) ١٩١٩ ،ص ٢٠٠.

١١٨– طارق البشري : الحركة السياسية في مصر – دار الشروق ،ط٢ لسنة ١٩٨٣، ص ٢٣٣.

١١٩– انيس صايغ: المصدر السابق، ص ص١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠١–١٧٨.

١٢٠– انيس صايغ: المصدر السابق ،ص ص ٩١.

١٢١– انيس صايغ: المصدر السابق ،الهاشميون والثورة العربية الكبرى ، دار الطليعة ، بيروت ط١، ١٩٦٦، ص ٨٣.

١٢٢– انظر افتتاحية الف باء الدمشقية، عدد ١١ تموز (يوليو) ١٩٢٤.

١٢٣– من اقوال اعضاء نادي الشبيبة الارثوذوكسية في يافا لاحد الكتاب: المقطم في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣١.

١٢٤– من اقوال اعضاء نادي الشبيبة الأرثوذوكسية في يافا لاحد الكتاب: المقطم في الف باء عدد اول آب (اغسطس)١٩٢٤.

١٢٥–ألف باء ، عدد اول آب (اغسطس)١٩٢٤.

١٢٦- «براءة الشام من اللئام» قصيدةلشاعر دمشق خليل مردم بك ، جاء فيها:

ان الذين تجافى عنهمُ الشرفُ ... الشام تبرأ من عار الذي اقترفوا

كادوا لها قبل ان كادوا لمصر فلا ... تواخذوها بذنب منه تنتصـــفُ

* * *

اخواننا ولنا في الصالحات يد ... لكننا لكمُ بالسبق نعتـــــرفُ

ثاني الاواصر من قربى ومن لغة ... الا الوفاق فكيف اليوم نختـلفُ

حلفت بالدم في القطرين جيد به ... وهل وراء دم جدنا به حـــــلفُ

انا على العهد نصفيكم مودتنا ... ما في مودتنا مَنٌّ ولا ســــرف

ألف باء ، عدد ٢٧ ،كانون الاول ١٩٢٤

١٢٧- المقطم عدد ٦ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٢٥.

١٢٨- المقطم عدد ١٢ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٢.

١٢٩- وادي النيل (الاسكندرية) عدد ٣٠ ديسمبر (كانون الاول) ١٩١٣.

١٣٠- في السياسة الاسبوعية، عدد ١١، يونيو(حزيران) ١٩٢٧، تجد المقالات التالية : رجال التاريخ العربي الحديث: الامير بشير الشهابي، ومقال عن الحجاز ، ومقال عن التعليم العالي في العراق وهل تكون للجامعة المصريه علاقة به ، ومقال عن بيروت ، ومقال بعنوان عند السنوسي الكبير في المنفى، وبحث عن عصر المأمون، وفي عدد ٢٥ يونيو(حزيران) ١٩٢٧، نجد المقالات التالية : تونس :دعوة الى ربط حاضر بلاد العرب بالماضي، نعي السيد عبد الرحمن الكيلاني الى الامة العربية والاسلامية- قصيدة للزهاوي في تشييعه- بريطانيا في العراق- اليهود في البلاد العربية في الجاهلية وصدر الاسلام.

١٣١- السياسة الاسبوعية، عدد ١٧ مارس(اذار) ١٩٢٨.

١٣٢- انظر خطبة احمد شفيق باشا رئيس الرابطة في المقطم عدد ١١ سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٢٨، ومقال للمرحوم الكواكبي في المقطم عدد ٢٠ ابريل (نيسان)١٩٢٩.

١٣٣- المقطم في عددي ١٠ مايو (ايار)، و١٥ يونيو (حزيران) ١٩٣١.

١٣٤- انظر خطبة محمد علي علوية باشا في المقطم ،عدد ديسمبر (كانون الاول) ١٩٣٠ .

١٣٥– المقطم عدد ١٥ فبراير (شباط) ١٩٣١.

١٣٦– الزمان– بغداد– عدد ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٨. انظر بيان اللجنة التنفيذية في كلية الحقوق بجامعة القاهرة، كذلك المقطم، عدد ٢١ يناير(كانون الثاني) ١٩٣٢.

– انظر البيان الذي اذاعه لفيف من رجالات العرب، على اثر ارفضاض المؤتمر الاسلامي لنصرة قضية فلسطين،يعلنون فيه ايمانهم بالوحدة العربية، ويدعون اليها انقاذا لفلسطين . كذلك المقطم عدد اول يوليو (تموز) ١٩٣٢.

١٣٧– من خطبة لاحد زعماء فلسطين في المقطم.

١٣٨– الدكتور انيس صايغ: الهاشميون والثورة العربية الكبرى ،ص ٨٤.

١٣٩– محمد علي علوبة باشا: مبادئ في السياسة المصرية، مطبعة دار الكتب المصرية ،١٩٤٢، ص ٢٨٤.

١٤٠– كتب امين سعيد على لسان الدكتور عبد الرحمن شهبندر: « ثم لاحظت بعد ذلك ان الرأي العام المصري يسيء الظن بالمشتغلين بالقضية العربية ويتهمهم بانهم الة بيد الاجانب، فكان موقفنا من اصعب المواقف، مشانق في الشام ،وسجون وتعذيب ونفي وارهاب وظلم دونه ظلم جنكيز خان وهولاكو في بلاد السلطنة، وتهم وريب في مصر .. ثم ادرك المصريون بعد ثورة الشام وثورة العراق ان رجال القضية العربية غير مأجورين للاجانب، وانهم انما يعملون لاستقلال بلادهم وتحررها ،فحسنوا ظنهم بهم ،وبطلت كلمة مسلم شامي ومسيحي شامي وعدت ثالثة الى مصر بعد ثورة سوريا الكبرى فشعرت بان هنالك ارتفاعاً في اسهم القضية العربية، وادركت ان الناس صاروا يعنون بقضيتنا، ويتتبعون سيرها، ويدركون ان مصلحة مصر ان تعطف على رجالها وتؤيدهم في نضالهم لخير العرب..». المقطم، عدد اكتوبر (تشرين اول) ١٩٣٣.

السياسية عدد٢٠يوليو (تموز) ١٩٣٢ (رسالة من الدكتور هيكل من لبنان الى ابراهيم عبد القادر المازني في القاهرة).

١٤١ – الزمان– بغداد – عدد ٢٧ نيسان(ابريل)١٩٣٨

– فكرة الجامعة العربية وكيف تفهمها في مصر : بيان الى جريدة فلسطين بقلم محمد عبد الله عنان، السياسة عدد ١٤، يونيو (حزيران) ١٩٣٣.

١٤٢– انظر بيان الحزب الاشتراكي المصري الموقع من سكرتيره محمد عبد الله عنان، ومن علي العناني، وسلامة موسى، وحسني العرابي في جريدة الافكار عدد ٢٨ اغسطس (آب) سنة ١٩٢١.

١٤٣- انظر خطبته في عكا وهو قادم من سوريا في المقطم ،عدد ١٥ سبتمبر (ايلول) ١٩٢١.

١٤٤- الهلال ، العدد الذهبي عن العرب والاسلام في العصر الحديث، عدد ابريل (نسان) ١٩٣٩.

١٤٥- المقطم عدد ٣، ديسمبر (كانون الاول) ١٩٢٢.

١٤٦- المقطم ،عدد اغسطس(آب)، رد حسين محمود (لعله اسم مستعار) على محمد علي علوية.

١٤٧- المقطم، عدد ٢١، اغسطس(آب) ١٩٣٠. انظر مقال محمد فريد الخبير لدى المحاكم الاهلية المؤيد للفكرة العربية والرد عليه من وجهة النظر «القومية المصرية الفرعونية»، وكذلك اعداد المقطم التالية ٣٠ اغسطس (آب)و٤،٦٠،١٠،١١،١٢ سبتمبر(ايلول) و ٨ اكتوبر (تشرين الاول) لعام ١٩٣٠،وفيها مقالات وردود عليها بقلم حسن عارف وناشد سينين ومحمود حسن ورياض الجمل والشيخ محمد الغنيمي التفتناوي.. الخ .وكذلك مقالات احمد زكي باشا في المقطم عن مصر العربية بدءا من عدد ٤ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٢٩، وفي الاهرام عدد ١٧ يونيو(حزيران) ١٩٢٦ بعنوان وحدة الحضارات العربية.

١٤٨- المقطم ،في عددي ٦ سبتمبر (ايلول، و١٢ سبتمبر (ايلول) ١٩٣٣.

١٤٩- ينقل الكاتب هذه العبارات عن جريدة الاحرار البيروتية، ويرد عليها تحت عنوان: «مصر وجاراتها الشرقية هل لتفاهم هذه الشعوب خصوم ؟» في السياسة الاسبوعية، عدد ٤ يونيو(حزيران) ١٩٢٧.

١٥٠- السياسة الاسبوعية، عدد ١٨ يونيو(حزيران) ١٩٢٧.

١٥١- انظر مقال حلمي الادريسي(نابلس) وآخرين (من فلسطين ايضاً) في السياسة الاسبوعية، في عدديها ١٢ فبراير(شباط)، ١٩ نوفمبر(تشرين الثاني) ١٩٢٧، وفي عدديها ٣٠ يونيو (حزيران) و ٢١ يوليو (تموز).

١٥٢- الهلال عدد فبراير(شباط) ١٩٧١ مقال:« خواجات في تاريخ الحركة العمالية» بقلم امين عز الدين.

١٥٣-البيان كاملاً في الافكار، عدد ٢٨ اغسطس (آب) ١٩٢١.

١٥٤- ولتر لاكور: الاتحاد السوفيتي والشرق الاوسط، انظر ص ٥٦-٥٧وص ١١٧-١١٨.

١٥٥- في اعقاب الحملة الارهابية التي شنتها حكومة محمد محمود ارسلت اللجنتان المركزيتان للحزبين الشيوعيين في سوريا وفلسطين، على اثر اجتماعهما لهذا الغرض برقيتين الاولى الى محمد محمود تشجب الوسائل الدكتاتورية الرامية الى تحطيم حق الانتخاب البرلماني وحرية الصحافة والتعبير والاجتماع وهي الحقوق التي لم يتسن للشعب الحصول عليها الا

بنضال مرير، كما نددت بارتكازه الى حراب الانجليز، وبما يؤديه من خدمة للامبريالية، ووصمته بعار العداء للحركة الديموقراطية . اما البرقية الثانية فقد ارسلت الى رئيسي الحزبين اللذين تعرضا للاضطهاد، ورد ذلك في International press correspon-dance 17,8-192 N51 p. 908. وهي المجلة الاسبوعية التي كانت تصدرها الدولية الثالثة- الكومنترن باللغات الروسية والالمانية والفرنسية.

١٥٦- كانت قضية عصام الدين حفني ناصف نموذجاً. وقد ادى اهتمام الصحافة المشرقية بقضيته امام المحاكم المصرية الى انه عقد اواصر الصداقة مع كثيرين، واخذ يراسل بعض الصحف ،وينشر مقالاته فيها، وخاصة مجلة الحديث اللبنانية، وقد كتبت الف باء الدمشقية في ٢٤ تشرين ثاني(نوفمبر) ١٩٣١ في قضيته ما يلي: اشتغلت المحاكم والصحافة مدة يومين متواصلين في مسألة اجتماعية خطيرة يتوقف عليها مدار حرية الفكر في الكتابة والتأليف والدراسات العلمية وهي قضية عصام الدين حفني ناصف.. وقد صفق الناس كثيرا لهذا الحكم العادل، لانه وضع حداً لتأويلات النيابة، وتمحكات الذين يرمون الى تحطيم الاقلام والحجر على الافكار الحرة..» .انظر عصام الدين حفني ناصف.. بقلم الدكتور رفعت السعيد، مؤسسة روز اليوسف ،ص ٥٨-٥٩.

١٥٧- لعل اكمل تعريف، حتى ذلك الحين، هو ذلك الذي جاء في خطاب عبد الغني العريسي عن حقوق العرب في الدولة العثمانية، الذي ألقاه في مؤتمر باريس:« الحق في كل تكوين سياسي قائم على نوعين: حق فرد وحق جماعة. والجماعات كثيرة واجلها مكانة جماعات الشعوب، فللشعوب حق غير حق الافراد. هل للعرب حق جماعة ؟ان الجماعات في نظر علماء السياسة لا تستحق هذا الحق ،الا اذا جمعت على رأي علماء الالمان وحدة اللغة ووحدة العنصر، وعلى رأي الطليان وحدة التاريخ ووحدة العادات، وعلى مذهب ساسة الفرنسيين وحدة المطمح السياسي. فاذا نظرنا الى العرب من هذه الوجوه الثلاثة علمنا بان العرب تجمعهم وحدة اللغة ووحدة التاريخ ووحدة عادات ووحدة مطمح سياسي» مذكوراً في : بحوث في المجتمع العربي للدكتور محمد انيس وآخرين ص ٦٥-٦٦.

الفصل الثالث

صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام ١٩٠٨-١٩١٨

حزب اللامركزية الادارية العثماني

د. سهيلة الريماوي

اولاً: البعد التنظيمي الداخلي للحزب:

حزب اللامركزية الادارية العثماني، تنظيم سياسي علني، اقامه السوريون خارج سورية، وبالتحديد في مصر أواخر سنة ١٩١٢ أو أوائل سنة ١٩١٣. ويرجح التاريخ الثاني، استنادا الى وثيقة حصلت عليها من مكتبة محب الدين الخطيب في القاهرة، تحدد تاريخ ١٢ يناير «كانون الثاني» سنة ١٩١٣ يوم اجتماع اللجنة العليا للحزب، وانتخاب محب الدين الخطيب في هذه الجلسة مساعداً للسكرتارية، اي سكرتيراً ثانياً (١).

وعلى العموم، فان مسألة «التنظيم السياسي»، على صعيدي النظرية والتطبيق، هي واحدة من أهم المسائل التي تواجه الفكر والحركات السياسية المعاصرة في امم العالم كله. وهي من اهم المسائل التي واجهت العرب العثمانيين بعد اعلان المشروطية سنة ١٩٠٨.

واذا كانت ضرورة «التنظيم السياسي» أمراً مسلماً به، ولم تثر كثيراً من النقاش أو الجدل حولها عند العرب العثمانيين في مطلع القرن العشرين، فمما لاشك فيه أن «صيغة» التنظيم السياسي ومقوماته، أمور أثارت نقاشاً واسعا وجدلاً حاداً بين الشبيبة العرب في الاستانة حول مسائل كثيرة منها: هل الاحزاب والحزبية هما الصيغة المثلى للتنظيم والنشاط السياسيين؟، أم تراهما غير ذلك؟.

هل الاحزاب السرية، أم الاحزاب العلنية، أم الجمعيات القومية، أم جمعيات الاخاء والائتلاف، أفضل من غيرها في ذلك الوقت؟.

ما كيفية بناء الحزب، وما مقومات هذا البناء ومهماته، وصلاته بالمؤسسات السياسية والاجتماعية الاخرى في الدولة والمجتمع؟.

من هنا فان مواجهة مسألة التنظيم السياسي بصورة عامة، وما تنطوي عليه طبيعتها، من مواجهة لمسألة الاحزاب والحزبية بصورة خاصة، هي مسألة حية، واجهتها امتنا بفكرها وحركتها مواجهة فعلية مباشرة، منذ مطلع القرن العشرين حتى وقتنا الحاضر.

واذا كان حزب الاخاء العربي العثماني أول حزب علني تأسس بعد اعلان الدستور سنة ١٩٠٨(٢)، وجمعية العربية الفتاة والجمعية القحطانية من أوائل الجمعيات السرية التي اسسها العرب العثمانيون بعد الانقلاب، فان حزب اللامركزية الادارية العثمانية هو في مقدمة الاحزاب العلنية التي اسسها السوريون خارج سورية. وقد انتشر انتشاراً واسعاً في بلاد الشام، حيث تأسست له الفروع النشطة، وبقي قائماً من اواخر سنة ١٩١٢ وحتى سنة ١٩١٦، حيث قدم جمال باشا السفاح اكثر اعضائه شهداء على اعواد المشانق في هذه السنة وما قبلها.

نشأة حزب اللامركزية وظروف تأسيسه:

نشأ هذا الحزب اثر ضياع طرابلس الغرب، وبعد ان ايقن العرب الشاميون المقيمون في القاهرة، ان الامبراطورية العثمانية غير قادرة على حماية حدودها، وعلى تطبيق نظامها المركزي الاداري.

ويقول رشيد رضا احد مؤسسي الحزب:

«ان حزب اللامركزية كان يراد به خدمة الدولة والبلاد العربية معاً. وكان سبب تأسيسه ما ذكر آنفا من سبب تأسيس الجمعية العربية، وهو ما انذرت به الحرب البلقانية العثمانية من توقع زوال الدولة. وقد كنا نعتقد ان الدولة لا يمكنها ان تعيش طويلاً اذا اصرت على شكل حكومتها المركزي، وتحكيم الترك في جميع شعوب الدولة»(٣).

وقد تشكلت اول هيئة ادارية للحزب على الشكل التالي:

١- الرئيس : رفيق العظم من دمشق.

٢- نائب الرئيس: اسكندر عمون من لبنان.

٣- امين السر: حقي العظم من دمشق

٤- امين السر الثاني: محب الدين الخطيب من دمشق.

٥- امين السر الثاني: رشيد رضا من طرابلس لبنان.

٦- عضو: د. شبلي شميل من لبنان.

٧- عضو: سامي جريديني من لبنان.

٨- عضو : داوود بركات رئيس تحرير صحيفة الاهرام بمصر(٤).

مبادىء حزب اللامركزية واهدافه:

يتميز هذا الحزب بأنه صاغ مبادئه واهدافه في وثيقة عنوانها: « بيان الحزب وبرنامجه السياسي»(٥). وهي وثيقة مفصلة تفصيلاً وافياً، ترقى الى مستوى دساتير الاحزاب الحديثة. والسبب في هذا التفصيل الواضح، ان هذا الحزب كان يتمتع بعدة صفات اهمها : انه كان حزباً علنياً، ويتكون من سياسيين مجربين، ثم انه حزب نشأ في مصر حيث كان مستوى الفكر والوعي السياسي على درجة متقدمة، كما انه كان بعيدا عن مركز الدولة العثمانية.

أما الجزء الاول من هذه الوثيقة،وهو: « بيان الحزب»، ففيه محاولة لعرض مايمكن تسميته«فلسفة الحزب»، أو «نظريته السياسية»، وتحليل لاوضاع الامبراطورية العثمانية الواقعية، لينتهي من ذلك الى تأكيد اللامركزية الادارية كحل ضروري لما كانت عليه تلك الاوضاع من صراع وتخلف ، وما تنطوي عليه بالنسبة للدولة العثمانية وشعوبها من مخاطر.

أما البرنامج المرفق بالبيان ، فهو في حقيقته« دستور مقترح » لنظام اللامركزية الادارية التي يطالب بها الحزب(٦). ويتألف هذا البرنامج من (١٦) مادة، تحتوي على المبادىء الدستورية الاساسية ، ويمكن ان نوجزها على الشكل فيها:

اولاً: التأكيد على وحدة الدولة العثمانية، وعلى وحدة السيادة فيها.

ثانياً:اقامة مركزية ادارية محددة القسمات.

اما اهم مظاهر الوحدة السياسية للدولة العثمانية ، واهم مظاهر وحدة السيادة فيها، في برنامج الحزب، فهي ان البرنامج يؤكد على أن السلطان هو رأس الدولة العثمانية الواحدة(اي الامبراطورية العثمانية)، وانه الذي يعين الوالي وقاضي القضاة في ارجاء الامبراطورية.

كما يشير البرنامج الى أن (مجلس المبعوثان والاعيان) هو المجلس التشريعي المركزي للامبراطورية العثمانية كما يشير البرنامج إلى أن «النظارة المركزية» أي «الحكومة»، هي التي تتولى شؤون التشريع العام والدفاع والخارجية والمالية العامة المشتركة.

أما بالنسبة للغة، فيشير البرنامج الى أن اللغة التركية هي لغة رسمية في جميع الولايات التي تتألف منها الامبراطورية العثمانية، ولكن «الى جانب لغاتها المحلية».

أما مظاهر اللامركزية الادارية في برنامج الحزب، فانها تبدو أساساً على الشكل التالي:

أن البرنامج يطالب بتكوين أربع مؤسسات محلية هي:

أ- المجلس العمومي.

ب- مجلس الادارة.

جـ- مجلس المعارف.

د- مجلس الاوقاف.

وصلاحيات هذه المجالس وسلطاتها تحددها مواد البرنامج من المادة الخامسة، وحتى المادة التاسعة علي الشكل التالي:

صلاحيات المجلس العمومي.

صلاحيات مجلس ادارة الولاية.

صلاحيات المجالس الثلاثة الاخرى.

أما صلاحيات المجلس العمومي، فهي المراقبة على حكومتها (والظاهر ان كلمة حكومة هنا تعني مجلس الادارة)، والنظر في جميع شؤون الادارة المحلية، من تقرير ميزانية الدولة وأمور الأمن العام ،والمعارف، والنافعة ،والاوقاف والبلدية ،وتقرير ما يراه فيها وسن النظامات لها.

وأما ما كان من أمور النافعة، ويتعلق من بعض الوجوه بالأمور العسكرية أو السياسية الخارجية ، كسكك الحديد، فيرفعها الى العاصمة.

وواضح مما تقدم أن هذا المجلس العمومي هو بمثابة برلمان للادارة المحلية يراقب حكومتها (أي مجلس ادارتها)، كما يفعل البرلمان بالحكومة ، ويقر الموازنة ولكنه لا يضعها، ويسن النظامات التي تقابل القوانين في أحوال المجالس النيابية.

أما صلاحيات مجلس ادارة الولاية ، فهي القيام بأعمال الحكومة الادارية واهمها:وضع ميزانيتها واختيار جميع موظفيها.

وأما صلاحيات المجالس الثلاثة الاخرى، فهي أن يتولى كل مجلس منها ادارة الشؤون ، ووضع الموازنة في مجال اختصاصه.

ومن مظاهر تشابك المركزية باللامركزية في هذه الصلاحيات ما يلي:

أ- أن قرارات المجلس العمومي تكون نافذة، ومعنى ذلك انها نافذة بدون حاجة الى تصديق من الوالي او من السلطان ، كما يفهم من النص.

ب- وجوب رفع رأي المجلس العمومي الذي يتصل بالنافعة ، والمتعلق من بعض الوجوه بالامور السياسية والعسكرية للسكك الحديدية، الى العاصمة، بعد ابداء رأيه.

فقرار المجلس العمومي غير نافذ في هذه الامور، مع ان اختيار مجلس ادارة الولاية للموظفين يحتاج الى تصديق من يمثل السلطة المركزية.

جـ- ان الشؤون المتعلقة بالخدمة العسكرية صيغت بطريقة توفق بين حاجات الدفاع المركزي وبين مقتضيات اللامركزية، من حيث كون اهل كل ولاية يؤدون الخدمة العسكرية في ولايتهم، ويكون عسكرها على اهبة الاستعداد للذود عنها زمن السلم. واما سوق الجنود في زمن الحرب، فهو منوط بوزارة الحربية وحينئذ يجب على المجلس العمومي ان يختصر وسائل الدفاع عن الدولة.

وبالرغم من ان مجمل الصياغة اللفظية تؤكد اللامركزية الادارية في نطاق الوحدة السياسية ، الا ان في النصوص مرونة، بل غموض احيانا ، يترك هامشاً واسعاً لاعطاء اللامركزية الادارية التي يتحدث عنها هذا البرنامج كثيراً من خصائص اللامركزية السياسية.

أما النظرية السياسية للحزب ، أو فلسفته ، كما تبدو في البيان، فانها تقوم على تأكيد المبادىء التالية:

١- ان غرض الامم الذي ترمي اليه في هذا الوجود انما هو الحياة، بمعناها الواسع، الحياة الاجتماعية والحياة السياسية، اي: «ان يكون لها وجود اجتماعي راقٍ ، ووجود سياسي ثابت».

٢- انه :« من الضروري أن تسعى الامة لكلا الوجودين في منهجهما القويم الموصل الى الغاية ، وتعنى بهما جميعاً، ولا تقتصر مجهوداتها على بلوغ غاية احدهما دون الآخر».

ورتبت هذه النظرية على المبدأين السالفين مبدأ ثالثاً هو:

٣- ان «القوانين الاجتماعية مهما كانت راقية قل أن تضمن الحياة لأمة، اذا لم تكن قائمة على اساس متين هو القوانين السياسية».

واوضحت مضمون هذا المبدأ في تأكيد عدم جدوى القوانين الاجتماعية التي لا ترتكز على اساس متين من القوانين السياسية، فبينت:

أ- «ومهما عنيت الحكومة بتنظيم قوانين الحياة الاجتماعية للامة، واكثرت من مشروعات الاصلاح في المملكة، في التعليم والاقتصاد والادارة والقضاء ونحو ذلك، فانها لا تخرج في هذا كله عن معنى الوصاية على محجور عليه،لا يملك التصرف بشؤون حياته الخصوصية ، ليثبت لنفسه وجوداً صحيحاً بين الناس ، ويعمل لسعادته جهد العامل المجد».

ب- «ولذا اصبح لهذا العهد شكل الحكومات التي تقوم الحياة السياسية لكل امة من الأمم، وصار من المسلم بالبداهة ،ان وجود الامة السياسي والاجتماعي بين (مجاميع الانسان) الحية، متوقف على شكل الحكومة ،فكلما كانت مشاركة الشعب للحكومة اكثر، كان ذلك لدوام وجوده اضمن». وخلصت نظرية الحزب ،من ذلك كله الى صياغه مبدأ رابع، وهو : ٤- « لهذا تكاد تكون سائر الحكومات للامم المستقلة اليوم دستورية شعبية، لاشأن فيها لسلطة الافراد بل الشأن لعامة الامة ومشاركتها للحكومة في كل جليل وحقير من الشؤون العامة . إلا أنها تتفاوت في ذلك منازل ودرجات ، وتختلف في الشكل اختلافا روعي فيه الاجتهاد والنظر إلى حالة الشعوب الاجتماعية والعرقية والقابلية والاستعداد».

وبعد تأكيد المبادىء الاربعة المذكورة بالصورة المنطقية، التي انتهت إلى تأكيد أن أفضل شكل من اشكال الحكومات هو الشكل الدستوري ، يمضي بيان حزب اللامركزية الادارية، فيؤكد أن :« افضل أشكال الحكم الدستوري هو اللامركزية، خصوصاً في الممالك التي تعددت فيها العروق والمذاهب واللغات، واختلفت العوائد والتقاليد والاخلاق، فكان من المتعذر أن تساس بقانون واحد لم تراع فيه تلك الاحوال, ولم ينظر معه في الحاجة والزمان والمكان».

اعتمد بيان الحزب في تأكيد هذا المبدأ على التجربة ،وضرب مثلا حياً عليها بسويسرا والدولة العثمانية ،بعد أن اشار في وصف مقارن للفروق بين اوضاع التقدم والترقي القائمة في سويسرا التي تحكم باللامركزية ،وبين السلطنه العثمانية التي تحكم بالمركزية.

كما اعتمد في تأييد هذا المبدأ أيضاً علي تحليل تخطى فيه مجرد المقارنة بين الاوضاع التي تبرزها التجربة، وانتهى منه إلى أن اللامركزية تأبى بطبيعتها أن تكون تبعة الحكم مقصورة على أفراد قليلين، تصدر عنهم القوة والعمل، إلى كل ناحية من انحاء المملكة، فيكونوا «كالمحرك في آلة كبيرة جداً، إذا اصابه عطب أو ضعف تعطلت أجزاء سائر الآلة عن العمل ، دون أن يكون لأي جزء من هذه الأجزاء قوة ذاتية يعمل بها لنفسه، ودون أن يكون مسؤولاً عن نتيجة وقوفه عن العمل».

ومن البديهي أن الشعب غير المسؤول عن أي خطأ يصدر عن حكومته لا يشعر كل فرد منه بالتبعة ، فلا يهتم بالنتائج لخطأ الحكومة إلا بعد الوقوع فيه. ذلك لأنه يسير بارادة غيره لا سلطة له حتى على نفسه، لانها محكوم عليها أن تسير في السبيل الذي يريده غيره، وأن «خالف رغبته ومصلحته وهواه».

ثم يبدأ البيان بتمجيد اللامركزية وضرورة تطبيقها بقوله:

«فاللامركزية توزع التبعة على أفراد الأمة بمقدار ما تعطيهم من السيطرة على مصالح الوطن. وبسبب ذلك تنزع عنهم ثوب الحياة الاتكالية، حياة الاعتماد على غير النفس، وتفسح أمام كل فرد مجال العمل الواسع في جهاد الحياة، وتمهد للشعب بلوغ غايات المدنية والترقي والعمران من أقرب سبيل ، وفي وقت قصير ، والعكس بالعكس».

وبعد أن توصل الحزب الى تأكيد المبادىء الخمسة المذكورة التي تكوّن عناصر نظريته السياسية، ووصف اوضاع الإمبراطورية،وحللها من نواحي التعليم والنافعة والإدارة والدفاع ،انتهى إلى تقرير موقف أجمله بقوله:

«وقد ظهر للعيان أن المملكة كلها عرضة لخطر الزوال بهذه الحكومة المركزية، مهددة بفقد الاستقلال الذي يفديه كل عثماني بأعز شيء لديه وهو النفس، ويتمنى كل شعب تظله راية الهلال بقاءه ليبقى عزيزاً في وطنه ، اميناً من تسلط المغيرين عليه».

ثم انتهى إلى أن العلاج الوحيد لهذا الموقف، إنما هو في الاخذ «باللامركزية الإدارية».

النظام الداخلي للحزب:

يبين لنا النظام الداخلي لحزب اللامركزية الادارية العثماني، السمات الرئيسية التالية لهذا الحزب وهي:

١- أنه حزب علني، فهو على حد نص المادة الثالثة :« ليس هذا الحزب خفياً، وليس فيه ما يعد من الاسرار ، فهو ينشر مقصده المبني علي المطالبة باللامركزية الواسعة جهراً وعلانية، دون الخشية من أحد ، لاعتقاده يقيناً أن الدولة لا تبقى في (العالم السياسي) إلا إذا بنيت حكومتها على أساس اللامركزية الادارية».

٢- أنه حزب يؤمن بالوسائل المشروعة. فهو على حد نص المادة الثانية ينادي بعدة نقاط و......«والمطالبة بكل الوسائل المشروعة بحكومة تؤسس على اللامركزية الادارية في ولايات الدولة العثمانية».

٣- أنه حزب عثماني التكوين . فهو على حد نص المادة الرابعة، يقول : «أن الدخول في حزب اللامركزية مباح لكل عثماني بلغ العشرين من العمر ،علي شرط أن يكون اولاً من المتمتعين بجميع الحقوق المدنية، ثانياً: غير محكوم عليه بحكم مخل بالشرف ، ثالثاً: غير معروف بسوء السيرة، رابعاً: ان يقبل القواعد المبينة في برنامج الحزب».

هذا على الرغم من انه لم ينتسب الى هذا الحزب في الواقع الا اعضاء من العرب. ويقدم لنا القانون الداخلي لهذا الحزب (أي النظام الداخلي أو اللائحة بالمصطلحات الحديثة) نموذجاً طيباً من ناحية الشكل. فالتطبيق موضوع اخر لنظام داخلي يقوم على ما يسمى اليوم نظرية «الديموقراطية المركزية » في تكوين الاحزاب.

ويتضح ذلك من خلال النقاط التالية:

النقطة الاولى: تحديد واجبات الاعضاء وحقوقهم على الشكل التالي:

١- انه لا يجوز الجمع بين عضوية الحزب وعضوية حزب آخر يخالفه في المادة والغاية (م ٥).

٢- ان من اهم واجبات العضو أن يدفع الى الفرع المسجل فيه راتباً شهرياً (أي اشتراكاً شهرياً) اقله قرشان . ويعفى الفقراء من هذا الراتب.

٣- ان من أهم واجبات اعضاء الحزب من المبعوثين ان يسعوا بكل مافي وسعهم لتنفيذ قواعد الحزب في المجلس.

٤- انه وان كان لا يقيد الحزب اعضاءه بشيء غير قواعد برنامجه السياسي الذي وضع لاجله (م٨)، فإنه لا يسوغ لاحد المنتمين اليه مراجعة الحكومة باسم الحزب من تلقاء نفسه. واذا ثبت على أحد الاعضاء مثل هذا السلوك يمحى اسمه من سجل الحزب (م١٠).

وواضح من هذا القيد انه يحرم على غير الجهة المختصة في الحزب، او من تكلفه بذلك،أن يراجع الحكومة باسم الحزب. وهذه مسألة انضباطية على غاية من الاهمية، تحمي الحزب من استغلال اسمه أو توريطه. والتأكيد عليها يشير الى الاحتمالات الكبيرة لوقوع مثل هذا التجاوز بسبب طبيعة الاوضاع السياسية من جهة، ولكون الحزب يضم بطبيعته كثيراً من السياسيين الموجودين في الاستانة.

واعطى الحزب أهمية لهذه المسألة ، ليس بالنص على خطرها فحسب، وانما بفرض اقصى عقوبة حزبية ممكنة على العضو، وهي محو اسمه من سجل الحزب.

النقطة الثانية: تحديد صلاحيات اللجان والهيئات التنفيذية ، وبناء علاقاتها مع بعضها، ومع القاعدة الحزبية على الشكل التالي:

١- القاعدة تنتخب القيادة على المستويات المختلفة.

٢- والقاعدة ترسم السياسة لفترة مقبلة.

٣- والقاعدة تحاسب القيادة على تنفيذ السياسة.

٤- اما المراكز القيادية في الهيئات القيادية بمختلف مستوياتها، فتملأ بالانتخابات وبطريقة الاقتراع السري.

٥- والهيئات الدنيا حرة في نطاق اختصاصها المحلي، وكذلك الهيئات العليا في نطاق اختصاصها الاعلى.

٦- القيادات مسؤولة امام الهيئات التي تنتخبها. وهي مطالبة بأن تقدم لها تقارير دورية عن كل شؤون الحزب ونشاطاته في جميع المجالات.

٧- الانضباط في نطاق المبادىء المذكورة اعلاه.

ويبدو تطبيق هذه المبادىء، التي هي جوهر مضمون نظرية (الديموقراطية المركزية) في تكوين الاحزاب ونظمها الداخلية، على الشكل التالي:

١–كل عضو في فرع هو عضو في مؤتمر هذا الفرع (مادة ١٥).

٢– في كل فرع لجنة ادارية تتألف من ٢٠ عضواً ينتخبها مؤتمر الفرع.

٣– كل لجنة ادارية تنتخب رئيسها وسكرتيرها وأمين صندوقها.

٤–يعقد كل فرع مؤتمراً فرعياً محلياً سنوياً يحضره جميع اعضاء الفرع، كما تعقد اللجنة مؤتمرا حزبياً عاماً سنوياً في القاهرة، يحضره أعضاء اللجنة العليا، وأعضاء الحزب في المركز العام، ومندوبون عن اللجان الفرعية جميعها.

٥– لاتعد مذكرات اللجان، ولا قراراتها، قانونية، الا اذا حضر اجتماعها نصف اعضائها على الاقل. اما اذا تكررت الدعوة فيكون الحاضرون حينئذ نصاباً قانونياً.

٦– المؤتمر العام للحزب هو السلطة العليا فيه. ويبدو تأكيد هذا المبدأ في الاسس التالية، التي أفرد لها فصل خاص في نظام الحزب هو الفصل السابع، ويشير الى النقاط التالية:

– اختصاص المؤتمر العام بالاطلاع على بيان اللجنة العليا عن اعمال الحزب في السنة الماضية، ورؤية حساباتها، والتصديق عليها،والمذاكرة في كل مايرفع إليه من اعمال السنة المقبلة وتقريرها . واللجنة العليا مكلفة أن تهيء لائحة عامة (المقصود تقريراً عاما) عن الحزب واحواله بناء على مايردها من اللوائح والكشوف من لجان الفروع، وترفعها الى المؤتمر العام.

– انفراده بحق اقرار اي تغيير او تبديل في برنامج الحزب السياسي الاساسي، وتقييد هذا الحق بأن لا يتم التغيير الا بطلب تحريري من اللجنة العليا أو لجنة من لجان الفروع» وأن يكون ذلك بأغلبية آراء المؤتمر».

– سيادة قراراته بالنسبة لجميع لجان الحزب، بحيث يكون على اللجنة العليا ولجان الفروع تنفيذ ما يقرره المؤتمر العام كل منها فيما يخصه.

مالية الحزب:

أما مالية الحزب فقد نظمت في الفصل السابع من نظامه الداخلي تنظيماً متكاملاً وسليماً يقوم على الاسس التالية:

١–تتألف اموال الحزب من التبرعات والاشتراكات . وتطالب اللجان الادارية بالاجتهاد في اتخاذ الوسائل الشريفة ليكثر ماله.

٢-كل مايقبض من المال باسم الحزب يجب ان يعطى به وصل مطبوع من دفتر قسيمة موقع عليه من الرئيس وأمين الصندوق والمستلم.

٣- تودع أموال الحزب في أحد المصارف(البنوك) الموثوق بها باسم الرئيس والسكرتير وأمين الصندوق ، ويسحب ما يسحب منها بامضاءاتهم جميعا (أي بعد أن يوقع عليها الجميع).

٤- لايجوز ان يصرف شيء من مال الحزب في لجنة من لجانه الا بقرار من ادارة هذه اللجنة.

٥- يجوز ان يكون في يد أمين الصندوق مبلغ لا يزيد عن الف قرش لأجل النفقات العارضة.

واذا ما ضربنا صفحاً عن متابعة التطبيق الفعلي لهذا النظام في مبادئه ونصوصه، بسبب استحالة هذه المتابعة من الناحية الواقعية، فمما لاشك فيه أن هذا النظام بمبادئه ونصوصه يشير الى تصور متقدم ومتطور لمعالم البعد التنظيمي الداخلي بالنسبة لحزب علني شرعي، تفوق المبادئ والنصوص التي قام عليها اي تنظيم حزبي سابق من التنظيمات العلنية التي تشكلت منذ سنة ١٩٠٨ حتى الحرب العالمية الأولى ، بل يكاد يفوق المبادىء والنصوص التي قامت عليها الاحزاب في الوطن العربي في مراحل لاحقة.

وقد وجدت في مكتبة السيد محب الدين الخطيب ، السكرتير الثاني للحزب، بعض الوثائق. وتدل على مدى انتشار حزب اللامركزية وفروعه في اركان الامبراطورية العثمانية. وتشتمل هذه الوثائق على دعوات لحضور جلسات المجلس، وعلى بطاقة اعتماد اي طلب انتساب ، وعلى طلبات استقالة (٧)، مما يؤكد لنا أن حزب اللامركزية ضارع في تنظيمه الاحزاب الحديثة، وربما فاقها. وقد قام بدور فعال في تسيير الحياة الحزبية والسياسية في سورية قبل الحرب وحتى ١٩١٦ ، وانتهى اثر المشانق التي نصبها جمال باشا السفاح للاحرار العرب في تلك السنة.وكان بعض هؤلاء الشهداء من حزب اللامركزية.

ثانياً – البعد الحركي أو الحياة الحزبية العامة لحزب اللامركزية:

يمكننا القول ان الاعداد لعقد المؤتمر العربي الاول في باريس سنة ١٩١٣،كان من ابرز المجالات التي ظهرت فيها الحياة الحزبية العربية بشكل عام، وفعاليات حزب اللامركزية بشكل خاص.

فقد كانت الاحزاب العربية في الامبراطورية العثمانية، قبل انعقاد المؤتمر هي: الجمعية العربية الفتاة (السرية)، وقد لعبت دورها في المؤتمر من وراء ستار، وحزب اللامركزية (العلني) الذي كان في بدء تشكيله، ولكنه لعب الدور الاول في المؤتمر، الجمعيات الاصلاحية في بيروت ودمشق والبصرة وغيرها.

وقد جاءت المبادرة في هذه الاتصالات بين الاحزاب من قبل جمعية العربية الفتاة، عندما وجه عبد الغني العريسي، وهو من مؤسسي الجمعية، رسالة الى صديقه محب الدين الخطيب عضو حزب اللامركزية في مصر، يدعوه فيها للانتساب إلى جمعية الفتاة العربية (٨). وعندما تم له ذلك طلب من محب الدين الخطيب ان يقنع حزبه بالاتصال باعضاء الحركة الاصلاحية القائمة في بيروت، والتي تأسست في السنة التي بدىء بها تأسيس حزب اللامركزية. وقد تمكن محب الدين الخطيب من القيام بهذه المهمة، فأرسل حزب اللامركزية برنامج الحزب الى بيروت مع عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الادبي في الاستانة، واقترح اعضاء حزب اللامركزية ان يكون الاصلاح لجميع الولايات السورية، بدلاً من طلب الاصلاح لولاية بيروت فقط... ثم شرح اعضاء اللامركزية غايتهم من هذا الاتصال بقولهم: «حتى نكون يداً واحدة في العمل للمطالبة بتحقيق مبادىء الحزب». ثم طلبوا ان تكون المكاتبات مع حزب اللامركزية عن طريق حقي العظم احد كتاب السر في الحزب(٩).

وعندما قام والي بيروت الاتحادي بمصادرة محتويات مكاتب اللجنة الاصلاحية واغلاق صحفها ومكاتبها، لم يسع حزب اللامركزية السكوت على الوالي. فأرسل الى الصدر الاعظم برقية احتجاج جاء فيها: «مصادرة والي بيروت لجمعيتها الاصلاحية في عملها القانوني استبداد منكر، مضيع لآمال الامة، موجب للتقاطع بين الهيئتين، تداركوا سوء العاقبة بعزل الوالي ونقض عمله، ولا تسنوا للشعب سنة سيئة بمخالفة القوانين»(١٠).

المؤتمر العربي الاول في باريس:

وعندما تباطأت حكومة الاتحاديين بتنفيذ بنود اللائحة الاصلاحية لمدينة بيروت وغيرها من المدن، بادر أعضاء جمعية العربية الفتاة بالاتصال باعضاء حزب اللامركزية في مصر عن طريق العضو محب الدين الخطيب. ولا نود الخوض في تتبع المراحل التي مر بها المؤتمر، فهناك دراسات كثيرة حول هذا الموضوع اهمها الدراسة الصادرة عن اللجنة العليا لحزب اللامركزية في مصر (١١). ولكننا سنبرز الدور الذي لعبه حزب اللامركزية في المؤتمر.

لقد تمكن محب الدين الخطيب من أن يصبح صلة الوصل بين جمعية العربية الفتاة، التي دعت الى عقد المؤتمر، وبين أعضاء حزب اللامركزية. وذلك بعد أن انتسب الى الجمعية، وأصبح عضواً في التنظيمين الحزبيين، وتمكن من موقعه هذا من ان يعمل بنجاح لتبني حزب اللامركزية لمؤتمر باريس تبنيا كاملا (١٢).

وفي جلسة لجنة المؤتمر، المنعقدة يوم الثلاثاء الموافق ١٩١٣/٣/١١، تقرر أن ترتبط هذه اللجنة بحزب اللامركزية في مصر بصفة رسمية. وفي جلسة ١٩١٣/٤/٤ قررت لجنة المؤتمر ان ترسل كتابا الى اللجنة العليا لحزب اللامركزية في القاهرة، تعرض عليها فيه أن تكون لجنة الحزب هي المسؤولة عن المؤتمر، وأن تعهد برئاسته الى أحد ممثلي حزب اللامركزية (١٣).

وقد تلقت اللجنة التحضيرية للمؤتمر جواباً من اللجنة العليا لحزب اللامركزية، مؤرخاً في ١٤ نيسان (ابريل) سنة ١٩١٣، توافق فيه على تبني المؤتمر، وذلك بعد ان اقرت اللجنة العليا للحزب في جلستها المنعقدة يوم الجمعة ١١ نيسان،«قبول اقتراح لجنة المؤتمر وتعيين وفد يمثل اللجنة العليا لحزب اللامركزية هناك »(١٤).

كما اقرت لجنة الحزب ارسال مندوبين من قبلها لحضور المؤتمر، على ان يكون لهم حق النظر والمشاركة في موضوعات المؤتمر، «حتى تكون موافقة لمبادىء الحزب وبرنامجه »(١٥).

على ضوء هذا الرد، حددت لجنة المؤتمر «المسائل التي ستكون اساس المذاكرات» على الشكل التالي:

١- الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال.

٢-حقوق العرب في المملكة العثمانية.

٣- ضرورة الاصلاح على قاعدة اللامركزية.

٤- المهاجرة من سورية والى سورية.

وقد توالت برقيات التأييد ،السري والعلني، على لجنة المؤتمر وحزب اللامركزية من الجمعيات الاصلاحية في بيروت وغيرها، كما ايدته الجمعيات العربية في المهجرو قامت الصحف العربية بحملة تأييد وتوعية جماهيرية، تعرضت فيها الى ضرورة وجود حزب اللامركزية في البلاد، وضرورة تطبيق اللامركزية: «لان اللامركزية هي قوام حياة العرب ولأنهم شركاء في هذه المملكة بل هم الاكثرية المطلقة فيها »(١٦).

وبدأت الوفود تتوالى على باريس. وكان في مقدمتها حزب اللامركزية الاداري الذي يمثله السيد عبد الحميد الزهراوي عن اللجنة العليا للحزب (وهو مبعوث حماه سابقاً، وصاحب جريدة الحضارة في القسطنطينية)، واسكندر بك عمون، وهو وكيل رئيس اللجنة العليا للحزب، ويعمل بالمحاماة في مصر (١٧).

وقد تسلم رئاسة المؤتمر الشيخ عبد الحميد الزهراوي، في حين القى كلمة الحزب اسكندر عمون، فركز على اهمية مبدأ اللامركزية، وضرورة تطبيقه كعلاج لاوضاع الامبراطورية ، وحل لمطالب العرب. واسس هذا المبدأ على الحقوق القومية بصورة عامة(١٨).

وقد اتخذت قرارات المؤتمر في الجلسة الختامية التي عقدت يوم ٢١ حزيران سنة ١٩١٣ (١٩)، وعددها ١١ مادة .ونص الملحق على انه : ستكون هذه المقررات برنامجاً سياسياً للعرب العثمانيين ، ولا يمكن مساعدة اي مرشح في الانتخابات التشريعية،إلا إذا إذا تعهد مسبقاً بتأييد هذا البرنامج وطلب تنفيذه. وقد وضع المؤتمر قيداً على زعماء العرب، وعلى الاخص على رجال الاحزاب منهم، بشأن عدم قبول المناصب في الدولة العثمانية.

وبالرغم من أن المؤتمر خرج بنتائج عامة، مثل توحيد نشاط الاحزاب والمنظمات العربية الكبرى في الوطن والمهجر، وبّين ضرورة تمسك العرب بالدولة العثمانية، مع مطالبتها بتطبيق اللامركزية ، ومشاركة العرب للترك في الحكم ، وضرورة التعليم باللغة العربية، الا أن حزب اللامركزية حقق نتائج خاصة به، اهمها أنه بدأ يلعب الدور الاساسي العلني في ذلك العمل الجبهوي، اذا صح التعبير، وهو الحزب الحديث التأسيس ، وينتشر انتشاراً سريعاً ويؤسس له الفروع في ارجاء الامبراطورية (٢٠).

وهكذا كسب الى صفه الجماهير الشعبية، وسيطر على الساحة الشعبية ايضاً.

اتفاقية (باريس الحزبية) وتصدع جبهة المؤتمر بقيادة حزب اللامركزية:

كان حزب الاتحاد والترقي قد اوفد امين سره مدحت شكري الى باريس ليكون على مقربة من المؤتمر العربي ، وفوضه بان يسعى لعقد اتفاق بين حزبه وبين الاحزاب العربية الممثلة في المؤتمز، وفقاً لمسودة اتفاق كانت قد وضعت اثر مفاوضات جرت في الاستانة بين ممثلي الشبيبة العربية برئاسة عبد الكريم الخليل في العاصمة العثمانية، وبين حزب الاتحاد والترقي الحاكم.

وقد تم التوصل فعلاً في باريس الى اتفاق، وقع عليه السيد عبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر بالنيابة عن المؤتمر العربي، ومدحت شكري بالنيابة عن جمعية الاتحاد

والترقي . وهو اتفاق يعرف باسم (اتفاقية باريس) (٢١). وقد جاءت هذه الاتفاقية بشكل يعدل مشروع اتفاق الاستانة المذكور، ولكنه يقصر تقصيراً واضحاً عن تحقيق المطالب العربية الواردة في مقررات المؤتمر ، اذا ما قورنت بنودها بمقررات المؤتمر العربي (٢٢). وعلى اثر ذلك عاد عبد الكريم الخليل الى الاستانة برفقة مدحت شكري لعرض الاتفاق على اللجنة المركزية لحزب الاتحاد والترقي وحكومته، وبقي رئيس المؤتمر عبد الحميد الزهراوي مع عدد من المتدربين في باريس كهيئة متابعة ،تنتظر نتائج مباحثات عبد الكريم الخليل في الاستانه، وتتأهب للاشتراك في تنفيذ الاتفاق اذا ما أقره الاتحاديون. ومن منطلق ضرب الاحزاب والقيادات العربية المؤتلفة في المؤتمر الأول ، وتفتيتها «وافق المركز العام لحزب الاتحاد والترقي على الاتفاقية »ووقعها وزير الداخلية عن الحزب طلعت باشا، كما وقعها عبد الكريم الخليل رئيس الشبيبة العربية عن المؤتمر، واتفق الفريقان ، بطلب من الاتحاد والترقي، أن تبقى الاتفاقية سرية حتى يتم تنفيذها(٢٣).

ومما لاشك فيه ان الاتفاق على هذه السرية كان عملية خبيثة اراد بها الاتحاديون عدة اغراض، أبرزها تفتيت جبهة باريس الحزبية التي تحققت بعقد المؤتمر العربي الاول.

وحدث حادث ليس في الحسبان قام به حزب اللامركزية دون قصد. فقد أعلن رفيق العظم رئيس الحزب شروط الاتفاقية، بعد اكثر من شهر على توقيعها ، نتيجة التباس صنعته وكالة رويتر الانكليزية، عندما اعلنت ان الباب العالي قد وافق على الاتفاقية ، فثار الاتحاديون ، وذهبت جريدة (طنين) التركية الى درجة انكار وجود الاتفاق ، وانكار ان سفر مدحت شكري الى باريس كان من اجل التفاوض مع رجال المؤتمر العربي. وتطور الامر الى درجة التهجم القاسي على المؤتمر واحزابه ورجاله ومقرراته.

وعندما قررت حكومة الاتحاد والترقي تنفيذ (الاصلاح)، واستصدرت ارادة سنية بذلك، فضحت حقيقة سياستها ونواياها . فقد جاءت الارادة السنية مسخاً للاتفاق ، وتشويهاً له في اكثرية بنوده، وتراجعاً تاما عن اهم هذه البنود ، وهو البند الثاني عشر، الذي يقضي بأن تكون المعاملات الرسمية في البلاد العربية باللغة العربية.

بدء تفتت الجبهة الحزبية العربية:

لقد تمكن الاتحاديون من اشاعة التفرقة في صفوف الجبهة العربية، كما انهم مكنوا ايضا من أن يحرجوا ، بصفة خاصة، حزب اللامركزية ، الحزب العلني القائد في المؤتمر ، خاصة بعد ان رضي عبد الكريم الخليل بخطوات الاتحاديين، وبالارادة السنية التي اصدروها ، وفتح بانشقاقه ثغرة في موقف الجبهة العربية. وزاد الامر سوءا عندما التف

حول عبد الكريم الخليل الكثير من الانتهازيين وطلاب الوظائف في الاستانة . وبالرغم من أن اعضاء الوفد الذي ذهب الى الاستانة لمتابعة اقرار بنود مؤتمر باريس، اقتنعوا بأن الحكومة تماطل العرب، وانها لن تحقق شيئاً من هذه البنود (٢٤)، لم يقنط رئيس الشبيبة العربية في الاستانة عبد الكريم الخليل من الاتحاديين ، وبقي يتفاوض معهم ويثق بهم. وزاد فأخذ يحاول اقناع عبد الحميد الزهراوي في التوجه الى الاستانة.

بقي الزهراوي مدة خمسة اشهر في باريس، بعد أن عاد وفد المتابعة الى بيروت عن طريق استامبول ، وبقي معه خليل زينية وأيوب ثابت. وعندما ارسل له عبد الكريم الخليل برقية يدعوه فيها الى الاستانة استأذن حزب اللامركزية في مصر ، وكان الزهراوي مدة اقامته في باريس ، ايام المؤتمر وبعدها، يكاتب الحزب ، ويعمل برأيه، فخيره الحزب بين مصر والاستانة. وكان هو يفضل السفر الى الاستانة، في حين كان الحزب يفضل حضوره الى مصر (٢٥). وصل الزهراوي عاصمة الامبراطورية في ٢٨/ ١٠/ ١٩١٣، فاستقبلته الشبيبة العربية في المحطة بالهتاف: « فليحي الاصلاح، فليحي زعماء العرب، ولتحي الامة العربية » (٢٦). وفي ٣٠/ ١٠ من العام نفسه بدأت مفاوضات الزهراوي بصورة رسمية مع مدحت شكري سكرتير جمعية الاتحاد والترقي . ولكن لم يمضِ اسبوع ونصف على بدء المفاوضات ، حتى ادرك الزهراوي تسويف الاتحاديين ومماطلتهم لتحقيق الاتفاقية، فحاول العودة الى مصر . ولكن عبد الكريم الخليل واصدقاءه الحوا عليه بالبقاء، فما كان منه الا ان اعرب عن استيائه وتشككه بسياسة الاتحاديين لمحرر احدى الصحف، بحديث وقع عليه بخط يده وطلب نشره.

واهم ما جاء في هذا الحديث تأكيد الزهراوي على ان الحكومة تعده وعوداً لا تختلف عن الوعود التي تعطيها لغيره من المصلحين ، ويقول: «ولكن ما فائدة الوعود، ونحن نريد اعمالا لا اقوالا ». وعندما سأله مندوب الصحيفة ، ولكن «ماهو السبب في مماطلة الحكومة؟ » قال : « اظن السبب الخلاف القائم بين اعضاء جمعية الاتحاد والترقي، فان فريقاً من اعضائها يؤيد مطالبنا وفريقاً يرفضها» (٢٧)

الا ان حكومة الاتحاديين تمكنت في نهاية المطاف من اقناع عبد الحميد الزهراوي بانها في الطريق الى اقامة مدرستين سلطانيتين (ثانويتين) في دمشق وبيروت اساتذتهما من العرب، وجعل اللغة العربية رسمية في المحاكم والدواوين العربية. اما بقية البنود فستتحقق بعد توافر المال اللازم . زيادة على ذلك صدرت الارادة السنية ٤/ ١/ ١٩١٤ بتعيين سبعة من العرب أعضاء في مجلس الاعيان، كان الزهراوي هو الوحيد بينهم من دعاة اللامركزية في حين كان ثلاثة من الاتحاديين ، والثلاثة الاخرون من الحياديين (٢٨).

بيان حزب اللامركزية بتاريخ ٩/١٠/١٩١٣:

أصدر حزب اللامركزية بياناً بعد وصول الزهراوي الى الاستانة بيوم واحد. وكانت الاسباب التي دعت الحزب لاصدار البيان هي النتائج غير المشجعة التي استخلصها وفد المتابعة الذي زار الاستانة. وكان حزب اللامركزية يشعر بأن (اتفاقية باريس) مقصرة عن مطالب المؤتمر وعن مبادئه كحزب كذلك، ولكنه وافق على توقيعها.

ولذلك فان البيان الذي أصدره كان يعبر عن موقف الحزب، وتبرز فيه معاني الدفاع عن النفس، والتمسك بمقررات مؤتمر باريس، والاعتدال في معالجة موقف المنشقين، وعلى الاخص عبد الحميد الزهراوي الذي كان الحزب قد رشحه لرئاسة المؤتمر، ونصبه رئيساً له(٢٩).

وأهم ما نستخلصه من هذا البيان، ان الحزب لن يرسل وفداً الى الاستانة الا اذا تحقق له امران:

الاول: ان توافق الحكومة على الاتفاقية وتطبقها بالحرف.

والثاني: ان تطرح قضية اللامركزية على الامة لابداء رأيها، بأن تصادق على منهاج الحزب عامة.

ولقد بقي حزب اللامركزية منسجماً مع بيانه المذكور في موقفه تجاه تنفيذ مقررات المؤتمر العربي الاول والاتفاقية، فلم يستجب لطلب عبد الكريم الخليل بارسال وفد من اعضائه للاشتراك في مباحثات تنفيذ الاصلاح. كما لم يستجب بعد ذلك لطلب الخليل، والزهراوي، الذي اصبح عضواً في مجلس الاعيان، بان يرسل رئيسه رفيق العظم، وعضو اللجنة المركزية للحزب السيد رشيد رضا الى الاستانة لمتابعة خطة الاصلاح، التي رأى الخليل والزهراوي بوادرها في تعيين العرب السبعة في مجلس الاعيان. بل ان الشيخ رشيد رضا يقول، تجاه تعيين الزهراوي وتجاه هذه الدعوة: «أما أنا فكان يغلب على ظني ان جعله من الاعيان احبولة يريدون بها اصطياد المخلصين من طلاب الاصلاح في خارج المملكة، ليفتكوا بهم بعد جلبهم اليهم جملة واحدة»(٣٠). وهو رأي لم تلبث الاحداث ان اكدت صحته خلال الحرب العالمية الاولى.

وبرر الحزب موقفه من عبد الحميد الزهراوي، بأن «الحزب يرغب في الاصلاح، ويرفض المشاغبة وعداوة الدولة». كما ان الحزب رأى أن: «تظل الصلة وثيقة بين الطرفين (أي الزهراوي والحزب) لثقة الحزب به وباخلاصه في العمل لمصلحة الامة، ولانه خير من يوقف الحزب على أعمال الحكومة»(٣١).

وفي مكان آخر يشير رشيد رضا الى أن الزهراوي :«قبل منصب الاعيان بتلك النية الصالحة من غير مشاورة للحزب ، ولا لاحد من أصدقائه، وانه اخبرنا بما كان وبنيته فيه، فلمناه على تعجله. ولكن الحزب أجاز عمله، واتفق الرأي على أن يمضي في هذه التجربة ، وأن لا ينضم اليه أحد من المقيمين خارج المملكة»(٣٢).

ومهما كانت نوايا الزهراوي الصالحة، التي يتحدث عنها الشيخ رشيد رضا في الفقرة السابقة، فان اجازة الحزب لتصرفه، وموافقته على المضي في التجربة التي بدأها الزهراوي ،كان موقفا من الحزب يبلغ في مرونته حد الاستهتار بالمؤتمر وبمقرراته، التي كان اهمها القيد الذي وضعه المؤتمر على قبول المناصب.

والحقيقة ان حزب اللامركزية فشل في فرض (الانضباط) على صديقه الحميم عبد الحميد الزهراوي ، الذي رشحه لرئاسة مؤتمر باريس ، بل اجاز عدم الانضباط هذا ، فأسهم بذلك اسهاماً فعلياً في الاساءة الى قيمة المؤتمر المعنوية، وفي زعزعة الثقة التي قامت بين الاحزاب والجمعيات المشتركة فيه، حتى ان بعضها اتهم الحزب نفسه بالتواطؤ مع الاتراك وتمييع القضية. ودفع الحزب والقضية ثمناً باهظاً لهذا الفشل. وكان اول من حمل حزب اللامركزية مسؤولية تمييع قرارات المؤتمر ، جمعيات المهجر، خصوصا جمعية الاتحاد السوري في أمريكا ، التي أرسلت كتابا مؤرخا في ١٩/ ٢/ ١٩١٤ الى حزب اللامركزية تشرح فيه وجهة نظرها (٣٣)، وتحمل الحزب مسؤولية تهاون رئيس المؤتمر أمام اغراء الوظائف. وتشير الى أن حزب اللامركزية قد تراجع امام اغراء المناصب.

تصدعات حزب اللامركزية:

قرر اعضاء حزب اللامركزية عقد جلسة للرد على جمعية الاتحاد السوري، ليبينوا تطورات الامور وموقف الزهراوي الاخير. ولكن السكرتير حقي العظم رفض أن يبرىء ساحة الزهراوي، واخذ يشنع عليه، ويصفه بالاوصاف التي لا تليق بمركزه، وتبني الحزب له.

ولكن الحزب، رغم معارضة سكرتيره، ارسل جواباً لجمعية الاتحاد السوري يشرح فيه موقف الزهراوي، وموقف الحزب ، وان تعيين الزهراوي في مجلس الاعيان ارتضته اللجنة العليا لحزب اللامركزية لدوام التفاهم بينها وبين الحكومة... وأكد الحزب في جوابه بأن الحزب مازال المطالب بالاصلاح، والحزب الامين على تحقيق مبادئه حتى النهاية.

في هذه الاثناء، كانت حكومة الاتحاديين قد القت القبض على الزعيم العربي عزيز علي المصري، رئيس حزب العهد السري ، وتركزت جهود العرب عموماً حول هذه الازمة.

ولكن الاتحاديين اصدروا حكمهم على بطل برقة بالاعدام، ثم افرج عنه امام الضغط العربي العام (٣٤).

والمهم في حادثة عزيز المصري ان الزهراوي كان يهاجم العسكريين عموماً، وخصوصاً عزيز المصري وموقفه من الزهراوي والخليل (٣٥)، وبالتالي كانت الازمة وسوء التفاهم قد انتقلت الى حزب اللامركزية نفسه، ففي حين أيد اعضاء الحزب موقف الزهراوي، أيدّ حقي العظم، امين سر الحزب، موقف عزيز علي المصري.

وهكذا بدأت التصدعات تتسرب الى التنظيم الداخلي لحزب اللامركزية نفسه. وعلى الرغم من وقوف جميع اعضاء الحزب الى جانب عزيز المصري ومساهمة الحزب، كما تدل الوثائق، في قيادة المظاهرات والدعوة للاجتماعات التي نادت بتخفيف الحكم، وطالبت بالافراج عن المصري ... الا أن التصدع كان قد بدأ في حزب اللامركزية، وانتهى الى أزمة حزبية كادت تؤدي الى حل الحزب وتشتت أعضائه.

أزمة حزب اللامركزية:

يشير محب الدين الخطيب في مذكراته« سيرة جيل » (٣٦) ان رشيد رضا ورفيق العظم واكثرية الاعضاء قد تساهلوا في موقفهم من تصرف الزهراوي ، «بل واقروه عليه» في حين حمل حقي العظم لواء المعارضة ،واخذ يندد بالزهراوي في المجالس الخاصة والعامة . وكان يتفوه على الزهراوي بكلام لا يقبله «أي انسان ، وكنا نلومه على هذا الاسلوب الشنيع لشيخ جليل» (٣٧). فقرر الحزب ان يستدعي الزهراوي من الاستانة، وان يعقد جلسة لدراسة الموقف، وخصوصا ان الحكومة بدأت بمطاردة أعضاء الحزب وأنصاره.

عقد الحزب جلسة في الساعة الخامسة والنصف من مساء يوم الجمعة ، الواقع في ٢٤/ ٤/ ١٩١٤، برئاسة رفيق العظم وحضور رشيد رضا، ونجيب بسترس ، وحقي العظم وسليم عز الدين ، ونعمان أبو شعر، وخليل ايوب، والدكتور خليل مشاقة، والدكتور عزت الجندي، والسيد محب الدين الخطيب . وكادت الازمة ان تنفجر في هذه الجلسة ،لولا ان تداركها الشيخ رشيد رضا. فقد ظهرت عدة آراء متضاربة حول الحزب وسياسته، كان اولها اقتراح رئيس الحزب بحل اللجنة المركزية، وهذا يؤدي بالتالي الى حل الحزب. ولكن محب الدين الخطيب احتج على هذا الاقتراح بقوله :« إن الحزب ليس هو اللجنة .واذا شاءت اللجنة ان تتنحى ، فلتدع الجمعية العمومية، وتعرض عليها استقالتها، ليصير انتخاب غيرها. اما اذا كان الرأي حل الحزب كله، فيلزم عرض الفكرة على الجمعية العمومية ايضا» (٣٨).

واما حقي العظم، فكان رأيه أن الحزب لا يعمل ،ولذلك عليهم أن يضاعفوا من نشاطهم، وان يكتبوا المناشير ويوزعوها على الفروع ،حتى تشعر الجماهير بنشاط الحزب، ويستعيد مكانته بعد موقفه من الزهراوي ، وتهاونه في ملاحقة قرارات المؤتمر. وكان رأيه أما ان نعمل ونتشط أو نحل الحزب.

وعندها تقدم الشيخ رشيد رضا باقتراح لحل الازمة، وملخصه :« عقد مؤتمر للحزب وفروعه »، وان يكتب المركز بذلك الى الفروع قائلا :« نسألهم عن المؤتمر، وهل نعجل به أم نؤخره، وهل يشتركون معنا أم لا».

ثم قال معللاً اقتراحه بعقد المؤتمر، ان الحكومة ستخفف من شدتها، وخصوصا بعد حركة عزيز المصري، وكيف اثرت هذه الحركة عند الحكومة، وانها ستحسن الحال بين الحكومة والحزب ، كما ان المؤتمر بهذا الوقت «يجعل للحزب رونقاً واهمية»،وخصوصا ان الحزب استدعى الزهراوي للمفاوضات في الحالة الحاضرة... «فالمؤتمر يؤكد عمل الحزب، وعندها ننفي مايخشاه حقي من اعتقاد الناس باننا ساكتون ».

ولكن العضو نعمان ابو شعر ، اقترح ثانية ان يحل الحزب، وان يعلن ذلك، قائلاً : «انه من المستحيل ان يرجع الترك عن صلفهم وغرورهم.... ودوام هذه الاعمال مضر لاخواننا في الداخلية».

ولكن الاعضاء استبعدوا حل الحزب ، ووافقوا جميعا على اقتراح رشيد رضا بعقد مؤتمر للحزب وفروعه...

واقترح رفيق العظم عمل نشرة يعلن الحزب فيها عن نفسه بانه حزب سياسي، لا جمعية ثورية . وبما أن الحكومة بدأت تطارد افراده في داخلية البلاد، انعقد عزم الحزب على ان يعقد مؤتمراً يعلن فيه للامة وللحكومة معاً، اعماله .. وتوزع النشرة على الصحف وعلى الفروع.

وفي السادسة والنصف انتهت الجلسة(٣٩).

وكان قد اقترح في هذه الجلسة وضع مسودة للبيان الحزبي الذي يدعو لعقد المؤتمر، كما اقترح ان يرسل البيان الى فرع حمص ، لانه من اقوى فروع الحزب داخل الامبراطورية. وقد وجدت نص مسودة هذا البيان بين وثائق الاستاذ محب الدين الخطيب . يحتج البيان على مطاردة الحكومة لاعضاء الحزب، بتهمة انه موجود عندهم ما يسمونه «الاوراق المضرة». لذلك رأت اللجنة العليا للحزب«ان تعقد مؤتمراً للحزب في مصر تدعو اليه ابناء الامة العربية، وتتلو عليهم اعمالها منذ تأسيس الحزب علنا»(٤٠).

ان هذه الجملة :« تدعو ابناء الامة العربية» يستدل منها ان حزب اللامركزية ، وان كان قد قرر عقد مؤتمر للحزب وفروعه ، الا انه سيدعو لحضوره ابناء الامة العربية من حزبيين وغير حزبيين. وهذا ما كان يسعى اليه حزب العربية الفتاة، من عقد مؤتمر ثان على غرار مؤتمر باريس، يعقد في مصر، ويقوم بالدعوة اليه حزب اللامركزية. وقد وفق محب الدين الخطيب في تحقيق مطلب حزبه السري، وهو حزب الفتاة، لدى حزبه العلني ، حزب اللامركزية، فتبنى الدعوة للمؤتمر دون علمه برغبة حزب الفتاة (٤١).

وبالرغم من ان الردود قد وصلت الى حزب اللامركزية بالموافقة، كما فعل فرع حمص مثلا (٤٢). الا ان المؤتمر لم يعقد لعدة اسباب:

اولاً: لان الازمة في حزب اللامركزية بلغت اوجها بعد كتابة مسودة البيان.

ثانياً: لان الحرب العالمية الاولى اعلنت بعد حل الازمة الحزبية بمدة وجيزة.

اما تفاصيل عودة الازمة الحزبية وتفجيرها، فقد حصلت على تفاصيلها من مذكرة مؤرخة بتاريخ الثلاثاء ٥ مايو سنة ١٩١٤، وجدتها بين وثائق الاستاذ محب الدين الخطيب وملخصها:

انه بعد كتابة مسودة البيان، حصل خلاف بين رفيق العظم الذي امتنع عن توقيع البيان كرئيس للحزب، وبين حقي العظم سكرتير الحزب، الذي عد نفسه مستقيلاً من السكرتارية ، مع بقائه عضو لجنة...

ويقول محب الدين الخطيب: عندما علمت بهذا الوضع الذي شرحه لي حقي بك، وطلب مني توقيع البيان بصفتي السكرتير الثاني للحزب ،تأكدت ان الخرق قد اتسع بين حقي بك ورفيق بك الذي يرى ان للعمل اوقاتاً لا يصلح ان يعمل في غيرها (٤٣).

والحقيقة ان الوضع في حزب اللامركزية كان يهتز تحت الضربات التي وجهت اليه لتهاونه في موقف الزهراوي، وتخليه عن تأييد المؤتمر ومقرراته.

فقد كانت جمعيات امريكا تطعن طعناً غير محق ولا هو معقول :« والاعضاء المسيحيون قد انسحبوا من الحزب وقدموا استقالاتهم ، ومنهم نعمان ابو شعر وخليل ايوب»، والحكومة تلاحق اعضاء الحزب، وكلما صدرت احد المنشورات التي تصدرها الاحزاب العربية، الصقت التهمة باعضاء حزب اللامركزية (٤٤).

ولهذا كله كان يأس رفيق بك شديداً، وكان يقول انه بحاجة الى الراحة من عناء السياسة، وعدم الاشتغال بها بتاتاً(٤٥).

اما رشيد رضا فكان يرى سبب الازمة في التعصب المذهبي لبعض الاعضاء المسيحيين في الحزب، ومنهم سليم النجار مراسل جريدة الاهرام، الذي كان يراسل جريدة الهدى النيويوركية، ويصرح لها برأيه مطالبا بتعيين حصة المسيحيين من الامتيازات: «كأننا سنعيش في المستقبل امماً متفرقة المذاهب، كما يقول رشيد رضا»(٤٦).

وفي رأي سليم النجار ان الحزب لم يعد شيئاً بعد استقالة نعمان وخليل منه، ومعارضة حقي العظم وعزت الجندي لمقرراته، واقتصار اسكندر عمون على حضور الجلسات التي تعقد في منزله فقط.

ولعل تحليل رفيق العظم اللازمة، يلقي اكثر من ضوء على الازمة الحزبية التي يعاني منها حزب اللامركزية، وهي تتلخص فيما يلي:

١- ان حقي العظم يقوم باعماله الاندفاعية رغبة بالانتقام من الاتحاديين والترك.

٢- ان الاعضاء المسيحيين يستدرجوننا الى الرضا بالاحتلال الفرنسي والعمل له، ويضرب مثلا تاكيدا لقوله: «عندما اتى رجل مسلم غير معروف من خليل يقول له، لماذا انتم تشتغلون مع رفيق واصحابه فقال له: «نحن نريد ان نتخذ هؤلاء المسلمين آلة للاحتلال الفرنسي» (٤٧).

ويعتب رفيق العظم علي حقي العظم قائلاً: بالرغم من ان حقي بك علم بهذا القول، وجاء هو نفسه الي واخبرني بما حصل، ومع ذلك فقد نسي كل شيء، ولايزال منقاداً لكل حملة طيش يسمعها من هؤلاء.

وبّين رفيق العظم - رئيس حزب اللامركزية - موقفه من آراء حقي العظم، وآراء الاعضاء المسيحيين قائلاً:

أنا لست منتقماً، ولا اريد الانتقام من الاتحاديين، كما يفعل حقي بك، ولم يفعلوا لي ما يدعوني الى الانتقام: «ولا اطمع بوظيفة، ولو اعطيت لي السلطة لابتعدت عنها، وانما انا طالب اصلاح لهذا الملك ....».

اما بالنسبة لموقف المسيحيين فيقول :«خيانة كبرى ان نأتي الى بلادنا بحكام اقوى من الاهالي بالمال والعلم والعقل والسلاح وغير ذلك، فنمكنهم فيهم، نحن نطلب اصلاح هذه البلاد ليس الا ، اما اولئك فوطنيتهم مقلوبة ....

....انا عشت ثلاثين سنة في السياسة وانا شريف ، واريد ان اموت شريفاً ، هم يريدون ان يسوئوا سمعتي الان بما يبلغون لهذا وهذا من الاقوال ، ثم يريدون ان يتخذونا آلة لأمر نحن نعمل لغيره . فأنا اريد ان ابتعد عنهم حتى يجربوا الطرق التي يريدون ان يسلكوها، كفاني ما مضى من تعبي لاجل هذه المملكة، فلارتح الان ولاعتزلْ هذه الاعمال المنهكة ».

أما كيف انتهت ازمة حزب اللامركزية ، فيمكننا القول ، استناداً الى محضر جلسة عقدت في ٢٥ يوليو سنة ١٩١٤، بان الازمة حلت بتفاهم الاعضاء، حيث حضر هذه الجلسة من الاعضاء ، اسكندر عمون، وسليم عز الدين، ورشيد رضا وصالح رضا، وحقي العظم، ومحب الدين الخطيب. وكانت الجلسة برئاسة رفيق العظم (٤٨). وهذا دليل قاطع على أن المسألة قد سويت بين الاعضاء ، وبعد استقالة الاعضاء الذين ذكرت اسماؤهم سابقاً.

ودارت الجلسة حول عقد المؤتمر، والاستعداد له ، فقال رفيق العظم انه كتب للاستانة حول هذا الموضوع، وكتب لبعض المبعوثين يطلب منهم حضور المؤتمر، واكد اسكندر عمون ان الموتمر يجب ان يحضره اناس معروفون ذوو مكانة.

وعندما اقترح رفيق العظم وحقي العظم ، وضع جدول لاعمال المؤتمر ، اجاب اسكندر عمون ان البحث في ذلك سابق لأوانه، واقترح الانتظار حتى يتمكن الحزب من تعيين وقت المؤتمر.

أما النقطة الثانية التي اثيرت في الجلسة، فهي محاولة تفاهم اسعد داغر مع الصهيونيين ، وطلب اسكندر عمون استيضاحاً حول هذه النقطة فافهمه رفيق بك تفاصيل المسألة (٤٩).

ان الحرب العالمية الاولى التي اعلنت بعد خمسة ايام من تاريخ هذه الجلسة قلبت الاوضاع رأسا على عقب، ودخلت البلاد في حياة جديدة، نابعة من ظروف الحرب وتطوراتها السريعة، وهكذا قضي على امل حزب اللامركزية والفتاة في عقد مؤتمر عربي ثانٍ.

حزب اللامركزية خلال الحرب العالمية الاولى:

كان اندلاع الحرب العالمية الاولى حادثاً ضخماً شملت آثاره مجالات متعددة ، اقتصادية واجتماعية وسياسية، في كل دولة او شعب. وكذلك كانت اثار الحرب ذات آثار جذرية وشاملة على الاحزاب والفعاليات الحزبية في الدولة العثمانية بصورة عامة، والاحزاب في الوطن العربي بصورة خاصة.

وقد اشرنا الى ان حزب اللامركزية كان يعاني ازمة حادة قبل نشوب الحرب بقليل. وكاد أن يكون في نقطة التصادم مع الضباط العرب والعسكريين، ممثلين في تنظيمهم العسكري حزب العهد. ومع ذلك فقد بادرت الاحزاب العربية، وفي مقدمتها جمعية العربية الفتاة السرية، وحزب اللامركزية العلني الى التشاور حول ما يجب ان يكون عليه الموقف العربي، وكانت الدولة العثمانية لم تدخل الحرب بعد ، فأرسلت العربية الفتاة الاخوين محمد ومحمود المحمصاني الى القاهرة للاتصال بحزبهما، حزب اللامركزية ، فوصلا الى القاهرة قبل دخول تركيا الحرب ، واديا المهمة الحزبية التي كلفا بها من جمعيتهما السرية، العربية الفتاة، ولما حاولا العودة الى سورية بعد اعلان التعبئة العامة في الدولة العثمانية، نصح احد الاصحاب محمد المحمصاني البقاء في مصر فأجابه: «أن الوطن في حاجة الى كل فرد من ابنائه في هذا الاوان العصيب، فمن الخيانة ان لانقوم بالواجب علينا نحوه»(٥٠).

وقد اجمل لي الاستاذ محب الدين الخطيب– الذي كان حينئذ من اركان حزبي العربية الفتاة واللامركزية ، والذي اشترك في تلك المباحثات – نتائجها مستعيناً بمذكراته (سيرة جيل) (٥١) فقال:

كانت الآراء متفقة ومتلاقية على ان مصلحة العالم الاسلامي والاقطار العربية، في ملحمة الحرب العالمية الاولى، هي في الوقوف على الحياد، وترك الفريقين المتنازعين على استعمار الارض واستبعاد الامم يحطم بعضهما بعضا ....

وفي مقابل هذا الموقف «السلبي» ،كان من المتعذر اتخاذ خطة ايجابية فيما يجب ان يعمله العرب اذا دخلت تركيا الحرب، بغير ان يؤخذ رأي الزعماء والحكام العرب في الاقطار العربية التي لها صلة بالدولة العثمانية..

لذلك فقد تقرر ايفاد مندوبين الى اولئك الزعماء والحكام للتعرف على رأيهم ، فيما ينبغي أن يكون عليه موقف الامة العربية تجاه الاتراك، اذا ما انزلقوا في الحرب مع فريق دون الآخر.

وقد اختير محب الدين الخطيب للسفر الى الخليج العربي ، ومحاولة الاجتماع بالامير عبد العزيز آل سعود امير نجد والاحساء، وبالسيد طالب النقيب زعيم العراق الجنوبي ، وغيره من الزعماء...

واختير عبد الرحمن عاصم للسفر الى اليمن من اجل الاتصال بامامها .... واتفق على الاتصال بالشريف حسين أمير مكة على الرغم مما هو معروف عنه من عدم اطمئنانه الى الاحزاب والجمعيات او ثقته بها (٥٢) واختير الشيخ القلقيلي للذهاب الى بلاد الشام (٥٣).

وقد توجه كل من محب الدين الخطيب وعبد الرحمن عاصم الى الجهة التي انتدب اليها، لاداء مهمته فيها . ولم يتمكن اي منهما ان يبلغ تلك الجهة ، او ان يؤدي هذه المهمة. فقد اعتقل الانكليز محب الدين الخطيب في البصرة، وبقي عبد الرحمن عاصم في القاهرة لدخول تركيا الحرب، وعدم تمكنه من السفر الى الجهة التي ندب اليها. اما الشيخ القلقيلي فقد عاد من بيروت الى الاسكندرية ثانية. ويقول محب الدين الخطيب في مذكراته، في معرض التعليق على اعتقاله :« والظاهر ان برسي كوكس (الحاكم البريطاني في العراق) كان يعلم المهمة التي كان سفرنا من اجلها ، اذ قال لي عندما ودعني بعد الافراج عني ، بان العرب سينالون استقلالهم ، وبان الانجليز سيجلون عن العراق في الوقت المناسب، لكنهم سيحتفظون بالبصرة لاجل الهند »(٥٤).

ويقول محب الدين الخطيب ، انه لم يتمكن من تحديد كيفية اطلاع الانكليز على سفره او على مهمته ، بالرغم من اهمية هذه المسألة في ذلك الوقت.

وقد قرر حزب اللامركزية بعد ذلك عقد اجتماع كبير مع فروع الحزب ، لوضع خطة للدفاع عن البلاد العربية :« لانها معرضة للخطر الذي تتعرض له كل البلاد العثمانية، بل لخطر اشد لبعدها عن مركز القوة الذي يضطر الاتراك لحصر دفاعهم عن وطنهم ومركز سلطتهم »(٥٥).

وطلب الحزب من فروعه ان يتلقى اجوبة سريعة من الفروع على الامور الاتية:

١- ماهي القوة التي عندكم ويمكننا الارتكان عليها عند الحاجة لعمل عام؟.

٢- هل في امكانكم جمع شيء من المال، واسعافنا به، او استبقاؤه عندكم حسب اللزوم، وما هو المقدار الذي يمكنكم جمعه؟.

٢-هل عندكم ملجأ امين لفرد او اكثر لمن يناط بهم ادارة الحركة الوطنية ، وان تؤمن معيشتهم كل التأمين؟.

٤- هل يمكنكم ارسال شخص تثقون به ينوب عن فرعكم الى جهة نعينها لكم، ليتلقى منها التعليمات اللازمة؟

٥-اذا لم يمكنكم ارسال شخص، هل ترون من اللازم ان يأتيكم موفد مخصوص لاعطاء هذه التعليمات؟.

ويعلل حزب اللامركزية موقفه هذا قائلاً: علينا معشر العرب ان نفكر من الان في الوسائط التي تقي استقلالنا من الزوال. ومن الواجب المقدس على حزبنا الذي له نوع من التشكيلات، وكل افراده من اهل الوطنية الصادقة، والغيرة على الوطن، والحرص على سلامة الاستقلال ان يكون في مقدمة المفكرين في هذا الامر العامل على اتخاذ الوسائط الناجحة لسلامة الوطن وحياة بنيه (٥٦).

لابد لنا من الاشارة الى النقطة التالية، وهي ان امين سعيد في كتابه (اسرار الثورة العربية الكبرى) (٥٧)، يضع قصة المشاورات بين الاحزاب العربية وقرار الاتصال بالامراء العرب، في نطاق فصل عن (المخطط الانكليزي لاستقلال الحركة العربية) تحت عنوان فرعي هو: «الاتصال بالهيئات العربية الاخرى»، يصور فيه عملية التشاور بين جمعية العربية الفتاة واللامركزية التي اشرنا اليها سابقاً، ثم عملية ارسال المندوبين الذين كلفوا بالتشاور مع الامراء العرب تصوراً مغايراً لكل ما اطلعت عليه من وثائق، وللصورة التي سجلها محب الدين الخطيب في مذكراته.

يصور امين سعيد الامر كما يلي:

١-انهم (اي الانكليز) اتصلوا سنة ١٩١٤، وقبل اعلان الحرب بقليل بالسيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار، ومؤسس جمعية (الجامعة العربية)وسألوه ان يوفد مندوبين الى الامراء عبد العزيز في نجد، والامام يحيى في اليمن، والسيد الادريسي في عسير، وبعض زعماء الشام يسألونهم رأيهم في الخطة التي يسيرون عليها حين نشوب الحرب، فوافق مبدئيا. وسألوه عن النفقات التي يستلزمها هذا الموضوع، فقدره بألف جنيه دفعت له. وانتدب لهذه المهمة ثلاثة من الشباب العاملين في القضية وهم السادة: محب الدين الخطيب، اوفده الى نجد، والشيخ محمد القلقيلي اوفده الى بلاد الشام، والشيخ عاصم رضا، اوفده الى بلاد اليمن.

٢- انشأ الانكليز اتصالات محدودة مع قادة حزب اللامركزية العثماني بمصر. وكان السيد رشيد رضا وكيله، ورفيق العظم رئيسه، ومحب الدين الخطيب مساعد امينه العام.

٣- ويشير امين سعيد الى ان وصول محمود المحمصاني الى القاهرة ، واجتماعه بقادة الاحزاب فيها كان صدفة، لوجوده على ظهر الباخرة الذاهبة من باريس الى بيروت .\وبما ان هذه الباخره من عادتها ان تبقى يومين في الاسكندرية ، فقد اغتنم الفرصة ، وجاء الى القاهرة، واتصل باخوانه العاملين في الحركة العربية، وعلم ايضا أن هناك اتصالات بين الانكليز وبين جماعة اللامركزية.

٤- ان اخوان المحمصاني في بيروت ارسلوا الشيخ كامل القصاب الى القاهرة للاطلاع على هذه الاتصالات، بعد ان سمعوا بها من محمود المحمصاني.

٥-ان الانكليز اتصلوا ثلاثة اتصالات مع الشريف عبد الله قبل اعلان الحرب سنة ١٩١٤.

ان الوثائق التي وجدتها في مكتبة محب الدين الخطيب، والتي استندت اليها في هذه الدراسة ، تشير الى أن المبادرة كانت من حزب الفتاة اولاً، وان محمود المحمصاني ، بالاضافة الى كونه عضواً مؤسساً في حزب الفتاة، الا انه في نفس الوقت كان عضواً في حزب اللامركزية ايضاً، أو بصورة اخرى، كان هو ومحب الدين الخطيب صلة الوصل بين الفتاة واللامركزية . وهذا تكتيك حزبي استخدمته الفتاة، وسارت عليه طيلة عهدها.

اما قضية اتصال الانكليز بالشريف عبد الله، فقد ذكرتها اكثر المصادر، وتناولتها من اوجه متعددة.

ففي حين يذكر الملك عبد الله في مذكراته، وامين سعيد (٥٨). ان اللقاء بين (كتشنر وستورس) وعبد الله سنة ١٩١٤ كان صدفة اثناء زيارته للقاهرة، يؤكد ستورس، وانيس صايغ، ان اللقاء كان مقصوداً، وان بادرة الاتصال صدرت عن عبد الله ، وليس عن كتشنر (٥٩). ويضيف ستورس ان عبد الله سأله بصراحة، ما اذا كانت بريطانيا مستعدة لتزويد الشريف حسين بدستة او دستة ونصف من الرشاشات الحربية، وعندما سأله عن الغرض منها اجاب ، كما يجيب طالبو الاسلحة عموماً،للدفاع.» ويضيف ستورس انه اعاد السؤال بالحاح مستفهماً عما يعنيه بالدفاع، فقال : انه الدفاع ضد هجمات الاتراك . ويقول ستورس لم اكن بحاجة الى تعليمات خاصة لاخبره اننا لا يمكن ان نفكر في تزويد احد باسلحة تستعمل ضد قوة صديقة (٦٠).

كما تشير المصادر الى قضية اتصال الانكليز بالشيخ رشيد رضا، وهي قضية صحيحة ،لان الشيخ يذكرها في المنار. ولكن الذي لايذكره قضية استلامه مبلغ الالف جنيه التي يشير اليها امين سعيد.

ومما يلفت النظر، ان رشيد رضا يذكر ايضا مقابلته مع عبد الله في نفس العام ١٩١٤، وكيف ان الشريف دخل في جمعية الجامعة العربية، واقسم قسمها.

ولعل الشيخ رشيد قابل الانكليز واستلم المبلغ بصفته من اصدقاء عبد الله بن الحسين . وهذا التعليل ينقلنا الى نطاق اوسع، وهو ان الانكليز ربما تداولوا الامر مع الشيخ رشيد رضا بصفته الشخصية، وليس بصفته احد اعضاء حزب اللامركزية او غيره من الاحزاب . كما ان محب الدين الخطيب لم يشر الى اتصال الانكليز بحزب اللامركزية، او حزب الجامعة العربية في مذكراته، بل ، واكثر من ذلك ، يستغرب حديث برسي كوكس معه، ويشير مندهشاً ومخمناً انه كان يعرف المهمة التي انتدب من اجلها.

وقبل ان تتبلور هذه المقابلات في خطة عربية مشتركة لمواجهة الموقف الذي سينشأ عن دخول الدولة العثمانية الحرب، زج الاتحاديون وحكومتهم بالدولة العثمانية في اتون الحرب الى جانب المانيا، كما كانت الاحزاب العربية تخشى وتتوقع. وذلك بتاريخ ٣٠/١٠/١٩١٤. فما كان من حزب اللامركزية ، الا ان كلف الشيخ رشيد رضا ، وهو أحد كبار قادته ان يبعث برسائل الى من يثق بهم في سورية، يحثهم فيها على الولاء للحكومة،وينشر خطاباً عاماً موجهاً الى مسلمي سورية، يقول فيه :« ثم اشكر لكم ما اظهرتموه من النجدة والهمة في الاخلاص والطاعة للدولة، وبذل الانفس والاموال والثروة لها، والكف عن طلب الاصلاح فيها، وتقديركم الحالة الحاضرة قدرها، حتى انكم ساهمتم في هذا الرقي امم الارض التي سكتت عن جميع مطالبها ونزعاتها الداخلية» (٦١).

ويمكننا القول ان موقف الاحزاب العربية كان لا يختلف عن موقف حزب اللامركزية، ما عدا جمعية العربية الفتاة (٦٢). وبدأ نوع من التقارب بين الاحزاب العربية وحزب الاتحاد والترقي ممثلاً بجمال السفاح الذي سار في اوائل عهده على سياسة التودد للعرب بخبث ودهاء كبيرين. وبعد ان كسب ثقة ومودة بعض قادة حركة العربية من ذوي الصلات الوثيقة بالاحزاب، وان لم يكونوا من اعضائها وقادتها، مثل عبد الكريم الخليل وغيره. ولكنه لم يلبث ان كشف القناع عن وجهه،كسفاح يعمل على استئصال الحركات العربية التي ظهرت قبل الحرب وسحقها.

ان السرعة المذهلة التي تم بها قلب الوضع بين الاتحاديين والحركة العربية تدل خطة مبيتة ومرسومة مسبقاً....

على ان هذا الاستنتاج الذي ينطوي على حكم يدين الاتحاديين وسياستهم، لسرعة تغييرهم هذه السياسة ، لا بد له من الشرح الوافي (٦٣). فهو مسألة مطروحة على كل من يتعرض لهذه الحقبة من تاريخ الدولة العثمانية، او من تاريخ بلاد الشام بصورة خاصة.

والذي يعنينا هنا ان جمال باشا كان قد علق القافلة الاولى على اعواد المشانق في دمشق وبيروت في آب (اغسطس) سنة ١٩١٥ ، ليتبعها قبل ان تجف دماء الشهداء بالقافلة الثانية في ايار (مايو) سنة ١٩١٦ معتبراً الجميع اعضاء في حزب اللامركزية. وكان عبد الكريم الخليل من ابطال وشهداء القافلة الاولى ، وعبد الحميد الزهراوي ، رئيس المؤتمر العربي، من ابطال وشهداء القافلة الثانية، وانفرط عقد الحزب بعد هذا التاريخ.

الهوامش

١- وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب.

٢- راجع: مجلة دراسات تاريخية، العددان التاسع والعاشر، تشرين أول ١٩٨٢.

بحث للدكتورة سهيلة الريماوي بعنوان «صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام ١٩٠٨-١٩٠٩» ص ١٢٠ وما بعدها.

٣-رفيق العظم، آثاره، المقدمة صفحة ج، بقلم رشيد رضا.

٤-الامير مصطفى الشهابي، القومية العربية، ص ٨١.

٥-وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب.

٦-وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب.

٧-من وثائق محب الدين الخطيب.

٨-وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب، رسالة موجهة من عبد الغني العريسي الى محب الدين الخطيب، وموقعه بالرقم ٢١، وهو رقم العريسي اثناء اقامته في باريس.

٩-وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب، رسالة موجهة من الحزب الى الجمعية الاصلاحية في بيروت.

١٠-راجع نص البرقية في جريدة الاهرام بتاريخ ١٥/٤/١٩١٣.

١١-هذا الكتاب يقع في حوالي ٢٤٠ صفحة تقريباً بعنوان «المؤتمر العربي الاول -المنعقد في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية بشارع سان جرمان باريس في يوم الاربعاء ١٨ حزيران سنة ١٩١٣».

١٢- وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب واوراقه: رسالة موجهة من العريسي الى الخطيب.

١٣- راجع كتاب المؤتمر العربي الاول في باريس ،ص٥.

١٤- وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب واوراقه، محضر جلسة للحزب بهذا التاريخ.

١٥-المصدر السابق ، الوثيقة، وكتاب المؤتمر العربي الاول في باريس، ص٨.

١٦- جريدة المؤيد، بتاريخ ١٩١٢/٣/٢٧.

١٧-حول اسماء بقية الوفود، راجع كتاب المؤتمر العربي الاول ، ص١٤-١٦.

١٨- راجع خطبة اسكندر عمون في كتاب المؤتمر العربي الاول ، ص١٠٠ وما بعدها.

١٩-راجع قرارات المؤتمر بالتفصيل في كتاب المؤتمر العربي ، ص ١١٢- ١٢١.

٢٠- لقد حصلت على عدة وثائق من مكتبة محب الدين الخطيب، وهي عبارة عن رسائل متبادلة بين مركز الحزب في القاهرة وفروعه في فلسطين وسورية والسودان والعراق.

٢١- راجع كتاب المؤتمر العربي الأول، المقدمة ص ب ، بقلم رشيد رضا.

٢٢- لقد قدم احمد عزت الاعظمي في كتابه القضية العربية، ج٤، تحليلاً وافياً حول مقررات المؤتمر والاتفاقية، نرجو الرجوع اليه.

٢٣-راجع كتاب ساطع الحصري، نشوء القومية العربية ، ص٢٠٢.

٢٤-اعضاء هذا الوفد هم من اعضاء هيئة المتابعة التي بقيت في باريس لمتابعة قرارات المؤتمر برئاسة الزهراوي. وقد ارسلت وفداً من اعضائها الى الاستانة بناء على طلب عبد الكريم الخليل، ويتألف من سليم سلام، والشيخ احمد طبارة، واحمد مختار بيهم، بينما بقي الزهراوي في باريس.

٢٥- مجلة المنار،م١٩، جـ٢، ص ١٧٦.

وبين مجموعة اوراق محب الدين الخطيب عدة رسائل متبادلة بين الحزب وعبد الحميد الزهراوي، وفيها يظهر بوضوح ان الحزب لم يستطع الضغط على صديقه الزهراوي ، فترك له حرية الخيار في السفر الى الاستانة.

٢٦- راجع اسعد داغر ، ثورة العرب ، ص ٩٢.

٢٧- راجع نص الحديث الصحفي في اسعد داغر ، ثورة العرب ص ٩٣-٩٤.

٢٨-راجع حول هذا الموضوع ، جريدة الاهرام، بتاريخ ٢١/ ١/ ١٩١٤، و ٣٠/ ١/ ١٩١٤ والاعضاء هم :

عبد الرحمن اليوسف، سليمان الباروني ، ومحيي الدين النقيب،ثم محد بيهم، ويوسف سرسق واحمد الكيخيا.

٢٩- راجع نص البيان ، في مجلة المنار ، م١٦، جـ١١، ص ٨٤٩-٨٧٩.

وفي كتاب احمد عزت الاعظمي ، القضية العربية، جـ٤، ص ٣٠-٥٣.

٣٠- مجلة المنار ، م١٧، جـ٢، ص ٢٢٥-٢٣٦.

٣١-مجلة المنار المصدر السابق.

٣٢-مجلة المنار ، ١٩٢، جـ٣ ،ص١٧٤.

٣٣-راجع نص الكتاب الذي ارسلته جمعية الاتحاد السوري ورد حزب اللامركزية عليه في احمد عزت الاعظمي ، القضية العربية، جـ٤.

٣٤- سنتعرض لهذه القضية ونقدم حولها شرحاً وافياً في دراسة لاحقة تدور حول حزب العهد العسكري السري.

٣٥-لقد وجدت بين اوراق محب الدين الخطيب عدة رسائل بخط الزهراوي موجهة الى حزب اللامركزية تدور حول هذا الموضوع.

٣٦-وهي مذكرات مخطوطة موجودة في مكتبة آل الخطيب في القاهرة، لم تطبع بعد.

٣٧-محب الدين الخطيب، المذكرات ، سيرة جيل.

٣٨- وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب ، محضر جلسة للحزب بهذا التاريخ.

٣٩- وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب ، محضر جلسة للحزب.

٤٠- وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب ، بيان صادر عن حزب اللامركزية.

٤١- هناك دراسة مفصلة اقوم باعدادها لتصدر في كتاب مستقل تحمل عنوان «جمعية العربية الفتاة السرية» دراسة وثائقية.

٤٢- وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب ، مصدرها مدينة حمص.

٤٣- محب الدين الخطيب، المذكرات ، سيرة جيل

٤٤- كان حقي العظم قد اسس الجمعية الثورية ،واخذ يصدر المناشير والبيانات التي تهاجم الاتحاديين والوضع بشكل عام في الامبراطورية .و كانت هذه البيانات تنسب الى حزب اللامركزية . ويشير احمد قدري في كتابه مذكراتي عن الثورة العربية ان هذه المناشير كانت السبب في المشانق التي علق عليها جمال باشا احرار العرب . راجع حول هذه النقطة «الجمعية الثورية »احمد عزت الاعظمي ، في كتابه القضية العربية، جـ٤ . واحمد قدري ،مذكراتي عن الثورة العربية.

٤٥- وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب.

٤٦- نفس المصدر السابق.

٤٧- المصدر السابق.

٤٨- وثيقة من وثائق محب الدين الخطيب، محضر جلسة.

٤٩- لقد وجدت عدة وثائق بين وثائق محب الدين الخطيب في مكتبته حول هذا الموضوع ،وسأقدم حولها دراسة مفصلة في وقت لاحق.

٥٠- اسعد داغر، ثورة العرب، ص ١٢٩.

٥١- من اوراق الدكتورة سهيلة الريماوي ، مقابلة خاصة مع محب الدين الخطيب في القاهرة سنة ١٩٦٦.

٥٢- محب الدين الخطيب ، المذكرات ، سيرة جيل.

٥٣- امين سعيد، اسرار الثورة العربية الكبرى، ص ٣٧.

٥٤- محب الدين الخطيب ، سيرة جيل.

٥٥- وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب.

٥٦- نفس الوثيقة والمصدر.

٥٧- راجع امين سعيد، الثورة العربية الكبرى، مأساة الأمير حسين، ص٢٧-٢٩.

٥٨-عبد الله بن الحسين، مذكراتي و، ص ٧١-٧٢.

وامين سعيد، اسرار الثورة العربية الكبرى، ص ٢٥-٢٦.

٥٩-انيس صايغ، الهاشميون والثورة العربية الكبرى، ص ٧٧.

٦٠- Storrs, R. , Orientation ,P.123 ,London ,1943.

٦١-اسعد داغر، ثورة العرب، ص ١٢٧.

٦٢-لقد قدمنا تحليلاً وافياً حول موقف جمعية العربية الفتاة السرية، في كتابنا عن الجمعية، وهي دراسة وثائقية ستصدر قريباً.

٦٣-راجع دراسات تاريخية، العددان الثالث عشر والرابع عشر، ص ١٣٨، وما بعدها، بحث للدكتورة سهيلة الريماوي بعنوان (مفهوم اللامركزية عند العرب العثمانيين).

الفصل الرابع

صلاح الدين القاسمي . ١٨٨٧-١٩١٦
والمفهوم الحديث للقومية

أ. ناجي علوش

مدخل

كانت سورية حتى سنة ١٩١٧ ولاية عثمانية. وكانت ترزح، كغيرها، تحت الحكم العثماني من جهة، وتتعرض لاخطار المطامع الاجنبية من جهة اخرى. وكان النظام العثماني استبدادياً متخلفاً، ينهب الولايات التابعة له، ويكشف عن عجزه وتخلفه أمام القوى الامبريالية الطامعة. وكانت البنية الاقتصادية – الاجتماعية متخلفة. ولذلك وأمام الاخطار الداهمة، لجأ السلاطين الى اجراء اصلاحات، كان منها خط كلخانة سنة ١٨٣٩، وخط التنظيمات الخيرية سنة ١٨٥٦، وخط الاصلاحات والتنظيمات الجديدة سنة ١٨٧٤. ونصت هذه التنظيمات على ضرورة :«تأمين حقوق الأهالي، والتزام العدل في معاملة جميع الرعايا بدون استثناء، وتنظيم إدارة الحكومة....». وتضمنت هذه الاجراءات الفصل بين السلطتين القضائية والتنفيذية، وتنظيم القضاء، ووضع النظم لمواجهة مشكلة سوء تحصيل الايرادات، والغاء ريع العشر الذي كان قد ضم الى الايرادات العشرية، والغاء السخرية والمضايقات والازعاجات واساءة استخدام السلطة. كما تضمنت الاجراءات الوعد بتأمين الرعايا على أموالهم وأنفسهم وأسرارهم وأعراضهم. ثم ما لبث الدستور أن اعلن سنة ١٨٧٦.

ومع كل هذه الاجراءات، كان التغلغل الاجنبي يزداد في الامبراطورية. ففي سنة ١٨٦٣ أصدرت السلطة نظام البنك العثماني، ومنحت مؤسسيه من الانكليز والفرنسيين واليهود امتيازاً، وتعهدت بحمايته والمحافظة علي جميع امتيازاته. وقد بلغ رأسماله، عند تأسيسه، ٢ر٧ مليون جنيه انكليزي. وسنة ١٨٨٧ كان في دمشق قناصل أو نواب قناصل لكل من انكلترا وفرنسا وايطاليا والنمسا والمانيا وامريكا وهولانده واليونان والبرتغال. وكان لهؤلاء القناصل دور سياسي مهم. وكان صلح باريس سنة ١٨٥٦، بعد حرب القرم، فاتحة عهد جديد من التغلغل الأجنبي، اذ فرضت على السلطنة بموجب ذلك الصلح

التزامات دولية ،تعهدت تركيا بموجبها ، بمنح امتيازات للرأسماليين الأجانب ، من أجل مد السكك الحديدية، وإنشاء البنوك، واستغلال الثروات وشراء الاراضي ....الخ.

وعقدت السلطنة قرضاً خارجياً سنة ١٨٥٤، بخمسة وسبعين مليون فرنك، تسلمت منه ستين فقط. وخصصت الجزية التي كانت تتقاضاها من مصر ضماناً له، وعقدت قرضاً ثانياً، سنة ١٨٥٥، بمبلغ مائة وخمسة وعشرين مليون فرنك، خصصت جمارك ازمير وسورية ضماناً له. وتلاه قرض ثالث، سنة ١٨٥٨، بمبلغ مماثل ، خصصت جمارك استانبول ضماناً له. وتوالت القروض مابين السنوات ١٨٦٠-١٨٧٤، حتى بلغت أحد عشر قرضاً . وبلغت قيمة القروض الاسمية خمسة آلاف وثلاثماية مليون. وكان البنك العثماني الذي نشأ انكليزياً سنة ١٨٥٦، تحول الى بنك انكليزي - فرنسي سنة ١٨٦٣، يلعب دوراً كبيراً في العمليات المالية الداخلية والخارجية .وكان من نتيجة هذا كله، أن أعلن افلاس السلطنة سنة ١٨٧٥، لأن المداخيل كانت ثلاثماية وثمانين مليون فرنك، بينما كانت أقساط القروض المستعجلة ثلاثماية مليون فرنك.

وفي هذا الوقت كان التعليم يتقدم، إذ أن الدولة أنشأت مع حركة الاصلاحات،عدداً من المدارس الرشدية العسكرية .كما ان مدحت باشا(١٨٧٨-١٨٨٠) عمل على تطوير التعليم. ولما كانت المدارس التبشيرية تنتشر، فقد حرص رجال الدين المتنورون والتجار على مواجهة الموجة بتطوير التعليم الوطني، ولذلك أنشأوا «جمعية المقاصد الاسلامية» التي مالبثت ان انشأت عدداً من الفروع لها.

أخذت السلطنة تصير شيئاً فشيئاً جزءاً من السوق الرأسمالية. وكان الصراع الالماني - الفرنسي -البريطاني على أشده. كانت القيصرية مع تفكيك أوصال السلطنة. وكانت بريطانيا مع بقائها ضعيفة، ومساندتها ضد المطامع الروسية للتغلغل فيها. وكانت فرنسا مع محمد علي بادئ ذي بدء ، ثم اتفقت مع بريطانيا سنة ١٨٤٠. وكانت المانيا مع مساندة السلطنة وتطويرها ، ونيل امتيازات فيها. وكان من نتيجة هذا كله، ان دعيت بعثة عسكرية المانية الى السلطنة سنة ١٨٨٢. وحصل رأس المال الالماني سنة ١٨٨٨ على امتياز سكة حديد بغداد .وقام غليوم الثاني قيصر المانيا برحلتين الى الشرق كانت الثانية سنة ١٨٩٨.

واستطاعت فرنسا أن تمد نفوذها في سورية ولبنان ، فاحتكرت إنتاج الحرير والتبغ. ومن أجل ذلك أنشأ الفرنسيون ميناءً في بيروت ، ومدوا خطوط سكك الحديد: يافا - القدس سنة ١٨٨٨: دمشق - المزيريب سنة ١٨٩٠؛ بيروت - دمشق، سنة ١٨٩١؛ طرابلس - حمص، سنة ١٩١١ .كما انشأوا طرق دمشق -بيروت سنة ١٨٥٧؛وحمص - طرابلس - حمص، ودمشق - حوران وحماة - اللاذقية . أما بريطانيا فقد اتجهت الى

العراق ، والى فلسطين. وأصبح العراق سوقاً للمنتجات البريطانية وصادراته الزراعية في قبضة الانكليز.

أعلن سنة ١٨٧٩ إفلاس جديد ، فضغطت الدول الكبرى من اجل ضمان ديون مواطنيها. وهكذا صدر مرسوم شهر محرم سنة ١٨٨١، الذي وحد الديون بمبلغ ٤ر٢ مليار فرنك ، وأنشئت ادارة خاصة اصبحت هي السلطة الحقيقية في السلطنة.

كانت الأزمة تتفاقم ، والسخط يزداد. ولذلك حدث عدد من الانفجارات الشعبية في جبل الدروز سنة ١٨٨٦، وسنة ١٨٩٦، وفي حلب سنة ١٨٩٥، وفي بيروت سنة ١٩٠٣. وكانت الجمعيات قد بدأت تتكون منذ سنة ١٨٧٥. وأخذ الصراع الفكري يتنامى في اتجاهين : أولهما، الصراع بين القديم والجديد، بين الخرافة والشعوذة والعلم التقليدي الاسلامي، وثانيهما الصراع بين التراث والأفكار البرجوازية الحديثة. ومع ان النزعة التوفيقية هي التي سادت كل الاتجاهات تقريباً من بطرس البستاني الى محمد عبده، ومن أديب اسحاق الى عبد الغني العريسي، فان حركة هذا الصراع أسست الفكر العربي.

كان تجديد الفكر الديني يشغل شخصيات متنورة مثل محمد عبده،وعبد القادر المغربي، وجمال الدين القاسمي، وادخال الفكر الغربي يشغل شخصيات أخرى مثل بطرس البستاني وأديب إسحاق وفرح انطون والشميل . وكان الجميع مع اعادة بناء الوطن بأشكال مختلفة، كما حصل خلال انتفاضة مصر في عهد عرابي .ولكنهم كانوا يقاومون فساد السلطنة، والاحتلال الاجنبي بمفاهيم مختلفة(١).

ميلاد القاسمي:

ولد في هذه الاثناء صلاح الدين القاسمي، كان ذلك سنة ١٨٨٧م/ ١٣٠٥هـ. وكان والده محمد سعيد بن قاسم المعروف بالحلاق، الذي تسلسل نسبه هكذا :بن صالح بن اسماعيل بن أبي بكر المعروف بالقاسمي . ولد محمد سعيد سنة ١٨٤٣، أي بعد انتهاء حكم محمد علي باشا في سورية بقليل . واشتغل مطلع حياته بالتجارة، فكان له دكان في «العصرونية» ظاهر الجامع الأموي ، تباع فيه الادوات المنزلية. مالبث ان ترك التجارة، وتفرغ للعلم «يقرأ ويقرىء ويكتب». و«كان أبوه فقيه الشام، وصالحها في عصره». خلف محمد سعيد أربعة اولاد وبنتاً. والأولاد هم : جمال الدين ومحمد عيد وقاسم وصلاح. وتوفي في الثالث والعشرين من شباط / فبراير سنة ١٩٠٠، وكان صلاح لا يتجاوز الثالثة عشرة. وقد أعلن علماء دمشق الحداد ثلاث ليالٍ عند وفاته، وعطلوا دروسهم العامة في الجامع الاموي.

كان الوالد بعيداً عن التعصب في المسائل الخلافية «أخذ بما صح، ودعا للحق مع اعتدال في المشرب». وقد كان، كما يصفه ابنه جمال الدين: «فقيهاً غلب عليه الأدب ومزاج الادباء، فجانب خشونة المشايخ، وتنكب طريقهم في الدعوة، فلم يتشبث بما اعتاص من أساليبهم، وما جفّ من طرائقهم، فكانت مجالسه منوعة الأحاديث، كما كانت دروسه كثيرة الاستطراد». وترك الوالد المؤلفات التالية:

١– قاموس الصناعات الشامية، وقد سماه بدائع الغرف في الصناعات والحرف، حققه وقدم له ظافر القاسمي (جزآن).

٢– الطالع السعيد في ديوان الوالد محمد سعيد – ديوان شعره.

٣– الثغر الباسم بترجمة العلامة الشيخ قاسم.

٤– سفينة الفرج فيما ثبت ودبّ ودرج.

٥– تنقيح حوادث دمشق اليومية، نشر سنة ١٩٥٩، تحقيق الدكتور احمد عزت عبد الكريم.

وقد قادت وفاة الوالد إلى أن يعيش صلاح في كنف أخيه جمال الدين الذي ولد في ١٧ ايلول / سبتمبر ١٨٦٦، والذي كان يكبره بحوالي واحد وعشرين عاماً. وكان جمال رجلاً فاضلاً عاملاً، أخذ معارفه الأولى على الطريقة المألوفة في عصره، فأكب على القراءة في مكتبته الخاصة التي أنشأها جده وأبوه، ووسع دائرة معارفه، متابعاً ما استطاع ثقافة العصر. وقد حرص أن يكون اطلاعه واسعاً، ومعارفه متعددة.

كتب جمال الدين في مواضيع متعددة منها: التفسير والحديث والأصول، تاريخ دمشق. رسالة في الجن، كتيب في الشاي والقهوة والدخان، مقالة في القلب، وكتاب حول دلائل التوحيد، وكتاب ما قاله الأطباء المشاهير في علاج البواسير، ومنها في الزراعة والادب .....الخ. وكان جمال الدين من رجال الدين المتنورين، فاضطهد بتهمة الاجتهاد، وكان وطنياً، لوحق بسبب نشاطه، وقد دوهم بيته، وفتشت مكتبته في ١١ آذار / مارس ١٩٠٨، وحجز بعضها حتى ١٩ ايار / مايو ١٩٠٨. وكان ان استدعي لادعاء الحق العام عليه بتهمة «أن جمعية النهضة السورية لم تنشأ إلا بتشويقه، هو والشيخ عبد الرزاق البيطار وانهما من أركانها، وإنها فرع لجمعيات في البلاد كاليمن ونجد، وانها تطلب الاستقلال الاداري، وتريد تشويش الامور الداخلية بطلب حكومة عربية». وقد توفي جمال الدين في ١٨نيسان/ ابريل ١٩١٤(٢).

تكفل جمال الدين أخاه. كان الصبي بادي الذكاء، فتعهده وأرسله الى المدارس الرسمية ليدرس التركية والفارسية والفرنسية والمعارف العامة. وكان الى جانب ذلك يتلقى الدروس الدينية واللغوية في بيت أخيه جمال الدين القاسمي. ولما أنهى الدراسة الثانوية، أدخل الى «المدرسة الطبية»، ونال شهادتها سنة ١٩١٤.

لقد اهتم أخوه جمال الدين بتربيته، فدرّسه أمهات الكتب التي لم يدرسها في المدرسة، وحرره من المناهج الدينية واللغوية الجامدة، كما أتاح له فرصة اللقاء مع الأحرار الذين كان بيته ندوة لهم. وهكذا اطلع على المعارف العصرية، ودرس الدين واللغة، كما تعرف بالمذاهب السياسية المختلفة. ولما كان اخوه: «إماماً بكل مافي الكلمة من المعاني: إماماً في المسجد الجامع، وإماماً في التأليف»(٣)، فقد ترك ذلك أثره الكبير في نفسه. وشجعه أخوه جمال الدين على تعلم الكتابة، نثراً وشعراً. ولذلك أنشأ مجلة نقطة الأدب، وهو طالب في الثانوية، وسنه لم يبلغ خمسة عشر عاماً. ثم أخذ يكتب في الأمور المختلفة التي تهم العرب والمسلمين.

والتقى صلاح الدين مع رفاق له، حملوا راية القضية التي يحملها، فأنشأوا ما أسموه «جمعية النهضة العربية»، سنة ١٩٠٦م/ ١٣٢٤هـ. ويروي صلاح الدين كيف انشئت الجمعية في كلمة القاها فيما بعد جاء فيها: «أربعة من الأصدقاء كانت تربط في أول الأمر قلوبهم بعضها ببعض رابطة صداقة حميمة، ثم مالبثوا أن أصبحت تجمعهم جمعية واحدة، والربطة الاولى لم يتغير شكلها، بل انقلبت بعد ذلك الى ما هو أمتن وأرصن.. أصبحوا مشتركين في المبادىء والاحساسات ... ينظرون بعين واحدة الى سماء واحدة.. وأفق واحد .. وكانت القبلة التي يولون شطرها هي السعي وراء سعادة الأمة العربية، وإحياء ذلك المجد العربي الباذخ الذي أسلم نفسه الأخير في أرض الأندلس، وذابت آخر قطرة من شمس تلك المدنية في مجاهل سمائها»(٤).

ويروي صلاح الدين بعد ذلك كيف انشئت الجمعية في القسطنطينية، وكيف اتصل به محب الدين الخطيب، وبلطفي الحفار، وطلب منهما الانضمام للجمعية، فوافقا، وأسسا لها فرعاً في دمشق، ثم اتحد الفرع والمركز في العطلة الصيفية. وانتخب صلاح الدين أمين سر لهذه الجمعية، وهو ابن تسعة عشر عاماً. صرف صلاح الدين جهوده على الجمعية، وخدمة برنامجها وأفكارها، عندما كانت سرية، قبل الدستور سنة ١٩٠٨ وبعده. كان يقدم المحاضرات في الجمعية، ويكتب المقالات، وبعض مقالاته ما زال يستحق الاهتمام حتى اليوم. ومن مقالاته التي تستحق الاهتمام اليوم: محاضرتان عن «جمعية النهضة العربية»، ومقال عن القومية في الامم، وآخر عن «التعليم بالعربية»، وثالث عن «المسألة العربية ونشأتها». ومن مقالاته المهمة مقالته عن الخطر الصهيوني التي كتبها سنة ١٩١١، بعنوان «خطران أصفران»، يقصد الصهيونية والوباء الأصفر (الكوليرا)... وحين

خلع السلطان عبد الحميد ، أرسلت دمشق وفدها للتهنئة، وكان صلاح عضواً فيه، فكتب سلسلة من المقالات عن الرحلة .ثم انتقل صلاح الدين القاسمي الى الحجاز ، وعمل طبيباً هناك. ومن هناك كان يواصل ارسال مقالاته التي تتناول الجوانب السياسية والإجتماعية. أصيب سنة ١٩١٦ بخرّاج في الكبد ، وأجريت له عملية جراحية ففارق الحياة .وكان ابن تسعة وعشرين عاماً.

أهمية القاسمي:

وتنبع أهمية صلاح الدين القاسمي من حقيقتين :اولاهما :انه شارك مشاركة فعالة في تأسيس «جمعية النهضة العربية». وهي أول جمعية عربية ذات طابع قومي عربي مكتمل. وثانيتهما :أنه اسهم في بلورة نظرة عصرية لوجود الامة العربية، تتجاوز أفكار من سبقوه «مثل الكواكبي» ورضا وغيرهم، ممن كانوا يعتقدون ان نهضة العالم الاسلامي لاتكون إلا بعودة الخلافة للعرب، وعودة العرب الى ممارسة دورهم....

ونستطيع أن نقول إن صلاح الدين القاسمي تجاوز أيضاً ماطرحه نجيب عازوري لذي قصر كلامه عن «يقظة الامة العربية في آسية التركية»(٥). لكن من أين جاءت أفكار صلاح الدين ؟. هناك مصدران اساسيان:

الاول: الصراع الذي كان يتفاقم داخل الامبراطورية العثمانية بين شعوبها : العرب والارمن والبلقانيين والبلغار والصرب ....الخ ، وبين السلطة المركزية، التي كانت تسعى لأن تكون اكثر مركزية. وكانت هذه الشعوب تناضل من أجل استقلالها،بسبب نمو القوى المحلية، وزيادة آثار الافكار البرجوازية الاوروبية ، والتدخلات الاوروبية لتفسيخ الامبراطورية العثمانية، ونتيجة القمع والاضطهاد المتزايدين اللذين تمارسهما السلطة المركزية.

كانت السلطة المركزية تسعى لادخال إصلاحات على أجهزتها منذ سنة ١٨٣٩ خاصة، فسعت الى إدخال العلوم والصناعات ، لتستطيع مواجهة التطور الاوروبي السريع، والمحافظة على نفسها. وكان هذا يقود الى زيادة قدرتها على تشديد قبضتها على الشعوب الواقعة تحت حكمها .... وإلى محاولة الحاقها بها الحاقاً تاماً....

وكان يختلط بهذا الصراع الدائر داخل الامبراطورية ، والذي خاضه رجال أحرار، يمثلون الفكر البرجوازي، والذين كانوا يطالبون بالدستور والحرية، وتبني نتائج الثورة الديمقراطية الاوروبية. ولقد عمل هؤلاء من أجل استبدال بنية السلطة الدينية الاقطاعية بسلطة مقيدة، تحفظ للسلطة مكانتها ، ولكنها تلزم السلاطين بقوانين عصرية . ولقد أخذت هذه الحركة تنمو منذ العقد السابع من القرن الماضي، ومن رجالها مدحت باشا

المدعو أبو الدستور. وكانت هذه الحركة تعمل لنشر أفكار الحرية، وتدعو الى التجديد، وتبني المدارس العصرية، وتقاوم التحجر والجمود، في الفكر والسياسة.

الثاني: العلم الذي كان ينشره الاحتكاك مع الغرب، من خلال المدارس والكتب والارساليات والبعثات العلمية. ولقد سمح ضعف الامبراطورية من جهة، وبعض الانفتاح الذي حدث فيها من جهة أخرى، بانشاء عدد من المدارس التابعة للطوائف، او التجارية التي تقدم الفكر الغربي، وتدرس اللغات الغربية(٦). وكان أيضاً أن نشأت الصحف التي تنشر هذا الفكر. وفي هذا الجو تعرف الشباب العرب الذين يدرسون في بيروت او دمشق او الاستانة او باريس الى افكار جديدة، خارج اطار ثقافتهم التقليدية. ولهذا نشأ جيل جديد منذ اوائل القرن، يتجاوز أفكار المصلحين المسلمين مثل الكواكبي، وغير المسلمين مثل أديب إسحق.

ان الجيل الاول: الافغاني، الكواكبي، اديب اسحق... الخ لم يبلور نظريته في الامة، لأن طبقات الأمة المختلفة لم تكن قد وعت اهمية الاستقلال والبناء القومي، اذ ان مصالحها كانت ما زالت مرتبطة بالامبراطورية، ولأن وعيها لم يكن قد اكتمل بعد... ولذلك طرح الرواد الاوائل فكرة تطوير الامبراطورية، وطالبوا بدور بارز للعرب فيها. وكانوا في ذلك يعبرون تعبيراً جنينياً عن وعي جديد ينشأ، نتيجة التطورات التي تحدث في الامبراطورية، وفي العلاقة السياسية والاقتصادية بين الاتراك وشعوب الامبراطورية الأخرى.

كان الاقطاع العربي والبرجوازية يريدان دوراً أكبر، لأنهما يريدان تنمية مصالحهما، وكانا يحسان بالمزيد من سيطرة السلطة المركزية. أما بعد ذلك، فقد كانت الأمور قد تطورت، وكانت البرجوازية في المدن العربية قد أنشأت علاقات مع البرجوازيات الاوروبية، وأحست بأن السيطرة العثمانية تعوق تطورها.... كما ان احتكاك المثقفين العرب بالغرب كان ينضج وعيهم السياسي. وهكذا كان الوضع يختلط: الصراع مع الاتراك، والصراع مع الغرب، وانتشار الفكر الغربي، وبعث التراث العربي (٧)، يقود الى مرحلة جديدة.

تبلور نظرية الأمة:

وكانت في هذا الجو كله نظرية الامة تختمر وتتبلور، وأخذت تعبر عن نفسها، فطرحها نجيب عازوري، كما طرحها بعده صلاح الدين القاسمي: تبلورت الفكرة في ماسمي «حلقة دمشق الصغيرة». المنبثقة من حلقة دمشق الكبيرة. وكانت حلقة دمشق الكبيرة قد تكونت

حول الشيخ المصلح طاهر الجزائري. وكانت هذه الحلقة ملتقى المصلحين والمفكرين والادباء الذين يتحدثون عن العرب ودورهم ولغتهم وتراثهم، عن أوضاعهم الراهنة، وعن امجادهم السابقة ، عن الاصلاح وضرورته وسبله. ولكن الحلقة الكبيرة كانت تضم الجيل الاول الذي تغلبت عليه الثقافة التقليدية، وإن كان بعض من رجاله قد تحرر من كثير من الحشو واللغو، وآمن بالعلم وضروراته، مثل الشيخ جمال الدين القاسمي.

ويبدو ان الجيل الطالع كان يتعلم من جيل الرواد، وكان يأخذ منه الاهتمام بمستقبل العرب، والتحرر من الخرافات والجمود . وهناك معلومات تشير إلى أن حلقة دمشق الصغيرة تقرأ الكواكبي مثلاً(٨). ولكن الجيل الشاب كان ، بما يمثله من مطامح، وبما بلغه من ثقافة، يطمح إلى أن يكون شيئاً آخر. ولذلك، فإنه، وإن كان استمراراً للجيل السابق من جهة، فإنه كان تجاوزاً له من جهة اخرى.

رؤية صلاح الدين القومية:

ان حلقة دمشق الصغيرة انجبت « جمعية النهضة العربية»،وهذه الجمعية كانت تعبيراً عن مرحلة جديدة. كان محب الدين الخطيب لولب هذه الحركة . وكان زملاؤه من أبناء الوجاهات العربية المتجمعة في دمشق او بيروت أو الاستانة ، يعتقدون ان المهمة التي يتصدون لها تحتاج الى عمل طويل دؤوب منظم. وإذا كانوا قد طرحوا موضوعات الأمة العربية، وبلوروها من الناحية المبدئية، فإنهم اكتفوا سياسياً بطرح موضوع اللامركزية، وتدريس اللغة العربية (٩).وذلك أنهم كانوا يحسون بالحاجة الى بلورة الوعي القومي لدى الجماهير، كما انهم كانوا يعرفون الأخطار المحدقة بالسلطنة. وكانوا يعتبرون تفتيتها خدمة للمآرب الاستعمارية الاوروبية . ان جمعية النهضة العربية لم تدرس جيداً بعد، شأنها شأن كل الجمعيات العربية. لولا ما يلقيه الشهابي وصلاح الدين من أضواء حول تاريخها، ،لما عرف عنها إلاّ أقل من القليل .ونستطيع أن نوجز أفكار صلاح الدين حول القومية بما يلي:

١- ان القومية بنت الضرورات الاجتماعية ، ويكتبها بالفرنسية (Nationalism) وهي بالتالي ليست« بدعة هذا الجيل او ذاك القبيل» ، ومع انه لا يوضح مايعنيه ذلك تمامًا. إلا انه من الواضح انه يربط القومية «بالمنفعة والمصلحة» . وهو هنا أيضاً لا يحدد موضوع المصلحة «بأكثر من انها مصلحة الفرد والمجموع معاً»..

٢- ان العصبية الدينية كان لها: «شأن يذكر يوم وجدت الأمم فيها مصلحتها ومنفعتها».«أما اليوم، وقد صرنا الى زمن استحال فيه كل شيء - بعامل النشوء والارتقاء -فإن الأمم وجدت نفسها مضطرة لأن تلتف حول عصبية اخرى،

ونعني بها القومية»، لأنها رأتها «أجدى لبقائها، واجدر بارتقائها...» إلا انه لايرى القومية متناقضة مع الدين، فهي منفذ «لخدمة الانسانية والدين معاً».

٣– ان القومية «...كانت وما برحت من أعظم عوامل النهوض»، وتاريخ النهضات شاهد على ذلك ، «إذ اثبت لنا أن الأمم المتمدنة اليوم، لم تتمتع بالحياة الاجتماعية والسياسية، إلا عندما تشبعت نفوسها بفكرة القومية، وأنزلتها منزلة الاعتقاد الراسخ والايمان الصحيح، فمجدتها وضحت لها على مذابح الثورة بنفوس أبنائها، وأهرقت من أجلها دماءهم».

٤– ان القومية حديثة النشأة في «الامة العثمانية»، كما كانت «في الامم الغربية، وهي في بدء نهوضها» ... وقد «تنبهت في الآونة الاخيرة فكرة القومية أو الجنسية في مجموع الامة العثمانية تنبهاً شديداً ، فاهتزت لها اعصاب العناصر كافة من عربي وتركي ، ورومي وأرمني وكردي وألباني...».

٥– ان الذي يعادي فكرة القومية : «جاهل بحقائق التاريخ وسر تقدم الامم» ..«بدعوى أنها مدعاة لتفريق الكلمة...».

ويبدو ان موضوع وجود الامة العربية محسوم تماماً بالنسبة لصلاح الدين القاسمي. فهو لا يناقش الموضوع مناقشة الذي يثبت وجود الامة، كما فعل ساطع الحصري ،فيما بعد. ولا يحدد عوامل وجودها . إن الأمة موجودة ، والقومية من الضرورات الاجتماعية، ولاشيء اكثر من ذلك . انه يقول ، وهو يتحدث عن المسألة العربية :«...أن هذه المسألة لم تخلق من العدم... إنه لابد من عامل يكفيها ، حيث توفرت لها شروط الحياة والنمو منذ زمن بعيد»(١٠). وصلاح الدين يستخدم كلمة الأمة للدلالة على العرب، وبالمفهوم العصري،ويستخدم كلمة «الامة العثمانية»(١١) أيضاً. ثم ان مصطلح الامة العثمانية نادراً مايرد، الا انه على مايبدو من بعض آثار الماضي، لأن صلاح الدين يقرر وجود الامة العربية ، ويكرر كلمة مثل «سعادة الأمة العربية»(١٢)، و«أبناء الأمة العربية»(١٣). كما يتحدث عن المجد العربي، والعظمة العربية(١٤). ولكنه كان يتحدث أحيانا عن المشرق(١٥) ، ويذكره مرة « أن مصر شقيقة الشام...»(١٦)، وإن كان يتحدث عن المشرق بمعنى الشرق عامة. ويذكر «العربي السوري » مؤكداً إنه يتحدث عن كل أبناء الأمة العربية(١٧). أما دمشق فهي في رأيه :«...المدينة التي تتطاول إليها أنظار الأمة العربية، وهي قلب البلاد العربية وقاعدتها من القديم»(١٨).وصلاح الدين بعد ذلك كله ، لايرى حرجاً في أن تأخذه النعرة القومية، ويطالب بالاحتفاظ بها، مادام هو يسعى وراء الدفاع عن حقوق أمته. ويعتبر إن هذا هو «التمسك الصحيح بمبدأ القوميات في البلاد المتمدنة...». ولذلك يريد من العرب ان يكونوا عرباً اولاً وعثمانيين ثانياً(١٩)، ويهاجم دعاة الجامعة

الاسلامية العاملين مع حزب الاتحاد والترقي ، لأنهم يعملون من أجل تفريق«... الكلمة بين الامة العربية مسلميها ومسيحييها»(٢٠).وهو مع ذلك يرفض مهاجمة المنفلوطي للحضارة الغربية. لأنه يرى أن «من الحكمة ان يدعو القائم بالاصلاح الى قومية او وطنية ، لكن بدون أن يزدري مدنية الامم الاخرى الناهضة ، ويعمل على الحط منها»(٢١).

ماهو هذا التفكير القومي وما طبيعته ؟. ان صلاح الدين يحدد ذلك، دون ان يكون معنياً بالإجابة عن السؤال ، انه:

- يشير من الناحية الفلسفية دائماً الى لوك وهيغو وروسو وفولتير ، وكانط وفيختي وتولستوي .ويكتب مرة :«اين نحن اليوم من أمثال هيغو وصاحبيه فولتير وروسو ، يلقون في شوارعنا ما ألقاه اولئك منذ سنين في شوارع باريس، وفي حفلاتها الخاصة والعامة؟»(٢٢). هذا على صعيد الفلسفة . وهو هنا مع الثورة البريطانية وفلاسفتها ، والثورة الفرنسية وفلاسفتها(٢٣).

- وهو من الناحية الواقعية يتمثل بنهضة البلغار واليونانيين والاتراك، ويتحدث عن الوحدة الالمانية والايطالية والامريكية . ويتمنى ان يكون مصيرنا نحن العرب مصير هؤلاء(٢٤). وهو ايضاً يستشهد بنابليون الذي«...قلما تلد العصور قائداً جاهد في سبيل العلم وتأييد الشورى » مثله(٢٥)، كما يستشهد بفردريك الكبير وغليوم الكبير وبسمارك و...(٢٦) وهذا كله يحدد هوية الدعوة القومية التي يدعو اليها.

إنها بوضوح قومية أوروبا القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، والوحدة الالمانية مثل «باهر» لوحدات القرن التاسع عشر.

الامة واللغة :اهتم صلاح الدين القاسمي بالعلاقة بين الامة واللغة ، وبينما لم يعتبر اديب اسحق اللغة شرطاً من شروط تكون الامة(٢٧)، فإن القاسمي يرى ان هناك علاقة بين الأمة ولغتها، «ولا بدع فاللغة من الذرائع الكافلة لتقويم الحياة القومية».ولهذا: «فليس ادعى لابادة حياة الامة، وانزالها منزلة من كتب عليهم ان يكونوا محكومين أبد الدهر، فضربت عليهم الذلة والمسكنة من السعي وراء اماتة لغتها التي يتفاهم بها ابناؤها»(٢٨).

ومن هنا يربط القاسمي بين إصلاح اللغة وإصلاح حالة الامة (٢٩). ولكن القاسمي لايناقش موضوعة الأمة واللغة، ولا يؤكد صراحة على أن اللغة شرط من شروط وجود الامة، لأنه لم يحاول ولا مرة واحدة ان يحدد تعريف الأمة وعوامل تكوينها.

الثورة الفرنسية : يتبنى القاسمي الثورة الفرنسية ، كما تبناها أديب اسحق. وهو إذا كان يذكر فلاسفتها في مقالاته المتفرقة، فإنه قد كرس لها بحثاً من أهم بحوثه نشر ناقصاً في آثاره (٢٠). ويتبنى القاسمي شعارات الثورة الفرنسية: الحرية و العدل والمساواة(٣١) ويربط القاسمي الثورة الفرنسية بالثورة الانكليزية، ويشير الى أثر الثورة الانكليزية في المفكرين الفرنسيين الأحرار.

ويستهدف القاسمي من كل حديث عن الثورة الفرنسية ان يؤكد ان الوعي السياسي ضروري لقيام الدستور على أساس مكين: «اذ لاخير في انقلاب سياسي لا يسبقه انقلاب أدبي في العقول والافكار»(٣٢). ويمكن ان نبحث ضمن هذا السياق دعوته المتكررة الى ضرورة الاتجاه نحو العلم . والعلم بالنسبة له يشمل العلوم الطبيعية والاجتماعية؛ ذلك ان «التقدم الذي نراه» من وجهة نظره «هو نتيجة تأثير كل من العلماء والاجتماعيين الذين وصلوا بالجمعية البشرية الى هذا الحد ...»(٣٣). ولهذا فهو يطالب بالاستمساك بالواجبات العلمية ولاجتماعية، ويطالب بأن يكون بيننا علماء وأطباء وشعراء وخطباء، وأن: «نأخذ بيد الصحافة، ونعضدها بكل مافينا من القوى المادية والأدبية، لأنها رسول العلم بين الأمم، وقائد الاجتماع الى مافيه الخير والنجاح». كما«ان نسعى لقلب هيئة التمثيل ،وان نقويه، ونذكر نهضة فرنسا ايام قام روائيوها يملأون الصحف بتلك الافكار الحرة ويطئون ساحات التمثيل ، فيمثلون للامم الشورى، واستبداد الملكية مما خلد لفولتير ، وروسو، وهيغو أسماء كبيرة على صفحات التاريخ في مستقبل الايام» (٣٤).

ويتبنى القاسمي في ميدان العلوم الاجتماعية فلسفة النشوء والارتقاء (٣٥)، ويذكر أنهم قرروا ان يطبعوا كتاب جول سيمون المعنون: الحرية (٣٦).

الموقف من الدين : اختار القاسمي القومية بديلاً عن العصبية الدينية لتكوين طريق العلم والتحديث .

وهو يشير في مقدمة دراسته عن المنفلوطي إلى: «الصراع الدائم بين القديم والحديث...»(٣٧). ويطالب بالتحرر من المؤثرات الدينية وغيرها عند النظر الى المدنية الغربية. ولكنه يعود في حديثه عن التضحية بالنفس ليؤكد: «...أن الوسائل لبث هذا الشعور جمة ;وقد كان ولايزال من أهمها الاديان. وقد كفل ديننا ذلك ، فلابد من تعهده وتنميته ليبلغ من نفوسنا مبلغ الكمال»(٣٨). وبينما يشير في حديثه عن الثورة الفرنسية الى العلاقة بين الحكومة المطلقة والكنيسة (٣٩)، فإنه لايشير الى ذلك فيما يتعلق بالوضع في الامبراطورية العثمانية. ويكتفي ببعض الاشارات هنا وهناك، كنقده نشاطات الجمعية الاسلامية المعروف رئيسها «بتفريق الكلمة بين الامة العربية: مسلميها

ومسيحييها ...»(٤٠)، وإشارته لما يلاقيه المصلحون «من شيوخ السوء حشوية الدين الجامدين ...»(٤١).

إن مفكرينا الأوائل وقفوا هنا، يدعون الى أفكار الثورة الفرنسية بشكل عام ، ويتحدثون عن الحرية والعدالة والمساواة، ويطالبون بنقل الفكر العلمي . غير أنهم لم يستطيعوا في ميدان الدين ان يطرحوا شيئاً غير محاربة التزمت والجمود . وكان ما تبنوه في هذه المرحلة، وما عدا نفراً قليلاً مثل الشميل ، لايتعدى الاصلاح الديني.

هل قرأ القاسمي نجيب عازوري: ليس لدينا إجابة محددة عن ذلك ، وإن كان ذلك غير مستبعد . ان القاسمي يقرأ الفرنسية، وكتاب عازوري كتب بالفرنسية، والقاسمي بدأ يكتب عن الامة العربية، بعد سنة ١٩٠٤، أي بعد صدور كتاب عازوري . غير أنه ليس هناك دلالات في هذا المجال . وهناك إشارة في كتاب مصطفى الشهابي الذي أشرنا اليه في هوامش هذه الدراسة تقول : إن عازوري لم يترك أي أثر .ويضيف:«وانا على يقين من أن كتاب عازوري لم يكن عند أحد من شباب جمعية النهضة العربية ،ولا عند أحد ممن الفوا، عقب إعلان الدستور العثماني، الجمعيات والمؤسسات القومية العربية المختلفة. وفي سنة ١٩١١ وجدته يباع في إحدى مكتبات باريس فاشتريته، ودللت بعض الرفاق من الطلاب العرب عليه ، فلم يهتموا به، لأنهم كانوا قد شبوا عن الطوق ،وعرفوا من شؤون القومية العربية وواجباتهم فيها مالم يعرفه غيرهم»(٤٢).ولانظن ذلك دقيقاً، لأن كتاب عازوري، والبيان الذي أصدره ، ومجلته الاستقلال العربي ، لابد من ان تكون وجدت صدى في بعض الاوساط المثقفة العربية. وهذا ماسنحاول البحث عنه.

الهوامش

١- فلاديمير لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية الحديث (موسكو : دار التقدم، ١٩٧١)، ص ٣٧٤ -٤١٢، وعبد العزيز محمد عوض، الادارة العثمانية في ولاية سورية (١٨٦٤-١٩١٤)، تقديم أحمد عزت عبد الكريم (القاهرة :دار المعارف ، ١٩٦٩).

٢- محمد سعيد القاسمي: قاموس الصناعات الشامية، تحقيق وتقديم ظافر القاسمي، ٢ج (باريس: موتون، ١٩٦٠)، ج ١، ص٨-١٠، ج٢، ص ١٩١-١٩٢، ١٩٤ - ١٩٨ و٢٠٣.

٣-د. صلاح الدين القاسمي : آثاره .قدّم له وحققه : محي الدين الخطيب .المطبعة السلفيه ١٩٥٩.

٤- د. صلاح الدين القاسمي : المرجع السابق ،ص ٤ .

٥-منير موسى: الفكر العربي في العصر الحديث، سوريا ، من القرن الثامن عشر حتى العام ١٩١٨(بيروت :دار الحقيقة، ١٩٧٣) ، ص ١٩٤-١٩٦.

٦- محمد يوسف نجم: العوامل الفاعلة في تكوين الفكر العربي الحديث: الجامعة الامريكية في بيروت، هيئة الدراسات العربية ،الفكر العربي في مائة سنة، أشرف على تحريره فؤاد صروف، ونبيه أمين فارس(بيروت : الجامعة الاميركية -١٩٦٧) ، ص٢٣- ٨١.

٧- حازم زكي نسيبة: القومية العربية، فكرتها- نشأتها -تطورها، ترجمة عبد اللطيف شرارة .(بيروت :دار بيروت للطباعة والنشر،١٩٥٩) ، ص٤٩.

٨- مصطفى الشهابي: القومية العربية، تاريخها، قوامها، ومراميها، ط٢(القاهرة :جامعة الدول العربية، معهد البحوث الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٩)، ص٥٨ .

٩- مصطفى الشهابي: المرجع السابق ، ص ٥٢-٥٦ .

١٠- د. صلاح الدين القاسمي : المرجع السابق ،ص٧٢.

١١-القاسمي :المرجع السابق ، ص١١٨.

١٢- القاسمي :المرجع السابق ، ص٥ .

١٣- القاسمي :المرجع السابق ، ص٥.

١٤- القاسمي :المرجع السابق ، ص ٥ و٣٤.

١٥- القاسمي :المرجع السابق ، ص ٨٠.

١٦- القاسمي :المرجع السابق ، ص ١٢٦.

١٧- القاسمي :المرجع السابق ، ص ٢١١.

١٨- القاسمي :المرجع السابق ه، ص ٢٠٨.

١٩– القاسمي :المرجع السابق ، ص ٧٥.

٢٠– القاسمي :المرجع السابق ، ص ٢٠٦.

٢١– القاسمي :المرجع السابق ص ٢٣٠– ٢٣١.

٢٢– القاسمي :المرجع السابق ، ص ٦٧–٧٨.

٢٣– القاسمي :المرجع السابق ، ص ٤٨–٤٩.

٢٤– القاسمي :المرجع السابق ، ص ٤٣.

٢٥– القاسمي :المرجع السابق ، ص ٧٩.

٢٦– القاسمي :المرجع السابق ، ص ١٠٢.

٢٧–أديب اسحق: الكتابات السياسية والاجتماعية، جمع وتقديم ناجي علوش، (بيروت :دار الطليعة،١٩٧٨)،المقدمة.

٢٨–صلاح الدين القاسمي :المرجع السابق،ص٤٥

٢٩– القاسمي :المرجع السابق ، ص ٢٧.

٣٠– القاسمي :المرجع السابق ، ص ٤٨–٥٧.

٣١– القاسمي :المرجع السابق ، ص ٤٠.

٣٢– القاسمي :المرجع السابق ، ص ٥٦.

٣٣– القاسمي :المرجع السابق ، ص ٤٨–٥٧.

٣٤– القاسمي :المرجع السابق ، ص ٣٤–٣٥.

٣٥– القاسمي :المرجع السابق ، ص ١٧–٢١٦.

٣٦– القاسمي :المرجع السابق ، ص ٧.

٣٧– القاسمي :المرجع السابق ، ص ٢٢٠.

٣٨– القاسمي :المرجع السابق ، ص ١١٧.

٣٩– القاسمي :المرجع السابق ، ص ٤٩.

٤٠– القاسمي :المرجع السابق ، ص ٢٠٦.

٤١– القاسمي :المرجع السابق ص ٣٥١.

٤٢–الشهابي، القومية العربية : تاريخها ، قوامها ومراميها، ص٥٩.

القسم الثاني



الحركة العربية القومية
من نهاية الحرب الأولى
إلى نكبة فلسطين ١٩١٨-١٩٤٨

الفصل الأول

الحركة العربية القومية ١٩٢٠-١٩٤٦

أ. محمد جعفر الحيالي

المقدمة

يشكل الوطن العربي نظاماً إقليمياً خاصاً، نجم عن التفاعلات التي تمت بين عناصره، سواء أكانت تفاعلات ايجابية أم سلبية، مجموعة خاصة وفريدة من الديناميات. فثمة عوامل كثيرة، تدفع الوطن العربي إلى أوجه من التفاعل والعمل المشترك، يصلان إلى درجة الوحدة الكاملة : الاشتراك في اللغة والثقافة والخبرة التاريخية ، والمصير المشترك . ويقف في مواجهة هذه العوامل الموحدة ، مشاكل مشتركة تدفع الوطن العربي بالاتجاه المعاكس ، حيث التباين في توزيع الثروات والموارد الطبيعية و البشرية، والفروقات الشاسعة ، من حيث النظم السياسية ، ومن حيث الايديولوجيات والدساتير.

وللتعبير عن أصالة الوحدة بين أبناء الأمة العربية، التقى نفر منهم على صعيد واحد،في مدارس الاستانة ،من أجل الدفاع عن القومية العربية، والوقوف بوجه حملات التتريك التي مارسها الأتراك ضد العرب. اذ عملوا على تأسيس الجمعيات العلنية والسرية الساعية لاستقلال العرب، دون تمييز إقليمي ، فأسسوا المنتدى الأدبي في القسطنطينية عام ١٩٠٩ ، وجمعية العربية الفتاة في باريس عام ١٩١١، وحزب اللامركزية الادارية العثماني في القاهرة، أواخر عام ١٩١٢، كما لعبوا دوراً في عرض القضية العربية على الرأي العام العالمي، والذي تمثل بعقد المؤتمر العربي في باريس عام ١٩١٣.

واتسمت الدعوة القومية خلال الحكم العثماني، باقتصارها على العرب المقيمين في الهلال الخصيب والجزيرة (غربيها على الأخص)، اي المناطق التي كانت لا تزال تحت الاحتلال العثماني المباشر، بحيث اعتبر بعض المفكرين أن مفهوم الوحدة يشمل سكان آسيا العربية (١) ، وبنوع خاص سكان سورية الطبيعية والعراق الذين كانوا أكثر استعداداً لتحقيق كيانهم السياسي والقومي، وظلت الأقطار العربية في شمال افريقيا، خارج

اهتمامهم كقوميين عرب، رغم كل العوامل الموحدة القائمة على أساس الانتماء المشترك للأمة العربية (٢).

لكن اقتصار الدعوة القومية على المشرق العربي، دون مغربه، لم يكن نابعاً عن قصور في إدراك معنى الوحدة، وضرورة شمولها كل أرجاء الوطن العربي، وإنما يعود للواقع السياسي المعقد، ولتعدد المؤامرات الدولية، واختلاف المصالح الاستعمارية، وانشغال كل جانب من الجانبين العربيين بمشاكله في تلك الظروف. والذي يؤكد هذا أن العاملين في الحركة العربية الحديثة، لم يكونوا فقط من عرب القسم الآسيوي الذي كان في نطاق الدولة العثمانية، بل اندمج فيه المصريون والمغاربة إلى جانب الشاميين والعراقيين والحجازيين(٣).

وفي مطلع الحرب العالمية الأولى، وبسبب اكتناف الغموض لمصير العرب القومي، وجد العرب أنفسهم أمام خيارين لا ثالث لهما، فإما البقاء ضمن أراضي الدولة العثمانية، أو التعاون مع البريطانيين الذين بدأوا بالاتصال بالشريف حسين منذ مطلع الحرب، محاولين إيهامه بأنهم سيعملون من أجل استقلال العرب، إذا وقف إلى جانب الحلفاء بوجه الأتراك، وطردهم من بلاد العرب.

ومن خلال الاتصالات بين الشريف حسين وزعماء الحركة العربية، تم الاتفاق في دمشق،على وضع ميثاق يضمن الشروط التي طالب الزعماء العرب بتحقيقها، مقابل وقوفهم الى جانب بريطانيا في الحرب ضد تركيا. واعتبرت بنود هذا الميثاق، هي الأساس في أية مفاوضات مع البريطانيين، حيث اشترط الزعماء العرب أن تعترف بريطانيا باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن حدود تمتد من خط مرسين حتى الحدود الايرانية شمالاً، وشرقاً من حدود إيران الى الخليج العربي، وجنوباً المحيط الهندي باستثناء عدن، وغرباً على امتداد البحر الأحمر، ثم المتوسط حتى مرسين، كما طالبوا بالغاء الامتيازات الأجنبية، وعقد معاهدة دفاعية بين الدولة العربية المقترحة وبريطانيا التي سيكون لها الأفضلية في المشروعات الاقتصادية (٤).

واستناداً إلى الثوابت القومية التي جسدها ميثاق دمشق، نظم العرب ثلاثة جيوش، كان معظم ضباطها من السوريين والعراقيين والحجازيين، لعبت دوراً في القتال ضد العثمانيين، وفي طردهم من الأرض العربية.

وبانتهاء الحرب العالمية الاولى وبداية العشرينيات، دخلت الحركة العربية مرحلة جديدة من الناحية السياسية والاجتماعية. فقد انتهت الحرب بخيبة أمل كبيرة لدى العرب. اذ لم تتحقق الأماني القومية التي طالبوا بها، بل انقسم الوطن العربي، وفقاً لاتفاقية

سايكس بيكو، الى دويلات تحت حكم أجنبي، إما فرنسي أو إنكليزي ، واتخذ هذا التقسيم طابعه الدولي في مؤتمر سان ريمو، الذي عقد في الخامس والعشرين من نيسان (ابريل) ١٩٢٠، حيث تم بموجبه وضع المستطيل العربي الواقع بين البحر المتوسط والحدود الايرانية تحت الانتداب ، على ان تقسم سوريا إلى أربعة أجزاء ، هي فلسطين ولبنان ومنطقة شرق الاردن، وما تبقى من سوريا الطبيعية. أما العراق فقد بقي دون تقسيم ، ووزعت الانتدابات بما يتلاءم ومطامع الدولتين الاستعماريتين (بريطانية وفرنسا) ، حيث وضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، أما بريطانيا فكانت حصتها فلسطين وشرق الاردن والعراق(٥).

وكان من نتائج التقسيم ، أن انفرط عقد الحركة العربية، وتشتت في طرق مختلفة ، ليس على مستوى الكيان أو الدول فقط، وإنما أيضاً على مستوى الحركات والتنظيمات السياسية عينها. فلقد انتهت كل المنظمات والاحزاب التي نشأت خلال السنوات ١٩٠٨-١٩١٤،ولم يخرج على هذا الحزبان البارزان (العهد) و(العربية الفتاة) اللذان كانا وراء الدعوة الاستقلالية للعرب عن الأتراك . إذ انقسم حزب العهد، بعد سقوط الحكم الفيصلي في سوريا إلى قسمين: (عهد) سوري، و(عهد) عراقي، وبرّر قادة التنظيم هذا الانشقاق بوجود تيارين متعارضين داخل الجمعية، أحدهما يرفض التعاون مع البريطانيين، في حين يرى الجناح الآخر، ان التعاون مع البريطانيين من الممكن ان يؤدي إلى انتصار القضية العربية(٦) . كما اعتبروا أن دول التحالف ترفض تأليف دولة عربية مستقلة ، تضم غالبية منطقة المشرق العربي.

كما أن الجهود السياسية التي بذلها بعض زعماء العرب لاعادة الثقة واستمرار تيار الحركة العربية ، اتسمت بالعمل(القطري) ، وانكفأت على مشاكلها الداخلية ، ومثلت تراجعاً عن زخم الحركة العربية، واتجاهها الشامل الذي ظهر قبل الحرب. فلقد اجتمع بعض رجال الحركة العربية في النادي العربي بدمشق في ٦-٧ آذار (مارس) ١٩٢٠، واتخذوا مجموعة قرارات ، منها استقلال سوريا الطبيعية استقلالاً تاماً، ثم المطالبة باستقلال العراق، على أن يكون بين القطرين الشقيقين اتحاد سياسي واقتصادي(٧).

ولكن حالة اليأس عند رجال الحركة العربية بدأت تزول، مع بداية الثلاثينات ، حتى قويت مرة أخرى في الأربعينات ، بفعل عدد من التحولات الاجتماعية والظروف السياسية لكل قطر عربي. اذ بدأت البرجوازية العربية ذات النفوذ السياسي والاقتصادي بإنشاء الشركات الوطنية، وإنشاء الصناعات الاستهلاكية . وقد أدى ذلك بالطبع الى الصدام بينها وبين الاستعمار .ورغم انه انتهى بانهيار قدرة هذه القيادات ، إلا أن دورها كان مهماً في المحافظة على استمرارية الحركة العربية. وشهدت هذه الفترة أيضاً إعادة القوة للعلاقة

بين مصر والعرب، حيث أخذ تيار العروبة فيها يتعاظم ويلتقي في أهدافه مع أهداف الحركة العربية في المشرق(٨).كما شهدت الفترة عينها صراعاً بين الدولتين الاستعماريتين على النفوذ في المنطقة، فأخذت بريطانيا تعمل على إضعاف نفوذ فرنسا في سوريا(٩) . كما بدأت القضية الفلسطينية تجمع العرب مرة أخرى. ولهذا اجتمع بالقدس عام ١٩٣١ عدد من أعضاء جمعية (العربية الفتاة) السابقين ، ورجال العهد الفيصلي في سوريا، وتوصلوا إلى بيان جاء فيه رفض التجزئة تماماً ، والتأكيد على ان الأقطار العربية وحدة تامة، ورفض كل الأطماع الصهيونية في فلسطين (١٠) .

وعلى صعيد الحركات والاحزاب السياسية ، فقد شهدت الفترة تشكيل أحزاب قطرية، أخذت تعمل على تدعيم بناء الدولة، وجعلت همها الأول الحصول على الاستقلال. وبرز هذا بشكل واضح خلال فترة العشرينيات. وفي فترة الثلاثينيات، ومطلع الاربعينيات تشكلت أحزاب ومنظمات سياسية ، جعلت من الوحدة هدفاً مركزياً في نضالاتها ، الى جانب نضالاتها الوطنية داخل الأقطار التي تشكلت فيها.

١- التجزئة وأثرها في العمل القومي الوحدوي :السياسة الاستعمارية في تجزئة الوطن العربي:

شكلت اتفاقية سايكس بيكو ، المعقودة بين بريطانية وفرنسا وروسيا القيصرية البداية الأولى لتفتيت المشرق العربي إلى كيانات ضعيفة. لكن تحقيق هذا المشروع الاستعماري اتخذ أبعاده العملية في مؤتمر سان ريمو، المعقود في الخامس والعشرين من نيسان (ابريل) عام ١٩٢٠.

وما من شك أن فكرة الانتداب، محاولة جديدة لترسيخ النفوذ الاستعماري ، دون اللجوء الى الاحتلال العسكري الفظ والمباشر، الذي يولد ردود فعل وطنية واسعة. وقد وصفه الاستاذ الفرنسي (ديبوي) المدير الثاني لمعهد العلوم السياسية في باريس ، بأنه «الأكثر نفاقاً في ما جاءت به سياسة الحرب العظمى، اذ ما هو إلا حماية مستترة»(١١).

وارتبط إصرار بريطانية على فرض الانتداب على كل من العراق وفلسطين بموقفها المعادي لقضية الوحدة العربية. لأن العراق وفلسطين يشكلان الجسر الرابط بين جناحي الوطن العربي، وساقيه، أي أن موقعهما هو موقع القلب في الوطن العربي. فالسيطرة عليهما تعني تعطيل أجزاء أخرى من قلب الوطن (سوريا ولبنان) ، وفصل الجناحين والساقين عن بعضهما، وإقامة حاجز كبير يحول دون تحقيق وحدة سوريا والعراق، ويقطع اتصالهما الجغرافي والمعنوي، ويؤمن ذلك قطع الجسور بين الجزيرة العربية في الجنوب ،وسوريا ولبنان في الشمال، ومصر وشمال إفريقيا في الغرب.

وجاء وقوع المنطقة تحت انتدابين مختلفين حداً فاصلاً بين مرحلتين من النضال ضد الحلفاء . فالمرحلة الأولى امتدت منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، وحتى سان ريمو. وقد اتسمت بالنضال السياسي من أجل الاستقلال العربي والوحدة. أمّا المرحلة الثانية ، والتي ابتدأت بعد سان ريمو ، فانقشعت فيها سحابة الوهم الخادع بنيات دول الحلفاء، ونبتت مكانها موجات من التحريض الحاد،ما لبثت أن تحولت إلى انتفاضات مسلحة ضد المحتلين . الا أن هذا النضال اتخذ مجرى آخر .فبعد أن كان هدفا الاستقلال والوحدة يجمعان العاملين في القضية العربية من مختلف أحزابهم وانتماءاتهم، في سبيل غاية واحدة شاملة، أصبح النضال ينصب على الاستقلال المحلي(١٢).

لكن هدف الوحدة بقي حياً في النفوس، وعبر عن هذا الثورات المسلحة التي عمت الأرض العربية ، منذ بدء الاحتلال (ثورة الامير عبد القادر الجزائري،ثورة عمر المختار في ليبيا، ثورة عرابي في مصر ، الثورة السورية الكبرى، ثورة العشرين في العراق، ثورة عبد الكريم الخطابي في المغرب...الخ). وقد حملت هذه الثورات جميعها، بنسب متفاوتة ، مشاريع سياسية توحيدية، تشابهت في نقاطها الجوهرية، وتمفصلت حول الرفض الكامل للمشاريع التي حملتها معها قوات الغزو الامبريالية الى الوطن العربي. وبالفعل فان أسس الكيانات الحديثة القائمة (سياسياً واقتصادياً واجتماعياً) لم ترس قواعدها إلا بعد تمكن الدول الاستعمارية من القضاء عسكرياً، على هذه الثورات(١٣).

وبدافع تكريس التجزئة ، وجعلها حقيقة قائمة، رضيت بريطانيا أن يصبح فيصل ملكاً على العراق في آب (اغسطس) عام ١٩٢١. وجاء هذا القرار منسجماً مع سياسة بريطانية الرامية الى جعل استقلال العراق محدوداً، وبشكل لا يؤثر على وجود بريطانية الاستعماري في المنطقة . كما انها كانت تسعى إلى إبعاد العراق عن سائر الوطن العربي، زاعمة ان احتلالها العراق يقبله العراقيون. وقد قال (أرنولد ولسن) في رسالة بعث بها الى مكتب الهند البريطاني، ادعى فيها: «أن عرب الرافدين لم يحتملوا تدخل « العرب الاجانب» بشؤونهم، حتى لو جاؤوا من سوريا أو الحجاز »(١٤).وطالب الحكومة البريطانية ان تجعل للعراق وضعاً سياسياً، لا علاقة له بالوطن العربي، وان يبقى شبه ولاية تحت السيطرة البريطانية (١٥) .

والتقت هذه السياسة مع الاهداف الفرنسية في تكريس التجزئة، اذ ان تتويج فيصل ملكاً على العراق، أثار استياء الفرنسيين، لانهم كانوا يعتقدون أن فيصل يتطلع للحصول على عرش سوريا. لذا أخذوا يعملون ، وبالتعاون مع حلفائهم الانكليز، على ترسيم الحدود بين سوريا والعراق، لتصبح بمرور الزمن حقيقة قائمة(١٦).

وكان لوقوع المنطقة تحت انتدابين مختلفين في العقلية والممارسة، أثره في تكريس التجزئة. اذ اتبع الفرنسيون في المنطقة التي سيطروا عليها سياسة تختلف عن السياسة البريطانية في المناطق التابعة لهم. فالانكليز عمليون استطاعوا أن يعينوا منافعهم بصورة واضحة،ويحددوا مطالبهم بحدود قاطعة، كما أنهم سعوا الى معالجة هذه المنافع والمطالب بصورة مجردة عن الهوى والعاطفة. إذ أن تجاربهم الاستعمارية السابقة في حكم الشعوب، علمتهم بوضوح وجلاء مضار التشدد والتصلب من جهة، وفوائد التساهل والتفاهم من جهة أخرى، فأكسبهم ذلك مرونة سياسية كبيرة في تنظيم علاقاتهم بالبلاد، التي تقع ضمن نطاق مصالحهم . غير أن الفرنسيين –عكس ذلك تماماً– قوم خياليون، واندفاعيون لا يستطيعون تحديد منافعهم ومطالبهم بحدود واضحة، ولا ان يجردوا سياستهم عن تأثير الهوى والعاطفة (١٧).

وكان من الطبيعي أن تعمد القوى الاستعمارية المنتدبة، على تعميق النزعات الاقليمية في الكيانات التي اصطنعتها، ومن ثم تغذية الشعور الاقليمي في كل قطر، ليصبح المواطنون فيه يدعون عراقيين وسوريين ولبنانيين وفلسطينيين،بعد أن كانوا قبل هذه التسوية ، يسمون العرب فقط.

لكن هذه التسوية السياسية التي فرضها الحلفاء ،لم تؤدِ إلى عرقلة مسيرة الوحدة العربية، فحسب، بل حطمت البنيان الاقتصادي الموحد الذي كان يتمتع به الوطن العربي، وأدخلت ثقافات غريبة ، كان اقحامها عاملاً في تشويه الوحدة الثقافية للعرب ايضاً(١٨).

والهدف من هذه السياسة الاقتصادية ، هو حصر الثروة العربية في حدود الكيانات التي أقامها الأجانب، ليسهل عليهم استغلالها أولاً، وليضعوا تلك الكيانات تحت رحمة اقتصادهم ثانياً، وليجعلوا العلاقات الاقتصادية بين الأقطار العربية في حدود العلاقات التي تقام بين الدول ذات القوميات المختلفة ثالثاً(١٩).

وللتجزئة السياسية، أثرها في منع اختيار الشعب في هذه الاقطار لشكل النظام السياسي الذي يرغبون ، ذلك ، أن قراراتهم بهذا الصدد كانت تعتمد على توجيهات الدولتين الاستعماريتين. وهذا ما جعل المؤسسات السياسية التي أقيمت في هذه البلدان ، لا تعبر عن رغبات الشعب، بل شجعت كل من بريطانية وفرنسا على إقامة مؤسسات تتفق وسياسة البلدين الاستعماريين، دون إعارة اهتمام إلى تطلعات وطموحات أبناء الشعب في هذه البلدان (٢٠). وهذا ما أدى أيضاً الى قيام مؤسسات تختلف الواحدة منها عن الأخرى، بحيث أصبح لكل منهما حكومته، وبرلمانه ، ووزارته الخاصة به، مما أدى بمرور الزمن إلى أن تصبح هذه المؤسسات جزءاً من التراث السياسي لكل قطر ، من العسير

تحطيمها، وبناء مؤسسات غايتها الوحدة (٢١). واختلاف سياسة الدولتين الاستعماريتين ، أدى إلى أن تطبق كل من الدولتين أساليبها في البلد الذي يقع تحت سيطرتها. فعلى سبيل المثال، اعتمدت بريطانيا على الاقطاعيين وكبار الملاكين وزعماء العشائر في تثبيت مصالحها الإستعمارية في العراق والأردن ، حيث عملت ضد وصول المثقفين الى المراكز العليا في مؤسسات الدولة، خاصة وأن هؤلاء يحملون أفكاراً تحررية تدفع باتجاه بناء منظمات سياسية واجتماعية من أولى أهدافها الاستقلال والوحدة العربية (٢٢) . أما الفرنسيون، فقد اعتمدوا في تثبيت حكمهم في سوريا ولبنان على الطائفية ، بادعائهم ان الطوائف الدينية في هذين البلدين تشكل شعوباً منفصلة عن بعضها(٢٣).

والتجزئة بنتائجها لا تعني فقط ضعفاً عربياً يهدد جميع آمال العرب المستقبلية، بل الإنسانية نفسها. لأنه يعني باستمرار وجود فراغ سياسي في أهم موقع جغرافي استراتيجي في العالم. وهو فراغ يغري الدول الكبرى جميعها بالتنافس على الوطن العربي(٢٤).

والمستعمرون كانوا يدركون جيداً، أن التجزئة تخلق أنماطاً فكرية وسياسية وإنتاجية ولغوية تعزز اللهجات المحلية على حساب اللغة العربية الفصحى، وبالتالي تتحول إلى بدائل للقومية العربية.وان الانتماءات الاقليمية ستحل محل الانتماء القومي.

يقول الاستاذ ساطع الحصري : ان كل دولة من الدول العربية أصبحت: «مركزاً بل بؤرة لوطنية خاصة بها،وأخذت تستقطب ولاء الأهلين لها. ولذلك تولد في كل واحدة منها نوازع المحافظة على الكيان السياسي القائم، وان لكل دولة من الدول القائمة معالم خاصة، مشهودة وملموسة، وسلطات فعلية تظهر وتثبت وجودها بشتى المناسبات . ولكل دولة علم خاص بها، وشرطة خاصة،بملابس وشارات خاصة، وجيش خاص، ونشيد رسمي خاص، وأوراق هوية وجوازات سفر، وأوراق نقدية ونقود خاصة». وهذه الوطنية الخاصة يراها كل فرد من أفرادها ويألفها ويرتبط بها نفسياً ، ويشعر من جرائها بأنه يختلف عن غيره من مواطني الاقطار العربية الاخرى» (٢٥).

وكان لاختلاف توجهات المستعمرين في الوطن العربي أثره الواضح في مجال التوجيه الدستوري والسياسي. ففي حين كان الحكام الانكليز يفضلون تعزيز سلطة الحكام نسبياً، باعترافهم بالحق النظري للبرلمان في السيطرة على الحكومات ، كما في حالة العراق، أبدى الفرنسيون نزوعاً شديداً الى القضاء على أية منافع قد تنجم عن هذه المؤسسات ، وذلك بلجوئهم المستديم الى شل الحياة البرلمانية وتعليقها، بحيث تعذر على هذه المؤسسات أن تتوسع وتنمو . وأصرت فرنسا على ضرورة تضمين دستور سوريا مواد تشترط موافقتها المسبقة على كل إجراء رسمي ، بينما آثرت بريطانيا اتباع

سياسة السيطرة غير المباشرة. لذلك فان المواد المتعلقة بالوصاية الأجنبية لم تكن ضرورية في الدستور العراقي. اما الدستور السوري، فقد تضمن تحديداً مفصلاً لسلطات ممثلي الانتداب الفرنسي مقابل سلطة رئيس الدولة (٢٦). كذلك كان الاختلاف واضحاً في تشكيل ومهام المجلس التأسيسي، أو البرلمان في هذه البلدان ، ولا يخلو الأمر من بعض التناقضات. فعلى سبيل المثال عند مقارنة المجلس التأسيسي السوري بالمجلس التأسيسي العراقي من ناحية صياغة الدستور، يلاحظ أن سوريا حازت قصب السبق بالنسبة إلى العراق ، خاصة وأن لجنة سورية نيابية هي التي وضعت هذا الدستور ، فجاء ممثلاً لارادة الشعب، في حين ان الدستور العراقي لعام ١٩٢٤ وضعته الحكومة العراقية ، وقدمته بعد ذلك الى المجلس التأسيسي (٢٧).

وهناك ايضاً اختلاف في مهمة المجلسين، فالمجلس العراقي كانت مهمته الأولى البت في المعاهدة البريطانية الأولى ، بينما بالنسبة لسورية فكانت مهمته سن الدستور ، قبل الاتفاق على صيغة المعاهدة.

وهناك فرق آخر أثر في كل محاولة للوحدة بين الأقطار العربية ، وهو شكل نظام الحكم، وبشكل خاص بالنسبة لسوريا والعراق. فقد أيّد الاحتلال البريطاني النظام الملكي، من خلال استفتاء شكلي، بينما اختار السوريون شكل النظام السياسي عن طريق مؤسسة سياسية منتخبة ، اختارت النظام الجمهوري، رغم قوة الداعين الى الملكية(٢٨).

وكان للصراع الحاد بين المستعمرين أثره في تكريس التجزئة ، وبالتالي انعكاس ذلك على العمل القومي . فقد كانت بريطانية تحاول دائماً العمل على إضعاف نفوذ فرنسا في سوريا ولبنان ، ومحاولة جعل سيطرتها الفعلية لا تتجاوز منطقة الساحل السوري. لان بريطانية كانت تدرك خطورة التطورات في أقطار المشرق العربي باتجاه الاستقلال والوحدة . كما كانت تدرك أهمية سورية من الناحية العسكرية والجغرافية ، وأن مركز البريطانيين سيظل مكشوفاً أمام سوريا، لان دمشق من الناحية الجغرافية تستطيع أن تقضي على مشروعاتهم في حيفا لكونها تقع في الطريق الأقرب الى بغداد والخليج العربي. ولدمشق خاصة اثر عظيم في حياة الوطن العربي، ولا يستطيع الوطن العربي ان يتغافل عن أية حركة فيها (٢٩).

وقد أدرك الكتاب الأوروبيون عمق العلاقات القومية بين الدول المشمولة بالانتداب الفرنسي والبريطاني، فتحدث الكاتب السويسري (مارتان) عن هذه العلاقات ، وأثرها في مصالح دولتي الانتداب حيث قال: « يجب ان نحسب حساباً للرباط الدقيق الذي يربط البلاد المشمولة بالانتدابين الانكليزي والفرنسي، وأن نسعى جهدنا لتجنب نتائج هذا الرباط الذي يدل على اتحاد متين لا يزعزعه شيء»(٣٠).

دور القيادات العربية في تكريس التجزئة:

جاء موقف القيادات العربية الرسمية، في تلك المرحلة، منسجماً مع توجهات المستعمرين في تكريس التجزئة. فبعد أن كان العرب يعملون من أجل تحرير بلادهم من الحكم العثماني قبل الحرب العالمية الأولى، ولا يعتدون كثيراً بالحدود الاقليمية، اختلف هذا الاتجاه بعد الحرب العالمية الاولى، وما اعقبها من تسويات. فقد كان لتقسيم البلاد الى وحدات سياسية مستقلة، أثره في جعل الفكرة السياسية القطرية تنمو وتتسع. وأصبح معظم قادة الأقطار العربية يفهمون من النضال العمل من أجل تنظيم العلاقة بالمستعمرين بمعاهدة تعترف بموجبها الدول الاستعمارية، باستقلال شكلي فحسب، مما أدى الى ضعف فكرة الوحدة، وبدأ القادة يتكلمون عن الأماني المحلية، وعن اختلاف العرب باختلاف الاقاليم (٣١)، انطلاقاً من مصالحهم الضيقة المتمثلة بما سيحصلون عليه من نفوذ في الدولة الجديدة، واصبح هذا النضال مركزاً لوحدة وطنية خاصة، معتمدة على الوطن الجغرافي الصغير، دون أن يدرك هؤلاء القادة ان الأوطان الصغيرة هي جزء من وطن أكبر هو الوطن العربي (٣٢). وسار هؤلاء الساسة في سياسة الانعزال والاعتماد على القوى الخارجية. وكان لإنقسام الأقطار العربية في موقفها من الدول الاستعمارية، أثره في ضعف الاتصال العربي العربي، وتعزيز نفوذ القوى الخارجية وسيطرتها على القرار المحلي، وإحكام ارتباطه سياسياً واقتصادياً بإرادة القوى الخارجية، الأمر الذي أدى الى غياب القرار العربي، واستفحال السيطرة الاجنبية.

ويقول الكاتب العربي الفلسطيني ناجي علوش: ان النخب الحاكمة، سواء التي أسهمت في النضال الوطني، او التي كانت جزءاً من السيطرة الاستعمارية، هي التي كرست التجزئة لاعتبارات مصلحية أو لقصور في الرؤية. ويذهب أبعد من ذلك بالقول: ان هذه النخب حتى لو ملكت رؤية قومية، لم تستطع ان «تبرهن على انتمائها القومي من خلال منجزات فعلية، بل صنعت شعارات جوفاء للتخدير أكثر منها للتحفيز والتوعية»(٣٣).

لقد أوجد واقع التجزئة، خصوصيات في كل قطر عربي، وتراكمت هذه الخصوصيات المرضية وانتشرت وتجذرت في أغلب الاقطار العربية، إلى درجة لم يعد من الممكن الحديث فيها عن الشواذ التي تخرق القاعدة. وبمرور الزمن تحولت التجزئة الى واقع سياسي تاريخي رتيب، يعيشه الناس بشكل عفوي، نتيجة تحول الآلية القطرية الى آلية إقليمية ذات جذور نفسية عقلية عميقة.

٢- تطور الفكر القومي العربي:

مقدمة:

لا نغالي اذا قلنا: إن القضية القومية كانت ولا تزال القضية المركزية في الفكر العربي ، وفي الحياة العربية. لقد ولدت هذه القضية منذ ما يزيد عن قرن من الزمان، وحتى اليوم ، فكراً ثراً نما وتكامل يوماً بعد يوم . وأخرجت حركات سياسية تترى ، كانت الشغل الشاغل لأبناء الامة العربية جيلاً بعد جيل . وهذه الحقيقة التاريخية تكاد تكفي وحدها للدلالة على الجذور الاصيلة والعميقة للفكر القومي، وعلى أصالته ، وعلى الصلة العضوية بينه وبين مستلزمات النهضة العربية ، منذ ان بزغ فجرها في القرن التاسع عشر . إن هذه الحقيقة التاريخية أعمق برهان وأصدقه على واقعية الفكرة القومية ، وعلى كونها مستمدة من وجود عربي متكامل المقومات، ومن روابط متينة حية وحارة، ماضية وحاضرة ومستقبلية ، تربط بين أبناء أمة عربية واحدة.

وهناك حقيقة ان العرب لم يضعوا ، يوم أحسوا بأنهم شعب يتميز عن سواه من شعوب الامبراطورية العثمانية ، أهدافهم القومية العربية في مجموعة متكاملة من المبادئ، لكن هذه الأهداف أخذت تتضح تدريجياً بعد انطلاق الحركة القومية العربية في القرن التاسع عشر.فكان أفقها يتسع بتطور الاوضاع الداخلية والعالمية. فحين كانت فكرة القومية العربية مرتبطة ، قبل الحرب العالمية الاولى، بفكرة الوحدة الاسلامية، لم تتجاوز إلا نادراً نطاق المطالبة باعادة الاعتبار الى العنصر العربي في امبراطورية متعددة القوميات . وحين دعا بعض المفكرين الى بعث الدولة العربية، كانوا على الأرجح يقصدون فصل الزعامة العربية عن الزعامة التركية. غير أن معظمهم كانوا راضين بالبقاء ضمن إطار الوحدة العثمانية ، شرط أن يعترف الحكام الاتراك بمركز العرب فيها (٣٤) ، إلا أن الظروف التي نشأت عن الحرب العالمية الأولى، أثرت تأثيراً كبيراً في مجرى القومية العربية، وقضت بإعادة النظر في أهدافها، إذ أظهر العرب استعدادهم للانتظار حتى نهاية الحرب، أملاً في الحصول على حقوقهم من الأتراك. لكن التأييد البريطاني للعرب في حركتهم ضد الأتراك ، رفع مكانة الزعماء القوميين الذين حولوا القومية العربية من حركة بطيئة سلمية الى حركة ثورية هدفها الاستقلال التام ،لا عن الحكم التركي وحسب، بل عن اي حكم اجنبي (٣٥).

الفكر القومي في العشرينيات:

أدى وقوع الوطن العربي تحت سيطرة دولتين استعماريتين إلى إيجاد البداية الأولى والمقدمة للتأثير على الفكر القومي الوحدوي. فلو أعطي للقومية العربية الفرصة أن تنمو سلمياً وتدريجياً،دون تدخل استعماري ، لاتخذ اتجاهها وطابعها شكلاً مختلفاً عما وصل إليه ، إذ أن انحلال الدولة العثمانية ، كان من الممكن ان يؤدي إلى اتجاه القومية العربية الى مجالات الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية، بدلاً من تركيز كل اهتمامات قادتها على الاستقلال. وأصبح الفكر القومي يعتد بالقومية العربية في كل قطر على انفراد، وإن هذا الاتجاه يأخذ بهدف الوحدة الى الانقسام الاقليمي الذي يقصد منه تحطيم الوحدة الطبيعية للكائن الاجتماعي العربي. الا أن التجزئة التي شجعت الانفصال ،وأوجدت موجة من التذبذب ،جعلت الفكرة القومية تتلبسها حالة من الفوضى ، بعد أن كانت في بدايتها محددة الهدف بدون انفصالية او نزعات اقليمية متضاربة (٣٦).

وإن فشل العرب في تحقيق حلمهم القومي ، وتأسيس الدولة المرجوة ، أخّر نشأة الوعي القومي الصحيح الذي تتحول فيه الامة من إمكانية الى واقع، وترتفع نفسيات المواطنين معه الى مستوى الشعارات، وتتطهر مكنونات صدورهم من رواسب الولاءات الضيقة، لتستقبل ولاءً قومياً أصيلاً .مما يعني أن فشل مبدأ الوحدة عام ١٩٢٠،لم يكن إضاعة لأحد المبادئ القومية الاساسية فحسب، بل كان أكثر من ذلك ، إضاعة لفرصة ذهبية لترسيخ المبادئ القومية ، ولصهرها في النفس العربية صهراً يقطع على أعدائها سبل زعزعتها، واضعافها ومقاومتها واخمادها، كلما وجدوا فيها خطراً على مصالحهم(٣٧).

كما أن الجهود السياسية التي بذلها بعض زعماء العرب لإعادة الثقة، واستمرار تيار الحركة العربية ،اتسمت بالعمل القطري، وانكفأت على مشاكلها الداخلية، ومثلت تراجعاً عن زخم الحركة العربية ، واتجاهها الشامل الذي ظهر قبل الحرب. وتمثل هذا التراجع باجتماع بعض رجال الحركة العربية في النادي العربي بدمشق في ٦و٧آذار (مارس) ١٩٢٠، واتخاذ مجموعة قرارات منها استقلال سوريا الطبيعية استقلالاً تاماً، وأن تراعى أماني اللبنانيين الوطنية في إدارة شؤون بلادهم، ضمن حدود لبنان المعروفة قبل الحرب. ثم المطالبة باستقلال العراق، على أن يكون بين القطرين الشقيقين اتحاد سياسي واقتصادي ، وشجب محاولات الصهيونية لإقامة وطن قومي في فلسطين .

وعبرت هذه القرارات في مجملها عن روح التراجع العربي، وخاصة عن قيام دولة عربية متحررة تشمل المشرق العربي كله.

وبسبب التجزئة الاستعمارية للوطن العربي، بقي مفهوم الوحدة في مرحلة ما بين الحربين العالميتين ، هو نفس مفهوم الوحدة بين ١٩٠٨-١٩٢٢ الذي يعتبر أن الوحدة مقتصرة على سكان سوريا الطبيعية والعراق وشبه الجزيرة العربية، وبنوع خاص سكان سوريا والعراق، الذين كانوا أرقى ثقافياً من سكان شبه الجزيرة العربية، وبالتالي أكثر استعداداً لتحقيق الوحدة بينهما. لذلك كانت قضية الوحدة تثار على ثلاثة مستويات ، أولها توحيد سوريا الجغرافية ، وثانيها اتحاد بينها وبين العراق، وثالثها انشاء ترابط مدن مع الدول العربية الاخرى(٣٨).

والفكر القومي الوحدوي إبان مرحلة ما بين الحربين، بل وحتى الآن، بقي عاجزاً عن الخروج من المشاغل المحلية والمشاكل والقضايا المباشرة التي واجهها، مما جعله فريسة لآنية الاحداث، وضغوطها، وتحول أساساً الى انفعالات وردود فعل انفعالية ، وذلك لانه عاجز عن الوقوف على مسافة ما من هذه الاحداث ورؤيتها من وجهة نظر الكل الوحدوي الذي يجب أن يضبطها.

وهناك حقيقة أن الفكر القومي العربي الوحدوي في هذه المرحلة ، لم يصل إلى درجة إدراك وإيجاد الحلول لمشكلة الأقليات القومية المتواجدة على الارض العربية . فالأقليات القومية كالاكراد والشركس والتركمان والاشوريين ...الخ الذين لم يشعروا بأنهم نالوا حقوقهم في الأقطار التي عاشوا فيها ، أخذ إحساسهم بخصوصياتهم يتنامى على مر السنين، ويشكل عائقاً لاي عمل عربي وحدوي، كذلك كان للأقليات الطائفية دورها كقاعدة أساسية لتجزئة الشرق العربي الى دويلات طائفية.

وقد تجسدت هذه النزعات الطائفية في شكل دويلات صغيرة أقامتها فرنسا في سوريا، عندما فرضت حمايتها عليها، ولئن كان الفشل حليفاً لهذه الدويلات جميعها، فان الدولة اللبنانية لا زالت الى يومنا هذا قائمة على اساس طائفي ، مما جعلها تستنكف عن الدخول في أية عملية وحدوية عربية خوفاً على توازناتها الداخلية الدقيقة من الاضطراب(٣٩). ومثّل انصار الاتجاه القطري أكثر الاتجاهات معارضة للوحدة .إذ رأوا قوة الاقطار العربية، لا في وحدتها ، وأنما باحتفاظ كل منها بهويته وإتجاهه الخاص، وبعدم اتحادها . ففي انعزاليتها قوة داخلية ، وقوة خارجية . وادّعوا أن الاقطار الصغيرة تضمن مصالح الشعوب ، وتساعد على تنمية إمكاناتها أكثر من الدول الكبيرة . وان الاتحاد يكون قوة داخل كل قطر من الأقطار العربية على حدة. ولكنه لا يكون قوة ، اذا ما خرج خارج حدود هذا القطر ، ويشمل اثنين أو أكثر منها . والاتحاد او الوحدة تضر، بالاقطار العربية . لانها تؤدي الى توسيع نطاق الاقطاعيات الذي يخلق المناخ المناسب لدخول الشيوعية الى المنطقة كرد فعل مضاد، كما ان الاتحاد يتيح الفرص الملائمة لمصالح الاستعمار(٤٠).

وهذا ما أوجد تيارين في الفكر القومي العربي الوحدوي، الأول قطري بمعنى أنه يقبل التجزئة كحقيقة، ولا يجادل في وجودها، أو يشكك في شرعيتها، وبالتالي كان فكراً مجزأ بالاساس، كما كان لهذا الاتجاه، رافدان، الأول انطلق في قطريته من رؤية ليبرالية لم تقطع مع الفكر الديني فقط، بل قطعت أيضاً مع التراث القومي، وبالتالي الأمة العربية، لتؤسس تاريخاً خاصاً لعدد من الأقطار، وخصوصاً في مصر وبلاد الشام والعراق (الأول على أساس فرعوني، والثاني على أساس فينيقي، والثالث على أساس بابلي آشوري) ومحاولاً فصل هذه الأقطار عن الأمة العربية، وربطها تاريخياً بحضارات زالت. أما التيار الثاني، فقد جاء استمراراً للنضال الوطني الذي خيض ضد الاستعمار، من أجل استقلال الأقطار العربية، حيث اعتبرت غير معادية للمسألة القومية، او متناقضة معها، بل كانت (قومية المشاعر) أحياناً، لكن دون دور عملي في هذا السياق(٤١).

ومن السمات الأساسية التي اتسم بها الفكر القومي الوحدوي هو التخلف. اذ إن ممارسته لذاته في إطارات غيبية مثالية، وانحرافه عن المنهج العلمي، وان توفرت وضعية وحدوية لا تكون كافية أبداً، ان لم تقترن بالوعي الوحدوي العلمي المنظم الذي به نستطيع الانتقال من التجزئة الى الوحدة. وغياب هذا الوعي، وخصوصاً عندما لا يتمثل في نظرية وحدوية علمية جامعة لتجارب التاريخ الوحدوية،أدى إلى قيادة العمل الوحدوي الى طريق مسدود جعل العمل الوحدوي يدور على ذاته في حلقات مفرغة. لهذا عجز هذا الوعي عن تطويع الأحداث في خدمة الوحدة، ولم يعرف كيف يفيد من الوضعية الوحدوية التي توفرت له (٤٢).

ولم يكن هناك التزام وحدوي عند الوحدويين أنفسهم ،يؤثر في أعماق نفوسهم، فيسود جميع مشاعرهم وأفكارهم، بحيث يصل هؤلاء الوحدويون لا إلى الاعتراف بضرورة تحقيق الوحدة،بل يحولون فكرة الوحدة الى واقعة حياتية يحيونها يومياً، ويبلورون فيها أبعاد حياتهم كلها، ويبتعدون عن التكيف مع واقع التجزئة، والذي حدث هو العكس، حيث سار الوحدويون والتزموا بالتجزئة، واعتبروها حقيقة قائمة من الصعب تجاوزها، رغم طرحهم شعار الوحدة وضرورتها القومية.

وقد ظهرت أنواع من الانتقادات للفكر القومي، تمثلت في القول :إن الفكرة القومية فكرة خيالية، يصعب تحقيقها. وعليه،من المفيد الابتعاد عن التمسك بعقيدة القومية، والاهتمام بالأوضاع المحلية لكل قطر عربي فقط. وممن كتب في هذا المجال الكاتب المصري المعروف طه حسين، ففي حديث له لمجلة المكشوف البيروتية عام ١٩٣٨،وكان يوجه حديثه الى عدد من الشباب اللبناني والسوري، قال :« ان كان لي نصيحة أسديها إليكم يا إخواني، فهي ان تتمسكوا بالواقع العملي، وتهملوا سواه، مهما

كانت قوته العاطفية والخيالية، افهموا أنّ المنفعة تسير الشعوب، فان لم تفهموا هذا اليوم فسترغمون على فهمه غداً..)(٤٣).

ورغم أن الحصري قد اعترف بان الفكرة القومية فكرة خيالية ، إلا أنه فهم الخيال على عكس منطق الدكتور طه حسين، فأكد على أن الخيال في ذاته أمر ضروري، لأنه مقدمة الواقع، وكل واقع كان في بدايته خيالاً ، حيث كان واضحاً في رده على المنتقدين للفكرة القومية بقوله: « إن كثيراً من الأمور التي كانت تعتبر من الخيالات في الماضي، أصبحت من الأمور الواقعية في الحالة الحاضرة. ولا شك أن كثيراً من خيالات اليوم ستصبح بدورها من الحقائق الراهنة في الغد القريب أو البعيد...» واعتبر أن فكرة العروبة والوحدة العربية هي من أحسن الأمثلة على هذا النوع من الخيال (٤٤).

ورغم كل المعوقات التي خلقها واقع التجزئة،كانت محاولة إبقاء فكرة الوحدة حية،هي إحدى سمات العمل القومي في الفترة بين الحربين، شغلت الزعماء وقادة الفكر. وتجلت هذه المحاولة في تبادل المساعدة والعطف بين الأقطار العربية في صراعها مع قوى الاحتلال. وأصبح الحدث السياسي في أي قطر يثير الجماهير في القطر الآخر بشكل عفوي، وبدون تفكير في الحدود والكيانات القطرية ، لأن هذه الجماهير تدرك أنها جماهير واحدة، رغم اختلاف الأنظمة وقيام الحدود (٤٥).

الفكر القومي في الثلاثينيات:

اتسمت الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى ،وحتى مطلع الثلاثينيات بندرة الكتابات حول الفكر القومي العربي، لكن في مطلع الثلاثينيات حدثت بعض التغيرات النوعية بالنسبة للفكر القومي. فقد ظهرت كتابات تدعو الى تعميق وبلورة الوعي القومي باتجاه التركيز على قضية تحقيق الاستقلال والوحدة (٤٦). كما شهدت هذه الفترة اهتماماً متزايداً لدى قادة الفكر، لتحديد أسس إيديولوجية للفكرة القومية، ودراسة ميزاتها، وبيان مقوماتها ، وتحديد اتجاهاتها وأهدافها، ووضع رؤية واضحة للمستقبل(٤٧).

ومن العراقيين الذين اهتموا بالكتابات القومية حسين جميل الذي كان قد طرِد من كلية الحقوق العراقية ، لاشتراكه في المظاهرة التي نددت بزيارة (الفرد موند) رجل المال البريطاني الداعم للحركة الصهيونية لبغداد، في ٨شباط (فبراير) ١٩٢٨. وغادر أثر طرده الى دمشق، والتحق بالصف الاول من كلية الحقوق، رغم مضي عدة أشهر على بدء العام الدراسي ، نظراً لتعاطف العميد والاساتذة السوريين معه (٤٨).وكتب حسين جميل في صحيفة الشعب الدمشقية، مدة وجوده في دمشق. وبعد عودته الى العراق عام

١٩٣٠،جاءت كتاباته متأثرة بالجو المشحون بالوطنية والقومية في ظل صعود الحركة الوطنية السورية المعادية للاستعمار الفرنسي ، وكذلك لعلاقته مع الطلاب العرب الموجودين في دمشق، وأكثرهم من ذوي الاتجاهات القومية. واعترف حسين جميل بتأثير سوريا عليه بقوله:« ان هذا – ويقصد كل الاجواء التي احاطت به في دمشق – أضاف بعداً قومياً عربياً إلى آرائي ومواقفي في القضايا العامة»(٤٩).

وتبين ذلك في البحث الذي طبعه بكراس جاء على غلافه دعوته: « الى الشباب العربي الحر الذي تغمره في سواد الخطوب جمرة التضحية والتفاني لاسترداد حرية مغتصبة واستقلال) . وتناول في كراسه هذا الوضع في الشرق العربي، وسياسة بريطانية المعادية للوحدة العربية. وقد احتلت القضايا القومية المكان الأول في كتاباته(٥٠).

وبعد أن حقق العراق استقلاله بدخوله عصبة الأمم عام ١٩٣٢،ازدادت دعوة المثقفين العراقيين إلى بعث قومي عربي، ورأوا أن ركون السياسة العراقية إلى الاقليمية الضيقة ، وشعورها بالاطمئنان الى الكيان القائم وهم من الاوهام ، وأن العراق ليس إلا جزءاً من كل، ألا وهو الأمة العربية ، وأن سياسته يجب أن تصب في هذا المنحى. واعتبروا أن رجال السياسة القدامى الذين أقاموا مجدهم على فكرة الوحدة، لم يعودوا يمثلون هذا الجيل، وغير قادرين على تحقيق هذا الهدف، بسبب مواقفهم المساومة ، وعدم استعدادهم للتضحية بمصالحهم الذاتية. لذا دعوا إلى عدم الانقياد لهم ، لانهم عاجزون عن تحقيق الاستقلال الكامل ،وبناء الوحدة العربية (٥١).

ودعا الدكتور عبد الرحمن الشهبندر إلى نبذ كل ما هو متخلف في الحياة العربية عندما قال: « النفخ في أبواق المحافظة في مثل هذه الحال ليس إلا تشجيعاً على إطفاء جذوة الحياة وروح التقدم ،والقضاء المبرم على فكرة الإصلاح »(٥٢).

وأسهم عدد من المفكرين العرب في تعميق الوعي القومي. وكان ساطع الحصري في مقدمتهم في هذه المرحلة. فقد وضع نظرية منهجية ومنسجمة في القومية العربية بأسلوب أكثر وضوحاً واتساقاً من أسلوب أي كاتب آخر. ودرس القضايا القومية في إطار ظواهر إنسانية أكثر شمولاً، واعتبر أكثر الكتاب القوميين حسماً في تحديد مفهوم القومية ومقومات الامة العربية (٥٣). وبقي يرفض الاعتراف بالحدود والكيانات التي اعتبرها وليدة الانقسام والمساومة، وركز على ضرورة توحيد الثقافة العربية في الوطن العربي باعتبارها هي الطريق إلى وحدة العرب(٥٤). وقد اعتبر الاستقلال الهدف العاجل للقومية العربية، على أن يعقب هذا الاستقلال قيام الوحدة العربية، التي أصبح يرى أنها أهم من أي شكل من أشكال أنظمة الحكم ، واعتبر ان نظام الحكم سيكون من مسؤولية الجيل اللاحق(٥٥).

وشهدت الفترة عينها أولى ثمار حركة الإحياء والتحديث العربي، حيث شهد الوطن العربي تطوراً ملحوظاً في مختلف مجالات الثقافة والعلوم . وجاء ذلك بتأثير عدة عوامل،أهمها قيام حكومات عربية، وتمتعها ببعض الاستقرار ، وسيطرتها التدريجية على الحياة الاجتماعية، ولجوؤها الى نشر التعليم وإحياء الثقافة العربية ، والتمهيد لتعريف فئات من السكان بالتطور الاقتصادي والثقافي في بلدان أوروبا، بما في ذلك استعارة أساليب تربوية وتعليمية ، وتطور حركة الترجمة ،وزيادة عدد البعثات الدراسية الى الخارج(٥٦).

وازداد اندفاع العرب في المشرق العربي نحو الوحدة ، واعتبروها هي الطريق الى الاستقلال. ففي سوريا رأى الساسة فيها عقم السياسة الاقليمية ، ودورها في تعطيل عملية الاستقلال الوطني ، حيث أعلنوا بتاريخ ٩/ ١/ ١٩٣٦ عُدولَهم عن السياسة الاقليمية، ودعوتهم الى العمل من أجل الوحدة ، التي اعتبروها الطريق إلى تحرير سوريا من الفرنسيين (٥٧). أما العراق فقد عاد إلى ممارسة دوره القومي بعد توقف استمر منذ وفاة فيصل حتى ١٩٣٦، إذ أصبح للقوميين دور كبير في توجيه سياسة العراق ، وخاصة ضباط الجيش الذين شكلوا كتلة أخذت تعمل على تحقيق الفكرة القومية الرامية إلى تحرير العراق والأقطار العربية الأخرى من النفوذ الاستعماري، وبناء الوحدة بين هذه الأقطار (٥٨).

وشهدت هذه المرحلة تطوراً ايجابياً في تفكير قادة الجيش العراقي، والتي تمثلت بضرورة العمل على تحرير سوريا و فلسطين عن طريق القوة العسكرية التي ارتؤوا أن أسلوب تحقيقها يتم ، إما عن طريق دخول الجيش العراقي الى هذه الأقطار، أو باعلان الثورة فيها بمساعدة جيش العراق ودعمه (٥٩).

هذه التطورات في المواقف ترافقت مع الدعوات الصريحة لتحقيق الوحدة. ففي رسالة موجهة من القاهرة ،بتاريخ ٣٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٦ ارسلها الدكتور عبد الرحمن الشهبندر إلى الدكتور أحمد قدري الموجود في بغداد ، طالبه فيها حث العراقيين على العمل من أجل الوحدة، اوعلى الأقل وحدة سوريا الطبيعية والعراق(٦٠)، ودعا الدكتور الشهبندر في العام نفسه إلى تأليف اتحاد عربي أوجامعة عربية ، لأنه كان يرى أن: «تأليف دولة عربية مركزية ديمقراطية أمر بعيد التحقق» في هذه الفترة (٦١).وهاجم السياسة الاقليمية ، ودعا إلى تنظيم (الشعوب) العربية، وتقريبها مع بعضها، ورفض الجامعة الشرقية باعتبارها كلمة لا معنى لها من الوجهة الجنسية او الاجتماعية أو الاقتصادية. وأما الجامعة الاسلامية ، فاعتبرها رابطة روحية يقصد بها تطهير الاخلاق، وأكد أن العمل يجب أن ينصب باتجاه الجامعة العربية، فهي «الغرض الاسمى الذي ذهب من أجله شهداؤنا أوائل الحرب العالمية» (٦٢).وركز على الثقافة العربية، وربط بينها وبين أي عمل

وحدوي ، فقال: ان «قدرة الثقافة العربية بأوسع معانيها أن تضم تحت جناحيها جميع العناصر التي اكتسبت التماثل والتجانس بفعلها ، وأما ما لا تتسع له معدتها فيكون خارجاً عن حوزتها»(٦٣). أما فارس الخوري رئيس المجلس النيابي السوري، فقد أكد عام١٩٢٧ في تصريح له عن أهمية الوحدة العربية، وخاصة وحدة سوريا والعراق، واعتبر الحدود القائمة حالة عارضة فرضها الاستعمار،وأضاف أن سوريا ليست تلك المنطقة التي تدعى بهذا الاسم في هذه الايام، وانما تشمل جميع البقاع التي كانت تعتبر في وقت من الاوقات أجزاء من سوريا ، وهي لبنان وفلسطين والعراق، وحدودها الطبيعية، يجب أن تكون تركيا والحجاز ومصر والمتوسط وايران(٦٤).

ومن أجل نشر الوعي القومي ،قامت مجموعة من القوميين السوريين بتأسيس النادي العربي في دمشق. ليكون نادياً اجتماعياً عربياً، وحدد منير الريس أمين سر النادي أهدافه في حفل افتتاحه عام ١٩٣٦ بقوله: «إننا نعمل لتقوية الروح العربية في الشباب،وسنسعى لدى الحكومات العربية المستقلة لتوحيد برامج التعليم في جميع المدارس والمعاهد».

وجعلت إدارة النادي الأبواب مفتوحة لانتساب جميع العرب المؤمنين بوحدة الامة العربية، لتوثيق العلاقات بين الشباب العربي. كما جعل من أهدافه توثيق العلاقات بين العرب في المشرق والمغرب(٦٥).

وفي العراق قامت جماعة من الشباب بتأسيس نادي (المثنى بن حارثة الشيباني) الذي جعل من أهدافه: « بعث الروح القومية بين أبناء الشعب، وإيقاظ شعور المواطنة العربية العامة في نفوسهم . والعمل على إحياء التراث القومي ، ونشر الثقافة بين أفراد المجتمع»(٦٦).

وكان لنادي المثنى دوره في زيادة الترابط بين الشباب العربي ، من خلال إعداد البرامج لزيارة الوفود العربية للعراق، وانتهاز هذه الفرص لبث الدعوة الى الوحدة العربية، ونبذ التجزئة. وقد زار العراق في هذه الفترة العديد من الشباب السوريين والفلسطينيين (٦٧).

كان لقضية فلسطين دور هام في بلورة المشاعر القومية في الوطن العربي بشكل عام، وفي المشرق العربي بشكل خاص. وذلك استمراراً لما شغلته القضية الفلسطينية من أهمية منذ البداية في أذهان أبناء الامة العربية ، نظراً للمكانة التي تحتلها فلسطين في قلب الوطن العربي، وتراثها التاريخي.ولأن الأطماع الصهيونية جاءت تحدياً مباشراً للفكرة القومية العربية (٦٨).

ازدياد الاهتمام المصري بالقضايا القومية :

تمتعت مصر بكل الصفات والمزايا التي تحتم عليها أن تقوم بواجب القيادة في إنهاض القومية العربية. لانها تقع في المركز من الوطن العربي ، بين القسمين الافريقي والاسيوي منه، كما أن فيها أكبر كتلة من الكتل البشرية التي انقسم اليها الوطن العربي، بحكم التطورات السياسية التي فرضت على الأمة العربية. وهذه الكتلة قد أخذت حظاً أوفر من غيرها من الحضارة العالمية الحديثة، وأصبحت أهم مركز من مراكز الثقافة في الوطن العربي. كما أنها أقدمها في تشكيلات الدولة العصرية.

وهذه المزايا تجعل من مصر الزعيمة الطبيعية للأمة العربية. وهو ما أراده لها القوميون العرب في جميع الأقطار العربية، من أجل قيادة العمل العربي، وتحقيق الانتصارات القومية. غير أن أماني العرب لم تتحقق في فترة العشرينيات ،لأن مصر بقيت مُعرضة عن الفكرة القومية. إلا أن هذا الاعراض له ما يبرره، كما يقول الحصري، إذ أن المعنى الذي أحاط بكلمة (عرب) بين الناس لا سيما في مصر، كان له اثره في ابتعاد مصر عن الفكرة القومية. لأن الناس اتخذوا هذه الكلمة للدلالة على البدوي غير المتحضر ، فأخذوا يعتبرونها مقترنة بالتخلف . وهناك عامل آخر أسهم في ابتعاد مصر عن الفكرة القومية، وهو تعظيم المصريين لمقام الخلافة في الاستانة وارتباطهم بها، وزعمهم بأنهم سينالون الخلاص والاستقلال على يدها*. إلا أن انتشار الثقافة ، وتعميم دراسة التاريخ، هذا بالاضافة الى تنكر الاتراك للخلافة، جعل العرب المصريين يعودون الى أمتهم للبحث عن روابط أقوى من التي كانوا اعتمدوا عليها(٦٩).

لكن الاتجاه القومي العربي في مصر نما نمواً بطيئاً جداً في ظل التيار الاصلاحي الاسلامي الذي كانت تمثله مجلة المنار، حتى عام ١٩٣٥ ، لصاحبها محمد رشيد رضا، والجامعة الاسلامية لـ(علي عبد الرحمن الخميس الصادرة عام ١٩٢٥) وغيرها من المجلات التي تنحو في هذا الاتجاه. إلا أن أحداث الوطن العربي، ومقارعة الشعب للاستعمار غذت هذا الاتجاه ، وأعطته دفعة قوية باتجاه الإسراع بالعودة الى وضع مصر الطبيعي كقوة أساسية في بناء حركة القومية العربية (٧٠) . ومن العوامل المهمة في عودة مصر عقدها معاهدة عام ١٩٣٦ مع بريطانيا،والتي أعطتها حرية نسبية في اتباع سياسة خارجية أكثر استقلالاً(٧١).

(*) نعتقد ان هناك اسباباً اخرى، ومنها وجود نخب سياسة ودينية وعسكرية غير عربية في مصر، كانت تستهدف عزل مصر عن الوطن العربي للمحافظة على مصالحها، «المحرر».

ولقد كانت فلسطين هي العامل الحاسم الذي حّول المصريين نحو سياسة عربية شاملة. فقد تولى محمد علي علوبة الدفاع عن حقوق عرب فلسطين في حائط البراق الشريف، أمام لجنة التحقيق الدولية عام ١٩٣٠. وقد ادرك علوبة مبكراً انتماء مصر إلى الأمة العربية ، وهاجم الدعوة الفرعونية بقوله: «إن الفرعونية ليست جنساً من أجناس البشر، ولكنها عصر من عصور الحكم..»، وأضاف «ما مصر إلاعربية ، ولا تقوم إلا على أنها عربية ، ولا يرضى المصريون بغير العربية» (٧٢).

لقد كان الأساس مهيأ تماماً لدخول مصر عضواً في أسرة الدول العربية، وقد تبنت مصر القومية العربية سياسة رسمية عام ١٩٤٠ ، وبدأت تأخذ دورها المتقدم في مسيرة العمل العربي المشترك. وتجلى ذلك عملياً بزيارات عدد من المفكرين والوفود الاقتصادية المصرية، لكل من سوريا وفلسطين والعراق، بهدف تدعيم العلاقات الثقافية والاقتصادية.

ورغم أن الصراع المصري العراقي على زعامة المنطقة قديم جداً ، إلا أن هذا الصراع ضعف في فترة الحكم العثماني، ولكنه عاد وتجدد، و بشكل أكثر اتساعاً وشمولاً بعد عودة مصر لأمتها ، لدرجة ان الصراع بين الدولتين أصبح سمة من سمات العمل القومي في الثلاثينيات وما بعدها. وتجسد هذا الصراع بشكل رئيسي بالسعي للتقارب مع سوريا ، لأن المسؤولين المصريين والعراقيين يدركون ان من يكون له الدور الأول في سوريا، أو يتمتع بعلاقات وثيقة معها ،يمكن له ان يعزل الآخر، ويكون بذلك قد ضمن القوة والغلبة في الوطن العربي.

٣- دور قضية فلسطين في تطور الوعي القومي:

لم تشغل الوطن العربي أية قضية منذ مطلع هذا القرن ، كما شغلته القضية الفلسطينية،نظراً لخصوصيتها. فقد اعتبرت عن حق القضية المركزية. ومع أن معظم الأقطار العربية كانت خاضعة للاستعمار الاوروبي، وتخوض معركة استقلالها ، انشغل الشعب العربي في الدفاع عن عروبة فلسطين أمام الهجرة الصهيونية . فقد ربط الشعب العربي بين ما يحدث في فلسطين، وما يحدث في كل قطر من أقطارهم،على أساس ان العدو المشترك واحد، وإن ظهر في عدة وجوه.

واحتلت القضية الفلسطينية أهمية كبيرة في الفكر الوحدوي العربي منذ بداية النهضة القومية العربية ، واعتبرت قضية النضال من أجل تحرير فلسطين من الاستعمار والصهيونية بمثابة الهدف المركزي في قضايا التحرر عند الوحدويين العرب، الذين

ربطوا بين الهجمة الامبريالية على الوطن العربي، والوجود الصهيوني في فلسطين، واعتبروا الحركة الصهيونية العدو الرئيسي للامة العربية. ومثلت اشكالية الوحدة العربية محوراً أساسياً في الفكر السياسي الفلسطيني، وفي النضال الذي خاضه الفلسطينيون. فقد حكم خصوصية مفهوم الوحدة في الفكر الفلسطيني، وما يتبعه من ممارسة عملية، عدة اعتبارات مثلت القاسم المشترك لمختلف التيارات الفلسطينية في تعاملها مع مسألة الوحدة العربية، بغض النظر عن توجهاتها الفكرية، والأولوية التي تعطيها للوحدة العربية، ضمن اهتماماتها وايديولوجيتها العامة. هذه الاعتبارات لها صفة الثبات، وتشكل حقائق تفرض نفسها على اي حزب او منظمة تتعامل مع المسألة الفلسطينية. ويمكن إيجاز هذه الاعتبارات بكون فلسطين جزءاً من الامة العربية، واقتران الحركة الصهيونية وأطماعها في فلسطين بالأطماع الاستعمارية في الارض العربية، وأن وحدة الخطر عززت لدى الفلسطينيين الانتماء القومي، من خلال المصير المشترك، و الهدف المشترك. وتفهم الفلسطينيون أنهم أعجز من أن يستطيعوا مواجهة هذه الأخطار منفردين، فلجأوا للبحث عن المعادل الموضوعي القادر والكفيل بالتصدي للخصم، وتعديل ميزان القوى معه، وهذا لا يتحقق إلا بالوحدة العربية (٧٣).

وإذا كان الشعور بالوحدة العربية موجوداً لدى الشعب العربي في كل أقطاره تفاوتت الحاجة للأخذ بها، وتراوحت أهميتها بين قطر وآخر بمدى الشعور بالحاجة اليها، وبمدى مصلحة الحكم فيها. ولذلك فانها بالنسبة للفلسطينيين مثلت الطريق الوحيد، للقضاء على الأطماع الصهيونية. ولا نكران في أن فلسطين وما أحيط بها من ظروف قاسية كانت أشبه بالبوتقة ولا التي صهرت الفئات المختلفة، فأخرجتهم عرباً ينطقون بلسان واحد، ويتميزون بعاطفة واحدة. ونستطيع القول ان لفلسطين، وما سببته محنتها من تلاقي عواطف العرب الفضل الأكبر في نمو الروح القومية (٧٤).

والعرب جميعهم، وإن بدرجات متفاوتة، أدركوا خطورة الحركة الصهيونية على الحركة القومية العربية. فهذا الخطر، وان شكل حافزاً للتحدي، وازدياد تبلور الشعور القومي، فانه شكّل في الوقت عينه حاجزاً يحول دون تحقيق الوحدة العربية، لخطر تحققها على الصهيونية وأطماعها التي تشكل تحدياً مباشراً للفكرة العربية، وقاعدة أساسية لترسيخ التجزئة في الوطن العربي.

وعَبر عرب فلسطين عن نضالهم ضد إنشاء الوطن القومي اليهودي، لا كمجرد نضال محلي، وإنما هو موقف عام ضد الصهيونية التي تهدد الوطن العربي كله. وعندما شعروا أنهم مستهدفون وحدهم بدأ الفلسطينيون بالتحذير من الحظر المحدق بهم، لا من أجل المحافظة على عروبة فلسطين فقط، بل من أجل تحذير الأمة العربية، من خطورة المؤامرة التي ستجزئ أقطارهم وتعزل فلسطين عنهم (٧٥).

والعرب أدركوا ، وإن بدرجات متفاوتة ، ان الخطر الصهيوني الذي استهدف فلسطين بالاساس ، كان يعمل ضمن مخطط عدواني أشمل ، تمثل فلسطين بالنسبة إليه مركز الانطلاق. ويؤكد خطورة الحركة الصهيونية ادعاءاتها ، بأن ارضها الموعودة هي « اسرائيل الكبرى من الفرات الى النيل»(٧٦).

ولا بد من القول إن القلق العربي من الخطر الصهيوني ليس في درجة متساوية لدى العرب عموماً، وإنما هناك تفاوت الى حد كبير. وهذا التفاوت هو الذي جعل خطوات العرب غير موحدة في التصدي للأطماع الصهيونية. فالأقطار المتاخمة لفلسطين،والملاصقة لها جغرافياً، هي التي بدا عليها القلق والخوف أكثر من سواها، كسوريا و مصر ولبنان والاردن، عكس الأقطار البعيدة عن فلسطين ، التي كان إحساسها بالخطر أقل. وما دام الشعور بالخطر متفاوتاً ، فإن رد الفعل أيضاً جاء متفاوتاً ، والسبب الرئيسي في هذا التفاوت يعود الى التجزئة (٧٧).

وكان دور فلسطين في القضية العربية كبيراً. فكلما تفاقم الخطر الصهيوني والاستعماري على فلسطين ،زاد ذلك في غضب العرب خارج فلسطين ، وحفزهم إلى العمل السريع ضد العدو المشترك ، وأصبحت الثورات الفلسطينية أمثولة يتناقل العرب خارج فلسطين خبرها ، ويجعلون منها نموذجاً للعمل الذي يجب ان يتخذوه ضد الاستعمار. هذا بالاضافة الى انتقال العديد من الفلسطينيين إلى خارج فلسطين ، حيث أداروا دفة العمل الوطني في بعض العواصم العربية (في بغداد بالدرجة الاولى، وفي دمشق وبيروت والقاهرة الى درجة أقل)،ويمكننا القول، إن الثورات والحركات في الأقطار العربية كانت انعكاساً مباشراً ونتيجة ضرورية لأحداث فلسطين (٧٨).

وتحدث أحمد الشقيري عن دور فلسطين في توحيد العرب فقال:«لم تكن الوحدة عاطفة عابرة ، ولكنها كانت تتجسد في وحدة النضال ، وكانت فلسطين هي الساحة التي تتجسد فيها هذه الوحدة. فيوم كنا نسير في مظاهرة وطنية نجد التجاوب في المشرق العربي، فتسير المظاهرات في عمان ودمشق وبغداد وبيروت. وحين كنا ندعو الى إضراب كان يضرب معنا العراق ولبنان وسوريا وشرق الاردن...»(٧٩).

وجسد الشعب العربي موقفه عملياً بالنضال سياسياً وعسكرياً من أجل نصرة شعب فلسطين . ففي مطلع عام ١٩٢٨، تناقلت وكالات الأنباء نبأ زيارة(الفرد موند) رجل المال البريطاني المؤيد للحركة الصهيونية الى المنطقة،وعند زيارته لدمشق حاصرته الجماهير في مكان إقامته. وعند وصول أخبار هذا الموقف القومي الى العراق، تهيأ الوطنيون للوقوف بوجه زيارته. وفي ٨ شباط (فبراير) ١٩٢٨ خرجت مظاهرة كبرى في بغداد تستنكر الزيارة، وتدعو الى الوحدة العربية(٨٠).

وكان لاعتداء الصهاينة على حائط البراق عام ١٩٢٩ ردود فعل وطنية فلسطينية تمثلت باندلاع المظاهرات والاحتجاجات ، كما ولّدت ردود فعل عربية خارج فلسطين ، حيث قامت مظاهرات الاحتجاج في سوريا والعراق والاردن ، ونظمت حملة لجمع التبرعات لضحايا العدوان الصهيوني (٨١).

أدت التحركات الوطنية الفلسطينية هذه الى إثارة القضية الفلسطينية على أنها قضية عامة على الصعيد العربي. فقد اتفق بعض قادة العمل القومي من سوريا الطبيعية والعراق ومصر والحجاز ومراكش وطرابلس الغرب المجتمعين في القدس ، خلال المؤتمر الاسلامي ، على عقد لقاء عربي لمناقشة الاوضاع العربية. وتم عقد اللقاء في الثالث عشر كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٣١ في منزل عوني عبد الهادي في مدينة القدس، بحضور نحو خمسين شخصاً،تدارسوا فيه الوضع العربي الذي نجم عن سياسة المستعمرين التي فرضت التجزئة على الجزء الآسيوي من الوطن العربي . وبعد المداولات تم الاتفاق على وضع ميثاق قومي يسير عليه العرب، تضمّن رفض التجزئة والتمسك بالوحدة، والدعوةإلى استقلال الأقطار العربية، ومحاربة الأفكار الاقليمية، ورفض كل أشكال الاستعمار (٨٢) . وقرر المجتمعون ضرورة عقد مؤتمر عربي عام للبحث في الطرق والوسائل المؤدية الى نشر الميثاق، وتحقيق ما جاء فيه. كما اتفقوا على تشكيل لجنة تنفيذية مهمتها الاتصال بالأقطار العربية من أجل دعوتها لحضور المؤتمر (٨٣).

وبعد عدة اتصالات بين قادة العمل القومي ، تشكلت لجنة في القاهرة، أوفدت أسعد داغر الى العراق للقاء المسؤولين فيه، ونتج عن لقاءاته وضع اقتراح فحواه ان يمثل كل قطر من الأقطار العربية ، التي يرغب ابناؤها حضور المؤتمر بخمسة أعضاء، وتؤلف لجنة تنفيذية سرية تتولى مهمة متابعة إجراءات عقد المؤتمر. واقترح جميل المدفعي في العراق أن ترصد اربعة ملايين جنيه كمخصصات للقصر الملكي، تحول للعمل من أجل سوريا وفلسطين . لكن رئيس الوزراء نوري السعيد رفض ذلك، بحجة احتمال رفض الوزارة لهذا القرار . وبعد عدة اجتماعات ، خرجوا بتوجيه نداء جاء فيه «نحن الموقعين أسماءنا أدناه نعلن أن العراق اضطر الى انتهاج السياسة الاقليمية اضطراراً ،لكي يتمكن من تحطيم القيود التي تفل يده عن العمل في حقل القضية العربية» (٨٤).

لكن المؤتمر لم يحقق أية نتائج بسبب رفض بريطانيا عقده. هذا بالاضافة الى عدد من المشكلات العربية. فقد اشترطت لجنة القدس ان تكون الكلمة الاخيرة لها فيما يخص عقد المؤتمر. وهذا ما رفضه العاملون في سوريا والعراق والخارج الذين كانوا يرون ان تكون الكلمة الاخيرة بالاتفاق مع العراق، لانهم يريدون كسب ثقته، وحمله على التدخل لانقاذ سوريا وفلسطين ، ولان فرض شروط على العراق، قد تؤدي بالنتيجة الى ابتعاده، وشل حركة المؤتمر والقضاء عليه (٨٥).

هذا بالاضافة الى الرفض السعودي الذي يأتي في إطار الخلاف العراقي السعودي آنذاك، بالاضافة الى الرفض المصري، الذي قاده خديوي مصر السابق عباس حلمي الذي طالب بعقد المؤتمر في جنيف بدلاً من بغداد (٨٦).

وعند اندلاع الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦، كان التضامن العربي واضحاً مع الثورة،حيث قامت تظاهرات شعبية في الكثير من مدن وقرى سوريا ولبنان وشرق الاردن. كما أقيمت مهرجانات شعبية،وعقدت اجتماعات عامة في مدن مصر والسودان والمغرب وتونس والجزائر وليبيا ، وألقيت خطب حماسية دعي فيها الى تأييد الثورة الفلسطينية ، والتنديد بالسياسة البريطانية في فلسطين، وسياسة الحركة الصهيونية الهادفة إلى إقامة وطن اليهود في فلسطين (٨٧).

إلا أن أهم تعبير عن التضامن الشعبي العربي مع الشعب الفلسطيني ، واعتبار القضية الفلسطينية قضية قومية ، تمثل في تدفق المتطوعين للقتال الى جانب الفلسطينيين. فبعد حوالي شهر ونصف الشهر من بدء الثورة ، بدأت مجموعات من المتطوعين العرب تفد لرفد الثورة ودعمها من سوريا ولبنان والعراق والاردن، وبلغ عدد المتطوعين المئات(٨٨).

وكان لاشتراك المتطوعين العرب في القتال أثر كبير في زيادة اندفاع الشعب الفلسطيني في ثورته، حيث أدرك أن ثورته قد اتسعت بطابع الشمول العربي. كما ان وجود المقاتلين العرب في خندق واحد أدى الى بلورة المشاعر القومية ، وتحسس المخاطر التي تهدد الأمة العربية.

وعلى إثر ثورة فلسطين عام ١٩٣٦ ، اقترحت بريطانيا تقسيم فلسطين الى ثلاثة اقسام . لكن هذا الاقتراح رفضه الجانب العربي، وبادرت اللجنة السورية للدفاع عن فلسطين إلى الدعوة لعقد مؤتمر في بلودان في الفترة بين (٨-١٠) ايلول(سبتمبر) ١٩٣٧، من أجل بحث القضية الفلسطينية .وقد لبى الدعوة أكثر من خمسماية شخصية سياسية عربية غيررسمية، يمثلون مصر وشمال افريقيا والعراق وفلسطين ولبنان وسوريا وشرق الاردن. وترأس المؤتمر ناجي السويدي، رئيس وزراء العراق سابقاً(٨٩) .

وبعد عدة جلسات ، اتخذ المؤتمر قرارات سياسية ، أكدت على عروبة فلسطين، ورفض قرار التقسيم ، وإلغاء الانتداب ووعد بلفور، ووقف الهجرة إلى فلسطين(٩٠).

ووصل الاندفاع القومي أوجه عام ١٩٣٩. فقد أخذ القوميون العرب، وخاصة في العراق ، يطالبون بضرورة تحرير فلسطين ، عن طريق القوة العسكرية العربية. فطالبوا بتقديم السلاح الى فوزي القاوقجي .كما قام فهمي سعيد وكامل شبيب من قادة حركة

١٩٤١ في العراق ، بالاشراف على تدريب المقاتلين الفلسطينيين بصورة سرية في معسكرات الرشيد ببغداد(٩١). إلا ان هذه المحاولات تعرضت لعقبات يأتي في مقدمتها وفاة الملك غازي، ووجود نوري السعيد على رأس الوزارة العراقية ، حيث عمل على كشف تحركات القوميين إلى السلطات البريطانية.

وبعد تشكيل رشيد عالي الكيلاني لوزارته بعدة أشهر ، وصل مفتي فلسطين الحاج امين الحسيني الى بغداد، في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٣٩، قادماً من لبنان، وأخذ يلعب دوراً في الحياة السياسية العراقية، إذ تجمع حوله الشباب القومي المتحمس ، وقام المفتي عام١٩٤٠ بتشكيل لجنة عربية، ضمت عدداً من القادة القوميين العرب، أخذت على عاتقها الاتصال بدول المحور ، من أجل ايجاد حل للقضايا العربية، وفي مقدمتها قضية فلسطين. إلا ان هذه المحاولات فشلت، خاصة اثر فشل حركة رشيد عالي الكيلاني في آيار(مايو) عام ١٩٤١(٩٢).

لقد أدت القضية الفلسطينية الى زيادة الادراك والوعي القومي عند الجماهير العربية، وجعلتها تؤمن أن معظم المشاكل التي تعاني منها هي بسبب وجود الكيان الصهيوني الدخيل في قلب الوطن العربي. وبالمقابل فان للوحدة العربية دوراً اساسياً في إيجاد الحل للقضية الفلسطينية. وبقدر ما لفلسطين مكانة خاصة في قلوب العرب، فان الوحدة ضرورة اساسية لتحرير فلسطين ، لان الاثنين يكمل أحدهما الآخر. ولهذا فالحديث عن امكانية قيام الوحدة العربية من دون العمل بشكل جدي على تحرير فلسطين من الاحتلال، او الدعوة الى محاربة الوجود الصهيوني في فلسطين ، من دون البدء في تحقيق الوحدة العربية ، أمر غير منطقي ، ولا بد ان تتم عملية التحرير والوحدة في الوقت عينه، ولا تنتظر إحداهما نتيجة الثانية .

٤- الاحزاب السياسية ودورها في الحركة القومية :

من المعروف أن الأحزاب ، طليعة المجتمع الفكرية والسياسية والنضالية. ولذا يفترض أنها تنطق باسم التيارات وتعبّر عنها طبقياً ومصلحياً، مثلما تقودها نحو الآفاق او الأهداف المرحلية والاستراتيجية التي تطرحها هذه القوى عبر تفاعلها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

لكن الأحزاب العربية ، وبعد أن احتل الاستعمار الاوروبي كل الوطن العربي، وجزّء هذا الوطن الى دويلات ذات حدود مميزة ، أصبح الهم الأول للمواطن العربي، وبالتالي للأحزاب التي تمثله ، هو طلب التحرر من الاحتلال. فكان تشكيل الأحزاب من منطلق

الدفاع عن الوطن .ولكن عبر النضال السياسي القطري ، وعلى أساس أن التجزئة حقيقة قائمة ، يستوجب الامر التعامل معها ، واعتبار ان مقاومة التجزئة قد تؤدي حتى الى ضياع الوطن الصغير ،كما كانت تعتقد بعض الأحزاب .

ولهذا فقد عجزت هذه الأحزاب عن خلق حركة سياسية بقواعد شعبية ، وذات تطلعات وحدوية قومية ، بل على العكس من ذلك، جعلت من الوحدة ، مجرد مفردات تصوغها في برامجها، وأما ممارساتها فهي ممارسات قطرية، أضعفت الفكرة القومية الوحدوية، واستوعبتها ضمن نقيضها الاقليمي ، وكرَّست حماية التجزئة الاستعمارية للأقطار العربية . لكن واقع الاحزاب هذا لم يمنع أو يوقف عملية بناء أحزاب قومية، اتخذت من الوحدة هدفاً أساسياً وملحاً لذا يمكن الفصل بين مرحلتين أساسيتين في نشوء وتطور الأحزاب، المرحلة الاولى التي أعقبت الحرب العالمية الأولى ،وحتى الثلاثينيات .أما المرحلة الثانية، فتبدأ من الثلاثينيات وفيها نشأت بعض الأحزاب القومية ذات البرامج الواضحة ، التي جعلت من الوحدة هدفها الأول .

الأحزاب في فترة العشرينيات:

رفعت الجمعيات السرية التي قامت في أعقاب الحرب العالمية الأولى شعاري الاستقلال والوحدة العربية، باعتبارهما المطلبين الرئيسيين للثورة العربية . وتعتبر جمعية العهد من أبرز التنظيمات التي حملت لواء هذه المطالبة .

فقد جعلت جمعية العهد العراقي ،بعد انشقاق الجمعية الى عهد عراقي وعهد سوري، هدفها الرئيسي تحقيق استقلال العراق التام، ضمن الوحدة العربية، وداخل حدوده الطبيعية (٩٣) . وفي مطلع عام ١٩١٩ ، تشكلت جمعية حرس الاستقلال العراقية التي تبنت شعار العمل على تحقيق استقلال القطر العراقي ، وتأليف حكومة دستورية في العراق ، وبذل الجهود للانضواء الى الوحدة العربية، ولتوحيد الكلمة في البلاد، والسعي للتعاون مع الجمعيات العربية الاخرى (٩٤).

وفي سوريا ، وبعد سقوط الحكم الفيصلي في تموز (يوليو) ١٩٢٠، رحل أكثر قادة الأحزاب السورية الى الأردن وفلسطين ،ومنها الى مصر . وبمبادرة من حزب الاستقلال العربي، عقد مؤتمر للأحزاب السورية، في جنيف في آب (اغسطس) عام ١٩٢١، حضره مندوبون من عدة أحزاب سورية وجمعيات مصرية وفلسطينية . وقد نتج عن هذا المؤتمر التأكيد على توحيد صفوف الحركة الوطنية في سوريا، وبذل المساعي لدى اعضاء عصبة الأمم لتأييد المطالب الوطنية السورية التي حددوها باستقلال سوريا الناجز بحدودها الطبيعية (سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الاردن)(٩٥) . كما تم في نهاية المؤتمر انتخاب

اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري– الفلسطيني، التي اتخذت من القاهرة مقراً لها. وتجدر الاشارة هنا أن الوفد الفلسطيني (توفيق حماد وشبلي الجمل)رفض بشدة البرنامج الوحدوي ، الذي قدمه حزب الاتحاد السوري ، وذلك خوفاً من إزعاج السلطات البريطانية وإثارة شكوكها، ورغبة منه في عدم ربط قضية بلاده بالقضية السورية (٩٦).

ولذا اصر على ذكر اسم فلسطين الى جانب سورية في تسمية المؤتمر ، ولجنته التنفيذية .

أما حزب الشعب الذي تأسس عام ١٩٢٥، فقد أغفل في برنامجه الوحدة العربية ، وأظهر ميلاً للمصالحة مع سلطات الانتداب ، مقابل سماحها له بممارسة نشاطه السياسي في العلن . ولكن إذا كان الحزب قد أغفل الوحدة العربية ، فقد أكد على وحدة سوريا الطبيعية (٩٧). وقد شارك حزب الشعب في هذه المواقف الكتلة الوطنية، التي اعتبرت اكبر وأقوى الأحزاب السورية في هذه الفترة، الاتجاه عينه على الصعيد القومي ، لان ساسته ، جاء اكثرهم من حزب الشعب الذي بدأ بالانحلال، اثر فشل الثورة السورية الكبرى(٩٨).

ومن الجدير بالذكر، ان اضطرار العديد من قادة الاحزاب السورية الى المغادرة للأقطار العربية المجاورة، قد أدى الى اتسام العمل السياسي الحزبي داخل سوريا بالسرية .ففي الفترة بين ١٩٢٠، وحتى نهاية الثورة السورية الكبرى لم توجد داخل سوريا احزاب كبيرة، تستطيع أن تلعب دوراً سياسياً بارزاً. إلا أن هذا لم يمنع وجود أحزاب سرية صغيرة ، أخذت تصدر البيانات السياسية المناوئة للاحتلال الفرنسي (٩٩).

وفي العراق ، شددت الأحزاب العراقية في برامجها على الدعوة لاستقلال العراق، دون إعارة اهتمام جدي لقضية الوحدة العربية (١٠٠).

وحاولت الاحزاب العراقية، دفعاً منها لأي انتقاد قد يوجه إليها بهذا الخصوص، تقديم التبريرات التي دفعتها الى عدم تضمين هدف الوحدة العربية في برامجها الحزبية ، وأوردت في هذا الخصوص أكثر من تعليل . فادعت انها كانت منسجمة في موقفها هذا مع مبدأ كان السوريون قد أقروه، وهو ضرورة التخلص من الانتداب أولاً، ومن ثم تهيئة الظروف لتحقيق التقارب والاتحاد مع بقية الدول العربية الأخرى. كما أنها، من جهة ثانية، قد جنبت نفسها الوقوع في مأزق مؤكد، لأن السلطات الأجنبية كان بامكانها القضاء على نشاط أي حزب تعتبره خطراً عليها،إما عن طريق العمل المباشر،أو عن طريق إظهار الامتعاض لانظمة الحكم التي تأتمر بأمرها، فتقوم هذه الأنظمة باتخاذ الاجراءات الكفيلة بتصفيه الأحزاب المستهدفة فوراً (١٠١).

غير ان هذه التبريرات تبقى عاجزة عن رد الانتقاد الموجه الى هذه الاحزاب، وهو أنها قد ارتضت بالتراجع بديلاً عن الاقدام، واقرت بالقطرية دون الفكرة القومية .

الأحزاب في الثلاثينيات وخلال الحرب العالمية الثانية:

سبق أن تحدثنا في صفحات سابقة عن زيادة الوعي القومي في الوطن العربي، خلال فترة الثلاثينيات. وهو ما دفع الفكر والعمل القومي باتجاه توضيح الأهداف القومية ، وتحديدها بدقة أكبر. وشهدت الفترة تطورات سياسية ، أعطت دفعاً قوياً لنشوء الأحزاب، خاصة ذات الاتجاه القومي منها. فقد أتاح إعلان استقلال العراق عام ١٩٣٢ الفرصة أمام العراقيين للاعلان عن آمالهم بشأن دفع العمل القومي باتجاه الوحدة .كما أعطى القوميين العرب في الأقطار العربية،(خاصة في اقطار آسيا العربية) الفرصة لان يعتقدوا بأن العراق أصبح مؤهلاً للقيام بدور مشابه ، لذلك الدور الذي لعبته بروسيا في قيادة حركة الوحدة الالمانية .ولذا بدأوا بالتوافد الى العراق هرباً من ملاحقة وتنكيل سلطات الانتداب في سوريا وفلسطين وأقطار أخرى ،فشكل هؤلاء تياراً قومياً طالب بتحرير هذه الأقطار، ودعوا الملك فيصل الى الخروج من عزلته ، وقيادة حرب تحريرية توحد هذه الارض تحت قيادته (١٠٢).

في ظل هذه الأوضاع، نشأت أحزاب منظمة ذات برامج محددة . لكن هذه الأحزاب ، جعل بعضها من الوحدة هدفاً مركزياً، وبعضها دعا الى وحدات اقليمية تنحصر في أقطار معينة، وبعضها الآخر بقي متردداً في طرح شعار الوحدة، بحجة أن هذه المشاريع تحظى بدعم وتأييد بريطانيا.

ومن الأحزاب الرئيسية التي أخذت تطرح شعار الوحدة، وتعتبره مطلباً ملحاً وضرورياً، لتحرير الوطن العربي، جماعة الأهالي في العراق ،التي تأسست عام ١٩٣١. وعلى الرغم من أن هذا التنظيم قد ركز على ضرورة إصلاح أحوال العراق الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، إلا أنه أولى من خلال صحيفته (الأهالي) الاهتمام بأخبار الاقطار العربية ، حيث جعلتها ركناً ثابتاً من أركانها بعنوان(في البلاد العربية)، تناولت أخبار الحركات الوطنية في مصر وسوريا وفلسطين. أما في مقالاتها الافتتاحية ، فقد أعطت اهتماما رئيساً للقضية الفلسطينية وقضية الوحدة العربية (١٠٣).

وتعتبر عصبة العمل القومي * التي تأسست عام ١٩٣٢ من الاحزاب التي قدمت برنامجاً قومياً عربياً شاملاً، حلل الظروف السياسية والاقتصادية التي تمر بها الامة العربية ، وقدم الحلول والسبل التي يجب اتباعها في سبيل إقامة الوحدة العربية. وأكدت العصبة في بيانها الأول«الى العرب من عصبة العمل القومي»ان النهضة العربية يتوقف نجاحها على إشراك العرب جميعهم في النضال ، وأن الحركة القومية يجب ان تؤسس على أساس شعبي لتضمن البقاء والاستمرار (١٠٤).

* هنالك بحث خاص بالعصبة، في هذا القسم من الكتاب (المحرر).

وامتاز هذا التنظيم بسيادة النظرة القومية الشاملة التي لم تعَن بقطر عربي دون سواه. وامتازت كذلك بتأسيس فروع لها في كل من سوريا ولبنان وفلسطين والعراق وشرق الاردن (١٠٥).

وعلى نفس المنهج تأسس عام ١٩٢٤ الحزب القومي العربي، الذي أكد على ضرورة الخروج عن العمل السياسي القطري، والعمل من أجل بناء حزب قومي، وأصبح لهذا الحزب فروع في أكثر المدن السورية، وانتشر في لبنان وفلسطين والعراق،وشرق الاردن والكويت(١٠٦). وقد تولى مسؤولية الحزب في العراق في بداية تأسيسه يونس السبعاوي، الذي عمل على توسيع قاعدة الحزب في العراق، والاتصال مع فرع الحزب في سوريا (١٠٧).

وخلال الحرب العالمية الثانية، تم تأسيس حزب قومي عربي آخر، هو حزب البعث، الذي جعل من أول أهدافه تحقيق الوحدة العربية، وابتعد عن العمل القطري، ووجدت أفكاره قبولاً، وانتشاراً خلال المرحلة،وبعد استكمال تأسيسه عام ١٩٤٧، بدأ ينتشر في اقطار عربية عديدة (١٠٨).

أما الأحزاب الاقليمية، فكان أبرزها الحزب السوري القومي* الذي تأسس في لبنان عام ١٩٣٢، وقد دعا هذا الحزب إلى معارضة الفكرة القائلة بوحدة عربية شاملة،وعارض شعارات القومية العربية، لان انصارها شددوا على التاريخ العربي والدين والثقافة، وهذا في نظر الحزب نتاج حضارة بالية. ودعا أيضا الى ان سوريا الطبيعية أمة مستقلة، وان قضيتها مستقلة لا علاقة لها بالأقطار العربية الاخرى(١٠٩).

وبالنسبة الى النمط الثالث من الأحزاب، فقد مثلته الأحزاب الشيوعية العربية*. وعلى الرغم من ان الحزب الشيوعي اللبناني تأسس عام ١٩٢٤، إلا أنه ظل حتى عام ١٩٣١ يركز نشاطه السياسي على الدعوة الى الاستقلال الوطني المعادي للاستعمار. إلا أنه في عام ١٩٣١، وأثناء انعقاد كونغرس حضره مندوبو الحزبين الشيوعيين السوري والفلسطيني، تم تناول مهام الشيوعيين في الحركة القومية العربية (١١٠). وبناء على توجيهات المؤتمر السابع للأممية الشيوعية (الكومنترن) عام ١٩٣٥، طرح الشيوعيون العرب قضية الوحدة العربية. وبعد مناقشة مستفيضة لقضية الوحدة العربية، توصلوا إلى أن التضامن العربي الشعبي في هذه المرحلة هو الطريق الى التحرر من الاستعمار، واعتبروا أن هذا التضامن لا يلغي العمل الشعبي من أجل الوحدة العربية، بعد نيل الأقطار لاستقلالها الكامل عسكرياً وسياسياً واقتصادياً (١١١).

(*) كان الحزب يدعو الى وحدة سورية الطبيعية، والى اقامة «جبهة مع العالم العربي» (المحرر).
(*) يراجع بشأن الاحزاب الشيوعية: إلياس مرقص: تاريخ الاحزاب لشيوعية العربية. دار الطليعة «المحرر».

وبعد تأسيس الحزب الشيوعي العراقي عام ١٩٣٤ ، عقد مندوبو عدة أحزاب شيوعية عربية مؤتمراً عام ١٩٣٥، درسوا فيه قضية الوحدة، واتخذوا قراراً بتأييد اقامة الاتحاد العربي الاختياري بين الأقطار العربية المستقلة ، على أن لا يمس هذا الاتحاد شكل الحكم السياسي الذي اختاره ويختاره كل قطر عربي، وعلى أن يساعد الاتحاد العربي الأقطار العربية غير المستقلة على نيل استقلالها الوطني (١١٢).

وإذا استثنينا الأحزاب العقائدية (الشيوعي -الحزب السوري القومي ، عصبة العمل، الحزب القومي العربي، البعث) رغم اختلاف مواقفها وممارساتها تجاه قضية الوحدة ، نرى ان هذه الأحزاب تشكلت من منطق الدفاع عن استقلال الوطن عبر النضال السياسي القطري، ومثلت هذه الأحزاب أعيان المدن من التجار وملاكي العقارات والأراضي ورجال الأعمال وشيوخ القبائل. وهؤلاء لم يكن لهم من هم إلا الوصول الى السلطة السياسية التي تضمن لهم بالتالي مصالحهم (١١٣).

وهذه الأحزاب عبارة عن تكتلات يقودها أبناء العائلات ، ولا ينظمها أي نوع من أنواع الالتزام الحزبي العقائدي. والسر في شعبية هذه الأحزاب ، وانتشارها انخفاض مستوى وعي الجماهير ،ولموقف هذه الفئات المعادي أحياناً للاستعمار (١١٤).

وبدلاً من التركيز على الأهداف المركزية التي تحقق مصالح الامة، وفي مقدمتها الوحدة ، اتجهت هذه الأحزاب ، منذ بداية تكوينها ، نحو تأييد الحكومة أو اتخاذ موقف معارض لها. وكان الخلاف الأساسي الذي فرّق بينها يتصل بأفضل السبل الى إنهاء السيطرة الاجنبية .

وحتى الأحزاب العقائدية ، إذا استثنينا منها وبشكل خاص عصبة العمل القومي والبعث، فقد بقيت عاجزة، عن طرح أفكارها ونشرها، والعمل من أجل تحقيق هذه الأفكار. واتسم بعض هذه الأحزاب بالآنية ، أي أنها تتشكل لغرض سياسي معين، وتنتهي بانتهائه.

٥- المشاريع الوحدوية وأسباب فشلها :

تحددت المشاريع الوحدوية العربية منذ عام ١٩٢٠، وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، بمساعٍ لقيام شكل من أشكال الاتحاد بين سوريا بحدودها الطبيعية والعراق. ولم يخرج عن هذه القاعدة ، إلا جامعة الدول العربية، والتي كان من اسباب قيامها، منع أي اتحاد ثنائي بين قطرين عربيين ، والعمل على إيجاد صيغة للتعاون العربي الفضفاض، والذي يمنع بالتالي أي قطرين أو أكثر من التطلع إلى بناء وحدة حقيقية .

وقد احتل هدف الوحدة مع سوريا مكانة بارزة في سياسة العراق الخارجية، منذ ان انبثق النظام الملكي في العراق عام ١٩٢١، وحتى تاريخ سقوطه عام ١٩٥٨، حتى ان المبدأ الرابع لسياسة العراق الخارجية التي وضع أسسها الملك فيصل الاول، وتبنته من بعده القيادات العراقية اللاحقة ، أكد التزام النظام العراقي بالعمل على تحقيق الوحدة بين القطرين ، على أن تتسم عملية التوحيد هذه بالتطور التدريجي (١١٥).

ومع أن دوافع الاهتمام العراقي بالوحدة مع سوريا، قد تعزى إلى ارتباط الملك فيصل بسورية ، إلا أن تبنيه والاصرار عليه، استند الى مبررات أخرى، إذ أن واقع البلدين الجغرافي والاجتماعي يحمل من السمات المشتركة ما يكفي لإنجاح أية خطوة وحدوية بينهما، وان الواقع السياسي القائم في البلدين ، وحتى الواقع النضالي السابق، حافز يدفعهما إلى التعجيل باتخاذ مثل هذه الخطوة. فاذا كانت الظروف السياسية قد جعلت القيادات والقوى السياسية فيها ، أكثر تفهماً لمدى أهمية هذه المسألة من أي طرف عربي ثالث، فان ولادة الفكرة القومية خلال فترة الحكم العثماني، وازدياد الوعي الوحدوي خلال فترة السيطرة الغربية على الوطن العربي ، تم التعبير عنه بتبني القيادات العربية لشعار الوحدة والاستقلال في عاصمتي القطرين (بغداد ودمشق)مما جعلهما أكثر وعياً لها، وأقدر على تحقيقها من بقية الاقطار العربية الاخرى.

كما أن المصالح الاقتصادية والموقع الاستراتيجي للقطرين، يجعلان من هذا الهدف، ضرورة حيوية، فَتَتَأمّن سلامة أنابيب ، البترول العراقي عبر الاراضي السورية، والحصول على منفذ إلى البحر الابيض المتوسط، يحرر تجارة العراق من الاعتماد فقط على ميناء البصرة. أما الموقع الاستراتيجي فيعكسه بصورة واضحة إشراف سوريا على الممرات الشمالية الشرقية المؤدية إلى مصر، وعلى الطريق البري ما بين العراق والبحر الابيض المتوسط، وعلى شمال الجزيرة العربية، والحدود الشمالية للوطن العربي، وكونها (سوريا) مركز مراقبة جيد، يمكن منه رصد سياسات الدول الكبرى في المنطقة، والمحور الذي تدور حوله التحركات الدبلوماسية الدولية (١١٦) .

وقدمت الأطماع الصهيونية في فلسطين والوطن العربي نفسها كعامل يبرر للمسؤولين العراقيين الاندفاع نحو الوحدة مع سوريا . ففلسطين لا يمكن المحافظة عليها مع بقاء حالة التجزئة التي خلقها الاستعمار .كما أن سوريا كانت في مواجهة مباشرة مع الحركة الصهيونية تجعل منها عاجزة عن المحافظة على وجودها ، وحماية أمنها ما لم تتجه الى الوحدة مع مثيلاتها من الدول العربية الأشد إدراكاً، والأكثر تعرضاً للخطر الصهيوني.

ويقول توفيق السويدي :إن هذه المزايا هي التي دفعت المسؤولين العراقيين الى التأكيد مراراً :« ان سوريا هي نبض الجسد العربي، ولا خير في سياسة ينشئها العراق مع

البلاد العربية تجعل سوريا بعيدة عنه .. إن محور العراق وسوريا يجب ان يكون الأصل في السياسة العربية)(١١٧).

المشروعات الوحدوية في العشرينيات:

استناداً الى الحقائق الموضوعية التي تلح على ضرورة إقامة الوحدة بين سوريا والعراق، مقرونة بتطلع فيصل إلى سوريا باعتبارها أول بلد أقام سلطته فيه بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى، بدأ فيصل بالتحرك لتحقيق الوحدة. وشجعه على ذلك ، ان أوضاع العراق بعد عقده لمعاهدته الثانية مع بريطانيا عام ١٩٢٤ ، أصبحت أفضل من بلدان المشرق العربي الأخرى نسبياً ، فمصر والاردن بقيتا خاضعتين لسياسة بريطانيا مباشرة .أما الحكم السعودي ،فان طموحه في تلك الفترة لم يتعدَّ الجزيرة العربية. وتوجه الملك فيصل، إثر توقف الثورة السورية الكبرى لزيارة باريس عام ١٩٢٧ ، وطرح على المسؤولين فيها فكرة توحيد سورية والعراق. إلا أن الحكومتين البريطانية والفرنسية رفضتا المشروع، خاصة وأن فرنسا قد صبت جهودها في ناحية واحدة هي إقناع السوريين بفصل قضيتهم عن قضية العراق. وتولى المندوب السامي (بونو) نفسه مهمة مقاومة هذا المشروع ، وحاول ان يظهر القضية السورية كوحدة مستقلة لا ترتبط بالقضايا العربية الاخرى(١١٨).

وشهدت سورية في الفترة بين ١٩٢٧ - ١٩٣٠ صراعاً حاداً بين أنصار النظام الملكي والنظام الجمهوري، طُرحت خلالها فكرة توحيد سوريا والعراق على أساس النظام الملكي . لكن سلطات الاحتلال في البلدين رفضت هذا المشروع. وقد قام الجنرال (كلايتون) المفوض السامي البريطاني في العراق و (تشانسلور) المندوب السامي في فلسطين بزيارة لبيروت للتشاور مع الفرنسيين من اجل الاتفاق على صيغ تعزز تحالفهما الاستعماري ، ومنع اية خطوة تقارب بين البلدين(١١٩).وحددت صحيفة (الدايلي هيرالد) البريطانية موقف الدولتين الاستعماريتين من قضية وحدة البلدين ،فنشرت مقالة جاء فيها: «تتطور الحالة في بلدان الشرق الأدنى تطوراً غريباً، فللحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية سياستهما في التحالف الاستعماري ، وقد سعتا إلى إيجاد أسلوب وثيق للتعاون السياسي بين حكومات العراق وفلسطين وشرق الاردن من جهة ، وحكومتي سوريا ولبنان من جهة أخرى ، والغاية من ذلك ان تكون هذه الحكومات كتلة واحدة ضد أي حركة قومية(١٢٠).

المشروعات الوحدوية في الثلاثينيات :

في الثلاثينيات كانت قضية فلسطين المحور الذي دارت حوله معظم المشاريع الوحدوية. فالثورة العربية الفلسطينية التي اندلعت عام ١٩٣٦، وما رافقها من حملات إعلامية عربية مناهضة لبريطانية ، دفعت جهات عديدة لتقديم مقترحات ومشروعات وحدوية لحل القضية الفلسطينية، بما يرضي الأطراف المتنازعة ،ويوفق بين مصالحها المتناقضة ، ومطالبها المتضاربة .

وكان نوري السعيد رئيس وزراء العراق أول من خاض هذا المضمار ، فقدم مشروعاً لحل القضية الفلسطينية ، من خلال اتحاد فيدرالي ،أثناء مباحثاته مع السفير البريطاني في بغداد، في ١٦ تشرينَ الاول (اكتوبر) ١٩٣٦. ثم عرض المشروع على اللورد صموئيل عند لقائه به في باريس في الشهر عينه. واشتمل المشروع على شروط مسبقة ، يأتي في مقدمتها إيقاف الهجرة الى فلسطين في حين تناولت بنوده قيام اتحاد كونفدرالي يضم العراق وشرق الاردن وفلسطين، تتمتع فيه كل دولة باستقلال ذاتي، ويحصل اليهود في نطاق هذا الاتحاد على نسبة ثابتة من السكان، هي نسبة توزيع سكان فلسطين من عرب ويهود عام ١٩٣٦ (اي ٧عرب الى ٤ يهود) . ودافع نوري عن مشروعه إذ اعتبره حماية للعرب في فلسطين من هيمنة يهودية، اذا فتحت ابواب فلسطين للهجرة، ومنح اليهود مساحة نصف مليون هكتار من أرض فلسطين .وفي الوقت عينه يشكل المشروع صيانة للمصالح البريطانية ببقاء فلسطين تحت الانتداب البريطاني .

وقد عارضت بريطانيا هذا المشروع، متذرعة بانه قد يثير مخاوف عبد العزيز بن سعود ومعارضته (١٢١).

وبعد محادثة نوري السعيد في وزارة الخارجية البريطانية ، عدل عن مشروعه هذا ، وقدم في أيلول(سبتمبر) ١٩٣٧ مشروعاً جديداً للسكرتير الشرقي في السفارة البريطانية في القاهرة، تضمن رداً على توصيات اللجنة البريطانية التي اشتملت على إلغاء الانتداب البريطاني على فلسطين ، وتقسيم البلاد الى ثلاث وحدات سياسية. واعتبر نوري أن توصيات لجنة بيل ستزيد من العداء العربي –اليهودي ، وأن الاتحاد الكونفدرالي الذي اقترحه عنصر استمرار،لأن جميع أقطار آسيا العربية ستدخل فيه على قدم المساواة ، وبذلك يزول كل مبرر للتنافس والخصومة بين زعماء هذه الأقطار،ورأى نوري أن هذا الاتحاد سيحل مسألة الوطن القومي اليهودي في فلسطين بصورة ترضي العرب (١٢٢).

وسعى نوري لاقناع القادة السياسيين العرب بهذا المشروع، فزار سوريا ولبنان ومصر ، والتقى بعض الوطنيين بمن فيهم زعماء فلسطين.كما أجرى مباحثات في وزارة الخارجية البريطانية مع مسؤولين بريطانيين . لكن نوري لم يحصل على اي رد ايجابي من الجانب البريطاني. وكانت حجة البريطانيين في ذلك أن هذا المشروع لن يحظى بموافقة الفرنسيين واليهود وابن سعود(١٢٣).

ولم تقتصر هذه المشروعات على الجانب العربي، فبسبب التوجهات الوحدوية التي برزت في فترة الثلاثينيات وازدياد التهديد الالماني الايطالي، اقترح هربرت صموئيل أول مندوب سامي بريطاني في فلسطين عام ١٩٣٧ مشروعاً يقضي بتشكيل اتحاد عربي يضم السعودية والعراق والأردن وسوريا وفلسطين .إلا ان هذا المشروع لم يلق– تجاوباً لدى مكتب المستعمرات البريطاني ،كما ان فرنسا رفضت المشروع على اعتبار انها ترفض أي مشروع وحدوي تكون سوريا ولبنان جزءاً منه(١٢٤).

وإثر فشل مشروع صموئيل أخذت الصحف البريطانية تتحدث عن اتحاد فيدرالي يضم بلدان سوريا الكبرى. ففي صيف عام ١٩٣٨ بدأت الحكومة البريطانية بالتحرك لتحقيق هذا الاتحاد. فقام قنصل انكلترة في سوريا بزيارة هاشم الأتاسي ، والتباحث معه في المشروع الذي وضعت بريطانية شرطاً لتحقيقه، وهو إقامة نظام حكم ملكي في سوريا ، إلا أن الحكومة الفرنسية عارضت كعادتها المشروع، لأنها كانت ترى أن خلق أي اتحاد عربي، حتى ولولم يضم سوريا، سيؤدي الى تذمر شعبي فيها، يدعو الى الالتحاق بهذا الاتحاد ،كما أن فرنسا غير مستعدة لتعريض وضعها في سوريا للخطر، مقابل مساعدة بريطانيا على حل مشاكلها في فلسطين (١٢٥).

لكن الرفض الفرنسي لمشروع الاتحاد لم يوقف المحاولات البريطانية، خاصة ،انها تدرك أن فرنسا بحاجة اليها من أجل تنسيق مواقفهما في أوروبا والوطن العربي، بسبب الوضع الدولي المتأزم ، وقد بدأ نوري بالتحرك لتحقيق مشروع الاتحاد السوري الذي اعتبره خطوة على طريق الاتحاد بين سوريا والعراق(١٢٦)، وقامت الحكومة العراقية بإرسال وفد إلى دمشق ،أواسط شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٨ ، للتباحث بهذا الشأن(١٢٧) .كما قام نوري السعيد بالالتقاء مع (سراج اوغلو) وزير خارجية تركيا في الشهر نفسه، وأبلغه عن استعداد العراق التنازل عن منطقة شمال العراق إلى الاتراك ، ومقابل مساندتهم له بالاتحاد مع سوريا .ويقول ناجي شوكت: إن المشروع رفض من عدد كبير من العراقيين، كما رفض المشروع من قبل الحكومة التركية التي أبلغت هذا الرفض إلى سفارتها في الخارج(١٢٨).

كان الغرض من هذه المشروعات التوفيق بين الطلب اليهودي في استمرار الهجرة اليهودية الى فلسطين واستعمارها، ورفض العرب لهذه الهجرة ، وذلك عن طريق وضع

قيود لهذه الهجرة ،والمحافظة على نسبة السكان اليهود الى العرب ،واحتواء الأقلية اليهودية في اتحاد عربي أوسع.

المشاريع الوحدوية خلال الحرب العالمية الثانية

مشروع سوريا والهلال الخصيب:

أدت تطورات الحرب العالمية الثانية، ونتائج هذه التطورات على الساحة العربية، إلى انتعاش فكرة الوحدة العربية. فقد رأى الامير عبد الله في استسلام فرنسا للجيوش الألمانية في حزيران (يونيو) سنة ١٩٤٠، واعلان القوات الفرنسية في سوريا ولبنان ولاءها لحكومة الماريشال بيتان في فيشي ،فرصة سانحة للحصول على وعد من الدول الحليفة بتأييد الوحدة العربية،وبعث بمركزه الى المندوب السامي البريطاني في القدس، في الأول من تموز (يوليو) سنة ١٩٤٠،حثه فيها على إصدار تصريح رسمي بريطاني يدعم فكرة الوحدة السورية، غير ان المندوب السامي ، رد على الامير طالباً منه التزام الصبر حتى ينجلي الموقف الحربي، وحذره من التدخل في شؤون سوريا(١٢٩).

وتعددت رسائل الامير ومذكرات حكومته حول الموضوع ، دون ان يحظى ذلك بأي اهتمام او استجابة من الجانب البريطاني.

وقام نوري السعيد في العراق بنشاط مماثل ،فسعى لدى السلطات البريطانية، في آب (اغسطس) سنة ١٩٤١ ، لنيل موافقتها على مشروع اتحاد فيدرالي عربي، يشمل العراق وفلسطين والاردن ، واقترح اجراء تعديلات في الكتاب الابيض البريطاني لعام ١٩٣٩، تبيح إقامة حكم ذاتي في فلسطين ، واختيار حاكم عربي لها .

ووعد نوري بالمقابل أن يقوم العراق بمبادرة من جانبه بإرسال فرقة من الجيش العراقي إلى الجبهة الليبية (الصحراء الغربية) ، وأبدى استعداد العراق لارسال فرقة عسكرية الى سوريا ،إذا حصل على وعود كافية من بريطانية بشأن مستقبل فلسطين وسوريا (١٣٠).

وحدثت تطورات خطيرة في العراق أدت الى اندلاع ثورة في أيار (مايو) عام ١٩٤١، قادتها العناصر القومية المدنية والعسكرية بزعامة رشيد عالي الكيلاني. غيران الثورة لم تدم طويلاً ، إذ قضت عليها القوات البريطانية في ٣ ايار (مايو). واقتضى وضع العراق الجديد، والتراجع العسكري البريطاني على الجبهة الليبية اتخاذ تدابير ترضي العرب. كما ان بريطانيا أدركت حجم مؤازرة العرب خارج العراق لحركة رشيد عالي الكيلاني.هذا بالاضافة الى الدعاوى المحورية التي أخذت تأثيراتها تتسع بشكل واضح في الوطن العربي (١٣١).

وأول هذه التدابير التصريح الذي أدلى به (انتوني إيدن) وزير الخارجية البريطاني ، والذي جاء فيه: «إن العالم العربي قد خطا خطوات عظيمة منذ التسوية التي تمت عقب الحرب العالمية الماضية ، ويرجو كثير من مفكري العرب (للشعوب) العربية درجة من الوحدة ، أكبر مما تتمتع به الان .

وإن العرب يتطلعون لنيل تأييدنا في مساعيهم نحو هذا الهدف، ويبدو انه من الطبيعي ومن الحق وجوب تقوية الروابط الثقافية والاقتصادية بين البلاد العربية، وكذلك الروابط السياسية أيضاً.. وحكومة جلالته سوف تبذل تأييدها التام لاية خطة تلقى موافقة عامة» (١٣٢).

شعر الامير عبد الله أن الظروف مؤاتية لتحقيق مشروع سوريا الكبرى ، فبعث إلى تشرشل رئيس وزراء بريطانية ببرقية في ٢٢ حزيران (يونيو) عام ١٩٤١، يطلب منه تحقيق المشروع .كما قام الامير بالاتصال بحكومات كل من سورية ولبنان وفلسطين،إلا ان المعتمد البريطاني في عمان ، حذر الامير من مغبة الاتصال بالحكومات المذكورة(١٣٣)،ولكن الأمير واصل مساعيه،واتصل بعدد من الزعماء السوريين واللبنانيين، والتقى بأنطوان سعادة ، زعيم الحزب القومي السوري في عمان، وبحث معه سبل تحقيق مشروعه (١٣٤).

اما نوري السعيد ، فقد استغل تصريح إيدن الأول ، ولكن في وقت متأخر، فتقدم في كانون الثاني(يناير) ١٩٤٣، بمذكرة الى وزير الدولة البريطاني في القاهرة المستر كيزي، دعا فيها الى توحيد أقطار سوريا التاريخية ، او بلاد الشام ،تمهيداً لاتحادها مع العراق، ونصح بعودة فلسطين إلى سوريا. أما بالنسبة لمصر والسعودية فقال : «انه على الرغم من عناصر اللغة والعادات والدين التي تقرب شبه الجزيرة العربية مع العراق ، فان اقتصادياتها مختلفة. أما مصر، فان تعدادها يزيد كثيراً عن تعداد دول الهلال الخصيب ، ولها مشكلاتها الخاصة في السودان وغيره ،وأضاف ان هذا لا يمنع من أن ينضما الى مثل هذا الاتحاد، لو نجح بين سوريا والعراق (١٣٥).

ولا يختلف مشروع نوري السعيد (الهلال الخصيب) عن مشروع الأمير عبد الله (سوريا الكبرى) ، إلاّ فيما يتعلق بالنسبة لمصير الاقضية الأربعة التي ضمت الى لبنان . فقد رأى المشروع الاردني وجوب سلخها عن لبنان ، في حالة رفضه الانضمام الى الوحدة، او الاتحاد السوري هذا أولاً ، وثانياً بالنسبة لمستقبل العلاقة بين بريطانيا والاتحاد العربي ، فقد اغفل نوري السعيد في مذكرته تفاصيل هذه العلاقة .ولكنه فاتح القائم بالاعمال البريطاني بأن هدفه من الوحدة العربية، ان تكون جزءاً من تكتل دول الشرق الاوسط.

أما فيما يتعلق بنظام الحكم ، فإن مذكرة نوري السعيد تركت أمرها للمستقبل، بحيث يختار سكان سورية شكل النظام جمهورياً كان أم ملكياً، وحدة أو اتحاداً، في حين أن الامير عبد الله حدد شكل الحكم بالنظام الملكي ، ورشح نفسه للعرش السوري، وحتى في هذا، فإن نوري السعيد كان يسعى بدوره الى ترشيح عبد الله لعرش سوريا .

وجاء الرفض لهذه المشاريع الجزئية، من الدول الاستعمارية والعرب ، ففرنسا كانت تدرك أن انكلترة تريد تقليص نفوذها في المشرق ، واعتبرت أن قيام أي شكل من أشكال الوحدة ، سيؤدي بالنتيجة الى طغيان النفوذ الانكليزي ، مما يؤثر بالتالي على مركزها الاقتصادي والثقافي في المنطقة(١٣٦).

أما موقف بريطانيا، فلا يتعدى الهدف منه الضغط على الدول العربية للقبول بخطتها التي راحت تدعو لها في تلك الفترة، وهي الجامعة العربية. ولذلك خاطب إيدن هذه الدول قائلاً :امامكم ثلاثة مشاريع : الهلال الخصيب ، سوريا الكبرى، الجامعة العربية ، اختاروا أيها شئتم (١٣٧).

ولكن حكومة بريطانيا ، كانت مع مشروع الجا معة ،وضد مشروعي الامير عبد الله ونوري السعيد ، لأن مشروع الجامعة يؤمن النفوذ البريطاني في منطقة أوسع من المنطقة التي يشملها المشروعان الهاشميان اولاً، ولان فكرة الجامعة، كما خططت لها بريطانيا مطاطة جداً وشكلية ، بينما يدعو المشروعان الى وحدة كاملة لا تريدها بريطانيا بأي شكل من الأشكال(١٣٨)، كما أن بريطانيا كانت ترى بأن الحركة الوحدوية لها شعبية وجاذبية، وأنها أصبحت ظاهرة لا يمكن تجاهلها ، وليس من الحكمة معارضتها علناً، أو مناصبتها العداء ، بل يمكن إظهار العطف عليها، طالما اقتصرت على التنسيق والتضامن وبحدود معينة.

والموقف العربي الرسمي هو الآخر جاء رافضاً لهذه المشاريع .فالسعودية اعتبرت هذه المشاريع تهديداً لأمنها واستقلالها ، وطالبت بريطانيا أن تقف ضد هذه المشاريع ، وهددت باتخاذ إجراءات مناسبة للرد على هذه المشروعات في حال قيامها (١٣٩). وينطلق الموقف السعودي الرافض لهذه المشاريع ،من التخوف من امتداد النفوذ الهاشمي الذي قد يؤدي الى إيجاد كتلة عربية قوية في شمال المملكة السعودية ، تشكل حاجزاً بينها وبين مصر .كما أن العائلة الحاكمة السعودية ،وعلى الرغم من العلاقات الجيدة التي كانت تربطها بحكومة بريطانيا إلا أنها كات تخاف نفوذ بريطانيا في هذا الاتحاد ، والذي قد تستخدمه للضغط على المملكة السعودية (١٤٠).

وفي لبنان، فان تركيبة سكانه الطائفية ، تحكمت بكل مواقف اللبنانيين من المشاريع الوحدوية .لان بعض المسيحيين يرون أن مشروع سوريا يشكل بالنسبة لهم خطراً مزدوجاً.فاذا أيدوا هذا المشروع ، أصبحوا دون شك اقلية ضعيفة في وسط مسلم، واذا تم المشروع دونهم مع ضم المقاطعات ذات الأكثرية الاسلامية إلى المشروع المقترح ، فان لبنان لا يعود بإمكانه العيش ، لأنه ينتج من هذه المناطق أكبر كمية من مواده الضرورية (١٤١) .ولذلك ظل مشروع سوريا الكبرى يلقى معارضة لبنانية،منذ عام ١٩٤٠ وحتى ١٩٥١، تاريخ وفاة الملك عبد الله. ففي عام ١٩٤٦ اثير المشروع في المجلس النيابي اللبناني ، وكان أول المتحدثين النائب عبد الله اليافي الذي تحدث بصراحة اذ قال: « فأنا بصفتي نائباً لبنانياً ، ونائباً مسلماً، أعلن اننا في لبنان نصارى ومسلمين قد ارتضينا حالة لبنان الحاضرة ..واننا لا نبغي عن هذا الوضع بديلاً ...»،وطالب نواب آخرون بتقديم احتجاج الى حكومة شرق الاردن(١٤٢).

وبالنسبة لحكومة سورية ، فقد اعتبرت أن شرق الاردن هو جزء منها ، وبالتالي فمن الضروري عودة الجزء الى الكل، وأن الاردن مكبل بمعاهدة مع بريطانيا ، ودستوره يجعل من مصير البلاد السياسية والاقتصادية بيد الملك (١٤٣)، واعتبرت حكومة سورية أنه يمكن استخدام المشروع كوسيلة لتوسيع النفوذ البريطاني ،كما انها (اي سوريا) تطلعت الى تحقيق مشروع وحدوي أوسع من مشروع أقطارسوريا الجغرافية ، وهاجمته صحيفة الكفاح الدمشقية بعنف ، ورأت ان لا عودة لسوريا عن النظام الجمهوري الذي اختاره الشعب السوري، أضافت أن الكلمة أضحت « للشعوب وحدها فهي صاحبة الامرفي تقرير مصيرها »(١٤٤).

وتدل أقوال الصحف المصرية التي تعبر عن حقيقة الاتجاهات الرسمية ، على أن مصر لا تنظر بارتياح الى المشروعين الاردني والعراقي، اذ ترى أن الهدف البعيد من هذه المشاريع إنشاء كتلة شرقية بزعامة تركيا. وهذا يشكل ضربة شديدة لمركز مصر في الوطن العربي. كما تخوفت الدوائر المصرية من امكانية استخدام هذه المشاريع وسيلة للضغط السياسي والاقتصادي على مصر في المستقبل (١٤٥).

ويمكن إجمال اعتراضات الزعامات العربية على المشروعين العراقي والاردني بـ:

١- أن المشروعين يخدمان الأهداف البريطانية في البلاد العربية.

٢- أن تحقيقهما على اساس النظام الملكي يخدم مصالح الاسرتين الحاكمتين .

٣- أن تنفيذهما سيؤدي إلى عزل مصر عن دول المشرق العربي، وعزل إفريقيا العربية عن آسيا العربية .

٤- يعتبر تحقيق هذين المشروعين تدعيماً للكيانات السياسية التي خلقها الاستعمار في أعقاب الحرب العالمية الاولى.

٥- قد يؤدي تحقيق هذين المشروعين إلى القضاء على الوحدة العربية الشاملة ، وإلى تعزيز الروح الاقليمية بين جناحي الوطن العربي، المشرق والمغرب(١٤٦).

وبالمقابل رأى الفريق المؤيد لهذه المشاريع الوحدوية ان أية وحدة بين قطرين عربيين أو أكثر، هي خطوة مهمة على طريق الوحدة العربية الشاملة التي لا يمكن أن تتحقق الا على مراحل وأن ربط الوحدة بإجماع العرب شعوباً وحكومات،القصد منه رفض فكرة الوحدة أو عرقلة تحقيقها، وتحقيق الوحدة العربية على مراحل لا بد وأن يأخذ بعين الاعتبار العوامل الجغرافية والتطور الاجتماعي والثقافي للاقطار العربية، بحيث تتم وحدة الهلال الخصيب اولاً، فوحدة شبه الجزيرة العربية، فوحدة وادي النيل ،فوحدة المغرب العربي، ويلي ذلك قيام الوحدة العربية الشاملة(١٤٧).

وقد أيد الدكتور سيد نوفل هذه الاتحادات الجزئية، رغم بعض التحفظات بقوله :« والمعارضة في قيام اتحادات بين الدول العربية ، مع ان قيام مثل هذه الاتحادات ، في رأيي واياً كانت نوازع الدعوة اليها، ومصادر الوحي بها ، من شأنه تقريب الشقة نحو الوحدة العربية المأمولة»(١٤٨). وقد ذهب هذا المذهب محمد عزة دروزة قائلاً :«ويجب أن نفرض ان اتفاق دول الجامعة قد يتعذر، فيجب أن يؤخر هذا قيام الاتحاد حيث يجب ان يقوم على كل حال، ولو على مراحل ،حتى ولو بين دولتين كمرحلة اولى، وهذا ما جرى في جميع أحداث التوحيد، وفي مختلف العصور والاحداث والبواعث، وكل من يعلق الاتحاد والوحدة على إجماع الدول العربية، إنما يقصد العرقلة، او يغفل سير التاريخ ، ومقتضى المنطق والمصلحة ...»(١٤٩).

بينما يرى الدكتور أحمد طربين ضرورة النظر الى هذه المشاريع من نافذتين ، النافذة البريطانية والنافذة العربية . اذ اعتبر أن هذا المشروع من النافذة البريطانية يقدم فوائد، لافي خطط ما بعد الحرب الدفاعية والاستراتيجية والاقتصادية فحسب، بل في كون هذا المشروع الاتحادي يقدم فرصة فريدة للتخلص من مشكلة الوطن القومي اليهودي ، تلك المشكلة التي خلقتها بريطانيا بيديها، ثم تظاهرت أنها في مركز المحرج لا يدري كيف المخرج، وكذلك سيجعل هذا الاتحاد نفوذ بريطانيا يمتد الى سوريا ولبنان (١٥٠).

والمشروع من النافذة العربية تدخل فيه دولتان ترتبطان ببريطانيا ، وهما العراق وشرق الاردن. ويتصور نوري انه بهذا الاتحاد يستطيع فرض الوحدة على سوريا ولبنان،كي لا يكون عجزهما في الدفاع عن نفسهما خطراً على جيرانهما (١٥١).

وفي الاربعينات انتقد الاتجاه القومي العربي الآراء التي طرحت أفكارا لتجمعات اقليمية ، واعتبر ان محاولات التجمع او الوحدة الاقليمية ،محاولات غير مباشرة لضرب هدف الوحدة العربية في معناها الشامل، وتقليصها الى وحدات وتجمعات اقليمية ، كل منها ينتظم عدداً من الأقطار المتجاورة جغرافياً ، وكأننا بذلك احللنا رابطة الجوار الجغرافي ، وهي ذات معنى إقليمي في الاساس. محل الرابطة القومية ، وهي رابطة شعور وانتماء في المقام الاول.وكانت بذلك أيضاً خرجت من مفهوم التوحيد القومي ، بكل دلالاته ورموزه،إلى التكامل الاقليمي بمعنى العلاقات بين دول الجوار التي تنتمي الى منطقة جغرافية واحدة،وتأسيساً على هذه الاعتبارات،ووجهت افكار التعاون الاقليمي بالشك والريبة (١٥٢).

وقد نتج عن المشروعين الاردني والعراقي خلافات بين عمان وبغداد،وخلق طرح هذا المشروع محاور عربية، فمحور القاهرة يستقطب العائلة السعودية الحاكمة لعدائها التقليدي للهاشميين ، ويستقطب حكام سورية لخشيتهم من خطط حكام الاردن والعراق،ومشروعاتهم. ولم يكن هذا التلاقي بين القاهرةوالرياض ودمشق مبنياً على اي اساس وحدوي، ولا بدافع اي هدف وحدوي ،إذ كان الموقف المشترك من الهاشميين هو الدافع الاساسي لتلاقيهم ، فكان محور بغداد يجذب اليه الامير عبد الله، رغم مشاريعه الخاصة .

وبفضل هذه المحاور السياسية بقيت الحكومات في تلك المرحلة في أزمة ثقة دائمة ، وفي خلافات مستمرة ، وكان الحكام العرب بفعل ذلك ، يزدادون تمسكاً بمواقعهم وهو ما كان يعني التمسك بالاقليمية والتجزئة واستمرار الضعف الذي ينتج عنه بالطبيعة بقاء السيطرة الاستعمارية .

وكل ما نتج عن كل ذلك أن الواقع العربي لم يعد واقعاً اقليمياً فحسب، وإنما أصبح واقعاً اقليمياً متصارعاً منشغلاً عن الخطر الصهيوني، مهيئاً لبريطانية مناخاً ملائماً لتنفيذ سياستها الرامية إلى تنفيذ وعد بلفور ، واقامة الدولة الصهيونية .

جامعة الدول العربية والوحدة:

إن التصريح الذي أدلى به (انتوني ايدن)، في شباط (فبراير) ١٩٤٣، من أن بريطانيا على استعداد لتأييد اي مشروع وحدوي بموافقة العرب الاجماعية ، وأنه بحسب علمه لم يقدم حتى حينه مثل هذا المشروع، كان كافياً لإيضاح مدى التعثر الذي أصاب الفكرة التي طرحها نوري السعيد ، أمام الجهات البريطانية ، وابلغ مضمونها إلى الدول العربية الأخرى للوقوف على وجهات نظر حكومتها بشأنها .

لقد كان هذا الفشل دافعاً لجهات عربية أخرى ، لكي تأخذ زمام المبادرة، وتقوم بجهد بديل يستعيض عن الفكرة العراقية ، ذات المطامح الجزئية ،بفكرة أعم وأشمل ، فكرة لا تقتصر في تطلعاتها على محاولة ربط لقطار منطقة الهلال الخصيب ببعضها سياسياً، وإنما تتعداها إلى جعل مصر ، وهي الدولة التي لم يكن لها دور بارز في مقترحات نوري السعيد، واقطار الجزيرة العربية شركاء في أي جهد عربي، يستهدف تخطي واقع التجزئة القائم ، باتجاه الوحدة او الاتحاد، ان التحرك الذي بدأه رئيس وزراء مصر(مصطفى النحاس) عام ١٩٤٣، يعتبر تجسيداً لهذه المبادرة التي ترتب عليها في نهاية المطاف قيام جامعة الدول العربية.

ومما ساعد على ابراز هذه الفكرة ، ظروف الزعامة المصرية في مجال محاربة الأستعمار ،بعد ابتعاد خطر الحرب عن مصر، بسبب انتصار بريطانيا في معركة العلمين ،وبداية انتهاء موقف التردد المصري حيال بريطانيا الذي جعل مصر تحس بنوع من الأمان يمكنها من متابعة خطواتها في المجال العربي(١٥٣)، كما أن الملك فاروق كان يميل إلى القيام بهذا الدور لتدعيم مكانته عربياً واسلامياً.

كذلك كانت الظروف العربية بالنسبة للتحرك المصري ذات اثر محرك ودافع. فإلى جانب فشل المشروعات الجزئية، كما ذكر ، كان هناك اقتناع عربي بأن مصر هي التي يمكن ان توحدهم ، بعد ان وعت مصر دورها القومي (١٥٤)، هذا بالاضافة الى رغبة النظام في مصر في إحباط المشاريع الأخرى التي تؤثر في مكانة مصر في الوطن العربي.

ويمكن القول :إن من أكثر العناصر أهمية هو تحسن العلاقات المصرية السعودية منذ آب (اغسطس) ١٩٤٢، بعد ان كانت متأثرة بمحاولات علي ماهر، رئيس وزراء مصر ، في الاعوام ١٩٣٨، ١٩٣٩، انشاء خلافة إسلامية يتولاها الملك فاروق(١٥٥).

وتضافرت الظروف الدولية ، مع الظروف العربية ، إذ أن الحرب العالمية الثانية انهكت قوة بريطانيا وصناعتها ،بينما خرج الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة بقوة ضخمة وصناعة حديثة . وقد زحفت الرأسمالية الأمريكية نحو الشرق الادنى، وحصلت على امتيازات آبار النفط في المملكة السعودية ، كما أن حكومة بريطانيا كانت تخشى من انتشار الشيوعية في الوطن العربي .

هذه العوامل دفعت بريطانية الى أن تسعى لكي تستعيد ثقة الشعب العربي، وتحتمي وراء القومية العربية التي لا تستهدف إلا الحرية والاستقلال، ولا تقبل باحلال نفوذ محل آخر، أو ابدال استعمار بمثله. وبريطانيا تعلم حق العلم أن الفوارق الاجتماعية والثقافية بين الدول العربية ، ومصالح الطبقات الحاكمة فيها، ستحول حتماً دون تحقيق الحركة

القومية لهدفها كاملاً. ولن يوفق العرب الى إقامة دولة تكون خطراً يهدد مركز بريطانيا نفسها بصورة جدية، لا سيما وان معاهداتها مع الدول العربية تكفل لها مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية وهكذا اعلنت انكلترة عن ترحيبها بقيام نوع من الاتحاد بين الدول العربية كعامل توازن جديد في منطقة الشرق الاوسط(١٥٦).

تضافرت هذه العوامل معاً، ودفعت مصطفى النحاس، رئيس وزراء مصر للعمل من اجل صيغة مناسبة للوحدة العربية، حيث وجه الدعوة إلى المسؤولين العرب لزيارة القاهرة،واتخذت المشاورات التي تمت بين مصر وكل من الدول العربية التي دعتها ، والتي استمرت من ٣١ يوليو (تموز) ١٩٤٣ ، حتى ١٠ شباط (فبراير) ١٩٤٤ طابع المشاورات الاستطلاعية(١٥٧).

ولسنا هنا بصدد متابعة هذه المشاورات، وما تبعها من دورات من الاجتماعات ، والتي أسفرت في النتيجة عن التوقيع على ميثاق الجامعة العربية ، في ٢٢ آذار (مارس) ١٩٤٥، بقصر الزعفران في القاهرة ، إذ سيكون التركيز على دور الجامعة في حياة العرب الوحدوية ، وهل كانت عامل تجميع أم عامل تفريق.

اجتمع لدول الجامعة العربية من المبررات العديدة التي لم يجتمع لغيرها من المنظمات الاقليمية الأخرى ، فالتاريخ المشترك ، والكفاح الطويل المستمد من أصول قومية عربية، والمصالح المشتركة ، وغيرها من مقومات الوحدة العربية .ومع ذلك خرجت بميثاق جسّد التجزئة ،وأصبحت أداة لتأييد تلك الحدود الضيقة . وقد لبست في سبيل تأمين استمرار التجزئة ثوب الدفاع عن سيادة كل شعب في أقطار الامة العربية .

فمن خلال مباحثات مصطفى النحاس مع نوري السعيد، تم الاتفاق على التعاون في النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، وأعتبر نوري أن اتحاد البلاد العربية، بايجاد حكومة مركزية، لا يمكن تحقيقه في الظروف الحاضرة، بسبب الصعوبات الخارجية ، وظروف البلاد العربية نفسها، إذ لكل دولة مشاكلها الخاصة ، وتتفاوت هذه الدول في الاقتصاد والثقافة (١٥٨) ، أما وفد الاردن فقد ركز اهتمامه على ضرورة تحقيق مشروع سورية الكبرى، ويعقبه استعداد الاردن التعاون في جميع المجالات، في حين أكد وفد المملكة السعودية على ضرورة التصدي لكل مشاريع عمان وبغداد (١٥٩).

أما الوفد السوري، فقد أكد حرص بلاده على إقامة أحسن الروابط بينها وبين البلاد العربية، وأقر بزعامة مصر للامة العربية ، وأبدى استعداد سوريا لتحقيق الوحدة

الكاملة(١٦٠)، في حين أكد وفد لبنان على ضرورة أن تتفهم الأقطار العربية موقفه المتحفظ من الوحدة العربية، ودعا الى الاعتراف بحدوده الحالية كدولة مستقلة ذات سيادة تامة(١٦١).

وسط هذه المواقف المتباينة والمتصارعة، حول قضية الوحدة ، خرج ميثاق جامعة الدول العربية بشكله المعروف، إذ أكد الميثاق على توطيد العلاقات العربية (على أساس احترام استقلال الدول وسيادتها) (١٦٢).

ويقول الدكتور أحمد طربين :إن الضعف الذي حكم بعض مواد الميثاق، لا تقع المسؤولية فيه على واضعيه، فهم من أقطاب القانون ،وإنما تقع على موقف قادة الدول العربية غير المتطابق. فالميثاق لم يكن في حقيقته سوى نتيجة منطقية لعملية التوفيق بين هذه المواقف المتعددة ، والتي يمكن إجمالها بمحورين .المحور العراقي ، الاردني في مواجهة محور مصر والسعودية. وهذا الانقسام لايعود الى الاتجاهات السياسية لهذه البلدان ، وإنما يرجع أساساً إلى اختلاف نزعات واتجاهات القادة العرب التي تتراوح بين الفكرة القومية العربية في أدنى حدودها والفكرة القومية العربية في أقصى حدودها(١٦٣)*.

لقد جاءت الجامعة العربية بديلاً عن حالة الفوضى وعدم التنسيق التي كانت قائمة آنذاك بين الدول العربية، ومنبراً للتعبير عن مظالم العرب وخلافاتهم .وجاءت الصيغة التي قامت عليها الجامعة مكرسة للتجزئة. فهي صيغة للتعاون الاختياري بين الدول الأعضاء، وليست خطوة على طريق الوحدة. كما أنها صيغة حكومية محصنة، لم تفسح المجال في أي من أجهزتها لأي تمثيل شعبي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت امكانات الجامعة في بلورة عمل عربي مشترك فعال للمحافظة على استقلال الدول العربية محدودة جداً في ظل الواقع العربي المليء بالتناقضات فقد استطاعات الدول الغربية ان تحافظ على مصالحها في الوطن العربي، من خلال حكومات عربية ارتبطت مصالحها بمصالح الاستعمار ،ولم تكن هذه الحكومات على استعداد لدفع النضال العربي الهادف الى التحرر من الاستعمار التقليدي ، وإزالة قواعده العسكرية من الوطن العربي، أو قطع الطريق على الاستعمار الجديد، من خلال أحكام السيطرة على ثروات الوطن العربي، واستثمارها لمصلحة التنمية العربية(١٦٤).

وكان لتأسيس الجامعة دور كبير في محاربة كل تقارب بين قطرين او ثلاثة ، وبشكل خاص الاتحاد السوري العراقي.

(*) والى المصالح الذاتية لهذه الفئة الحاكمة أوتلك اساساً (المحرر).

وهكذا لم تعتبر الجامعة العربية مركزاً للتفاعلات الاجتماعية في الوطن العربي، وإنما اعتبرت مجرد مركز للتنسيق بين السياسات العربية الرسمية .غير ان هذه السياسات بقيت دوماً معرضة لتقلبات وهزات نتيجة تقلصات الحركة الاجتماعية داخل كل قطر عربي، بسبب غياب المؤسسات القادرة على ضبط إيقاع الحركة الاجتماعية ، وتحديد مسالك سيرها دون عوائق.

وقدعلق د. سيد نوفل على محادثات تشكيل الجامعة بقوله : «إن احداً من رجالات العرب لم يجرؤ على اتخاذ خطوة رسمية فعالة لبدء المشاورات ، قبل موافقة بريطانيا صاحبة النفوذ الأول. والميثاق كان أقل بكثير مما رضيه الشعب العربي . فقد جاء الميثاق تكريساً للتجزئة بدليل كثرة مواده ، وبدليل المادة الثانية التي تنص على احترام نظم الحكم القائمة في البلدان العربية .كما تمسك المعارضون منذ اللحظة الاولى باستبعاد فكرة الدولة الواحدة، اوالحكومة المشتركة، بما يحقق مصالح الاستعمار البريطاني. هذا بالاضافة الى التزام الاحزاب العربية، والقوى السياسية بمبادئ الجامعة ، واحكام نظامها الاساسي، وبهذا اشركت بريطانيا كل الاحزاب والقوى السياسية حتى لا تستطيع فئة أن تدعي أنها لم تشارك في انشائها، وبالتالي تدعو الى التنصل منها» (١٦٥).

أما أحمد الشقيري، فقد قال في لقاء له مع محمد نجيب وعلي ماهر، عام ١٩٥٢: إن الدول العربية قبل الجامعة كانت تتسابق وتتنافس على العمل من أجل القضايا العربية ، وأما بعد الجامعة ، فقد وقف التنافس، وأصبحت الجامعة أداة للتخلص من المسؤوليات الفعلية (١٦٦).

كان لفشل الجامعة العربية في إيجاد صيغ من العمل القومي، الدافع باتجاه تحقيق الوحدة أثره في ظهور دعوة الى تكوين (جامعة الشعوب العربية)،تعمل الى جانب جامعة الدول العربية. وأساس هذه الدعوة أن ثمة اقطاراً عربية عديدة لا زالت خارج نطاق الجامعة، لعدم تمتعها بشرط الاستقلال ، كما أن بعض دول الجامعة مقيدة بمعاهدات دولية ، تحد من حريتها في العمل، أو أن النظام النيابي معطل فيها في الواقع ، مما يجعلها بعيدة عن تمثيل النزعات الشعبية تمام التمثيل ، فضلاً عما يعترض هذه الدول كلها من مشاكل داخلية او خارجية طارئة ، ما يجعلها تسعى إلى تحقيق أهداف الجامعة في كثير من الحرص والحذر . وهنا يبرز الدور الذي يمكن أن تقوم به الهيئات الشعبية والأحزاب القومية المنتشرة في جميع الأقطار العربية، بما فيها الأقطار غير المستقلة. فهذه الأحزاب، لأنها تنبثق من صميم الشعب، وتحمل معه ميوله ونزعاته ، تستطيع إذا ما تيسر لها التكتل او الاجتماع في مؤتمر دوري أن تفصح بحرية وقوة عن إرادة الامة العربية بمجموعها. ومثل هذا التكتل يؤدي الى توثيق العلاقات الشخصية بين العاملين في حقل الخدمة القومية، ويسهل عليهم تحديد الأهداف القومية العربية، ورسم الخطط الضرورية

لتحقيقها .كما يترتب عليه أن تعود مختلف الوفود إلى بلادها، عاملة على نشر وجهة النظر التي يصل اليها المؤتمر ، فتمهد لقيام وعي شعبي على أساس موحد(١٦٧).

إلا أن مصطفى النحاس رفض الفكرة،ووضع رقابة شديدة على الصحف كي لا تدعو الى أي عمل غير رسمي ، وركزت الأضواء جميعها عليه باعتباره حامل لواء العروبة الأول، ولم يكن راغباً في أن تشاركه أية هيئات أخرى في هذه المشاورات(١٦٨).

وهكذا ولدت الجامعة العربية لتعكس تناقض ظاهرتين في الوطن العربي، أولاهما ظاهرة حركة القومية العربية وسعيها نحو الوحدة العربية. وهي الظاهرة التي تتضمن اعادة النظر في الحدودالسياسية القائمة، وثانيتهما ظاهرة وجود دول مستقلة، أو في سبيل الحصول على استقلالها وسيادتها.لذلك جاءت الجامعة ظاهرة فريدة في التنظيم الدولي، منظمة إقليمية تضم دولاً متجاورة جغرافياً ، وبحكم ميثاقها تحترم سيادة كل من هذه الدول، ولكنها في الوقت عينه منظمة تعّبر بحكم وجودها نفسه، عن فكرة قومية.

الخاتمة

مما لا شك فيه، أن الأمة العربية تتمتع بجميع المقومات التي اعتبرت ضرورية، عند الاقدام على أية خطوة وحدوية .فعندها الحضارة المشتركة ، والتاريخ المشترك ، اللغة الواحدة، الوحدة الاقليمية ، المصالح المشتركة ، التكوين النفسي المشترك .

لكن مع توفر كل هذه الخصائص الايجابية ، لم يقدر لهذه الامة ان تحقق وحدتها السياسية ، ويحق لنا هنا التساؤل عن السبب؟.

ليس هناك من شك ان هذا السبب يكمن في أكثر من عامل . فرغم توفر المتغيرات التي تساعد على عملية الاندماج ، فان المتغيرات التي تؤدي إلى الفرقة تتعدد أيضاً، بحيث تخلق صوراً من التناقض الواضح بين كيانات الجسد العربي. وباستطاعتنا حصر تلك المعوقات بمجموعتين رئيسيتين المجموعة الاولى، هي المعوقات الخارجية التي تشمل الاستعمار، وما خلقه من تجزئة سياسية للمنطقة. والمجموعة الثانية : هي المعوقات الداخلية التي تندرج تحتها تناقضات خصائص النظم السياسية التي سيطرت على الوطن العربي، وتناقض المجتمعات السياسية الفرعية، والاقليمية ، وتباين المستوى الاقتصادي، وكذلك درجة الوعي القومي ،وطبيعة القوى الحاكمة.

تميزت المرحلة الأولى في بدء النهوض القومي العربي، أواخر سنوات الحكم العثماني ، بسمة اساسية ، هي أن رجالات ذلك العهد ناضلوا تحت لواء الأفكار القومية ، ضد الاتراك، دون أن يكون هناك إحساس حقيقي باختلاف ما بين الأقطار العربية، وعمل الجميع كعرب اولا. وكان هذا نتاج واقع موضوعي ، هو أن الأقطار العربية لم يقسمها الاستعماريون الى كيانات جغرافية سياسية .

واستمر العمل القومي المشترك محتفظاً بنفس سماته الأساسية ، مع اختلاف طفيف فرضته تطورات الحرب العالمية الأولى ، وتقسيم المشرق العربي الى دويلات (اتفاقية سايكس بيكو) .وناضل العرب لتحقيق أهداف واحدة في الاستقلال والوحدة. ولم يظهر في هذه الفترة ما يشير إلى أن الزعامات السياسية العربية بدأت بالتفكير بمشاكلها الاقليمية الخاصة بهذه المنطقة او تلك ، والذي يؤكد هذا الأمر اشتراك العرب من عدة اقطار في الثورة العربية الكبرى من أجل أهداف واحدة .

وأدى تقسيم المشرق العربي بين الدول الاستعمارية ، إلى ظهور واقع جديد، بالانعكاس الكبير الذي تركه الاحتلال الاستعماري على عملية ظهور كيانات سياسية جغرافية،بدأت بالتمايز فيما بينها عملياً، نتيجة لاختلاف سياسة المستعمرين إزاء كل قطر.

تركت العملية سالفة الذكر أثراً ملموساً في ظهور بدايات التفكير حول اختلاف المشاكل التي تواجه أبناء كل قطر، عن تلك التي تواجه الأقطار الاخرى، وما يستلزمه ذلك من عمل لمعالجة هذه المشاكل من قبل أبناء هذه الاقطار ، كلاً على حدة.

وأقام المستعمرون في الاقطار العربية حكومات موالية لهم، مثلت مصالح الاقطاع، وبعض شرائح البرجوازية التي ترتبط مصالحها ارتباطاً وثيقاً بمصالح المستعمرين. وقد ترك هذا الامر تأثيراً سلبياً شديداً باتجاهين، الاول: ابتعاد الحكام عن هدف الوحدة الذي يتصادم مع مصالح المستعمرين بهذه الدرجة أو تلك،ويضر بمصالحهم وبقضية تثبيت سيطرتهم على وحدات سياسية صغيرة، تسودها النزاعات ويحكمها حكام يغلّبون مصالحهم الانانية الضيقة على القضايا الكبرى لنضال أبناء الامة العربية من أجل الاستقلال والوحدة.

هذه التطورات جعلت الوعي القومي الوحدوي يتحرك في دنيا فكرية بعيدة وغريبة كلياً، على الأقل فيما يتعلق بالطريق الى الوحدة. إذ أصبح هذا الوعي فريسة تجزيئية قاتلة،جعلت مواقفه وأعماله غير منسجمة ومتناقضة سريعة التحول. لهذا كان هذا الوعي يجد نفسه متذيلاً بذيل الواقع، يركض وراءه ، يتغير بتغيره، ينساق فجأة من موقف الى آخر، ينجرف مع اندفاع الاحداث الآتي ، ويعمل دائماً في ظل عموميات مجردة لاتتصل بالواقع.

وكانت الارادة الوحدوية العربية شبه غائبة عن معظم القوى السياسية العربية داخل السلطة وخارجها.لكن هذا لم يمنع وجود أحزاب وحركات سياسية اخذت تلعب دوراً ملموساً في طرح فكرة الوحدة وطرق تحقيقها .الا ان هذه الاحزاب لم تحرز نفوذاً واسعاً في الحياة السياسية العربية، بسبب حداثة التأسيس ، وقلة الخبرة ومستوى الوعي العام. هذا بالاضافة إلى أن أحزاباً (الشيوعية خاصة) لم تطرح أي برنامج للوحدة، لقناعتها أن وراء الدعوات للوحدة التي كانت تطرح آنذاك تقف بريطانية والساسة التقليديون.

وجل ما أقدم عليه الساسة العرب أنهم طرحوا مشاريع للوحدة ارتبطت بشكل مسبق بعدم المساس بمصالح بريطانية، وارتكزت على المنطق الاقليمي الذي يضع دولاً عربية معينة (كمصر)لأسباب مختلفة في موضع يحجب مساهمتها في دفع عجلة التوحيد

خطوات إلى الامام ، وأن هذه المشاريع وضعت لخدمة سياسة أنظمة معينة كانت تجابه معارضة قوية من أنظمة عربية اخرى، فضلاً عن انها تمسكت بالمنطق الذي يرى عدم وجود فرق ما بين القضية العربية والاعتبارات الخاصة .

ورغم ان الوحدة مع سوريا ظلت تشكل هدفاً استراتيجياً بالنسبة للنظام العراقي، إلا ان الفشل كان حليفها ، لضعف الارادة عند قيادة البلدين ، وعدم استعداد شعبيهما لقبول مثل هذه الخطوة ، والتأثير المصري والمعارضة السعودية ، والاصرار العراقي على طلب الوحدة الفورية بأي ثمن ، وتحت أي ظرف،ومهما كان الاسلوب المتبع.

كل هذا يؤدي بالباحث الموضوعي إلى استنتاج ذي طابع انتقادي يشمل جميع مفاصل العمل القومي العربي، حتى وقتنا الراهن. وهو أن فكرة القومية العربية والوحدة، واجهت الاخفاق تلو الاخفاق من الناحية العملية والسياسية ، ولا يؤثر هذا بالطبع في تأكيد ضرورة الوحدة وحتميتها ، بل يكشف عن عامل هام مُعيق امام قيامها، وهو العامل السياسي الداخلي العربي الذي قام عقب الحرب العالمية الاولى . اذ كان هذا العامل الوسيلة الداخلية لجعل الضغوط الاستعمارية تأخذ كامل مداها .وتبقي الامة مكبلة بالأسلاك الشائكة لاتفاقية (سايكس بيكو) والتجزئة والكيانات الصغيرة.

الهوامش

(١) البصير، محمد مهدي: تاريخ القضية العراقية، الجزء الأول، مطبعة الفلاح ،بغداد ١٩٢٣، ص٣٥٩.

(٢) من مقال للدكتورة خيرية قاسمية بعنوان (الوطن العربي بين الاتجاه القومي وواقع التجزئة في الفترة بين الحربين العالميتين .مجلة دراسات تاريخية ، العدد ،١٢ آيار (مايو) ١٩٨٣،ص٩٣.

(٣) دروزة،عزة : الوحدة العربية، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٥٧، ص٣٥٨.

(٤) للتفاصيل انظر، انطونيوس، جورج: يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة د.ناصر الدين الاسد،ود.احسان عباس دار العلم، للملايين ،الطبعة السادسة، بيروت ١٩٨٠،ص١٨٣-١٩٣.

(٥) Jeroudi, Chafik -D -Application de mandats internationaux Irak-Toulouse 1934-P.36.

(٦) يقول اسعد داغر في مذكراته ،ان نوري السعيد كان يرى ان الحل الوحيد لقضية العرب ،هو التعاون مع الانكليز. وهذا الموقف جعل الجماهير تهتف بسقوطه في شوارع دمشق، داغر ، اسعد: مذكراتي على هامش القضية العربية ، دار القاهرة ١٩٥٩،ص١١٢.

(٧) سعيد ، أمين :الثورة العربية الكبرى ،الجزء الثاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٤،ص٣٥-٣٧.

(٨) يسن ، السيد: تحليل مضمون الفكر القومي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة الثانية ،بيروت. ١٩٨٢،ص٧٢-٧٣.

(٩) مجلة عشرون سنة بعد الحرب . العدد ١٢ ،١٩٣٩،ص ٣١ .

(١٠) يسن، السيد:مصدر سبق ذكره ، ص٧٣.

(١١) طبارة ، راشد: الانتداب وروح السياسة الانكليزية ،مطبعة طبارة ، بيروت ١٩٢٥، ص١٣-١٤.

(١٢) الحيالي، محمد جعفر :العلاقات بين سوريا والعراق من ١٩٢٠-١٩٤١، رسالة ماجستير غير مطبوعة ،كلية الآداب ،جامعة دمشق،١٩٨٥،ص٣٢.

(١٣) مجلة الوحدة ، العدد٧ ،نيسان (ابريل) ١٩٨٥، ص ٤١.

(١٤) Wilson,Lord -T.M,P-Loylties, Mesopotamia- volume II-1917 , 1920 London 1936.P.104.

(١٥) KirK ,George-E: Ashort History of the ,middle East, London ,1963-P. 138.

(١٦) Longrigg ,H,S-Iraq 1900 to 1950,Beirut, 1968,130

(١٧) الحصري،ساطع :صفحات من الماضي القريب،مركز دراسات الوحدة العربية،طبعة خاصة ،بيروت١٩٨٤،ص١٩-٢٠.

(١٨) عز الدين، د.نجلاء - العالم العربي- ترجمة محمد سيف نجم وآخرون - دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الثانية- دمشق ١٩٦٢، ص٤٣٧.

(١٩) دروزة، الحكم و. الجبوري، حامد- مع القومية العربية- دار الفجر الجديد- الطبعة الرابعة- بيروت ١٩٦٠ص١١١.

(٢٠) خدوري، مجيد: الاتجاهات السياسية في العالم العربي، الدار المتحدة للنشر، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٧٢ ،ص٤٧-٤٨.

(٢١) الحصري،ساطع: الاقليمية جذورها وبذورها ،دار العلم للملايين ،الطبعة الثانية، بيروت ١٩٦٤،ص١٣.

(٢٢) الناصر ، عبد الكريم: خلق الملوك ، مكتبة النهضة ، الطبعة الاولى، بغداد ١٩٧٣،ص١٢٢.

(٢٣) قرقوط ، د.ذوقان :تطور الحركة الوطنية في سوريا ١٩٢٠-١٩٣٩ ،دار الطليعة، الطبعة الاولى ،بيروت ١٩٧٥ ،ص ٦٠.

(٢٤) مجلة الوحدة -العدد٦-آذار (مارس) ١٩٨٥،ص٣٤ .

(٢٥) الحصري، ساطع-ابحاث مختارة في القومية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، طبعة خاصة ، بيروت ١٩٨٥ ، ص٢٧٩-٢٨٠.

(٢٦) Yowng ,Hubert -The Independent Arab,London 1933 ,P.109.

(٢٧) محاضر جلسات البرلمان السوري- المجلس التأسيسي عام ١٩٢٨ ، ص٢٢٣.

(٢٨) الحيالي ،محمد جعفر : مصدر سبق ذكره ، ص٧٣ .

(٢٩) مجلة عشرون سنة بعد الحرب– العدد١٢– ١٩٣٩، ص ٣١ .

(٣٠) الشمعة ، سامي : القضية السورية والقضية العربية في رأي كتاب العالم ،دار اليقظة العربية ،دمشق ،بلا تاريخ ،ص٤٧ .

(٣١) من مقال للدكتور عبد الكريم غرايبة ،بعنوان (تطور مفهوم النضال العربي ضد الاستعمار) في كتاب المحاضرات العامة خلال العام الجامعي ١٩٥٨–١٩٥٩ ، ص١٠٩–١١٠.

(٣٢) قاسمية ، د. خيرية :مصدر سبق ذكره ، ص٩٩.

(٣٣) الوحدة ، العدد ١٧،شباط (فبراير) ١٩٨٦، ص١٢٤.

(٣٤) خدوري ، مصدر سبق ذكره ، ص٣٣–٣٤ ،وكذلك د.قاسمية : مصدر سبق ذكره ، ص ٩١–٩٣.

(٣٥) خدوري ، مصدر سبق ذكره ، ص٣٤ .

(٣٦) العلايلي، عبد الله : دستور العرب القومي، مطبعة الكشاف، بيروت ، ١٩٤١ ،ص١٢–١٣.

(٣٧) صايغ ، انيس: الهاشميون والثورة العربية الكبرى ، دار الطليعة ، بيروت ، ص٦٦٤ .

(٣٨) حوراني ، البرت–الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨–١٩٣٩ .ترجمة كريم عزقول –دار النهار– بيروت ١٩٦١ ،ص ٣٥١ .

(٣٩) الوحدة –العدد ١٧ شباط –(فبراير)١٩٨٦ ،ص٢٧.

(٤٠) يسن :مصدر سبق ذكره ،ص٩٨.

(٤١) الوحدة ، العدد ٤٦ /٤٧ تموز /آب (يوليو/اغسطس) ١٩٨٨،ص١٥٧–١٥٨.

(٤٢) البيطار، نديم: من التجزئة الى الوحدة ، القوانين الأساسية لتجارب التاريخ الوحدوية ، مركز دراسات الوحدة العربية ،الطبعة الاولى ،بيروت ١٩٧٩، ص٢٧٨–٢٧٩ .

(٤٣) يسن،مصدر سبق ذكره، ص٨٨–٨٩

(٤٤) الحصري ، ساطع : العروبة بين دعاتها ومعارضيها ، بغداد ١٩٥٤،ص١٧٥.

(٤٥) د. قاسمية :مصدر سبق ذكره ،ص ١٠٠.

(٤٦) الوكيل ، فؤاد حسين :جماعة الاهالي في العراق ١٩٣٢-١٩٣٧ -دار الرشيد الطبعة الثانية،العراق ١٩٨٠ ،ص٨٢.

(٤٧) د. قاسمية : مصدر سبق ذكره ، ص١٠٢.

(٤٨) انظر اللقاء الذي أجراه الدكتور صفاء مع حسين جميل ،المنشور في مجلة الثقافة الجديدة ،العدد ٤ ،نيسان (ابريل) ١٩٧٨،ص٥٩ .

(٤٩) الوكيل : مصدر سبق ذكره ، ص٨٢-٨٤.

(٥٠) المصدر نفسه ، ص٨٢.

(٥١) البزاز، عبد الرحمن :محاضرات عن العراق من الاحتلال حتى الاستقلال ،القاهرة ١٩٥٤، ص٢٣٨-٢٣٩.

(٥٢) الشهبندر،عبد الرحمن :القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي ،القاهرة ١٩٣٦، ص٦.

(٥٣) د. قاسمية ، مصدر سبق ذكره ،ص١٠٣-١٠٤.

(٥٤) المصدر نفسه ، ص١٠٤ نقلاً عن رسالة من الحصري الى طه حسين ،نشرت في مجلة الرسالة ،القاهرة ١٩٣٨.

(٥٥) عن لقاء بين مجيد خدوري وساطع الحصري ،انظر خدوري ،مصدر سبق ذكره ،ص٢١٠.

(٥٦) حنا، د.عبد الله :الاتجاهات الفكرية في سوريا ولبنان ١٩٢٠-١٩٤٥ ،المطبعة التعاونية، دمشق ١٩٧٣،ص١٥-١٧.

(٥٧) المقتطف،المجلد ٨٨،الجزء٥ ،ايار ١٩٣٦،ص٦١٦

(٥٨) الحسني ،عبد الرزاق:الاسرار الخفية في حركة السنة ١٩٤١التحررية، الطبعة الثالثة، مطبعة العرفان ،صيدا ١٩٧١ ،ص١٢.

(٥٩) الدرة، محمود: الحرب العراقية البريطانية ١٩٤١،دار الطليعة- الطبعة الاولى، بيروت١٩٦٩،ص٤٧ .

(٦٠) الرسالة محفوظة في مركز الوثائق التاريخية بدمشق ،ملف الوحدة ،القسم الخاص، مجموعة اتحاد سوريا والعراق، وثيقة رقم ٢/ ٤٢٩ .

(٦١) د.الشهبندر :مصدر سبق ذكره ، ص٣٦.

(٦٢) صحيفة الايام، العدد ٥,٥١١نيسان ١٩٣٦.

(٦٣) فوزات، د. محمد حرب :الحياة الحزبية في سوريا بين ١٩٠٨–١٩٥٥ ،دار الرواد، الطبعة الاولى ،دمشق ١٩٥٥ ،ص١٨٣.

(٦٤) بكري، علي حاج :العقلية العربية بين الحربين ١٩١٨–١٩٣٩،دار الرواد ،دمشق ١٩٥٢،ص١١٣.

(٦٥) الريس، منير: الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي ، حرب العراق عام ١٩٤١،دمشق ١٩٧٧ ،ص١٩–٢٣.

(٦٦) كبة ، محمد مهدي :مذكراتي في صميم الاحداث ١٩١٧–١٩٥٨،دار الطليعة ،الطبعة الاولى –بيروت ١٩٦٥ ،ص٥٤–٥٥ .

(٦٧) المصدر نفسه ، ص ٦١.

(٦٨) د. قاسمية :مصدر سبق ذكره ،ص١٠٨.

(٦٩) الحصري :ابحاث مختارة في القومية العربية ،ص١٠٥–١٠٦.

(٧٠) عبد الرحمن ، عواطف :مصر وفلسطين ،المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب، الكويت ١٩٨٠ ،ص٣٥–٣٦ .

(٧١) سيل، باتريك :الصراع على سوريا ، دراسة للسياسة العربية بعد الحرب ١٩٤٥–١٩٥٨ ،ترجمة سمير عبده ، محمود فلاحة ،دار طلاس ،دمشق ١٩٨٣.

(٧٢) عبد الرحمن ،عواطف :مصدر سبق ذكره ، ص٧٦ .

(٧٣) المستقبل العربي : العدد ٦٤ ،حزيران (يونيو) ١٩٨٤ ،ص ٥١– ٥٢ .

(٧٤) بكري: مصدر سبق ذكره ، ص١٢٤.

(٧٥) مجلة شؤون عربية ،جامعة الدول العربية ،العدد ٥٧ ،آذار (مارس) ١٩٨٩ ، ص٣٧ .

(٧٦) دروزة ، محمد عزة :مشاكل العالم العربي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ،دار اليقظة العربية، دمشق بلا تاريخ ،ص١٩٧.

(٧٧) السيد ، جلال :حقيقة الامة العربية وعوامل حفظها وتمزقها ،دار اليقظه العربية–بيروت ١٩٧٣،ص٢٦٦ .

(٧٨) صايغ ، انيس :فلسطين والقومية العربية، مركز الابحاث ،منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت ١٩٦٦،ص٦٢–٦٤.

(٧٩) الشقيري، احمد :حوار و اسرار مع الملوك والرؤساء ، دار العودة ،بيروت بلا تاريخ، ص ٤١ .

(٨٠) الدراجي، عبد الرزاق :جعفر ابو التمّن ودوره في الحركة الوطنية في العراق ١٩٠٨ –١٩٤٥ ،الطبعة الثانية ،دار الرشيد ،العراق ١٩٨٠ ، ص٢٣٧–٢٣٨.

(٨١) دروزة ،محمد عزة :حول الحركة العربية الحديثة،الجزء الاول ، بيروت ١٩٥٩،ص٦٣.

(٨٢) دروزة ،محمد عزة :الوحدة العربية ، ص١٢٣.

(٨٣) الكيالي ، د. عبد الرحمن : المراحل في الانتداب وفي نضالنا الوطني من عام ١٩٢٦ حتى نهاية عام ١٩٣٩ ،مطبعة الضاد ، حلب ١٩٥٨،الجزء الاول ، ص ١٤٧.

(٨٤) داغر :مصدر سبق ذكره ، ص١٨٦–١٨٨.

(٨٥) نص رسالة ارسلت من شخصية عربية تعيش في القاهرة ، وعلى الأرجح انها موجهة الى الامير شكيب أرسلان الذي كان يعيش في سويسرا ، مركز الوثائق التاريخية بدمشق ،ملف الوحدة ، القسم الخاص،مجموعة اتحاد سوريا والعراق ، وهناك دراسة خاصة حول المؤتمر ،كتبتها د. خيرية قاسمية ،حول هذا المؤتمر، منشورة في هذا القسم «المحرر» ،الوثيقة رقم ٥.

(٨٦) للتفاصيل انظر، الحيالي :مصدر سبق ذكره ، ص١٠٥–١٠٦.

(٨٧) الغوري ، اميل : فلسطين عبر ستين عاماً ١٩٢٢ –١٩٣٧ ،دار النهار للنشر ، بيروت ١٩٧٢ –١٩٧٣ ، الجزء الثاني ، ص٧٦.

(٨٨) دروزة ، محمد عزة :القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها ، منظمة التحرير الفلسطينية، الجزء الاول ،ص١٣٥.

(٨٩) المكتب العربي القومي للدعاية والنشر بدمشق ،المؤتمر العربي القومي في بلودان، تحقيق فؤاد خليل مفرج، دمشق ١٩٣٧ ، ص ١–٨.

(٩٠) المصدر نفسه ، ص١٩.

(٩١) الصباغ، صلاح الدين :فرسان العروبة في العراق،الشباب العربي. بغداد ١٩٥٦،ص١٨–١٩.

(٩٢) للتفاصيل انظر– الحيالي :مصدر سبق ذكره ، ص١٧٨–١٨٢.

(٩٣) الاعظمي ، احمد عزت: القضية العربية ،اسبابها مقدماتها تطوراتها ونتائجها ،مطبعة الشعب، بغداد ١٩٣١، الجزء الرابع ،ص٥٣.

(٩٤) للتفاصيل انظر، العمري، محمد طاهر: تاريخ مقدرات العراق السياسية ، المطبعة العصرية ،بغداد ١٩٥٤ –١٩٥٥، الجزء الثالث ، ص٣٧–٥٧.

(٩٥) MAE,Series D N,Congressyro-palestien degeneve, 1921 ," Note du 25 avril 1921 " vol 599 , corres pondance d'orient, nos,273-278, et M.R-Mouton, "le congres syor -palestinien degeneve 1921" Relation internationales, no 19,automne 1979, pp. 320-321.

(٩٦) M AE,Series DN, "Rapport du consul de france du 19 september 1921" vol -599 ,no 182.

(٩٧) د. قرقوط :مصدر سبق ذكره ،ص٥٠ .

(٩٨) محافظة ، علي :موقف فرنسا والمانيا وايطاليا من الوحدة العربية ١٩١٩–١٩٤٥، مركز دراسات الوحدة العربية ،الطبعة الاولى،بيروت ١٩٨٥ ، ص١٣٤–١٣٥.

(٩٩) د. قرقوط :مصد ر سبق ذكره ،ص٤٩ .

(١٠٠) صحيفة السياسة الاسبوعية ، العدد ١٢٥–١٦ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٨،ص٢٢.

(١٠١) Childres, Eskine B. the road to suez, Macgibona-nd kee LTD, London, 1962, P. 87.

(١٠٢) صايغ، انيس: في مفهوم الزعامة السياسية من فيصل الى جمال عبد الناصر، المكتبة العصرية ، بيروت ١٩٦٥ ، ص٤٩–٥٢ .

(١٠٣) الوكيل ، مصدر سبق ذكره ،ص١٠٣

(١٠٤) بيان المؤتمر التأسيسي لعصبة العمل القومي المنعقد في قرنايل لبنان عام ١٩٣٣،ص١٠.

(١٠٥) الريس ، منير– الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي، ثورة فلسطين عام ١٩٣٦،مطابع الف باء دمشق ،١٩٧٦ ، ص١٠٣.

(١٠٦) المصدر نفسه ، ص١٠٧.

(١٠٧) الحيالي ، مصدر سبق ذكره ، مقابلة مع منير الريس في دمشق يوم ١٩٨٤/٨/٢٥.

(١٠٨) للتفاصيل انظر علوش، ناجي : الثورة ، والجماهير، مراحل النضال العربي، ودور الحركة الثورية ١٩٤٨– ١٩٦١ ،دار الطليعة ،الطبعة الثالثة ،بيروت ١٩٧٣،ص٣٤–٤٢ .

(١٠٩) خدوري، مصدر سبق ذكره ، ص١٩٦–٢٠٣.

(١١٠) مجلة النهج: مركز الابحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، العدد ٣ شباط(فبراير) ١٩٨٤، ص٢٣٣.

(١١١) المصدر نفسه ، العدد ٢، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٣ ،ص١٠٩.

(١١٢) خيري ، سعاد : من تاريخ الحركة الثورية المعاصرة في العراق، ١٩٢٠-١٩٥٨، الجزء الاول ،بغداد ١٩٧٤، ص٥٧-٥٨ .

(١١٣) الوحدة :العدد ٢٩- ٣٠ شباط (فبراير) آذار (مارس) ١٩٨٧،ص٢٥.

(١١٤) علوش:الثورة والجماهير ، ص٤٢ .

(١١٥) Khadduri, Majid: Independent Iraq 1932-1958, oxford University press, Lond,1,60,P.309.

(١١٦) سيل، مصدر سبق ذكره ص١٣-١٤.

(١١٧) السويدي ، توفيق :مذكراتي : نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٩،ص٤٣٤ .

(١١٨) مجلة عشرون سنة بعد الحرب ١٩١٨-١٩٣٩ دمشق ، العدد ١٢ ، ص٣٠- ٣١.

(١١٩) القبس :دمشق ، العدد ١٢,٥١ نيسان (ابريل) ١٩٢٩.

(١٢٠) المصدر نفسه.

(١٢١) G B,fo , "Minute of Dissussion at the Ministry fo foreign Affairs of Iraq on 27/10/1936",371/20029, and "Record of Nuri's Talks with samuel in paris in October 1936" 371/20028.

(١٢٢) G B,fo , " scheme for federation of Arab states , and Ibn saud with Accomodation for a Jewish Minority in palestine,cairo,9/9/1937,keley to foreign office ", 371/20813.

(١٢٣) الهاشمي ، طه :مذكرات طه الهاشمي ١٩١٩-١٩٤٣ مع تحقيق ومقدمة في تاريخ العراق الحديث ،بقلم خلدون ساطع الحصري ، دار الطليعة ، الجزء الاول ، بيروت ١٩٦٧،ص٣١٢.

(١٢٤) Gomma ,Ahmed, M-The foundation of the league states,London 1977-pp.10-11.

(١٢٥) ارمنازي : نجيب ، سوريا من الاحتلال حتى الجلاء ،دار الكتاب العربي ، مصر ١٩٥٦، ص١٠٤-١٠٥.

(١٢٦) القبس- العدد (١٥٢١) ،١٦تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٨.

(١٢٧) مذكرات طه الهاشمي :مصدر سبق ذكره ، ص٢٨٩.

(١٢٨) شوكت ،ناجي : سيرة وذكريات ثمانين عاماً ،١٨٩٤-١٩٧٤، دار الكتب ،الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٥ ، ص٤٢٥.

(١٢٩) الكتاب الابيض الاردني ،عمان ١٩٤٧ ،ص١٩-٢٠.

(١٣٠) الصباغ، صلاح الدين : مصدر سبق ذكره ، ص١٤٨-١٥٦.

(١٣١) Gomaa, Ahmed , M-The foundation of the league Arab states,London 1977, pp27-28.

(١٣٢) Eden Robert Anthony -Freedom And order ,selected speeches, 1939-1945,Faber and Faber ,London 1947.pp 104-105.

(١٣٣) الكتاب الابيض الاردني ، ص٢٩-٣٦.

(١٣٤) المصدر نفسه ، ص٤٨-٥٤.

(١٣٥) الروسان ، د.ممدوح :العراق وقضايا الشرق العربي القومية ١٩٤١-١٩٥٨، المؤسسة العربية للنشر، الطبعة الاولى ١٩٧٩،ص١٥٦-١٥٧.

(١٣٦) البراوي ، د .راشد: مشروع سورية الكبرى، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٧، ص٦٦-٦٧.

(١٣٧) الروسان :مصدر سبق ذكره ، ص١٥٩.

(١٣٨) صايغ، انيس- الهاشميون وقضية فلسطين ، ص٣٠٩.

(١٣٩) الروسان : مصدر سبق ذكره ، ص١٥٨.

(١٤٠) البراوي :مصدر سبق ذكره ، ص٦٥-٦٦.

(١٤١) كيللر، الجنرال- العرب والاستعمار ،دار مكتبة الحياة ،بيروت، بلا تاريخ، ص٨٠-٨١.

(١٤٢) الخوري- بشارة خليل، حقائق لبنانية من ٢١ من ايلول الى ٣١ من كانون الاول ١٩٤٦ ،منشورات اوراق لبنانية ،الجزء الثاني ، ص٢٧٦-٢٧٧.

(١٤٣) كلمة السوريين والعرب في مشروع سورية الكبرى ، تاريخ،وثائق ،وقائع ،نخبة من شباب العرب المثقف ،الطبعة الاولى ١٩٤٧ ،ص٤٢-٤٦.

(١٤٤) صحيفة الكفاح -دمشق -العدد ٨٣-١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٦.

(١٤٥) البراوي :مصدر سبق ذكره ،ص٦٢-٦٣.

(١٤٦) الجبوري :جميل، نشأة فكرة جامعة الدول العربية ، مجلة شؤون عربية، العدد ٢٥-آذار (مارس) ١٩٨٣،ص٢٠-٢١.

(١٤٧) محافظة ، د. علي :مصدر سبق ذكره ،ص٤٧٠.

(١٤٨) نوفل ،د.سيد :العمل العربي المشترك ماضيه ومستقبله ،الكتاب الاول ،معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٦٨، ص٧٠.

(١٤٩) دروزة :الوحدة العربية،ص٦٣٦.

(١٥٠) طربين ، د. احمد :الوحدة العربية في تاريخ المشرق المعاصر ١٨٠٠،-١٩٥٨ -دمشق ١٩٧٠ ،ص٤٠٨.

(١٥١) المصدر نفسه ، ص٤٠٩.

(١٥٢) شؤون عربية: العدد ٤٣ ،ايلول (سبتمبر) ١٩٨٥ ،ص٧٤.

(١٥٣) الموافي ، عبد الحميد :محرر، مصر في جامعة الدول العربية. ١٩٤٥-١٩٧٠،الهيئة المصرية العامة الكتاب ،القاهرة ١٩٨٣ ،ص٧٧.

(١٥٤) Gomaa ,Ahmed M.op.cit pp50-51.

(١٥٥) Gomaa,op.cit , pp39-41

(١٥٦) الغالي ، د. كمال : ميثاق جامعة الدول العربية، دراسة تحليلية مقارنة في القانون الدولي ،دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٨ ، ص٢٩.

(١٥٧) للتفاصيل عن هذه المفاوضات وما رافقها تراجع محاضر الجلسات المنشورة في عدة أعداد من مجلة شؤون عربية .

(١٥٨) ملخص محاضر مشاورات الوحدة العربية -طبع بمعرفة جامعة الدول العربية ، مطبعة فتحي سكر، ١٩٤٩، ص٢-٣.

(١٥٩) المشاورات،ص١٢-١٤

(١٦٠) المشاورات،ص٢٢

(١٦١) المشاورات،ص٢٣.

(١٦٢) محاضر جلسات اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربي العام في القاهرة ،ص٣٠.

(١٦٣) طربين ، د. احمد : الوحدة العربية بين ١٩١٦–١٩٤٥، مطابع دار الهلال ،الطبعة الثانية ، الجزء الاول ، ص٣٢٦–٣٣٤.

(١٦٤) الوحدة :العدد ٥٣ ، شباط (فبراير) ١٩٨٩،ص٨٧.

(١٦٥) نوفل ، سيد: مصدرسبق ذكره ، ص٦٦–٧٠.

(١٦٦) الشقيري،أحمد : أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية ، دار النهار ،بيروت ١٩٦٩، ص٣٥٢.

(١٦٧) غالي ،د. كمال :ميثاق جامعة الدول العربية ، ص٢٢٤–٢٥٧.

(١٦٨) الروسان :مصدر سبق ذكره نقلاً عن:

Fo .371/41327(J-828/31/16) -confidential (16503) No -207, Lord Killearn to Mr, Eden, Cairo 25 February 1944.

الفصل الثاني

عصبة العمل القومي
وإسهامها في الحركة القومية

أ. مصطفى بلاوني

مدخل

اتسمت فترة الثلاثينيات من القرن العشرين ، بمحاولة إبقاء فكرة الوحدة العربية حية في قلوب الجماهير ، رداً على واقع التجزئة والاحتلال . وقد شغلت هذه الفكرة الجماهير والزعماء وقادة الفكر ، وتجلت في تبادل المساعدة والعطف بين الأجزاء العربية في صراعها مع الاجنبي ، وأصبح الحدث السياسي في قطر ، يثير الجماهير في الأقطار الأخرى إثارة عفوية ، رغم الحدود والكيانات ، فتهب للعمل ، ولو بمجرد التظاهر والاضراب وجمع التبرعات، أو بانتفاضات متتالية متجاوبة مع بعضها بعضاً. ذلك أن الجماهير العربية ، تحس وتدرك أنها واحدة ، رغم اختلاف الانظمة وارتفاع الحدود ، وبذلك أصبحت هوية النضال الوطني، هوية عربية خولت كل مناضل عربي الحق بأن يشارك في المواقع الوطنية في مختلف أجزاء الوطن العربي(١).

صحيح أن كل قطر كان يناضل على حدة، في سبيل الوصول الى الاستقلال، غير أن دعاة القومية والوحدة، وجدوا في النضال في سبيل الوحدة امتداداً للجهاد في سبيل الاستقلال. وشعر زعماء الحركة الوطنية ،وهم يناضلون في سبيل الاستقلال المحلي أن الحاجة ماسة لاعتبار «المنطقة العربية»وحدة متكاملة ، فجعلوا همهم في كل مايصدر من نداءات التشديد على وجود الأمة العربية، وعلى وحدتها ، وأن النضال في سبيل الاستقلال هو خطوة ضرورية أولى نحو تحقيق الوحدة، وأن استقلال أي جزء ، هو خطوة نحو توحيده تلقائياً مع غيره ، وأن كل دولة عربية ستستخدم ، حين تتحرر وتستقل ، حريتها واستقلالها في مساعدة الدول التي لاتزال في مرحلة النضال ، وفي توثيق علاقتها بالدول التي تحررت ونالت استقلالها(٢).

وكان المظهر الأهم لمحاولة إبقاء فكرة الوحدة العربية حية، هو القيام بتأسيس عدد من الأحزاب القومية، التي وجهت دعوتها إلى أبناء الجيل اللاحق من القوميين. وكان لها عضوية مشتركة بين البلدان العربية، كما أن لها عقيدة قومية ، وبرنامج عمل قومياً(٣).

قيام عصبة العمل القومي– مبادئها النظرية:

وأسهم عدد من الشباب المثقف في سورية ولبنان وفلسطين والعراق بتأليف أحزاب سياسية، تتجاوز الشواغل القطرية، وتتعدى حدود الكيانات ، وتسمو على القضايا المحلية التي شغل بها الاستعمار ، شعوب الأمة العربية. وكان أبرز هذه الاحزاب عصبة العمل القومي. وقد ظهرت بعد عقد مؤتمرسري في قرنايل – بلبنان– سنة ١٩٣٣. كان أهم من حضره: أكرم زعيتر ، فريد زين الدين ، عبد الرزاق الدندشي، شفيق سليمان، الدكتور سيف الدين الطباخ ،علي ناصر الدين، واصف كمال ، ثابت العزاوي ، سامي شوكت .وقد أصدروا بنهاية اجتماعاته بياناً «الى العرب من عصبة العمل القومي»(٤).

درس المؤتمر الاستعمار وموقفه من القومية العربية، وطبيعته وأساليبه . ثم حدد الأهداف العليا والوسائل التي يجب علي العرب اتباعها. كذلك درس الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي العربي ، ثم حدد موقف العصبة من الفئات الأخرى، وحدد طرق عملها. وخلص البيان الى دراسة السياسة السورية التي سلكت طريق «التفاهم» فوضع خطوطاً عامة بشأنها(٥).

وفي ضوء تحليل المؤتمر لواقع العرب، تبين له أنهم سائرون في طريق التدهور في مختلف مجالات حياتهم، وبيّن أسباب تفكك الروابط الاجتماعية بين العرب بتقليد عادات الغرب وتقاليده، الأمر الذي باعد مابين العربي وأخيه ، ومابين قطر وآخر . كما أشار الى ضعف الثقافة والفكر. وتطرق البيان الى أسباب نضوب الثروات العامة ، والفقر الشخصي الذي كاد يبلغ درجة الاملاق، «بسبب استيلاء الفرنجة على منابع الثروة، وانقلاب البلاد العربية الى سوق لتصريف منتجاتهم»، وأشار البيان الى الانحدار في الأهداف القومية، حتى بات طلب الاستقلال الكامل والسيادة التامة خرقاً في الرأي ، والمطالبة بالوحدة العربية ضرباً من الخيال(٦).

وعدد البيان نقاط الضعف في العرب ، بدءاً من:

أ–كثرة النفعيين.

ب–قوة الفردية في العربي.

جـ–عدم انتظامه ، وتغلب روح الأثرة فيه، وحب التزعم والتشبث بالرأي الشخصي ، وعدم خضوعه لسنن العمل المشترك.

د–خوف العربي من الضغط الاجتماعي.

هـ–تقليده الغربي تقليداً أعمى، والاعجاب به، وضعف الثقة بالنفس.

و–تفشي الجهل، وفساد طرائق التربية والتعليم.

ز–شلل المرأة الاجتماعي، وفساد الحياة العائلية.

حـ–فساد حياة العرب الاجتماعية.

ط–تدني فضائل الخلق العربي من كرم ومروءة ونجدة وعزة وشجاعة وجرأة في الحق، وكون مابقي منها فردياً وليس قومياً.

ي–بداوة جزء هام من أبناء العرب.

ك–طبع العربي في استعجال الامور قبل أوانها.

ل–تشبثه بالأعمال الاقتصادية الفردية، وابتعاده عن فوائد الشركات، وحرمان البلاد بسبب ذلك من المشاريع الكبيرة.

م–عدم استغلال مرافق البلاد وثرواتها الطبيعية.

أما نقاط القوة فهي:

أ– عظمة التاريخ وروابط اللغة.

ب–استعداد العرب القومي للتفوق.

جـ–تعصب العربي لعقائده وإيتانه بالعجائب في سبيل ذلك.

د–موقع بلاده ووضعها الجغرافي.

هـ–ترامي أطراف البلاد العربية، وقابليتها العظمى لتطبيق سياسة اقتصادية قومية شديدة(٧).

ودرس المؤتمر الاستعمار والمستعمرين، وعرض في بيانه أساليب الاستعمار التي سلكها منذ بداية القرن العشرين «وكيف أنهم قطعوا الوعود الجسام باسم الحلفاء

للعرب- وتحت ضمانة شرف قومهم وحكوماتهم - وحين ظفروا بالأتراك ، تقدم إليهم الحلفاء المستعمرون بصفة المساعد المرشد ، ولم يمنع رفض هذه المساعدة إسداءها قسراً»(٨) واقتسموا الارض العربية فيما بينهم.

وتبسط المؤتمر في بحث الاستعمار فسرد الوقائع، وتبين له أن تدخل الاجانب في الأقطار العربية لايستهدف غير استعمارها واخضاعها لسلطانهم ، وأنهم يعتمدون في ذلك على مفعول الوقت الذي يكسبونه بوعود التفاهم والمعاهدات ، وتحت ستار بعض مترادفات كلمة الاستعمار الذي يتطور شدة، ويزداد تمكنا مع الزمن(٩).

كما عكف المؤتمر على درس طبيعة الاستعمار الحديث في منشأه بصورة عامة. فظهر له طبع الاستعمار ومنشأه الاقتصادي ،ووصل في تاريخه الى الثورة الصناعية ، وتجمع رؤوس الأموال الضخمة ، وتزاحم التجارة الأممية، وظهور حاجتها الى مواد أولية، وأسواق ومستهلكين، وظهر له بدلالة الوقائع ،كيف أن المستعمرين لا يقيمون وزناً لاعتبارات الحق أو الانسانية أو الرحمة ، وأن لاقيمة في نظرهم لإخلاف الوعد(١٠).

وعيَّن المؤتمر أهداف الاستعمار بالنسبة للعرب بوجهين.

الاول :يتعلق بالبلاد العربية نفسها (استعمار فكري ومادي).

والثاني: يتعلق باتخاذها قاعدة الاستعمار في آسيا وافريقيا ، ودوام السيطرة عليها.

كما حدد المؤتمر في بيانه وسائل المستعمرين وأساليبهم في الأقطار العربية،وكيف أنهم استعانوا على العرب بالتجزئة المادية والمَعنوية، وعمدوا الى إفساد خلق الشعب وروحه وعقله.

وفي ضوء هذا التحليل ، حددت العصبة أهدافها العليا ، فرسمت لنفسها هدفين «هما من حيث الطبع متمم أحدهما الاخر، وتحقيق كل واحد شرط لتحقيق الاخر».

أ-سيادة العرب واستقلالهم المطلقان.

ب-الوحدة العربية الشاملة(١١).

وبينت العصبة أن نوال السيادة والاحتفاظ بها، موقوف على وحدة الأقطار العربية.كما أن ازدهارها الاقتصادي ، ونهضتها الاجتماعية، يتوقفان عليها، ويستحيلان بغيرها.

لذلك اعتبرت«الوحدة العربية» القائمة على «وحدة التاريخ والتقاليد والعادات واللغة والغايات والوضع الجغرافي» جزءاً غير منفصل عن هدفها في السيادة والاستقلال (١٢).

وعلى ضوء دراسة الاستعمار ، أدركت العصبة خبث مقاصده، وبحثت في وسائل المقاومة القومية في الأقطار العربية، وتأليف جهودهم والقضاء على النعرات الاقليمية بمعناها القاصر، ووصل ما انقطع من الروابط بين الصفوف المجاهدة في كل قطر، على أن لايفهم من هذه الخطة ترك الجهاد المحلي ،بل إن تعدد الطرق الاستعمارية والمستعمرين في الأقطار العربية: جعل لكل قطر ظرفاً خاصاً، تجب معالجته بوسائل خاصة، وتتطلب وضع برامج محلية تراعى فيها الظروف القطرية ، ضمن نطاق ضوابط محددة تمنع شذوذ العمل السياسي عن الأهداف العليا(١٣).

على هذا الأساس ، فان العمل القومي في نظر عصبة العمل القومي، يستهدف تشكيل جبهات جهاد مختلفة«موحدة الجهد، متساعدة، تابعة لقيادة واحدة، تؤلف فيما بينها، وتجعل القضايا القطرية أو الاقليمية أجزاء للقضية العربية الكبرى»(١٤).

ولما كانت العصبة قد فرضت على نفسها العمل لتحقيق السيادة التامة والاستقلال المطلق، فقد أقر المؤتمر مبدأ عدم الاعتراف بالانتداب والارشاد والحماية، والالحاق، وكل صيغه من صيغ الاستعمار، وكل شكل من أشكال السيطرة والتحكم الاجنبي، وأنها لا تعترف بكل حكومة أو مؤسسة تقوم تحت ظل الاستعمار ونفوذه . وكذلك «عدم الاعتراف بما يصدر عن هذه الحكومات الاستعمارية من عهد أو عقد أو قانون أو نظام، لايحقق أهدافنا ولا يكون للبلاد فيه صالح»(١٥).

كما أقر المؤتمر محاربة الصهيونية ، وإغلاق البلاد العربية في وجهها ، ومقاطعة صناعتهم وتجارتهم ورؤوس أموالهم، وتحريم بيع الارض لهم. وبذلك تكون عصبة العمل القومي، مبادرة في إقرار مبدأ المقاطعة للصهيونية الأمر الذي تبنته الحكومات العربية بعد الاعلان عن قيام الكيان الصهيوني .

ورفضت العصبة رفضاً قاطعاً الاعتراف بوجود الأقليات المذهبية أو العنصرية أو اللغوية، وأنه ليس لسكان الأقطار العربية غير جنسية واحدة، هي الجنسية العربية، ولغة رسمية واحدة هي اللغة العربية ،واعتبرت كل إخلال بهذه الوحدة جريمة وطنية تجب مقاومتها(١٦).

وسجلت العصبة تطوراً في السياسة الاقتصادية ، فقد اعتبرت البلاد العربية وحدة اقتصادية، فدعت الى توحيد الجهود الاقتصادية في مختلف الأقطار العربية ، وضم رؤوس الاموال الصغيرة للقيام بمشاريع كبيرة ، وإزالة الحواجز الجمركية بين البلاد

العربية عن المنتوجات والصناعات العربية ، واعتبار مصلحة المجموع فوق المصالح الخاصة. كما اعتبرت العصبة البلاد العربية وحدة اقتصادية ، وسوقاً اقتصادية وطنية خالصة، لاتروج فيها غير المنتوجات والمصنوعات العربية(١٧).

وحيث أن ظروف العرب الاقتصادية غير واحدة، وهي خاضعة للظروف السياسية، فقد وجب في الاقتصاد ما وجب في السياسة، وتحتم وضع برامج اقتصادية لكل قطر، مستمدة من ظروفه وقابلياته، على أن لاتخرج على المبادىء العامة التي قررتها العصبة بهذا الشأن.

والكيان الاقتصادي الذي تنشده العصبة، يقوم على أساس قومي في الانتاج والتوزيع، لخلق نهضة سريعة في الصناعة والزراعة. وتهدف العصبة من وراء ذلك إلى قيام الدولة بالمشاريع الرئيسية الكبرى ، وتشجيع الشركات التعاونية، ومد يد المساعدة الى الجماعات والأفراد في مجال الصناعة والزراعة(١٨). كما أقرت العصبة مبدأ محاربة الاقطاعية ، وتحديد مقدار التملك العقاري، بنسبة تساعد على النمو الزراعي وحسن الاستثمار (١٩). أي أن العصبة لم تناد بالقضاء التام على الملكية الاقطاعية. مما أفسح المجال فيما بعد لقيام عناصر إقطاعية دخلت في صفوفها لمقاومة الكتلة الوطنية، متسترة وراء شعارات العصبة(٢٠).

أما في المجال الاجتماعي ، فقد بينت العصبة: «أنه ليس من الجائز اعتناق أي مذهب من المذاهب الاجتماعية، يكون من شأنه إضعاف الحس القومي، أو الخروج على التقاليد العربية الصالحة. ومن الواجب مقاومة كل عصبية غير العصبية القومية، والقضاء على العصبيات العائلية أو المذهبية أو المحلية»(٢١) التي يجب أن تذوب وتفنى في سبيل المصلحة القومية، وأن لاتتخذ أساساً للحركات الوطنية.

كما أقرت العصبة وجوب رفع مستوى المرأة الاجتماعي، وتحضير البدو، والاهتمام بالقرية، ورفع مستواها الاجتماعي والثقافي والصحي، باعتبارها الأساس الذي يبنى عليه هيكل البلاد العمراني والاجتماعي. وطالبت العصبة ، بضرورة تشجيع الزواج ، وتسهيل سبله، وتشجيع النسل، وتعليم القواعد الصحية ونشرها في سائر طبقات الامة، ومكافحة القمار والمسكر والفجور بكل وسيلة ، والعمل المستمر، وبذل قصارى الجهد لبث روح الرياضة البدنية بأنواعها ، وتشجيع مؤسساتها، ومساعدتها معنوياً ومالياً (٢٢).

أما في مجال الثقافة والتعليم : فقد أقر المؤتمر وجوب قيام برامج التعليم على أسس عملية، تساعد على تدريب الطلاب على حرية البحث العلمي والاستقلال الفكري، والتوسع

في برامج التعليم لدرس تاريخ العرب، وجغرافية بلادهم وآثارهم في العلم واللغة والأدب. وطالب المؤتمر باعتماد اللغة العربية أساسا في فروع التعليم المختلفة، وكذلك توحيد التعابير والمصطلحات العلمية والفنية في البلاد العربية. وطالبت العصبة، أن يشمل العلم سائر طبقات المجتمع، وأن لايكون الفقر حائلاً دونه. كما قررت قصر استعمال اللغات الأجنبية على البحث العلمي، والامتناع عن التخاطب بها بين العرب، ومقاومة التبشير الأجنبي بأشكاله ومظاهره المختلفة(٢٣).

والهدف من إنشاء العصبة، كما حددته في مناهجها «إنشاء كيان قومي عربي موحد مستقل» دون أن تحدد العصبة نظام هذا الكيان. وعرفت القضية العربية انها «إنشاء الدولة العربية لتحقيق الارادة العربية العامة». أما الحركة العربية فهي «بعث وتحرير وإنشاء الحركات القطرية فروع لها»(٢٤).

العصبة على الصعيد العملي:

في سبيل بلوغ العصبة أهدافها، اعتمدت على تنظيم الشعب الشامل بمختلف طبقاته، واستندت فيه بالدرجة الأولى الى الشباب. وقد اتخذت العصبة من دمشق مركزاً لها. وكان يمثلها أمين السر العام، وهو الناطق الرسمي باسمها، وقد شغل هذا المنصب عبد الرزاق الدندشي. وبعد وفاته تولى منصب أمين السر العام صبري العسلي ثم فهمي المحائري. وترتبط فروع العصبة بأمين السر العام مباشرة، والى جانبه مجلسان:

أ- مجلس المفوضين: يتألف من عدد من الأعضاء، يطلق على كل منهم اسم مفوض. فهناك مفوض للمالية، وآخر للداخلية، وثالث للدعاية الخ. ومهمة هذا المجلس إصدار قرارات التعيين في المناصب الحزبية، وإعطاء الصلاحيات، ومساعدة الأمين العام في مهامه.

ب- مجلس المديرين: ومهمته تنفيذ المقررات والتوصيات التي يقرها مجلس المفوضين، ويقبل الانتسابات الجديدة للعصبة.

وتأتي الفروع في أسفل الهرم التنظيمي، ويرأس الفرع أمين الفرع، ويساعده في تأدية مهامه مجلس مصغر، على هيئة مجلس المديرين. ويرتبط الفرع مباشرة بأمين السر العام. ويتكون الفرع من عدة نقاط ارتكاز، تتوزع في الأحياء السكنية والقرى، وتشرف على كل نقطة ارتكاز هيئة مصغرة على هيئة الفرع(٢٥). وكان للعصبة تنظيم شبه

عسكري أطلق عليه «حرس العروبة». واعتبرت العصبة أن كل عضو فيها، هو في نفس الوقت عضو في تنظيمها شبه العسكري(٢٦).

اعتمدت العصبة ،بالدرجة الأولى على الطبقة المثقفة من محامين وأطباء وطلاب المدارس الثانوية والجامعات . وعلى الرغم من دعوة عصبة العمل القومي إلى محاربة الاقطاعية ، إلا أن عدداً غير قليل من الاقطاعيين ، قد انضم الى صفوفها «عدنان الاتاسي– حمص، محسن البرازي – حماه»، كما أن أمينها العام عبد الرزاق الدندشي كان من الاقطاعيين . الا أن الصفة الغالبة في عناصر العصبة، كانت تتألف من البرجوازية الصغيرة والمتوسطة (٢٧).

وأولت العصبة بشكل خاص اهتمامها للقضية السورية، فدرس مؤتمرها التأسيسي الوضع السياسي في سورية ، وأعمال الفرنسيين فيها، وعلى ضوء تلك الدراسة، أقر المؤتمر الخطوط الكبرى لسياسة الجزء السوري من بلاد العرب كما يلي:

أولاً–ترسم العصبة لنفسها خطة سياسة دفاع اجتماعي واقتصادي وسياسي . ويجب أن تعين هذه السياسة سلوك رجال العصبة الاجتماعي والاقتصادي والسياسي حيال المستعمرين .

ثانياً: لا تأتلف هذه السياسة مع الزلفى والقربى من المستعمرين الذين يجب أن يشعروا في كل ظاهرة اجتماعية أن الاستعمار يحفر بينهم وبين العرب هوة سحيقة، وأن العرب شاعرون باهانتهم ، حريصون على كرامتهم. وأن المستعمرين ورجال الحكومات التي يقيمونها في ذلك سواسية.

ثالثاً– لايجوز لمن يدين بهذه السياسة أن يتقلد وظيفة حكومية.

رابعاً– لما كان المجلس الذي أسموه«نيابياً» انتخب أعضاؤه بقوة الجيش، وبحكم التزييف والتزوير ، وهو لايمثل الأمة، وهو رغم ذلك آلة من أخطر الالات بيد المستعمرين ، وجب العمل على حله ، والاحتكام بمصير الأمة اليها، ووجب أن يعلم بأن مايصدر عنه لايقيد الأمة بشيء.

خامساً– لما كانت الحكومة وليدة المجلس، وهي مثله لاتتمتع بثقة الأمة، وإنما هي مظهر من مظاهر الاستعمار ، وأداة لتنفيذ أغراضه ، وستار يمسحون بها كل عيب، وينزلون باسمها كل بلاء في البلاد ، لم يكن من الجائز الاشتراك بها، ويجب أن يُعلَم أنها أشد من الاستعمار خطراً ونكاية، وأن مايصدر عنها لايقيد الأمة بشيء.

سادساً–يجب أن يُعْنى بحفظ الشعور الوطني حياً يقظاً لايعتريه التبلد ، ولا تعمل فيه المخدرات ، وأن تفند مضار الاستعمار ومراميه لسائر طبقات الامة، وتشرح الأهداف الوطنية وغاياتها، ليتكون من ذلك رأي عام وطني يقظ، يحسن الحكم على الأمور وبيده فصل الخطاب.

سابعاً– لما كانت قوة البلاد الاقتصادية بلغت درجة العدم، وكان من أولى الوجائب حفظ ما بقي من الثروة العامة، وإبقاؤها في البلاد ، وجب على من يدين بسياسة العصبة أن يستغني عن الحاجات الافرنجية ، وأن يستهلك المصنوعات العربية على وجه الحصر، وأن يقصر التعامل الاقتصادي والتجاري والصناعي والمالي على المؤسسات العربية دون غيرها.

وقد ترك المؤتمر للقائمين على العمل القومي من رجال العصبة في سوريا تعيين مدارج هذه السياسة وفروعها، ضمن هذه الاسس وأسس المبادىء العامة ، تبعاً، لاستعداد القائلين بها من الأمة ووضع طرق التنفيذ لها (٢٨).

وعلى أثر المفاوضات التي دارت بين السلطة الفرنسية والحكومة المحلية لعقد معاهدة بين الطرفين ، أعلنت العصبة عقب الاجتماع الكبير الذي عقد في مركز الحزب بدمشق ،أن المعاهدة لاتحقق رغائب الشعب. ووقفت موقف المعارض منها. وقد كان لهذا الموقف من العصبة أثر كبير على حمل وزيري الكتلة الوطنية (جميل مردم ومظهر رسلان) على تقديم استقالتيهما(٢٩).

ولم تكن سياسة –اللاتعاون مع الاجنبي – وعدم تقلد أي وظيفة حكومية، إلا تعبيراً عن روح التمرد السائدة في صفوف البورجوازية الصغيرة ، ولكن هذه السياسة أخذت حدتها تخف تدريجياً ، وتمرد بعض أعضاء العصبة على هذه السياسة إلى درجة اضطرت معها قيادة العصبة فصل أحد الاطباء من عضويتها في تشرين الأول عام ١٩٣٤ لقبوله وظيفة في دائرة صحة دمشق (٣٠).

إلا أن هذه الحوادث قد تكررت لاحقاً، مما اضطر قيادة العصبة الى إغماض العين عن خرق سياسة «اللاتعاون مع الحكومات في ظل الاستعمار »(٣١).

وفي الثاني من تشرين الثاني عام ١٩٣٥، أرسلت العصبة برقية احتجاج واستنكار بمناسبة وعد بلفور، معلنة سخطها عليه. وقد منعت السلطات الفرنسية بدمشق آنذاك رجال العصبة من القيام بالمظاهرات في هذه المناسبة من أجل فلسطين(٣٢).

وخلال حوادث الاضراب الكبير في سورية، أواخر عام ١٩٣٥، وأوائل عام ١٩٣٦، شاركت العصبة في المظاهرات والحوادث التي رافقت هذا الاضراب، كما وقفت موقف

المعارض من المعاهدة السورية الفرنسية عام ١٩٣٦، لمخالفتها مبادىء العصبة التي أقرتها، ولأنها لاتحقق الوحدة السورية الشاملة والاستقلال الحقيقي(٣٣). وقد أدى موقف العصبة الرافض للمعاهدة الى انسحاب أمينها العام صبري العسلي من العصبة، وانضم الى صفوف الكتلة الوطنية، وفاز في قوائمها الانتخابية للمجلس النيابي السوري عام ١٩٣٦(٣٤).

في الثامن من تشرين الاول عام ١٩٣٦، عقدت العصبة مؤتمراً قطرياً، لدراسة الوضع السياسي في سورية، وعرضت المعاهدة السورية الفرنسية التي تفاوضت من أجلها حكومة الكتلة الوطنية، وأذاعت بياناً جاء فيه: «على الرغم مما يميز المعاهدة من تعابير المساواة التامة بين الفريقين المتعاقدين، وتنازل الفريق الفرنسي عن حقوق كان يدعيها، فانها تنتقص السيادة، وتخرج عن منطوق المصالح الضرورية. فعصبة العمل القومي، التي تقدر جهود العاملين في الحقل الوطني في داخل البلاد وخارجها، مازالت على قناعتها بأن الاستقلال لاتؤمنه العهود والبنود، بل تؤمنه ميزات الشعب وكفاءته، وحسن استعداده لمجالدة الحوادث وصراع الحياة»(٣٥).

وقد وقفت العصبة وقفة المعارض من الاتفاقيات السرية التي وقعها رئيس الوزراء السوري جميل مردم، كملاحق للمعاهدة السورية الفرنسية. وتعاونت العصبة مع المعارضة السياسية التي تزعمها الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، ضد سياسة الكتلة الوطنية. كانت الاجتماعات والمهرجانات التي تنظمها العصبة، تنتهي دائماً بعراك في الشارع بينها وبين أنصار الكتلة الوطنية(٣٦).

العصبة وقضية الاسكندرونة

وخلال النصف الاول من الثلاثينيات انتشرت فروع العصبة في مختلف المدن السورية، وكان أبرز فروعها نشاطاً في دمشق والاسكندرونة وحمص. وقد سجل فرع الاسكندرونة نشاطاً ملحوظاً، وبخاصة في أواخر عام ١٩٣٦. وحين أثار الأتراك قضية لواء الاسكندرونة، أعلن فرع العصبة أنها ستظل مثابرة على الدفاع المستبسل عن كيان البلاد، ومصالح الشعب الحيوية. ودعت كل العناصر الى مشاركتها في العمل، وإظهار تأييدها للوفد السوري الذي حمل من باريس معاهدة صداقة وتحالف بين سورية وفرنسة بحرية الوطن واستقلاله. وحثت الشعب في اللواء على الاشتراك في الانتخابات النيابية لاختيار ممثلية الأمناء على مصالح الشعب، ودعتهم ألا يتركوا مجالاً للدساسين الذين يسخرون مصلحة الشعب لاشباع أطماعهم الشخصية(٣٧).

ولما أثيرت قضية اللواء أمام عصبة الأمم، احتج فرع العصبة في اللواء على إرسال الوفد السوري المؤلف من «عبد الرحمن الكيالي ، من قادة الكتلة الوطنية، وحسن جبارة ، مدير مالية اللواء «الى جنيف للدفاع عن اللواء، وطالب استبدال شكري القوتلي وزكي الارسوزي بهما. كما وقف فرع العصبة في وجه مؤامرات الاتراك والفرنسيين ،وتهاون الكتلة الوطنية، التي كانت قد تسلمت مقاليد الحكم في سورية، ونظم مظاهرات كبيرة في اللواء، مشى بها عشرون ألفاً من العرب، أمام لجنة الخبراء الدولية التي وصلت الى اللواء لدراسة وضعه(٣٨).

وألفت العصبة الوفود لمقابلة لجنة الخبراء في اللواء ، وقدمت لها الوثائق والمستندات التي تبرهن على عروبة اللواء .وبعد عقد اتفاق جنيف في ٢٣ كانون الثاني ١٩٣٧، الذي منح تركيا بعض الامتيازات في اللواء، قادت العصبة المظاهرات في مختلف المدن السورية. وأذاعت اللجنة المركزية للعصبة في ٢٦ كانون الثاني ١٩٣٧ بياناً طالبت فيه بعقد دورة استثنائية للمجلس النيابي السوري لمعالجة الموقف، كما طالبت الحكومة السورية بالرجوع عن المعاهدة، إذا كان ثمنها ابتلاع أرض جديدة من الوطن(٣٩).

وحملت عصبة العمل القومي مسؤولية مصير اللواء للحكومة السورية ، واعتبرت تصديق الاتفاقية الخاصة باللواء من الحكومة السورية خيانة وطنية تتحمل تبعته. وأصدرت العصبة بياناً يوم ٢٩ تشرين الثاني ١٩٣٧ ، موعد بدء تنفيذ اتفاق جنيف ، استنكرت فيه موقف الوجوم الذي يقفه العرب إزاء اللواء. واعتبرت هذا اليوم من أيام بؤس العرب التي مازالت تتوالى عليهم منذ الاحتلال الفرنسي. ودعت الأمة الى الاتحاد والتضامن في سبيل استعادة الحقوق المسلوبة من أرض الوطن(٤٠).

العصبة والقضية الفلسطينية:

وكان للعصبة مواقف مشهودة في الدفاع عن قضية فلسطين، فشارك بعض أركانها في مؤتمر بلودان(سورية) عام ١٩٣٧ من أجل فلسطين ،وأسهموا في صنع قرارات المؤتمر(٤١).

مؤتمر الشباب القومي في الزبداني ١٩٣٧:

وعلى هامش اجتماعات مؤتمر بلودان، جرت اتصالات بين أركان عصبة العمل القومي في سورية، ولفيف من شباب العراق ولبنان وفلسطين ، المشاركين في المؤتمر ، لعقد مؤتمر شباب عربي قومي في الزبداني«سورية»، وتولت عصبة العمل القومي إعداد ترتيبات المؤتمر الذي عقد جلساته، مساء ١٠ أيلول ١٩٣٧ برئاسة يونس السبعاوي ، واختير لأمانة السر أكرم زعيتر وكاظم الصالح. بحث المؤتمر الوضع العربي ، وضرورة

جمع كلمة الشباب العرب القوميين ، ووضع منهاج قومي مشترك لشباب العرب القوميين من المحيط الى الخليج. واستعرض المؤتمر في هذا المجال نشاط أول تجمع قومي . المتمثل بتأسيس عصبة العمل القومي ، ومنظمة الجوال القومي، والنادي العربي ،ونادي المثنى. وقد قرر المجتمعون أنه آن الأوان لعقد مؤتمر عربي يمثل شباب العرب القوميين في جميع الأقطار العربية للقيام بواجبهم متعاونين نحو القضية العربية وتحقيق أهدافها(٤٢).

كما ناقش المؤتمر الأسباب التي حرمت هذا المؤتمر التمهيدي من تواجد ممثلي شباب مصر والسودان وشمال افريقيا. واتفق على أن يعقد المؤتمر بعد استكمال أسباب نجاحه، في إحدى العواصم الأوروبية ، حيث يتوافر الجو الحر، ويخلو من المؤثرات المحلية، أو القطرية في البلاد العربية. انتخب المؤتمر لجنة تحضيرية، حرص على أن يكون معظم أعضائها من المقيمين بدمشق ، وأضيف اليهم أكرم زعيتر، فريد زين الدين، وكاظم الصالح، وواصف كمال. وانتخب عرفان الجلاد أميناً للصندوق، وقد انفض المؤتمر على أمل الانعقاد في أقرب وقت ممكن(٤٣).

وهكذا نرى أن قضية فلسطين كانت سبباً من أسباب اجتماع كلمة شباب العرب القوميين. فقد أخذت القضية في توحيدهم، وجمع كلمتهم ، لتحديد مواقفهم إزاء قضايا البلاد العربية عامة. وانطلاقاً من مواقف العصبة القومية، فقد أسهمت في تأمين السلاح للثورة الفلسطينية، عن طريق المحامي شفيق سليمان، أحد أركان العصبة بدمشق، الذي كان يتولى الاشراف على نقل السلاح من العراق إلى فلسطين. وقد تعرض للاعتقال من قبل السلطات الفرنسية في سورية بتهمة تهريب السلاح والذخائر الى مجاهدي فلسطين(٤٤).

وفي أوائل عام ١٩٣٩ ، رفعت العصبة الى المندوب السامي في فلسطين احتجاجاً على أعمال السلطة البريطانية في فلسطين ، وإطلاق الجند البريطاني الرصاص على قبة الصخرة من الكنيس اليهودي في القدس. وطلبت وضع حد لمثل هذه الاهانات المتكررة . كما أرسل فرع العصبة في بيروت ، في أوائل عام ١٩٣٩ ، برقية احتجاج الى رئيس الوزارة البريطانية، وإلى الصحف اللندنية ، على عدم تمثيل سورية ولبنان في مؤتمر لندن، من أجل فلسطين الذي عقد في أوائل عام ١٩٣٩(٤٥).

وقد وجهت العصبة جل اهتمامها لتنوير الرأي العام العربي في القضية الفلسطينية، من خلال مقالاتها التي كانت تنشرها في صحيفة العصبة«العمل القومي»، والتي أهابت من خلال مقالاتها بالزعماء العرب سرعة نجدة عرب فلسطين ونصرتهم ومواساتهم في مصابهم، جراء أعمال السلطة المحتلة، والعصابات الصهيونية(٤٦).

وخلال عام ١٩٣٩، أعلنت العصبة أنها تعتبر اللبنانيين كأخوة وشعب واحد، ليس فيه أقلية أو أكثرية، وسواء أكانوا مسلمين أو مسيحيين. وكان ذلك لخلق روح الولاء للبنان. كما اعتبرت العصبة لبنان دولة عربية لها سياستها الخاصة، وليس قسماً من أية دولة أجنبية(٤٧).

توقف نشاط العصبة:

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية، حظرت السلطات الفرنسية في سورية نشاط الأحزاب السياسية، واعتقلت عدداً من قادتها، فاضطر رجال عصبة العمل القومي لمغادرة سورية، والالتجاء الى العراق والاردن، هرباً من السلطة الفرنسية. وركزوا نشاطهم فيها، ضمن النوادي القومية في العراق (منظمة الجوال القومي، ونادي المثنى)(٤٨). والحقيقة أن عصبة العمل القومي كانت قد بدأت بالانحلال، نتيجة السياسة التي اتبعها رجال الكتلة الوطنية، تجاه أركان العصبة، وذلك باغراء قادتها بالمناصب الحكومية، الأمر الذي أدى إلى خلل في تنظيم العصبة، وحدوث انقسامات في صفوفها. ومن ثم توقف نشاطها، خلال الحرب العالمية الثانية. ونتيجة لذلك، فقد انضم أغلب أعضائها الى الاحزاب القومية، أو الى الحزب الشيوعي. الحقيقة أن الانقسامات التي حدثت في صفوف عصبة العمل القومي، كانت انعكاسا لواقع البرجوازية الصغيرة التي أثرى بعضها، ودخل في عداد البورجوازية الكبيرة. وسار قسم منها في صفوف الجماهير الشعبية. وقد ورثت أفكار عصبة العمل القومي ومفاهيمها منظمة اكثر تطرفاً، اعتمدت على النخبة المثقفة من الشباب، ألا وهي (حركة القوميين العرب) التي تأثرت بالعصبة وأفكارها ورجالاتها ودورها. ومن أهم رجالات العصبة الذين مارسوا تأثيراً مباشراً على الحركة، كان علي ناصر الدين، حيث لعب دور (المرشد الروحي) لحركة القوميين العرب في أوائل الخمسينات(٤٩).

العصبة تستأنف نشاطها ١٩٥٤:

خلال الفترة ١٩٤٦-١٩٥٤ كانت عصبة العمل القومي ،قد أصيبت بعدد من النكسات أدت الى تشتت عناصرها، وانضمامهم الى عدد من الأحزاب السياسية السورية. وقد تبنت عدة أحزاب الدعوة القومية التي كانت العصبة ممثلة لها، فحاولت تشكيل اتحاد للاحزاب القومية. وبعد سلسلة من الاجتماعات في بيروت صيغ بنهايتها نظام داخلي، وميثاق لاتحاد الاحزاب القومية، التي تمثلت بحزب الاستقلال: العراق،الحزب الوطني:سورية،حزب النداء القومي: لبنان، نص ميثاقها على توحيد السياسة الخارجية للبلاد العربية، وتوحيد خطط التربية والتعليم فيها، وتنسيق السياسة الاقتصادية باعتبار البلاد العربية وحدة اقتصادية، وتأسيس مجلس اقتصادي أعلى لوضع الخطط

الاقتصادية لرفع مستوى المعيشة ، في البلاد العربية،وتوحيد النقد والسياسة الجمركية، وإلغاء حواجز السفر والاقامة بين البلاد العربية، وتوحيد الخطط الادارية، وخطط الدفاع والشؤون العسكرية. كما أكد الميثاق على عروبة فلسطين ، والدفاع عنها لانقاذها بأسرع وقت، وكذلك العمل على تطبيق التنظيم العسكري الكامل لتكون الامة على استعداد دائم(٥٠).

ولم تتمكن الأحزاب القومية ،ولاعصبة العمل القومي من ممارسة نشاطها في ظل الدكتاتورية العسكرية التي سيطرت على مقاليد الحكم في سورية ، اعتباراً من ٣٠ آذار ١٩٤٩، وحتى شباط ١٩٥٤، بسبب حظر نشاط الأحزاب ، خصوصاً خلال فترة حكم العقيد أديب الشيشكلي، الأمر الذي أدى الى تكتل الأحزاب السورية خلال تلك الفترة، واتفاقها على ميثاق قومي، يقضي بالوقوف صفاً واحداً في وجه الدكتاتورية العسكرية لاسقاطها. وقد تحقق ذلك في شباط ١٩٥٤. فانتهز ماتبقى من قادة عصبة العمل القومي فرصة المد القومي الذي رافق عملية إسقاط الشيشكلي لاستئناف نشاط العصبة، فدعت في حزيران ١٩٥٤ في بيان لها إلى عقد مؤتمر قومي عربي يعقد في دمشق ، وقد تضمنت الدعوة دراسة مايلي(٥١):

أولاً- القضايا السياسية:

١-القضايا السياسية العامة: الوحدة:

إن أبرز القضايا العامة في السياسة العربية، في رأي الداعين الى المؤتمر، إنما هي في العمل للوحدة العربية... للخروج بها من نطاق الفكرة، أومن نطاق الدعاية، أومن نطاق التبشير ،أومن نطاق استثمارها في برامج الأحزاب، والتزين بها في عمل الجمعيات الى نطاق العمل لها والتفرغ لمسائلها، والنظر اليها على أنها الموجه الذي يجب أن يسير السياسات الخاصة، والهدف الذي يجب أن تنتهي إليه. وأكد البيان على حقيقتين:

أولاهما :أن أجزاء العالم تتقارب وتتلاقى، وتكاد تختلق الأسباب إلى هذا التقارب والالتقاء على حين أن الوطن العربي ،وهو يزخر بكل أسباب الوحدة في كل شيء، يتفتت وينقسم لغير ماسبب أصيل.

والثانية : أن الصلات الحيوية بين أجزاء الوطن العربي تزداد تشابكاً، والعلاقات تزداد قرباً واتصالاً ، والمسؤوليات تتناوله في كل أجزائه، على حين أن الحكومات والسياسات في هذا العالم ،تنهج نهجاً عكسياً، فيكون من آثارها تقطع الصلات ، وتباعد المدى ، والتهرب من المسؤولية المشتركة.

وعن هذا كله ، ترى العصبة أن العمل للوحدة العربية أصيب بنكسة خطيرة في السنوات الاخيرة ، ولابد من تدارك هذه النكسة (٥٢).

٢-قضية فلسطين:

إن قضية فلسطين، بالكارثة التي انتهت إليها، لم تترك في حياة العرب ردّ الفعل،الذي كان يجب آن تتركه في المجتمعات والأفراد على السواء.

والداعون الى المؤتمر ، يعتقدون أن مثل هذه الكارثة، كانت جديرة أن تكون بدء اليقظة الحية المنتجة في الوطن العربي، وأن تكون الدافع الى تأليف سياساته وتوحيد كياناته، والخروج به من هذا الضعف الممزق الى القوة الموحدة.

غير أن الذي كان، يخالف ذلك مخالفة صارخة...فقد أوشك أن يسيطر الأمر الواقع، وضاع الحق الأول الأصيل في نطاق المنازعات الضيقة، والضعف الفردي والمشترك، وشغل الوطن العربي بآثار الحوادث اليومية، عن آثار الحادثة الضخمة التي مزقت كيانه.

ومامن شك في أنه لوقدر للوطن العربي قادة قوميون لايدركون غير واجبهم، لاستطاع أن يجعل من قضية فلسطين ، نقطة انطلاق موجّه صحيح في حقول السياسة والاقتصاد والاجتماع.

ولهذا ترى العصبة أن الوطن العربي يجب أن يحيا دائماً هذه الكارثة .وأن جهوده يجب أن تتجه ، وفق دراسة واضحة وتصميم سليم، إلى حماية أرضنا المهددة، واستعادة أرضنا المغتصبة ، واستئصال الخطر الصهيوني.

٣- المغرب العربي:

يؤمن الداعون الى المؤتمر أن الوطن العربي ، من أقصاه الى أقصاه ، وحدة كاملة. ولهذا فهم يرقبون الصراع الذي يدور في الجناح الغربي، في أقطار ليبيا وتونس والجزائر ومراكش. ويعتبرونه جزءا من صراع الوطن العربي ضد الاستعمار والصهيونية.

وهم يأملون أن ينتهي المؤتمر ، بعد دراسة أوضاع هذا الجزء العربي ، الى تساند القوى وتوحيد الاتجاه، والتعاون على الهدف المشترك ، في التحرر والنصر.

٤- القضايا السياسية الخاصة:

في الوطن العربي قضية واحدة كبرى هي قضية وحدته ،والعمل لهذه الوحدة.

وفي كل بلد عربي قضايا خاصة به، تستمد وجودها من الأوضاع الشاذة، التي وجد فيها خلال هذه الفترات الأخيرة من تاريخه.

والداعون الى المؤتمر يعتقدون أنه لابد من النظر في هذه القضايا الخاصة التي تتجاوز في تأثيرها النطاق الاقليمي الضيق، إلى النطاق العربي الكبير،وأن يرسموا الطريق الذي يؤول الى معالجتها..(٥٣).

ثانياً –القضايا الاجتماعية:

ان إقامة مجتمع سليم،هي الغاية الكبرى التي يستهدفها القوميون من أبناء الوطن العربي.

وهم يعتقدون أن مثل هذا المجتمع السليم، إنما يقيمه الانسان العربي السوي:

الانسان الحر المتعلم المؤمن بقومية والعامل لها.

١–عن الحرية:

الداعون للمؤتمر ،يؤمنون بأن الحريات هي التي تستطيع أن تنتزع القوى الكامنة في نفوس المجموعة العربية، ولهذا يحارب المؤتمرون الحد من هذه الحريات، كلما كانت واعية، مدركة ، بناءه.

٢–عن التعليم:

يلاحظ الداعون الى المؤتمر أن هناك أمرين أساسين في التعليم:

١–ضعف انتشار التعليم:فانه بالرغم من التقدم الواسع الذي حققته بعض البلاد العربية في نشر التعليم، فالملاحظ أن بعض البلاد الأخرى لاتزال بعيدة عن أدنى مستويات الحضارة في هذه الناحية... الأمر الذي يترك آثاره البعيدة في التطور الذي تنشده.

٢–سوء اتجاهات التعليم: فالملاحظ أن التعليم لايرافق الاعداد للحياة العربية،ولايواجهها ، ولايهيء أبناءها للحياة فيها في كثير من الأقطار.

ولهذا يعتقد المؤتمرون أن بين انتشار التعليم، في البلاد التي انتشر فيها، وبين ضرورات الحياة، من نحو دفاعي واقتصادي واجتماعي، بوناً شاسعاً..ولاسبيل الي تجاوز هذا البون،اذا لم تكن هنالك سياسة واضحة الأهداف نيرة الجوانب تضاعف الجهد المبذول في نشر التعليم، وتجعل منه جهداً مثمراً(٥٤).

٣–عن الايمان بالقومية والعمل لها بعيدا عن التيارات المذهبية المتكاثرة:

يلاحظ المؤتمرون أنه، نتيجة للقلق الذي ساد الوطن العربي،اثر الحرب العالمية الثانية، وبعد كارثة فلسطين ،أخذت مختلف المذاهب والتيارات الفكرية ، سبيلها الى الحياة العربية.. فاستثمرت حيرتها ، واستبدت بحيويتها ونشاطها، وأفادت من قلقها في توجيهها هذه الوجهة أو تلك..ولقي كل مذهب أنصاراً، ووجدت كل دعوة جماعة.. وكان من آثار ذلك كله، أن ابتعد الشباب العربي عن واقعه الحقيقي، ليعيش في أكثر الأحيان ، في مجالات التفكير المجرد، أو الافتراضات الذهنية ، أو التجارب التي لايجد لها في حياته الواقعية التطبيق الحي والصورة الصحيحة.

ولهذا يضع المؤتمرون نصب أعينهم توحيد جهود أبناء الوطن العربي ومثقفيه والعاملين لخيره، في نطاق الفكرة القومية، بحيث تكون هذه الفكرة القومية في أذهان الناس أولاً، وقبل كل فكرة أخرى، وبحيث تكون المشاكل القومية كذلك أولاً ، وقبل كل المشاكل الاخرى(٥٥).

ثالثاً –القضايا الاقتصادية:

١–الاقتصاد القومي المنهاجي:

ان أوضاع الوطن العربي الاقتصادية يجب أن تشغل مكان الصدارة من اهتمام القوميين العرب. ذلك لأن نهضتهم في الميدان الداخلي، وغلبتهم في الميدان الخارجي، وبخاصة في فلسطين ، إنما تتوقف على قدرتهم الاقتصادية، وتمكنهم من الاستفادة من القوى والخيرات في بلادهم ، وحسن استثمارها ، وتجنيدها في طريق النهضة والوحدة.

والداعون الى المؤتمر يدركون أن ذلك يستلزم توجيه الاقتصاد العربي وفق سياسة منهاجية موحدة. وفي سبيل ذلك لابد من:

أولاً–تنويع الانتاج في الوطن العربي ، فلا تتكاثر الصناعات من نوع واحد في كل بلد، على حين تشتد الحاجة إلى بعض الصناعات الاخرى.

ثانياً–تكامل الانتاج..بحيث يؤلف الوطن العربي كله ، وحدة اقتصادية متوازنة الاطراف متكاملة الجوانب(٥٦).

٢–الثروة القومية:

وفي نطاق الوضع الاقتصادي ، يصر الداعون إلى المؤتمر على أن تُولى الثروات القومية(الارض والمياه والمعادن والمناجم) عناية خاصة، بحيث تستثمر استثماراً صالحاً، ويؤول خيرها للوطن العربي وحده.

٣- البترول :

ان مسألة البترول، استثماراً وثروة ، بوجه خاص، يجب أن تنال عناية المؤتمر ، وتوجيهه التوجيه القومي الصحيح، بحيث يؤول استثماره الى العرب، ويعود نفعه عليهم(٥٧).

وأكدت العصبة في بيانها أن هذه الدعوة تستهدف دراسة المشاكل المطروحة في هذا البيان ،ووضع الحلول الصحيحة لها.

لقد جاءت هذه الدعوة من عصبة العمل القومي، لعقد المؤتمر القومي العربي في وقت أخذ المد الشعبي مداه(١٩٥٤-١٩٥٨). لقد كان المد الشعبي نتيجة عدة أسباب:

أولاً: كانت قد عقدت اتفاقات عسكرية بين سورية ومصر، وتشكلت قيادة عسكرية مشتركة.

ثانياً:ظهرت أزمة السد العالي ،وتأميم شركة قناة السويس.

ثالثاً: كانت حركة القومية العربية قد اشتعلت آنذاك وأسقطت حلف بغداد ، وحققت تضامناً عربياً ضد هذا الحلف ، ضم مصر وسورية والسعودية والاردن. وكان تضامن هذه الاقطار الأربعة، قد أثار مخاوف بريطانيا وفرنسا اللتين بدأتا تهيئان جو الحرب. (العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦).

رابعاً: التضامن الذي أظهرته سورية بقطع أنابيب النفط، وكان لذلك دور كبير في حرب عام ١٩٥٦، لأن قناة السويس كانت أيضاً قد أغلقت.

خامساً: الديمقراطية التي عرفتها ومارستها سورية آنذاك، والتي تقدمت في ظلها، وقاومت الضغط والأحلاف وحشد الجيوش التركية على حدودها الشمالية لاسقاط النظام التقدمي القائم في سورية على تعدد الأحزاب.

لقد كان هناك تعايش سلمي بين الحزب الوطني، وحزب الشعب، والحزب الشيوعي، وحزب البعث.وتجسد في تلك الفترة في سورية شعار(كل مواطن خفير). كان المواطنون يتحلقون حول الجنود ليتعلموا كيفية استعمال السلاح، وكان الجيش فعلاً جيشاً شعبياً، وكان يشعر بأن الامة كلها وراءه(٥٨).

إزاء المد الشعبي والقومي الذي أثمر بقيام الجمهورية العربية المتحدة (بين سورية ومصر) ، لم يكن ممكناً لعصبة العمل القومي معاودة نشاطها بين الأحزاب الأخرى،ذلك

أن الدعوة للوحدة العربية في إطار القومية العربية، كانت قد انتقلت من العصبة، إلى تنظيم سياسي جديد، أخذ يحتل مواقعه في صفوف الطلبة والكادحين، ألا وهو حزب البعث العربي الاشتراكي، والذي مثل التيار الرئيسي البارز في الاتجاه القومي العربي، باعتباره أول حركة سياسية عربية ربطت بين النضال القومي والنضال الاشتراكي.

والحقيقة أن عصبة العمل القومي لم تكن حزباً سياسياً بالمعنى الصحيح للحزبية، فقد كانت تمثل في برنامجها رأي الفئة المثقفة آنذاك، كما أنها تعتبر أول بذرة لنشوء الأحزاب القومية بعد الحرب العالمية الثانية.

الهوامش

١-الدكتورة خيرية قاسمية: الوطن العربي بين الاتجاه القومي وواقع التجزئة. مجلة دراسات تاريخية، العدد الثاني عشر،دمشق ،١٩٨٣، صفحة ٩١-١١٣.

٢-المصدر السابق.

٣-برزت خلال فترة الثلاثينيات من القرن العشرين مجموعة أحزاب قومية منها (الحزب القومي العربي السري -الحزب السوري القومي).ولمزيد من المعلومات عن هذه الاحزاب يمكن مراجعة

-مصطفى بلاوني:الأحزاب السياسية في سورية، مابين ١٩٢٠-١٩٣٩، رسالة ماجستير باشراف الدكتورة خيرية قاسمية ، جامعة دمشق ١٩٨٥، صفحة ١٣٦-١٤٢-١٥٧-١٩٩-٢٠٨.

٤-بيان المؤتمر التأسيسي لعصبة العمل القومي، المنعقد في قرنايل -لبنان ١٩٣٣.

٥-المصدر السابق صفحة (٣).أسهمت عصبة العمل القومي، قبيل إعلان بيانها في دراسة الوضع السياسي في سورية، الناجم عن مشروع المعاهدة السورية -الفرنسية،التي أعدها المفوض السامي(بونسوPONSOT) سنة ١٩٣٣،وسياسة التفاهم النزيه التي سارت عليها الكتلة الوطنية.

٦-بيان المؤتمر التأسيسي لعصبة العمل القومي، صفحة ٦.

٧-المصدر السابق ،صفحة ٢و٣.

٨- المصدر السابق، صفحة ٣.

٩- المصدر السابق ،صفحة ٣و٤.

١٠- المصدر السابق ،صفحة ٤.

١١- المصدر السابق ،صفحة ٨.

١٢– المصدر السابق، صفحة ٨و٩.

١٣– المصدر السابق ،صفحة ١٠و١١.

١٤– المصدر السابق ،صفحة ١١.

١٥– المصدر السابق ،صفحة ١١و١٢.

١٦– المصدر السابق، صفحة ١٢.

١٧– المصدر السابق ،صفحة ١٥.

١٨–منهاج عصبة العمل القومي :المادة (١٠)من وثائق المحامي سعيد أبو الحسن، أمين فرع عصبة العمل القومي في مدينة السويداء(سورية).

١٩–بيان المؤتمر التأسيسي لعصبة العمل القومي، صفحة ١٦.

٢٠–مقابلة شخصية مع الأستاذ نصوح بابيل ، نقيب الصحافيين سابقاً، بتاريخ ٢٢/١١/١٩٨٤.

٢١–بيان المؤتمر التأسيسي لعصبة العمل القومي ،صفحة ١٧.

٢٢–المصدر السابق، صفحة ١٨و١٩.

٢٣–المصدر السابق صفحة ١٩و٢٠

٢٤–منهاج عصبة العمل القومي، المواد (٣–٨–٩–١١).

٢٥– مقابلة شخصية مع الاستاذ سعيد أبو الحسن بالسويداء بتاريخ ١/٩/١٩٨٤، ولديه المعلومات المتعلقة بالهرم التنظيمي لعصبة العمل القومي.

٢٦–كانت التشكيلات شبه العسكرية قد انتشرت في منطقة الشرق الاوسط خلال الثلاثينيات من القرن العشرين، وكانت تعتبر أسلوباً من الأساليب التي لجأ اليها العرب لمقاومة سلطات الانتداب. ففي سورية تشكلت فرق القمصان الحديدية، وحزب الفتوة.وفي لبنان تشكل حزب الكتائب، أما في العراق فقد ظهرت منظمة الفتوة، كما تأسس في مصر حزب مصر الفتاة.

٢٧–مذكرات مخطوطة غير منشورة للمجاهد فوزي زكي الحموي أحد مجاهدي الثورة السورية ،وأيضاً:

Khoury,Philip:Syria and the French Mandate(unpublished Dessertation for the Degree of Doctor of Philosophy) Harvard university,Cambridge Massachusetts,May 1980 ,vol 3,p,1145.

٢٨–بيان المؤتمر التأسيسي لعصبة العمل القومي، صفحة ٢٦و٢٧.

٢٩–مجلة العرب الصادرة في القدس ، العدد(٣٤)، تاريخ ٢٩نيسان،١٩٣٣.

٣٠–صحيفة القبس الدمشقية ، بتاريخ ١٢تشرين الأول ، ١٩٣٤.

٣١– مقابلة شخصية مع الاستاذ محمد جميل القربي بدمشق، بتاريخ ٢٧/ ٩/ ١٩٨٤.

٣٢–يوميات أكرم زعيتر :الحركة الوطنية الفلسطينية(١٩٣٥–١٩٣٩)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ،بيروت١٩٨٠، صفحة ٩.

٣٣–مذكرات المجلس النيابي السوري، جلسة ٢٨كانون الأول، ١٩٣٦،صفحة ١٣٢.

٣٤–مقابلة شخصية مع الاستاذ سعيد أبو الحسن ،بتاريخ ١/ ٩/ ١٩٨٤.وقد أكد بأن العصبة قد طردت كلا من صبري العسلي، وأحمد الشراباتي، من صفوفها لقبولهما بالمعاهدة.

٣٥–صحيفة ألف باء الدمشقية، بتاريخ ١٩/ ١٠/ ١٩٣٦(النص الكامل لبيان عصبة العمل القومي).

٣٦– منير الريس:الكتاب الذهبي لتاريخ الثورات الوطنية في المشرق العربي–ثورة فلسطين ١٩٣٦،دمشق ١٩٧٦، صفحة ٢٩٢.

٣٧– لواء الاسكندرونة الشهيد ، إصدار عصبة العمل القومي، دون مكان، دون تاريخ، صفحة ٤٥و٤٦ . ويبدو أن موقف العصبة في اللواء المؤيد للمعاهدة مخالف لموقف العصبة بوجه عام.

٣٨– المصدر السابق صفحة ٥٤ . كانت عصبة الأمم بعد أن أثارت تركيا قضية اللواء ،قد عينت في أواخر عام ١٩٣٦ لجنةدولية أوفدتها الى لواء الاسكندرونة لدراسة وضعه . وقد تألفت هذه اللجنة من: المسيوكارون(Caron)، هولندي، والمسيوهانزهولشتاد(Hans

Holstad) نرويجي، والمسيو شارل فون فاتنفيل (Von wattenwyl) سويسري. وقد وصلت هذه اللجنة إلى اللواء في ٣١/ ١٢/ ١٩٣٦، وباشرت أعمالها. انظر مجيد خدوري قضية الاسكندرونة، دمشق ١٩٥٣، صفحة ٤٣.

٣٩–لواء اسكندرونة الشهيد، صفحة ٦٧.

٤٠–النص الكامل لبيان العصبة في المصدر السابق، صفحة ٩٧.

٤١–شارك في المؤتمر من عصبة العمل القومي كل من (عبد الكريم العائدي، زكي الجابي، أحمد الشهابي،أبو الهدى اليافي، زكي الارسوزي، ثابت العزاوي، عبد الدايم الاتاسي،عرفان الجلاد، عبد الكريم الفياض الدندشي، شفيق سليمان،علي ناصر الدين، أكرم زعيتر، واصف كمال).انظر،فؤاد مفرج: المؤتمر العربي القومي في بلودان،١٩٣٧،دمشق.صفحة ٢١–٣٤.

٤٢–أكرم زعيتر، المصدر السابق،صفحة٣٢٥–٣٢٦.

٤٣–المصدر السابق.

٤٤–المصدر السابق،صفحة ٣٨٤و٥٧٢.

٤٥–المصدر السابق،صفحة ٥٥٨و٥٦٤.

٤٦–المصدر السابق،صفحة ٤٣٦، وأيضاً مقابلة مع نصوح بابيل، بتاريخ ٢٢/ ١١/ ١٩٨٤.

Ziadeh,N:Syria and Lebanon, New york 1956.p.199.–٤٧

٤٨–أكرم زعيتر.المصدر السابق،صفحة ٦١٢.

٤٩–باسل الكبيسي: حركة القوميين العرب. تعريب نادرة الكبيسي، مؤسسة الأبحاث،بيروت ١٩٨٥،طبعة رابعة، صفحة ٨١–٨٢.

٥٠– وثائق خاصة :أوراق نبيه العظمة الشخصية،وتحوي كتاب الدعوة الموجه للأحزاب المشاركة في المؤتمر،وكذلك نص النظام الداخلي لاتحاد الأحزاب القومية، والميثاق، ومحاضر جلسات المؤتمر :الوثائق،ملف أوراق سورية، رقم ١٤/ ٩٤٢،٩٤٣،٩٣٧،٩٣٦، وقد عقدت جلسات المؤتمر، مابين ٣و٥ كانون الثاني، ١٩٤٩، في بيروت.

٥١-أوراق نبيه العظمة الشخصية ، ملف أوراق سورية ،الوثيقة رقم ١٦/١٠٣٧، النص الكامل لبيان عصبة العمل القومي، الصادر في حزيران ١٩٥٤ ،الداعي إلى عقد المؤتمر القومي العربي .

٥٢-المصدر السابق، صفحة ٦و٧ من البيان.

٥٣-المصدر السابق، صفحة٨و٩.

٥٤-المصدر السابق، صفحة١٠و١١.

٥٥-المصدر السابق، صفحة ١١و١٢.

٥٦-المصدر السابق ،صفحة١٢و١٣.

٥٧-المصدر السابق ،صفحة١٣و١٤.

٥٨- نضال حزب البعث العربي الاشتراكي ١٩٤٣- ١٩٨٠ القيادة القومية ، دمشق، ١٩٨٠ ،وأيضاً صلاح الدين البيطار ، حول تجربة البعث في الاربعينيات والخمسينيات القومية العربية في الفكر والممارسة (بحوث ومناقشات) ،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٠، طبعة ثانية ، صفحة ٣٥٦-٣٦٩.

الفصل الثالث

محاولة في العمل العربي المشترك لم تتم:
ـــــــــــ المؤتمر القومي العربي العام ١٩٣٣

د.خيرية قاسمية

مقدمة

خريطة العمل العربي في مطلع الثلاثينيات:

قامت الحركة العربية الحديثة قبل دستور ١٩٠٨ وبعده، وشملت كل البلاد العربية في آسيا، ولم تكن اقليمية «وإنما كانت من العرب والى العرب جميعاً دون تفريق ولا تمييز بين الأقطار الناطقة بالضاد»(١).ولم تقم الثورة العربية لنوازع، بل كانت نتاجا لشعور عام شامل .ورغم الآمال التي جاشت لفترة تقل عن عامين في عهد حكومة دمشق العربية، جاء فرض الانتدابات البريطانية والفرنسية على المشرق العربي، ليشتت أماني العرب في الاستقلال والوحدة. وكان من الطبيعي أن يتجه العاملون في الحقل السياسي، بعد أن غلبوا على أمرهم، نظراً لاصرار الاجنبي على تجزئة البلاد، وإثارة المنافسات، وعدم توفر مقتضيات الوحدة ،إلى التركيز على الهدف المباشر في إنجاز الاستقلال. وأصاب التصدع نواحي العمل القومي، وأخذت الاقليمية تغزو الفكرة العربية وتحيلها عن صورتها الحقيقية (٢). وتصور مجلة «العرب »(٣) الحال الذي وصلت إليه القضية العربية بعد الحرب، حيث: «تضرب فيه الأسوار بين فريق وفريق، وتقام الفواصل، وتصطنع الحدود والحواجز ، وتبتكر الأسماء المتباينة، ويضرب السياج من حول مقاطعات إقليمية».

ولم ترُقْ هذه الظاهرة المضرة لبعض عقلاء الامة رجال المبادىء ، وتنبهوا إلى الخطر الداهم، وأرادوا مناهضة تلك السياسة الملتوية، ووضعوا نصب أعينهم هدف الوحدة العربية الكاملة، واستقلال البلاد العربية التام ، وأخذوا يبثون فكرتهم بواسطة الصحافة والتأليف والأندية والأحزاب(٤)، ولم يجدوا تناقضاً بين المساعي المحلية، أو مايسمى

الوطنية المحلية، والسعي العام للوحدة العربية. ووجدوا في إنجاز الاستقلال خطوة ضرورية نحو الوحدة الشاملة، ذلك :«أن التحرير سيزيد التعاون، وتظل المطلب الأسمى الذي تقتضيه العزة وتقتضيه منفعة جميع الأقطار العربية على السواء، فبغير الوحدة تبقى الأقطار المنعزلة ضعيفة، لاتستطيع ضمان استقلالها»(٥).

ولم يكن باستطاعة سوريا الشمالية قيادة العمل القومي، فقد غلبت على أمرها بعد نكسة ميسلون، وتشدد الفرنسيون في تجزئة البلاد، وإثارة المنافسات المحلية، واجبر عشرات من زعماء الحركة الوطنية على ترك سورية، لتجنب أحكام الاعدام والنفي ، أو لأن الحياة السياسية، في ظل الحكم الفرنسي ، لم تعد محتملة. وفي الحقيقة كانت الحركة الوطنية السورية في العشرينيات ،إلى حد كبير ، حركة في المنفى، وأصبحت عمان أو القاهرة نقطة الانطلاق(٦)، والتف كثير من زعماء حزب الاستقلال، من العهد الفيصلي حول الامير عبد الله، ولكنه: «كان أملاً ضئيلاً في شرق الاردن التي كان يظن أن تحتفظ بها أيدي العرب بعد دمشق ، وتكون مبعث حركة جديدة»(٧).

وكان يرجى لسوريا الجنوبية (فلسطين): «أن تكون أمنع جانباً، وأقوى مقاومة للغارة البريطانية الصهيونية، لو بقيت الحكومة العربية الفيصلية، لأن فلسطين أصبحت بعد سقوط دمشق عضواً عربياً أبتر لا هو بنفسه يستطيع أن يكون مادة الحياة لبقائه، وتوفير المناعة للدفاع عن نفسه في وجه الغارة الصهيونية البريطانية، ولا يستطيع استمداد القوة والعون من جار عربي له ينجده ويأخذ بنصرته»(٨). وجدّ الانكليز لاقامة الوطن القومي اليهودي، وكان على فلسطين ان تواجه القوة اليهودية السياسية المنظمة الناميّة باطراد .

وقد ظل العمل القومي لانقاذ فلسطين قاصراً ، وعبرت مجلة «العرب» عن ذلك في ١٩٢٣/٥/٢٧ بقولها :«وكل مابلغ أخواننا العرب في أمرنا .... اننا فريسة بريطانيا والوطن القومي اليهودي، وأننا سنلقى مالقيت الاندلس من مصير».

وكان لتقسيم المشرق العربي تأثير مختلف في بغداد عنه في القدس أو دمشق. ففي مناورة بارعة، ضمن فيصل لنفسه عرشاً في العراق، وبنفس الوقت أنشأ مؤسسة شرعية تجمّع حولها الضباط القوميون العراقيون الذين كانوا معه منذ الثورة العربية. وكان لهم في الماضي صلات بالجمعيات العربية السرية. واختار بعض رجالات القضية العربية من السوريين والفلسطينيين أن يلحقوا بفيصل إلى بغداد. ومع أن بعض المتشددين منهم لم ترضهم سياسة التسوية التي اتبعها فيصل منذ ١٩١٩، كما لم يرضهم ظهور عرش برضى بريطانيا وشروطها (٩)، فقد أصبح العراق في عهد فيصل مركز الحركة القومية العربية. ونظراً لاستقلاله المبكر، والقوة النسبية لجيشه، كان يعتبر في موقع يمكنه من المساعدة علي تحقيق الأماني العربية. وبالنسبة لغالبية الساسة في سورية ولبنان

والاردن وفلسطين كان فيصل تجسيداً للقضية العربية، وعزز مكانته الاستقلال الذي حصل عليه(١٠). ومن جهة أخرى كان فيصل ومن حوله من ساسة العراق يعتبرون استقلال العراق كالخطوة الأولى فقط نحو هدف الوحدة العربية (١١). فقد كان فيصل وليد الثورة العربية، ووليد القوة المحركة لها، الفكرة القومية العربية،التي كانت تسعى لاستقلال ووحدة البلاد العربية في دولة واحدة. وقد فقد عرشه عام ١٩٢٠، وحلت بغداد محل دمشق كقاعدة لعملياته، ولكنه لم يفقد تصميمه لتحقيق الوحدة. وأتاح تنظيم العلاقات الانجلو – عراقية في معاهدة ١٩٣٠ الفرصة لفيصل من أجل اتباع خططه بنشاط متزايد (١٢).ومع أن بعض رجالات العراق وجدوا الاستقلال المكتسب بموجب المعاهدة منقوصاً،فان العاملين في الحقل القومي خارج العراق كانوا راضين عن ذلك العمل ،واعتبروا ذلك : «خطوة عظيمة في طريق الاستقلال ،لا للعراق وحده بل لجميع العرب»(١٣). ومنذ نهاية ١٩٣٠،وحتى وفاة فيصل ١٩٣٣، امتلأت الصحافة العربية في العراق وسوريا وفلسطين بسيل متدفق من الأخبار والمقالات التي تعالج موضوع الوحدة العربية بوجه عام ووحدة العراق وسورية بوجه خاص(١٤).

ويبدو أن فكرة توحيد العراق وسورية قد طرحت في مطلع الثلاثينيات بعد توقيع العراق المعاهدة التي أنهت الانتداب ، و«أزالت بعض القيود عن الملك». يذكر ذلك رشيد رضا في رسالته إلى شكيب أرسلان ١٩٣١(١٥). وكان الأخير أحد الداعين للفكرة، اذ قال: «إننا نحن أعضاء الوفد السوري الفلسطيني كنا نتذاكر مع فيصل في المسألة السورية، فكان يريدنا على مساعدة أخيه الملك على ان يكون ملكاً على الشام، فقلنا: إن هذا لا يتأتى منا، لانه يكون مخالفاً لقرار إخواننا رجال الكتلة الوطنية، الذين قرروا أن تكون حكومة جمهورية.،وأنت نفسك إذا مضيت في هذه السياسة، تقع في مشكل بين أخيك وبين الوطنيين السوريين. وبعد أخذ ورد قلنا : ان كان يمكنك أن تقنع الدولتين، فرنسا وانكلترا ، بعدم الاعتراض على توحيد العراق وسورية في مملكة واحدة ذات قطرين، كما، النمسا والمجر، فلا شك أن السوريين يعدلون عن الجمهورية، ويبايعونك أنت ملكاً على سورية، كما أنت ملك على العراق . ولكن في هذه الحالة يجب على العراق وسورية عقد محالفة مع المملكة السعودية، تعترف بالأمر الواقع في الحجاز». لقد كان أرسلان هو الذي عرض هذا البرنامج ، وليس الملك فيصل . وكان مراده ، كما شرح في رسالته السابقة«وضع الحجر الأول لبناء الوحدة العربية» . ولكنه وجد من المعاكسات الشيء الكثير، وكما يقول:«قيل إننا نعمل لاجل فيصل شخصياً .. وانبرى كثير من العرب لمعارضة هذا المشروع الذي كان الترك والافرنج يحسبون له ألف حساب»(١٦).

ويرى رشيد رضا(١٧) أن هذه الدعوة جاءت في وقت غير مناسب، «وأهل سورية غير مستعدين للاقتناع بقبول هذه الدعوة».فكثر خصومها،وخصوم أرسلان لاجلها«وكان الراسخون في العمل لفيصل، حتى الدكتور قدري والشهبندر، يرون ان التصريح بالدعوة

ضار في ذلك الوقت». ويعزو أحد المعارضين أسباب التحفظ(١٨) «الى أن المشروع خلاب في حد ذاته .... والشعب علي استعداد لقبول مثل هذه الفكرة».ومن وجهة نظر المعارضين كان لهذه الدعوة احتمالات خطرة، حين أخذ الفرنسيون بتشجيعها بهدف مزدوج، لتفتيت صفوف القوميين من جهة، وضمان مصالحهم البترولية من جهة أخرى(١٩). وقد بعث شكري القوتلي برسالة الى رفيقه السوري، في فلسطين ، نبيه العظمة ، عبر فيها عن تحفظات الاستقلاليين القدامى، نظراً لأن الفرنسيين يعملون على استغلال مشروع فيصل لاغراضهم الخاصة(٢٠). ولم يكتب لهذا المشروع النجاح، ولم يكن ذلك بسبب المعارضة المحلية، بل كما يقول أحد المعارضين (٢١) ، هو توتر العلاقات «بين حاميتي التاجين،فلم تعترف الواحدة للثانية بشيء، وطلع النهار على حلم فيصل وحلم كل من قبل بهذا الحل بدون تمحيص».مع ذلك فصاحب هذا الرأي يقول :«ان المشروع لوصح، بالشكل المرجو، لكان من قبيل الرمد أحسن من العمى». وكانت وجهة النظر البريطانية تعارض بشدة أية وحدة بين العراق وسوريا ،خشية أن تفتح العراق للنفوذ الفرنسي، وتضعف موقف فيصل في العراق، وقد تؤدي الى استيلاء الجماعات القومية المتطرفة على السلطة. هذا بالاضافة الى أن أي وحدة عربية أوسع كان من المحتم أن تتعارض مع الانظمة الانتدابية في المنطقة(٢٢). ومع أنه لايعرف تماماً مدى جدية العروض الفرنسية التي قدمت لفيصل، إلا انه يمكن الافتراض أن باريس كانت ستعارض ترشيح فيصل لأسباب مماثلة لتلك التي قدمتها الحكومة البريطانية :اذ أن فيصل بصلاته الوثيقة مع بريطانيا، يحتمل أن يتيح للعراقيين مجال السيطرة على الجزء السوري من الدولة الجديدة، ويستبدلون بذلك النفوذ البريطاني بالفرنسي(٢٣).

ورغم كل التحفظات والاعتراضات ، فان تواتر الشائعات في مطلع الثلاثينيات عن جهود فيصل، لتوحيد سوريا والعراق،تحت ملكية واحدة ، لاقت قبولاً لدى كثير من القوميين الشباب وغيرهم من النشطين سياسياً في البلاد العربية، والذين لم يعترفوا بعد بالحدود الاستعمارية(٢٤). وأثارت إمكانية الوحدة تفاؤلاً كبيرا في أوساطهم، بحيث مالوا الى تجاوز تحفظاتهم حول فيصل وعرشه.

بدايات الفكرة:

لقد كان، في هذه الأجواء التي سادت الأفق العربي في مطلع الثلاثينيات ، أن بدأ رجالات الحركة القومية، في المشرق العربي، يفكرون بخطة للعمل ،بعد أن أقلقهم انشغال البلاد العربية بمشاكلها الداخلية، وما رافقه من تركيز على الاتجاهات المحدودة الضيقة.

وفي ١١ حزيران/يونيو ١٩٣١، أشارت جريدة «الأيام» الدمشقية ،إلى مقال كتبه محمد عزة دروزه،عرض فيه نضال العرب من أجل الوحدة منذ العهد العثماني والثورة

العربية، وقال فيه :إنه فاتح إخوانه في دمشق وبيروت وبغداد بشأن عقد مؤتمر عربي، في دمشق أو غيرها من الأقطار العربيـة ، يكون برنامج هذا المؤتمر هو الوحدة العربيـة، ويخرج المؤتمرون منه إلى وضع نظام للعمل بواسطة لجنة تنفيذية عامة تتصل بالهيئات الوطنية في الأقطار العربية الأخرى .وبمناسبة انعقاد المؤتمر الاسلامي العام، في القدس ،أواخر كانون الاول / ديسمبر ١٩٣١(٢٥)، اجتمعت نخبة كبيرة من رجال القضية العربية، من جمعية الفتاة وحزب الاستقلال ، الذين عملوا معاً خلال العهد الفيصلي(٢٦)،ورأوا أن يغتنموا فرصة انعقاد المؤتمر الاسلامي، لتدارس أحوال بلادهم، وما آلت اليه من تجزئة، وما أصابها من الاستعمار .وتعاهدوا على العمل لتجديد عهد الحركة العربية وأهدافها. وبدون ترتيبات مسبقـة، اتفقوا على عقد مؤتمرعربي قـومي يدعون إليه من كان على فكرتهم وروحهم، من رجالات العرب الذين أتوا لشهود المؤتمر الاسلامي(٢٧). وعقد الاجتماع في ١٣ ديسمبر / كانون اول ١٩٣١، في بيت عوني عبد الهادي، وشهده نحو خمسين شخصاً(٢٨)من مختلف الأقطار العربية . وبعد المداولات تم الاتفاق علي توقيع ميثاق قومي عام،يكون بدء مرحلة نشاط جديدة، في سبيل الحركة العربية، يؤمن بالوحدة التامة، ولا يعترف بالتجزئة، ويرفض الاستعمار ويقاومه(٢٩).

واتفق على تأليف لجنة تنفيذية، لأجل الدعوة الى مؤتمر قومي عام موسع، في إحدى العواصم العربية، لبحث الوسائل المؤدية الى نشر وتحقيق الميثاق والخطط التي يجب السير عليها.وكان عدد أعضاء اللجنة ستة، ومعظم أعضائها من المقيمين في القدس ، وهم (عوني عبد الهادي، محمد عزة دروزة، صبحي الخضراء، خير الدين الزركلي، عجاج نويهض، بالاضافة الى أسعد داغر، وكان سكرتير اللجنة التفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني في القاهرة). وسجلت اللجنة نفسها كجمعية حسب قانون الجمعيات، وأخذت ترخيصاً من السلطات،ثم عهدت بسكرتيريتها الى عجاج نويهض. ووقع أعضاء اللجنة التنفيذية بياناً نشر إلى الوطن العربي،كُتب بأسلوب قوي، يشرح تكوين الحركة العربية العامة وغايتها الوحدوية وتطورها والغرض من عقد المؤتمر(٣٠).

وشهدت فلسطين سلسلة من اللقاءات السرية والعلنية، كما شهد الوطن العربي كله تحركات وأسفاراً من أجل التباحث حول المؤتمر. وكان هناك أثران للنشاط العربي من أجل المؤتر المرتقب :الأول كان على الصعيد الفلسطيني، وهو نشوء حزب الاستقلال،والأثر الثاني هو أثر تاريخي في فكر الوحدة العربية وأهدافها وبرامجها(٣١). كان المؤتمر العربي القومي في القدس ١٩٣١، هو المهد الذي نشأ فيه حزب الاستقلال. كذلك كانت الفترة المشحونة بالآمال والنشاط من أجل عقد المؤتمر المقترح، والتي استمرت سنتي ١٩٣٢-١٩٣٣، من أكثر السنوات نشاطاً في تاريخ الحزب.وقد سبقت ميلاد الحزب دعوة فكرية استقلالية، عبر المواقف والمقالات للاستقلاليين، الذين كانت

مبادئهم تعيش في نفوسهم منذ عهد الفتاة والثورة العربية(٣٢). وحرصاً على وحدة الحركة الوطنية،ومنعاً من انتشار الاقليمية والمصلحة الشخصية، وفي محاولة لتخطي الخلافات الحزبية من أجل المصلحة الوطنية فقط، واقتداءً بالقضية الاستقلالية في العراق وسوريا ، بعد أن نال العراق وضعه الجديد، وبدت مظاهر النشاط السياسي في سوريا(٣٣)،بدأت إثر المؤتمر تجري المحادثات السرية والمراسلات بين الذين عرفت أسماؤهم فيما بعد كمؤسسي حزب الاستقلال(٣٤).

وأعلن الحزب عن قيامه رسمياً في ١٢اب/اغسطس ١٩٣٢. وجاءت نصوص منهج الحزب متسقة مع مبادىء الاستقلال والفتاة، والميثاق الذي وضعه المؤتمر العربي ١٩٣١، من وحدة عربية، وإنكار للتجزئة، وكون فلسطين جزءاً من سوريا، والعمل على إلغاء الانتداب وتصريح بلفور(٣٥). وينفي أحد مؤسسي الحزب(٣٦) وجود أي يد للملك فيصل في إنشاء الحزب، أو في سيرته، أو في حياته المادية .كما ينفي أنه تلقى منه أية دفعة سياسية أو توجيه سياسي أو مساعدة مالية، رغم تطابق اسم الحزب مع حزب الاستقلال الذي قام بدمشق في عهد فيصل. ولكنه لا ينفي وجود اتصالات بين فيصل وبين الحزب في مناسبات مختلفة، لانه «غير واحد من أعضائه كان صديقاً له، وله صلات وثيقة معه في حكم وعهد دمشق». وتؤكد مجلة «العرب»الناطقة بلسان الحزب في ١٥/ ١٠/ ١٩٣٢«أن الذين قاموا بتكوين الحزب ذوو علاقة قوية ومستمرة بالقضية العربية العامة».وقد تجاوزت دائرة نشاط الحزب حدود فلسطين. وأصدر بياناً يشجب فيه كل المحاولات التي تتناول تحطيم الامة العربية. وأعلن رفضه لكل المشاريع المشبوهة في البلاد العربية(٣٧).

وأكبر القوتلي، في برقية التهنئة بانشاء الحزب، اليمين الذي أقسمه أعضاؤه المؤسسون في سبيل تحقيق أماني الامة العربية وغايتها الكبرى «ألا وهي الوحدة الشاملة والسيادة الكاملة»(٣٨). وعبرت مجلة «العرب في عددها الاول ٢٧/ ٨/ ١٩٣٢ عن هذا البعد القومي ، وهي تعرف بأهدافها « لتكون بريداً أسبوعياً يتردد على هذه الأقطار بجوائب الأخبار...داعية من دعاة القضية العربية، ورسولاً أمينًا من رسل الحركة الاستقلالية». ووجدت في عددها ١٤/ ١٠/ ١٩٣٣أن خلق حركة عربية جديدة، هي الطريق الوحيد للعمل من أجل قضية فلسطين «ولسنا نفهم للأخوة القومية معنى، غير معنى التضامن في دفع كارثة تنزل في قطر من أقطار العرب، وليس هناك كارثة تهدد غير فلسطين العربية في بنيانها القومي...فعلى إخواننا العرب أن يتدبروا في الأمر جيداً اذا كانوا لا يريدون ان تصبح فلسطين يهودية، وليسرعوا في هذا التدبير، فان الوقت عون لليهود من حيث هو خصم لنا».

مساع مكثفة لعقد المؤتمر:

بدأت أولى الخطوات التحضيرية للمؤتمر في جلسة خاصة في ٦ شباط/ فبراير ١٩٣٢ اللجنة التنفيذية التي انبثقت عن المؤتمر العربي القومي في القدس ١٩٣١، تناولت أسماء الشخصيات القومية العربية ذات الرأي والشأن في بلادها، واختارت عدداً كبيراً من بارزيهم في مصر وسورية ولبنان وغيرها، وأرسلت اليهم رسالة مكتومة، تتضمن جدول أعمال المؤتمر، مع أسئلة عن رأيهم في فكرة عقد مؤتمر قومي عربي، وفي وقت ومكان انعقاده، وبما يعن لهم من أفكار ومقترحات حول ذلك، لتستنير به اللجنة، وتسير في ضوء مايرد اليها (٣٩) منهم. والرسالة تلقي الضوء علي البرنامج العملي للفكر العربي الوحدوي، يومذاك، وكذلك في معرفة الذين كانت تتوجه اليهم، كصف نضالي طليعي، أول من أجل تحقيق الوحدة(٤٠).

وتضمن الجدول المقترح لأعمال المؤتمر الموضوعات التالية(٤١):

١- توحيد الأحزاب الاستقلالية في أوضاعها وتشكيلاتها في الأقطار العربية.

٢- توحيد العالم العربي في شكله، مع ملاحظة إضافة بعض العلامات، حفظاً لخصائص بعض الأقطار.

٣- توحيد أسماء الحكومات العربية.

٤- توحيد شكل الطوابع البريدية، وما إليها من الحوالات المالية البريدية.

٥- ضرب السكة الذهبية والفضية على صورة متماثلة، وتوحيد شكل العملة الورقية علي قدر الامكان.

٦- توحيد شكل جوازات السفر ورفع حواجز المرور والاقامة.

٧- جعل التابعية العربية حقاً لكل عربي في الأقطار العربية الأخرى.

٨- السعي لرفع الحواجز الجمركية.

٩- إنشاء الارتباط بين الغرف التجارية في الأقطار العربية.

١٠- العمل للوحدة الاقتصادية.

١١- تأسيس بنك عربي عام متحد.

١٢-تغليب مصلحة البلاد العربية على كل مصلحة سواها، في مشروعات سكك الحديد وطرق المواصلات.

١٣-رعاية المصلحة العربية العامة في جميع مايعقد من معاهدات داخلية وخارجية.

١٤-توحيد نظام الموازين والمكاييل.

١٥-توحيد المجامع العلمية ومناهج التعليم، وتسهيل القيام بالرحلات العلمية المدرسية.

١٦-ارسال بعثات المعلمين والأندية الى الأقطار العربية المحتاجة الى هذا، وتسهيل القيام بالسياحة والسفر.

١٧-تأسيس كشافة عربية متحدة علي نظام عربي محض.

١٨-توحيد شكل لباس الرأس.

١٩-السعي لحمل ملوك العرب وأمرائهم علي عقد مؤتمر خاص بهم، يجمع بينهم علي اختلاف أقطارهم .

٢٠-تعيين يوم عام عيداً للأمة العربية، ويوم عام لذكرى شهداء العرب.

٢١-وضع كتاب للقضية العربية، وكتاب تاريخ العرب (مختصر ومفصل).

٢٢-اقامة ممثلين للمؤتمر العربي الأول في الاقطار العربية.

٢٣-وضع نظام مالي للمؤتمر.

٢٤-اللجنة التنفيذية المقبلة للمؤتمر تكون الهيئة السياسية العليا الممثلة للأحزاب الاستقلالية العربية.

ومع ان نبيه العظمة لم يكن في عداد اللجنة التنفيذية، إلا انه اهتم بشهود اجتماعاتها ومناقشاتها،وأخذ يراسل من يعرفه من شخصيات العرب القوميين في مختلف الأقطار في صدد المؤتمر المزمع عقده، وحفز الهمم على عقده وإنجاحه: «حتى كاد نشاطه، وكثرة كتبه ومراسلاته، تفوق نشاط سكرتيرية اللجنة»(٤٢). وكان رشيد رضا بوصفه عضواً في اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني، قد بدأ في القاهرة بعقد لجنة التشاور في مسألة المؤتمر العربي . وكان هو الذي تولى إرسال دعوة المؤتمر إلى الأمير شكيب

أرسلان والامير عادل أرسلان وإحسان الجابري(٤٣)،(وهم أعضاء الوفد الدائم السوري الفلسطيني في جنيف) . ويبدو أن أرسلان قد وجه انتقاداً لمقترحات اللجنة التنفيذية للمؤتمر، بشأن الوحدة العربية، ووجد فيها مبالغة ، وصفها «بالسكوت عن أقرب الوسائل الى الوحدة العربية والبحث في أبعدها»(٤٤). وكان شكيب أرسلان لايزال متمسكاً بالدعاية لشخص فيصل في مشروع يصفه بأن «ظاهره الاتحاد السياسي بين سوريا والعراق».. ولكن «..اننا ما قصدنا الاّ تقوية الأمة العربية بالاتحاد، ولم نجعله قاصراً على سوريه والعراق بل كان برنامجنا، من البداية، ان يكون ابن سعود داخلاً فيه، بصورة محالفة عسكرية اقتصادية سياسية، وعلى شرط اعتراف فيصل بالامر الواقع في الحجاز، وأن يشمل هذا الاتحاد العربي اليمن أيضاً، وفيما بعد سائر إمارات الجزيرة».ولم يكن أرسلان وحده من دعاة وحدة القطرين، اذ يشير رشيد رضا في رسالة اخرى(٤٥) إلى وجود حزب كبير في مصر مؤيد لفيصل يضم الدكتور أحمد قدري قنصل العراق في مصر، والدكتور عبد الرحمن شهبندر وأسعد داغر«على اعتداله». ويقول رضا في رسالته: إن قدري قد سافر الى سوريا والعراق ، وهو ينتظر عودته ليخبره «بكنه الحال في القطرين».مع ذلك فقد وجد رضا أنه ينبغي التريث، إذ ليس من المصلحة الآن الدعاية لتوحيد القطرين، خاصة وان السعي مستمر في سبيل عقد مؤتمر عربي ، في الربيع الآتي ، وبنظره أنه سيكون «أحسن الفرص لتمحيص مسائلنا هذه كلها».

وكانت الأجوبة قد أخذت ترد من بعض من أرسلت له الدعوة، ومعظمها كان محبذاً لعقد المؤتمر، وبعضها ملحاً على ضرورته،وفي بعضها اقتراحات وأفكار في صدد أعمال وخطط المؤتمر(٤٦). ولم يتم الاتفاق على الموضع الذي يجتمع فيه. ويذكر رشيد رضا في رسالته إلى الامير شكيب(٤٧) بأن أكثر من خوطبوا بأمر المؤتمر العربي ،في مصر ، قد اجتمعوا عنده، للبحث في المسألة، واستحسن الثعالبي عقده في صنعاء. ولكن هذا ، كما يرى رضا «يشق علي أكثر المدعوين، ويحتاج الى نفقات يهون الثعالبي أمرها بمساعدة الامام التي يجزم بها. ولا ينتظر ان تأذن الحكومة المصرية به، إذا أخبرت بموضوعه كما هو».

ويؤكد رضا أن الامير شكيب لايمكنه حضوره في مصر، ولا في القدس ان تيسر عقده في أحدهما، وتيسر للأمير حضوره، ويعد رضا ان يخبر الامير بما يقرر في زمانه ومكانه وموضوعاته «البعيدة» التي اقترحتها اللجنة، و«القريبة» التي ستقترح في القاهرة.

ويقول عزة دروزة في مذكراته غير المنشورة(٤٨)،أن أكثر الأجوبة كانت تحبذ بغداد مكاناً لانعقاد المؤتمر، وتعليله لذلك أنها كانت «هي في الحقيقة المؤهلة أكثر من غيرها... في حين كانت سورية ولبنان وشمالي افريقيا رازحة تحت كابوس الاحتلال الفرنسي والانكليزي، ومن المستحيل عقد مؤتمر قومي فيها... وكانت مصر، بالاضافة الى وقوعها

تحت الاحتلال، وهيمنة الانكليز، تمر في هذا الوقت بحالة توتر، بين الملك والموالين له وللسياسة الانكليزية من جهة، وحزب الوفد من جهة اخرى، وكانت الجهة الاولى والبعيدة عن أي تفكير قومي لها السلطة، وكانت الفكرة العربية في سبات، بسبب كونها ظلت عصوراً عديدة مركزاً لسلطات تركية اسلامية مستنيمة لها دون تنبيه الى حقيقتها العربية. ولم تكن قد اندمجت في الحركة العربية الحديثة، التي جاشت في بلاد الشام،والعراق في أواخر العهد العثماني...بسبب نظامها المنفصل، والهيمنة الانكليزية،بل كانت ضدها بسبب الدعاية التركية أثناء الحرب ضد الثورة. ولم يكن اي اهتمام من جانب السعودية والامامة اليمنية للفكرة العربية. ويعدد دروزة اسباب تحبيذ العراق قوله: «إن العراق وإن كان تحت الاحتلال الانكليزي، فإن عهد فيصل أسبغ عليه صبغة قومية قوية ،وكانت الاخبار تتوالى على أن ضباطه ورجاله السياسيين كانوا معتزين بعهدهم.. وكانت الحركة العربية القومية فيه قد جاشت منذ العهد العثماني. وكان في العراق رجال كثيرون مدنيون وعسكريون مؤمنين بالفكرة القومية، واشترك كثير منهم في الثورة الهاشمية والعهد الفيصلي،وعاد كلهم أو جلهم الى العراق ، وصاروا من أركان الحكومة والسياسة والبروز فيه، وصار يقال بسبب ذلك كله: إن العراق سوف يلعب دور بروسية في توحيد الامة العربية، ويعلق القوميون العرب في بلاد الشام وغيرها عليه أعظم الآمال».

ويبدو من رسالة بعث بها رشيد رضا الى الأمير شكيب أرسلان، في ٢٩مارس/آذار ١٩٣٢(٤٩)ان اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني في القاهرة، والتي كانت بمثابة لجنة التشاور في مسألة المؤتمر العربي ،قد أوفدت أسعد داغر(٥٠) الى بغداد ،برفقة سامي السراج، بمهمة مفاوضة رجالها المرتبطين، من قبل ،بالعمل للقضية العربية، ومنهم ياسين الهاشمي، وذلك في الموضوع الذي سبق وكتب به رضا الى:« الملك والى بعضهم ،باسم اللجنة، من استئناف الجهاد القديم للوحدة العربية، والبدء بتوحيد القطرين الشقيقين».ووفقاً لما أورده رضا في رسالته السابقة، فان داغر كان قد كتب الى الملك فيصل باسم اللجنة كتاباً فيما عزمت عليه من «الرجوع في المسألة العربية إلى طورها الاول الذي قامت لأجله الثورة، وهو استقلال الامة العربية كلها، والبدء بوحدة القطرين الشقيقين ، وما يتعلق بذلك ،وطلب وعده الكتابي بتأييدها، وعطفه وعطف حكومته وشعبه والمساعدة المادية والادبية». ويقول رضا :إنه قد كتب الى الزركلي ونويهض عضوي اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي لمقابلة أسعد والسراج في طريقهما الى بغداد «لأجل التلقين الشفوي لما قررناه في مسألة وحدة القطرين،ومسألة المؤتمر العربي»(٥١). وهكذا فقد تداخلت مسألة توحيد سورية والعراق مع مشروع المؤتمر لدى رجالات القضية العربية في مصر وأوربا ، في حين لم تكن مسألة توحيد القطرين أمراً مجمعاً عليه لدى جماعة فلسطين وعمان وسوريا. ولم تكن من أولويات اهتمام اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي العام في القدس(٥٢).

وتشير مذكرات أسعد داغر (٥٣) إلى أنه كان كثير التردد علي العراق، يتمتع بصداقة رجالها وعطفهم، ويشاطر سكانها لذة الحياة في ظل الاستقلال .وهي زيارات يقول داغر: إنها كانت «لأغراض قومية سياسية، لأن آمالنا جميعاً كانت في تلك الفترة من الزمن معقودة على العراق، وقد اطلقوا عليه اسم (بيامونتي العرب). ولأن جميع رجالات العراق كانوا حينئذ في قلب واحد ورأي واحد في كل مايتعلق بمستقبل الامة العربية، واستعجال نهضتها واستقلالها ووحدتها». ويعزو داغر الى نفسه فضل التوصل الى إقناع رجالات العراق بالاسهام في المؤتمر العربي المقبل، وعلى رأسهم ياسين الهاشمي الذي لم يكن في بادئ الأمر يرى أية فائدة من مؤتمر يعقد لسماع الخطب والقصائد الحماسية،ثم ينفرط على لاشيء. وبرأيه ان العمل الصامت الحازم هو الوسيلة الوحيدة للنجاح. وكانت حجة داغر في الاقناع«أن الغرض من عقد المؤتمر هو إيجاد لجنة تنفيذية، تتولى توجيه الأمة الى مافيه خيرها، وإرشادها الى الخطط المؤدية الى تحقيق آمالها».واقترح عليه اختيار خمسة إخوان، متضامنين متجانسين من رجال الوطنية في العراق، وخمسة مثلهم من كل قطر يختارون بالتفاهم مع الهاشمي، لتؤلف لجنة تنفيذية، سرية، تتوفر لها جميع الوسائل المادية للعمل. وقبل الهاشمي الفكرة، واقترح بعض رجالات العراق الذين يمكنهم العمل والتعاون في القضية العربية، لكنه أبدى تحفظه عن القيام بأي عمل من هذا النوع ، قبل الحصول على تأييد الملك فيصل.

ولما اجتمع داغر بالملك، عرض عليه موضوع المؤتمر والغرض منه، راجياً منه أن يفكر في خير الوسائل اللازمة لوضع زمام القضية العربية في أيدي رجالها المخلصين، وتوفير الأسباب الكافية لتمكينهم من العمل الجدي بقوة وحزم.واقترح داغر أن تتكون لجنة سرية تأخذ على عاتقها قيادة الامة. ورحب فيصل بالفكرة.

وبعد مداولات مع رجالات العراق، تألفت لجنة من الهاشمي وجميل المدفعي وعلي جودت ومولود مخلص ونوري السعيد،(والاربعة الأوائل من زعماء المعارضة). وينسب داغر لنفسه فضل إقناع زعماء المعارضة الى العمل بقيادة فيصل، على ايصال سوريا والبلاد العربية الأخرى إلى مثل ما وصلت إليه حالة العراق، واتفق على ان ينضم الى أعضاء اللجنة،وبالتفاهم معهم عدد من رجالات الأقطار العربية الأول(٥٤).

ووفقاً لما ذكره داغرفي مذكراته احتلت المسألة السورية الأولوية في مداولات الاجتماع الأول للجنة،ووقع الحاضرون كلمة موجهة الى قادة الرأي العام، في سوريا، يعلنون فيها «أن العراق اضطر الى انتهاج السياسة الاقليمية، اضطراراً، لكي يتمكن من تحطيم القيود التي تغل يده عن العمل في حقل القضية العربية. وقد وفق الى ذلك بعد أن أوصل قضيته الى مرحلة لابد له من التريث والتحفز للوثبة المقبلة، التي يسترد بها حريته الكاملة واستقلاله التام. ولذلك رأينا تأليف لجنة منا تعمل، باسم العراق، على إنقاذ

سوريا، وتحقيق آمال العرب في مختلف أقطارهم ، على أن ينضم إليها فريق من إخواننا الوطنيين ، باسم الأقطار العربية الأخرى ، للعمل معا في هذا المضمار . ويهمنا أن نرجو من إخواننا السوريين، بنوع خاص، المثابرة في جهادهم وتوحيد صفوفهم،وعدم تسرب اليأس الى نفوسهم، والاعتماد علي العراق ، خاصة ، والشعوب العربية،عامة، في تذليل العقبات القائمة في طريق حريتهم واستقلالهم. ولا يخامرنا شك في أن رجالات العرب العاملين،الان،في حقل السياسة الاقليمية،يجب أن يواصلوا جهودهم في خدمة هذه السياسة التي عادت علينا بفوائد كبيرة، وان لجأنا اليها مضطرين»(٥٥). وقبل مغادرة داغر بغداد عادت اللجنة للاجتماع، مرة أخرى، وقررت تكليف ياسين الهاشمي القيام برحلة في البلاد العربية، للتفاهم مع رجالاتها في الموضوع...

ويؤيد رشيد رضا في رسالة الى شكيب ارسلان (١٥ ابريل/نيسان ١٩٣٢)(٥٦) ماأورده داغر في مذكراته عن نجاح مساعيه في بغداد ،وعن اتفاق الزعماء، هناك،على «تأليف لجنة للعمل معنا، ومع إخواننا في سورية وفلسطين. كما يؤكد خبر الزيارة التي يزمع الهاشمي القيام بها الى سوريا وفلسطين ،ويذاكرهم في الموضوع».وقام رشيد رضا بابلاغ لجنة المؤتمر التنفيذية في القدس بشأن مباحثات داغر في بغداد .

أما بشأن الزيارة التي سيقوم بها ياسين الهاشمي الى فلسطين، يقول رضا لإخوانه في القدس،«الغرض المهم ان تتخذوا الوسائل لاقناع ياسين باشا، عقلاً وقلباً ووجداناً، بان جمعيتنا الأولى وحزبها لم يموتا، بما شغلهما من الجهاد الاقليمي الموضعي، وان رجالها المخلصين يرون أن السعي الخاص يجب أن يكون في دائرة السعي العام الذي هو الغرض الأسمى، وأن الأوان قد آن لاستئنافه، وان فترة سكونه كلها سببها ضعف كل منهما في موضعه. أما وقد عاد لأحدهما ما كان للآخر قبله، من قوة وفرصة للعمل،فالواجب ان يكون هو المركز العام».

ويضيف رشيد رضا، في رسالته الى شكيب أرسلان، مزيداً من التفاصيل عن المرحلة التي تلت إنشاء لجنة بغداد، وشهدت المساعي لاتمام تأليف اللجنة العربية العليا بالتنسيق مع بغداد.وقد أخذ رضا يبتعد في رسائله عن محور الاهتمام– أي المؤتمر العربي العام –لتشغله مسألة اتحاد العراق وسوريا ، علي انها «استئناف السعي لوحده الامة واستقلالها »(٥٧). ويشير إلى ضرورة وجود بعض رجال سوريا العاملين المجاهدين في مركز العمل الجديد (ويقصد بغداد) يكون رابطة الوصل. ويقترح إنشاء صحيفة عربية في بغداد :«تكون إدارتها مركزاً لمن تقتضي الحال إقامته، في بغداد، من إخواننا السوريين الذين يعملون هناك مع إخوانهم». ويرى رضا أن مسألة اتحاد القطرين، «كخطوة نحو الوحدة العربية قد دخلت في طور العمل ،وأنها لا تتوقف على المؤتمر». إذ هي أمر واقع، ليس لأن لجنة قد ألفت لها في بغداد من الحكوميين والمعارضين جميعاً، بل

لان سكرتيرها (يقصد علي جودت) كتب الى سكرتير لجنتنا (يقصد أسعد داغر) انه قابل الملك مع جميل باشا،بعد عودته من إيران، فأخبرهما أنه جاءته مكتوبات من رجال العرب العاملين تشكر له عنايته بالموضوع.. وقد زادته هذه اهتماماً بالمشروع، ووعد بالطلب إلى نوري وياسين بوجوب العناية بالمشروع». ويرى رضا:« ان ياسين باشا من أرجح العاملين للوحدة العربية، ولا يعقل البدء بها إلا بتوحيد القطرين، وإنما كان يخشى ان تثبطه قلة ثقته بالملك، وثقة الملك به، أو منع المعارضة أن يعمل بالاتفاق معه ومع رجال حكومته». وينقل رضا رأياً كان الهاشمي قد أسرّ به إلى داغر:«بأن المصلحة العربية أن يكون الملك طامعاً في توسيع ملكه بضم سوريا اليه، لأجل أن نضمن مساعدته عليه».وهذا بنظر رضا يدل على أن الهاشمي يتمنى نجاح المشروع بمساعدة الملك(٥٨).

ونظراً لانشغال العاملين في القضية العربية، في القاهرة وجنيف ، بمسألة اتحاد القطرين، بحيث تراجعت فكرة المؤتمر العربي العام الي المرتبة الثانية، كان على رشيد رضا أن يعيد تذكير شكيب أرسلان بدعوة المؤتمر، التي أرسلتها اليه لجنة القدس، وذلك رداً على اقتراح أرسلان بعقد مؤتمر، في بغداد ، لطرح قضية الوحدة العربية عليه. فالمؤتمر العربي، يقول رضا:«مقرر من قبل تأليف اللجنة الجديدة في بغداد ، وتأليفها هو الذي رجح عندنا عقده في بغداد ».ويقترح رضا بأن يقوم الأمير شكيب وإحسان الجابري بالاسراع إلى الرد علي دعوة المؤتمر وزمانه. أمّا بالنسبة لموضوعات المؤتمر المقبل، والتي بلغت خمساً وعشرين، كما وضعتها لجنة القدس، فإن رشيد رضا يعتبر أكثرها من «الكماليات الخيالية»،وان اللجنة التنفيذية، في القاهرة، قررت الاقتصار على خمسة: «مقترحات فقط:

-مسألة الوحدة العربية على قاعدة البدء بتوحيد سورية الطبيعة مع العراق.

-السعي لعقد الحلف بين الحكومات العربية المستقلة.

-السعي لتوحيد نظام التربية والتعليم والثقافة العربية العامة، ويدخل فيها تأليف لجنة أو لجان لتأليف كتب المدارس، والكتب التي تنشر للعامة والقصص والأناشيد والأغاني القومية.

-وضع نظام مالي للمؤتمر العام وللجانه الفرعية.

-التعارف بين الأحزاب والجمعيات العربية»(٥٩).

وفي أواخر حزيران/يونيو ١٩٣٢ تمت زيارة ياسين الهاشمي المرتقبة الى فلسطين. ويعتبر دروزه(٦٠) أن الهاشمي هو من «كان يراه متحفظاً بشأن المؤتمر الى حين

قدومه فلسطين. وهذا أمر أكده رشيد رضا في رسالته الى أرسلان ٣٠ يونيو/حزيران ١٩٣٢(٦١).

ويعلل رضا أسباب التغير الى تجديد حزب الاستقلال العربي، بتأليف لجنة له غير لجنة المؤتمر: «وهذه اللجنة هي التي استقبلت ياسين الهاشمي، هذا الأسبوع، بحفاوة، فرأى منهم هيئة عاملة قوّت أمله بلجنة بغداد التي أعرض عنها، وروى أنه استقال منها(٦٢). وقد وعدهم بأخذها باليمين». ويقول رضا: أنه كان قد كتب إلى إخوانه، في فلسطين، بما ينبغي لهم معه من تقوية عزمه وأمله بزعامة الامة العربية، وبأن السعي للوحدة العامة ولتوحيد القطرين لا بد منه، على كل حال. وأنه لايمكن، بدونه، طلب عطف الملك، والعمل مع نوري باشا».

وتصف مذكرات دروزة غير المنشورة(٦٣) المداولات التي دارت، بين رجالات فلسطين وسوريا وياسين الهاشمي، حيث جددوا عهدهم به بعد فراق عشر سنين، وتحدثوا معه في أمر المؤتمر حتى قنع بفائدته، وقال بامكان عقده، في بغداد. ونفى الهاشمي ما أثاره البعض من شكوك حول احتمال تدخل الانكليز في أمره قائلاً: «ان العراق تمتع باستقلاله وحريته، وليس للانكليز أي تأثير عليه». واقترحوا، إذا كان من الممكن، «تحاشي اصطباغ المؤتمر بصبغة هاشمية بسبب وجود فيصل على رأسه»، حتى لا يجعل السوريين وخصوم الهاشميين من العرب يخشون من ذلك. وكان رد الهاشمي بالايجاب أيضاً(٦٤).

وبعد عودة الهاشمي، تولت مجلة «العرب» نشر عدد من المقالات، تبين فيها ضرورة عقد المؤتمر. ويذكر مقال في ٣ايلول/سبتمبر ١٩٣٢ عنوانه «القضية العربية في طورجديد– العرب في حاجة الى مؤتمر يذكر عام ١٩١٣ في العهد العثماني، «حين كنا مجتمعين تحت العلم العثماني، ولم يكن لنا حقوق، وجئنا من جميع الوطائن والاماكن.. فما أشد حاجة الامة العربية، اليوم، وقد مزقتها دول الاستعمار.. وسطت عليها بجميع قوى التدمير المادي والادبي... لاجتماع المخلصين والتضافر مع كل عربي مفكر». ويرجو الكاتب من الذين سيجتمعون في مؤتمر، في إحدى العواصم العربية قريباً، أن يوجهوا كل قواهم، قبل كل شيء، إلى البحث في الوسائل التي تبين الأخطار المحيطة بنا، وإظهار وسائل الاتحاد بالأساليب الصريحة البعيدة عن اللبس والتعقيد.. وعبّر مقال آخر في ١٧ ايلول/سبتمبر ١٩٣٢، عنوانه «العرب يريدون الوحدة»، عن تفاؤله بعقد المؤتمر الذي «سيكون له دوي هائل، وسيتألف له فروع وشعب في البلاد العربية، والذي يثلج قلوب المخلصين، أن ترى أن الفكرة أصبحت مختمرة في رؤوس العاملين لخير الامة، وأن عدد المبشرين بهذه السياسة الرشيدة كثر». ونقلت «العرب» رأي اللجنة التنفيذية للمؤتمر، في القدس، بأن عقد المؤتمر العربي العام سيكون فاتحة عهد جديد للقضية العربية العامة،

إذ هو أول مؤتمر عربي من هذا النوع .وقد اهتم الرأي العام العربي بهذا المؤتمر، وأعارته الصحف الأجنبية قسطاً وافراً من الملاحظة، فضلاً عن أن الشعوب العربية قريبها وبعيدها ابتهجت كل الابتهاج بهذه الخطوة التي سيكون لها،باذن الله، أحسن الأثر في الحركة الاستقلالية العربية. وأرجعت «العرب» في ١٠ ايلول/سبتمبر ١٩٣٢، سبب ذيوع أخبار غير صحيحة، عن ميعاد عقد المؤتمر ومكانه، إلى «عدم فراغ اللجنة التنفيذية، إلى اليوم، من الأعمال التي أنيطت بها، وهي أعمال شاقة على كل حال، تنطوي على جمع الوسائل الاعدادية الضرورية».

وجاءت دفعة جديدة لمسألة المؤتمر من جهة، وموضوع وحدة القطرين من جهة أخرى، بعد ورود أخبار عن قرب زيارة الملك فيصل إلى عمان، أواسط ايلول/سبتمبر ١٩٣٢. ويشير رشيد رضا في رسالته الى الأمير شكيب ١٠ ايلول/سبتمبر ١٩٣٢(٦٥)، عن توجه أسعد داغر الي عمان للقاء جلالته. كانت مهمة داغر ،قبل السفر الى عمان، هي الاجتماع باخوانه مؤسسي حزب الاستقلال،والاتفاق على مايعرضونه، على جلالة الملك ، في موضوع الوحدة. وقد استحسن رشيد رضا اقتناع رجالات حزب الاستقلال بمسألة توحيد القطرين. وكان على داغر مهمة أخرى هي تلافي شيء جديد مكدر،حدث بين مؤسسي حزب الاستقلال وفيصل. ويقول رشيد رضا: إن «الملك مستاء من الخلاف والشقاق بين الاخوان (مؤسسي الحزب ودعاة المؤتمر)والمفتي الحسيني(٦٦)...» وعدّ «الاخوان هذا الاستياء، من الملك فيصل، تدخلاً منه في أمر المؤتمر، يعد مانعاً من حريته، ويوجب الامتناع عن عقده في بغداد».ويرى رضا، في هذه الخطوة،خطأ: «فان الاستياء من الشقاق أمر طبيعي، فان كل مخلص للأمة يسوؤه كل شقاق وخلاف يقع بين رجالها». وهذا التطور هو الذي دفع رضا من أجل «السعي لاصلاح ذات البين، قبل مقابلة الملك فيصل. لان فشل عقد المؤتمر في بغداد لهذا السبب ، يؤثر في مسألة الوحدة التي آن أوان السعي العملي لها».

وأحاطت زيارة الملك فيصل، لعمان، أجواء ودية، وصفها دروزة في مذكراته غير المنشورة(٦٧). وكان المؤتمر محور الحديث الذي دار بين الملك وكل من عوني عبد الهادي ورياض الصلح(وكان زائراً فلسطين)، وأسعد داغر،(وكان يتردد علي فلسطين للمشاركة في نشاط لجنة المؤتمر). وحبذ الملك المؤتمر، وشجع عليه و«رحب بعقده في بغداد، وأبدى استعداده لمساعدته، مع ترك مطلق الحرية للجنته التنفيذية في دعوة من تريد.وقال :إن العراق يرحب بمن يأتي للاشتراك في المؤتمر، مهما كانت أفكاره، ومع ترك مطلق الحرية للمؤتمر، فيما يجب بحثه من أمور ويتخذ من قرارات ، مع وعد بعدم محاولة صبغه بأي صبغة حكومية أو هاشمية». ولدى زيارة فيصل للقدس، استقبل استقبالاً كبيراً«فتجددت ذكريات دمشق واستقلالها وحكومتها العربية، وبرز العلم العربي

المربع الالوان في القدس، كأنه على ضفاف بردى، البارحة، ودجلة والفرات،اليوم،وأحييت في البال خواطر قومية ماضية وحاضرة ومستقبلية»(٦٨). وفي خطابه في كلية روضة المعارف قال:«ثقوا أيها الاخوان أني، حيث كنت، فليس لي إلا أن أقوم بما علي كعربي ، في أي قطر وجدت فيه. فأنا هناك(في العراق) أخدم كما اخدم في أي بلد من البلاد العربية التي اعتبرها بلادي، بقلب عربي وكفرد عربي»(٦٩)...

ورحبت مجلة «العرب» في ٢٤/٩/١٩٣٢ بهذا القول، «...لأنه قيل في القدس، ومن أضمن وسائل النجاح والتوفيق في القضية العربية، أن يتلاقى ملوك العرب وأمراؤهم عند مصلحة القضية فيشدون أزرها...»

وبعد عودة فيصل إلى بغداد ، يقول دروزة (٧٠)، جاء الى اللجنة من الهاشمي برقية تفيد بأن «الملك متحمس للمؤتمر ومساعدته وحريته، وانه أمر بتأليف لجنة خاصة لتهيئة أسباب عقده في بغداد ونجاحه،مؤلفة من الهاشمي نفسه، ونوري السعيد، وعلي جودت، وجميل المدفعي، ومولود مخلص وسعيد ثابت»(٧١). ويصف دروزة استبشار أعضاء اللجنة، الذين أخذوا يبحثون جدياً في الخطوات التالية. وصورت مجلة «العرب» في ١٥/١٠/١٩٣٢ مايعلق على المؤتمر من آمال كبار في تطوير الحركات الوطنية، وتوجهها نحو هدف وحدة البلاد العربية واستقلالها وحريتها. ونقلت عن اللجنة التنفيذية أنها «مازالت تسعى في تهيئة الأسباب الآيلة إلى نجاح عقد المؤتمر». ورداً على المسائل التي أثارها بعض الكتاب، حول صفة المؤتمر، وهل يكون شعبياً أم حكومياً؟ واي الصيغتين أولى بالمؤتمر«أكدت اللجنة التنفيذية أن المؤتمر سيكون شعبياً، ولا تدعو اليه حكومة بل أفراد من صميم الشعب.والصفة الثانية أنه لن يكون مؤتمراً خاصاً بل عربيا عاماً».وأوضحت اللجنة التنفيذية اعتبارات اخرى لاتقل عن ضرورة تمتع المؤتمر بحرية الاجتماع والكلام ، هي قوة الرأي العام والزعامة الشعبية والكفاءة للسير بالقضية العربية والنهوض بها. وحاول ياسين الهاشمي أن يرد على بعض التساؤلات التي كانت تدور حول المؤتمر العربي المقبل، وأين يجتمع، فأكد «أننا نسعى وراء الوحدة العربية،بدون أن تؤذي أحداً كائناً من كان. أما مكان وتاريخ اجتماعه ، فستقرها اللجنة التحضيرية في القدس، وظنه انهم يختارون بغداد لهذا المؤتمر، وأن موعده قريب. ولم يستبعد الهاشمي إمكانية إدماج العراق وسوريا،إذا روعيت الشروط التالية:

- «أن لاتخلق فرنسا حواجز في طريقها.

- أن تحصل سوريا بدورها على معاهدة أوسع من معاهدة بريطانيا مع العراق.

-أن تكون الانتخابات النيابية حرة تماماً»(٧٢).

واعتبر رشيد رضا ان مسألة الوحدة العربية الكلية، عامة، وتوحيد سورية والعراق،خاصة،لاتزال من مقاصد الهاشمي الثابتة التي لايتحول عنها.وأن الهاشمي«يعد من نعم الله اقتناع الملك فيصل بها، لأن هذا الاقتناع أقوى وسائل النجاح، بل يرى أنه لو لم يكن له طمع و لاغرض، لوجب علينا ان نوجد له هذا الطمع والغرض». ولكنه يرى أن الدعاية العلنية في الجرائد للاتحاد بين القطرين، قد ظهرت قبل التمهيد اللازم لها(٧٣).

عقبات في طريق المؤتمر:

في وقت كانت الاستعدادات تجري، على قدم وساق للاعداد والتحضير للمؤتمر، بدأ أنصار الحكومة السعودية يعترضون علي أمر عقد المؤتمر، في بغداد. لما سيتلو ذلك من ارتفاع شأن الأسرة الهاشمية في السياسات العربية.ومنذ خريف ١٩٣٢،أشار أحدهم في رسالة خاصة(٧٤)«ان الدعاية للنهضة العربية الصحيحة الصادقة تجد لها مشجعاً ومؤيداً لا يحصر وخاصة فيما اذا كانت مشمولة، نوعاً ما، من ابن السعود القوي الآن، والذي يعشقه بل ويعبده الرأي العام العربي، بسائر الأمصار، وذلك لقوته ولتفوقه على أخصامه وعلى الاجنبي». ويتساءل الكاتب: «لماذا لايكون عقد المؤتمر باحدى بلاد المملكة العربية السعودية، أو المملكة اليمنية»؟. وأفاض عزة دروزة في مذكراته غير المنشورة(٧٥) في الحديث عن هذه الازمة التي اعترضت عملية الاعداد للمؤتمر.فقد فوجئت لجنة المؤتمر، في القدس، بموقف اعتراض من خير الدين الزركلي عضو اللجنة التنفيذية للمؤتمر في القدس. فقد أخذ ينبه الى ما في عقد المؤتمر في بغداد من إثارة لحساسية المملكة السعودية. واذيعت في الصحف أقوال معزوة للشيخ يوسف ياسين وفؤاد حمزة، من رجال الملك عبد العزيز المقربين، فيها تحفظ علي المؤتمر وتحذير. ويتابع دروزة القول:«ولمسنا أنه بتوافق الزركلي مع ذلك، في تلافي كل حساسية وعقبات الى التفاهم، واستشرنا لجنة بغداد في أمر التفاهم مع الملك السعودي بصدد عقد المؤتمر في بغداد، ولم ترَ اللجنة مانعاً. فكتبنا للشيخ يوسف وفؤاد حمزة، وأكدنا صفاء النية في أمر المؤتمر، ورغبتنا تجنيبه لكل دعاية أو صبغة هاشمية، وما أخذناه من فيصل ورجاله، من وعد وقلنا لهما: إن فكرة المؤتمر هي فكرة عربية قومية خالصة، وأن اختيار بغداد لم يكن بوحي بغداد، وإنما هي من وحي الظروف العربية. واننا مستعدون لعقد المؤتمر في جدة، أو في مكة، إذا كان الملك السعودي مستعداً للترحيب به ومساعدته، وتهيئة أسباب نجاحه». وقد اتجهت النية، لدى لجنة القدس، الى إرسال وفد الى الرياض لمواجهة الملك نفسه، وإنهاء الموقف علي وجه مرضٍ.

ويكشف رشيد رضا في رسالة إلى شكيب أرسلان ١٦/ ١٢/ ١٩٣٢(٧٦)ان «جماعة فلسطين بالاتفاق مع جماعة الشام وبيروت... اختاروا أن يذهب الشيخ كامل القصاب مع القوتلي وآخرين فلم يستجب لهم غيره(٧٧)، بعد أن كان معتزلا لهم وللسياسة كلها».ولم

يكن كثيرون راضين عن انفراد الشيخ كامل بالقيام بهذه المهمة«لعلمهم بأنه من أشد المعارضين في عقد المؤتمر، في بغداد ، وأنه سيسعى الى حمل الملك عبد العزيز على المعارضة لا على الموافقة»(٧٨). ويقول رشيد رضا (٧٩): أنه استطاع ان يقنع الشيخ كامل تمام الاقناع «بأن سورية لا يمكن أن تستقل ولا أن تعيش وحدها، وأن كل مايمكن أن يفرض من المحذورات والدسائس المانعة من هذه الوحدة، فلا يمكن أن ترجح على المصالح التي فيها». وقد بين رشيد رضا للشيخ كامل «أن غرضنا أن نقنعه«اي الملك»بأن هذا الأمر الذي لابد لنا منه نجتهد أن يكون موافقاً لمصلحته، وأن تكون اللجنة التنفيذية من إخواننا الموالين له، والمخلصين للأمة التي لا يمكن العبث بها»

وقد أرضت هذه الحجة الامير شكيب أرسلان، فعلق بقوله :«يثبت من هنا ان السيد رشيد رضا كان هو أيضاً ممن لايتردد في وجوب اتحاد القطرين الشقيقين، وممن يرى المصلحة العامة فيه أرجح من أن يتردد فيها، لأجل ملاحظات اخرى لا طائل تحتها. وكان يعتقد أيضاً وهو أخلص الناس للملك السعودي أن هذا الاتجاه يمكن تأليفه مع مصلحته».

أوفد الشيخ كامل، في مطلع ديسمبر /كانون أول ١٩٣٢، إلى الحجاز ، ومنها إلى نجد، وهو يحمل كتاباً من رشيد الى جلالة الملك. وبعد عودته، كتب رشيد رضا إلى الأمير شكيب رسالة مسهبة(٨٠)، يصف مهمة القصاب، فقد «عاد إلينا راضياً عن الملك وحكومته ورجاله وقومه وبلاده رضاءً لا شين فيه، وقد حمل معه جواباً من جلالته إلى لجنة المؤتمر، مفتوحاً، وعهد إليه أن يطلعني عليه، ويبلغني رأيه الشخصي في المؤتمر... وكان جاءني من جلالته في البريد جواب كتابي الذي حمله الشيخ، وذكر فيه أنه اختصر فيه الكلام، سيبسطه الشيخ بالتفصيل. فأما ما ذكره الملك في كتابه الي ، وكتابه إلى اللجنة، بشأن المؤتمر، فهو أنه يسره ويرضيه كل عمل للأمة العربية، وأنه يثق باخلاص الأخوان الداعين إلى المؤتمر، ومستعد للمساعدة على كل عمل عام تمكنه المساعدة عليه. وأما ما نقله الاستاذ من رأي جلالته الشخصي، فهو أنه لاينبغي أن يعقد المؤتمر في بلد فيه نفوذ خاص لحكومة خاصة، يكون مظنة تأثيرها فيه. وتفسيره الصريح أنه لاينبغي أن يعقد في بغداد. ولما سألنا الاستاذ اين ترجح أو يرجح جلالته أن يعقد، وهو أمر متعذر، في مصر من قبل حكومتها، وكذلك في القدس وسورية، ومتعذر في اوروبا لما تقتضيه من كثرة النفقة. فلم يذكر مكاناً آخر غير بغداد ولا يرضى ببغداد. ولكنه صرح بأن رأيه الشخصي ان هذا المؤتمر لايرجى منه أقل فائدة، ولكن يخشى ضرره. وحمل عن جماعة الملك الذين في مكة، رأياً مكتوباً خلاصته انه لايجوز عقد هذا المؤتمر إلا بعد تمهيد له بوفود الى ملوك العرب يتفق معهم علي ما سيقرر فيه.. وان هذا يقتضي تأجيله سنتين أو ثلاث سنين. قلت (رضا) له (للشيخ كامل): «ان التأجيل بعدما كان من الدعوة والكلام في الصحف لايجوز مطلقاً (وبينت أسباب هذا)، وإننا نحن نعتقد أنه مفيد .وإننا نجتهد في تحقيق اعتقادنا ،

واتقاء الضرر الذي يخافه. وإن أهم مايجب البحث فيه اختيار أعضاء اللجنة التنفيذية، التي اخبرنا جلالة ابن السعود بأننا نجتهد في جعلها من المخلصين الذين لا يعملون إلا للمصلحة العامة،ثم في مسألة المال الذي ينفق منه على المؤتمر، والنظام المالي الذي يناط باللجنة التنفيذية من بعد».

وسافر الشيخ كامل فجأة إلى حيفا، ومنها إلى بيروت، دون أن يخبر رشيد رضا بمغادرته القاهرة. وفي اليوم التالي تلقى الأخير برقية من الشيخ يدعوه وأسعد داغر الى الاجتماع مع أعضاء لجنة المؤتمر وغيرهم، (منهم رياض الصلح وشكري القوتلي وخالد العظم) في حيفا (مقر اقامة الشيخ كامل). واعتذر رشيد رضا عن المجيء الى حيفا «بسبب العسرة المادية». وكان القوتلي قد اتصل هاتفياً بأسعد داغر طالباً منه الحضور فاعتذر .ويعلق رشيد رضا بقوله :«كأنهم يرون أننا موظفون عندهم». وباعتقاد رشيد رضا أن القصاب يريد من اجتماع حيفا» إما تحويلهم عن عقد الموتمر باسم التأجيل، فان لم يكن فبعقده في غير بغداد، بل غير العراق». وأبدت بغداد بعض القلق لاجتماع حيفا الذي لم يدع أحد منها إليه. ويذكر داغر(٨١) انه تلقى كتاباً من ياسين الهاشمي يبدي استياء المقامات العليا في بغداد لاهمال دعوة العراق الى اجتماعات حيفا. وعزوا هذا الاهمال الى الدسائس والمناورات. وكان رد داغر دفاعاً عن اجتماع حيفا، وضمن ردّه كتاباً شخصياً بعث به عزة دروزة بفحوى مادار في الاجتماع. وكان لذلك وقع حسن في نفس الملك، بعد أن أخذت الشائعات تتهم المهتمين بأمر المؤتمر بالعمل ضد مصلحة الأسرة الهاشمية، مراعاة للسعوديين. وقد أورد عزة دروزة في مذكراته غير المنشورة(٨٢) حقيقة ماجرى في اجتماع حيفا الذي حضره القوتلي ورياض الصلح ونبيه العظمة، بالاضافة الى اعضاء لجنة المؤتمر، وأخبر الشيخ كامل المجتمعين بأن «الملك عبد العزيز وافق على عقد المؤتمر في بغداد، بعد أن اكد له ان فكرة المؤتمر ليست من فيصل، وبعد أن تعهد له باسم اللجنة بأن لا يكون أي استغلال هاشمي فيه، وبأن لايثار فيه اي بحث له صلة من قريب أو بعيد بالحجاز. وبعد الترحيب بأي عدد يريد أن يرسله الى المؤتمر كممثلين له ولبلاده فيه ،حيث يبدو أن حاشية الملك قد خوفته من المؤتمر، وجعلته يتجهم له .وان موقف خير الدين الزركلي، والأقوال المعزوة للشيخ يوسف ياسين وفؤاد حمزة كانت مظاهر ذلك».

واستؤنفت المساعي، بعد أن «انجلت السحابة السعودية عن سماء المؤتمر»(٨٣) في الخطوات التالية في صدد عقده ، فتم الاتفاق على ان يكون موعد انعقاده في ربيع ١٩٣٣،«وأن يترك تحديد التاريخ للجنة بغداد، وان يكون المدعوون أشخاصاً بأسمائهم مختارين ممن عرفوا بقوميتهم وغيرتهم وجهادهم وجهدهم وإخلاصهم، ومن ذوي الشأن والبروز، مع توجيه دعوات في الوقت نفسه للأحزاب والجمعيات والأندية العربية القومية الوطنية المخلصة لايفاد من تراه أيضاً»(٨٤). وأبلغت لجنة القدس ذلك كله الى لجنة

بغداد، طالبة فيها تحديد التاريخ المناسب حتى تذكره في أوراق الدعوة، وأخذت بعد ذلك تعد العدة لارسال الدعوات، ووضع التقارير والأبحاث، وطلبت ممن تعرف اهتماماته وسعة علمه من رجالات العرب موافاتها بما يعن لهم من أفكار ومقترحات.

وكانت الآمال المعلقة على المؤتمر كبيرة تشمل الوطن العربي بكامله. عبرت عن ذلك جريدة «القبس» الدمشقية في ٢٨كانون أول / ديسمبر ١٩٣٢ بقولها: «إن الغرض من المؤتمر هو التوفيق بين وجهات النظر في كل الأقطار العربية، في سبيل مقاومة الاستعمار، وأن يعمل على خلق كتلة عربية واحدة، وينشىء فروعاً له في كل من العراق وسوريا ومصر وفلسطين والحجاز وغيرها، تكون على اتصال دائم للمباحثة في الشؤون العامة المتعلقة بالوطن العربي».وتقدمت مجلة «العرب»في ٢٤/ ٢/ ١٩٣٢ باقتراح على المؤتمر العربي المقبل بأن «يتناول بالاهتمام مسائل الجزيرة العربية المهددة بالفناء.. والتي كانت الظروف قد حفظت استقلالها للآن»، ولوضع حد للفتن والدسائس والثورات هناك، تقترح «العرب» «الاسراع في عقد المؤتمر العربي، وطرح هذه المسألة بحذافيرها أمامه، وايجاد العلاج الناجع..ثم عقد ميثاق يوقعه جميع أمراء العرب وملوكهم..لان بيدهم قطع دابر الفتن والنجاة بالبلاد من تعريضها لخطر الاحتلال الاجنبي».

وعلى صفحات مجلة «العرب» في ١٩٣٣/٣/١١ نشر مقال لعميد الحزب الحر الدستوري في تونس محمد محي الدين القليبي، يعتب فيه على الصحافة العربية في شمال افريقيا، لأنها لم تبدِ الاهتمام اللائق بمثل هذه الظاهرة العظيمة في حياة الامة «بالرغم من إيماننا باننا نتأثر بالشرق في حياتنا من سائر نواحيها لأننا جزء منه...»

ويؤكد أن «المؤتمر العربي يقوم على مبدأ أن البلاد وحدة لا تتجزأ، وان كل ما طرأ عليها من الاوضاع المقسمة لها، والمجزئة لوحدتها، إنما هي عوارض لاتتصل بالجوهر ... ونظراً لما يستلزمه العمل من جهد وقوة تنظيم جعل من اغراض المؤتمر تضامن الجهود ووحدة اتجاهها والاعراض عن الانقسام في الاتجاه والتباين في المرمى»... ويتساءل القليبي«: عن موقف الأمة العربية في شمال افريقيا إزاء هذا الأمر الذي يتصل بحياتها. وهو يأمل لهذا الصوت إصغاء واستماعاً وجواباً عملياً يرفع معرة التقصير».

وحل ربيع ١٩٣٣ دون أن يحدد موعد نهائي للمؤتمر. وكانت العقبة الثانية في طريق عقده، هي التباعد في الآراء بين الذين تولوا مسألة المؤتمر، منذ البداية. وكان الخلاف حول مهمة المؤتمر، وأولويات اهتمامه من جهة، وحول المسؤولية الأولى في إعداد وتوجيه المؤتمر. وقد كتب رشيد رضا في ٢٨مارس/آذار١٩٣٣ الى شكيب أرسلان(٨٥)، يبلغه بما تم الاتفاق عليه بشأن المؤتمر، بين اللجنة التنفيذية في القاهرة، ولجنة بغداد برئاسة الهاشمي، وذلك على جعل المؤتمر الأول خاصاً بعرب آسيا، وأن يكون في بغداد

في أوائل الخريف الآتي.ويقول رضا ، إنه أبلغ هذا الرأي الى لجنة القدس :«فان وافقت تقرر البدء بالدعوة، وإلا تولينا ذلك مع إخواننا في بغداد..». ويبدو ان التباعد في الآراء قد تفاقم، كما تكشف ذلك مسودتا رسالتين (بدون تاريخ وغير موقعتين)(٨٦)، أرسلتا من القاهرة (ربما من داغر او قدري أو الشهبندر إلى أرسلان)، وربما يعود تاريخهما الى أوائل (مايو - ايار ١٩٢٣). وتقول الرسالة الأولى :«يظهر ان هناك عقبات لايستهان بها ، فيما يخص عقد المؤتمر العربي ، بسبب الموقف الذي تقفه لجنة القدس، لانها تشترط أن تكون الكلمة الاخيرة لها، ما لم ينل ارتياح الاخوان العاملين في سوريا والعراق والخارج، الذين يرون أن تكون الكلمة الاخيرة بالاتفاق مع العراق، وحجتهم أن المقصود من المؤتمر هو اكتساب ثقة العراق، وحمله على التدخل بالطرق العملية المعقولة، لانقاذ سورية وفلسطين ولتحريرهما لا املاء الارادات عليه، وحمله على اتباع خطة قد لا يقرها، مما يؤدي إلى شل حركة المؤتمر والقضاء عليه».

ويتابع صاحب الرسالة القول «يقول رجال اللجنة في مايقولونه أنهم يأبون أن يكونوا أحجاراً رخاماً يسيرون من دون إرادة، منادين باصرارهم على التمسك بخطتهم».

ولما بلغت هذه الجملة الاستاذ السيد رشيد رضا، قال :«إننا نقبل ان نكون أحجاراً بشرط أن يتقدم العراق للعمل، وأن يعمل لانقاذ البلاد، وتلك هي الغاية الاصلية، وكل ما سواها فهو قشور». ويضيف الكاتب :«ومع اننا لا نزال معهم في أخذ ورد، وقد صار الأمل بالاتفاق معهم ضعيفاً، لاصرارهم على سياستهم ، ولذلك يقترح بعض الاخوان إهمال لجنة القدس أو تخصيصها لفلسطين، واتباع أساليب أخرى لعقد المؤتمر كتأسيس لجنة في سوريا من زعمائها ومواصلة العمل الذي بدأنا به لخير البلاد». ويشير الكاتب إلى مرور السيد يوسف ياسين بالقاهرة في طريقه إلى القدس وحيفا ودمشق، ويعزو إليه أنه: «دعا الى مقاومة مشروع المؤتمر، وصرح بأن حكومة ابن السعود، والحكومة الفرنسية، تقاوم حركة ترمي الى توحيد سورية بالعراق. ولاريب أن رحلته هذه،واجتماعه الى الكثيرين، وظهوره بهذا المظهر يزيد الموقف تعقيداً». وفي الرسالة الثانية يعرض الكاتب ملخصاً للتطور الخطير الذي طرأ بشأن المؤتمر«.. اتجهت نية اللجنة التنفيذية هنا (القاهرة) الى تأليف لجنة خاصة للمؤتمر في دمشق ،تضم كبار القوم ، وذوي الرأي والمكانة، شعارها الدعوة للمؤتمر، والعمل لتأييده، على أساس التعاون مع العراق، وتسليم القيادة إليه، وعلى أن تكون دائرة العمل منحصرة بالشرق العربي فقط. أما لجنة فلسطين، فيكون لها الخيار بالعمل مع اللجنة الجديدة، اذا شاءت، بشرط العمل بهذه المبادىء وتكون دائرة عملها منحصرة بفلسطين ، والا فتنسحب من الميدان، أو تعقد مؤتمراً خاصاً لها، وعلي الطريقة التي تختارها». ويضفي الكاتب مزيداً من التفاصيل على رحلة الشيخ يوسف ياسين الى القاهرة والقدس وحيفا ودمشق وبيروت. فقد «اجتمع الى

بعض الاخوان، وعاتبهم علي تأييدهم لفكرة المؤتمر والاتحاد، وقال :ان العمل لها يغضب ابن السعود، ويسيء الى الفرنسيين، من دون لزوم .ونصح بالاقلاع عنها، وأصر على أن لا يذكر شيء عن الوحدة في المؤتمر، فينال رضا الملك ابن السعود. وبنظر الكاتب ان قصد يوسف ياسين من مقاومة المشروع، هو «جعل المملكة السعودية زعيمة للحركة العربية، مع عدم وجود أي إمكان لذلك ، ولا أظنه يقدم أو يؤخر».

ويؤكد رضا موقف السعودية المعارض لمسألة الوحدة، بين سورية والعراق، في رسالته الى أرسلان ٢٥مايو ١٩٣٢(٨٧). وأما بالنسبة لمشروع المؤتمر العربي، فان رشيد رضا يعزو ، ماعرض له من الركود والرقود، الى سوء تصرف لجنة القدس ،وبرأيه :«أن هذا هو الذي حمل الهاشمي علي الاستقالة من لجنة بغداد، وانتهاء ذلك بتصدي لجنة أخرى للعمل أعضاؤها من حزب المعارضة، وليسوا ممن أشربت قلوبهم القضية العربية من قبل كالاول». وكان شاغل رشيد ان يعلم بخصوص المؤتمر : «هل يكون المؤتمر مؤتمر دعاية عربية عامة للناطقين بالضاد، كما وضح الساسة الأول في القدس،أم مؤتمر تمهيد للعمل الخاص بعرب آسيا،ولاسيما سوريا والعراق». وتلقي مذكرات دروزة المنشورة(٨٨) بعض الضوء على الخلاف بين القائمين علي أمر المؤتمر فيقول :«فوجئنا بكتاب من الهاشمي الذي كان واسطة المراسلين بين لجنتنا ولجنة بغداد،يسأل فيه سؤال العاتب الغاضب، عن سبب اهتمامنا لاستشارة ابن سعود، واخذ موافقته علي عقد المؤتمر في بغداد، وعن عدم انتباهنا الى ان ذلك مما يثير حساسية العراق ورجالها وملكها، وفيه كذلك اعتراض على توجيه الدعوة الى أشخاص مع ان الواجب الاقتصار على دعوة الاحزاب ،واعلن استقالته، من اللجنة، وقال :إنه أرسل نسخة من كتبه الى الملك، وأخرى الى لجنة بغداد».ويقول دروزة :«كان الكتاب مباغتة ومفارقة معاً، لأننا استشرناهم في موضوع استشارة ابن السعود، والتفاهم معه ووافقوا. وأخبرناهم بفكرة الجمع بين دعوة الأشخاص والأحزاب، فلم يعترضوا». وكتبت لجنة القدس للهاشمي تبدي أسفها واستغرابها.وكذلك كتبت للجنة بغداد، وجاء جواب اللجنة يقول: إنها تستغربه أيضاً، ولا تجد مبرراً لموقف الهاشمي، وأبدت استعدادها للسير مع لجنة القدس في طريق عقد المؤتمر.

وجاء ربيع ١٩٣٢، ولم تبقَ الا أيام قليلة منه يدخل بعدها العراق في طقسه الحار، فاقترحت لجنة بغداد تأجيل عقد المؤتمر الى الخريف، حيث يكون الطقس ملائماً. وبين الربيع والخريف حدثت تطورات كثيرة قضت علي الآمال بقرب عقد المؤتمر. ففي مطلع حزيران / يونيو قام الملك بزيارة لأوروبا كانت الأولى بعد دخول العراق العصبة، وحمل فيصل معه توكيلاً من السوريين في الداخل والخارج «يرجونه فيه بذل نفوذه للدولة الفرنسية لاقناعها بما يطلبه الشعب من الوحدة والاستقلال. وقد أمضى نسخه كثيرون

في جميع البلاد»(٨٩). «كما أشيع أنه يحمل معه مشروعاً للسعي لدى انكلترا بضم شرقي الاردن للعراق» (٩٠) .وتوحي مذكرات أسعد داغر(٩١) بشيء من خيبة الامل ، أحس بها بعض من اجتمع بهم فيصل في عمان والقاهرة، بعد أن لاحظوا التغير في خطة العراق تجاه المؤتمر، رغم الوعود التي تحدث بها ياسين الهاشمي لتأمين استقلال سورية ولبنان، وإنقاذ فلسطين وشرق الاردن(٩٢).

وكانت مجلة العرب أكثر تفاؤلاً، وهي تصف في عددها ١٠ /٦/ ١٩٣٣ العاطفة الجياشة التي ظهرت في سوريا الشمالية والجنوبية بمناسبة سفر الملك فيصل ، وتعللها بقولها :«ولما كانت الأحوال العامة في سوريا وفلسطين وشرق الاردن لاتسر، فقد اتجهت الخواطر نحو الملك اتجاهاً فيه معنى الاستنجاد والاستعانة بصفته ملكاً عربياً، على رأس أمة عربية عراقية، ينتظر منها ، ويجب عليها أن تكون في مقدمة القافلة السائرة نحو الوحدة العربية.... وبصفته رأساً من رؤوس العرب الذين اشتغلوا في القضية العربية منذ أول قيامها..». وتصف المجلة كيف تقاطرت الوفود من أنحاء سوريا وفلسطين وشرق الاردن«...لان انسداد باب الآمال في سوريا وفلسطين والاردن، وانتشار روح اليأس والقنوط من الدولتين المستعمرتين ، وفشل الحركات الوطنية فشلاً متلاحقاً، أوجد الاستعداد في النفوس لجعل مرور الملك في طريقه الى أوروبا فرصة للاجتماع والبحث والشكوى..» ولأن طبيعة هذه الحال السياسية تدفع بالناس الى «طلب الاخذ وبكل وسيلة للانتقال من هذا الوضع الى غيره..»

وبينما كانت المساعي تبذل لتحديد الموعد النهائي لعقد المؤتمر، توفي الملك فيصل في سويسرا في أيلول/ سبتمبر ١٩٣٣، دون أن يتحقق شيء من الوعود والأماني التي حملها معه الى أوربا (٩٣).فكان في ذلك صدمة شديدة. يقول دروزة (٩٤):«كان هو المأمول الأقوى في تعضيد المؤتمر مادياً ومعنوياً». وكتبت مجلة «العرب» ١٦/ ٩/ ١٩٣٣ تشيد بدور فيصل القومي الذي لم يكن «ملكاً اقليمياً بل بطل قومي.فلم تكن عينه مقصورة على العراق،ولا منصرفة عن القضية العربية التي أصبح العراق صالحاً بوضعه الجديد، ليكون كنفها وحرزها». وتقاطر زعماء الأمة العربية وأقطابها ومفكروها إلى بغداد للاشتراك بتشييع «الرجل الذي كان أكبر عامل في نهضتنا الحديثة».ويقول داغر في مجلة :«العرب ٢٣/ ٩/ ١٩٣٣»:«وكانت فرصة حاولوا أن يستمدوا من المصاب قوة ونشاطاً لاعادة النظر في المسائل العربية».

وأكد أحد أقطاب العراق«أن للعراق سياسة عربية وضعت في عهد الملك الفقيد، واستمدت من روح الشعب العراقي وروح الشعب العربي، فلا يمكن أن تتبدل، بل إن العطف الذي رأته العراق من الأقطار العربية الشقيقة في محنتها هذه يزيدها نشاطاً في السير وراء الخطة التي وضعها الملك»(٩٥).وكان أمل أسعد داغر(٩٦) أن لاتقتصر مهمة

الأقطاب، في بغداد، على البكاء والنواح «بل يبدأون التفكير في الواجب نحو الأحياء، فتتحول مجتمعات بغداد الى مؤتمر محوره تعزيز شأن العراق، ووضع الخطط الصالحة لخدمة القضية العربية... فالمؤتمر العربي الذي لم يمكن عقده في حياة الملك، ستعقد في مناسبة وفاته اجتماعات تشبهه، وربما أدت الى الغرض المنشود».وكان داغر يتطلع الى أن يكون العرب وراء العراق صفاً واحداً، في كل خطوة يخطوها، سواء لتعزيز شأنه، أو لتحقيق آمالهم. «وهكذا تصبح سياسة العراق سياسة عراقية عربية. ويكون فيصل قد أفاد العرب في حياته وفي مماته».

وكان في جملة من ذهب الى بغداد ، للاشتراك بالجنازة، محمد عزة دروزة وعوني عبد الهادي (عضوا لجنة القدس).ويذكر دروزة في مذكراته غير المنشورة(٩٧)، عن لقاءات تمت بالهاشمي والآخرين من أعضاء لجنة بغداد، وتحدثوا بشأن المؤتمر، وتبين لهم من كلام الهاشمي«أن المندوب الانكليزي نبه فيصل الى ما يحتمل أن يثار في المؤتمر من أبحاث، ويصدر عنه من قرارات ،تحرج العراق، وتحمله أعباء، يحسن ألا يحملها في حياته الجديدة. فأثار هذا التنبيه في فيصل تردداً أو هاجساً في أمر المؤتمر، وأفضى بذلك إلى الهاشمي.فتذرع الهاشمي بما تذرع . واستقال من اللجنة».وكانت محاولة يائسة من عضوي لجنة القدس لحمل إخوانهم في العراق على الاستمرار في أمر المؤتمر،وأن يهيئوا أسباب عقده في ربيع ١٩٣٤، إن أمكن.ولكنهم، وبخاصة الهاشمي، طلبوا تأجيل البحث والتنفيذ إلى وقت آخر. وكانت حجتهم، كما أوردها دروزة: «أن الحكومة العراقية تنشغل في تركيز الأمور بعد الفراغ الذي تركه فيصل..وأن من الاحراج للعراق أن يطلب منه، الآن، الانغمار في المشاكل العربية، وأن من مصلحته أن يعمل لتقوية نفسه، وتحسين مرافقه».

وحاول عضوا لجنة القدس إقناع رجال العراق:«بأنه ليس من المطلوب زج العراق في المشاكل، وانما حمل العراق برجالاته القوميين الذين يتمتعون بشيء من الحرية والقوة ،أن يكون راعياً للقضايا العربية»فلم يكن ذلك ممكناً.

وعمدوا الى الوعود والمماطلات،وغاية ما أمكن أن نوري السعيد وزير الخارجية، وعد بانشاء مكتب أو فرع في وزارته باسم مكتب وفرع شؤون الأقطار العربية، وبانشاء مكتب في كل سفارة عراقية مرتبط بمكتب الوزارة الرئيسي. وبعد العودة من مأتم فيصل، عقد اجتماع للجنة القدس، دعي لحضوره، أيضاً شكري القوتلي ورياض الصلح ونبيه العظمة،وبحثت احتمالات عقد المؤتمر في غير بغداد، بعدما كان من أمر الساسة في العراق. وكان من العبث التفكير بعقد المؤتمر في مكان آخر لأسباب مادية أولاً. فقد كان أمل لجنة القدس يقول دروزة: «ان يخصص العراق مبلغاً سنوياً مهما يضمن حياة للمؤتمر، ويجعله يبذل نشاطه في مختلف المجالات والأقطار، ويؤسس فروعا له من أجل ذلك».

ولم يكن هذا ممكناً من غير طريق العراق، في تلك الظروف العربية. وهكذا خمدت هذه الحركة، وخاب الأمل القومي فيها.

ولكن لماذا لم يتم عقد المؤتمر:

لقد حالت العقبات السابقة، وكلها من صنع عربي، دون عقد المؤتمر. ولكن في أجواء الثلاثينيات، وسيطرة القوى المستعمرة، يصعب أن نعزو الى العوامل العربية المسؤولية الأولى في فشل إتمام هذه المحاولة الواعدة، لعمل عربي مشترك. وكانت جريدة القبس الدمشقية،قد أشارت في عددها ٤ نيسان/ ابريل ١٩٣٢ «ان انكلترا ومصالحها مهددة في الشرق من قبل البلاشفة والأتراك وايران وحتى الهند، وليس من المعقول أن تعطف على هذا الحلف العربي ليساعدها على حماية مصالحها من الاخطار البلشفية وغيرها».

وكانت مذكرات محمد عزة دروزة (٩٨) قد ألمحت إلى الضغط البريطاني الذي مورس على فيصل، في أواخر أيامه، واطلعت عليه لجنة القدس بعد وفاته. وكذلك فقد فصل أسعد داغر في مذكراته (٩٩) بعض الشيء عن التدخل الأجنبي في وقت كان المؤتمر فيه على وشك الانعقاد، ذلك لأن «الانكليز والفرنسيين وغيرهم من الدول الاستعمارية، كانوا يرقبون هذه الحوادث عن كثب، فلما تبينوا أن المؤتمر سائر، حتماً، في طريق الانعقاد، وأن نتائجه لن تكون ملائمة،قاموا بضغط شديد، على الملك فيصل، وعلى الحكومة العراقية، للحيلولة دون عقد المؤتمر في بغداد. وكانت انكلترا أشد الدول رغبة في ذلك. وكانت حجتها أن هذا المؤتمر سيدعى اليه كثيرون من زعماء مصر وافريقيا الشمالية، وأنها لا تستطيع، هي ولا فرنسا، أن تقفا مكتوفتي الأيدي أمام النتائج التي قد تنشأ عنه في بلاديهما المسؤولتين عن استقرار السكينة والهدوء فيهما. وكان الملك فيصل حينئذ على أهبة القيام بزيارة رسمية للندن، وقد أبلغ من طرف خفي أن هذه الزيارة لن تكون لها النتائج المنشودة، من توثيق أواصر الصداقة مع انكلترا، في الوقت الذي تبذل فيه محاولات جدية لاثارة الشعوب العربية ضدها. واضطر جلالته التمهيد لزيارة لندن بالتخلي -ولو في الظاهر- عن فكرة عقد المؤتمر». وهذا التدخل البريطاني قد يفسر الهجوم الذي شنته بعض الأوساط العربية على عقد المؤتمر في بغداد.ومع اعتراف تلك الاوساط،تقول القبس في عددها ١٠ شباط/ فبراير ١٩٣٢:«بان الانتداب الانكليزي على العراق قد ألغي، ولكن الانتداب أبدل بمعاهدة تجعل العراق في يد الانكليز كما كان سابقاً. غيرأن جمعية الأمم التي كانت لها الكلمة النهائية والمراقبة على الانتداب الانكليزي، لم يعد لها هذا الحق بعد الالغاء، فتكون حالة العراق الآن أسوأ مّما كانت. وهم يخشون من جهة أخرى أن تتدخل بريطانيا في شؤون المملكة العربية المتحدة المنوي تأليفها... وهم يتطلعون إلى هذه السياسة الانكليزية الجديدة كتوطئة لخلق هند ثانية على طريق الهند». ووصل اتهام البعض إلى أن المؤتمر سيعقد لتنفيذ أغراض استعمارية، وسيكون تحت

حماية الانكليز(١٠٠)، رغم اعتقادهم بأن القائمين به يتميزون بالاخلاص والوطنية الحقة. وحجتهم أن بغداد غير سالمة من النفوذ الأجنبي، وأن المؤتمر لايمكنه أن يقرر شيئاً دون أن يتعرض للسلطة الأجنبية وأخواتها، وطالبوا بان يعقد المؤتمر في «بلد بعيد كل البعد(١٠١) عن السلطة الأجنبية، وأن يكون بعيداً خاصة عن بغداد، لأن بغداد بلد تحت النفوذ الاجنبي والسلطة الانكليزية».

وتكشف الوثائق البريطانية المزيد من التفصيلات عن خلفية التدخل ودوافعه. ففي ديسمبر/كانون اول ١٩٣٢ سعى فيصل إلى الحصول على موافقة بريطانيا لعقد مؤتمر عربي، في بغداد. وكانت حجته التي قدمها للسر فرنسيس همفري المندوب السامي البريطاني في العراق أن اقتراح عقد المؤتمر، هو نتاج لحركة متنامية بين الشعوب العربية، في اتجاه الوحدة، مؤكداً ان المهمة الرئيسية للحكومة العراقية بالنسبة للعشر سنوات التالية ستكون العمل على تطوير موارد العراق، ورفع مستوى التعليم والحياة لسكانه. ولكنه مع ذلك يشعر ان العراق لايمكنه تجاهل حركة الوحدة العربية». فالعراق يحده جيران أقوياء.باستطاعتهم أن يهددوا استقلال العراق في المستقبل. ومضى فيصل الى القول بأنه لا يوجد في الوقت الحاضر تهديد للعراق من جيرانه بفضل التحالف مع بريطانيا .ولكنه يعتقد بأنه ليس من الانصاف أن يظل اعتماده كاملاً على بريطانيا ، وأن على العراق أن يبحث عن وسائل أخرى لتعزيز مركزه.

وبنظره أن حركة الوحدة العربية تعتبرأفضل مصدر للحصول على قوة اضافية،«ولو استطاع العراق أن يعتمد علي مساندة الشعوب العربية الأخرى، وبشكل خاص ، لو استطاع أن يقف مع سوريا جنباً الى جنب، فان الأخطار التي تهدد سلامة العراق في المستقبل، مقدر لها الزوال الى حد كبير ». وأبدى فيصل بعض الشكوك بالنسبة لموقف بريطانيا حيال حركة الوحدة العربية والمؤتمر العربي ، طالباً رأي المندوب السامي فيما اذا كانت بريطانيا لاتزال تحمل العطف نفسه الذي أبدته للقضية العربية، خلال الحرب، وفيما اذا كانت ترحب بعقد المؤتمر العربي في بغداد.

وأبدى همفري موافقته على أن العراق يجب ان لا يعتمد بصورة كلية على العون البريطاني . ولكنه أبدى شكوكه بقدرة حركة الوحدة العربية بين الشعوب العربية على تقديم أحسن السبل لتقوية مركز العراق، بل يعتبر أنها قد تثير عداء جيران العراق، وتعزز الأخطار التي يخشاها فيصل. ويرى همفري أن عضوية العراق في عصبة الامم،وتحالفه مع بريطانيا،يمنحه ضماناً لا يتمتع به سوى قلة من البلدان،«والضرورة الملحة في المرحلة الراهنة، هو ترتيب شؤون بيته، وأن أحسن السبل التي يمكن للعراق بوساطتها أن يخدم القضية العربية، هي من خلال تقدمه الثقافي والاقتصادي كي يعيد للعرب المكانة السابقة التي احتلوها بين الامم».

وحذر همفري فيصل من أنه لو عقد المؤتمر في بغداد،فالحكومة العراقية تتحمل مسؤولية كل مايسيء لجيران العراق قولاً وعملاً (١٠٢).

وتشير الوثائق البريطانية (١٠٣) الى أن غاية فيصل هي إقامة اتحاد بين الأقطار العربية، يضم العراق وسورية والاردن وفلسطين والحجاز. وقد أكد همفري الى وزارة الخارجية البريطانية هذه الغاية التي يحملها فيصل للمستقبل،وأنه يسعى اولاً للحصول على وحدة سوريا والعراق. ويبدو أن فيصل كان يأمل أن يعزز خططه هذه بعقد مؤتمر عربي في بغداد، فأوفد ياسين الهاشمي في نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٣٢ إلى القاهرة والقدس ودمشق، للحصول على الدعم.وفي أيلول/ سبتمبر ١٩٣٢ زار هو نفسه عمان والقدس. ومن فلسطين بعثت أجهزة المخابرات تقريراً عزت الى اللجنة التنفيذية للمؤتمر المرتقب «ميلها لدعم الاقتراح المتعلق بوحدة سوريا والعراق، تحت ملكية فيصل بشرط أن توافق الدول الاوروبية صاحبة العلاقة، وأن تعطى سوريا حكماً ذاتياً بنفس الشروط الممنوحة للعراق»(١٠٤).وفي تقرير بعثه، همفري من بغداد ، أكد أن فيصل يعتقد، جازماً، بأن جمع عدد من الزعماء العرب في بغداد، يتيح له الفرصة لشرح حقيقة الاستقلال الذي حققه العراق، وبذلك يزيل شكوكهم تجاه السياسة البريطانية.

وتكشف الوثائق البريطانية(١٠٥) أن من أسباب معارضة بريطانيا لعقد المؤتمر في بغداد، هو حرصها على عدم إحراج مصالح فرنسا في سوريا. وكذلك حرصها على عدم تحدي مركز ايطاليا في ليبيا. وبتعبير آخر لم يكن لدى بريطانيا أية نية في تغيير الوضع القائم في المشرق العربي .فالسبب الآخر، للعداء البريطاني للاقتراح، هو مايمكن أن يحدثه المؤتمر العربي من تأثير، معاكس لمواقع وسياسات بريطانيا، في الوطن العربي. وقام أحد اعضاء المنظمة الصهيونية في لندن في يناير/كانون أول ١٩٣٣، بابداء رأيه لوزارة المستعمرات البريطانية :«كي تعمل الحكومة البريطانية على استخدام نفوذها، في العراق ، لمنع أي هجوم على الصهيونية خلال المؤتمر»(١٠٦). واتفقت وزارتا المستعمرات والخارجية البريطانيتين في الرأي، على أن عقد المؤتمر العربي، في أي مكان، أمر مضر بمسار السياسات البريطانية. وقد لخص المندوب السامي البريطاني، في مصر، مايلز لامبسون الموقف البريطاني بدقة«ان قضية ناجحة حقاً للمؤتمر العربي الوحدوي سوف تهدد بالخطر مواقع بريطانيا، في فلسطين وشرق الاردن والعراق، وسيكون له رد فعل غير ملائم لموقعنا في مصر»(١٠٧). وتابع المندوب السامي البريطاني ، في العراق، ضغطه على فيصل كي يتخلى عن الفكرة. وفي فبراير/شباط ١٩٣٣ أبرق الى لندن: «انه قضى يومين مع فيصل في رحلة صيد، ووعده فيصل أن يترك فكرة عقد مؤتمر عربي ، في بغداد ، حتى الخريف»(١٠٨).

وأكد فيصل له فيما بعد أن المؤتمر قد أجل، فعلا حتى الخريف. وأعاد همفري الحجة التي استخدمها سابقا: «إن باستطاعة جلالته أن يخدم القضية العربية بشكل أفضل، من خلال تركيز فعالياته على تطوير موارد بلاده ومؤسساته، حتى تصبح حكومة العراق في المستقبل نموذجاً وحافزاً لبقية البلاد العربية»(١٠٩). وفي يونيو/ حزيران ١٩٣٣، اقترح همفري على وزير الخارجية، عند لقائه فيصل في لندن، أن يعمل على ثنيه عن عقد المؤتمر في بغداد. وكانت وزارة الخارجية قد انتهت لتوها من وضع مذكرة عنوانها«موقف حكومة جلالته تجاه مسألة الوحدة العربية»(١١٠). وهي تلخص السياسة البريطانية تجاه حركة الوحدة العربية. وهي سياسة مبنية على تناقض غريب. ففي حين تمنع فيصل من اتباع اي سياسة تعمل على تحقيق وحدة العرب، كانت تتجنب إظهار تقصير في التعاطف مع فكرة الوحدة العربية، طالما أنها ظلت فكرة غامضة مثالية. وتوصلت المذكرة الى الاقتناع ان تحقيق الفكرة يبدو مستحيلاً، وعزت ذلك إلى الاعتراضات الفرنسية، والتنافس الهاشمي السوري، وعدم الاتفاق بين العرب انفسهم على الشكل الذي يجب أن تتخذه مسألة الزعامة، داخل الوحدة العربية(١١١). وفي لقاء فيصل مع وزير الخارجية، جون سيمون،يوليو/ تموز ١٩٣٣، حاول فيصل ان يضمن موافقة لسياسته، بالتركيز على أن فكرة المصالح البريطانية يمكن أن تخدم بشكل أفضل، لو ضمنت مصالح العراق الخاصة. وبعد أن استعرض الاوضاع العربية، واقتراحاته بشأنها، طلب فيصل من وزير الخارجية معرفة الموقف البريطاني من مساعيه السياسية، ولم يقدم سيمون جواباً مباشراً على المسائل التي أثارها فيصل، ولكنه كرر اعتراضات بريطانيا على المؤتمر العربي المقترح، وكان جواب فيصل «أنه يعلق أهمية على التوصل مع حكومة جلالته إلى سياسة يمكن أن تعطي أملا بتحقيق التطلعات العربية، أكثر مما يعلقه على المؤتمر العربي.ولو أن مثل هذه السياسة تم الاتفاق عليها، فانه سوف يستخدم نفوذه كله لمنع عقد المؤتمر، في بغداد، أو في أي مكان آخر»(١١٢). ولم يتلقَ فيصل جواباً محدداً للمسائل السياسية العربية التي أثارها، وتوفي قبل مرور ثلاثة أشهر. وغاب الأمل نهائياً في عقد مؤتمر في بغداد، ولكن دور العراق القومي لم يغب تماماً، كما ستكشفه أحداث أواخر الثلاثينيات ومطلع الاربعينيات.

الهوامش

١-أحمد قدري :مذكراتي عن الثورة العربية،دمشق.١٩٥٦،ص٢٨٣.

٢- Hourani,A:Arabic Thought In The Liberal Age,1798-1939,London 1970,P.292.

٣- القدس ١٠/٦/١٩٣٣.

٤-ومن هؤلاء شكيب أرسلان الذي أخذ منذ العشرينيات يعمل لانشاء حركة إسلامية عربية متماسكة. تعمل من جهة كجبهة مشتركة ضد القوى الأوروبية، ومن جهة أخرى يمكن بواسطتها تحقيق الأهداف المحددة لحركات النضال الوطني المختلفة في المشرق العربي.

Khoury,PH:The Politics Of Nationalism,Syria And The French Mandate, 1920-1936,A thesis presented for the Degree of Doctor of Philosophy in the subject of history and Middle East Studies,Harvard University, May 1980 vol.II,P.812.

٥-مجلة العرب: القدس ١٥/١٠/١٩٣٢، مقال لعبد الرحمن عزام بعنوان «الوحدة العربية ضرورة للعرب وسعادة للبشر».

٦- Khoury,Ph:op.cit.vol. II,P.587.

٧-مجلة العرب : القدس، مصدر سابق ١٣/٥/١٩٣٣.

٨-المصدر نفسه،٢٧/٥/١٩٣٣.

٩- لقد ظهرت ردود فعل بعض هؤلاء المتشددين، منذ أن اتجهت السياسة البريطانية نحو تشكيل حكومة في العراق. وكتب عادل أرسلان من جنيف الى عوني عبد الهادي في القاهرة في ٢٠/٢/ ١٩٢١ «صرت أعتقد أننا سنكون شهوداً على دفن قضيتنا الآن لقيام قضية أخرى بشكل ربما لايكون فيه مصلحة الطرفين». عوني عبد الهادي: أوراق خاصة، إعداد خيرية قاسمية، بيروت ص٣٦.

وتكشف الوثائق البريطانية أن فيصل بقبوله عرش العراق، تعهد بأن يقصر نشاطه على بلده، وأن يمنع الدعم لأي نشاط معادٍ لفرنسا أو بريطانيا.

Goma'a,:the Foundation of the League Of Arab States, London, 1977,P.5.

نقلاً عن: F.O. Politics Files Serieas 371,vol. 16855,a memorandum on British attitude toward Arab Unity, June 1933.

١٠- Husky,Kh,S:King Faysal I and Arab Unity, 1930-33 Journal of Contemporary History, Vol,10 No 2 April 1975, P.327.

وكان ساطع الحصري أكثر تشاؤماً، فقد كتب إلى عوني عبد الهادي في ٧حزيران/ يونيو ١٩٣٣«.... ان الصيت الذي ناله العراق في العالم العربي ، لهو أكبر من حقيقته بدرجات... ولو كان وضع العراق السياسي في سورية ،أو ثقافه سورية في العراق،لرأينا دولة عربية قوية ناهضة...غير أن... مع الأسف الشديد...».

١١- Husry, op.cit.P.323.

نقلاً عما كتبه المندوب السامي البريطاني همفري، خلال تعثر المفاوضات التي سبقت توقيع المعاهدة الانجلو عراقية ١٩٣٠.

١١- F.O. 371/14506,E3087

١٢- Ibid,P324.

١٣- شكيب أرسلان: السيد رشيد رضا وأخاء أربعين سنة، دمشق ١٩٣٧،ص٦٤٣، تعليقاً على رسالة رشيد رضا في ٢٤/ ٣/ ١٩٣٢. كما أن جورج أنطونيوس الذي زار العراق ١٩٣٣، بعد انضمامه إلى عصبة الأمم المتحدة، وجد استقلال العراق أكثر وجوداً مما كان يعتقده، وقارنه بأوضاع الوصاية الاجنبية التي تسود سورية ومصر وفلسطين.

نقلاً عن: Husry op.cit. P.326 Report, 18 April 1933 "Reports of the Institute of World Affairs" unpublished (Middle East Center, St. Antony's College, Oxford).

١٤- Ibid ,p.324.

١٥- شكيب أرسلان: مصدر سابق، ص٦٧٦.

١٦- تعليق شكيب أرسلان على الرسالة السابقة، وكان الأمير شكيب أحد أعضاء الوفد السوري الفلسطيني.

١٧-المصدر نفسه،ص ٧٢١، رسالة رشيد رضا ١/ ٩/ ١٩٣٣.

١٨–رسالة من (د.حسني أحمد)؟؟ القاهرة الى د.سعيد عودة حيفا ١٨/ ١٢/ ١٩٣١ أوراق د.سعيد عودة(وكان أحد رجالات الثورة السورية، ولجأ الى فلسطين بعد ١٩٢٧) دار الوثائق التاريخية، دمشق.

١٩– Khoury,Ph:Op.cit.Vol. II,p.813.

تكشف الوثائق البريطانية أن بعض الدوائر الفرنسية كانت متأثرة بالتجربة العراقية في العراق، وكانت تفكر بإنهاء المأزق في العلاقات السورية الفرنسية واستبدالها بمعاهدة. وقد فاتح القائم بالأعمال الفرنسي في بغداد المندوب السامي البريطاني في يناير/كانون الثاني ١٩٣١ عن عدم معارضة الحكومة الفرنسية لقيام ملكية في سورية لو عبر السوريون عن رغبتهم باختيار هذا النظام، وأبلغ فيصل بامكانية تقديم العرش الى أخيه الاكبر الملك علي، وخلال زيارة فيصل لباريس علم أن الفرنسيين يرحبون بعودته إلى سورية، رغم أنهم يميلون الى ترك اختيار الملك الى الشعب السوري نفسه.

Housry: cit. P. 329

نقلا عن: F.O. 371/15364, E 206, E851, E5485. F.O. 371/ 15364, E5003, E5200, E5226, E5485.

٢٠– Khoury :op.cit.vol. II,p.813.

نقلاً عن رسالة رشيد رضا إلى نبيه العظمة في ٢٢/ ٣/ ١٩٣٢. أوراق نبيه العظمة (محفوظة في مؤسسة الدراسات الفلسطينية) ملف ٣/ ٦٧.

٢١– من رسالة د.حسني أحمد (القاهرة الى د.سعيد عودة حيفا ١٨/ ١٢/ ١٩٣١) أوراق سعيد عودة، مصدر سابق.

٢٢– Housry,:op.cit.,p.330. وقد عبرت عن أسباب الاعتراض برقية وزارة المستعمرات الى المندوب السامي البريطاني في بغداد ٢٧/ ١١/ ١٩٣١ ،وكذلك مذكرة وزارة الخارجية حول الوحدة العربية، وهي خلاصة بحث مستفيض تولته اللجنة الفرعية لقضايا الشرق الاوسط، وأيضا اللجنة الفرعية المنبثقة عن لجنة الدفاع الامبريالية، نقلاً عن: F.O.371/15364:F.O.371/16855,E 3119.

٢٣– Ibid .p.331.

٢٤– منذ نهاية ١٩٢٩ عمد بعض الشباب العربي المثقف في أوربا الى إنشاء منظمة سرية لها برنامج عمل قومي، وتمتد فروعها إلى الأقطار العربية. وكانت تلهم أولئك الشباب أفكار الفتاة والعهد والأفكار الاوروبية، وتدفعهم لوضع الحركة القومية العربية على أساس عقلاني منظم. وكان من هؤلاء الشباب فريد زين الدين (لبناني)، ودرويش

المقدادي (فلسطيني)، ونافع شلبي (سوري) وشرعوا في إيجاد أداة سياسة أطلقوا عليها جمعية التحرير العربية، لتضم جميع النشطين سياسياً من شباب البلاد العربية، وتركز نشاطها في العراق وسورية ولبنان وفلسطين. وكان لها صلاتها مع بعض الزعماء القدامى من الملتزمين بقضية الوحدة العربية .كما أخذت تنفذ الى بعض التنظيمات العربية الوحدوية القائمة كجماعة الأهالي وحزب الاستقلال في فلسطين وعصبة العمل القومي ،(واستمد الكاتب معلوماته من مقابلاته مع فريد زين الدين ١٩٧٥). Khoury,Ph:op.cit.vol. III,p.938.

٢٥- انبثقت فكرة المؤتمر في الأصل بعد تفجير ثورة البراق ١٩٢٩، وهدفه تأكيد التضامن الاسلامي حول قضايا الاستيطان الصهيوني والامبريالية البريطانية، وحضرته وفود عربية إسلامية، وجاءت قراراته تعبيراً عن اهتمام الرأي العام الاسلامي بقضية فلسطين.

٢٦-بيان نويهض الحوت: القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨ بيروت، ١٩٨١، جدول رقم ٢٨،ص ٨٧١-٨٧٢، أسماء أعضاء المؤتمر الاسلامي العام.

٢٧-محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها، جـ١، بيروت - صيدا،١٩٥٩ .ص٨٦-٨٧.

٢٨-من أهم الشخصيات التي حضرت المؤتمر العربي القومي، شكري القوتلي، خير الدين الزركلي ، نبيه العظمة ،عوني عبد الهادي ، محمد عزة دروزة ، صبحي الخضراء، رياض الصلح، بشير السعداوي، سعيد ثابت . المصدر نفسه ص٣٠٨.

٢٩-المصدر نفسه، ملحق ٥ ،ص٣٠٦-٣٠٨.

٣٠-عزة دروزة،: مذكرات غير منشورة، جـ٣ ،ص٢٧٩، وقد نشرت هذه المذكرات فيما بعد عن دار الغرب الاسلامي في بيروت، (المحرر).

٣١-بيان نويهض الحوت: مصدر سابق، ص٢٦٨.

٣٢-المصدر نفسه،ص٢٦٩.

٣٣-أكرم زعيتر: وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨-١٩٣٩ (اعداد بيان نويهض الحوت) بيروت، ١٩٧٩، وثيقة ١٨١ ،ص٣٦٥-٣٦٧. (برقيات التهنئة من العراق وسورية تأييداً لحزب الاستقلال).

٣٤-مؤسسو حزب الاستقلال هم:معين الماضي،محمد عزة دروزة ، عوني عبد الهادي، صبحي الخضراء، رشيد الحاج ابراهيم، أكرم زعيتر، فهمي العبوشي، سليم سلامة، عجاج نويهض.

٣٥-بيان نويهض الحوت: مصدر سابق ،ص٢٧٠. نقلاً عن: حزب الاستقلال العربي بيانه وقانونه، القدس مطبعة العرب،١٩٣٢.

٣٦- عزة دروزة، مذكرات غير منشورة ، مصدر سابق،جـ٣ ،ص٣٢٤.

٣٧-عوني عبد الهادي: أوراق خاصة، مصدر سابق،ص٦٦-٦٧. وقد كتب عوني عبد الهادي مسودة البيان.

٣٨-أكرم زعيتر: وثائق،مصدر سابق، وثيقة ١٨١ ،ص٣٦٦.

٣٩-عزة دروزة: مذكرات غير منشورة، مصدر سابق،جـ٣ ،ص٢١٩.

٤٠-بيان نويهض الحوت، مصدر سابق ،٨٧٨-٨٧٩، جدول رقم ٣٦.

رجال الحركة العربية الذين أرسلت لهم الرسالة المكتومة في ٢٦/ ٢/ ١٩٣٢، نقلاً عن أوراق نبيه العظمة (محفوظة في مؤسسة الدراسات الفلسطينية) وأهم هؤلاء ياسين الهاشمي، جميل المدفعي، شكري القوتلي، إبراهيم هنانو ، رياض الصلح، عبد الحميد كرامي، شكيب أرسلان ، رشيد رضا، أسعد داغر،عبد الرحمن عزام،عبد العزيز الثعالبي، محي الدين القليبي، كامل القصاب،الملك عبد العزيز آل سعود، الامام يحيى.

٤١-المصدر نفسه: ص٧٣٤، وثيقة (١٤)نقلاً عن أوراق نبيه العظمة، ملف ٥، وثيقة ٤٣(مؤسسة الدراسات الفلسطينية) جدول أعمال المؤتمر الذي وضعته اللجنة التنفيذية في القدس ،وأرسلته سراً إلى عدد من رجالات العرب ٢٦/ ٢/ ١٩٣٢.

٤٢- محمد عزة دروزة، مذكرات غير منشورة، مصدر سابق،جـ٣ ،ص٢٢.

٤٣- شكيب أرسلان: مصدر سابق،ص٦٤٥ ،رسالة رشيد رضا في ٢٤ مارس/آذار ١٩٣٢.

٤٤- المصدر نفسه.

٤٥- المصدر نفسه ،ص٦٣٦ رسالة رضا في شوال ١٣٥٠ هـ(مارس/آذار ١٩٣٢).

٤٦- محمد عزة دروزة: مذكرات غير منشورة ،مصدر سابق ،جـ٣، ص٢٢٠.

٤٧-شكيب أرسلان: مصدر سابق، ص٦٤٥ ،رسالة رشيد رضا، ٢٤ مارس/اذار ١٩٣٢.

٤٨-جـ٣ ،ص٢٢٠.

٤٩-شكيب أرسلان: مصدر سابق، ص٦٤٨.

٥٠-أسعد داغر: مذكراتي على هامش القضية العربية، القاهرة، ١٩٥٩، ص١٨٦. وكان أسعد داغر سكرتير اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني، وعضو اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي في القدس. وكانت المهمة الظاهرية لسفره إلى بغداد هي حضور معرض بغداد ممثلاً لجريدته الأهرام.

٥١-شكيب أرسلان: مصدر سابق،ص ٦٤٩،رسالة رشيد رضا، ٢٩ مارس/آذار ١٩٣٢.

٥٢-وفقاً لما ذكره رشيد رضا في رسالته السابقة ،كان الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، ولم يكن عضوا في لجنة القدس، موافقاً على مسألة وحدة القطرين. وقد كتب الى رشيد رضا بذلك، إلا أنه «لايستطيع الشذوذ عن جماعتنا في فلسطين وعمان وسورية».

٥٣- اسعد داغر: مصدر سابق، ١٩٥٩،ص١٨٦.

٥٤- المصدر نفسه،ص١٨٨-١٨٩،واختار الملك فيصل علي جودت سكرتيراً للجنة ،على أن يعينه كبيراً للامناء في البلاط.

٥٥- المصدر نفسه، ص١٨٧-١٨٨

٥٦- شكيب أرسلان: مصدر سابق،ص ٦٥١.

٥٧- المصدر نفسه، ص٦٥٢، رسالة رشيد رضا ٢٩ ابريل / نيسان ١٩٣٢.

٥٨-المصدر نفسه،ص٦٥٤، رسالة رشيد رضا ،٢مايو /ايار / ١٩٣٢.

٥٩- المصدر نفسه،ص٦٥٥-٦٥٦ الرسالة نفسها.

٦٠- محمد عزة دروزة: مذكرات غير منشورة، مصدر سابق، جـ٣، ص ٢٤١.

٦١-شكيب أرسلان : مصدر سابق،ص ٦٦٥.

٦٢-يرجع أسعد داغر أسباب ذلك ،إما الى وقوع الخلاف على بعض الشؤون الداخلية بين الملك والهاشمي، أو الى التنافس بين الملك فيصل والهاشمي على قيادة الأمة العربية، اسعد داغر ، مصدر سابق، ص١٨٩.

٦٣-ج٣،ص ٢٢١.

٦٤-تشير الوثائق البريطانية إلى أن ياسين الهاشمي، بعد أن كان أحد قادة المعارضة لمعاهدة ١٩٣٠، ويعدها استقلالاً ناقصاً، غير موقفه بعد عودته من البلاد العربية، معتبراً أن دخول العراق الى العصبة والمكانة الدولية التي حصل عليها أثارا آمالاً عظيمة في

الوطن العربي، لما يمكن أن يقدمه العراق لاشقائه العرب تحت الاحتلال من العون، وخاصة أن وضع العراق الجديد، رغم أنه لم يحقق تطلعاته كاملة،قد منحه فرصة أكبر للعمل السياسي..Housry,:op.cit.,p ٣٢٧ نقلاً عن جريدة الاخاء الوطني،١٤/٧/١٩٣٢.

٦٥-شكيب ارسلان : مصدر سابق، ص٦٧٧-٦٧٩.

٦٦-يعطي رشيد رضا في رسالته السابقة رأياً يتصف بالموضوعية والاخلاص عن الحاج أمين، وعلاقة الاخير بمؤسسي حزب الاستقلال، وما يسودها من توتر.

٦٧- ج٣،ص ٢٢١-٢٨٢.

٦٨- مجلة العرب ، (القدس) مصدر سابق،٢٤/٩/١٩٣٢.

٦٩-بيان نويهض الحوت : مصدر سابق، ص٢٦٧، نقلاً عن جريدة الجامعة العربية (القدس) ١٩/٩/١٩٣٢.

٧٠-مذكرات غير منشورة، مصدر سابق،ج٣،ص٢٢٢.

٧١-كان أسعد داغر قد أشار في مذكراته إلى أن اللجنة قد شكلت خلال زيارته لبغداد في آذار/مارس ١٩٣٢، أسعد داغر ، مصدر سابق، ص١٨٧.

٧٢- مجلة العرب: (القدس)٢٩/١٠/١٩٣٢.

٧٣-شكيب أرسلان: المصدر السابق،ص ٦٥٢، رسالة رشيد رضا في ١٦ ديسمبر/ كانون الاول ١٩٣٢.

٧٤- رسالة من د.جمال (؟؟) القاهرة في ٣٠/٩/١٩٣٢الى د. سعيد عودة (حيفا) أوراق سعيد عودة، مصدر سابق، دار الوثائق التاريخية، دمشق. وتذكر الوثائق البريطانية ان علاقة الملك عبد العزيز بالملك فيصل أصبحت ودية منذ التقى الملكان شباط/ فبراير ١٩٣٠. وقد زار الامير فيصل آل سعود بغداد في تموز/يوليو ١٩٣٢. وساءت العلاقات بعد أن اتفق أن تكون بغداد مكان انعقاد المؤتمر.

نقلاً عن:

Annual Report,1933 F.O.371-1787 Husry,P.327 Iraq.

وأيضا رسالة من الملك فيصل إلى شكيب أرسلان ٦/ ١١/ ١٩٣٢ (أوراق الامير شكيب أرسلان الخاصة، محفوظة لدى ابنته السيدة مي جنبلاط).

٧٥- جـ٣،ص ٢٢٢.

٧٦-شكيب أرسلان: مصدر سابق، ص٦٥٤-٦٥٥.

٧٧- يذكر أسعد داغر في مذكراته، ص١٩٠، أن شكري القوتلي كان منحرف الصحة، فلم يتمكن من السفر، كما أن خير الدين الزركلي قد منع من المرور بمصر فلم يستطع القيام بالمهمة الموكلة اليه.

٧٨- المصدر نفسه.

٧٩- شكيب ارسلان: مصدر سابق ص٦٩٥-٦٩٨ رسالة رشيد رضا في ٢ شباط ١٩٣٣.

٨٠-المصدر نفسه.

٨١-مذكراتي على هامش القضية العربية، مصدر سابق، ص١٩١.

٨٢- جـ٣،ص٢٢٣.

٨٣-المصدر نفسه.

٨٤-المصدر نفسه.

٨٥- شكيب أرسلان : مصدر سابق، ص٧٠٢.

٨٦- دار الوثائق التاريخية، دمشق، القسم الخاص (اتحاد سورية والعراق).

٨٧-شكيب أرسلان، مصدر سابق، ص ٧٧١، رسالة رشيد رضا ٢٥مايو/ايار ١٩٣٣.

٨٨-جـ٣،ص ٢٢٤.

٨٩- شكيب أرسلان: مصدر سابق، ص٧٠٧، رسالة رشيد رضا ،٢٠ مايو/ايار ١٩٣٣. ونشرت مجلة العرب (القدس) ٢٧/٥/١٩٣٣ نص المضبطة التي تفوض الملك فيصل بالوساطة مع فرنسا لحل القضية السورية.

٩٠- شكيب أرسلان : مصدر سابق، ص٧١٥، رسالة رضا في ٢٦ يوليو/تموز ١٩٣٣.

ويعلق الأمير أرسلان على الرسالة، بأن الملك فيصل كان قد كاشفه بذلك أيضاً، وفرح حتى قال الملك لاحسان الجابري «لاينام شكيب هذه الليلة من الفرح بهذا الخبر». ويضيف الأمير شكيب: «والحقيقة أن فرحي كان مشوباً بضعف الأمل في تحقيق هذا المشروع من وجوه كثيرة. وكان الملك فيصل قد أسر إلى رفاقه من الاستقلاليين القدامى (عوني عبد الهادي،أسعد داغر، صبحي الخضراء، عادل العظمة، رستم حيدر)بقوله «لابد من ضم شرق الاردن الى العراق ففي ذلك تحرير لها، وفي ذلك دفع للخطر عنها، وفي ذلك انقاذ فلسطين».

بيان نويهض الحوت، ص٢٧٥، نقلاً عن أكرم زعيتر، يوميات خاصة، كراس ٧٥ حزيران /يونيو ١٩٣٣ (محفوظة في مؤسسة الدراسات الفلسطينية ،بيروت).

٩١–المصدر نفسه ،ص ١٩١.

٩٢– كان الملك فيصل قد بعث باحسان الجابري الى باريس، ليكون على صلة بالنواب الفرنسيين،ويمهد لزيارة فيصل للعاصمة الفرنسية .ولكن بسبب ثورة الآشوريين يونيو –يوليو/ حزيران –تموز ١٩٣٣، اضطر الملك للعودة الى بغداد . ولما عاد ثانية الى برن – سويسرا .كان آخر أحاديثه قبل وفاته عن سورية، وعن مقترحاته التي سيتقدم بها للحكومة الفرنسية. وكان من المقرر أن يغادر رستم حيدر الى باريس في اليوم التالي.

Husry: O P. CIT. P. 338. نقلا عن: أمين الريحاني، فيصل الأول، بيروت ١٩٣٧ص ٢١٠.

٩٣– محمد عزة دروزة : مذكرات غير منشورة، مصدر سابق ، جـ٣، ص٢٢٤.

٩٤–مجلة العرب (القدس) ١٦/٩/١٩٣٣.

٩٥– المصدر نفسه، ٢٣/٩/١٩٣٣.

٩٦–جـ٣،ص٢٢٤–٢٢٥.

٩٧–المصدر نفسه.

٩٨– ص ٩١.

٩٩–رسالة من (رشيد؟؟)(القاهرة) الى د.سعيد عودة،حيفا ٦/ ١/ ١٩٣٣. أوراق د.سعيد عودة، دار الوثائق التاريخية. دمشق.

١١٠– رسالة من د. جمال (؟؟) (القاهرة) إلى د.سعيد عودة،(حيفا) ٢٣/ ٥/ ١٩٣٣ المصدر نفسه.

١٠١–Husry, op.cit.pp.324-325.

١٠٢–نقلاًعن:.Ibid, p,332. F.O.371-16854:Humphry's Baghdad, 5 Jan. 1933

١٠٣–نقلاًعن:.Ibid, p,333,F.O.371-16086,E.5584

١٠٤–نقلاًعن:.Ibid, p,333,F.O.371-16854Humphty's Baghdad, 5 Jan. 1933

١٠٥–Ibid,p.333

١٠٦– Ibid,p.334

١٠٧–Ibid,p.334

نقلاً عن: .F.O 317-16854:E 578,E 15544,E955,E 1091

١٠٨–Ibid,p.334

نقلاً عن: .F.O 317-16854:Humphrys,Baghdad, 9 March 1933

١٠٩– نقلاً عن: Ibid,p.334

F.O.371-16855, E 3120. E 3119.

١١٠–Goma'o : op. cit P. 25

١١١–.Husry,OP.cit.p.338

نقلاً عن: F.O371-16855. E 4336, E 6221

الفصل الرابع

أسعد داغر ودوره في العمل القومي

أ. انطوان داغر

تعلق أسعد بالفكرة العربية وبواعث ظهورها

أطلّ اسعد داغر* على الحياة في الطور الأول من أطوار الوعي الوطني، وتعلق بالفكرة العربية في حداثته تعلقاً عاطفيًا عفوياً ساذجاً، بل قل ان تعلقه بها كان مجرد إحساس فطري موروث ،لا يداخله اي ادراك أو فهم. فيوم سأله رفيقه رياض الصلح عن هويته- وكانا يومذاك في عمر من يعتقد ان الشمس محمولة على قرن ثور- حار في الأمر وأجاب :« أنا عربي» ليس من اعتقاد او رضى، بل لأن والده كان قد ردد على مسمعه ان أجداده عرب أتوا من العراق(١).

ولعلّ رياضاً اثار في نفس أسعد شوقاً ووجداً للعرب، وحرك عاطفته الوطنية، فراح هذا الأخير يتسقط اخبار العرب بنهم. ومن حسن حظه أن تعهده في نهاية المرحلة الثانوية الشيخ الطرابلسي، محمد العسال، ووجهه إلى تقصي المعارف والنهل من ينابيع التاريخ العربي، وخاطب فيه عقله، وحوّل تعلقه العاطفي بالعرب الى إعجاب عقلي بتاريخهم وحضارتهم.

لا يداخلنا اي شك في ان الطريقة السلبية التي كانت سائدة في مدرسة عينطورة، القائمة على خنق الروح الوطنية، وطمس العروبة، وإذكاء التعصب الطائفي، كما يشير أسعد في مذكراته(٢)، ولّدت عنده ردة فعل قوية وميلاً متزايداً نحو العروبة. إلا ان الباعث الوحيد والاقوى الذي حرّك مشاعره القومية ،كان يوم برزت الطورانية إلى الوجود، وانطرحت بكل ثقلها في ذلك المناخ السياسي المفعم بالاضطرابات وحمّى الحروب،

* اسعد مفلح داغر (١٨٨٦-١٩٥٨) من رجال الحركة العربية، بعد ١٩٠٨، عاش في مصر منذ ١٩١٥ ،وعمل في الصحافة منذ ١٩١١، وظل الى ان توفي . أصدر صحيفة العقاب في دمشق في ١٤ /١٩١٩/٢، والقاهرة في ١٩٥٣/١٠/١٢، حتى سنة ١٩٥٩. ولأ سعد عدد من المؤلفات أبرزها كتاب ثورة العرب الذي لم ينشر باسمه ، وكتاب مذكراته ، وهذه الدراسة قسم من أطروحة أعدها احد اقربائه أ. انطوان داغر، لنيل شهادة الكفاءة في الادب العربي من كلية التربية بالجامعة اللبنانية . وقد أهداني المؤلف الرسالة في أوائل السبعينات.(المحرر).

وراحت تعمل على محو العرب، وعلى صهرهم في بوتقة الاتراك، بعد ان نالت الشعوب البلقانية وغيرها من تلك الشعوب التي كانت خاضعة للسلطنة العثمانية استقلالها ،واستعادت حريتها. فأنشأ الاتحاديون جمعية« ترك أوجاغي» (طائفة الترك او العائلة التركية) بفروعها الأربعة: « ترك يوردي» (المملكة التركية)و« ترك درنكي» (ثبات الترك)و«ترك بلكيثي»(العلم التركي) و«ترك كوجي» (القوة التركية). وكان الغرض من هذه الجمعية تتريك العناصر العثمانية ،لا سيما العرب، وتطهير اللغة التركية من المفردات العربية.

ان وجود أسعد في الاستانة بعد إعلان الدستور العثماني، وسط ذاك الجو المحموم، وفي مناخ الدعوة الطورانية، وما رافقها من مظاهر التطرف والغرور، والعنصرية والأفتئات على العرب والتهجم عليهم، والطعن في كل ما هو عربي، وإعمال السيف في رقاب أحرارهم. كل هذه العوامل منفردة ومجتمعة دفعت به دفعاً، كما دفعت بغيره من مفكري العرب ،وقادة امورهم إلى التخلي عن الشعور الوطني الرومنسي، وإلى اعتناق أسلوب عملي، وتبني شعار القومية العربية، والتمسك بالعروبية تمسك الغريق بخشبة النجاة. دعاة الطورانية يهاجمون العرب، ويعملون على سحق مرتكزات العروبة، مشوهين تاريخها وحضارتها، فليعمل هو على إحياء هذا التراث، وإحياء مناقب العرب وأمجادهم، فأدخل قلمه في معركة العروبة وصراعها المستميت مع الطورانية.

وما ان انحسر نفوذ العثمانيين عن الشرق العربي أو كاد، حتى اصطدم أسعد مع الحلفاء الطامعين بتركة « الرجل المريض»، وساءه ان يتقاسموها كالسلع فيما بينهم ، بلا حق ولا مبرر، فهبّ يطالب بالاستقلال والتحرر، ونظر الى الوطن العربي فوجده مفككاً، هنا يقوم استعمار، وهناك يقوم استعمار من لون آخر. وجده مقطع الأوصال، قسمه الأجانب إلى مناطق نفوذ لهم، وأقاموا حواجز بين أقطاره للقضاء على وحدته، ففكر في الوحدة العربية التي لا قيام للامة العربية إلا بها.

تطور مفهومه للفكرة العربية

من المستحيل، ومن المغالاه الاعتقاد بان الفكرة العربية عنده قد حققت نضوجها وكامل وعيها دفعة واحدة، أو في مدى قليل من الزمن. والحقيقة التي لا جدال فيها أن مفهوم الفكرة العربية عنده، كان يتبلور ويتناسق بالتدريج بنسبة ما كان ينتاب الامة العربية من الأحداث والمصائب النازلة بها. فبعد أن كانت ذروة ما يتمناه للعرب« حكم اللامركزية» ، قبيل الحرب العالمية الأولى، نادى بالثورة على العثمانيين إبّان الحرب، ومهّد لها وأسهم فيها.

وبعد أن كان يدعو قبيل الحرب العالمية الأولى إلى السعي لانقاذ العرب، بالاستناد إلى فكرة الجامعة الاسلامية التي كان يعتبرها قوة عظيمة الشأن للعرب، إذا أحسنوا استخدامها(٣)، رأيناه يتخلى عن اعتقاده هذا، منادياً بالجامعة القومية المنزهة عن التعصب الديني، ودليلنا على ذلك إرجاعه سبب قيام انتفاضة الحجاز، وسبب نجاحها الى العامل القومي دون غيره. فيقول: «.. وليس ذلك الحادث(ثورة الحجاز) ابن يومه، بل هو نتيجة انقلابات طرأت على الأفكار في السنوات الأخيرة فحررتها من قيود التعصب الديني، وجعلتها تنضم جملة تحت لواء الجامعة القومية، والغيرة الوطنية، فغيرت بذلك كل اعتقاد سياسي واجتماعي، وأظهرت للعرب كافة أن اتفاقهم مع الترك كان شراً عليهم، لأنه لم يكن قائماً على أساس القومية»(٤).

ولا أدل على تطور فهمه للقومية العربية من تحديده للوطن العربي. ففي عام ١٩١٦ يحدده بانه: «البلاد التي يحددها من الشمال جبال طوروس، ومن الشرق إيران وبحر عمان، ومن الجنوب البحر المحيط الهندي، ومن الغرب البحر الأحمر والبحر المتوسط، وتشمل سوريا والعراق وشبه جزيرة العرب» (٥).

أما في عام ١٩٤٥ ،فيحدده بقوله: «البلاد التي يسكنها العرب، ويتكلم أهلها اللغة العربية في آسيا وإفريقيا ، وتحدها من الشمال جبال طوروس والبحر المتوسط، ومن الغرب البحر المتوسط والمحيط الاطلسي، ومن الجنوب المحيط الهندي والصحراء الكبرى، ومن الشرق جبال بشتويه والبختيارية وخليج البصرة.

وتتألف الآن من الأقطار الآتية : العراق وسوريا ولبنان وشرق الاردن وفلسطين والمملكة العربية السعودية واليمن والامارات الواقعة على شواطئ جزيرة العرب من الشرق والجنوب، ومصر والسودان، وبرقة وطرابلس الغرب، وتونس والجزائر ومراكش والجزر المجاورة التي يقطنها العرب»(٦).

فلو قابلنا بين هذين التحديدين للوطن العربي، لتبين لنا بوضوح هذا التطور في فهمه القومي. ففي التحديد الاول لرقعة الامة يهمل المؤلف الاوطان القائمة في القارة الأفريقية، حتى كانت حدود الامة لا يمكن ان تتعدى حدود القارة. فهي محصورة في آسيا، وكل ما خارجها لا يمت اليها بصلة.

اما التحديد الثاني ، فيدل على بعد في النظر، وشمول في الفهم. فقد أتى مناقضاً تماماً للأول، ومطابقاً لتحديد دعاة القومية العربية. كما أتى تحديداً علمياً قومياً(البلاد التي يسكنها العرب، ويتكلم أهلها اللغة العربية) ، مشدداً على العنصر البشري ،وعلى اللغة التي يعتبرها دارسو القومية من أقوى العناصر والمقومات للقومية.

غير أن أسعد له عذره في تحديده الأول للوطن العربي، لأن هذا الوطن لم يكن متعارفاً عليه، كما هي الحال اليوم ، حتى عند المؤرخين والكتاب البارزين في تلك الفترة، وبعدها بكثير. فأمين الريحاني(٧)- فيلسوف الفريكة- الذي دعا للوحدة العربية في كثير من مؤلفاته، أخرج مصر من المجموعة العربية، إذ قال في مقدمته لكتاب المؤتمر العربي القومي في بلودان عام ١٩٣٧، والذي أصدره المكتب العربي القومي للدعاية والنشر في دمشق، ان الساحل العربي لحوض المتوسط يمتد من الاسكندرونة الى حدود مصر(٨). ولم تكن مصر قبل الخمسينيات محسوبة على العرب وان اعتبرت جارة او قطراً شقيقاً. وبرهاننا على ذلك وصية الشهيد عبد الغني العريسي(٩) التي ورد فيها: «التمس منكم (اخوانه العرب) أن لا تفترقوا فرقاً وطوائف. فاليوم لا مسيحي ولا مسلم ولا يهودي ولا درزي ولا وثني، بل الجميع عرب، وفي العرب وللعرب، لا لبناني ولا بيروتي ولاشامي ولا حلبي. فحظ بيروت هو حظ لبنان ، وحظ الشام وحلب وفلسطين والعراق والحجاز واليمن.(١٠) وهكذا كما يلاحظ ، لم ترد لفظة مصر أو مصري مع أسماء المدن او الاقطار العربية الاسيوية*.

مفهومه للوحدة العربية:

عبثاً نحاول أن نجد فرقاً بين مفهوم القومية العربية ومفهوم الوحدة العربية عند صاحبنا، كما هي الحال عند سائر العرب. فالقومية العربية تترجم عنده إذن بالوحدة العربية، حتى ان مصطلح« القومية العربية» لا يرد في كتاباته الا نادراً، في حين ان مصطلح « الوحدة العربية» يرد بكثرة . وهذا المصطلح الاخير هو في الحقيقة نتيجة للاول. وهو ثمرة القومية، فلا وحدة بدون قومية.

إن الوحدة العربية معناها اعتبار البلاد العربية وطنا قومياً ، عاماً ،شاملاً، واحداً بالرغم من الحدود والسدود المصطنعة، وبالرغم مما طرأ على هذا الوطن من تجزئة مخالفة لارادة أبنائه. وهذا الوطن مؤلف من شعوب مختلفة، تؤلف أمة واحدة، ليس في العالم أمة أشد تجانساً وتماسكاً قومياً منهاولا أنقى منها دماً(١١).

فالفراعنة والفينيقيون والبابليون والآشوريون والآراميون كلهم من جزيرة العرب، أما الشعوب التي امتزجت بالعرب كالفرس واليونان والرومان والفرنج والمغول والترك فلم تترك في هذا الوطن أثراً خطيراً يذكر في تكوينه البشري، أضف الى ذلك أن الصحراء

* : إن المفكرين القوميين كانوا يعتبرون أرض العرب الأرض التي يتكلم سكانها العربية، وان كان المشروع السياسي في ذلك الحين، قد قبل بدولة عربيه مشرقية . ثم ان موقف العريسي من العلاقات مع السلطنة العثمانية لم يكن موقفاً شخصياً ، بل موقف العربية الفتاة والتحالف العربي القومي (المحرر).

ما برحت منذ ما قبل التاريخ تقذف بسكانها الى البلدان المجاورة الخصبة. لقد توالى تدفق الموجات البشرية من الجزيرة العربية شمالاً وغرباً،منذ الموجة التي حملت الشعب الفينيقي إلى سواحل سورية، الى أن جاءت موجة الفتح في القرن السابع للميلاد. ولو ان الفراعنة والفينيقيين والاشوريين والعرب– هذه الشعوب التي سيطرت على البلاد العربية– كانوا من أجناس مختلفة، فليس هناك ما يمنع اندماجهم في قومية واحدة،بعد ان امتزجوا منذ آلاف السنين. مع العلم انه ليس في العالم كله أمة واحدة صغيرة او كبيرة اتصفت بنقاوتها، ولم يمتزج دمها بدم أمم اخرى(١٢).

ويرى صاحبنا ان الامة العربية استكملت جميع أسباب الوحدة منذ آلاف السنين، وتميزت بجميع خصائصها وميزاتها من وحدة الدم واللغة والمصلحة والعاطفة والتاريخ والأخلاق، إلى وحدة في العادات والتقاليد والآلام والآمال والثقافة والجغرافية، إلى وحدة في التفكير والميول والغرائز والمأكل والملبس، وفي جميع مظاهر الحياة وخفاياها..

ومفهوم الوحدة العربية عنده معناه اعتبار البلاد العربية وحدة سياسية وعسكرية واقتصادية طبيعية لا تنافس بين أقطارها ولا تضارب.

والوحدة التي دعا إليها أسعد هي ذلك الاتحاد السليم الصحيح الذي يرمي الى توحيد الشعوب لا الى خدمة التيجان، والى تعزيز الاستقلال، لا إلى الانتقاص منه، والى توطيد السيادة القومية، لا إلى جعل البلاد العربية في أيدي الطامعين(١٣).

والوحدة لا تعني امبراطورية عربية تجعل الاقطار العربية المختلفة خاضعة لارادة فرد، بل هي نظام حر ديمقراطي، ناشئ عن رضى جميع الشعوب العربية، ويسعى الى التحرر من جميع الاقطاعات الاقتصادية والاجتماعية في الداخل والخارج، والى النهضة على أساس المساواة بين الافراد، وإزالة الفروق بين الطبقات ومكافحة الفقر والمرض والجهل، وتأمين العمل والعلاج والمسكن والغذاء لجميع المواطنين(١٤).

ويعتقد صاحبنا جازماً أنه من مصلحة كل قطر عربي الانضمام الى الوحدة العربية ،لأنها حاجة ومنفعة لكل قطر، لا يمكنه الاستغناء عن الوحدة إذا أراد الحياة، إلا اذا أمكنه الاستغناء عن الماء والهواء.

هذه الوحدة أساسها القومية والعلمانية، وليس الدين والتعصب الطائفي. وهي فكرة إنسانية لا تبغي التوسع ولا الانتقام ، لا تضمر العداء لأحد، بل تتعاون مع دول العالم في حدود النظم العالمية التي لا تؤذي نهضة شعوبها، ولا تمس كرامتهم وكيانهم ، ساعية أبداً لخدمة شعوب العالم، وداعية أبداً للحضارة والسلام، غير أنها تقاوم كل اعتداء يقع عليها، مهما تكن نتائجه وأياً كانت جهته.

وهكذا فهم أسعد الوحدة العربية حركة تهدف الى التحرر السياسي والاجتماعي والاقتصادي والخلقي، وقلعة حصينة تصمد في وجه الاستعمار . يقول عن هذه الوحدة المنشودة: «هي التي تربط اقطارنا كما تربط قلوبنا» هي التي تكفل لنا العزة ورغد العيش، وتحل مشاكلنا الاقتصادية والاجتماعية والخلقية، وتمهد لأمتنا سبيل النهضة والارتقاء، وتجعله عامل سلام وحضارة وتوازن في البحر المتوسط، فنجني نحن فوائدها، كما تجنيها الشعوب المحبة للسلام»(١٥).

ولم يقل أسعد بالوحدة العربية المنعزلة عن الاسلام والشرق، لأن في تعاونها معهما خيراً للجميع، يقول: «إن الامة العربية ترى عزها ومجدها ومستقبلها في الوحدة العربية الشاملة، إلى جانب التعاون الصادق مع جميع الدول والشعوب الاسلامية والشرقية التي يهمها امرنا، وتجد في مصلحتها التعاون معنا».

وأراد لهذه الوحدة الحياد، وعدم الانحياز الى أحد المعسكرين الغربي أو الشرقي،يقول: «والحقيقة أن حياتنا وكرامتنا لا تهم الكتلة الشرقية ولا الكتلة الغربية في شيء، إلا اذا كان موضوع مساوماتهم كسلع معروضة للبيع والشراء.. وإذا جاز لنا أن نبدي رأينا في الموضوع، قلنا: إننا نحن أيضاً لا يهمنا غير أنفسنا، ولا نريد منهم إلا أن يتركونا وشأننا، وإننا لن نذعن لارادتهم، ولن نضحي بأي شيء في سبيلهم، إلا إذا كانت لنا مصلحة في ذلك.. إن دول الغرب التي تدعي لنفسها حق الدفاع عنا، ودول الشرق التي يلوحون لنا بخطرها، تحاول كلها أن تبقينا في حالة من الضعف نعجز معها حتى عن الحركة . فإذا وقعت حرب، لا سمح الله، كنا نحن أول وقودها.. فإذا قررنا البقاء على الحياد، فاننا نفعل ذلك لحفظ كياننا فقط، لا حباً بهذه الكتلة أو تلك» (١٦).

وبعد، ان الدعوة للقومية العربية او الوحدة العربية عند أسعد صعبة التحديد. وهذا يعود إلى صعوبة تحديد القومية نفسها. أضف إلى ذلك أن فهم صاحبنا لها لم يكن فهماً علميا شاملاً واضحاً، بل مجرد خواطر وآراء وأفكار مبثوثة هنا وهناك، دون تنظيم ولا تنسيق، تارة ترتكز على الدين،وطوراً علي العلمانية، تميل تارة نحو الاشتراكية، وطوراً نحو الوقوف في صف الشعوب غير المنحازة، بين الكتلتين الغربية والشرقية. ولا غرو ، فالقومية العربية ليست واضحة عند القوميين العرب أنفسهم، يقول الدكتور زين زين بهذا الصدد: «إن القومية العربية لا يمكن تحديدها تحديداً واضحاً ، إذْ ليس هناك من تحديد واحد يمكن ان يشمل جميع النواحي المتباينة والمتناقضات البارزة التي تتميز بها هذه القومية. فهي حركة سياسية، وهي نوع من الاحياء الديني. وهي في الوقت نفسه حركة علمانية وثيوقراطية، وقوة إيجابية هدفها وغاياتها القصوى توحيد العرب، وسلبية في موقفها ضد الغرب»(١٧)*.

* هنا نختلف مع الكاتب ومع د. زين نور الدين زين لأن القومية العربية واضحة مثل كل قومية ، ولكن فيها اتجاهات متعددة ، مثل كل قومية ، وهذا ليس غريباً ، فالأمة ووجودها شيء وبرامج الحركة القومية وسياساتها شيء آخر (المحرر).

كان أسعد عمليًا أكثر منه نظرياً ، لذلك أتت أبحاثه في القومية العربية موجزة للغاية، أشبه ما تكون بنبرات متقطعة منها منظومة متكاملة ، تتوضح فيهاجذور القومية وعناصرها وطرق تحقيقها.

١- الوحدة العربية وشروط تحقيقها:

من شروط تحقيق الوحدة العربية: ازالة الخلافات ، وإيقاظ الوعي القومي، ورفض الاستعمار، وتزعُّم مصر على الوطن العربي، وتحرير فلسطين.

١- إزالة الخلافات بين الحكومات العربية وبين العرب، أمر لا بد منه للوصول إلى الوحدة المنشودة. لأنه لا قيام لهذه الوحدة إلا برضى الجميع. لذلك دعا إلى التضامن بين الحكومات والساسة العرب، وإلى نبذ الخلافات التي هي بمثابة أمراض تمزق الشمل وتشتت القوى، وتحول دون كل اتفاق او تقارب في الرأي والعقيدة(١٨). كما دعا في مناسبات عديدة إلى إزالة التنافس العائلي بين الملوك والأمراء العرب. ألم يتوسط لدى رشيد الخوجة طالباً منه عدم الوقوف في الصف المقابل لحكومة ياسين الهاشمي؟. ألم يسعَ لدى سعيد ثابت، متمنياً عليه التدخل لاصلاح ذات البين بين نوري السعيد وجميل المدفعي؟.

إن دليلنا على ما نقول فقرات وردت في رسائل اليه: «ان ما ذكرتموه من توحيد الصفوف، وتناسي الأحقاد بين رجالات العراق ، خاصة بين السعيد والمدفعي في مثل هذا الوقت الحرج، هو الذي نوصي اليه، وهذا ما جعلني لعدم التمكن من الخلوة بكم والتحدث اليكم في مثل هذه المواضيع ،وفي مواضيع أخرى هامة يوم كنتم بطرفنا»(١٩).

وجاء في رسالة من ياسين الهاشمي: « أما ما ذكرتموه عن توحيد الصفوف في العراق، واتحاد الكلمة، فان ذلك من أخص أمانينا، وأني لا أدع اي فرصة تسنح الا واغتنمها للوصول إلى الغاية المتوخاة في هذا الباب..»(٢٠).

وكان في اعتقاد أسعد أنه لا يمكن تحقيق الوحدة العربية ما لم يتحد العرب جميعاً، وينبذوا الخلافات والمعارك الهامشية، ويوحدوا آراءهم وخططهم وآمالهم.

ورأى انه ينبغي أن يكون العرب جميعًا قلعة متينة، تصمد في وجه الأعداء، وصفًا واحداً متراصاً لا فجوة فيه يتسلل منها عدوهم ليطعنهم من ظهرهم.

وتحت يدي مسودة رسالة كان أسعد قد بعث بها على الأرجح الى الامين العام لجامعة الدول العربية، عبد الرحمن عزام، على اثر الثورة المصرية، استطعت ان أفك

رموزها لرداءة خط صاحبنا الذي كان مضرب المثل في صعوبة الخط، يقول:

«وانا يا سيدي قضيت حياتي في السعي الى مثل هذه الغاية، وبذلت في سبيل تحقيقها كل ما أملك من مال وجهود بمعرفة جميع اصدقائي، فكنت أزور البلاد العربية واحدة واحدة على نفقتي الخاصة... ثم أعود اليهم بنتائج كثيراً ما كانوا يغتبطون بها. فأنا الذي مهدت سبيل التفاهم بين العراق والمملكة السعودية.. وأنا الذي حصلت لسوريا على وعد قاطع من العراق بمساعدتها مادياً وأدبياً في أثناء اضراب دمشق، ذلك الاضراب الذي أدى الى مفاوضات عام ١٩٣٦، كما يعرف خير الدين الزركلي.. وعوني عبد الهادي، وغيرهما ممن هم الآن عندهم»(٢١).

٢- ايقاظ الوعي القومي وتنمية الروح الوطنية:

آمن كاتبنا بأن الوحدة العربية لا تتحقق إلا بايقاظ الوعي القومي الهاجع في نفوس الشعوب العربية، فهو خير وسيلة للبلوغ إليها. وهو السلاح الوحيد الذي يكفل المحافظة على كيانها وتأمين مستقبلها. فالوعي القومي يرشد الشعوب والحكومات إلى ما فيه خيرها وصالحها ويحدد لها الاهداف، ويخضع إرادتها للارادة المنبثقة عن الامة ومصالحها العليا. ويستند الى فهم تاريخ الامة فهماً دقيقاً، ويبين ما طرأ عليها من تطورات، ويدرك المشاكل التي تواجهها. ادراكاً حقيقياً، ويحاول أن يتغلب عليها ببث روح العزيمة الصادقة والايمان الراسخ.

وعنده أن الماضي منبع فياض للمستقبل، وهو خير منبه للوعي القومي والانسان العربي، وهو حافل بما يشبه العجائب، سواءً في أيام مجد العرب، أو خلال المحن التي توالت عليهم بعد انهيار ملكهم. غير أن درس الماضي ليس كافياً، بل لا بد من النظر الى الحاضر لتفهم الأسباب التي أدت إلى الازمات، والتعرف الى مواطن الضعف والوهن، والكشف عن مصادر القوة الفاعلة، وتلك التي ما تزال مدخرة وتذهب هدراً. ونادى بالاهتمام بالمستقبل، بعد التعمق في بحث الماضي والحاضر، لكي تكفل الأمة جميع الوسائل اللازمة لتأمين مصيرها، وتحديد غايتها العظمى واعداد الضمانات الكفيلة، ووضع الخطط الأساسية لضمان وجودها وبقائها.

دعا أسعد إلى الاصلاح من جميع وجوهه، باصلاح البيت والمدرسة، وتحسين أنظمة الحياة، وتثقيف المرأة، وصهر الجمعيات والأحزاب العربية في بوتقة القومية، بدل البوتقة الطائفية والأنانية.

والتوعية الوطنية بحاجة إلى وسائل أعلام حديثة، فقال بتحسين الصحافة العربية، والعناية بالمجلات والكتب والنشرات، والخطب والمحاضرات. كما قال بوجوب استغلال

الاذاعة والمسرح والسينما على أكمل وجه في حقل التوعية الوطنية. ورأى أنه من الضروري الاستعانة بجميع الأفراد الوطنيين من أصحاب الرأي، رجال الصحافة وقادة الفكر، في مختلف الأقطار العربية والمهاجر. كما قال بضرورة الحصول علي تأييد بعض الصحف الكبرى في أمريكا وأوربا، وبضرورة إذاعة بيانات وخطب ونشرات أخبار باللغتين الانكليزية والفرنسة من محطات الأذاعة في سائر الأقطار العربية.

ولقد اهتم بالسينما، لأنها من أحدث الوسائل التي تلعب دوراً كبيراً في الاعلام العربي ، إن هي أصدرت الأفلام العربية عن بعض الحوادث الخالدة في تاريخ العرب(٢٢).

وقرن كاتبنا القول بالعمل. ففي رسالة(٢٣) وافدة اليه دلالة واضحة على اهتمامه البالغ لدى إحدى الشركات ،لاخراج فيلم عن فتح مصر على يد عمرو بن العاص(٢٤).

ويحمّل أسعد الاعلام أكبر قسط من الأسهام في مصائب العرب وويلاتهم.

٣- رفض الاستعمار بجميع أشكاله

من اية جهة جاء، وإلى أي سبب استند،يقول: « ان ما يجب ان يزال او تبذل جميع الجهود لازالته.. بين العرب جميعاً، هو تلك اليد الأجنبية المجرمة، والأصابع الهزيلة القذرة التي تحركها. فعندما تقلع هذه اليد، وتهدأ تلك الأصابع عن الحركة ، تصبح البلاد العربية بلاداً واحدة، والشعوب العربية شعباً واحداً»(٢٥).

الدول الأجنبية في رأيه لا تبغي إلا مصلحتها، على حساب الشعوب الضعيفة، وتعمل جاهدة على تمّزيق وحدة العرب، وجرف كل من حكوماتهم أمامها في اتجاه مخالف لاتجاه الاخرى، بحيث يسهل القضاء عليها دفعة واحدة، أو على التوالي. فأمريكا مثلا تحاول ايجاد حلف عسكري تكون باكستان نواته، وتشترك فيه العراق إلى جانب تركيا وإيران، والدول العظمى في رأيه مجمعة على التضحية بأرواح العرب وأموالهم وبلادهم في سبيل أغراضها الخاصة، تحت ستار الدفاع عنهم، وتنتهز كل فرصة لتوسيع شقة الخلاف بين أقطارهم لتدخل في كل ثغرة تظهر في صفوفهم(٢٦). تكيد لهم وتحاربهم في كل شيء، في حقوقهم ومصالحهم وكرامتهم وصناعتهم وتجارتهم، وفي جميع أسباب معيشتهم ووسائل نهضتهم .لهذا كله راح أسعد ينادي بالخلاص من هذه الدول. يقول:« ليس لنا.. سوى خصم واحد وظالم واحد، هو هذه الدول الطامعة التي تدّعي صداقتنا، وتتظاهر بالعطف علينا، بينما هي توجه ضرباتها القاتلة الي حدودنا، ولكننا لن نكون أداة طيعة لها بعد الآن. وقد أوشك يأسنا منها أن يدفعنا الى أبعد الاحتمالات ،ويحفزنا إلى أعمال لم تخطر إلى الآن ببال. لأننا نريد الحياة في عزة وكرامة، ولأننا في سبيل هذه الحياة الكريمة ،سنغامر بكل شيء ،بأرواحنا وأموالنا، وكل ما نحب ونملك ،ونضع يدنا في كل يد

تُمدّ لمصافحتنا ، ولو كانت يد الشيطان كما يقول تشرشل(٢٧).. ينبغي عقد الاجماع على السير في طريق الخلاص الذي هو طريق الجرأة وطريق المجد والخلود»(٢٨).

٤- زعامة مصر على الوطن العربي.

يوم قال أسعد بالوحدة العربية: قال بزعامة مصر على الدول العربية. فان كانت الأمة العربية طائراً فمصر هي بمثابة قلبه. يقول:«.. نحن أمة مؤلفة من ثمانين مليوناً، قلبها مصر وجناحاها يمتدان من المحيط الاطلنطي إلى المحيط الهادي(٢٩).

ولم يجاهر بهذا المبدأ كرهاً بالاقطار العربية الاخرى، أو تزلفاً لمصر ، بل لعلمه أن مصر ذات إمكانيات بشرية ومعنوية. ولأنها قادرة على تحمل مسؤولية العرب جميعا:«.. هي المسؤولة الأولى، لا عن مصيرها فحسب، بل عن كيان الأمة التي هيأها القدر لتولي زعامتها.. والمسؤولية الملقاة على عاتق مصر عظيمة جداً، وهي تحمل في طياتها المجد كله. ولكنها في الوقت نفسه مثقلة بالمتاعب والصعاب والأخطار، ولا بد دون الشهد من إبر النحل»(٣٠). ولا يعني بزعامتها على الوطن العربي ان تفرض ديكتاتوريتها بل ان تكون مركز الاشعاع العربي، نظراً للامكانيات المتوفرة فيها، وليس متوفرة في الحجاز أو العراق أو سوريا أو غيرها من الأقطار، ولأنها الدولة العربية الوحيدة التي يخشى اليهود بأسها، ويرونها الهدف الأول لكل حرب يشنونها، لأن اليهود يعلمون أنه لا يمكن تحقيق اي أمل من آمالهم، ما دامت مصر قوية يقظة (٣١).

وعلى عكس معظم الصحافيين السوريين في مصر ، الذين على حد قول أنيس صايغ كانوا حجر عثرة في سبيل الفكرة العربية، مسخرين جهودهم ضد الوطنية المصرية، منغمسين في القضايا العربية الاقليمية(٣٢)، اهتم كاتبنا بشؤون مصر الداخلية والخارجية اهتمامه بشؤون أي قطر عربي آخر. وأيدها في صراعها، في سبيل الاستقلال وإجلاء الانكليز، وتأميم قناة السويس. وفي صحيفة«القاهرة» عشرات المقالات في هذا الموضوع. وقد رحب بقيام الثورة الناصرية، وأعرب عن سروره بها الى الامين العام لجامعة الدول العربية آنذاك، في إحدى رسائله، إذ قال: « اعتقد أن وثبة مصر يمكن أن تكون خير سلاح وراء الأمة العربية، وخير أساس تبنى عليه نهضتها، لأنها وثبة كريمة قامت على أسس متينة من الوطنية الصحيحة، والاخلاق الفاعلة، والنزاهة المطلقة، فهزت هذه الأمة هزة عنيفة، واحيت في نفوس أبنائها الآمال، وأتاحت لهم فرصة ثمينة قد لا يأتي الزمن بمثلها لخلق أمة قوية حية متحدة مناضلة لا يعرف الكلل والملل إلى نفسها سبيلاً»(٣٣).

وكان أسعد من أول الساعين إلى تعريب مصر إن صح التعبير، وإلى ايقاظ الروح الوطني القومي فيها. وهناك رسالة تكشف عن دوره في الفكرة العربية بمصر، جاء فيها

«.. يسرني جداً أن أسمع عن مصر ما سمعته منك ،وأن يبلغ اهتمام إخواننا المصريين، على اختلاف أحزابهم وهيئاتهم وطبقاتهم هذا المبلغ بقضية فلسطين. وإني لأخجل، وايم الحق، من إشادتك بالجهود الحقيرة التي قمنا بها مع بعض الأخوان عندما كنا في مصر، وان كنا قمنا بشيء فإنا لم نقم إلا بارشادك وفضلك. فأشكر الله، ثم أشكر نفسك، فانك بالشكر جدير وبالفضل خليق» .(٣٤).

ولقد تضافرت جهوده مع جهود بعض إخوانه الآخرين في الدفاع عن مصر، وآزروها في نضالها ضد الاستعمار، فبادلتهم جميلهم هذا، وأصبحت تدرك أنها لم تعد وحدها في الميدان، وأن صراعها في سبيل الجلاء والوحدة مدعوم بخدمات أبناء العراق وسورية وفلسطين ولبنان وغيرهم من العرب. فانه مقابل انشغال مصر بشؤونها الاقليمية، قام عامل آخر يفرض على مصر الالتفات الى الشرق العربي، لأن ذلك الشرق عني بقضية مصر، وأعانها في حل مشاكلها. فقد فتح العرب نافذة في السور الذي أحاط المصريون به أنفسهم ،ليرى هؤلاء المصريون تأييد العرب الساحق لهم(٣٥). وهكذا:« بعد أن كان المصريون يجهلون كل شيء عن البلاد العربية الأخرى، ولا يعنون لأمرها أكثر من عنايتهم بأي بلد من بلاد العالم، أخذوا يعنون بشؤونها ، ويزدادون اهتماماً بها يوماً بعد يوم».(٣٦)

٥- تحرير الاقطار العربية وعلى رأسها فلسطين:

بكر أسعد في الاعتقاد أنه لا قيام للوحدة العربية ما لم تتحرر جميع الأقطار العربية من نير الاستعمار والصهيونية، وفلسطين أول هذه الأقطار، لأن تحريرها وسيلة لتوحيد الأمة العربية، بالاضافة إلى كونها قلب الوطن العربي، وصلة الوصل بين شطريه الآسيوي والافريقي وواسطة العقد بين أطرافه النائية، ومن أيسر مراكز الاتصال مع العالم الخارجي، ولأن كل خسارة مهما بلغت ،لا تعادل خسارتها:« إن موت ثلثي الأمة العربية وضياع كل أنواع الاستقلال الموهوم الذي تتمتع به بعض أقطارها، وعودة الدول الغربية الى استعمارها، كل ذلك يجب أن يكون أهون علينا من ضياع فلسطين»(٣٧).

قد لا نكون بعيدين عن الصواب، إن قلنا: إن فلسطين كانت شغل كاتبنا الشاغل، ومحور تفكيره ونشاطه السياسي، حتى بات كأنه لا يفكر إلا بها ولها. ولا يخطب أو يحاضر أو يحرر مقالة أو رسالة، إلا والغاية من ذلك قضية فلسطين.على فراش النزاع تراوده مأساة فلسطين، فيكتب في وصيته:« يجب ان تنقذ فلسطين ، لان في ضياعها قضاءً على كيان الامة العربية ومستقبلها، وان تنقذ في عهدكم(شكري القوتلي، الامير فيصل(ملك السعودية فيما بعد)، عبد الرحمن عزام، خير الدين الزركلي) لكي لا تلقوا

عبأها على عاتق أبنائكم وأحفادكم فينوءون تحته– لا سمح الله– وإذا شاء القدر غير ذلك ، فيجب عليكم أن تهيئوا الأجيال المقبلة لكفاح مرير طويل..».

إن ما يسترعي الانتباه، ويحظى بالدهشة،ليس انقطاع صاحبنا للعمل من أجل القضية الفلسطينية –وقد كثر العاملون لها– ونذر حياته لها، منذ أن وجدت إسرائيل أو خطط لوجودها ، ابتداءً بوعد بلفور المشؤوم. وليس عاطفته المتأججة نحو أبناء فلسطين المشردين والمهددين بالموت جوعاً وبرداً وحرماناً ، بل ذلك التوقع والحدس بما سيحدث من جرائها في مستقبل الأيام، يقول: «.. لقد تألبت علينا قوات الشر كلها، وأوشكت أن تنتزع منا فلسطين، وتتخذها قاعدة لوثبة قريبة تجعل الشرق العربي كله أثراً بعد عين، فاذا ذهبت فلسطين– لا سمح الله– تبعتها شرق الاردن ولبنان وسورية، ثم سائر الأقطار العربية بعد سنوات قليلة. وقضي على هذه الامة قضاءً مبرماً. وليس هذا وهماً ولا خيالاً ، بل هو حقيقة يلمسها كل من عرف اليهود، وحسن نظامهم، ومقدرتهم المالية والسياسية ، والروح الجديدة التي تجلت في شبيبتهم، والمطامع الواسعة التي يعللون أنفسهم بقرب تحقيقها، ويعدون لها من العدة، فوق ما تتصوره عقولنا، معتمدين في ذلك على نفوذهم العالمي، وعلى عطف امريكا وانكلترا عليهم»(٢٨).

ونراه يحذر، المرة تلو المرة، من الأخطار الصهيونية مستبقاً وقوعها. يقول:« «نحن مهددون بخطر حرب أخرى، لا بد أن يشنها الصهيونيون علينا عاجلاً او آجلاً، مضطرين لا مختارين.فهم في حاجة شديدة لتوسيع رقعة مملكتهم لايواء الألوف المؤلفة من اليهود اللاجئين إليها. وإذا كان هذا سيتم، فعلى حساب من يمكن ان يتم اذا لم يكن على حساب العرب؟»(٢٩). وكان يرى، وهذا ما أثبتته الأحداث فيما بعد، أن مطامع اليهود لا تقف عند حد في البلاد العربية، وأنهم يطمعون فيها كلها.

ومما يسترعي الانتباه في موقف كاتبنا من القضية الفلسطينية اقتراحه الحلول التي رأينا ما يشابهها، فيما بعد، في مقررات مؤتمر الخرطوم الذي عقد في خريف ١٩٦٧ ،على أثر نكسة الخامس من حزيران، القائلة: « لا صلح ولا مفاوضة مع إسرائيل». يقول في إحدى مقالاته:« ينبغي إفهام العالم كله بأصرح العبارات وأوضحها أن لا صلح مع إسرائيل قبل أن تزول هي، أو الامة العربية بأسرها من عالم الوجود، وإننا نرفض كل بحث أو تعاون في أي أمر كان مع الدول التي ظلمتنا وفرقتنا، وشردت أبناءنا وأذاقتنا أصناف الذل والعذاب، قبل أن ترفع هذه الدول ظلمها عنا، وتكف على الأقل عن مساعدة أعدائنا علينا وإلحاق الأذى بنا(٤٠)».

وكان يعتقد أن الاسلوب الوحيد لاستعادة فلسطين، هو القوة ولا شيء غيرها، ، موافقاً بذلك على الشعار الثوري القائل:« إن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة». يقول في

هذا الصدد :«إن مشكلة فلسطين لن تحل إلا بطرد اليهود منها والقضاء على الصهيونية العالمية قضاءً مبرماً. وإن كل عربي لا يقول بذلك يكون خائناً لأمته وبلاده، فالشرق العربي لن يتسع للعرب واليهود بعد الآن، مهما تبذل في سبيل ذلك من جهود، ولن يكون بين هذين الشعبين تعارف ولا جوار ولا سلام ،بل حقد يملأ الصدور، وعداء لا هوادة فيه، وتحفز لأفظع أنواع الانتقام»(٤١).

وهكذا يرفض أسعد الصلح مع« إسرائيل» العنصرية التوسعية، ويرفض العيش المشترك معها. يقول: «ان مجرد التفكير في مجاورة اليهود لايقبله عقلنا، ولا قلبنا وتعافه نفوسنا. وإذا كانت هذه هي عواطفنا نحن، فان عواطف أبنائنا ستكون أشد قسوة وتزداد نمواً بنسبة ازياد الوعي القومي في أمتنا»(٤٢).

لذلك كله نادى بالقوة، قوة العلم والاقتصاد والسلاح، وقال بضرورة تدريب العرب على القتال تدريباً كافياً. بتعبئتهم نفسياً بقوة الارادة، وصدق الوطنية والشجاعة والايمان الصحيح، والسير على المكاره، وتعبئتهم جسدياً باكتساب سلامة البنية، ومرونة العضلات، وتعود الحرمان، وشظف العيش ، وتلقي التدريب العسكري الكافي، ودعا في معظم مقالاته في « القاهرة» الى الدفاع العربي المشترك ، واقترح على المسؤولين ضرورة تنظيم الفلسطينيين، واعدادهم لمعركة المصير ،من قبل لجنة عربية مشتركة، ليكونوا في المستقبل نواة لجيش فلسطيني كبير. لأنه كان يتوقع دائماً حرباً ضروساً بين العرب واسرائيل: « أنه لم يبقَ مناص من الحرب، وإنها واقعة حتماً في المستقبل القريب. وإنها ستكون حرب حياة أو ممات لكل من الفريقين ، لأن مطامع اليهود وفظائعهم لم تترك أي مجال للكلام، ولا أقل أمل في اجتنابه او تأجيله... إن مشكلة فلسطين لن تحل إلا بالحرب. وإن هذه الحرب أصبحت على الأبواب»(٤٣).

في سبيل تحقيق الفكرة العربية، وضمان تطبيقها، وإبرازها إلى حيز الوجود والواقع أبدى أسعد نشاطاً بارزاً في الثورات العربية والمباحثات الرسمية وغير الرسمية، وفي وضع المذكرات، وفي الاحزاب والجمعيات، وفي جامعة الدول العربية، وفي الدعوة للمؤتمرات الشعبية، وفي اتصاله الشخصي، بالمتنفذين عن طريق الاجتماع بهم او عن طريق مراسلتهم.

دوره في الثورات العربية والمباحثات والمذكرات:

يجمع أكثر من باحث على أن أسعد قد أسهم في معظم الثورات العربية كثورة العرب الكبرى التي اندلعت في الحجاز، والتي لم يَتَخلَّ عن أهدافها. . وقد دعا مع عبد الرحمن شهبندر(٤٤) ومحمد شريف الفاروقي(٤٥)العراقيين والسوريين ليثوروا على الأتراك(٤٦)

.هذا ما يذكره المؤرخون. أما أسعد فلا يروي شيئاً عن دوره في هذه الثورة، كعادته. أجل هناك إشارة خفية قد وردت عرضاً في مذكراته إذ يقول: «كان ذلك في اليوم الذي كنت انتظر فيه قيام الثورة في الحجاز»(٤٧). هذه الفقرة تدل على أن صاحبنا كان من المخططين والمنفذين لهذه الثورة. وفي صحيفة «القاهرة» يعثر الباحث في إحدى مقالات أسعد على إشارة أخرى مفادها أنه مهد لفرار نوري السعيد وعبد الله الدملوجي(٤٨) من الجيش العثماني للاتصال بابن سعود(٤٩).

عدا هاتين الاشارتين المقتضبتين، لم نوفق في الحصول على معلومات توضيحية أخرى، ترضي فضولنا، وتكشف عن دوره الحقيقي في هذه الثورة.

كما أسهم في الثورة السورية، واستقلال لبنان وسوريا. يستفاد من رسالة بعث بها هاشم الاتاسي(٥٠) إليه الحاج أسعد على وجوب إيفاد هيئة سورية إلى فرنسا للسعي من أجل استقلال سوريا، ودخولها في عصبة الامم(٥١).

واشترك أسعد في وضع معظم المذكرات العربية (٥٢). جاء في رسالة من أحد احرار العرب «... وقد طالبوا (الجماعة) فعلاً من الحكومة الافرنسية بأن تكون المعاهدة حسب رغبتك»(٥٣).

وعن دوره في المباحثات الرسمية فقد اشترك في مباحثات لجنة كراين(٥٤)، في سوريا ولبنان، ودى جوفنيل(٥٥) في مصر، وفي مباحثات مؤتمر المائدة المستديرة(٥٦) بلندن.

دوره في الأحزاب والجمعيات العربية:

فهم أسعد منذ صباه ان العمل الجماعي المنظم أجدى بكثير من العمل الفردي، وأن الجمعيات والأحزاب قادرة على أن تلعب دوراً مهماً في سبيل تحقيق الفكرة العربية. فانضم عام ١٩٠٩ الى جمعية المنتدى الادبي العربي(٥٧) في اسطنبول. كما أنضم إلى حزب الاستقلال العربي(٥٨) في دمشق. وانتخب في لجنته الادارية التأسيسية، ومندوباً عنه لدى اللجنة الوطنية(٥٩). ثم انتخب عضواً في لجنة الصلة بين الاحزاب العربية (٦٠) في مطلع العقد الثالث. كما مثل حزب الاستقلال العربي في اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني(٦١). وتولى أمانة سرها في أواخر عهدها، كما أشرف على إدارة مكتبها منذ إنشائه. ورد في رسالة بعث اليه بها شكري القوتلي: «.. لا يمكن لأحد أن يوافقك على عزمك باعتزال ادارة المكتب والقيام بسكرتارية اللجنة، ولا يمكن لغيرك، ولا لعزم وهمة أحد سواك القيام بهذا الأمر. فأرجو أن لا تقدم على ذلك رحمة بالامة التي تدافع عن حقوقها المغصوبة»(٦٢).

وما إن توقف نشاط المؤتمر السوري الفلسطيني حتى أسس أسعد جمعية الوحدة العربية. ويقتضي منا البحث التوقف عند هذه الجمعية لأنها صادرة عنه من ناحية، ولأنها أسدت خدمات جلى في بث الوعي العربي القومي في مصر من ناحية ثانية. أسس صاحب الترجمة هذه الجمعية عام ١٩٣٦ بمصر، وانضم إليها أول الأمر عدد من طلاب الجامعات في القاهرة، ومن ثم جمعت عدداً من المفكرين والسياسيين العرب من مصر وغيرها. وكان أسعد أمين سرها الدائم، إلى أن توقفت عن العمل في مطلع العقد السادس. وأذكر أن الدكتور حسن صعب عندما سألته عن دور أسعد في هذه الجمعية أجاب هو مؤسسها وأمين سرها ورئيسها. كانت منه وله. ويرى الدكتور انيس صايغ ان هذه الجمعية اقتبست اسمها من جمعية أخرى تألفت سنة ١٩٣١، ولم تلعب دوراً هاماً ولم تخلف آثاراً تستحق الذكر(٦٣). إن «الوحدة العربية» لعبت دوراً بارزاً في الفكرة العربية، على الرغم من أنها لم تعمر زمناً طويلاً، فتمكنت من غرس فكرة العروبة في أفئدة المصريين، وسجلت علناً بدء ظهور القومية العربية في مصر(٦٤). ويعزو الدكتور صايغ الى هذه الجمعية اكبر الفضل في ترسيخ الفكرة العربية في مصر، ويعتبرها الجمعية الوحيدة التي نادت صراحة بالعروبة هناك، وردت على المذهبين الآخرين الاسلامي والافريقي اللذين ظهرا في مصر في فترة الثلاثين شهراً في مطلع الثورة الناصرية. فيقول: «تميز الارتباك الفكري في فترة الثلاثين شهراً في مطلع عهد الثورة بالندوات التي كانت تعقد بين الحين والآخر لمناقشة آراء اصحاب كل مذهب من المذاهب الثلاثة: العربية، والاسلامية، والافريقية. ولولا منبر جمعية الوحدة العربية في القاهرة الذي كان يدعو بين وقت وآخر بعض القوميين العرب للتكلم باسم الفكرة العربية لقلنا: إن المجال الفكري خلا لدعاة القومية المصرية أكثر من العهود السابقة(٦٥).

ومهما يكن من أمر فان «الوحدة العربية» قد خدمت القضية العربية بواسطة المهرجانات والندوات التي كانت تعقدها بين الفينة والأخرى. ومن أبرز الخطباء فيها توفيق دياب(٦٦)، وأبو خلدون ساطع الحصري. وفي كتاب هذا الأخير «آراء وأحاديث في القومية العربية» يقع القارئ على محاضرة بعنوان «في القومية العربية» ألقيت في قاعة جمعية الوحدة في ٢١ كانون الأول ١٩٥٠. وهي تعطينا فكرة واضحة عن المحاضرات التي كانت تدعو إليها الجمعية، وعن العنف الذي كانت تجابه به التيار المصري الانعزالي. وقد ورد فيها: «كلكم تعلمون ان ابن المصري يعتبر مصرياً. شاء هو أو لم يشأ، اعتز بالمصرية او لم يعتز إنه مصري بحكم العرف والقانون. وأما اذا هو لم يعرف ذلك او لم يعترف بذلك... فذلك يكون أمّا لأنه جاهل يحتاج الى التعليم، وإما لانه خائن يستحق العقاب. وكذلك الامر في القومية العربية ...»(٦٧).

استقطبت هذه الجمعية بفضل جهود مؤسسها نخبة من المحاضرين في القومية العربية فأذكت بذلك الوعي القومي وفكرة الوحدة العربية في وقت كان الكلام فيه عن الوحدة يعد ضرباً من الجنون لدى كثير من المثقفين المصريين.

وأدت هذه الجمعية دوراً وطنياً مهماً في جمع التبرعات لأغاثة منكوبي سوريا ولبنان عام ١٩٤٥. كما أرسلت برقيات أحتجاج -موقعة من أمين سرها، إلى بعض السفراء الأجانب يوم اعتقلت السلطة الفرنسية رئيس الجمهورية اللبنانية، وأعضاء حكومته. وهذا نص إحدى البرقيات التي وجهتها إلى السفير الفرنسي في بيروت: «جمعية الوحدة العربية التي تمثل الرأي العام في جميع الأقطار العربية ،تعرب لسعادتكم عن دهشتها العظيمة من العمل الذي أقدمت عليه السلطة الفرنسية في بيروت بمحاولتها اهتضام حق لبنان في الحرية والاستقلال، واعتقالها رئيس جمهوريته ونوابه ووزرائه، واستهانتها بكرامته التي هي كرامة الامة العربية جمعاء،فان عاصفة من السخط تجتاح العالم العربي الآن من أدناه إلى أقصاه، وتنذر بعواقب وخيمة تتحملون وحدكم تبعاتها».

من أهداف هذه الجمعية القول« لا عروبة بدون مصر». وقد سارت على خطى المنتدى الأدبي، وكانت ملتقى ومنبراً لرجالات العرب، سياسيين وأدباء وغيرهم.وخلف أسعد حول هذه الجمعية عدة خطب ونشرات، تناولت جميعها الدعوة للوحدة العربية.

وما إن توقف نشاط هذه الجمعية، حتى انضم أسعد عام ١٩٥٢ الى «جمعية الاتحاد العربي» (٦٨)، كأنه لا يستطيع أن يعيش إلا في مناخ جماعات حزبية متعاونة. وعمل في لجنة درس الوسائل العملية التي تؤدي إلى تقوية الروابط السياسية بين الشعوب العربية، واقترح تكوين تشكيلات دائمة في كل بلد عربي، تقوم على تنفيذ قرارات المؤتمر الأول للشعوب العربية : أما بشأن انخراطه في جمعية الاخوان المسلمين، فنفتقر الى الادلة الكافية للتثبت مَن ذلك. أما اتهام نوري السعيد له بأنه من الاخوان المسلمين ،فقد يكون اتهاماً مغرضاً عارياً عن الحقيقة.، لأن السعيد كان على خصومة معه، يوم أطلق هذه التهمة..

الهوامش

(١) مذكراتي، ص ٢٢.

(٢) مذكراتي، ص ٢٢ وما بعدها.

(٣) مذكراتي، ص ٤٦.

(٤) ثورة العرب، ص ٤٣-٤٤.

(٥) المرجع السابق، ص ٢٣.

(٦) الهدف (نشرة سياسية كان يصدرها أسعد) تاريخها ١٩ اغسطس ١٩٤٥.

(٧) (١٨٧٦-١٩٤٠) اديب ومفكر وشاعر لبناني، ولد في الفريكة. نزح الى نيويورك ومارس التجارة الى جانب تحصيله الحقوق. عاد الى وطنه لبنان ودرس العربية وشغف بشعر المعري فترجم« اللزوميات» الى الانكليزية. زار معظم البلاد العربية ،وقابل رؤساءها وامراءها. ترك مؤلفات عديدة منها: « الريحانيات» ، و«ملوك العرب»، و«قلب لبنان» و«قلب العراق»،و« تاريخ نجد الحديث»،و« خارج الحرم»،و« انتم الشعراء».

(٨) انيس صايغ: الفكرة العربية في مصر، ص ١٥٣.

(٩) صاحب جريدة« المفيد» التي كانت تصدر في بيروت قبيل الحرب العالمية .اتم دروسه العالية في باريس، واشترك في المؤتمر العربي الأول. استماله الاتحاديون بكذبهم فعدّل سياسة جريدته بعد عام ١٩١٤. قبض عليه الأتراك في جوار مدائن صالح وشنقوه مع باقي الأحرار في ٦ تموز ١٩١٦.

(١٠) ثورة العرب، ص ٢٤٤.

(١١) من منشور صادر عن « جمعية الوحدة العربية».

(١٢) من خطبة في « جمعية الوحدة العربية ».

(١٣) جريدة« القاهرة» ،العدد ٢١١ الصادر في ١٣ مايو ١٩٥٤.

(١٤) من كراس بعنوان «الدعاية العربية، أهدافها وطرقها ووسائلها» ، ص ٤و٥ .

(١٥) من منشورات «جمعية الوحدة العربية».

(١٦) جريدة« القاهرة » العدد ٧٢ ،الصادر في ٢٢ ديسمبر ١٩٥٣.

(١٧) زين زين : نشوء القومية العربية، ص ١٤٣ و١٤٤.

(١٨) جريدة « القاهرة»، العدد ٣٤، الصادر في ١٤ نوفمبر ١٩٥٣.

(١٩) رسالة من رشيد الخوجة ،مؤرخة في ١١ حزيران ١٩٣٦.

(٢٠) ياسين الهاشمي : رسالة مؤرخة في ١٩٣٦/٧/٩.

(٢١)أسعد داغر : رسالة مجهولة التاريخ.

(٢٢) مصادر هذا المقطع مستقاة من نشرات حزبية أو موجهة الى جامعة الدول العربية.

(٢٣) سامي شوكت : رسالة مؤرخة في ١٥/ ١/ ٩٣٩

(٢٤) (٥٧٠-٦٦٣م) من أشهر قواد العرب والاسلام. فتح مصرفي أيام عمر بن الخطاب وأحرز انتصارات عديدة على الروم. اسس مدينة الفسطاط، وبنى فيها جامعه المشهور في مصر، عزله الخليفة عثمان عن ولاية مصر ٦٤٦. ولما ولي معاوية الخلافة أعاده اليها، وبقي فيها الى ان توفي.

(٢٥) أوراق خاصة.

(٢٦) جريدة« القاهرة»: العدد ٧٢ ،الصادر في ٢٢ دسمبر ١٩٥٣.

(٢٧) (١٨٧٤-١٩٦٥) سياسي وجندي ومؤلف ورجل دولة انكليزي. ولد في بلينهايم (اوكسفورد). تعلم في كلية سند هرست الحربية وعين ضابطاً للفرسان في الهند. انتخب عضواً محافظاً بمجلس العموم ١٩٠٠. تقلب في مناصب وزارية عديدة منذ ١٩٠٨ .منح جائزة نوبل للآداب سنة ١٩٥٣. من مؤلفاته:« الحرب العالمية الثانية »(٦ مجلدات)و« تاريخ الأمم الناطقة بالانكليزية» (٤ مجلدات)، و« حياتي الباكرة».

(٢٨) جريدة « القاهرة »: العدد ٨٠، الصادر ٣٠ دسمبر ١٩٥٣.

(٢٩) جريدة« القاهرة» ،العدد ٣ ،الصادر في ١٤ اوكتوبر ١٩٥٣.

(٣٠)جريدة« القاهرة»: العدد ٤٣، الصادر في ٢٣ نوفمبر ١٩٥٣.

(٣١) من منشورات « جمعية الوحدة العربية».

(٣٢) انيس صايغ: الفكرة العربية في مصر ، ص ١٧٤.

(٣٣) أسعد داغر: من رسالة مهملة التاريخ.

(٣٤) منيف الحسيني: من رسالة مؤرخة في ١٣ نوفمبر ١٩٣٨.

(٣٥) انيس صايغ: الفكرة العربية في مصر، ص ١٥٤ و١٥٥.

(٣٦) مذكراتي: ص ١٠.

(٣٧) من رسالة موجهة إلى عبد الرحمن عزام، مؤرخة في ٢ دسمبر ١٩٤٨.

(٣٨) من مسودة رسالة موجهة الى الأمير فيصل (مغفلة التاريخ).

(٣٩) من خطبة القاها في «جمعية الوحدة العربية».

(٤٠) القاهرة: العدد ٤٢ ،الصادر في ٢٢ نوفمبر ١٩٥٢.

(٤١) من منشور« لجمعية الوحدة العربية».

(٤٢) المرجع نفسه.

(٤٣) جريدة « القاهرة» : العدد ١٩٦، الصادر في ٢٨ ابريل ١٩٥٤.

(٤٤) ولد في دمشق عام ١٨٨٠ ونشأ فيها. نال شهادة الطب من الجامعة الاميركية ببيروت ١٩٠٦. انتقل في العام التالي الى دمشق ،واشترك في حركة تركيا الفتاة. هاجر إلى أوروبا عام ١٩١٠. وعاد الى سوريا بعد اعلان الحرب العالمية الأولى. أراد جمال باشا السفاح ان يعينه طبيباً خاصاً له، لكنه رفض ولجأ الى مصر. عاد الى سوريا في نهاية الحرب ،واشترك في تأليف الحكومة الوطنية وتولى وزارة الخارجية فيها. أسس حزب الشعب ،وأعلن الثورة، ثم نزح الى مصر، وهناك حرر في جريدة« كوكب الشرق» قتل في دمشق ١٩٤٠ لاسباب سياسية . طبعت وزارة الثقافة في سورية أعماله، في أربعة مجلدات . المحرر.

(٤٥) واحد من ضباط العرب العراقيين في الجيش العثماني . أسر في الحرب التي دارت في غاليوبلي. كان عضواً في جمعية العهد السرية ومن المتحمسين لقضية التحرر العربي، وقد أدى دوراً بارزاً في الثورة العربية الكبرى.

(٤٦) انيس صايغ: الهاشميون والثورة العربية الكبرى، ص ٦٩.

(٤٧) مذكراتي: ص ٤٩ .

(٤٨) من ضباط العرب في الجيش العثماني وأحد الوزراء في حكومة الملك فيصل بالعراق.

(٤٩) جريدة« القاهرة» :العدد ٣٤، الصادر في نوفمبر ١٩٥٣.

(٥٠) ولد في حمص ١٨٧٥. تلقى علومه الثانوية والعالية في الاستانة.بدأ حياته العامة في ولاية بيروت مأموراً فقائمقام فمتصرفاً. انتخب عضواً في المؤتمر السوري عام ١٩١٩، ثم رئيساً له.شكل الوزارة في عهد الملك فيصل بدمشق عام ١٩٢٠. انتخب ثلاث

مرات رئيساً للجمهورية السورية عام ١٩٣٦، و١٩٤٩، ١٩٥٤ . كان من رجال سوريا البارزين الذين عملوا كثيراً في حقل الوطنية وناهضوا السياسة الاجنبية.

(٥١) هاشم الاتاسي: رسالة مؤرخة في ٢٥ محرم ١٣٥١هـ.

(٥٢) جريدة «الحياة»: العدد ٣٨٦٦ ،الصادر في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٥٨.

(٥٣) محمد كامل الخضيري: رسالة مؤرخة في ٢١/٤/١٩٣٧.

(٥٤) لجنة استفتاء قاطعها الحلفاء ولم يشتركوا فيها كما كان مقرراً. ترأسها السيد كراين الموفد من قبل الحكومة الاميركية آنذاك. زارت هذه اللجنة فلسطين ولبنان وسوريا. واستقبلت مئات العرائض التي طالبت بالاستقلال التام الناجز، ورفضت اتفاقية سايكس –بيكو، ووعد بلفور.

(٥٥) المسيو هنري دي جوفنيل عين مندوباً سامياً على سوريا، وحاول ان يعقد ميثاق سلام في الشرق العربي كميثاق لوكارنو، إبان الثورة السورية عام ١٩٢٥.

(٥٦) في هذا المؤتمر قدم الانكليز اقتراحات لحل المشكلة الفلسطينية فرفضها العرب واليهود. ولكن انكلترا أصدرت كتاباً ابيض في ١٧ مايو ١٩٣٩،و ضمنته اقتراحاتها التي تتلخص في تشكيل حكومة فلسطينية مستقلة، خلال عشر سنوات، بعد موافقة العرب واليهود على تشكيلها.

(٥٧) جمعية سياسية تأسست في اسطنبول صيف ١٩٠٩. كان الغرض من انشائها، بادئ الأمر، انماء الروح الثقافية بين العرب، ولكنها تحولت فيما بعد الى جمعية سياسية تعمل في الخفاء على الخلاص من حكم الاتحاديين. رئيسها عبد الكريم الخليل. وقد ضمت عدداً كبيراً من رجال العرب ، نواباً وادباء وطلاباً.

(٥٨) تأسس هذا الحزب في دمشق عام ١٩١٩ إبان قيام حكومة الأمير فيصل. وكانت له لجنتان إحداهما سرية وتدعى جمعية العربية الفتاة وثانيتهما علنية وتدعى اللجنة الوطنية. نادى هذا الحزب باستقلال البلدان العربية وقاوم تقسيمها الى مناطق نفوذ بريطانية وفرنسية ،وعارض قيام دولة يهودية. بلغ عدد أعضائه الالاف .

(٥٩) هي اللجنة العلنية لحزب الاستقلال. ألفها الشيخ كامل القصاب، وانضم اليها زعماء الأحياء الدمشقية والتجار وأرباب الحرف والصناعات. وكان لها فضل كبير في نهضة دمشق، وتقوية الروح الوطنية فيها. استطاعت أن تدخل الى قلب الشعب مضرمة نار الحماسة الوطنية فيه.

(٦٠) يعود فضل إنشائها إلى رفيق بك العظم. كان هدفها جمع كلمة الاحزاب الاستقلالية في الداخل والخارج على خطة واحدة لتوحيد العمل من اجل انقاذ سورية وفلسطين. لم تعمر هذه اللجنة طويلاً. من أعضائها شكري القوتلي، كامل القصاب، سعد الله الجابري، عوني عبد الهادي، ساطع الحصري ورشيد رضا.

(٦١) من أنشط المؤسسات العربية في مصر، تأسس في مطلع العقد الثالث. دافع عن القضيتين السورية والفلسطينية. تجلى نشاطه في عقد الاجتماعات في أوروبا وإرسال المذكرات والدعوة للفكرة العربية في عواصم الدول الاوروبية أوقف أعماله عام ١٩٣٦ حين عقدت المعاهدة بين سوريا وفرنسا بسبب خلاف ذر قرنه بين الاعضاء.

(٦٢) شكري القوتلي: رسالة مؤرخة في ١٩ مايو ١٩٢٩.

(٦٣) انيس صايغ : الفكرة العربية في مصر ، ص ٢٠٣.

(٦٤) مذكراتي : ص ٢٤٥.

(٦٥) انيس صايغ: الفكرة العربية في مصر ، ص ٢٦٩,٢٠٣.

(٦٦) من كبار الصحفيين العرب. حرر في السياسة والبلاغ وكوكب الشرق، تميز بتأييده الاحرار الدستوريين وبولائه لحزب الوفد.

(٦٧) ساطع الحصري: آراء وأحاديث في القومية العربية ، ص ٦٥.

(٦٨) تأسس الاتحاد عام ١٩٤٢ بمصر وحصر اهتمامه بالعالم العربي، هدفه الرئيسي تنمية العلاقات وتقوية الروابط بين الدول العربية. استمر في نشاطه نحو عشر سنوات. من أبرز اعضائه محمد علي ومحمد كامل المحامي ومحود كامل وساطع الحصري وأكرم زعيتر.

القسم الثالث



الحركة العربية القومية
من النكبة الى الانفصال
١٩٤٩-١٩٦١

١- مدخل

٢ - الفصل الأول :

■ السمات الاساسية للحركة العربية القومية في ظل تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة في سورية (١٩٤٩-١٩٦٣)

د.نجاح محمد .

٣ - الفصل الثاني :

■ ١- نشأة البعث العربي الاشتراكي. الاستاذ شبلي العيسمي .

■ ٢- الوحدة العربية في فكر الاستاذ ميشيل عفلق.

د. شفيق السامرائي .

٤ – الفصل الثالث :

■ حزب الاستقلال العراقي. **أ – عبد الله الجيزاني .**

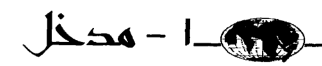
٥ – الفصل الرابع :

■ ١ – قسطنطين زريق : داعية العقلانية في الفكر العربي الحديث.

د.هاني فارس.

■ ٢ – ساطع الحصري : المفكر والداعية والنموذج .

إ – إلياس سحاب .



١ - مدخل

شهدت هذه المرحلة أحداثاً سياسية كبرى ، كان من أبرزها على الصعيد العربي الداخلي انقلابات سورية ١٩٤٩-١٩٥٤ ، وثورة الثالث والعشرين من تموز (يوليو) في مصر ، سنة ١٩٥٢ ، وثورة تموز في العراق ١٩٥٨ ، وانفجار الثورات المسلحة في تونس والمغرب والجزائر .

أما على صعيد الصراع مع العدو الامبريالي - الصهيوني ، فقد كان العدوان الصهيوني الانجليزي الفرنسي على مصر ١٩٥٦ أبرز الأحداث .

وقد تصاعد المد القومي في هذه المرحلة ، فبرز دور حزب البعث العربي ، والعربي الاشتراكي قبل أن يتحدا، ثم اتحدا في حزب واحد ، سنة ١٩٥٢ . وتزايد دور الحزب في سورية والأردن ولبنان والعراق ، منذ بداية الخمسينيات أيضاً .

وما لبث دور عبد الناصر أن أخذ يتطور ، منذ ١٩٥٥. وفي هذه المرحلة برز دور ساطع الحصري ، الذي عرف في المرحلة السابقة ، كما برز دور قسطنطين زريق.

وصارت قيادة جمال عبد الناصر ، منذ عدوان ١٩٥٦ قيادة الأمة العربية . وقد قاد ذلك إلى وحدة مصر وسورية سنة ١٩٥٨ .

إلا أن الوحدة ، التي رافقت المد القومي الكبير ، ما لبثت أن واجهت الخلاف المتصاعد داخل الأطراف القومية ، وخاصة بين حزب البعث والناصرية من جهة ، والبعث وحركة القوميين العرب ، من جهة أخرى .

وجاء الهجوم الامبريالي الرجعي المضاد، فأدى إلى الانفصال، سنة ١٩٦١. ومع الانفصال بدأت مرحلة جديدة.

المحرر

الفصل الأول

السمات الأساسية للحركة القومية العربية
في ظل تحالف القوى البرجوازية الوطنية
والصغيرة في سورية (١٩٤٩-١٩٦٣)

د. نجاح محمد.

القومية العربية كحركة وتطور تاريخي:

القومية العربية كحدث اجتماعي وكرابطة تاريخية داخل التاريخ، لا بد أن تخضع ، بالضرورة ، لقوانين التاريخ ولحركته التطورية، مما يعني تغيرها وتبدلها المستمرين ، شكلاً ومضموناً، على مر المراحل التاريخية التي تمر بها.

في حديثنا عن البدايات التاريخية للقومية العربية، علينا أن نميز بين بدايتها كواقع اجتماعي عربي، وبدايتها كفكرة قومية، وبدايتها كحركة سياسية. بدايتها كواقع اجتماعي عربي مرتبطة ببداية وجود الأمة العربية التي ترتبط، بدورها، ببداية وجود التجمع البشري العربي الأول، منذ آلاف السنين قبل الميلاد. وبدايتها كفكرة، كانت مع بداية هذا الواقع الذي التحمت معه بعلاقة جدلية تبادلية وتطورت بتطوره، وأسهمت في عكسه والتعبير عنه، كما أسهمت في تغييره وتحويله، وكل هذا عبر مسيرة التاريخ العربي الطويلة التي شهد فيها أشكالاً كثيرة من أشكال الوحدة الاجتماعية والفكرية والحضارية عند العرب.

تطورت الفكرة القومية خلال المسيرة منتقلة من مرحلة اللاشعور إلى مرحلة الوعي العادي لرابطة الانتماء العروبية، إلى مرحلة الوعي المعرفي لهذه العروبة. ثم إلى مرحلة الوعي الايديولوجي الذي هو قمة الوعي وأساسه المحرك الدافع للفعل والنضال. ورسالة الاسلام العربية في القرن السابع الميلادي كانت مؤشر وصول العرب الى مرحلة الوعي الأخير هذه. فكما كان الإسلام بمضمونه الحضاري استمراراً لحضارة العرب القدماء، منذ آلاف السنين، فقد كان بمضمونه القومي العربي الاجتماعي التحريري الموحد مؤشراً إلى وصول الواقع الاجتماعي المادي – الروحي العربي إلى مرحلة الأمة العربية ، أولاً، وتعبيراً عن وصول الفكرة القومية إلى مرحلة الوعي الأيديولوجي، ثانياً ، وبداية القومية العربية كحركة سياسية هادفة لتوحيد العرب في ظل دولة عربية واحدة، ثالثاً . وكما كانت

توحيدية الإسلام الدينية استمراراً للتوحيدية الدينية العربية القديمة ، التي نادى بها كل الأنبياء العرب قبل الرسول العربي محمد. فقد كان الاسلام ، بالتالى ، استمراراً للشكل الديني للفكرة القومية والذي كانت تعبر عنه هذه التوحيدية الدينية العربية القديمة بمختلف مسمياتها : الحنيفية والموسوية والمسيحية وغيرها .

وهكذا كان القرن السابع الميلادي بداية للقومية العربية كحركة سياسية ذات مضمون وحدوي عروبي محرر موحد وشكل ديني إسلامي. كانت الرابطة العروبية عند بداية هذه الحركة هي نفسها الرابطة الإسلامية فكانت صفة المسلمين ، استناداً للقرآن الكريم (١)، تضم كل المؤمنين بالرسالات السماوية الأخرى ، وفي الجزيرة العربية كانوا كلهم من العرب ، وبهذا فقد كان للعروبة نفس المحتوى البشري الذي كان للإسلام.

بقي هذا التطابق بين الرابطتين مع بقاء هذا المحتوى، وبقاء انسجام الشكل الإسلامي للحركة القومية العربية مع مضمونها القومي العربي ، وانتهى بنهاية انسجامه او بداية تناقضه معه . حدث هذا التناقض نتيجة لازدياد وجود ونفوذ العناصر المسلمة غير العربية وخاصة الشعوبية ، وقيامها، بقصد أو من غير قصد، بضرب وجود ونفوذ العناصر العربية المسلمة وغير المسلمة ، مما أدى إلى تعميق التناقضات شيئاً فشيئاً في الواقع العربي وعلى الساحة السياسية ما بين الرابطة الإسلامية ، التي تغير مدلولها وضاق، لينحصر في إطار المسلمين ممن آمن بالرسول العربي محمد فقط، وليضم كل المسلمين من مختلف القوميات من عرب وغيرهم ، وبين الرابطة العروبية التي ضمتْ كل العرب بانتماءاتهم الدينية كافة . وصلت هذه التناقضات إلى نقطة اللالقاء نتيجة لازدياد دور الشعوبية المتسترة بستار الإسلام في تهديم الدولة العربية الأسلامية، ثم نتيجة لقيام دول اسلامية باحتلال الوطن العربي . فكان الاحتلال الفارسي ، ثم الاحتلال العثماني التركي الذي لم يكتفِ بالاحتلال العسكري ، وإنما مارس أبشع أساليب الاستعمار الأجنبي من تجزئة وتفرقة واستغلال ، وتعميق لكل مظاهر الفقر والتخلف .

كانت أواخر القرن التاسع عشر فترة وضوح التناقض بين الرابطة العثمانية التي تتقنع باللباس الاسلامي ، والرابطة العروبية نتيجة لقيام السلطات التركية بالتفريط بالأرض العربية ،وبالتساهل مع أعدائها ، وعلى رأسهم الصهيونية(٢)، وتبنيها سياسة التتريك ومحاولة ضرب الذات القومية العربية ، فكانت ، بالتالي، نقطة الفصل بين الرابطتين لمصلحة الرابطة العروبية. ونقطة الفصل هذه كانت بدورها بداية الشكل العروبي للحركة القومية العربية. الشكل الذي جاء أكثر انسجاماً مع مضمونها القومي الذي يضع الانتماء للعروبة فوق كل انتماء آخر، ويعتبر العروبة بالنسبة للعرب الأم التي تنتسب إليها كل الأديان ، فالعرب كما قال الأمير فيصل في إحدى خطبه في عام ١٩١٨ : (عرب قبل موسى وعيسى ومحمد)(٣).

بداية القومية العربية ، إذن حركة سياسية وبايديولوجية عربية ، شكلاً ومضموناً، كانت في أواخر القرن التاسع عشر ، وبهدف تحرير الوطن العربي من الحكم العثماني التركي ، وإعادة توحيده في ظل دولة عربية واحدة . أما بالنسبة للايديولوييجية القومية العربية ، فما هي إلا تعبير عن مضمون القومية العربية ، وشكلها في مرحلة تاريخية من تطورها . من هنا فإنه لا يجوز حصر القومية ضمن إطار الايديولوجية من باب عدم جوازية حصر الكل في الجزء ، وبالتالي ، فلا يجوز اعتبار القومية العربية ، مثلها مثل أية قومية ، ايديولوجية طبقية معينة ومطلقة(٤) ، كما هي الحال عند النظرية الستالينية. فالإيديولوجية القومية مختلفة باختلاف الواقع الاجتماعي، وباختلاف المرحلة التاريخية التي يمر بها هذا الواقع .

ينتج من ذلك أن اختلاف الواقع القومي الاجتماعي العربي ما بين مرحلة وأخرى ، هو عامل أساسي هام في اختلاف الايديولوجية القومية العربية ، أي في اختلاف المضامين والأشكال الفكرية والسياسية والاجتماعية والتنظيمية للحركة القومية العربية ما بين هذه المرحلة والأخرى، يقود هذا إلى أن المعيار الأساسي لتحديد المراحل التاريخية الرئيسية لتطور الحركة القومية العربية في بلد ما ، هو طبيعة تطور البنية الاجتماعية المهيمنة على الواقع القومي الاجتماعي والسياسي في هذا البلد. أنطلاقاً من ذلك نستطيع القول بأن الحركة القومية العربية في سوريا، وحتى في الوطن العربي عموماً ، قد مرت بخمس مراحل رئيسية في تطورها في الفترة التاريخية الممتدة منذ بداياتها، كحركة سياسية عروبية في أواخر القرن التاسع عشر ، وحتى يومنا هذا . والمراحل الخمس بالنسبة للأحداث التاريخية في سورية هي الآتية :

المرحلة الأولى : مرحلة هيمنة الإقطاع ، وامتدت منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وحتى قيام الثورة العربية الكبرى في حزيران ١٩١٦، والتخلص من الاحتلال التركي.

المرحلة الثانية : مرحلة هيمنة البرجوازية الكبيرة ، وامتدت من الثورة العربية حتى الأحتلال الفرنسي لسورية عام ١٩٢٠ .

المرحلة الثالثة : مرحلة هيمنة البرجوازية الوطنية ، وامتدت من الاحتلال الفرنسي حتى الانقلاب العسكري الأول عام ١٩٤٩.

المرحلة الرابعة : مرحلة هيمنة تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة ، امتدت من أنقلاب الزعيم وحتى ثورة آذار ١٩٦٣ .

المرحلة الخامسة : مرحلة هيمنة تحالف الطبقات والفئات الكادحة من ثورة آذار ١٩٦٣، وحتى يومنا هذا .

** ** ** ** ** **

قبل الخوض في صميم موضوع البحث: «السمات الأساسية للحركة القومية العربية في ظل هيمنة تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة (١٩٤٩-١٩٦٣)»، أي في مرحلتها التاريخية التطورية الرابعة ، نجد من الضروري إعطاء لمحة موجزة عن صورة الواقع الاجتماعي في سورية في المرحلة التاريخية السابقة ، أي في ظل الاستعمار الفرنسي ، لنتوصل بعد ذلك إلى فهم أفضل للحركة القومية العربية في ظل هيمنة التحالف المذكور .

إن الاستفادة من سورية كمنطقة سياسية استراتيجية هامة في المشرق العربي، وفي شرقي المتوسط ، كنافذة على آسيا ، لم تكن كافية لإرضاء فرنسا التي أرادت تحويل سوريا أيضاً إلى مصدر كبير لزيادة إغناء دولتها وشركاتها الرأسمالية. هذا ما يفسر السياسة الأقتصادية التي انتهجتها سلطات الاحتلال الفرنسي في سوريا، والتي استطاعت من خلالها التأثير الكبير على العمليات الاقتصادية الجارية فيها (٥)، والتصرف بها جميعاً ، بما يتناسب ومصلحة فرنسا وشركاتها فقط، كرفع التعرفة الجمركية متى أرادت ، وتنظيم الاتفاقيات بحيث تعرقل عملية تصدير الصناعة المحلية ، فتوقفت كثير من الصناعات الوطنية والحرفية والمنزلية والمانيفاتورية(٦) ، وعرقلت السياسة الاقتصادية الفرنسية نمو رؤوس الأموال الوطنية ، وبالتالى قيام صناعة محلية ، تنهض على أساس وجود المعامل والمصانع(٧) في سورية ، مما قاد إلى ضعف البرجوازية الوطنية وعدم تطورها. وقاد هذه البرجوازية إلى الهرب من توظيف أموالها في الصناعات ، ودفع بعضها إلى المراباة أو الهجرة أو إلى شراء الأراضي . ووضع البرجوازية هذا قادها إلى النقمة أكثر فأكثر ضد المستعمر الفرنسي. أما العمال فقد زاد تواجدهم نسبياً بالنسبة للسابق .

أما في الريف ، فقد كانت خطة فرنسا تقضي بتحويله إلى واحد من أكبر مصادر تزويدها بالمواد الزراعية ، فتحالفت مع الإقطاع ، وشجعته ، وعملت على إدخاله إلى ميدان التبادل التجاري ، لتزيد من سيطرتها عليه، فيكون وسيطها لتحقيق خطتها هذه ، خاصة وأنها لم تكن ترغب في استثمار رؤوس الأموال الفرنسية في الزراعة ، نتيجة لتخوفها الدائم من التحركات الوطنية المستمرة ، وبالتالي، لخوفها من أن تطرد من البلاد(٨) ، ما بين يوم وأخر . ما تقدم يفسر تلك الاجراءات التي قامت بها سلطات الاحتلال كتوزيع الأراضي المشاع، وأراضي الدولة على الإقطاعيين ، والسماح لهم وللمرابين بشراء أراضي الأوقاف وغيرها ، لتزيد من مساحة الأراضي الزراعية في أيديهم ، كما يفسر غض

النظر عن عملية تجريد الفلاحين من أراضيهم من قبل رجال الأقطاع الخ . كل ذلك قاد إلى زيادة مساحة الأراضي الزراعية الكبيرة التي تملكها بعض الأفراد(٩)، في حين نقصت مساحة الأراضي الزراعية التي كان الفلاحون يمتلكونها(١٠). مما اضطّر كثيراً منهم إلى العمل كأجراء زراعيين . إن سياسة فرنسا هذه في تعزيز العلاقات الاقطاعية وسياستها الاستعمارية الاستغلالية عموماً، قد ادت إلى ازدياد حالة الفلاح السوري بؤساً واستغلالاً وتخلفاً .

وبشكل عام ، تشكلت البنية الاجتماعية لسورية في نهاية فترة الأحتلال الفرنسي من الفئات الاجتماعية الرئيسية الآتية :

١ – طبقة الأقطاع : التي تحالفت مع سلطات الاحتلال ، وتحول بعضها وبدعم هذه السلطات إلى برجوازية زراعية تابعة(١١) .

٢ – طبقة البرجوازية الكبيرة ، وأبرزها :

أ – الكومبرادور والبرجوازية الزراعية، ودعمتها الأمبريالية الفرنسية ، فوضعتا نفسيهما بخدمتها(١٢) .

ب – البرجوازية الصناعية : وقد نمت قليلاً بالنسبة للسابق، إلا أنها بقيت ضعيفة للأسباب التي ذكرناها . وكانت والبرجوازية التجارية التي نزعت منها مراكزها(١٣)، معبأة بمشاعر النقمة ضد المستعمر الفرنسي المحتل للوطن ، وبمطامح التطلع إلى تسلم السلطة بعد إجلائه عنه، مما يفسر وجودهما في صفوف الحركة الوطنية والقومية. أما خروج برجوازية الكومبرادور من قيادة الحركة القومية العربية في هذه المرحلة ، فقد كان بسبب عمالتها وموقفها السلبي من النضال الوطني والقومي ضد الاستعمار الفرنسي .

٣ – الجماهير الكادحة : وتشمل الفئات الاجتماعية التي لا تملك سوى جهدها المادي والعضلي ، وجهدها الفكري ، كالعمال وقسم من المثقفين وصغار الفلاحين والموظفين وغيرهم ، إلى جانب الفئات الاجتماعية المالكة لرأس مال صغير ، أي البرجوازية الصغيرة ، كالحرفيين وأصحاب المهن الحرة وغيرهم .

فالبنية الاجتماعية للحركة الوطنية والقومية، في غالبيتها من صفوف هذه الفئات الأخيرة ، أي فئات الجماهير الكادحة، وخاصة المثقفين وصغار الفلاحين . إن الشعور الوطني في ظروف الاحتلال الأجنبي ، شعور الارتباط بالأرض ، وبالذات، وجوداً وثقافة وتاريخاً ،أي شعور الارتباط بالذات قومياً ، كان وما زال فوق كل ارتباط .

احتل الأستعمار الفرنسي الأرض السورية، وتقاسمها مع حلفائه المستعمرين الأتراك والأنكليز والصهاينة، وجَزَّأها مُصْطَنِعاً حدوداً جديدة لم تكن موجودة. ولكي يمنع أية وحدة وطنية وقومية، من شأنها أن تهدد وجوده وسياسته في سورية، لجأ إلى بث التفرقة الدينية والمذهبية والأقليمية وغيرها، ومحاولة تعميقها بكل أنواعها في صفوف المجتمع السوري. ولاتمام ما بدأه الاستعمار التركي من ضرب الذات القومية في الصميم، عمد إلى محاولة طمس التراث العربي والقومي، وطمس مضامينه التقدمية، وخاصة ما تعلق منها بنقاط الوحدة العربية التي كانت تجمع ما بين العرب، ومحاولة تقويض كل دعائم الثقافة القومية(١٤)، وتشويه التاريخ العربي الحضاري ،بما يبرز نقاط الاختلاف بين العرب، ويخدم، بالتالي، سياسة التجزئة والتفرقة والتي تحقق بالطبع أهداف المصالح الأستعمارية عموماً في الوطن العربي.

كان النضال الوطني والقومي في سورية رافضاً لوجود الاستعمار الفرنسي بكل وجوهه، السياسية والثقافية والاجتماعية والأقتصادية. وكان، قبل كل شيء، متمسكاً بالأرض والاستقلال والذات القومية، ولم يتوقف حتىٰ استرجعت الأرض، وكان الاستقلال. وبالرغم من وجود قيادات فلاحية بطولية كبيرة لهذا النضال، فقد استطاعت البرجوازية الوطنية الهيمنة على شؤونه وقيادته، منذ الثورة السورية الكبرى، كما استطاعت الهيمنة على السلطة وأمور الحكم في هذه المرحلة، بسبب استنفاد الإمكانات المادية للقيادة الفلاحية، ونظراً لامكاناتها المادية، ولقوة نفوذها، وحشد قواها السياسية وتنظيمها في تكتل سياسي واحد، أخذ اسم «الكتلة الوطنية» فقد تسلمت شؤون النضال الوطني، وبعض أمور الحكم في سورية منذ عام ١٩٢٨.

تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة :

إن نجاح الحركة الوطنية والقومية في ظل هيمنة البرجوازية الوطنية، في الحصول على استقلال البلاد، وإجلاء جيوش الاستعمار الفرنسي منها، في عام ١٩٤٦، وفي الاسهام في خلق الجامعة العربية كان إنجازاً قومياً هاماً. لكن فشل هذه القيادة، والذي ظهر في معالجتها لعدة قضايا وطنية وقومية أساسية، قد غطى على نجاحها هذا، وجعله منقوصاً. وأهم هذه القضايا كانت قضية وحدة سورية بحدودها الطبيعية التي كانت لها قبل الاحتلال الفرنسي، وقضية لواء اسكندرونة، وقضية فلسطين. ثم الهزيمة أمام «إسرائيل» في الحرب الأولى في أيار عام ١٩٤٨. ولم تكن ظاهرة تسلم الجيش لأمور السلطة المدنية، سوى نتيجة طبيعية لفشل القيادة البرجوازية الوطنية هذا، ولفشلها حتى في تسيير أمور الحكم. ما تقدم، بالإضافة إلى وضوح عجز هذه البرجوازية عن القيام بمهام الثورة الصناعية والقومية والديموقراطية، نتيجة لظروف نشأتها ولضعفها

ولوضوح عجزها عن الأستقلال عن الرأسمالية العالمية ، أدى إلى ضعف تأثيرها ونفوذها في سورية شيئاً فشيئاً ، سواء داخل الحركة القومية العربية أو خارجها .

زاد في ضعف البرجوازية الوطنية عدم الاستقرار الذي تعرضت له البلاد، نتيجة للانقلابات العسكرية من جهة ، ونتيجة ممارستها لعبة المحاور العربية من جهة أخرى ، مما ادى إلى انقسامها وتشتت قواها ، فقسم منها ، وغالبيته من برجوازية حُلب ، تبنى الدعوة إلى ارتباط سورية بالمحور العراقي – الأردني ، وقسم آخر ، وغالبيته من برجوازية دمشق تبنى الدعوة إلى ارتباط سورية بالمحور السعودي – المصري. وقد وصل الصراع في أوساط الحزبين اللذين كانا يمثلان البرجوازيه السورية عموماً آنذاك، وهما «الحزب الوطني» و «حزب الشعب» (١٥)، وفي أوساط الحركة القومية العربية بشكل عام، حداً كبيراً، بسبب لعبة المحاور العربية هذه، التي سببت انقسام الحركة إلى ثلاثة اتجاهات رئيسية: الاول، وعلى رأسه «حزب الشعب» (١٦) تبنى الدعوة إلى انضمام سورية إلى المحور العراقي – الأردني، والثاني، وعلى رأسه «الحزب الوطني» (١٧)، تبنى الدعوة إلى انضمام سورية إلى المحور السعودي – المصري ، والثالث ، وعلى رأسه حزب البعث العربي، دعا إلى الوحدة العربية بشموليتها، بغض النظر عن جميع المحاور ، وضرورة معالجة أية مسألة مطروحة على الساحة السياسية الداخلية والعربية والدولية ، من خلال منعكساتها ، على القضية الوطنية والقومية بشكل عام . وبناء عليه هاجم هذا الاتجاه لعبة المحاور ، واعتبرها لعبة استعمارية لعرقلة الوحدة العربية الحقيقية والإساءة إليها (١٨) .

إن خضوع البرجوازية الوطنية السورية للعبة المحاور العربية ، زاد في ضعف تأثيرها ونفوذها في الحركة القومية العربية ، وفي سورية بشكل عام . ومقابل هذا الضعف ، توضح ازدياد تأثير ونفوذ وجود الفصائل اليسارية المؤلفة من الفئات الكادحة في أوساط العمال وصغار الفلاحين والبرجوازية الصغيرة. وقد مثلها حزبا «البعث العربي» و«العربي الاشتراكي» اللذان ما لبثا أن اندمجا ليشكلا «حزب البعث العربي الاشتراكي» في أواخر عام ١٩٥٢. وكان نفوذ الفصائل اليسارية هذه واضحاً في الجيش أيضاً ، ومن خلال الضباط البعثيين بشكل خاص .أما تأثير البرجوازية الصغيرة عموماً ، فقد كان واضحاً في المجتمع السوري ككل، وذلك بحكم تواجدها الواسع فيه ، نتيجة لضعف الاقتصاد الرأسمالي ، ونتيجة لهيمنة الاقتصاد الصناعي الصغير والملكية الصغيرة في سورية .

أدركت البرجوازية السورية الوطنية هذا الواقع العام ، ومدى تأثيره على الأحداث ، وأدركت أن ضعفها وفشلها المذكور في المرحلة السابقة ، لا يخولانها القيام وحدها ، بعد الآن ، بقيادة الحركة ، ولا بالوصول إلى الاستقرار الضروري لصيانة رأس مالها وتحركه، ولا بتسيير أمور الحكم في البلاد ، ولا بالقضاء على حكم الشيشكلي

الدكتاتوري الذي توضحت معالم وجهه المتناقض مع مصالحها، فتمرد على طلباتها بعد فترة، وأدركت أيضا أن تحالفها مع الإقطاع وبرجوازية الكومبرادور غير قادر على القيام بهذه المهام، لأن تأثير هاتين الفئتين كان ضعيفاً ومحدودا جداً ، سواءً داخل الحركة أم خارجها ، وذلك لضعف تواجدهما ، ولوضوح عمالته لسلطات الاحتلال الفرنسي ، ولتراجع تأثير فكرهما اليميني مقابل تصاعد تأثير الفكر والاتجاه اليساري عند الجماهير السورية بشكل عام ، وعند جماهير الحركة القومية العربية بشكل خاص .

إدراك البرجوازية الوطنية هذا دفعها إلى التوجه نحو البرجوازية الصغيرة للتحالف معها، سواءً داخل الحركة أم خارجها، وفي نيتها استخدام هذا التحالف لخدمة أهدافها ومصالحها بالدرجة الأولى. هذا التحالف لم يعنِ تخلي البرجوازية الوطنية عن تعاملها وتعاونها مع الإقطاع وبرجوازية الكومبرادور، إذ استمرت بالتمسك به بغية تنسيق جهودها معهما، ومع الفصائل اليمينية في البرجوازية الصغيرة من أجل كبح تصاعد الاتجاه اليساري في سورية بشكل عام، وفي حركتها القومية بشكل خاص .

ولا شك أن هذا الكبح كان من الأهداف الرئيسية التي كانت وراء تحالف قسم من عناصر البرجوازية الوطنية مع قيادة (حزب البعث) آنذاك ، حيث كان في نيتها أن تجعل من هذا التحالف لجاماً للاندفاع القومي الاشتراكي لجماهير هذا الحزب، ولم يكن (التجمع القومي) الذي سيطر على أمور الحكم ، عام ١٩٥٦، وحتى عام ١٩٥٨ ، إلا تعبيراً عن هذا التحالف .

السمات الأساسية للحركة القومية العربية (١٩٤٩-١٩٦٣):

أولاً – تصاعد الاتجاه اليساري قبيل قيام الوحدة السورية – المصرية:

١ – الضغط الاستعماري ورد الفعل الوطني والقومي عند الجماهير السورية.

إن الشعور بضرورة وحدة النضال ضد الحكم الدكتاتوري ، قد أسهم في توحيد القوى الاجتماعية للحركة القومية العربية بمختلف اتجاهاتها الفكرية والسياسية. وهذا ما يفسر تواجدها جميعاً، في تنظيم (التجمع الوطني) الذي تشكل في أواخر حكم الشيشكلي ، والذي ضم ممثلين عن حزب (البعث)و (الحزب الوطني) وحزب (الشعب) وبعض المستقلين . مثَّل (البعث) الاتجاه اليساري، حين كان حزب (الشعب) يمثل الاتجاه التوفيقي، (والحزب الوطني) يمثل الاتجاه اليميني. لا شك أن وحدة نضال التنظيمات السياسية للقومية العربية في سورية ضد حكم الشيشكلي ،كانت سبب نجاحها في إسقاطه في شباط ١٩٥٤، لكن الدور الأكبر بهذا النجاح كان لحزب (البعث).

عكس هذا التجمع ، من جملة ما عكس، تحالف القوى الوطنية والقومية المنظمة، وتحالف القوى البرجوازية. وأن نهاية حكم الشيشكلي بأنهيار سقوط الدكتاتورية ، لم تكن نهاية هذا التحالف ، فبقي مستمراً ، وأسهم استمراره في تأزم الصراع داخل الحركة القومية ، وفي الانشقاقات التي تعرضت لها بعض تنظيماتها ، نتيجة رفض قسم من قواعدها ، وقلة من قيادتها استمرارها فيه . ومن المؤكد أن من أهم الأسباب لاستمرار هذا التحالف الذي هيمن على الحكم باسم جديد هو (التجمع القومي)، كان إدراك غالبية قياديي وجماهير أطرافه لمدى الأخطار التي كانت تهدد سورية في تلك الفترة ، وبسبب تصاعد الضغط الاستعماري الغربي عليها لجرها إلى مشاريعه، والإنضمام إلى أحلافه، وإدراكها، بالتالي، لضرورة الوحدة الوطنية للتصدي لهذه الأخطار . ولم تكن هذه الوحدة ، سواءً داخل الحركة أم خارجها ، النتيجة الهامة الوحيدة لتصاعد الضغط الاستعماري على سورية. فلقد كان هناك نتائج هامة أخرى صبغت الحركة القومية العربية بصبغتها في هذه المرحلة ، وسنكتفي بتعداد أبرزها :

أ – تصاعد موجة العداء لـ (الغرب): أصبح موقف الرفض أو الموافقة على ارتباط سورية بـ(الغرب) ، تحت أية صيغة كانت ، المعيار الأساسي لليسار واليمين

في هذه المرحلة ، سواء داخل الحركة أو خارجها، وأدى بروز حزب (الشعب) على أنه من مؤيدي التحالف مع (الغرب)، من جهة(١٩)، وبروز موقف «الحزب الوطني»، بعد انشقاقاته الداخلية، ضد هذا التحالف من جهة أخرى(٢٠) ، إلى تبادل تمثيل الاتجاهين اليميني والتوفيقي في الحركة القومية بين هذين الحزبين في الفترة الأخيرة من هذه المرحلة. فقد أصبح حزب (الشعب) هو الذي يمثل اليمين و(الحزب الوطني) يمثل التوفيقية ، بعد أن كان العكس في بداية المرحلة. أما (البعث) الرافض لأي تحالف مع (الغرب) ، فقد بقي الممثل الأساسي لليسار القومي العربي(٢١) .

ب – تأجج الشعور القومي عند الجماهير السورية : تواقت الضغط الاستعماري على سورية مع بروز نظام عبد الناصر كنظام عربي معادٍ للاستعمار، نتيجة لتصديه للاستعمار الإنكليزي، وتأميمه لقناة السويس، وصموده أمام العدوان الثلاثي الإنكليزي – الفرنسي – الإسرائيلي على مصر عام ١٩٥٦ . وقفت سورية إلى جانب مصر في هذه الحرب ، ثم وقف عبد الناصر إلى جانب سورية ، أثناء معركتها ضد (حلف بغداد) ، ومشروع ايزنهاور ، وأثناء التهديدات التركية لها، والتي كانت فصلاً من فصول الضغط الاستعماري عليها، كل ذلك كان له أكبر الأثر في تأجج الشعور القومي عند الجماهير السورية ، من جهة ، وفي توجهها نحو الوحدة مع مصر، وزعامة عبد الناصر للأمة العربية من جهة أخرى. وقد كان لهذا التوجه أكبر الاثر في قيام الوحدة السورية– المصرية في عام ١٩٥٨، حيث: « فصلت موجته الى درجة لم يكن ليجرؤ أحد على معارضتها والوقوف في وجهها(٢١) . مما دفع اليمين والقوى الانفصالية الى ركوبها والتستر بها «إنتظاراً للحظة المناسبة لضربها. ومن هنا جاء اشتراك البرجوازية الوطنية السورية في صنع وحدة ١٩٥٨(٢٢) . وقامت قواعد حزب «البعث» وقيادته وقيادة «حركة القوميين العرب» بدور فعال في توجيه هذا الشعور نحو الوحدة مع مصر، ونحو زعامة عبد الناصر.

جـ– وضوح انقسام الوطن العربي إلى معسكرين : المعسكر التقدمي الرافض لأي تحالف مع الغرب، وتحت أية صيغة كانت، وعلى رأسه سورية ومصر، والمعسكر المرتبط بالغرب والداعي للتحالف معه . إن مساهمة الرجعية العربية مع الاستعمار الغربي في الضغط على سورية لجرها للانضمام إلى (حلف بغداد)، ثم الموافقة على (مشروع ايزنهاور) بحجة كاذبة هي خطر وقوعها بيد الشيوعيين(٢٣)، كان له أكبر الأثر أيضا في توجه سورية نحو مصر وزعامة عبد الناصر. تساهلت الرجعية العربية على ما يبدو إزاء هذا التوجه انطلاقاً من إيمانها بأنه (أهون الشرين)، أي أنه افضل من وقوعها في أيدي تلك القوة القومية العربية المندفعة باتجاه تقدمي اشتراكي يساري والتي كانت

وحدها، أي هذه القوة، تشكل الخطر الحقيقي على مستقبل هذه الدول الرجعية. وتساهلت انطلاقاً من قناعتها أيضاً بأن الاتجاه الناصري التوفيقي من شأنه أن يكبح اندفاع الاتجاه القومي اليساري، وأن يستقطب بعض جماهيره الواسعة فيضعفه، وهذا ما حدث فعلاً بعد قيام دولة الوحدة في سورية والحكم الناصري لها.

٢ – تصاعد الاتجاه اليساري :

في الفترة التي امتدت حتى قبيل قيام الوحدة، كان الضغط الاستعماري بكل وجوهه ونتائجه المذكورة، قد أدى إلى تصاعد الاتجاه اليساري أكثر فأكثر في سورية، نتيجة لمواقفه الوطنية الشجاعة الصامدة أمام هذا الضغط، وضد الغرب بكل مخططاته ومشاريعه وأحلافه. وقد مثّل حزب (البعث) الاتجاه اليساري القومي، نتيجة لمواقفه النضالية الواضحة هذه، ونتيجة لمواقفه التقدمية الأخرى في مجمل القضايا الوطنية والقومية، كما برز الحزب الشيوعي أيضا في هذه الفترة، وزادت جماهيره (٢٥).

أن إدراك اليسار عموماً لضرورة تنسيق نضاله المشترك، من أجل تعزيز صمود سورية أمام الضغط الإستعماري عليها، يفسر تحسن علاقات (البعث) مع (الحزب الشيوعي السوري) بشكل ملحوظ في هذه الفترة. كان من أهم مظاهر تصاعد الاتجاه اليساري في سورية، ومن أبرز نقاط التقائه تدعيم توجه سورية نحو المعسكر الاشتراكي، وعلى رأسه الاتحاد السوفياتي. ومما أسهم في هذا التوجه، وإلى درجة كبيرة، مواقف دول هذا المعسكر إلى جانب سورية في معركتها ضد (حلف بغداد)، و (مشروع أيزنهاور)، ومن ثم دعمها لمصر في حرب السويس ولنظام عبد الناصر كحاكم عربي معادٍ للاستعمار كما بينا (٢٦).

تصاعد الاتجاه اليساري في سورية كان على حساب الاتجاهين التوفيقي واليميني فيها، وتجلى ذلك بالنسبة للحركة القومية العربية، بتزايد جماهير حزب (البعث)، وخاصة في أوساط صغار الفلاحين والمثقفين، وتحسن وضعه التنظيمي. مقابل تقلص جماهير حزبي (الشعب) و (الوطني)، وإنهيار وضعهما التنظيمي، إن موقف هذه الأحزاب من ارتباط سورية (بالغرب) كان سبباً هاماً لتطور أوضاعها بهذا المنحى، ولكن لم يكن السبب الوحيد. فقد كانت هناك أسباب أخرى لعبت دوراً واضحاً في هذا التطور، وأهمها طبيعة بنيتها الاجتماعية والتنظيمية. ففي حين كانت البنية الاجتماعية لحزب (البعث) منسجمة نسبياً، ومؤلفة في غالبيتها من عمال وفلاحين صغار ومثقفين، كانت البنية الاجتماعية لحزبي (الشعب) و (الوطني) مؤلفة بغالبيتها من البرجوازية الكبيرة (٢٤) والمتوسطة والصغيرة وبعض الإقطاع. وكان لعلاقات التنافس والصراع التي كانت تعيشها برجوازية سورية، وخاصة برجوازية حلب ودمشق، منعكساتها على تماسك بنية هذين الحزبين الاجتماعية.

أما بالنسبة للبنية التنظيمية ، فقد كان حزب (البعث) من نمط أحزاب (الجماهير)(٢٥) التي تعتمد على المركزية ونظام الشعبة والتربية الحزبية والنظرية السياسية. وكان حزبا الشعب والوطني من نمط أحزاب (الكادر)(٢٦) ، التي تعتمد نظام اللامركزية ، ونظام اللجان التي لا تنشط إلا في فترة الانتخابات ، وتفتقر إلى التربية الحزبية والاهتمام بالنظرية السياسية . ولا شك أن ازدياد إقبال جماهير صغار الفلاحين والعمال على الحركة في هذه الفترة ، وعلى الانتساب لحزب البعث بالذات، كان سبباً هاماً من أسباب تصاعد الاتجاه اليساري فيها أيضاً.

إن ما تقدم ، سواءً ما تعلق بهذا الإقبال أم بطبيعة البنية الاجتماعية والتنظيمية للأحزاب المذكورة ، أم بطبيعة تطور الأحداث في سورية ، وخاصة تطور ردود فعلها ضد الغرب الاستعماري وضغوطه وأحلافه ومشاريعه ، قد أدى إلى فشل محاولة القيادات البرجوازية اليمينية والتوفيقية لحزبي (الشعب) و(الوطني) في كبح جماح الاندفاع اليساري عند جماهير حزب (البعث) ، والتي كانت أحد ألاهداف الرئيسية لتحالفهما مع قيادته (٢٧) . ومن الملاحظ أن الحرص على هذا التحالف من قبل قيادة البعث ، كان السبب الأول لقبولها ببعض التنازلات في مجال النضال الاشتراكي. أما السبب الثاني، فهو حرصها على إرضاء عبد الناصر وقيام الوحدة. مع هذا بقي الاتجاه الجماهيري القومي العربي اليساري البعثي في تصاعد مستمر، طوال فترة الأحلاف والمؤامرات الغربية التي سبقت قيام الوحدة السورية – المصرية.

إن طبيعة الواقع السياسي والاجتماعي لسورية ، ولحركتها القومية في هذه الفترة، قد أسهمت وإلى درجة كبيرة في إغناء الفكر القومي العربي اليساري في سورية ، وجعلته أكثر وضوحاً ونضجاً منه في المرحلة السابقة. ظهر ذلك واضحاً في فكر ومواقف البعث بشكل خاص . فقد توضحت عنده قليلاً معالم ارتباط النضال التحريري والنضال الوحدوي والنضال الاشتراكي، وقد تبنى البعث في بداية هذه الفترة مقولة الصراع الطبقي والنضال الاشتراكي ، على أنه نضال الطبقات المستَغَلَة ضد الطبقات المستغِلَّة(٢٨). لكنه ما لبث أن أهمل التحدث في ذلك في الفترة التي سبقت الوحدة مع مصر(٢٩)، وذلك بسبب مواقف قيادته التي ذكرناها. لا شك أن مواقف قيادة البعث هذه ، كانت تعبيراً عن بداية هيمنة الاتجاه التوفيقي عليها ، مما يفسر كثيراً من الظاهرات الهامة في تاريخ هذا الحزب ، وأبرزها بداية ظهور عجز قيادته عن مواكبة اندفاع جماهيره القومي اليساري ، وبالتالي، عن تمثيل آمالها ومصالحها. ولم يكن قيامها بحل الحزب في سورية ، إلا تعبيراً ناطقاً عن هذا العجز. فالحرص على الوحدة وقيامها ، والذي هو حجة هذه القيادة في الحل ، ومسايرة توفيقية عبد الناصر آنذاك، لا يكون إلا بالحرص على إنجازها بصيغة صحيحة، تضمن وجود مضامينها القومية التقدمية الثورية ، وشروط استمرارها.

ثانياً: هيمنة الاتجاه التوفيقي على الحركة القومية العربية في الفترة الممتدة منذ قبيل قيام الوحدة، وحتى قيام ثورة آذار ١٩٦٣ :

بالنسبة للاتجاه التوفيقي في هذه المرحلة ككل ، كان يمثله في بدايتها حزب الشعب ، نظراً لتبنيه لقضية تأميم المؤسسات الأجنبية في سورية بعد الاستقلال(٣٠). أما وقوف (الحزب الوطني) ضد التأميم(٣١) ، وتحالفه مع الإقطاع وبرجوازية الكومبرادور في بداية هذه المرحلة، فقد أبرزته كممثل ، عن جدارة، للاتجاه اليميني في الحركة. وقد أسهمت التبدلات في موقف حزبي (الشعب) و(الوطني) في الفترة التي سبقت قيام الوحدة في مصر، وخاصة ما تعلق منها بموضوع ارتباط سورية مع الغرب ، في تبادل التمثيل بينهما للاتجاهين التوفيقي واليميني كما قلنا سابقاً (٣٢).

ويمكن اعتبار تنظيم حركة التحرير العربي مثالاً آخر للاتجاه التوفيقي في الحركة القومية العربية في سورية في هذه المرحلة(٣٣)، والذي كان من نمط تنظيمات الأشخاص التي تنتهي بانتهاء رئيسها ، حيث انتهى نشاطه الفعلي بعد سقوط الشيشكلي ، أي الشخصية التي كانت وراء تشكيله وتوجيهه.

أما بالنسبة لحركة (القوميين العرب) فقد كان نشاطها في سورية في بداياته ولم يكن لها ، بعد، ذلك التواجد السياسي والجماهيري المعتبر . ونجد من الضرورة الإشارة هنا إلى أن تخلي هذه (الحركة) عن تبني أسلوب العنف السياسي ، إلى أسلوب النضال الجماهيري ، من أجل الوصول إلى تحقيق أهدافها(٣٤)، قد عكس إحدى الملامح الهامة في تطورها في هذه الفترة ، من جهة، وفي تطور الاتجاه الشوفيني الذي كانت تمثله داخل الحركة القومية العربية في نهاية المرحلة التاريخية السابقة، عندما كانت تحمل إسم (كتائب الفداء العربي) من جهة أخرى(٣٥). وإن الفكر القومي الاشتراكي الإصلاحي عند (حركة القوميين العرب)(٣٦) كان قريباً جداً من الفكر الناصري(٣٧) ، حتى يكاد يكون تكراراً له .

هذا التقارب الفكري ، كان انعكاساً لتقارب سياسي بين (حركة القوميين العرب) وبين عبد الناصر ، بدا ببداية وجودها ، وتمثل بصلات قادتها الوثيقة معه، مما دفعه إلى الثقة بتبعيتها الكاملة له، ودفعه، بالتالي ، إلى دعمها أكثر فأكثر للاستفادة من تواجدها في سورية ، ومن تواجد فروع تنظيمها القومي في بعض الأقطار الأخرى، كالأردن والعراق ولبنان . لا شك أن تنظيم حركة القوميين العرب في سورية ، قد أسهم في توجيه المشاعر القومية المتأججة نحو الوحدة مع مصر ، لمصلحة زعامة عبد الناصر للأمة العربية في الفترة التي سبقت قيام الوحدة (٣٨). وكان من الطبيعي بعد تحقيق الوحدة ، وإعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة وتسلم عبد الناصر لرئاستها، أن يستمر في دعم حركة

القوميين العرب، سواءً داخل الأقليم الشمالي، أي سورية ، أم خارجه، وخاصة بعد تبنيها للناصرية، وبعد عزمه على طرح تنظيمها القومي كبديل لتنظيم (البعث)، مما يفسر تساهل نظام عبد الناصر إزاء نشاطها السري، بعد قيامها بحل نفسها علناً، واستمراره في تقريب قيادتها إليه ، وإبعاد العناصر البعثية عن مؤسسات الحكم وملاحقتها(٣٩) .

وانطلاقاً من إيمان عبد الناصر آنذاك بمقولة الوحدة الوطنية بمفهومها البرجوازي ، القائم على أساس تعايش الطبقات، قام بتشكيل الاتحادالقومي، على أن يكون «اطاراً من الوحدة الوطنية يجمع الجميع»(٤٠) في تنظيم سياسي ، هدفه العمل على تحقيق أهداف الثورة وحمايتها (٤١). خرج هذا التنظيم جامعاً لجميع التصادمات، ولجميع التناقضات على حد قول عبد الناصر نفسه (٤٢)، فضم مختلف الانتماءات الطبقية والسياسية. ولكنه كان في غالبيته من العناصر القومية التوفيقية من صفوف حركة القوميين العرب وبقية الناصريين. أما قيادته فقد سيطرت عليها العناصر الرجعية اليمينية المستغلة الانتهازية(٤٣) . بإختصار فقد كان الاتحاد القومي تنظيماً متناقضاً أكثر منه تنظيماً شعبياً عقائدياً ثورياً.(٤٤) وكان هذا التنظيم بالنسبة للحكم الناصري تنظيم حركة التحرير العربي ، بالنسبة لحكم الشيشكلي، أداة طوع أمره، يحركها كما يريد ومتى شاء. وهذا النوع من التنظيم غير قادر على استقطاب الجماهير والدفاع عن الحكم بشكل فعال، لأن هذا الدفاع يتطلب تنظيماً سياسياً جماهيرياً ، فكان كلا التنظيمين المذكورين مفتقداً الكثير من مواصفاته الأساسية.

أدرك عبد الناصر هذه الحال بالنسبة للاتحاد القومي ، وأدرك أن الأساس الذي بني عليه لم يكن بالأساس السليم ، فهو «شيء ضد العقل وضد الطبيعة»(٤٥) لكن أدراك عبد الناصر أتى بعد سقوط دولة الوحدة . لقد تأخر لكنه آتى.

إن غياب التنظيم السياسي الجماهيري الصحيح ، كان من أهم الأسباب في نجاح حركة الانفصال والقضاء على الوحدة السورية – المصرية. لقد أراد عبد الناصر أن يكون الكل في واحد(٤٦) ، والحلقات التي تشكلت حوله ، وكل منها يدعي أنه يمثل تياراً وطنياً، شجعته على ذلك، وهي التي أحاطت به وعزلته عن الجماهير، وحالت دون وجود تنظيمها السياسي الحقيقي(٤٧) . وكما أدرك عبد الناصر متأخراً أهمية هذا التنظيم ، وأدرك ، متأخراً أيضاً ، الموقع الصحيح للبرجوازية، ولتحالف الاقطاع ورأس المال الذي يستطيع ، كما يقول في إحدى خطبه : «أن يشكل نفسه وفقاً للحاضر ... ووفقاً للموقف»(٤٨).

إن عدم إدراك عبد الناصر ، في بداية هذه المرحلة ، وحتى تموز ١٩٦١، لموقع البرجوازية الكبيرة هذا ، قاده إلى التحالف معها ، سواءً في سورية أو في مصر ، وتصور أنه قادر على جرها للاسهام في عملية التنمية وفي عملية التصنيع بالذات. فكانت هذه

البرجوازية هي الطرف الوحيد المستفيد من هذا التحالف ، مستخدمة إياه لتوظيف الدولة في خدمة مصالحها بالذات ، وتنمية رأسمالها الخاص ، وذلك من خلال عملية تخريب مخططة للاقتصاد الوطني . أدرك عبد الناصر نتيجة لذلك خطأ تصوره «فالبرجوازية تؤيد الثورة المجيدة بالكلام ، وتتصرف معها عملياً ضد الخط العام للحكومة المرتبط بالتصنيع»(٤٩) لقد وضع موقف البرجوازية هذا عبد الناصر أمام الاختيار بين مواصلة الثورة أو الاستسلام لرأس المال الوطني، واختار مواصلة الثورة ، فكانت قراراته الاشتراكية في تموز ١٩٦١ بتأميم ممتلكات هذه البرجوازية ، وضرب مواقعها الإقتصادية تعبيراً عن هذا الاختيار .

ولكن عبد الناصر ضرب مواقع البرجوازية الاقتصادية غافلاً عن مواقعها السياسية القوية ، وتواجدها ونفوذها الواسع، خاصة في صفوف الجيش ، بالنسبة لسورية، وذلك بعد قيام حكمه بضرب القوى اليسارية فيه، البعثية وغيرها، بحيث تحول إلى قوة ضاربة لمصلحة هذه البرجوازية، ولمصلحة تحالفها مع الاقطاع الذي وطدت تعاونها وصعدت نشاطها معه ، من أجل ضرب دولة الوحدة وإنهائها .

من أهم الأسباب التي كانت وراء فشل هذه الوحدة أيضا سياسة الحكم الناصري التوفيقية ، سواء على المستوى العربي او على المستوى الخارجي ، بحيث لم يتخذ صديقاً يدافع مقابل عدو يخطط ويتآمر. ولا شك بدور هذا العدو، أي تحالف الرجعية العربية والاستعمار والصهيونية ،في دعم حركة الانفصال والتخطيط لها .

ومن الأسباب الأخرى لفشل وحدة ١٩٥٨ أيضا ممارسة الحكم الناصري للأسلوب البوليسي والبيرقراطي، خاصة في سورية (٥٠)، إلى جانب السبب الأساسي، وهو ضرب الاتجاه إليساري القومي كما بينا، الذي كان من شأنه الدفاع الفعلي عنها، خاصة وقد كان له الدور الأكبر في صنعها. وهكذا إنتهت وحدة ١٩٥٨، بعد أن تركت آثارها الهامة على الحركة القومية العربية في سورية ، والتي كان من أبرزها تصاعد الاتجاه التوفيقي فيها مقابل تراجع الاتجاهين اليساري واليميني.

الممثل الأساسي للاتجاه القومي التوفيقي المتصاعد كان الناصرية، وعلينا أن نذكر هنا بأننا نتناولها في مرحلة تحالفها مع البرجوازية الكبيرة، أي قبل قرارات تموز ١٩٦١ الاشتراكية التي كانت نقطة انعطاف كبيرة في تاريخها نحو الاتجاه اليساري، وادت إلى تغير البنية الاجتماعية والفكرية لها، نتيجة لإخراج البرجوازية الكبيرة من صفوفها . أما قبل هذه القرارات فقد كانت الناصرية تضم مختلف الانتماءات الطبقية والسياسية والفكرية ، ولو أنه كان يغلب عليها طابع البرجوازية الصغيرة ، سواءً داخل تنظيميها ، حركة القوميين العرب والاتحاد القومي، أم خارجهما . وطبيعة بنيتها الاجتماعية هذه

تفسر تعايش اليمين واليسار فيها، وتأرجحها بينهما. وتفسر غلبة الفكر والموقف التوفيقي عليها، تجلى ذلك في تبنيها، بشكل رئيسي، لمقولة الوحدة الوطنية بمفهوم التعايش الطبقي، وتبنيها لوحدة الصف العربي وللجامعة العربية، وفي نظرتها إلى الوحدة العربية وقضية فلسطين، حيث كانت عاجزة عن رؤية قضيتي النضال الوحدوي، والنضال من أجل تحرير فلسطين في سياقهما التاريخي الصحيح، وبمضامينهما الاجتماعية التقدمية. فقد عالجت حركة القوميين العرب قضية فلسطين، مثلاً، كقضية مستقلة ومنفصلة عن مجمل قضايا التحرر العربي على كل المستويات الخارجية والداخلية. ومقابل تبني الناصرية للجامعة العربية ولمقولة وحدة الصف العربي، وتبنى «البعث» مقولة وحدة النضال العربي، ودعا إلى لقاء الحركات الوطنية الثورية في مختلف الأقطار العربية، وإلى تشكيل مجلس نضال عربي كبديل عن الجامعة العربية(٥١).

الاتجاه التوفيقي، إذن، كان هو الاتجاه الغالب في الناصرية وفي تنظيميها: (حركة القوميين العرب)، و(الاتحاد القومي) في هذه الفترة، التي سبقت قرارات تموز ١٩٦١. وباعتبار أن هذين التنظيمين كانا التنظيمين القوميين الوحيدين اللذين كانا يمارسان نشاطهما في سورية في فترة الحكم الناصري لها، نظراً لحل التنظيمات الأخرى، فقد استطاعا استقطاب كثير من الجماهير الوحدوية إليهما، وخاصة من صفوف البرجوازية الصغيرة، ممن استهواهم الفكر الناصري التوفيقي. هذا مما أسهم إلى جانب السياسة الإعلامية المركزة، في غلبة لاتجاه التوفيقي الناصري على الحركة القومية العربية في سورية في ظل دولة الوحدة. ولكن هذا الاتجاه بدأ بالتراجع نحو الاتجاه القومي اليساري في الفترة التي تلت قرارات تموز ١٩٦١، كما قلنا سابقاً.

نهاية التحالف ونهاية المرحلة:

كان للحركة القومية العربية، ولسورية في ظل هيمنة تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة، وبفضل الاتجاه الجماهيري القومي اليساري بالدرجة الأولى، كثير من الإنجازات القومية الهامة في هذه المرحلة، وخاصة من حيث التصدي بنجاح لـ(الغرب) ومشاريعه وأحلافه وضغوطه، ومن حيث الإسهام من خلال تنظيم (التجمع القومي)، الذي كان شكلاً من أشكال هيمنة هذا التحالف على الحكم في سورية، في إنجاز مشروع الدفاع العربي المشترك، والتعاون الاقتصادي، ومشروع الوحدة الاقتصادية العربية. أما أهم فعل قومي، فقد كان إنجاز وحدة سورية مع مصر في عام ١٩٥٨، بغض النظر عن الصيغة الخاطئة التي تمت بها(٥٢).

في فترة دولة الوحدة هذه، وفي ظل الحكم الناصري لها، وبزوال الخطرين الأساسيين اللذين كانا وراء التحالف المذكور، خطر وقوع سورية في دائرة نفوذ الغرب وأحلافه (بالنسبة) للقوى اليسارية، وخطر سيطرة الاتجاه الاشتراكي القومي اليساري

فيها بالنسبة للقوى اليمينية ، بدأت التناقضات الداخلية في التحالف بالظهور على السطح، وتجلت بمحاولة كل طرف من أطرافه إثارة عبد الناصر وإدارته ضد الطرف الآخر بهدف كسب ثقته، وإقناعه بأن يكون هو وحده أداته في حكم سورية . ولا شك أن الطرف الذي نال ثقة ودعم عبد الناصر في البداية كان ،كما رأينا سابقاً، طرف البرجوازية السورية التي استمرت في ركوب الموجة القومية بعد حل تنظيميها السياسيين ، الحزب الوطني وحزب الشعب، في بداية الحكم الناصري لسورية ، متقنعة بلباس الناصرية نفسها. ولقد رأت هذه البرجوازية في المواقف التوفيقية للناصرية، وخاصة ما تعلق منها بمقولة السلم الطبقي والوحدة الوطنية ضمانة تستطيع أن تعتمد عليها في جرها لخدمة مصالحها ونفوذها وتعزيز مواقعها السياسية. هذا يفسّر تسللها في بداية الحكم الناصري إلى صفوف الناصرية، وصفوف تنظيميها ولا شك بمطامح البرجوازية السورية في استخدام هذا التسلل كوسيلة لتسلل أكثر أهمية ، إلى الحكم والسلطة ، فلقد كانت تدرك مدى دعم الحكم الناصري لهذين التنظيمين ، وبنت على هذا الدعم والتصور أمالاً كبيرة سرعان ما خابت.

هذه الخيبة أتت بعد إصدار الحكم الناصري لقرارات التأميم الاشتراكية في تموز ١٩٦١، وبعد ما لحقها من تأييد واسع من قبل التنظيمين الناصريين المذكورين. إن هذه القرارات التي وجهت ضربة كبيرة إلى البرجوازية السورية الوطنية من خلال ضرب مواقعها الاقتصادية (٥٣)، قد وضعت حداً لأي أمل لها في إمكانية تحول الناصرية في سورية لخدمة مصالحها. فكان قرارها بالخروج منها ومن تنظيميها ومعاداتها، والعمل على أنهاء وجود حكمها في سورية . ما تقدم يفسر توجه البرجوازية الوطنية السورية إلى تحالفها مع الاقطاع الذي كان ناقماً على الحكم الناصري منذ قيامه باصدار قانون الإصلاح الزراعي في السنة الأولى من حكمه ، وذلك لتصعد نشاطها وتآمرها معه للتخلص من هذا الحكم (٥٤). وكان أن نجحت في ذلك في أيلول ١٩٦١.

خروج البرجوازية السورية الوطنية من الناصرية الحاكمة قد عنى ، من جملة ما عنى، خروجها من التحالف المهيمن عليها ، تحالف قوى البرجوازية الوطنية والصغيرة ، وبالتالى بداية النهاية بالنسبة لهذا التحالف. أما تآمرها مع الإقطاع وقوى الرجعية العربية والمحلية عموماً ضد حكم الوحدة ، ولمصلحة الانفصال ، فقد وضعها نهائياً في صف هذه القوى الانفصالية المعادية للحركة القومية العربية وللثورة العربية الوحدوية الاشتراكية الحضارية. وكانت ثورة آذار ١٩٦٣ الحدث التاريخي الهام الذي وضع ، في آن واحد ، نهاية مرحلة هيمنة التحالف المذكور على الواقع الاجتماعي والسياسي في سورية، وبداية مرحلة جديدة هي المرحلة التي نعيشها، مرحلة هيمنة تحالف (الطبقات والفئات الكادحة)، حسب تعبير (البعث)، وتحالف (قوى الشعب العاملة) حسب تعبير الناصرية .

الهوامش

١- أنظر الآية ٦٤ من سورة العنكبوت « وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا، وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون»، وأنظر الآية ١٣٦ من سورة البقرة « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى ابراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ».

٢- في الفترة الممتدة ما بين أواخر القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، تمكن الاستعمار الغربي من السيطرة على غالبية مناطق الوطن العربي المنضوية تحت راية الرابطة العثمانية الأسلامية في الجزيرة العربية ومصر والمغرب العربي ، حيث أستطاعت إنكلترا فرض سيطرتها ، بأشكال مختلفة، على شواطىء الجزيرة العربية من عدن إلى حضرموت والشواطىء الجنوبية الشرقية وعمان والبحرين والكويت ، واحتلت مصر في عام ١٨٨٢. اما فرنسا فقد احتلت الجزائر في عام ١٨٣٠، وتونس في عام ١٨٨١ ومراكش في عام ١٩١١ ، واحتلت إيطاليا ليبيا (طرابلس الغرب) في عام ١٩١٢ . ولم يكن الوجود العثماني التركي في الوطن العربي إلا عاملاً مساعداً في نجاح السيطرة الاستعمارية الغربية هذه .

أما بالنسبة للصهيونية فقد تحالفت معها سلطات الاحتلال التركي ممثلة بالسلطان عبد الحميد الذي حكم ما بين ١٨٧٦ و ١٩٠٩، وذلك على عكس ما أعلنته هذه السلطات. إن الصهيونية بدأت بإنشاء مستعمرات في فلسطين في عهده في عام ١٨٨٢ واستمرت بذلك منذ ذلك الحين . هذا وإن جميع مستعمراتها الرئيسية قد أقامتها في فترة حكمه بالتحديد. والسلطان عبد الحميد هو الذي قدم النيشان المجيدي للسلطنة إلى زعيم الصهيونية هرتزل في عام ١٩٠١ ، ونذكر، على سبيل المثال وليس الحصر ، بأن منظمة الاستعمار اليهودي في فلسطين التي أنشاها المليونير اليهودي روتشيلد في عام ١٨٨٢ قد أنشأت لوحدها ما بين هذا العام وعام ١٩٠٠ (٤٢) مستعمرة في فلسطين ، وفي عام ١٩٠١ عقد، ولأول مرة في فلسطين، إجتماع المؤتمر الصهيوني العالمي ، وفي نفس العام أنشىء في فلسطين الصندوق القومي اليهودي. ثم في عام ١٩٠٢ أنشىء بنك أنجلو فلسطين الذي سيطر على اقتصاديات العرب . وفي عام ١٩٠٧ أنشئت مستعمرة تل ابيب .. الخ . (أنظر عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، مطبعة جامعة

القاهرة ، ١٩٨٠،ص٩٨٠-٩٩٣). وهكذا فإن المرحلة الأساسية من الوجود الصهيوني في فلسطين قد تمت في عهد السلطان عبد الحميد، وبمباركة السلطات التركية، كما تذكر كثير من المصادر، وكما يؤكد الواقع التاريخي الفعلي بكل بساطة ووضوح .

٣- من خطاب فيصل في حلب. في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ ، أنظر : ساطع الحصري ، يوم ميسلون، الطبعة الثالثة ، دار الاتحاد ، بيروت، بلا تاريخ ، ص ٢١٤ .

٤- علي محمود العمر: حركة التحرير العربية إلى أين ؟. الطبعة الأولى ، دار الميسرة ، بيروت ١٩٧٩، ص٥٥-٩٨ .

٥- راجع : ف .ب. فيكتوروف : اقتصاد سورية الحديثة ، أكاديمية العلوم، موسكو ، ترجمة هشام الدجاني ، دار البعث ، دمشق ، ١٩٧٠ ، ص ١٦ .

٦- أنظر ذوقان قرقوط: تطور الحركة الوطنية في سورية ، ١٩٢٠-١٩٣٩، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ٤٣-٤٤ .

٧- لم تتكون في سورية في الفترة الممتدة ما بين عامي ١٩٢٨-١٩٤٥ سوى سبع شركات صناعية مساهمة برؤوس أموال مقدارها ١٩,٣ مليون ل.س. وأهمها : معمل الكونسروة والأسمنت في دمشق، ومعمل الغزل والنسيج في حلب . ولقد رفضت السلطات الفرنسية في عام ١٩٢٩، مثلاً ، فكرة اقامة مصرف صناعي سوري، برأسمال قدره ٥٠٠ ألف ل.س. فقط، ليقدم المساعدة الممكنة للمؤسسات الصناعية . أنظر فيكتوروف ، المصدر السابق ، ص ١٧ .

٨- نفس المصدر ، ص ١٨-٢٢.

٩- نفس المصدر ، ص٢٠ ، وأنظر صلاح وزان ، من التخلف إلى التطور الأشتراكي ، في القطاع الزراعي ، دمشق ، ١٩٦٧ ، ص٤٠ .

١٠- محمد الزعبي : مواقف حزب البعث العربي الاشتراكي من مسألة الصراع الطبقي ، دمشق ، ١٩٧٣ ، ص ٨٣ .

١١- أنظر :

Samir Amin : La Nation Arabe , ed , de Minuit ,Paris 1976 , P.39 .

١٢- Ibid , p 63 .

١٣- Ibid , p .54 .

١٤- جورج أنطونيوس: يقظة العرب ، ترجمة م. ، أسد و م . عباس ، الطبعة الثالثة ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ٤٩٦-٤٩٩ .

١٥- انقسم كل من هذين الحزبين إلى جناحين : أحدهما ينادي بالوحدة مع العراق، والثاني ضدها، ويميل إلى التعاون مع المحور السعودي - المصري (مقابلة مع بعض زعماء الحزبين ومنهم عبد الوهاب حومد في ١٩٧٧/٢/٥. ورشاد برمدا في ١٩٧٦/٦/٣ ، وعلي بوظو في ١٩٧٦/٤/٢٦).

١٦- كانت الغالبية في الحزب تميل إلى جناح الوحدة مع العراق (مقابلة مع برمدا في ١٩٧٦/٦/٣).

١٧- كانت الغالبية في الحزب تميل إلى جناح التعاون مع المحور السعودي - المصري (مقابلة مع نصوح بابيل في ١٩٧٧/٢/٣).

١٨- راجع ، نضال البعث ، الجزء الثاني ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٣ ، ص ٥٨-٥٩، و ص ١٧١-١٧٣ .

١٩- راجع : باتريك سيل: الصراع على سورية ، لندن ، ١٩٦٥ ، ترجمة سمير عبدو ومحمود فلاحة ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٨ ، ص٢٨٠، وما يتبع .

٢٠- المصدر نفسه .

٢١- مقابلة مع عبد الحليم قدور (من مؤسسي الحزب العربي الاشتراكي) في ١٩٧٧/٢/١٤، ومقابلة مع جلال فاروق الشريف (من البعثيين القدامى) في ١٩٧٦/١/٢٨ .

٢٢- حول أسباب مساهمة البرجوازية السورية في صنع الوحدة : أنظر محمد عبد المولى: الانهيار الكبير، الطبعة الثانية ، دار المسيرة ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ٤٦٠-٤٦٧ وانظر عبد الله الأمام: الناصرية دراسة بالوثائق في الفكر الناصري ، منشورات الوطن العربي، بدون مكان أو تاريخ، ص ٣٢١ .

٢٣- أنظر: المصدر السابق ، ص ٣٧٣ -٤٠٠ .

٢٤- كبيرة اذا ما قورنت ببقية الفئات البرجوازية الأخرى الموجودة في المجتمع السوري ليس إلا .

٢٥- أنظر :

Maurice Duverger :Les Partis politiques , 5 em . ed ., A. Colin , Paris 1969 , p . 84-101 .

٢٦- المصدر نفسه .

٢٧- مقابلة مع جلال فاروق الشريف في ٢٨/ ١/ ١٩٧٦ .

٢٨- أنظر جريدة البعث ، عدد ٥٦١ ، ايار ١٩٥٤ ، في : نضال البعث ، الجزء الثاني ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٣ ، ص ٢٥٠-٢٥٣ .وانظر ص ٢٧٠-٢٧٣ .

٢٩- قارن بين بيانات الحزب ومنشوراته في هذه الفترة وبينها في الفترة السابقة القريبة، وذلك في الجزء الثاني والثالث من نضال البعث، دار الطليعة، بيروت ١٩٦٣- ١٩٦٤ .

٣٠- إن حكومة ناظم القدسي ، المؤلفة بغالبيتها الساحقة من حزب الشعب ، هي التي أصدرت في ٢١ كانون الثاني ١٩٥٢ قرارات تأميم شركات الكهرباء في سورية ، وأصدرت في ١٧ آذار من نفس العام قرار تأميم إدارة حصر التبغ والتنباك .

٣١- لقد اعتبرها : مغامرة خطيرة ستؤدي إلى هروب رؤوس الأموال الأجنبية وعدم دخولها لسورية بعد اليوم (أنظر القبس ، الأعداد : ٤٢٥٢ تاريخ ٤/ ١/ ١٩٥١ وعدد تاريخ ١٩/ ١/ ١٩٥١، وعدد ٤٢٧٢ تاريخ ١/ ٢/ ١٩٥١، وعدد ٤٢٩١ تاريخ ٢٧/ ٢/ ١٩٥١ .

٣٢- للاطلاع على مبادىء هذين الحزبين الرئيسية راجع كتاب؛ بعنوان: الأحزاب السورية ، دار الرواد ، دمشق ، ١٩٥٤، ص ١٥٧- ١٧٠ وراجع : الحزب الوطني : الميثاق، حلب ، بدون تاريخ.

٣٣- للاطلاع على مبادىء هذا التنظيم السياسية أنظر دستوره في كتاب : الأحزاب السورية ، المعطيات السابقة ، ص ٢١٤- ٢٢١ .

٣٤- مقابلة مع جهاد ضاحي (من قياديي « كتائب الفداء العربي» (ومع سامي ضاحي) من أبرز قياديي «حركة القوميين العرب» (في ٢٤/ ٤/ ١٩٧٦).

٣٥- مقابلة مع جهاد ضاحي في ٢٤ / ٤/ ١٩٧٦ .

٣٦- للاطلاع على فكر الحركة في ذلك الحين أنظر : حكم دروزة وحامد الجبوري ، مع القومية العربية ، الطبعة الرابعة، دار الفجر الجديد ، بيروت ١٩٦٠ .

٣٧- كتب الكثير في الفكر الناصري ، ومن الممكن اخذ فكرة واضحة عنه تماماً من المصادر الآتيه: عبد الله الإمام ، المصدر السابق. مارلين نصر. التطور القومي العربي في فكر جمال عبد الناصر (١٩٥٢-١٩٧٠) ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٥١ . و:, Paul Balta et Claudine Rulleau : La Vision Nasserienne Sindbad : Paris 1982 .

٣٨- مقابلة مع جلال فاروق الشريف في ٢٨/ ١/ ١٩٧٦ .

٣٩- المصدر نفسه ، وحول ابعاد ناصر للبعثيين أنظر نشرة قيادة « البعث» القومية السرية في آذار ١٩٦٠ في نضال البعث ، الجزء الرابع ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ١٢١-١٧٩، وأنظر، ، عوني فرسخ : الوحدة في التجربة ، دار المسيرة ، بيروت ١٩٨٠ ص ٢٨٤-٢٩٩ .

٤٠- عبد الله امام ، المصدر السابق ، ص ٣٠٣ .

٤١- المصدر نفسه ، ص ٣٠٢ .

٤٢- المصدر نفسه ، ص٣٠٣ .

٤٣- المصدر نفسه ص٣٠٢ .

٤٤- محسن ابراهيم : في الديمقراطية والثورة والتنظيم الشعبي ، من منشورات «حركة القوميين العرب» ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ١٢٨-١٢٩، وص ٢١٤ -٢١٧ .

٤٥- من خطاب عبد الناصر في عيد السد العالي، في يناير ١٩٦٣ «شيء ضد العقل وضد الطبيعة، واحنا كنا طيبين جداً ، عايزين نلم الاقطاعي اللي خدنا منه الف فدان مع الفلاح اللي وزعنا عليه خمسة أفدنه » .وأنظر : عبد الله الإمام ، المصدر السابق، ص ٣٠٨-٣٠٩ .

٤٦- سعدالتائه: مصر بين عهدين ، دار النضال، بيروت ، ١٩٨٢، ص ٩٧ .

٤٧- المصدر نفسه .

٤٨- من احدى خطب عبد الناصر ، امام ، المصدر السابق ، ص ٣٢٠ .

٤٩- ايغور بيليايف وافغيني بريماكوف : مصر في عهد عبد الناصر ، تعريب عبد الرحمن الخميسي ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٥٧ ، ص ١٣٠ .

٥٠- أنظر : احمد عبد الكريم: اضواء على تجربة الوحدة ، مكتبة اطلس، دمشق ، ١٩٦٢ ، وأنظر فرسخ ، المصدر السابق ، ص ٣١٠-٣١١ ، وص ٣٨١-٣٨٨، وأنظر : مجموعة مؤلفين ، سورية محطمة الاستعمار والصهيونية ، دار الاستقلال ، دمشق ١٩٦٢ .

٥١- أنظر دروزة وجبوري ، المصدر السابق ، ص ١٧٨ وما يتبع .

٥٢- أنظر ، على سبيل المثال ، بيان البعث بعد مؤتمره القومي الثالث، بتاريخ ١٠/١٠/ ١٩٥٩ في جريدة الصحافة عدد ٢٨٢ ، في : نضال البعث ، الجزء الرابع ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٩٢-١١٣. وأنظر المصدر نفسه ، ص ١٥٩ (وهو قسم من بيان القيادة القومية للبعث في آذار ١٩٦٠).

٥٣- أنظر محمد عبد المولى: المصدر السابق ، ص ٤٥٠-٤٧٧ .

٥٤- المصدر نفسه ص ٤٦٢-٤٧٠ .

الفصل الثاني

نشأة البعث العربي الأشتراكي

أ.شبلي العيسمي

تبلورت المبادئ والأهداف الأساسية لحزب البعث العربي الأشتراكي في مؤتمره التأسيسي الذي انعقد بدمشق من ٤-٦ نيسان عام ١٩٤٧م، وحضره حوالى مئتي عضو، من بينهم أفراد قلائل من الأردن ولبنان والعراق. وتعد المرحلة السابقة لهذا التاريخ مرحلة تمهيدية أو تبشيرية اقتصرت على توضيح فكرة القومية والوحدة العربية، وفضح الأوضاع السياسية المتردية في سورية والأقطار الغربية، ومع بداية الأربعينيات أصدر نشرات ضد الحكم في سورية باسم (الاحياء العربي) ونشرات اخرى باسم «حركة نصرة العراق» على اثر ثورة رشيد عالي الكيلاني في ايار من عام ١٩٤١م. واستقرت تسمية «بالبعث العربي» في عام ١٩٤٣م، وظهر شعاره «امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة». وفي العام التالي بدأ الحديث عن الاشتراكية بينما بدأ الترابط بين الوحدة والحرية والأشتراكية منذ عام ١٩٤٩م. وأبرز مواقفه السياسية في المرحلة التأسيسية اشتراكه في مقاومة العدوان الفرنسي على دمشق عام ١٩٤٥، وخوضه معارك مستمرة في سبيل الديمقراطية، وتعزيز الحركة الشعبية والمواقف القومية المجسدة لوحدة الأمة، وطرح شعار المقاطعة واستخدام النفط كسلاح في خدمة القضايا القومية. ومما ورد في احد بياناته عام ١٩٤٧: «لو أن العرب وطّدوا العزم على الاضرار بمصالح دول لا تفهم غير لغة المصالح، لو هددوا هذه الدول بمنع النفط والذهب عنها، وبمقاطعتها مقاطعة اقتصادية ثقافية. لو صرفوا وقتهم في هذا السبيل لما وقع التقسيم (١) (أنظر صحيفة البعث ١١ تشرين الأول ١٩٤٧).

ومنذ مؤتمره التأسيسي بدأت قضية فلسطين تمثل المكانة الأولى من اهتماماته، تأمر اعضاءه القادرين على حمل السلاح بالتطوع للقتال في ربوعها عام ١٩٤٨. وكانت قيادته على رأس المتطوعين. وفي العام التالي وقع أول إنقلاب عسكري أطاح برأس النظام في سورية، فأبدى الحزب بعض التفاؤل والتأييد له. لتقديره بأن قادة الجيش أزاحوا نظاماً فاسداً مستبداً، ولا يهدفون إلى ممارسة السلطة بشكل مباشر. لكنه بعد أقل من شهرين اصطدم بالنظام العسكري الجديد، ولجأ هذا النظام لاعتقال قيادة الحزب، وأحدث ذلك بلبلة واسعة في صفوفه. وبعد أنهياره في العام نفسه اشترك الحزب لأول

مرة بالحكم في شخص عميده الأستاذ ميشيل عفلق ، حيث تسلم وزارة المعارف لبضعة اشهر. وفي الخمسينيات تزداد هذه المشاركة ويصبح لها تأثير ملموس في الأحداث السياسية بالقطر السوري، ومن ثم في الأردن والعراق. ومن الجدير بالأشارة أن أكثرية أعضائه في المرحلة التاسيسية كأنت من الطلبة والموظفين ومن أصول ريفية . كما كانت البساطة والعفوية والتجريبية تطغى على تنظيمه ونشاطه .

ومع بداية الخمسينيات بدأ الحوار والتقارب بين حزب البعث العربي والحزب العربي الأشتراكي برئاسه الأستاذ اكرم الحوراني ، وتحقق الدمج بينهما في عام ١٩٥٢، وأصبح اسمه البعث العربي الأشتراكي. ومن المبررات التي أدت إلى الدمج في ذلك الحين ، أن التقارب في الأهداف والمواقف السياسية كان شديداً ، ولأن المصيبة جامعة كما يقال ، حيث تعرض كلاهما لاضطهاد الحكم العسكري. وكان للحزب دور كبير وفعال في إسقاط هذا النظام عام ١٩٥٤م . وفي الإنتخابات التي اعقبت ذلك فاز للحزب سبعة عشر نائبا في البرلمان، واكثريتهم من محافظتي حماه والسويداء ، وأصبح له وزيران في منتصف الخمسينيات . ثم طرح إقامة الأتحاد بين سورية ومصر في نيسان عام ١٩٥٦، وتحققت في شباط عام ١٩٥٨ م ، ثم تسلم السلطة في كل من العراق وسورية عام ١٩٦٣ م .

أما فيما يتصل بالأهداف والمبادئ الفكرية والسياسية التي طرحها وناضل من أجلها فيمكن ايجازها على النحو التالي :

١ – الإيمان بالفكرة القومية، واعتبارها حقيقة حية خالدة ، وحزب البعث في نظرته إلى القومية، تجاوز المفاهيم السائدة عنها في أنه شجب المفاهيم العرقية والعنصرية والنزعات التعصبية والرجعية التي علقت بها . فاكد على أنسجام القومية مع المبادئ الأنسانية ، وعلى أنها «تعبير عن إرادة العرب في الوحدة والتحرر والتعاون مع سائر الشعوب ، على ما يضمن للأنسانية سيرها القويم إلى الخير والرفاهية وايجاد عالم منسجم حر آمن في سبيل التقدم الدائم »(١) أنظر المادتين ٣ و ٢٢ من دستور الحزب الذي أقره مؤتمره التأسيسي . والمهم أنه شدد على ربط القومية بالأنسانية ، وعلى المضمون الأنساني الأشتراكي للقومية العربية.

٢ – الأيمان بالوحدة العربية ، وبأن التجزئة في الوطن العربي ، حالة طارئة مصطنعة، «وبأن الفوارق بين أبنائه عرضية زائفة ، تزول جميعها بيقظة الوجدان العربي»(٢) «أنظر المبدأ الأول من المبادئ الأساسية في الدستور». ولهذا فأنه يشكل وحدة سياسية اقتصادية ثقافية . وعلى العرب أن يحققوا هذه الوحدة عن طريق النضال الوحدوي . وقد تميزت نظرة الحزب إلى الوحدة في أنه لم

يبقها مجردة ، أو دعوة عاطفية ، بل أعطاها محتوى ديمقراطيا اشتراكيا حياً عندما ربطها بالحرية والأشتراكية ، وأقام تنظيمه على أساس قومي متخطيا بذلك حواجز التجزئة في الوطن العربي ، وبالرغم من أن الحزب لم يطرح الوحدة في تلك المرحلة بصيغ عملية ودستورية ، ولم يركز عليها إلا في مناسبات معينة ، فقد لعب الدور الأكبر في توعية الجماهير وتثقيفها على هدف الوحدة وعقيدتها .

٣ – الأهتمام الشديد بالديمقراطية . والتركيز على ضرورتها لتحقيق الأنبعاث القومي الشامل المنشود. والحرية في نظر الحزب تعني تحرير الأنسان العربي من قيود الفقر والتخلف التي تكبل مواهبه ، ومن كل سيطرة سياسية واقتصادية أجنبية ، ومن جميع أنواع التسلط وكبت الحريات العامة في الداخل . كما أن مفهومها لا يقف عند حدود التحرير للفرد العربي والأمة العربية ، بل يتعداها إلى مساعدة الشعوب المضطهدة من أجل أن تنال حريتها . وقد اعتبر الحزب :«أن حرية الكلام والإجتماع والأعتقاد والفن مقدسة ، ولا يمكن لأية سلطة أن تنتقصها». ولكنه أراد أن يخفف من هذا الطابع الليبرالى العام لمفهوم الحرية ، فأشار في أماكن أخرى من الدستور إلى ضرورة الأنسجام بين حرية الفرد والمصلحة القومية ، فقال : «إن الدولة مسؤولة عن صيانة حرية القول والنشر والإجتماع والصحافة ، وفي حدود المصلحة العربية العليا » « أنظر المادة ١٤ من الدستور » غير أن نظرة الحزب إلى الحرية تميزت من ناحيتين ، الأولى : في أنه ربطها بمصلحة الجماهير ، بأن تكون الدولة منبثقة عن إرادتها . كما ركز على أن الشعب مصدر كل سلطة وقيادة « أنظر المادة ٥ من دستور الحزب». اما الناحية الثانية فتميزت بربطة الحرية بالإشتراكية ، أي العدالة الإجتماعية ، وهذا يعني رفض الديمقراطية البرجوازية التي تزيف جوهر الحرية وتطعنها في الصميم .

٤ – الأيمان بأن : « الأشتراكية ضرورة منبعثة من صميم القومية العربية ، وأنها النظام الذي يسمح للشعب العربي بتحقيق إمكاناته وتفتح عبقريته على أكمل وجه، ويضمن للأمة نمواً مطرداً في إنتاجها المادي والمعنوي ، وتآخياً بين أفرادها» « المادة ٤ من الدستور». وبالرغم من وجود النواقص والثغرات في المواد التي وردت في دستور الحزب عام ١٩٤٧م حول الأشتراكية . فقد كانت معبرة في مجملها عن المبادئ والأسس الجوهرية للاشتراكية . وذلك اعتباره «الثروة الاقتصادية في الوطن العربي ملكاً للأمة »، وفي منع استثمار جهد الآخرين، وفي تصنيع الوطن العربي وتنمية الأنتاج القومي ، وفي ضوء أحدث

التجارب والنظريات الأقتصادية ». « المواد ٢٦-٢٨-٢٧ من الدستور ». هذا ومن المناسب أن نشير هنا إلى أن حزب البعث كان معترضا على جوانب كثيرة من المبادئ والفلسفة والماركسية ، ولا سيما موقفها من القومية ونظريتها في المادية التاريخية ، أي التفسير المادي للتاريخ الذي يرى الأحداث التاريخية والظواهر الأجتماعية والبنى الفوقية وتطور المجتمعات البشرية إنما تنشأ عن أوضاع اقتصادية ، وكذلك في أسلوب تحقيق الأشتراكية والنظرة إلى القيم الدينية والروحية ، واستخفافها بحرية الفرد في سبيل المجتمع . ولكن الحزب في مراحل لاحقة ، ولا سيما بعد تسلم السلطة في سورية والعراق وانعقاد مؤتمره القومي السادس عام ١٩٦٣ تأثر ببعض المفاهيم والأفكار الماركسية من خلال بعض الأعضاء والكتل التي تكونت في داخله ، فقرر المؤتمر إلغاء حق الأرث والتملك لوسائل الأنتاج ، وأكد على الجانب الاقتصادي والصراع الطبقي وإبراز دور الطبقة العاملة ، والأخذ بحكم الحزب القائد وترجيح المركزية على الديمقراطية .

٥ - يتميز حزب البعث بأنه طرح القضية الأشتراكية مع القضية القومية، ونظراً إلى الوحدة والحرية والاشتراكية كأهداف أساسية مترابطة ، ولا يجوز فصلها عن بعضها كما لا يصح الإهتمام بواحدة منها وأهمال الأخرى . ولقد اتت الأحداث المتعلقة بتجارب الوحدة ، والممارسات الديمقراطية ، والتدابير الأقتصادية التي هدفت إلى السير في طريق الأشتراكية ، لتؤكد صحة هذا الترابط وضرورته ، وأصبحت هذه الأهداف الثلاثة كشعار واحد يتردد بين الجماهير العربية على نطاق واسع .

٦ - لقد حرص حزب البعث على أن يتميز عن الأحزاب التقليدية التي كانت قائمة في مرحلة الأربعينات ، فأراء أن تكون عقيدته علمية ثورية ، وعلمانية عصرية غير ملحدة ، أي معتدلة أو مؤمنة إذا صح التعبير ، تُعنى بالقيم الروحية والدينية المرتبطة بتاريخ الأمة العربية وتراثها الحضاري . كما أرادها أن تكون منفتحة على التجارب العالمية وقابلة للتطور والتجديد ، ومستندة إلى تنظيم قومي دقيق محكم ، وقاعدة جماهيرية واسعة . غير أنه لم يستطع من الناحية التنظيمية أن يلبي حاجات المرحلة ، وأن يرتفع إلى مستوى طموحه وعقيدته ، فبقيت الوسيلة والأداة ، أضعف كثيراً من الأهداف والغايات . ومن باب التوضيح للعلمانية التي أشار إليها في المؤتمرين القوميين للحزب الثالث والرابع ، فإنها تعني اقامة الدولة العربية الواحدة على أساس قومي لا ديني ، مع ضمان حرية العقيدة والعبادة لجميع المواطنين « وقل الحق من ربكم فمن

شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» «سورة الكهف الآية ٩٢ مكية». هذا بالأضافة إلى «ن في تراث الحزب الفكري توكيداً على الترابط بين العروبة والأسلام □لمزيد من الوضوح والتفصيل انظر ذكرى الرسول العربي للاستاذ ميشيل عفلق عام ١٩٤٣ وكذلك كتابنا العلمانية والدولة الدينية ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد الطبعة الثالثة، ١٩٩٣ ثم كتابنا عروبة الأسلام وعالميته الطبعة الخامسة ١٩٩٣».

٧ – كان الحزب يدرك أن تحقيق أهدافه الضخمة في الوحدة والتحرر والأشتراكية « لا يمكن أن يتم إلا عن طريق الأنقلاب والنضال ، وأن الأعتماد على التطور البطيء والأكتفاء بالأصلاحات الجزئية البسيطة يهددان هذه الأهداف بالفشل والضياع» . والأنقلاب هنا بمعنى الثورة . ويشمل جميع مناحي الحياة الفكرية والأقتصادية والأجتماعية » . ويؤدي إلى التغيير الحاسم في مجرى الحياة، ولا يترك الزمن يسيطر على مقدرات الأمور، كما أنه يبدأ من النفس، ويستوجب صدق النضال والمزيد من الوعي والإيمان والشعور بالمسؤولية .

٨ – لقد أكد حزب البعث منذ نشأته على الناحية الأخلاقية ودعا إلى التزام جانب الحق والحقيقة، ومصارحة الشعب ورفض المبدأ الماكيافيلي الذي يرى أن الغاية تبرر الوسيلة ، والذي اعتمده السياسيون التقليديون وساروا عليه ، لقد أراد الحزب أن يجعل صلته بالجماهير قائمة على الثقة . والتعبير الصادق عن مصالحها ، وهذا لن يكون ما لم يبرهن في سلوكه ومواقفه عن أنه يختلف عن الأحزاب والفئات الحاكمة التي تمادت في استخدامها المراوغة في عملها السياسي، وما لم يقدم الأدلة العملية على أن «له صدق الأطفال وصراحتهم .. وحياته لا فرق بين باطنها وظاهرها ولا تناقض بين يومها وأمسها » ، ولكن الحزب لم يستطع إلتزام هذا النهج وتطبيقه ولا سيما بعد أن كبر حجمه وتسلم السلطة في كل من العراق وسورية .

٩ – شعار الحزب « أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة » من منطلقات الحزب الفكرية ، ويعطي أيديولوجية البعث آفاقا رسالية وأبعاداً تاريخية وحضارية تشحذ في الأعضاء روح الحماسة والأندفاع للبذل والنضال ، أن الحزب لم يعن في مؤتمراته بمسائل نظرية دينية او ميتافيزيكية مجرده . ولم ينطلق من نظرة شمولية تجريدية ولا من نظرية فلسفية مادية أو روحية معينة . ولئن وردت في بعض ما كتبه أمينة العام الأستاذ ميشيل عفلق الفاظ الرسالة الخالدة والروح والإيمان والقدر والمصير ... فيجب الأ تؤخذ بمعانيها الحرفية الجامدة

أو الظرفية ، بل ضمن سياقها العام ومعانيها الأساسية المقصودة ، وهدفها هو رفع مستوى الحماسة والأندفاع في سبيل الأنبعاث العربي المنشود . ومهما يكن من أمر فإن المعنى العام الشامل للرسالة هو أن يكون للأمة العربية اهداف قومية وإنسانية عظيمة وسامية، تعبر عن طموحها وارادتها في التقدم . وطلائعها الواعية الثورية هي التي تستوعب الواقع بآلامه وتحدياته وتبلور أهداف الأمة في أيديولوجية علمية واضحة ، كما تخلق أداة تحقيقها، أي التنظيم المتكافئ معها والعامل على بلوغها بأساليب علمية ثورية، بالأضافة إلى قيادة الجماهير وتفجير طاقاتها الكامنة. والرسالة العربية هي نزوع الأمة العربية ونضالها الواعي المنظم ، من أجل التغلب على واقعها الضعيف المتخلف المجزأ، وللتحرر من أشكال الظلم والإستغلال والتسلط التي تمارسها الأمبريالية والصهيونية والرجعية الحاكمة . ولإقامة الدولة الديمقراطية الأشتراكية الموحدة ، وإطلاق المواهب والطاقات الحبيسة باتجاه البناء والعطاء والأبداع . وفي سبيل الاسهام الفعال في صرح الحضارة والبشرية . وتعزيز القيم الأنسانية الإيجابية وتعميقها . وتجاوز الأخطاء والنواقص القائمة في النظامين الرأسمالي والشيوعي ، وتدعيم التعاون بين الشعوب على أساس من الحق والعدل والمساواة ، وتوطيد الأمن والسلام والرفاهية والتقدم بين الأمم .

١٠ – كان حزب البعث في مرحلة الأربعينات التاسيسية يركز على القومية العربية وشخصية الأمة وروحها ومميزاتها وخصائصها ، ويشدد على فكرة الأصالة والأستقلالية والتميز والمحافظة على الثقافة والقيم الخلقية والمثالية المميزة للأمة العربية ، ولهذا المنحى ظروفه وخلفياته الفكرية والسياسية وهي مرتبطة بذكريات سياسة التتريك للعرب ، ثم إمعان الأستعمار الأوروبي الحديث بتجزئة الوطن العربي ، وسعيه الحثيث لطمس الشخصية العربية ، ومرتبطة أيضا بنشاط المنظمات الشعبية الأممية ، كالشيوعية أو العالمية كالحركات الأسلامية التي تفهم الأسلام بمعزل عن ترابطه مع العروبة ، ثم المنظمات والدعوات الأقليمية كالأحزاب القطرية الحاكمة والدعوة للفرعونية او الفينيقية أو الفرنكفونية في أقطار المغرب . وكان من الطبيعي أن يشدد الحزب على تعزيز الوعي القومي وتحصينه ضد غزو الثقافة الغربية المجردة وضد الأنتشار الواسع للمفاهيم الخاطئة عن القومية كالتي تصفها بالتعصب والرجعية ، أو تصفها في معاداة الأنسانية . وهكذا فإن التركيز على شخصية الأمة العربية وخصائصها ورسالتها الخالدة ، كان يتضمن معنى الحرص على كيانها القومي، وعلى النزوع نحو الإستقلالية والتحرر من نفوذ الدول الكبرى ومذاهبها السياسية، ولعل شعار الحياد الإيجابي وعدم الإنحياز الذي طرحه

واحتل حيزاً مهما على الصعيد السياسي في الخمسينيات ، كان يعبر إلى حد عن رغبته في التمسك بهذه الأستقلالية . غير أن التشديد على النواحي آنفة الذكر لم يستمر في مرحلة الستينيات حيث تسلم الحزب السلطة واصبحت القومية العربية أمراً مفروغاً على الصعيدين الشعبي والرسمي، وتضاءل الطرح العاطفي والتاريخي للفكر القومي والوحدوي ، وأخذ طابعاً ملتصقاً بالأشتراكية ومصلحة الجماهير ومستلزمات التقدم وشروطه الموضوعية، وأصبح الترابط بين الوحدة والحرية والأشتراكية في النشرات الداخلية والبيانات العامة شعاراً تميز به الحزب ، وفرض نفسه على كثير من الحركات السياسية القومية في الوطن العربي ، كالأحزاب الناصرية التي جعلت شعارها «حرية وحدة اشتراكية» كما تأثر به بعض الأجنحة والفصائل الشيوعية كالحزب الشيوعي السوري (المكتب السياسي) الذي جعل شعار مجلته المسار «تحرير ديمقراطية اشتراكية وحدة عربية» .

وحدث التقارب بين البعث والماركسيين ، بعد الدعم الذي قدمته دول المنظومة الأشتراكية للقضايا العربية ، ودخول السلاح السوفيتي للوطن العربي. وفي حين اعطيت الحرية والوحدة في مرحلتي الأربعينيات والخمسينيات ، الأرجحية والأولوية على الأشتراكية ، فقد أصبحت هذه فيما بعد معادلة لهما أو في مستواهما حسب المنطلقات النظرية التي أقرها المؤتمر القومي السادس لحزب البعث.

لقد بقيت نسبة الطبقة العاملة في الحزب ضئيلة في المرحلة التاسيسية لصعوبة استيعابها لمبادئ الحزب وشعاراته، قبل أن يتاح لها من يستطيع فهمها وهضمها وما أدى إلى الأنفصالية ، سنة ١٩٦١. ومع الأنفصال بداية مرحلة جديدة .

أن نميز ثم تقديمها للجماهير الشعبية بشكل مبسط وواضح . كما أن النشاط النسوي المنظم في الحزب أخذ دوره بعد المؤتمر التأسيسي ، في حين أن الأهتمام بالقطاع العسكري يكاد يكون معدوماً في تلك المرحلة ، باستثناء التعاطف الفكري الذي كان يبديه العسكريون تجاه مبادئ الحزب من خلال إرتباطهم به قبل أنتسابهم للجيش ، أو من خلال إعجابهم بمواقفه النضالية والأخلاقية . ولكن في الخمسينيات وما بعدها حيث كثرت الأنقلابات العسكرية، وزاد أنغماس العسكريين بالسياسة وحدث الدمج مع العربي الأشتراكي ، تضاعف الأهتمام بالعسكريين ، واعطى المؤتمر القومي السادس عام ١٩٦٣ مسوغاً فكرياً وعقيدياً لهذا الأهتمام، عندما ألغي شعار الجيش المحترف ورفض اقصاءه، عن السياسة ، وأكد على أهمية الجيش العقائدي المعنى بالقضايا القومية، وعلى ضرورة التثقيف السياسي والأيديولوجي فيه «لينصهر الجيش والشعب في مصير ثوري مشترك». هذا ويمكننا بصورة عامة أن نلحظ جوانب من التطور في مسيرة الحزب

النضالية، وفي المصطلحات التي كان يستخدمها . فالثورية حلت محل الأنقلابية منعاً للالتباس الذي تثيره هذه الكلمة الأخيرة مع الأنقلابات العسكرية التي أصبحت مرفوضة من الحزب . واستخدم مصطلح الطليعة الثورية كبديل عن الجيل العربي الجديد، والرفيق بدلاً عن الأخ ، وأصبح استخدام الطبقة العاملة أو الكادحة، أكثر من استخدام الطبقة الشعبية، والطبقة الحاكمة اكثر من الفئة الحاكمة ، والجماهير اكثر من الشعب لأن مضمون هذه التعابير الجديدة اكثر التصاقا بالمعنى الطبقي والأجتماعي .

بقي لنا من الحديث عن نشأة حزب البعث العربي الأشتراكي، أن نشير إلى مسألة تم تبنيها في الترويج لها مع بداية السبعينيات، وهي الأدعاء بأن الأستاذ زكي لارسوزي من مؤسسي حزب البعث ، او أنه صاحب الأسبقية والفضل الأول فيما طرحه الحزب من افكار . وكان وراء هذا الأدعاء دوافع سياسية ، هدفت إلى النيل من مؤسسي البعث الحقيقيين ميشيل عفلق وصلاح البيطار . ويكفي أن نشير هنا إلى أن الذين حضروا المؤتمر التأسيسي من أبناء لواء الأسكندرونه المتأثرين بالأستاذ الأرسوزي ، كانوا قد ارتبطوا بحزب البعث بشكل افرادي لا جماعي . وأن نسبتهم لم تتجاوز ١٠٪ من أعضاء المؤتمر ، ومما يؤكد عدم انتساب الارسوزي لأي حزب سياسي ، ما ورد في المجلد الأول من مؤلفاته الكاملة إذ ورد «أنه ذكر بتأسيس حزب سياسي ، يطلق عليه إسم البعث . والفكرة وأن لم تتبلور وتتحول إلى تنظيم سياسي، فقد كانت لها نتائج طيبة » « أنظر المجلد الأول من المؤلفات الكاملة للاستاذ زكي لارسوزي – المطابع الأدارة السياسية للجيش والقوى المسلحة، دمشق ٥ / ١٩٧٢، ص ٦١» . ومن هذه العبارة يتضح أن المسألة بقيت في حيز التفكير ولم تتحول إلى تنظيم سياسي ، وآراؤه المنشورة في وقت لاحق متأثره بالأتجاه القومي الوحدوي لعصبة العمل القومي لأنه كان عضواً فيها . أما أن يكون في كتاباته قد استخدم كلمات البعث والرسالة الخالدة في بداية الأربعينيات وتحدث عن القومية العربية والوحدة ، وأن يكون لبعض تلاميذه صحيفة جدارية في إحدى المدارس الثانوية اسمها البعث، لم يتعد انتشارها جدران المدرسة ، فلأمر لا يكفي للدلالة على أن الأرسوزي كان من مؤسسي حزب البعث . وإن وجد شيء من التقارب العلم والتلاقي في بعض الأفكار التي طرحها الأستاذ الأرسوزي مع تلك التي طرحها الأستاذ عفلق ، فهو أمر طبيعي نجد ما يماثله بين كتابات عفلق وأي كاتب آخر قومي عربي وحدوي الأتجاه . ومهما يكن من أمر ، فإن ثمة فروقاً واختلافات اساسية بين التراث الفكري والسياسي لحزب البعث العربي الأشتراكي التي اوجزناها ، وبين ما طرحه الأستاذ الأرسوزي حول مفهوم القومية والأمة والرسالة والحرية والوحدة ، « لمزيد من التوضيح أنظر كتابنا حزب البعث العربي الأشتراكي ومرحلة الأربعينيات التأسيسية – الجزء الأول – الطبعة السادسة . بغداد ١٩٨٦ ص ١١٣–١١٩ » . ولعل الأسئلة التالية تقطع الشك باليقين : لماذا انتمى أبناء اللواء ومحافظة اللانقية إلى حزب البعث بشكل إفرادي وبأوقات متباينة قبل المؤتمر التأسيسي ؟ . ولماذا كانت البرقيات والبيانات السياسية بإسم البعث العربي توقع منذ عام ١٩٤٣ باسم ميشيل عفلق وصلاح البيطار ، ولم يكن فيها إسم أو

للأرسوزي ولا للدكتور وهيب الغانم أو أي من المتأثرين بهما ؟ . ولماذا كان الطلب المقدم إلى وزارة الداخلية في تموز عام ١٩٤٥ من أجل الحصول على ترخيص رسمي باسم حزب البعث العربي ، موقعاً من ميشيل عفلق وصلاح البيطار ومدحت البيطار ، وفيه إشارة إلى أن حركة البعث نشأت منذ عدة سنوات ، ولم يكن من بين الموقعين لهذا الطلب أحد ممن ادعوا أنهم كانوا مجموعة ذات شان . واندمجت بالحزب ؟. ولماذا لم يكن من هذه المجموعة المزعومة أحد من قيادة الحزب قبل المؤتمر التأسيسي ، مع أن جلال السيد كان في هذه القيادة قبل المؤتمر لم يكن مقيما بدمشق ولما تحدث الأستاذ عفلق في جلسة افتتاح المؤتمر عن مراحل نشاط الحزب والصعوبات التي واجهته ، وعن منطلقاته الفكرية لم يكن في كلامه أي تصريح او تلميح لقضية اسمها جماعة الأرسوزي وافكاره ؟. ولماذا اختير ميشيل عفلق عميداً للحزب بنهاية المؤتمر ، واختارت لجنته التنفيذية صلاح البيطار أمينا عاماً للحزب ولم تختر وهيب الغانم كممثل لمجموعة مندمجة اذا صح الادعاء المزعوم؟. أو لماذا لم يظهر هذا الادعاء إلا في وقت متأخر في السبعينات ؟ !.

وبعد : فمن المؤسف أن يشوه تاريخ البعث بهذا الشكل المتعمد لأغراض سياسية . ولكن ما يحمل على الأطمئنان هو أن الحقيقة ستفرض نفسها آخر الأمر ، مهما لحقها من التشويه والتضليل الأعلامي .

وأخيراً وليس آخراً ، يطيب لي في خاتمة الحديث عن نشأة حزب البعث العربي الأشتراكي ، أن أشير إلى أن الحاجة ماسة لكي تعمد المنظمات الشعبية في الوطن العربي إلى اعادة النظر بأساليبها السابقة بشكل جدي وجذري يمكنها من تصحيح العلاقة بينها ، وجعلها قائمة على الحوار والتفاعل والتكامل والتنافس الديمقراطي المشروع ، وليس على السلبية والتناحر والصراع المبدد للطاقة والجهد ، وأن حالة التجزئة والضعف والتبعية والتردي في الوطن العربي ، بلغت من العمق والأتساع حداً يفرض عمل كل منظمة سياسية وكل واع وغيور على مصلحة أمته ومستقبل أجيالها ، أن يرتفع إلى مستوى التحديات والأخطار المتفاقمة والمحدقة بالأمة . وليس من المستحيل إيجاد الوسائل العملية للنضال المشترك في إطار جبهوي وفق ميثاق قومي يؤكد على ثوابت واهداف سياسية كالديمقراطية والوحدة والتحرر من أية تبعية للقوى الأجنبية ، ويضع الخطط الملائمة لمواجهة الأطماع والمؤامرات الأمبريالية والصهيونية المستمرة بأشكال وصيغ جديدة . وأن التاريخ والجماهير والأجيال العربية القادمة ، لن تغفر لأية قيادة أو منظمة سياسية أو شخصية واعية مثقفة ، وأن هي تناست واجبها في العمل والنضال لبلوغ هذا الهدف .

بغداد – ١٩٩٥/٦/٤ شبلي العيسمي

دمج البعث العربي بالعربي الاشتراكي

د. ذوقان قرقوط

كان من جراء تدخل الجيش السوري في السياسة، وقيامه بسلسلة من الانقلابات الظاهرة والمستترة، انتهت بقيام الوحدة بين مصر وسوريا، دمج الحزبين، البعث العربي والعربي الاشتراكي. وكان وراء السعي إلى هذا الدمج فقط استعجال الوصول إلى الحكم. وقد كثرت التقولات حول ذلك وتعددت، ولكن كان من الطبيعي، بعد مهزلة حرب فلسطين، أن تتصاعد نغمة توحيد القوى المتجانسة، لمواجهة المستقبل المظلم. وكانت نغمة تحكمها البراءة ويسيرها الاخلاص.

والمؤكد أن جميع المعجبين بسياسة الأستاذ أكرم الحوراني واقدامه وجرأته كانوا وراء هذا التوحيد، سواءً أكانوا من تلامذة الأستاذ الأرسوزي ومريديه، أو من جماعة الأستاذ اكرم نفسه، أو من تلامذة الأستاذ ميشيل والمقربين منه، الذي يصغي إلى مختلف التعليلات وهو صامت، وجميعها فئات مستعجلة للوصول إلى الحكم، بالنظر إلى ضحالة الفكر لدى الأحزاب الأخرى وهشاشتها.

وأما ما عدا هذه الفئات فكانوا سلبيين في الحزب فالزعيم وجد، ولكنه بحاجة إلى كوادر، وهذا الزعيم كان كذلك كميشيل عفلق، يمثل بيئته وتطلعات وطموحات وأجيال الناشئة. وفضلاً عن نواقص الحزبين فأن وجودهما على رأس الحزب الواحد بعد الدمج بطبيعتيهما المتنافرتين، وغيرتهما الواحد من الآخر وخاصة غيرة ميشيل عفلق على الحزب أي على حزبه «كما يراه هو من اكرم الحوراني لا كما يجب أن يكون سوف يكون له أثر حاسم على مصيره ومصير البلاد. وكثيرا ما يكون هذا القرار مناروة من أحدهما للخلاص من الثاني، او زحلقته فكان هذا كانما هو بمنظار التاريخ تلاعب في حقيقته بمصير الأمة. لذلك لا بد من رسم شخصية كل منهما وإبرازها لفهم مواقف الحزب الكبرى، ومدى أثرها على مصيره.

فقد نشأ أكرم الحوراني حيث: تركزت «العائلات» الكبرى بنفوذها وسلطتها «الاقطاعية» في المنطقة الوسطى من سوريا بحماه وحمص وما جاورهما، لا بمعنى الملكيات الكبرى، الشاسعة، فالملكيات الكبرى الواسعة موزعة في أمكنة كثيرة، في حلب، ودير الزور، ودمشق، وحوران، ولا بمعنى الاقطاع المتعارف على صفاته في أوروبا.

فليس في بلادنا إقطاع بهذا المعنى . وإنما بمعنى تموضع عدد من العائلات الكبيرة: البرازي والعظم والكيلاني ... والتي ملكت قرى عديدة وقوي نفوذها، وتحصلت في كل منها صفات إقطاعية من استبداد بفلاحيه، وتحكم وتصرفات لا أخلاقية ،كانت تصل حد الاستباحة واستباحة الأعراض .

وكان من دواعي التحرر الحديث أن هبت رياح الأفكار الجديدة ضد الاستبداد، ومحاربة الظلم والانعتاق من العبودية ، ولتحقيق كرامة الأنسان للمطالبة برفع الذل .. الخ. وصرت تسمع بنهاية عهد الاقطاع، وبداية عهد الفلاحين ... وظهرت تباشير التحرر .

كانت أولاها على شكل نادٍ يجتمع فيه الشباب تحدوه كراهية الانتداب الفرنسي، لا ايديولوجية تجمعه إلا العاطفةُ الوطنية المشبوبة ، اسسه ورعاه شاب اسمه عثمان الحوارني، ابن عم أكرم وانتشرت في المنطقة إلى جانبه تشكيلات الحزب القومي شبه العسكرية . وفي عام ١٩٣٩ تسلمه منه ابن عمه اكرم الحوراني، وبدأ يشارك انطلاقاً منه بالحركات القومية. وأثناء «ثورة رشيد عالي الكيلاني ، على الانكليز في العراق، اندفع بمجموعة من المتطوعين المدنيين والعسكريين والأطباء والممرضين للالتحاق بصفوف الثورة ، في حين كان الأستاذ ميشيل ، في دمشق يجمع الطلاب تحت شعار نصرة العراق، ويحدثهم بعفوية في ضرورة المشاركة بالتبرع بجزء من مدخراتهم لصندوق العراق». وحين توترت علاقات الحكومة «الوطنية» السورية تولى أكرم الحوراني مع مجموعة من الشباب القيام بغارات فدائية على الحاميات، بلغت من الحدة أن طلبت منه الحكومة السورية بفرنسا برقياً تجنب تدمير المنشآت العسكرية التي ستؤول ولا ريب إلى سورية حين يُرحل الفرنسيون. حينئذ تطوع ميشيل عفلق في «الدرك» بقلعة الحميدية، وشوهد يذرع المسافة بين بيته في حي الميدان ، زقاق الموصلي وقلعة الحميدية صباحاً ومساءً كل يوم .

وفي العام التالي (١٩٤٥) تمكن أكرم الحوراني بمعونة الآخرين: أديب وصلاح الشيشكلي، وبعض أعضاء الحزب السوري القومي، من اقتحام قلعة حماة، وطرد الحامية الفرنسية. وبلغ بهم الحماس أن راحوا بعدها يتهيأون للزحف الى دمشق حيث كان الفرنسيون ما يزالون يكابرون في عدم التسليم. ويومئذ لم يكن عهد «الكتلة الوطنية» قد انتهى، ولكنها في فترة نزوح الفيشيين وتسلم الديغوليين أجرت الانتخابات للمجلس النيابي دخلها أكرم الحوراني، بقائمة الوطنيين مع حليف آخر من الشباب هو رئيف الملقي، ففازا . في حين طالب ميشيل عفلق بالدخول في دمشق بقائمة الوطنيين ، شرط إخراج جميل مردم منها ، فلم يوفق، وخاضها مستقلاً فلم يحالفه النجاح، وإن تغلب على المرشح الشيوعي خالد بكداش بنيل عدد أكثر من أصوات الناخبين الثانويين . واعتبر ذلك فوزاً. وعند دخول الجيوش العربية إلى فلسطين تطوع أكرم الحوراني في جيش الانقاذ،

إلى جانب عدد من الضباط وخاض معهم المعارك . وتطوع ميشيل عفلق إلى جانب عدد من البعثيين ، ولم يسجلوا أنهم خاضوا معركة واحدة .

إلا أن أهم ما قام به الحوراني هو تحريض الفلاحين على اللجوء إلى العنف وحرق محاصيلهم،ورفض العمل مما جعله يفوز بثقتهم ، وبحق بلقب عدو الاقطاع رقم واحد، وحمل أحد كبار الملاكين على أن يقول « لو كان في مقدوره أن يشرب دماءنا ويأكل لحومنا لفعل ذلك» ،(حسن البرازي لسيل ص ٦٤).

وقد أدرك أكرم الحوراني ، بوعي مبكر أهمية الجيش ودوره في بلد من بلدان العالم الثالث لرجل يبتغي الحكم مثله ، لا كميشيل عفلق الذي كان يطمح للحكم برغبة شديدة ولكن على استحياء ، شأن المثقف. وكان أكرم الحوراني يفهم ما في الجيش من مخاطرة تبقيه يقظاً لها وحسوباً . فلم يشارك في البرلمان في المعارك الكلامية التي دارت حول الفساد والتلاعب بتموين الجيش، ومنذ اللحظات الأولى شوهد حضوره في انقلاب حسني الزعيم .

حينئذ تحول أكرم الحوراني عن الحزب السوري بأفقه الضيق، وقصوره عن طموحاته، وبدأ يتردد على حزب البعث . وكان ميشيل عفلق وصلاح البيطار قد قاما بزيارة نائب الرقة، الدكتور عبد السلام العجيلي، وطلبا منه أن يكون متحدثاً باسم الحزب بالبرلمان في بعض الأمور إن لم يكن في كلها، فاعتذر. وذلك قبل نجاح جلال السيد. وبدت تلوح للكثيرين ولأكرم الحوراني نفسه أن صفقة «دمج» الحزبين مواتية ومربحة . وإلا ما كان أكرم قد رضخ برضى لشروط الدمج التي وضعها جلال السيد أحد قادة البعث العربي مخولاً من القيادة. وكان هو نده العنيد في البرلمان : وهذه الشروط هي :

١ – دستور الحزب الجديد هو دستور حزب البعث العربي، بلا زيادة حرف، ولا نقصان حرف .

٢ – النظام الداخلي للحزب الجديد هو المنهاج الداخلي لحزب البعث .

٣ – تصبح القيادة رباعية، بعد ما كانت ثلاثية، وذلك بانضمام أكرم الحوراني إليها.

٤ – سائر الأعضاء من الحزب العربي الاشتراكي يتقدمون بطلب انتساب إلى الحزب كل واحد بمفرده، والقيادة تقبل منهم من تقبله، وترفض ضم من ترفض إلى الحزب، ولا يمكن قبول أعضاء العربي الاشتراكي مجتمعين . بينما لا يسري ذلك على أعضاء البعث العربي فهم أعضاء طبيعيون في الحزب .

٥ – اسم «الحزب هو حزب البعث العربي» ويعقب الأستاذ جلال السيد بقوله، ومع ذلك، فقد كنت على مثل اليقين أن هذه الشروط لن تحوز على القبول من جانب الطرف الآخر. وكنت كمثل المطمئن إلى أن الصفقة لن تتم، ولن يكتب لفكرة الدمج بين الحزبين أن تتحقق. والغريب أننا عندما نلقي نظرة على تاريخ هذين الحزبين معاً بعد الدمج، نجد أن قيادة حزب البعث العربي الثلاثية: ميشيل عفلق وصلاح البيطار وجلال السيد، لم تكن موافقة على هذا الدمج، وظلت تمانع فيه حتى آخر الوقت. وكانوا يرون في أعضائها اختلافاً بينا في الأخلاق والسجايا، ولم يكن ذلك غائباً عن بال قيادة البعث. ولقد كنت متشدداً ضد الدمج، ولم يكن زميلاي: عفلق والبيطار، اقل مني تشدداً، لكنهما كانا يواجهان الضغط مباشرة من الأعضاء ومن الجهات الأخرى، وخارج الحزب فيلينان بعض الشيء». ويستطرد جلال السيد قائلاً: « .. فأنا لم أكن ميالاً إلى هذا الطراز من تضخم الحزب أي طراز التجميع والضم، وإنما كنت أميل إلى طراز النمو والتكاثر الذاتي. ففي هذه الحال لم ينم الحزب، وأنما هو جمع إليه مادة اخرى، فكبر بها، فجميع مجالات النمو مهيأة له، فلم يكن في البلاد غيره ناهيك عن: «أن الطفل لم يكبر فيصبح رجلاً، وانما ضم الطفل اليه طفلاً آخر، معادلاً قوة رجل. أنا كنت أريد أن ينمو الطفل فيصبح رجلاً، لا أن يكون بدل الرجل طفلان كما حدث» (١)

وتكتمل الصورة ويتضح المراد، إذا عرفنا أن تدخل بعض الضباط من أصدقاء الحزبين كان حاسماً في الأمر، وأنهم زينوا لهما (لميشيل وصلاح) الاندماج ليكون الحزب ضخماً صالحاً لتأييد حركة تقوم في الجيش ضد الشيشكلي. « وكان أن قال نفر من الضباط أنهم مستعدون للاطاحة بالشيشكلي، على شرط أن يتم توحيد الحزبين ..». ودخل الحزبان المعركة ضد نظام الشيشكلي مندمجين في حزب واحد. وهكذا أصبح أكرم الحوراني، في الخمسينيات من أقوى الزعماء الطالعين الذين يعتمدون على جناحين في البلاد يدنيانه من الحكم: الجيش والفلاحين، الفلاحين الذي أوجد حركتهم هو، وليس غيره في القرى المحيطة بحماه، معقل الاقطاع، وبدءاً من الانقلاب الأول أخذ يشعر شعوراً ملحاً بحاجة إلى كوادر للحكم، وأدرك أن الحزب السوري القومي، الذي انتسب إليه انتساباً شكلياً يقصر دون طموحاته، ولا يلبي أفقه العربي الذي امتد باغناء تجاربه.

ومن جهة أخرى سار الحزب الجديد، في فترة الكفاح ضد الشيشكلي، منسجماً بوئام كتلة واحدة. وبعد الاطاحة بالشيشكلي عاد مجلس النواب السابق، وإذ فشل الاتفاق بين البعث والحكومة على الاشتراك في الوزارة، اتخذ حزب البعث موقف المعارضة. ولما جاءت الحكومة ببيانها إلى المجلس، كان المفروض أن يلقى كلمة الحزب نائب واحد، لكن

الذي حدث أن الحزب ألقى كلمتين إحداهما بعثية والأخرى اشتراكية . والمعاني ليست خصبة في هذا الميدان ، كما يقول جلال السيد، النائب حينئذ باسم البعث. فلا بد من أن تكون الكلمة الثانية ترديداً لما ورد في الكلمة الأولى. ومع ذلك فلا بد من كلمتين. فالحزب فيه ثنائية واضحة. وأيقن الرأي العام أن الدمج لم يكن عميق الجذور (ص ١٢١)، وكأنما عاد الحزب حزبين. وكثرت الشّللية، واستيقظت الروح العشائرية، وبتنا نرى أمراً بارزاً جديداً هو تقاسم المهمات. «فاذا سمي وزير من أصل بعثي، فانه لا بد من تعيين وزير من أصل اشتراكي. وإذا ندب الحزب لأمر من الأمور مندوباً من أصل، فلا بد من انتداب مندوب آخر من الأصل الثاني » (٢) . ومن ابرز الحوادث في تاريخ الحزب التحقيق في دير الزور الذي ادى إلى استقالة جلال السيد من الحزب . وهذه الثنائية لازمت الحزب إلى زمن الوحدة بين مصر وسورية، فقد ألمح لها كثيراً عبد الناصر . ولا شك أنها كانت تهيمن كذلك على المقابلات مع محمود رياض، سفير مصر في سوريا والأحاديث معه. ولم تكن حقيقة الأمر بعيدة عن ذهن عبد الناصر ، فقد كان أكرم الحوراني عندما يذهب لمقابلة سياسية مع محمود الرياض، سفير مصر في دمشق، يصطحب عبد الفتاح الزلط، وعندما يذهب ميشيل عفلق وصلاح البيطار لمقابلته يصطحبان عبد الرحمن المارديني من دمشق، وشتان ما بين الاثنين .

تجمع الآراء على أن «الاندماج» كان ضرورياً لمحاربة نظام الشيشكلي. فالمرحلة تقتضي حشد جميع القوى والطاقات لمواجهة ما يحاك للبلاد، فما بالك بحزبين متقاربيّ الأهداف. وكان ضرورياً أيضاً لمواجهة الظروف الداخلية، أمام التحالفات اليمينية والرجعية، للحصول على موقع تفاوضي أفضل، سواء حيال الأحزاب الأخرى ، أم في وجه الأحلاف والتكتلات المريبة فيما بعد ، أم في التعامل مع عبد الناصر ... الخ . إلا أنه لم يكن من المستحيل التفاهم على القضايا الرئيسية بين أصحاب القضية الواحدة لو خلصت النية ، وخلت النفوس من العقد والمكائد والتزاحمات. وإذا كان هذا مستحيلاً ، فكيف إذن يتفق «قطر» و«قطر» وهم دعاة وحدة الأقطار العربية ، فهل كانوا قادة حقاً ، جديرين بالمرحلة ؟ .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد من النقص، فقد كتب جلال السيد ، أحد القادة الأربعة الكبار يقول :« لمست وكأنما في داخل الحزب تآمر من فئات ضد فئات، ومن جناح ضد جناح . وهذا الأمر لا يتفق، لا مع مصلحة الحزب، ولا مع مصلحة القضية القومية التي نذر الحزب نفسه لها . كما أن هناك تحالفاً من جانب فئات حزبية مع عناصر من خارج الحزب ضد فئات حزبية أخرى . وفي هذا خروج واضح في سلوك الحزب ونظامه الداخلي، وتحطيم لمثله وأهدافه. وكان واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار أن التماسك أصبح مفقوداً في الحزب ،وأن أموراً يجري تبييتها في الظلام لتقضي فئة على فئة في الحزب، مما دعا الأستاذ عفلق في أوقات كثيرة أن يقترح فصل عميد هذه التحركات اللاحزبية ».

ثم وما القول: « بحلف يقوم بين الاشتراكيين وبين زعماء القبائل وكبار ملاك الأراضي في مجلس النواب لتحقيق أغراض معينة» (٣).

ثم: « وفي هذا التاريخ أخذ الحزب يؤلف عقداً في داخله، وأصبحت القوى «بعثرة، فالتي لم تنضم إلى السيد عفلق، انضوت تحت لواء قادة آخرين، وصار التندر مكشوفاً في تسمية الكتل الحزبية. وسميت كل كتلة باسم واحد من أعضاء القيادة الثلاثية، فضلاً عن كتلة سميناها بـ «جناح الأرسوزي» (ص٨٤).

وقد اتسمت تلك الفترة بالركود وضعف الانتاج الثقافي، وعدم تجدد الأفكار التي سادت الحزب منذ نشأته، وهذا ما وصفه الدكتور منيف الرزاز حين قال: «ولكن أسوأ نتائج هذا الجهل والفراغ أنه عند غياب القاعدة الفكرية السليمة التي يقوم عليها الحزب تحل الروابط «التخلفية» محل الروابط العقائدية. واذا بكل الأمراض التي جاء الحزب من أجل القضاء عليها في المجتمع تنبت وتزدهر، فمن الولاء الشخصي إلى التبعية الأقطاعية، إلى الرباط العشائري، كل ذلك يصبح الرابط الأهم في الحزب » (٤) التجربة المرة ص ٦٣

وعن هذه الفترة كتب الأستاذ جلال السيد يقول أيضاً: لكن حدثت أزمة داخل الحزب غير مرئية. والذين اطلعوا عليها هم عدد قليل من مستوى القيادة وردفاء القيادة.

فالأستاذ عفلق كان مؤيدا من كل فئات الحزب، واستمر هذا التأييد حتى بعد رسالة حسني الزعيم، بصرف النظر عن فترة قصيرة أعقبت الرسالة، وبحث فيها موضوع فصل الأستاذ عفلق من الحزب.

إن هذه الفترة لم تمر من غير أن تحدث أثراً. فالشك في تأييد الحزب المتكامل كما كان سابقاً قد خامر نفس السيد عفلق فجنح بشكل عفوي إلى تجميع قوى خاصه حوله ....

ولقد كاشفني الأستاذ عفلق مرارا في أمر كان يؤرقه. وكان ينام الليل مشغولاً به. فقد قال لي: إذا كان الحزب ينوي أن يمارس العمل السياسي، ويحصل على مكاسب، فيجب عليه أن يتخذ الأساليب النافعة في هذا المضمار. فقلت له: وماذا ترى هذه الأساليب؟، وماذا تتصور شكلها البديهي؟. فقال: إن حزبا قومياً في مدينة دمشق المحافظة، وهو يتألف من أكثرية ساحقة من المسلمين بحكم التكوين العام للوطن، كيف يجوز له أن يكون أمينه العام مسيحياً. فطلبت إليه أن يستمر في رسم المخطط الذي يراه. فقال: « أريد أن أتخلى عن الامانة العامة ».

...وعاد علي بمثل هذه النغمة بعد وقت ليس بالبعيد. وعدنا إلى الحوار والاقناع. وكأنه كان في عروضه يمتحن مدى الثقة التي يتمتع بها منّا ومن الحزب (ص٨٥) ... وسكت الأستاذ عفلق وسكتنا، ولكنا كنا ندرك أنه قد أصبح في داخل الحزب عقد، وأن هذه العقد اذا تضخمت وكبرت فاتها سوف تعرض الحزب إلى التصدع والتمزق وربما الانهيار (٥).

إن أهمية شهادة جلال السيد ناجمة عن أنه، فضلاً عن كونه أحد القادة المؤسسين، كان مطلعاً كل الاطلاع حتى ذلك الحين ،أي إلى آخر عهد الشيشكلي، وقبيل العمل لوحدة سوريا ومصر. فقد مثل الحزب في مؤتمر حمص، المعارض لعهد الشيشكلي، في الوقت الذي هرب فيه الثلاثة الكبار إلى بيروت، ثم أخرجوا منها إلى إيطاليا. واتضح في فترة، اقامتهم في ايطاليا خلافهم. وحينها صرح الأستاذ ميشيل للدكتور عبد السلام العجيلي، بأفضلية الأدب على السياسة، وأنه نادم على ترك الأدب .ولم تطل إقامتهم في ايطاليا، إذ رجعوا إلى البلاد بسقوط نظام الشيشكلي، وتبين لهم في البلاد أنه لم يكن من باب الترجيح أن للعراق يداً في الانقلاب على الشيشكلي، وإنما من باب اليقين.

فقد اتضح أن اتفاقاً تاماً بين الحزبين الوطني والشعب وحكومة العراق كان تقرر فيه الانقضاض على عهد الشيشكلي وتهديمه. ثم جاءت محاكمات بغداد تؤيد ذلك. وانكشف في عهد الوحدة أن صبري العسلي تسلم في تلك الصفقة خمسة عشر ألف دينار. وكان دور الحزب أنه أندفع في كفاح العهد لا يلوي على شيء. وفي النهاية توهم أنه هو الذي أسقط الشيشكلي، لان ثمانين بالمائة من السجناء كانوا منه. واستغل حزب البعث ظروف هذا التوهم في الانتخابات التالية إلى المجلس النيابي، ففاز بسبعة عشر مقعداً، معظمهم من العربي الاشتراكي، أو على الأصح معظمهم جاء بنفوذ أكرم الحوراني، ولم يجرؤ ميشيل عفلق على ترشيح نفسه، ولم ينجح صلاح البيطار في الجولة الأولى، بل نجح في الدورة الثانية (البالوتاج)، بعد أن تولى أكرم الحوراني إدارة المعركة الانتخابية. وكان جلال السيد قد انسحب من الحزب، بعد افتعال حادث قتل بدير الزور، وبذلك لم يبقَ أمام أكرم للأنفراد بالحزب غير ميشيل عفلق.

وميشيل عفلق الذي كان قبل سنتين تراوده فكرة فصل أكرم الحوراني من الحزب لإعادة وحدته إليه وانسجامه، وبالتالي اندفاعه إلى الأمام، صار هو مهدداً أن يخسر الحزب. فبعد إنهاء عهد الشيشكلي، وفوز الحزب بسبعة عشر نائباً، خاض معركة ناجحة من أجل مشروع ميثاق قومي قاده إلى أن يصبح أكرم الحوراني رئيساً للمجلس النيابي. ولم يعد ثمة ما يشبع نهم الحزب إلى السلطة. إذ في مماحكة حادة وطويلة أثناء اجتماع لتقاسم مناصب رؤساء البلديات قيل لممثل البعث، وما هو العدد الذي يرضيكم؟. فأجاب أن يكون نصيبنا ٥١٪ (حديث عفيف البزري).

فالحزب الذي ظهر في أوج النجاح بعد سقوط الشيشكلي، وتشكيل التجمع القومي، وحصوله على رئاسة المجلس النيابي، بدأ يعاني أزمة في صميمه، كان يحسها ميشيل عفلق في رواحه ومجيئه للمفاوضة في الجبهة، وكان يحسها صلاح البيطار يومياً في معاناته مع الصحافة، أهو المعبر عن سياسة الحزب أم أكرم.

وصار دائم الشكوى من أن الأستاذ أكرم يسبقه في التحدث إلى الصحافة، وكأنما يقطع الطريق عليه. ودأب الأستاذ أكرم كل يوم على أن يفاجئ بكشف مؤامرة على حياته من الصحف، أو تنفرد إحداها بذكرها، وأغلب الظن أن خبرها غير صحيح، ولا يخفى ما يرافق ذلك من ضجة.

وقد أشار التقرير الهام الذي قدمته نخبة من مفكري ومناضلي الحزب، قبيل انعقاد المؤتمر التنظيمي الرابع، أي بعد الأزمة المستحكمة إثر سقوط عهد الشيشكلي، إلى جذور الأزمة قال التقرير:

« يمر حزبنا بأزمة عميقة الجذور تكاد تشمل جميع مؤسساته وتنظيماته ومختلف مظاهر نشاطه. وقد كان الحزبيون يشعرون بهذه الازمة، منذ أمد طويل. وادى هذا الشعور الى نوع من التذكر في قاعدة الحزب، أفقد الاعضاء الشيء الكثير من اندفاعهم في العمل الحزبي، ومن اقدامهم العفوي على المبادهة في الاتصال بالشعب، ونشر شعارات الحزب والدعوة لمبادئه. وتحول هذا التذكر بالنسبة لبعض الأعضاء البارزين الذين رافقوا الحزب منذ نشأته الى اهتمام جدي بمصير الحزب وخوف عليه، أمليا عليهم عدداً من الاجتماعات الخاصة في مختلف فروع الحزب، كانت تهدف تارة الى بحث مشكلة الحزب التنظيمية بصورة عامة، وايجاد حلول لها، وتهدف تارة أخرى الى معالجة السياسة وخططه العملية، وكان يفضي بها الأمر إلى بحث مشكلة القيادة وعلاقة السياسة التي تنتهجها بمبادئ الحزب ومقرراته. وعلى الرغم من الاضطراب الذي يكتنف هذه الاجتماعات، فقد كانت محاولات جدية لاصلاح الحزب. ولكنها باءت جميعها بالفشل بصورة تلفت النظر. فقد كانت تسفر عن تقارير ونداءات توجه الى القيادة واتصالات شخصية مع القادة أنفسهم، ومؤتمرات تعقد على نطاق واسع، ولكنها كانت تذهب جميعها دون جدوى. وفشلها بحد ذاته يعتبر دلالة واضحة على الأزمة العميقة التي يعانيها الحزب».

وقد رأى هذا التقرير أن أبرز مظاهر الأزمة التي يعانيها ترجع إلى الجذور، وهذه الجذور تمتد إلى تجارب الحزب منذ ظهوره.

لقد كان حزب البعث العربي يعاني منذ البداية، ضعفاً في الروح العملية، وتهيباً من كل عمل سياسي يتجاوز نطاق النشرات الجريئة، والمظاهرات التي يعلن بها موقفه من حادثة ما. ولم تكن للحزب خطط عملية واضحة بعيدة المدى يعمل على أساسها. بل كانت معظم مظاهر نشاطه مواقف عابرة من الأحداث والظروف التي يتعرض لها الوطن العربي. وكانت تسود الحزب نزعة غريبة إلى اللفظية. فالقومية العربية والرسالة الخالدة والاشتراكية العربية، ومبادئ البعث العربي، وما إلى ذلك، كانت كلمات ضخمة يؤمن بها الحزبيون دون أن يحاولوا فهم مدلولاتها الواقعية. وكانوا يحملون شيئاً من التقديس لهذه الألفاظ يصرفهم عن ترجمتها في النضال العملي. وهذا التقديس أفضى بالحزبين إلى نوع من «الأخلاقية الكاذبة» جعلهم ينظرون الى كل عمل في ريبة وخوف وحذر. ومن ثم نشأت في الحزب تساؤلات شتى عن قيمة كل خطة عملية يحاول بها الحزب أن يتفاعل مع الواقع. هل يجب أن نشترك بالحكم أم لا؟. هل يتفق العمل البرلماني مع روح الحزب أم يعتبر انحرافا؟. إلى أي حد يمكن أن يبرر التوظيف في الحزب؟..

أما الحزب العربي الاشتراكي فقد بدأ بروح عملية بحتة، وكان بذلك نقيض البعث العربي. ولكن هذه الروح العملية كانت تتجلى قبل كل شيء في الاستجابة اليومية للأحداث الطارئة. ولم يكن يعنيها في بادئ الأمر، إلا أن تتجاوز الظروف والأحداث في شيء من الظفر والنجاح بعمل على تقوية الحزب ونشر شعاراته الثورية. ومن ثم كانت جميع تنظيمات الحزب العربي الاشتراكي آنية، مؤقتة، لا غاية لها الا الانتصارات الجزئية، التي كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمشاكل الخارجية المطروحة كالانتخابات والوضع الحكومي والحوادث المحلية الأخرى. ولم تكن في الحزب خطط بعيدة شاملة، ولذلك كانت منظماته رهينة بالظروف. ولم يكن ثمة مقاييس للعمل الحزبي إلا النجاح الآني، ولذلك تعرض الحزب بمثل هذه الروح لخطأ اساس في تنظيمه هو ارتباط الحزب بالقيادة الشخصية في ا لمركز والفروع، وذلك طبيعي لأن الأشخاص يحملون إلى جانب انتسابهم للحزب ميزات واقعية تتمثل في أوضاعهم الاجتماعية ونفوذهم وغير ذلك. ولم تمضِ فترة على نشوء الحزب حتى كان عدد كبير من الأشخاص الذين ينظرون إلى العمل الحزبي من خلال مصالحهم الشخصية ومطامعهم السياسية. ورأى الحزب نفسه أيضاً في وضع حرج لا مفرّ فيه من الاعتماد على قوى غير حزبية وبذلك لم تعد للتنظيم أهمية، وبقيت قاعدة الحزب على الرغم من أصالة طبيعتها النضالية (باعتبارها من جماهير الفلاحين بصورة خاصة) اقرب إلى الفوضى، ولم تكن أكثر من قوة معنوية يهدد بها الحزب خصومه ويفرض بها شعاراته.

وقد احتفظ حزب البعث العربي الاشتراكي بالمساوئ التنظيمية للحزبين اللذين يتألف منهما ...

واشهد أنني كنت أسجل ضبط الجلسة التي أعلن فيها الأستاذ ميشيل عفلق حل الحزب، واحتفظت بهذا الضبط مدة أكثر من أسبوع إلى حين أرسل يطلبه مني. ولم احتفظ بصورة عنه، وإنما سجلت فيما بعد محتواه من الذاكرة. وبعد زمن صودر في ا لمداهمات مع ما صودر من أوراق الحزب بعد الانفصال. وأذكر أنني سألت الأستاذ ميشيل مرة ألم يكن بالامكان الاصرار على بقاء الحزب، فأجابني الحمد لله أننا اضطررنا إلى حل الحزب بشرف من أجل قضية أكبر والان يتذكر حزبيون كثيرون أنهم سمعوا منه مثل هذا المعنى، كثيراً.

وحق لهاني الفكيكي أن يكتب : « أبعد من هذا إنني فهمت كيف أن قيام الوحدة أنقذ الحزب في سوريا من خطر التمزق والأنهيار اللذين لم يكن بد منهما . وهذا على الأرجح أحد الأسباب التي دفعت عفلق إلى الموافقة على حل الحزب» . (٨)

هذا هو الحزب الذي أدعى أسفاً أنه ما كان يجب أن ينصاع لفكرة حل نفسه، إذ أن بقاءه ضمانة لبقاء الوحدة حقاً. إن عدم حل حزب يؤمن بالوحدة، فكرة حق، ولكنها حق هنا يراد بها باطل. ففي المباحثات الثلاثية، بين البعث وعبد الناصر، بعد الانفصال، في القاهرة تراءت صحتها لذهن عبد الناصر، ومرت دون مناقشة. وكأن الشعب هو الذي ارتكب جريمة الانفصال. بينما ارتكبته زمرة، حاقدة ومأجورة من الجيش، لم تستطع أن تصمد في مراكزها ثم ندمت على ما فعلت، فحاولت اصلاح فعلتها فلم تفلح، وعاش أفرادها مشردين بالنتيجة، وإن كانوا عثروا على وظائف بالسعودية.

ففي جلسة المكاشفة تلك بين البعث وعبدالناصر يبدو أنه اقتنع بفكرة أن الحزب المؤمن بالوحدة قمين بصيانتها من أخطار الانفصال. ولكن لنلقي نظرة على هذه الحقيقة، لنر إذا كانت تنطبق على حزب البعث. فالمؤمن بوحدة بلاده يبقى وحدوياً، سواء أكان في الحكم أو اقصي عنه، أو ابتعد من نفسه، وإلا كان وحدوياً بالأجر. فاذا تقاضى أجره بقي وحدوياً.

إننا نرى صلاح البيطار الذي قام بدور هام في تحقيق وحدة مصر وسوريا يوقع على الانفصال في زمرة الموقعين وفي منزل أحمد الشراباتي. ثم يعتصره الندم فيذيع تبريراً يدين تفكيره ومكنون ضميره، ويكشف رأيه في الذين قاموا بالانفصال أكثر من تمسكه بالوحدة. رجاء قراءة تبريره هذا في الملاحق.

أما أعضاء الحزب فإن أكثريتهم الساحقة كانوا إلى جانب الوحدة. فالذين لم يتعاونوا مع السراج لحمايتها من المؤامرات، بادروا بتشكيل حركة الوحدويين الاشتراكيين... بحيث لم يكن عدد أعضاء حزب البعث عندما شرع «العراقيون» يعيدون تشكيله أكثر من ثلاثماية عضو على أقصى تقدير.

الهوامش

١- وأشهد أنني كنت أسجل ضبط الجلسة التي أعلن فيها الأستاذ ميشيل عفلق حل الحزب، واحتفظت بهذا الضبط مدة أكثر من أسبوع إلى حين أرسل يطلبه مني. ولم احتفظ بصورة عنه، وإنما سجلت فيما بعد محتواه من الذاكره، وبعد زمن صودر في المداهمات مع ما صودر من أوراق الحزب بعد الأنفصال . واذكر إنني سألت الأستاذ ميشيل مرة، ألم يكن بالأمكان الأصرار على بقاء الحزب؟ فأجابني الحمد لله، إننا اضطررنا إلى حل الحزب شرف من اجل قضية اكبر ، والآن يتذكر حزبيون كثيرون أنهم سمعوا منه مثل هذا المعنى كثيراً .

هذا هو الحزب الذي أدعى أنه ما كان يجب أن ينصاع لفكرة حلّ نفسه إذا كان بقاؤه ضمانة لبقاء الوحدة . أن عدم حل حزب ما يؤمن بالوحدة ، فكرة حق ، ولكنها حق هنا يراد بها باطل . ففي المباحثات الثلاثة ، بين البعث وعبد الناصر ، بعد الانفصال. بينما ارتكبته زمرة، حاقدة ومأجورة من الجيش، لم تستطع أن تصمد في مركزها ثم ندمت على ما فعلت، فحاولت اصلاح فعلتها فلم تفلح وعاش افرادها مشردين بالنتيجة، وإن كانوا عثروا على وظائف بالسعودية.

ففي جلسة المكاشفة تلك بين البعث وعبد الناصر، يبدو أنه أقتنع بفكرة أن الحزب المؤمن بالوحدة قمين بصيانتها من أخطار الانفصال. ولكن لنلق نظرة على هذه الحقيقة لنرى اذا كانت تنطبق على حزب البعث. فالمؤمن بوحدة بلاده يبقى وحدوياً سواءً أكان في الحكم أو اقصي عنه، أو ابتعد من نفسه، وإلا كان وحدوياً بالأجر، فاذا تقاضى أجره بقي وحدوياً.

إنا نرى صلاح البيطار الذي قام بدور هام في تحقيق وحدة مصر وسوريا، يوقع على الانفصال في زمرة الموقعين، وفي منزل أحمد الشراباتي، ثم يعتصره الندم فيذيع تبريراً يدين تفكيره ومكنون ضميره ويكشف رأيه في الذين قاموا بالانفصال اكثر من تمسكه بالوحدة.

أما أعضاء الحزب، فإن أكثريتهم الساحقة كانوا إلى جانب الوحدة، فالذين لم يتعاونوا مع السراج لحمايتها من لمؤامرات، بادروا بتكبيل حركة الوحدويين الاشتراكيين ...

بحيث لم يكن عدد أعضاء حزب البعث عندما شرع «العراقيون» يعيدون تشكيله أكثر من ثلاثمائة عضو على أقصى تقدير.

٢- جلال السيد: المصدر السابق ص١٠٢- ١٠٣.

٣ جلال السيد: المصدر السابق ص١٠٦.

٤- جلال السيد: المصدر السابق ص١٣٨.

٥- منيف الرزاز: التجربة المرة ،ص ٦٣.

٦- جلال السيد: المصدر السابق ص٨٥.

٧- جورج صدقي: دورات الحزب. كتاب حزبي منع من التداول.

٨- هاني الفكيكي: اوكار الهزيمة. رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٣، ص١٥٠.

الوحدة العربية
في فكر الاستاذ ميشيل عفلق

أ.د. شفيق عبد الرزاق السامرائي

١- الوحدة وأيدلوجية البعث :

لقد كانت الوحدة العربية مركز الثقل في إيدلوجية حزب البعث العربي الاشتراكي، وفي فكر الاستاذ ميشيل عفلق. فحركة البعث « انبثقت من قلب العروبة، ومن أعماق التربة العربية، ومن صميم مشاكل أمتنا، فهي حركة صادقة أصيلة ، لها موقفها الخاص ... ولها رسالة حقيقية » (١) .

ويؤكد الأستاذ ميشيل عفلق بأن: « الوحدة كانت مطلباً للأمة العربية، منذ أن طرأت عليها التجزئة. فالبعث لم يخلق مطلب الوحدة أوهدفها لكنه أعطاه مفهوماً جديداً جعله قابلاً للتحقيق. فالوحدة في نظر البعث فكرة ثورية وعمل ثوري خلاقاً للمفهوم الذي كان سائداً (٢) ... فالوطن العربي وطن واحد ، الشعب العربي شعب واحد، وهو رغم التباعد والحواجز يتفاعل بعضه مع بعض، ويستمد بعضه من بعض القوى والقدرة والمثل»(٣).

« فمنذ حركة نصرة العراق عام ١٩٤١، يؤكد البعث إيمانه بالوحدة العربية، لأنه نشأ على حب العروبة ، فكان عربياً في الفكر والتصور والممارسة»(٤) .

فالوحدة العربية في فكر البعث تستند الى فكر قومي عربي ، يلعب الفكر فيها دوراً هاماً ، فالفكر هو الذي يخلق الوعي ويعمقه، ويجنب الانزلاق، ويوضح الطريق ويحدد معالمه، ويؤشر المستقبل بكل وضوح. والفكر عنده ليس مجرداً عن العمل وعن النضال المستمر من أجل تحقيقه على صعيد الواقع، كما أنه ليس منفصلاً عن التنظيم لذلك. يؤكد الأستاذ ميشيل عفلق أن «الفكر أساس العمل، فعندما نضمن لحزبنا الأسس الفكرية، ونعمل على توضيحها وتعميقها وتطويرها حتى يقدر الحزب أن يستوعب حاجات

المرحلة الجديدة في الثورة في كل أقطار الوطن العربي، أو في المجتمع العربي الموحد، الذي نسعى إلى تحقيقه نكون ضمنا استمرار النضال المضطرد في الحزب » (٥) .

« فالأصل والأساس في العمل الوحدوي في فكر البعث ، هو النضال الجماهيري ، والتحرك الشعبي . هذا هو المبدأ، وهو القانون الذي أثبتته تجارب السنوات الثلاثين الأخيرة » (٦) .

فالوحدة العربية في نظره : « لا تأتي عن طريق التطور التاريخي ، بل لا بد لها من خلق وتغذية يومية وتثقيف وتنظيم ، وهي أكثر الأهداف القومية احتياجاً الى ذلك كله»(٧).

« لقد راهن البعث من بدايته على عمق الاتجاه الوحدوي عند العرب في جميع أقطارهم، وعلى كون هذا التوجه يشكل أبرز سمات المرحلة التاريخية ... وخيارات البعث الفكرية وضعت بالمقاييس التاريخية لا الظرفية ، وعلى ضوء قيم التراث الخالد، ومفاهيم الحضارة العالمية المعاصرة» (٨) .

ويحدد الأستاذ ميشيل عفلق معالم فكر البعث بكونه : «تفكير عربي شامل» . . وتبعاً لذلك يرى أن التنظيم « يجب أن يكون على نطاق عربي شامل» (٩).

فالبعث لم ينشأ بفكر محلي أو قطري ، وإنما نشأ على الفكر القومي العربي ، ونظر الى الوطن العربي نظرة واحدة ، رغم الاختلافات القطرية الطارئة ، والتي مآلها الى الزوال. ويعتبر الأستاذ ميشيل عفلق ذلك : « من اسباب نجاح الحزب في الاربعينيات وعند تأسيسه ، أنه لم يعمل بأفق محلي ، ولم تقتصر نظرته على البلاد العربية ، وإنما كانت نظرته حضارية مستوعبة بشكل جيد إلى حد ما أوضاع العالم، ودرجة تطوره، ونموه والقوى المختلفة التي تؤثر في العالم الحديث»(١٠) .

« فالوعي الثوري يتطلب النظرة الشاملة الى الظروف العربية والعالمية، ويفترض التنظيم من جميع النواحي، ويفترض مستوى حاراً من النضال ، مستوى لا يقبل أنصاف الحلول ، وأنصاف التضحيات ولا يقبل الفتور» (١١) .

« فالبعث جزء من الامة ، خرج من آلامها وحاجاتها وتطلعاتها ويبقى مرتبطاً بالامة وتاريخها ومصيرها ، ويبقى وسيلة والأمة هي الغاية »(١٢) .

ويؤكد الاستاذ ميشيل عفلق بقوله « لقد نبذنا التعصب بكل انواعه والغرور والاستعلاء وضيق النظرة وضيق الأفق منذ أن اخترنا طريق البعث طريقاً للثورة. فنحن منفتحون على العالم وحضارته بل وحضاراته، مقدرون حاجتنا الى الأخذ والاقتباس،

ولكننا في الوقت نفسه نشعر بالقدرة وبالحاجة الى العطاء ، واننا نستطيع أن نضيف الى حضارة العالم شيئاً جديداً وشيئاً ثميناً، وأن لنا شخصيتنا القومية المميزة وهي طريقنا الى الانسانية ، وأن لنا خصوصيتنا وهي اسهامنا في اغناء التراث الثوري والحضاري في العالم » (١٣) .

إن الاستاذ ميشيل عفلق، يرى تحقيق الوحدة العربية مرتبطاً ارتباطاً تاماً بالانبعاث الروحي في المجتمع العربي، وشعور العرب بدورهم التاريخي، فيقول: «لا يمكن تحقيق الوحدة العربية تحقيقاً جدياً ومتيناً صامداً للزمن، إلا إذا حدث انبعاث روحي في المجتمع العربي ، إلا إذا عاد العرب فشعروا بأنهم لم يوجدوا عبثاً في الحياة ، ولم يوجدوا ليعيشوا على فضلة الآخرين وليكونوا عبيداً للآخرين ... وإنما وجدوا ككل شعب ليعطوا خير ما في نفوسهم وعقولهم، ليعيدوا للحياة ما أعطتهم إياه ، ليعبروا اكمل تعبير عن انسانيتهم »(١٤).

فالبعث حركة عربية أصيلة، ليست مقلدة للآخرين، ولا تنسخ تجارب الآخرين، وإنما هي حركة عربية، نشأت في قلب الواقع العربي، وجاءت معالجة عملية وواقعية للأوضاع العربية المتخلفة، والمجزأة والمستعمرة ،وشخصت الوضع الاجتماعي، العربي، وما تركه الاستعمار من آثار، وما تركته القطرية من أبعاد على مسيرة العمل الوحدوي، ومن عقبات ما زالت تقف حجر عثرة أمامها. لذلك نظر الأستاذ ميشيل عفلق إلى النهضة العربية بأنها يجب أن تكون « أصيلة ، جذرية ، انسانية ، لا أثر فيها للتعصب والعنصرية والطائفية، ولكل ما يحط من كرامة الإنسان » (١٥). «فالوحدة العربية عنده » هي الثورة ، ثورة على وثنية القطريات ، أي ثورة التحرير. ... ويقول « لقد ادرك الاستعمار والصهيونية هذه الحقيقة اكثر من كثيرين من العرب، لذلك فانهما يحاربان الوحدة الثورية بكل ما أوتيا من علم ووسائل وقوة»(١٦).

٢ – الوحدة والقومية العربية :

وحدة الأمة العربية والقومية العربية من أكثر الموضوعات التي أولاها الأستاذ ميشيل عفلق اهتماماً خاصاً ، فأخرجها من المفاهيم التقليدية، وأضفى عليها حيوية وديناميكية لم تكن موجودة قبل الاستاذ ميشيل عفلق في الوطن العربي.

الاستاذ ميشيل عفلق يرفض وضع تعريف محدد للقومية، لكي لا يضعها في قالب جامد ، فالقومية لديه ليست معرفه ذهنية «لانها بذلك تفقد قوة العصب وحرارة العاطفة»، بل هي «روحية سمحة » (١٧) .

ويرفض المفهوم الشوفيني والتعصبي المنغلق للقومية، فهي لديه دائماً وأبداً قوميه إنسانية، « تفتح صدرها وتظلل بجناحيها كل الذين شاركوا العرب في تاريخهم وعاشوا لغتهم وثقافتهم أجيالاً، فأصبحوا عربًا في الفكرة والعاطفة »(١٨) .

فالقومية، كما يراها الأستاذ ميشيل عفلق «حقيقة حية لا يمكن تجاهلها ، ولا يمكن إفناؤها. ولم يظهر التاريخ الانساني بعد أن القومية شيء طارئ عابر سطحي يمكن أن يتلاشى ، تبعاً لتبدل الظروف السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية ، بل إن ما يرينا إياه التاريخ ، هو أن القومية تتغلب على شتى التبدلات السياسية والاجتماعية وغيرها ، وتظل حية حتى في حالة ضعفها وتراخي روابطها وغموض وعيها لذاتها »(١٩) .

« فالقومية هي تربة الانسانية ، وهي المجال الحي لاخصابها ... فالإنسانية مرافقة للقومية ، وليست لاحقة لها ... إن مشكلتنا ليست في البرهان على وجودها وإنما في تحقيق مضمون إيجابي حي لها »(٢٠) .

ويفرق الأستاذ ميشيل عفلق بين الوحدة العربية وبين القومية العربية ، ويعتبر : « الوحدة العربية جزءً من محتوى القومية في مرحلة من المراحل ... وأن النظرية القومية تنشأ في مرحلة لتحقيق أشياء مفقودة في حياة الامة ... أما القومية العربية نفسها فهي أبداً موجودة قائمة »(٢١) .

ويصف الأستاذ ميشيل عفلق القومية بأنها ثورة ، وأنها إنسانية بل هي « ثورة إنسانية » «لانها ثورة القومية بمعناها الايجابي العميق الخلاق »(٢٢) .

«فالأمة التي حملت إلى العالم رسالة الاسلام ، لا يمكن أن تكون قوميتها سلبية ، تعصبية ، عدوانية ، فقوميتها هي في أساسها أخلاقية إنسانية تحمل مبادئ العدل والمساواة ... وانبعاث القومية العربية في هذا العصر يحمل معه بذور رسالة إنسانية إلى العالم »(٢٣).

ويؤكد الاستاذ ميشيل عفلق أن : « وحدة الأمة العربية هي في خدمة رسالتها الانسانية ، وشرط ضروري لأداء تلك الرسالة »(٢٤) .

ويرى الاستاذ ميشيل عفلق أن عهد القوميات لا يزول ، وأن العالم مقبل على عهد : « القوميات الانسانية»(٢٥).ويؤكد أن : «الانسانية هي في القومية لا قبلها ، ولا بعدها ، وليس ثمة قومية وانسانية بل قومية إنسانية ، وهي الصحيحة ، وقومية منحرفة لانها منفصلة عن الانسانية »(٢٦) . « فحركة البعث اعتبرت القومية خالدة والانسانية خالدة ، وليست إحداهما بسباقة على الأخرى ، لا في الزمن ، ولا في القيمة ، وإنما هما مظهران لشيء

واحد، وأن الانسانية هي ثمرة لنضج القومية ، هي المجال الطبيعي السليم الوحيد لتحقيق القيم الانسانية تحقيقاً حياً لا اصطناع فيه ، ولا تضليل » (٢٧).

ويؤكد الأستاذ ميشيل عفلق على العلاقة بين القومية والتقدمية ، فيرى «أن القومية في مفهوم البعث لا تنفصل عن التقدمية ، ولكنها التقدمية الأصيلة المعبرة عن تكامل الشخصية الحضارية. فاذا كان حل مشكلات المجتمع العربي في الحاضر والمستقبل يتطلب فهم هذه المشكلات بمنطق العصر ، فإن فهم البعث للاسلام ، بأنه ثورة روحية وحضارية كبرى ، يجعل من استلهام قيم الاسلام النضالية والانسانية ، ومن جرأته في الحق وصبره ، ونظرته التجديدية ، ورفضه الجمود على ما كان عليه الآباء ، ونظرته المتوازنة إلى الحياة ، إلى المادة والروح ، والطبيعة والانسان ، والدنيا والآخرة يجعل من استلهام هذا التراث أمراً ممكناً ، بل وواجباً في أي تغيير ثوري للمجتمع العربي ، يتطلع إلى بعث الامة وتجديد شخصيتها الحضارية » (٢٨) .

٣- الوحدة والمستقبل :

منذ البدايات الأولى لفكر الاستاذ ميشيل عفلق كان فكره مستقبلياً ومتفائلا بقدرات وطاقات الجماهير العربية. فقد رفض الواقع الفاسد المتخلف والمجزأ في الأمة العربية. وكان يتطلع الى قيام « أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة». ولذا فقد كان فكره ينظر إلى مستقبل الامة نظرة ملؤها التفاؤل والأمل. وكان تطلعه الى المستقبل عملياً ، فلا بد أن ينهض بأعباء هذا المستقبل الجيل الجديد في الامة العربية « جيل جديد مرشح لأن يكون قومياً ، دفعته اخطاء السياسيين ومغالاتهم الى أن يعتبر ويفكر ، وسيبقى زمناً طويلاً - اذا فهم حقيقة مهمته - في دور النضال » (٢٩)

كان ميشيل عفلق مفكراً قومياً إنسانياً اشتراكياً ذا نظرة مستقبلية متفائلة ، كان ينظر في روح الأمة، فيجدها دافقة بالعطاء والقدرة على الانطلاق الحضاري، وأنها لم تتوفر لها الشروط الموضوعية بعد التي تسمح بانطلاقها نحو المستقبل الحضاري الجديد. ونتيجة لايمانه بالمستقبل وصف البعض فكره بالمثالية، فأجاب: «مثاليتنا هي هذه الروح المتفائلة الواثقة من نفسها ومن الامة والمستقبل ... هذه المثالية هي أن نعيش في صميم هذا الوسط الذي نرى مفاسده في كل ناحية ، والذي صممنا على محاربته والظفر عليه دون أن نفقد أملنا بأن يخرج من صميم هذا الوسط نور الحياة العربية » (٣٠)

فالرغبة في تغيير الوسط الفاسد هي رغبة مستقبلية ، تحتاج إلى فكر ووعي ونضج وإيمان ونضال ، ولا تأتي عن طريق التطور البطيء بل عن طريق جيل عربي مناضل مؤمن بقدرات أمته واثق من خطواته باتجاه مستقبل الأمة الحضاري المشرق . « لقد شاء قدر امتنا وتراثها وقيمها الروحية ، وحقيقتها الإنسانية أن يعبر هذا الايمان عن نفسه بين

مجموعة من الشباب ... مثلوا على بعض أجزاء الارض العربية حقيقة النضال ، وقدسية النضال ، ومثلوا شيئاً أعمق من حقيقة وقدسية النضال ، مثلوا التفاني والتجرد وانكار الذات ، والتواضع أمام الفكرة وأمام صحوة الحق وآلام الشعب » (٣١) .

وكان الاستاذ ميشيل عفلق يرى المستقبل واضحاً أمام عينيه، هذا المستقبل الذي سيطلق المواهب الكامنة والقدرات المبدعة لدى أبناء الامة العربية . فمنذ عام ١٩٣٦ قال «في هذا العهد الجديد الذي بدت تباشير صبحه تختلج في الافق ، نريد أن تكون النهضة والاستيقاظ في كل عواطفنا الشريفة ، ومواهبنا العالية ، لا أن تنحصر اليقظة في عاطفة واحدة ضيقة » (٣٢) . والتغيير في الحياة العربية يجب أن يبدأ من الفرد، وأن يبدأ المرء التغيير في نفسه حتى يتمكن من تغيير المجتمع، فقال «ليست الشجاعة في محاربة العدو الظاهري فحسب ، بل محاربة العدو الباطني، أي أن يحارب المرء في نفسه اليأس والفتور وحب الراحة »(٣٣) .

والتغيير يرتبط بالمستقبل واقامة مجتمع عربي جديد متحرر موحد اشتراكي. وقد أكد ذلك بقوله « نعم إننا ثوريون ندعو لشكل جديد من اشكال المجتمع ، نعتقد فيه الخير وتحقيق السعادة » (٣٤) .

وبنظرته المستقبلية المتفائلة يبتدئ الاستاذ ميشيل عفلق فكره السياسي ببدء صفحة جديدة في تاريخ النهضة العربية المعاصرة: « وطي صفحة الجبناء الذين يقابلون مصائب الوطن بالبكاء، وتبدأ صفحة الذين يجابهون المعضلات العامة ببرودة العقل ولهيب الايمان، ويجاهرون بأفكارهم ولو وقف ضدهم أهل الارض جميعاً... هؤلاء هم الذين يفتتحون عهد البطولة » (٣٥) .

إن الاستاذ ميشيل عفلق كان يرى في الامة العربية قوة كبيرة كامنة، وأن حقيقتها أكبر كثيراً من واقعها، وأن هناك تناقضاً قائماً بين حقيقتها وواقعها ، وعلى الامة أن تجلو الصدأ عن حقيقتها لكي تتمكن أن تلعب دورها الانساني على الصعيد العالمي فيؤكد أن « شعارنا للمستقبل يجب أن يكون إزالة التناقض بين حقيقة الأمة وواقعها الراهن ... و « أن الثورة العربية ستكون ثورة الانسانية الجديدة » (٣٦) .

لقد حرص الاستاذ ميشيل عفلق دائماً على العمل المستقبلي الاستراتيجي للفكر العربي وللأمة العربية. ولم يكن ينظر للأمة نظرة قريبة الأمد، وإنما نظرة حضارية حية عميقة مستقبلية، تضمن استمرار الأمة بمصاف الدول المتحضرة والمتقدمة في عالمنا المعاصر. ويعطي الاستاذ ميشيل عفلق الأمة العربية الاهتمام الأكبر في فكره دون أن يفصل الامة عن العالم والانسانية ككل ، فهو يريد بناء تجربة حضارية كبيرة للأمة

العربية وللعالم. لذلك يوصي اللجنة الفكرية المنبثقة عن المؤتمر القومي العاشر للحزب بأن « مهمة اللجنة الاساسية هي تمكين الحزب في المستقبل أن يكون حزب الثورة العربية ... ولكل الامة العربية » (٣٧).

و «أن العمل الفكري يجب أن ينطلق من المستقبل، وليس من الماضي، أو الحاضر، مع الرجوع إلى الماضي والحاضر .وهذا يتطلب تحديد معالم الثورة العربية بآفاقها القومية العالمية، كما يتطلب دراسة واقع المجتمع العربي دراسة علمية دقيقة بنواحيه الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والنفسية والعلمية والعسكرية»(٣٨) .

لقد كان الاستاذ ميشيل عفلق ينظر إلى التطورات والتبدلات السياسية في العالم بأنها ذات تأثير على موازين القوى فيه ،كما ينظر الى مستقبل الثورة العربية ضمن هذه المتغيرات. فبعد حرب حزيران ١٩٦٧، يرى « أن الثورة العربية قد دخلت مرحلة جديدة تتميز بميزات على الصعيد العالمي ، فهناك تبدلات عميقة تجري في الأسس الفكرية والعقائدية والأوضاع الاجتماعية أو السياسية ،وفي موازين القوى في العالم وأن أول شرط لضمان مستقبل الثورة العربية... هو أن نعرف وضعنا في العالم »(٣٩) .

وبعد أن يستعرض الأستاذ ميشيل عفلق فشل الثورات الاشتراكية التي حدثت في العالم من بداية هذا القرن في تحقيق القفزة النوعية التي كان مأمولاً أن تحققها ، وفشلت في تحقيق التغيير النوعي في الانسان ، وكيف أن الفرصة قد ضاعت على هذه الثورات، يرى « بأننا مطالبون بأن نعتبر بهذا التوقف أو التجمد الذي أصاب الثورات الاشتراكية، والذي يجب أن نبحث عن أسبابه» ... ويرى أيضاً: « أن الزمن يسير لمصلحتنا ويعطينا أمثلة للدرس والاعتبار. ولكي نصر على استلهام الأصالة في تاريخنا، وفي روح أمتنا لكي لا نصل في يوم ما إلى طريق مسدود»(٤٠).

لقد شخص الأستاذ ميشيل عفلق، منذ عام ١٩٧٠ زعزعة الاسس الفكرية التقليدية للشيوعية ،وانها معرضة لأن يتجاوزها الزمن. وقد حدد لذلك ٢٠ او ٣٠ سنة بقوله :« في الوقت الذي تتزعزع الأسس الفكرية التقليدية للشيوعية بشكل ينذر بأن الشيء الذي سمي شيوعية منذ نصف قرن، يصبح بعد ٢٠ او ٣٠ سنة شيئاً من التاريخ ... وقد توصل الحزب إلى إدراك نسبية الشيوعية كنظرية، وبالتالي كتطبيق ونظام ، أي ليست هي الشيء الذي ليس فيه خطأ، وانما كشيء نسبي، وأنها معرضة لأن يتجاوزها الزمن » (٤١) .

ومع التبدلات الواسعة التي تحصل في العالم كانت ثقة الأستاذ ميشيل عفلق بالمستقبل كبيرة، وتستند إلى أسس موضوعية. وقد عبر عن ذلك بقوله: « في العالم وفي

الوطن العربي تغيرات وتطورات كثيرة ، جديدة، صعبة لجدتها، ولانه لم يسبق أن واجهنا مثلها ، لكننا رغم ذلك نشعر بقدر كبير من الاطمئنان ، والثقة بالنفس والتفاؤل بالمستقبل .. وأهم دواعي التفاؤل والثقة بالنفس وبالمستقبل، هو ما وصل اليه الحزب في الوطن العربي بعامة، وفي هذا القطر (العراق) بصورة خاصة، وما تميز به من نضج ومن وضوح في الفكر والعمل » (٤٢) .

ويضيف « إن تجارب اكثر من ثلاثين سنة، مرت على هذه الامة في نضالاتها ومحنها أظهرت أن الحزب ظل متميزاً ببعض الصفات التي لم تتوفر لحركة غيره ... وهذا ما يجب أن يحفزنا دوماً لكي نوجه هذه التجربة الناضجة في قطرنا العراقي ، أن نوجهها وجهة الوطن الواسع والأمة الكاملة والمستقبل العظيم الذي لا نشك أنه سيتحقق للأمة العربية » .(٤٣)

ويؤكد الاستاذ ميشيل عفلق : « أن الامة العربية تتقدم ، وأن الغد غني بالمفاجآت ، وأن عبقريتها آخذه في الانطلاق والتفجر ، وأن مظاهر التردي التي نراها لم تمنع ولن تحول دون التطور الحتمي المنتظر لأمتنا» (٤٤).

لقد عاش الاستاذ ميشيل عفلق مرحلة العدوان الايراني على العراق ، والمؤامرة الدولية التي تقف خلف إيران في القضاء على القومية العربية ،وتفتيت الوطن العربي ، وعاش جميع مراحل دفاع العراق عن القومية العربية ، وعن الامة العربية وقيمها ومبادئها، وعاش مرحلة النصر العراقي الذي هو نصر للأمة العربية .

وقد وصف الاستاذ ميشيل عفلق العدوان على العراق بأنه تحالف معادٍ للقومية العربية ، ولآمال الأمة وتطلعاتها . وقد وصف هذا التحالف بأنه : « يجمع الغرب المسيحي واليهودية الصهيونية ، والشيوعية الالحادية والعنصرية الفارسية المتسترة بالاسلام»(٤٥) ، ووصف المعركة مع هذا التحالف بأنها « : معركة المستقبل العربي »(٤٦).

وقد حدد الاستاذ ميشيل عفلق المعاني الرئيسية لمعركتنا اليوم بأنها تتجلى في النقاط التالية :

« ١ – في انتصار فكرة القومية العربية على محاولات تفتيت الأمة العربية إلى كيانات طائفية .

٢ – في كونها انتصاراً للعقل الحديث المتحرر الخلاق القادر على فهم روح العصر وروح الشعب، على العقل الخرافي المتخلف .

٣ – في كونها إنهاءً لوهم تصدير الثورات، وانتصاراً للوحدة العربية ولمفهومها الحضاري عن الخصوصية القومية .

٤ – الكشف عن استعداد شعبنا في العراق للعمل التاريخي المبدع»(٤٧)

يستخلص الأستاذ ميشيل عفلق من انتصار العراق في الحرب لحظة تاريخية تطل من خلالها على المستقبل، فيرى أن الانتصار العراقي « منطلق لتحليل القضايا الأساسية للأمة من أجل الوصول إلى قرار تاريخي يعبر عن خلاصة الوعي العربي النهضوي في هذا القرن ، لكي يبدأ من الآن مستقبل عربي مختلف نوعياً عن الأوضاع المتردية التي سادت ربع القرن الأخير ... فالمستقبل الذي تتطلع إليه الأمة العربية هو الذي يعبر عن جدارتها وجدارة عناصرها الطليعية المخلصة ، المناضلة ، بالاستخلاص السليم والعميق للدروس التي تضمنتها تجارب سني النكسات والتردي ، وهو المستقبل الذي يعبر بالتالي عن المصالح الحيوية للامة العربية ، وإرادة البقاء والارتقاء والتقدم لدى أبنائها، ويشكل بداية جديدة لاستجماع الامة لكامل وعيها وارادتها وسيطرتها على ظروفها »(٤٨).

ويستخلص الأستاذ ميشيل عفلق من المؤامرة الكبيرة على الأمة العربية هدفين أساسين هما :

«١ – البحث عن الوحدة والتضامن بدءاً بالتضامن الصحي ، الواضح الاسس والاهداف المعروض على رقابة الجماهير الواسعة ، والمبرأ من المرض والانحراف .

٢ – الديمقراطية ، فالأخطار والظروف العصيبة تفرض هذا التوجه. فلو توافرت الظروف والشروط لممارسة ديمقراطية حقه في الأقطار العربية ، لكان أول تعبير لجماهير الشعب العربي عن إرادتها الحرة ومطلبها الحيوي الاول هو الوحدة العربية »(٤٩) .

«فارادة الوحدة تعني في ضمير الشعب العربي إرادة الصمود والثقة بقدرة الامة العربية الكامنة في حالة الوحدة، أو أي صيغة قريبة من الوحدة توفر لهذا الصمود جميع مستلزماته . والديمقراطية لا يجوز أن تطرح كمجرد أمنية أو مجرد متنفس للأوضاع

الراهنة المترددية، بل يجب أن ننظر اليها في حقيقتها العميقة ، وهي أنها نضال شعبي له ثمنه الغالي وله أفقه واهدافه الاساسية »(٥٠).

ويرى الأستاذ ميشيل عفلق أن الحالة الجديدة هي مرحلة نهضة لأمة ذات ماضٍ عريق، وهي: « تشكل فرصة تاريخية لصياغة الحياة انطلاقاً من الحرية ،ومن استلهام المبادئ بشكل يتجاوز عوامل التخلف ، وعقد الماضي المتخلف ،فمفاهيم الأمة والقومية تكون مفاهيم جديدة ، مرنة ، حية ، واقعية وأصيلة . ويصبح مفهوم الأمة مرادفاً للثقافة ، وهي ثقافة عربية إسلامية تحمل القيم الانسانية للإسلام، وتكون حدودها حدود الوطن العربي ، ويتسع مفهوم القومية فيستوعب الخلافات والفروق بين الأقطار ليحتفظ بالإيجابي منها ويتجاوز السلبي ، ويكون مستنداً إلى المشاعر الشعبية العميقة والأصيلة، المكتملة بالوعي الناضج الذي يبني مفهوماً جديداً يسعى لأن يحقق أكبر قدر من التضامن والوحدة »(٥١)

الهوامش :

١- ميشيل عفلق: البعث حركة تاريخية ، في سبيل البعث، الجزء الأول، ص٤٧ .

٢- ميشيل عفلق: وحدة مصر وسوريا، في سبيل البعث، الجزء الأول، ص ٢٤٧ .

٣- ميشيل عفلق: الشعب العربي الواحد، في سبيل البعث، الجزء الأول، ص ٢٥٨ .

٤- ميشيل عفلق: الديمقراطية والوحدة عنوان المرحلة الجديدة ، كلمته، في ٧ نيسان١٩٨٩، ص ١١.

٥- ميشيل عفلق : حزب الثورة العربية، في سبيل البعث ، الجزء الخامس ، ص ٤٥ .

٦- ميشيل عفلق : الديمقراطية والوحدة عنوان المرحلة الجديدة ، كلمته في ٧ نيسان ١٩٨٩ ، ص ١٥.

٧- ميشيل عفلق : لا بد للوحدة من موقف ثوري ونضال يومي ، في سبيل البعث ، الجزء الثاني ، ص ٢٤٠ .

٨- ميشيل عفلق : « الديمقراطية والوحدة عنوان المرحلة الجديدة ، » كلمته في ٧ نيسان ١٩٨٩ ، ص١٣.

٩- ميشيل عفلق : « الحركة الفكرية الشاملة »، في سبيل البعث ، الجزء الأول ، ص ٤٢ .

١٠- ميشيل عفلق : « حزب الثورة العربية »، في سبيل البعث ، الجزء الخامس ، ص ٤٧ .

١١- ميشيل عفلق: « وحدة النضال في المغرب العربي » في سبيل البعث ، الجزء الأول، ص ٢٢٦.

١٢- ميشيل عفلق: « البعث وتحديات المستقبل» كلمته في ٧ نيسان ١٩٧٧ ، في سبيل البعث، الجزء الثالث، ص١١٩٠ .

١٣- ميشيل عفلق : « المصدر السابق»، ص١٢٥ .

١٤- ميشيل عفلق « نظرتنا للوحدة العربية » في سبيل البعث ، الجزء الأول ص ٢٠٩ .

١٥- ميشيل عفلق « الديمقراطية والوحدة عنوان المرحلة الجديدة» حديثه في ٧ نيسان عام ١٩٨٩.

١٦- ميشيل عفلق: « البعث وتحديات المستقبل» كلمته في ٧ نيسان ١٩٧٧ ص ١٢٧ .

١٧- ميشيل عفلق – القومية حب قبل كل شيء – في سبيل البعث – الكتابات السياسية الكاملة – الجزء الأول، ص١٣٣ .

١٨- ميشيل عفلق : القومية حب قبل كل شي ، المصدر السابق ، ص ١٣٤.

١٩- ميشيل عفلق : « القومية حقيقة حية ذات مضمون إيجابي إنساني» ، في سبيل البعث ، الكتابات السياسية الكاملة ، الجزء الثاني ، ص٢٣ .

٢٠- ميشيل عفلق : القومية حقيقة حية ... المصدر السابق ، ص ٢٤-٢٦ .

٢١- ميشيل عفلق : المصدر السابق .

٢٢- ميشيل عفلق : « هذه الوحدة ثورة عربية وثورة عالمية وضمانها في استمرار ثوريتها »، المصدر السابق ، الجزء الثاني ٢٢٠ .

٢٣- ميشيل عفلق : « التراث عزز صمود الامة وأعطى الثورة مستواها العالمي» ، كلمته في ٧ نيسان ١٩٧٦ ، الجزء الثالث ، في سبيل البعث ، ص١١٦ .

٢٤- ميشيل عفلق : المصدر السابق ، ص ١١٧.

٢٥- ميشيل عفلق : المصدر السابق ، الجزء الاول ، الشعب العربي الواحد ، ص ٢٤٥ .

٢٦- ميشيل عفلق : وحدة النضال في المغرب العربي ، في سبيل البعث ، الجزء الاول ، ص ٢٣٢.

٢٧- ميشيل عفلق : الوحدة ثورة تاريخية ، في سبيل البعث ، الجزء الأول ، ص٢٦٤ .

٢٨- ميشيل عفلق : « العراق قدر بطولي » ، كلمته في ٧ نيسان ١٩٨٧ ، ص ٧٥ .

٢٩- ميشيل عفلق : المثالية والواقعية عام ١٩٤٣ ، في سبيل البعث ، الكتابات السياسية الكاملة، اصدار دار الحرية للطباعة بغداد، الجزء الاول، ص ٢٣ .

٣٠- ميشيل عفلق : « المثالية الموهومة عام ١٩٤٣» في سبيل البعث ، المصدر السابق، ص ٢٢ .

٣١- ميشيل عفلق : « الإيمان ١٩٤٣»، في سبيل البعث ، المصدر السابق ص ٢٠ .

٣٢- ميشيل عفلق : « عهد البطولة ، تشرين الأول ١٩٣٥» في سبيل البعث، المصدر السابق ص١٦.

٣٣- ميشيل عفلق : « عهد البطولة»، المصدر السابق ، ص ١٦ .

٣٤- ميشيل عفلق: «ثروة الحياة» عام ١٩٣٦، في سبيل البعث، المصدر السابق، ص ١٧.

٣٥- ميشيل عفلق : عهد البطولة، المصدر السابق ص ١٥ .

٣٦- ميشيل عفلق : قضية المؤامرة، مؤامره التسوية / كلمته في ٧ نيسان ١٩٧٨ ، في سبيل البعث / الجزء الثالث، ص ١٥٤ .

٣٧- ميشيل عفلق : حزب الثورة العربية ، في سبيل البعث ، الجزء الخامس ص ٤٥ .

٣٨- ميشيل عفلق : المصدر السابق، ص ٤٥ .

٣٩- ميشيل عفلق : « حزب الثورة العربية » في سبيل البعث، الجزء الخامس، ص ٤٦ .

٤٠- ميشيل عفلق « الحزب تسوده روح الاسرة الواحدة » ، في سبيل البعث ، الجزء الخامس ص٥٧ .

٤١- ميشيل عفلق: حزب الثورة العربية، في سبيل البعث ، الجزء الخامس ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

٤٢- ميشيل عفلق : الحزب تسوده روح الأسرة الواحدة ، في سبيل البعث ، الجزء الخامس ص٥٦ .

٤٣- ميشيل عفلق : الحزب تسوده روح الأسرة الواحدة ، في سبيل البعث ، الجزء الخامس ص٥٧ .

٤٤- ميشيل عفلق : المصدر السابق ، ص ٥٨ .

٤٥- ميشيل عفلق – معركة المستقبل العربي / في سبيل البعث ، الجزء الثالث ص ١٨٢.

٤٦- ميشيل عفلق : المصدر السابق، ص ١٨٢ .

٤٧- ميشيل عفلق : « معركة المستقبل العربي» ، كلمته في ٧ نيسان ١٩٨١ ، الجزء الثالث، ص ١٨٣ .

٤٨- ميشيل عفلق : « العراق قدر بطولي » ، كلمته في ٧ نيسان ١٩٨٧ ، الجزء الخامس، ص٦٧-٦٨.

٤٩- ميشيل عفلق : العراق قدر بطولي – كلمته في ٧ نيسان ١٩٨٧ الجزء الخامس – ص ٧٢.

٥٠- ميشيل عفلق – المصدر السابق ص ٢٧ .

٥١- ميشيل عفلق – العراق قدر بطولي – كلمته في ٧ نيسان ١٩٨٧ الجزء الخامس ص ٧٧ .

الفصل الثالث

حزب الاستقلال العراقي

١٩٤٦-١٩٥٨

التجربة الفكرية والممارسة السياسية

أ. عبد الله الجيزاني

نشوء التجمع القومي :

لم يمتلك التيار القومي في العراق حزباً مستقلاً في التجربة الحزبية، منذ قيام المملكة العراقية عام ١٩٢١ . ولكن العديد من الشخصيات التي كانت تعمل في الأحزاب، قيادات وأعضاء كانت محسوبة على التيار القومي، ولها اتصالات قومية، وانصب عملها في ذلك من أجل وحدة الأقطار العربية وتحررها ، وبدأ هذا الاتجاه واضحاً بعد استقلال العراق (الشكلي) ، ودخوله عصبة الامم عام ١٩٣٢ ، حتى شكل العراق مركز الثقل في الدعوة العربية . وقد توجهت إليه أنظار أحرار العرب من مختلف الأقطار العربية ، وغدا العمل العربي الشعبي المشترك سمة المرحلة تلك، وكانت هذه الأعمال غالباً ما تحصل على تشجيع الملك فيصل الأول ومساعديه .

لا شك أن عدم تأسيس حزب قومي عربي واضح الأهداف ، يعود إلى طبيعة الأوضاع العامة آنذاك ، حيث لم تسمح بظهور الحزب القومي . ومرد ذلك أن القوميين قد انغمروا في اللعبة السياسية اليومية ، والمشاركة في الصراع الدائر مع الإنكليز ، من أجل تحقيق الاستقلال التام ، والخروج من دائرة الهيمنة الاستعمارية . فحزب الشعب ، ثم حزب الإخاء الوطني ، انتمى اليهما ممثلوا التيار القومي . ولكننا نجد أن هذين الحزبين ، قد تشكلا لضرورات الصراع الحزبي، ضمن التكتلات البرلمانية . فتشكل حزب الشعب معارضاً لحزب التقدم والإخاء ، ليشكل المعارضة لحزب العهد ، حزب نوري السعيد . وقد كانت بدايات ظهور التجمع القومي الحديث ، حول نادي المثنى بن حارثه الشيباني ، الذي افتتح في بغداد ، بتاريخ ٢٥ نيسان/ ابريل عام ١٩٣٥ . وقد حصل النادي على ترخيص رسمي بمزاولة نشاطه في عهد وزارة ياسين الهاشمي الثانية . وهو (منتدى ثقافي فكري اجتماعي) ، تقام فيه الندوات والمحاضرات الثقافية والتاريخية والاجتماعية . وقد أسس النادي مجموعة من الشباب المثقف ، حيث أصبح الدكتور صائب شوكت رئيساً له ، بينما

كان السيد محمد مهدى كبة نائبا للرئيس(١) .وكان أعضاء النادي في الأغلب من القوميين المناهضين للسياسة الاستعمارية . وقد لخص محمد مهدي كبة أهداف النادي في مذكراته : «بعث الروح القومية بين أبناء الشعب، وإيقاظ شعور المواطنة العربية العامة في نفوسهم، والعمل على إحياء التراث القومي، ونشر الثقافة العربية بين أفراد المجتمع، الى غير ذلك مما يخلق في الشباب روح الاعتزاز بقوميته وماضي أمته»(٢).

وتطرق النظام الداخلي للنادي إلى ضرورة تأسيس النادي، وضرورة القيام بالتصدي للأفكار الغربية التي بدأت تنتشر في المجتمع: « مما جعل فريقاً من شباب العرب، يشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقهم نحو أمتهم، ونحو الأقطار العربية المختلفة من بلادهم، ونحو الأجيال التي لم تولد بعد من أبناء العرب، فأنشأ نادياً يضم الجمع ويلم الشمل، ويوحد الجهد، ويؤلف القلوب للعمل وراء إنماء الروح القومية، والمحافظة على تقاليد العرب، وتقوية الرجولة العربية». (٣).

وقام النادي بنشر كتيبات ومقالات احتوت على أفكار وآراء عديدة مناوئه للبريطانيين والصهاينة(٤). وأصدر مجلة أسبوعية تحت عنوان (المثنى). كذلك أصدر كتاباً بعنوان (هذه أهدافنا من آمن بها فهو منا). وهو عبارة عن موضوعات تعنى بالفكر القومي العربي، وتأخذ منحى رومانسياً في الدعوة القومية. ومؤلف الكتاب الدكتور سامي شوكت(٥).ولكننا نجد تبلوراً كاملاً في الأفكار لدى أوضح ممثلي التجمع القومي، وأكثرهم نشاطاً، وهو الشهيد محمد يونس السبعاوي، الذي لعب دوراً بارزاً ومهماً في حركة مايس (آيار) عام ١٩٤١ التحررية، كما لعب من قبل دوره على صعيد بلورة تكتل الضباط القوميين فيما بينهم، وبين المدنيين القوميين. وفي محاضرة القاها السبعاوي في نادي المثنى عام ١٩٣٥، بعنوان (الوعي القومي)، يخلص الى أن «رسالة القومية في المشرق هي التحرير، إنها تعبير عن عاطفة نبيلة ترفض الذل، وترفض استغلال البشر، وهي في الغرب مشوبة بميل نحو الاستعمار، ونحو التحكم بالآخرين، إنها في المشرق دفاعية، وهي في الغرب أمست عدوانية»(٦) .

وفي عام ١٩٣٦ تشكلت (جمعية الدفاع عن فلسطين) برئاسة العميد طه الهاشمي، وتألفت الهيئة الإدارية للجمعية من الشخصيات القومية ، أمثال سليمان فيضي، سعيد الحاج ثابت، الشيخ نجم الدين الواعظ، محمد مهدي كبة وآخرين. وأخذت الجمعية بناية نادى المثنى مقراً لها لإقامة الندوات والاجتماعات والخطب والبيانات حول القضية الفلسطينية. وكانت تقوم بجمع التبرعات، وتحويلها إلى المجاهدين العرب في فلسطين. وقد قام السادة محمد مهدي كبة وسعيد الحاج ثابت، وعيسى طه أعضاء الجمعية بزيارة الى النجف ، لكي يجتمعوا بالعلماء ورجال الدين ، ومن خلال اللقاءات قام الوفد بتوضيح تطورات القضية الفلسطينة ، والأخطار المحيقة بفلسطين والبلاد العربية . وحصل وفد

الجمعية على فتاوى ونداءات لانقاذ فلسطين ، وكذلك فعل علماء بغداد ، فكان أحسن الأثر في إقبال الناس على التبرع بالمال والاهتمام بهذه القضية .

ونظراً لجسامة الأحداث التي مرت بها الأمة العربية ، وخاصة قضية فلسطين، وتصاعد أحداثها ، فقد اتجهت أنظار القوميين إلى الجيش ، كونه القوة الوحيدة المؤهلة للتحرير والمحافظة على الاستقلال الوطني المنشود . فما خلقته ممارسات المستعمرين والصهيونية من تحدٍ لمشاعر القوميين ، قد أعطتهم مجالاً واسعاً للتفكير بهذه القوة ، التي تشكل دعامة قوية لحماية الأمة والدفاع عن أراضيها . ولهذا فقد التفت شخصيات التجمع القومي من حول قيادات شابة قومية، استطاعت ان تكون لها مراكز قوى داخل الجيش منذ منتصف الثلاثينيات . كما أننا نرى أن الجيش العراقي أصبح قوة متطورة منذ عام ١٩٣٠ ، حيث بدأت الحكومة في التوسع بملاكاته وتسليحه فأدخل نظام التجنيد الاجباري عام ١٩٣٤ ، وأخذ الكثيرون من أبناء الطبقة المتوسطة يلتحقون بالكليات العسكرية ، ويصلون الى صفوف الضباط الصغار . وبذلك أصبح الجيش العراقي قوة وطنية كبيرة(٧) .

وقد حلل السبعاوي ، أحد أعضاء التجمع القومي ، الموقف السياسي السائد آنذاك ، حيث ذكر «أن في العراق ثلاث قوى ، الجيش والعشائر ، والأحزاب ، ولا بد من أن تقوم إحدى هذه القوى الوطنية بتوجيه السياسة العراقية . أما العشائر فهي قوى غير نظامية ، ولا يمكن تكليفها أو الاعتماد عليها بتسيير سياسة المملكة ، لأنها خاضعة لزعامات كثيرة ومتنافرة ، وليس من السهل تآلفها أو اجتماعها في كتلة سياسية منظمة . وأما الأحزاب فليست قوة سياسية ذات أثر فعال . فلم يبقَ اذن قوة منظمة في البلاد غير الجيش ، وهذه بطبيعتها العسكرية خالصة من الفوضى التي تخضع لها القوى الأخرى»(٨) . وقد ساعدت الأحداث على أن يكون الجيش القوة الوحيدة في البلاد . ففي تلك الفترة قامت العشائر بعدة انتفاضات مسلحة استطاع الجيش القضاء عليها .

وبتأثير الأجواء السياسية السائدة آنذاك ، تمكن الضباط القوميون من توسيع دائرة نشاطهم ، حيث تطورت مفاهيمهم وأهدافهم نتيجة احتكاكهم بمجموعة العمل القومي من الشخصيات القومية والفكرية، وخاصة من أبناء الأقطار العربية . وقد أدت جميع التحركات إلى إيجاد كتلة قومية متميزة داخل الجيش ، أصبح تأثيرها واسعاً في سياسة البلاد لاحقاً . ويؤكد الشهيد صلاح الدين الصباغ في مذكراته، على أن التنظيم السري الذي تآلف في تلك الفترة ، إذ مهدت له عدة لقاءات سياسية لاقطاب العمل القومي ، أسهم في تلك اللقاءات القادة الأربعة ، إضافة إلى طه الهاشمي ، ورشيد عالي الكيلاني ، والمفتي امين الحسيني (٩) . وهم :(العقيد صلاح الدين الصباغ، والعقيد فهمي سعيد ، والعقيد

محمود سليمان، والعقيد كامل شبيب). ومنذ ثورة فلسطين في عام ١٩٣٦ ، وقبيل نش ـب الحرب العالمية الثانية ، لجأ عدد كبير من الثوار العرب الذين استقبلتهم بغداد . وقد ١٠ ـهم دوراً بارزاً ومهماً في توجيه السياسة في العراق . ومن أبرز هؤلاء وأنشطهم سطين الحاج محمد أمين الحسيني ، الذي أقام علاقات وثيقة مع شخصيات ـقومي العسكريين والمدنيين(١٠) . فمنذ قدوم المفتي وطيلة إقامته في بغداد ، ـجمع حوله العديد من الشخصيات القومية العربية ، وتمكن المفتي من تشكيل (لجنة للتعاون بين البلاد العربية) ، وضمت هذه اللجنة رشيد عالي الكيلاني وناجي شوكت وشكري القوتلي وعادل ارسلان وزكي الخطيب من سورية، ويوسف ياسين وخالد اهلود من العربية السعودية (١١).

مما لا شك فيه ان القوميين في الفترة الواقعة بين الحربين قد مارسوا نشاطاً مكثفاً في العراق . وتجسد هذا النشاط من خلال العمل السياسي المنظم الذي تطرق اليه العديد من الشخصيات المساهمة بأعباء ذلك النشاط كالشهيد صلاح الدين الصباغ وناجي شوكت وطه الهاشمي ومحمد صديق شنشل وغيرهم. واختلفت الأساليب التي عبر فيها القوميون عن نشاطهم . لقد عبر التجمع القومي ، ومن خلال جميع أنشطته وفعالياته المختلفة ، عن حقيقة ما يجول في خاطر العرب إزاء الأخطار التي تواجهها الأمة العربية من أعدائها . وكان جل اهتماماته هو إبراز الشخصية العربية المستقلة . فقد كان طابع الصراع عنيفاً مع الاستعمار وسياساته، لذلك فقد تصدى التجمع القومي بحزم إلى الأفكار والتوجهات الصهيونية الاستيطانية في فلسطين، وحازت قضية فلسطين على جميع إهتماماته آنذاك. ومن خلال الشعور القومي المتصاعد الذي أسهمت الظروف العامة في تكوينه، قام الضباط القوميون وبدعم ومساهمة الشخصيات القومية والجماهير بحركة مايس التحريرية عام ١٩٤١ ، وتشكيل حكومة الدفاع الوطني، برئاسة رشيد عالي الكيلاني. وقد شكل هذا العمل تحدياً مباشراً لبريطانيا ومصالحها ، مما دفعها للتحرك السريع عبر مختلف الوسائل للقضاء على الحركة التحريرية ، وإعادة أنصارها الى دست الحكم ثانية .

حزب الاستقلال العراقي ١٩٤٦-١٩٥٨

المقدمـــــة :

من خلال سيرة حزب الاستقلال الذي تأسس ضمن مجموعة من الأحزاب العلنية التي أجازتها وزارة توفيق السويدي عام ١٩٤٦ ، فقد أصبح ممثلاً للتيار القومي ، واستقطب غالبية العناصر المؤمنة بالاتجاه القومي آنذاك . ومن خلال صراعه مع

الحكومات المتعاقبة على الحكم ومناوئته للاستعمار ، اكتسب اهمية واسعة . وعند دراسة تجربة الحزب النضالية ، ومتابعة ممارساته السياسية والفكرية، فإن الهدف من ذلك هو إحياء ذكرى هذه التجربة الوحدوية ، والتي أسهمت باغناء الحياة السياسية العراقية، وتركت آثارها على تطور نضالات الحركة الوطنية العراقية والعربية آنئذ .

لقد حاز حزب الاستقلال على ثقة الجماهير القومية في العراق آنذاك. وشكلت ممارساته السياسية تجربة مهمة في الحياة السياسية العراقية على الصعيد النظري والفكري والتنظيمي . وتأتي تلك الأهمية لتجربة حزب الاستقلال من أسبقيته في التصدي لحمل لواء المنهج القومي الوحدوي في العراق .

١ – تأسيس حزب الاستقلال العراقي :

قدم كل من السادة : محمد مهدي كبة ، وداود السعدي ، وخليل كنة ، وإسماعيل الغانم ، وفاضل معلة ، وعلي القزويني ، وعبد المحسن الدوري، ورزوق شماس ، وعبد الرزاق الظاهر ، طلباً إلى وزارة الداخلية لتأسيس حزب الاستقلال، بتاريخ ١٢ آذار / مارس عام ١٩٤٦ . وكان ضمن مقدمي الطلب : محمد فائق السامرائي، ومحمد صديق شنشل .

ولكن وزير الداخلية سعد صالح ، أشار على رئيس الهيئة التحضيرية استبعادهما خوفاً من إثارة السلطات العليا ، فيما لو وجدت اسميهما مع طلب التأسيس، لكونهما غير مرغوب فيهما من قبل البلاط والانكليز ، نظراً لاشتراكهما في حركة ١٩٤١ ، وقد صادقت وزارة الداخلية على النظام الأساسي المرفق بطلب التأسيس لهذا الحزب ، وعلى نظامه الداخلي أيضاً ، وذلك بكتابها الصادر في ٢ نيسان / ابريل عام ١٩٤٦ . ويحدثنا محمد مهدي كبة في مذكراته عن مرحلة الإعداد لتأسيس الحزب فيقول : «اتصل بي فريق من الشباب المثقف، ممن أسهموا في كثير من الحركات الوطنية ، وتمرسوا في أعمال الكفاح والنضال ، ولم تشب ماضيهم شائبة ، وقد خرج قسم منهم تواً من السجون والمعتقلات لمواقفهم الوطنية، وطلبوا الي الاشتراك وأياهم في تأسيس حزب وطني قومي يعمل في الحقل الوطني على إستكمال سيادة البلاد واستقلالها ، وتحررها من كل نفوذ أجنبي ، ويدعو إلى الإصلاح في مختلف نواحي الحياة على أسس ومبادئ تقدمية اشتراكية . ويعمل على الصعيد القومي في سبيل تحرير البلاد العربية التي لا تزال تئن تحت نير الإستعمار . ويسعى إلى تحقيق أمنية العرب الكبرى ، وأملهم المنشود في توحيد البلاد العربية التي جزأها الاستعمار ، وشتت شملها ». وحول بداية التفكير في إقامة الحزب ، يقول محمد صديق شنشل : «بدأ التفكير في تأسيس حزب الاستقلال أيام كان القوميون

أعضاء نادي المثنى في المعتقلات ، إثر فشل حركة ١٩٤١ . وكان فائق السامرائي صاحب الفكرة والداعي لها (١٢) . وعلى ما يبدو أن فائق السامرائي، وصديق شنشل، ومحمد مهدي كبة، واسماعيل الغانم وخليل كنة، كانوا أكثر أعضاء الهيئة التحضيرية حركة، ونشاطاً من أجل تأسيس اللحزب ، ودعوا العديد من الشخصيات القومية للانتساب الحزب والإسهام بمجهوده السياسي . وكانت نواة الحزب الأولى من العناصر الوطنية المتطرفة بنظر السلطات العراقية والانكليز . تلك العناصر الشابة المثقفة ، التي خرج معظمها من المنافي والسجون والمعتقلات لمناهضتهم السياسة الاستعمارية(١٣) . وقد انتمى للحزب أعضاء التنظيم القومي العربي السري السابق، ومجموعة من أعضاء نادي المثنى المغلق ، بالاضافة الى أعداد كبيرة من الشباب القومي من طلبة الكليات والمعاهد والمدارس الثانوية . وبلغ عدد أعضاء الحزب في فترة من الفترات (٣٨) ألف منتسب(١٤). وأثناء مسيرته في الحياة السياسية العراقية ، قام بالعديد من النشاطات والأعمال التي كان يتوخى من خلالها نشر مبادئه وأهدافه القومية . وكان مؤمنا بأن الأمة العربية هي حقيقة تشكل غايته التي يسعى الى توحيد أقطارها . وتركزت اهدافه في ضرورة العمل على تحرير الأرض العربية ، وطرد المستعمرين عنها . وقد واجهت الحزب، أثناء عمله النضالي ، مشاكل متعددة ، كان منها ما سببته السلطات، وكان منها ما سببه انجراره الى صدامات وصراعات سياسية مع الأحزاب الأخرى التي أجيزت في فترة وجوده، بسبب مواقف سياسية كان قد اتخذها . اذ كانت الآراء حوله مختلفة من الاصدقاء والأعداء ، وقد وصفه «لونكريك» بهذه العبارة: «ان حزب الاستقلال اعتمد في سياسته الخارجية على مفتي فلسطين ، كما كان يتلهف في أهدافه الداخلية الى الاصلاح الاجتماعي »(١٥). ويقول: كامل الجادرجي في مذكراته « ان نظرة السلطات الى حزب الاستقلال كانت سيئة جداً ، إذ أن البلاط ومن ورائه الإنكليز يمقتون هذا الحزب أشد المقت، لاعتقادهم بأنه الخلف الحقيقي لنادي المثنى الذي كانت له اليد الطولى في إثارة حوادث مايس ١٩٤١». (١٦) . واتهم بعض الكتاب الحزب باليمينية ، كما اتهم بالنازية(١٧) . ان هذه التهم قد أضفتها عليه السلطات الحاكمة والإنكليز ، لتشويه نضالاته ، وإيجاد ذرائع للقضاء عليه ، فحزب الاستقلال بعيد كل البعد عن هذه الاتهامات ، فهو حزب قومي ، يغلب عليه الطابع الإصلاحي في جميع أعماله . وهو معاد للاستعمار ، ولم يتوان عن ذلك طيلة وجوده في الواقع السياسي العراقي . وقد تطورت مفاهيمة وأساليبه خلال الصراع اليومي مع الحكومات والبلاط والمستعمر ، فاختلفت نظرته في التعاون الحزبي بينه وبين الأحزاب الوطنية الأخرى. كذلك تصلبت بنيته التنظيمية ، وأخذت جماهيريته تتسع بشكل كبير ، كلما حقق نجاحاً في معركته التي قام بها ضد السلطات الحاكمة . «إن حزب الإستقلال هو حزب بورجوازي، حيث ان قيادته وأعضاءه هم من الطبقة البورجوازية المثقفة . ولذلك كان عمله مقتصراً

على رفع المذكرات والاحتجاجات إلى البلاط الملكي ، وكان تنظيم الحزب علنياً، ولا يؤمن بالعمل السري ، وفي فترات انعدام العمل الحزبي كان يعمد الى ايقاف نشاطه ».(١٨) . ولا شك أن هذا القول بعيد عن الواقع كثيراً ، واعتقد ان الباحث لم يبذل جهداً في تقصي الحقائق. إننا نرى أن غالبية قادة وأعضاء حزب الاستقلال من البورجوازية المتعلمة (١٩). ومن خلال البحث وجدنا ، أن حزب الاستقلال لم يكتف بكتابة المذكرات والبيانات فحسب ، بل أغنى الساحة العراقية بنشاطاته وإسهاماته الوطنية والقومية المتعددة . وبقي منذ تأسيسه حزباً علنياً يعمل بموافقة السلطات ، ولم يجمد نشاطه، حتى صدور قانون الجمعيات عام ١٩٥٤ . وقد استمر عمله بعدها بصورة سرية ، وشارك مع أطراف الحركة الوطنية في التصدي للأحداث التي جرت في البلاد . وكان أعضاء قيادته ومراتبه معرضين دوماً للاعتقال والمطاردة ، شأنهم شأن قادة وجماهير الأحزاب الوطنية الاخرى .

لم يخف رجال حزب الاستقلال وهم الوريثون الحقيقيون لحركة مايس التحررية ، خيبة أملهم بكل القوى ، وذلك لعدم مساندتهم وتأييدهم للحركة المناهضة للإنكليز . وعليه بقيت العلاقات متوترة، يشوبها نوع من الكراهية ، بالإضافة إلى ان القوميين ، ومن تجربتهم النضالية الطويلة التي يكتنفها مزيد من العاطفة تجاه موقفهم من الوحدة العربية التي هي غايتهم القصوى، تولدت لديهم حساسيات من الذين عارضوا أو وضعوا بعض «الشروط العلمية» إزاء أطروحة الوحدة . ولكننا نرى حزب الاستقلال يعمل سوية مع الأحزاب الوطنية في لجنة الأحزاب العراقية للدفاع عن فلسطين عام ١٩٤٦ ، ويسهم في وثبة كانون الاول عام ١٩٤٨ ، وانتفاضة عام ١٩٥٢ ، وفي الجبهة الانتخابية عام ١٩٥٤ . وقد تعاون تعاوناً وثيقاً مع الحزب الوطني الديمقراطي ، منذ عام ١٩٥١ ، وقاد المظاهرات عام ١٩٥٦ ، استنكاراً للعدوان الثلاثي على مصر ، وانضم الى جبهة الاتحاد الوطني عام ١٩٥٧ . وكان رئيس الحزب محمد مهدي كبة، يرى ضرورة التعاون بين القوى الوطنية من أجل تحقيق المكاسب الوطنية . لأن أي حزب مهما يكن حجمه ، لن يستطيع بمفرده أن يحرز نصراً على السلطات القمعية : «والحزب يدرك كل الادراك، بأنه لا يستطيع بمفرده أن يجابه خصومه وأعداءه الأشداء من رجال الطبقة الحاكمة ، بكل ما لديهم من قوى وامكانيات ، ومن ورائهم النفوذ الأجنبي الذي يحميهم ويمدهم بكل أسباب القوة . وليس باستطاعة الحزب وحده أن يزيح هذا الكابوس الأجنبي المنيخ على صدر البلاد . وبهذه الروح ، وهذا المنطلق المستقيم ، تعاون الحزب في مناسبات مختلفة ، ضمن جبهات وطنية مع أحزاب ومنظمات سرية وعلنية على اختلاف مبادئها وآرائها لتحقيق أهداف مشتركة (٢٠). وعلى الرغم من الخلافات والصراعات الفكرية والسياسية آنذاك ، تمكن حزب الاستقلال من العمل مع كل القوى الوطنية .

إن حزب الإستقلال ، وخلال فترة وجيزة من تأسيسه ، أصبح ممثلاً للتيار القومي ، وكافح بصلابة من أجل حقوق قطاعات كبيرة من الشعب العراقي ، وواجه بذلك تعنتاً وإرهاباً شديدين من قبل السلطات الحاكمة طيلة مسيرته . يقول كبة :«لقد أخذت مختلف الجهات التي تسيطر على سياسة البلاد وحكمها ، تنظر إلى حزب الاستقلال بعين الحذر والارتياب ، وتتوجس منه ومن نشاطه خيفة . ومن هنا أخذت معظم العناصر الوطنية المتحمسة والشباب المثقف تلتف حوله ، وصار ينمو بسرعة، ويتكاثر المنتمون اليه بصورة مطردة . وتألفت له الفروع ، في معظم الحواضر العراقية بصورة رسمية ، وغير رسمية . وكان نفوذه بين مختلف الطبقات الشعبية ، وبين طلاب المدارس لا يعدله نفوذ آخر . فكان كلما أشتد ساعده وقوي نفوذه ، زاد تنكر السلطات له ، وتضاعفت اجراءاتها لمقاومته»(٢١). ومما لا شك فيه أن حزب الاستقلال قد تمكن من تمثيل التيار القومي خير تمثيل ، وعبر عن آرائه وأهدافه خير تعبير ، ضمن مجموعة من الأحزاب الممثلة للقوى الاجتماعية والطبقية في العراق .

٢ – التكوين الطبقي والاجتماعي لأعضاء حزب الاستقلال :

تجمع مؤسسو حزب الإستقلال العراقي ، أيام النضال السياسي، في منتصف الثلاثينيات، حول نادي المثنى ، ذلك المنبر القومي الذي شكل محوراً نضالياً، التفت حوله نخبة سياسية قومية . وكان عمل هذا النادي هو إقامة الندوات السياسية والمحاضرات الفكرية ، بالإضافة إلى القيام بتعريف أعضائه بما يدور في أجزاء الوطن العربي ، فقد انضم إليه جمهور كبير من الشبان ، وخصوصاً طلاب المدارس والجامعات. وساعد النادي في إيجاد روابط وصلات بين الشباب القومي المتحمس، والمتشبع بالأفكار الوحدوية القومية ، لتعزيز أواصر الصداقة، والمعرفة فيما بينهم. وحينما تحرك الضباط القوميون ضد السياسة الاستعمارية ، اندفع الشباب القومي لمساندة تلك الحركة ، فكان للعديد منهم أدوار أساسية في حكومة الدفاع الوطني التي شكلها رشيد عالي الكيلاني ، وبمجريات الأحداث خلال الصدام المسلح مع القوات البريطانية من بعد. ويعد حزب الاستقلال وريث التجربة النضالية، لنادي المثنى وحركة مايس بكل أبعادها . وعلى هذا فقد تكونت لحزب الاستقلال قيادة تاريخية منذ تأسيسه ، وحتى ضعف نشاطه وانقسامه . وتعد الفترة الواقعة بين ١٩٤٦–١٩٥٨ الفترة الأساسية التي تنامت نشاطاته فيها في كل المجالات. وكان السيد محمد مهدي كبة رئيساً تاريخياً للحزب، ولعب السيدان محمد فائق السامرائي نائب الرئيس ، ومحمد صديق شنشل المعتمد العام دوراً بارزاً في مسيرة

الحزب . وجميع مراحل عمل الحزب ، بما لها وما عليها من فشل ونجاح ، تعد من صنع هؤلاء الثلاثة ، وبمساعدة القليل من القياديين الذين رفدوا قيادة الحزب .

إن غالبية الأعضاء الذين تشكلت منهم أول هيئة عليا للحزب ، هم شريحة مثقفة من الطبقة البرجوازية ، ومن المراتب الوسطى في المجتمع ، وغالبيتهم من أبناء المدن الرئيسية . وكان لقادة الحزب المؤسسين نفوذ واسع ، وتأثير كبير على النموذج الشعبي البسيط من أبناء الحارات (أزقة)، ومن مختلف المستويات الثقافية والاجتماعية . وقد كان حزب الاستقلال منذ بداية نشوئه متوجهاً إلى طبقات المجتمع بكل فئاته . وكان يقوم بالتعاون، عند إثارته أي مطلب أو عند تأييده له ، مع الجماعات والهيئات الاجتماعية، والسياسية في البلاد. وقد انتسب للحزب منذ تأسيسه نخبة من المحامين الشباب ، ومن المتعلمين الموظفين والاداريين ذوي الميول القومية ، وبعض الحرفيين والملاكين الصغار . وبذلك تكون الانتماءات الطبقية لغالبية أعضائه من البرجوازية، والبرجوازية الصغيرة. وقد انتشر في غالبية المدن العراقية . وتشكلت له فروع في المحافظات ، حيث قامت فروعه بدور نشط في توعية الجماهير ، وتعبئتها لمواجهة السياسة الاستعمارية ، وسياسات الحكومات التعسفية المتعاقبة على الحكم .

٣ – الفكر السياسي والاقتصادي لحزب الاستقلال :

اعتمد حزب الاستقلال على الجذور التاريخية للدعوة القومية العربية منذ عصر النهضة القومية لدى الحزب ممتزجة بالدين الاسلامي. وقد أكدت جريدة لواء الإستقلال. الناطقة بإسم الحزب ، ذلك بقولها : «يعتز الحزب بالعرش والبرلمان والشورى الاسلامية».(٢٢) . وقد ظهرت الفكرة القومية في العراق ، بادئ الأمر، مترابطة مع الدين الاسلامي ، على العكس من ظهورها في سورية التي كانت الفكرة القومية فيها علمانية الطابع(*) . وهذا مرده إلى سياسة الأتراك العنصرية، والتي تتوجت بظهور الطورانية (حركة عنصرية تركية)، وتوجه الحكم التركي الإستبدادي في إدارة البلاد. إلاّ أن حزب الاستقلال قد حملت دعوته القومية بعض الجوانب العلمانية ، فقد دعا كبة في الفصل بين : « الدين والسياسة ، منطلقاً من مبدأ أن الدين ينظم صلة المرء بربه في آخرته ، والقومية تنظم صلاته بين قومه في دنياه». وقال بأن الدين لله وحده والوطن للجميع ، ووجه

* إن هذه الأطروحة التي راجت طويلاً، في الدراسات عن الفكرة القومية، بحاجة الى مراجعة. وقد قدمنا اطروحات في دحضها(مجلة الوحدة، العدد٥٣ شباط(فبراير) ١٨٨٩ ص٥٤–٧١)، كما قدم د.سي ارنست دون دحضاً كاملاً في دراسته: «أصول القومية العربية المنشورة في القسم الاول من هذا الكتاب(المحرر)».

انتقاداً إلى رجال الدين الذين ساندوا أنظمة الحكم الاستبدادي بدعوتهم الناس إلى الركون إلى حكم الأقدار القاسية وتحذيرهم من التذمر»(٢٣).

لقد حصل تطور كبير في مفهوم القومية بعد الحرب العالمية الثانية. لذا نجد حزب الاستقلال قد تجاوز الإصلاح السياسي، ليرتبط بالإصلاح الاقتصادي والاجتماعي، وتأثرت الدعوة القومية في الوطن العربي بهذه المفاهيم الجديدة، وأصبح هذا التطور الفكري جزءاً أساسياً من أسس النهضة القومية التي ترتبط بالإصلاح الشامل في نواحي الحياة السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والعمل على معالجة المشاكل التي يعاني منها العرب في مختلف أقطارهم. وتطرق محمد مهدي كبة الى مفهوم القومية وأهدافها حيث قال: «حركتنا القومية حركة بعث وتجديد، وترمي الى خلق الأمة العربية خلقاً جديداً بإفراغها في مصهر العروبة المحضة، وتنقيتها مما علق بها من أوضار وأدران لتتجلى مواهبها وخصائصها الخلقية الكامنة، ولتسهم في استكمال بناء المدنية والحضارة، كما يتطلب العصر الحاضر، فتؤدي رسالتها القومية في القرن العشرين، كما أدتها في القرون الماضية»(٢٤). وحول توجه الحركة القومية إلى الطبقات المنتجة، وموقفها إزاءها، يوضح كبة ذلك في مكان آخر من دراسته فيقول: «ان حركتنا القومية تهدف، قبل كل شيء إلى خدمة الطبقات العاملة المنتجة، وتعتبرها العناصر الحية الفعالة في جسم الأمة، وتسعى بكل ما لديها لتزيل عنها البؤس والشقاء، وتوفر لها وسائل الرفاه والسعادة»(٢٥). لقد اعتمد حزب الاستقلال في السياسة الخارجية على دائرتين رئيسيتين، هما الدائرة الاسلامية والدائرة العالمية، ويعتبر الوطن العربي إطاراً موحداً على الرغم من التجزئة التي فرضها الاستعمار، فكان مفهومه العربي الوحدوي مجالاً واحداً. ويتعامل مع الدائرة الاسلامية الواسعة: «توثيق الروابط مع الشعوب الاسلامية خارج الوطن العربي واعتبارها قوى عظيمة يعمل الحزب على الاعتزاز بها والتعاون معها»(٢٦). وتليها في الأهمية الدائرة العالمية: «إذكاء روح الصداقة، وتقوية العلائق السياسية والاقتصادية والثقافية مع الأمم الأخرى»(٢٧). هذه الدوائر التي حرص حزب الاستقلال على إقامة الصلات والعلائق معها لكونها تشكل قوة كبيرة لمساعدة الأمة العربية الناهضة، وتمكنها من تحقيق النجاح الحاسم على الاستعمار.

يعتبر حزب الاستقلال الانتخابات النيابية حقاً دستورياً يجب ممارسته، على الرغم من جميع التدخلات التي تقوم بها السلطات الحاكمة لمصلحة مرشحيها. وعلى ضوء هذا الرأي نرى مشاركته في الانتخابات، وغالباً ما يكون نصيبه الفشل، نتيجة محاربة السلطات لمرشحيه، وأحياناً يتخذ الحزب قراراً بالانسحاب أو المقاطعة لعدم شرعية الانتخابات، وله إشارات كثيرة بهذا الخصوص. فقد قاطع انتخابات ٢ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٥٢، وأصدر بياناً سياسياً يحمل الحكم مسؤولية تردي الأوضاع، ومحاربته

الدعوة التي تطالب باقامة حكم دستوري ، يضمن للشعب سيادته الوطنية ، وممارسة حرياته جاء فيه : «إن الفئة الحاكمة لم تعر هذه الدعوة أي اهتمام ، ولم تغير شيئاً من ذهنيتها ، ولم تشعر بنمو الوعي المتزايد في جميع أوساط الشعب العراقي ، فما زالت تزداد إمعاناً في تزييف إرادة الشعب والتمويه عليه ، حتى غدت تعتبر الحكم البرلماني أداة لدعم الإقطاع والرجعية والإستغلال ، والانتفاع الذاتي ، فضعفت المسؤولية ، واختل نظام الحكم اختلالاً بات ينذر بالخطر ، وأمعنت الفئة الحاكمة في تحديها للشعب وأمانيه الوطنية ووسائل تعبيره (٢٨). ودعا الحزب إلى اتباع أسلوب الاقتصاد الموجه ، وأن يكون للدولة دور في إقامة الصناعات والمشاريع الاقتصادية المختلفة ، على أن تسهم بنصف رأس المال . وكذلك طرح الحزب أفكارا مركزية حول التخطيط الاقتصادي العربي ، وأيد العمل العربي الاقتصادي الموحد، وطالب بتأميم النفط والمحافظة على الثروات الوطنية . وقد جاء في النظام الأساسي للحزب في فقرته التالية :« لا يؤمن الحزب بالطبقية ، بل يعمل على إزالة الفوارق القائمة ،ويعتبر الأمة جماعة وأفراداً جبهة واحدة لتحقيق الأهداف الوطنية»(٢٩). هذه النظرة دعا إليها الحزب منذ تأسيسها ، إذ كان يعمل على إزالة الفوارق الطبقية في المجتمع ، ولم يتخذ موقفاً منحازاً تجاه طبقة معينة .

وحول مشكلة الأرض ، كان موقف الحزب مع توزيع الأرض على المزارعين المستفيدين المباشرين منها، وطالب بتحديد الحد الأعلى للملكية ، بالإضافة إلى تأكيده على ضرورة تشريع قوانين تحمي الفلاحين من سلطة الإقطاع . إلاّ انه لم يطرح أفكاراً متحررة ذات مضمون طبقي واضح . فقد اتصفت كل الموضوعات التي تركزت مطالبته بها بالعمومية وبالطابع الإصلاحي . إلاّ أننا نرى وضوحاً كاملاً، في مواقف الحزب إزاء السياسة الاستعمارية في البلاد ، وتحمّل نتيجة تلك السياسة المزيد من التعنت والمحاربة من قبل السلطات التي تعمل بتوجيهات المستعمر . وشدد الحزب مطالبته بتعديل المعاهدة العراقية – البريطانية ، بما يضمن حقوق السيادة الوطنية في بادئ الامر . ثم تحول الى المطالبة بالغاء المعاهدة، وتصفية كل العلاقات الاستعمارية ، وما يتبعها من التزامات تثقل كاهل العراق .

ان تطور نظرة الحزب من خلال الأحداث التي مرت على البلاد منذ وثبة الجماهير عام ١٩٤٨ ، ومن ثم تأثير تأميم النفط الايراني عام (١٩٥١) أيام حكومة مصدق، وانتفاضة الشعب العراقي في تشرين ١٩٥٢ ، بالإضافة إلى التأثيرات العربية كثورة ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٥٢ في مصر ، وما طرأ على أفكار ومفاهيم الحزب من تطور ، قد جعل البعض يصفه :«بالتطرف اليساري ، نتيجة لمناداته بتأميم بعض المرافق العامة ، وبمبادئ اشتراكية» (٣٠). وعلى الرغم من ذلك ، فإن الحزب كان يعاني على الصعيد الفكري من نقص في مفرداته ، وقصور فكري في بعض جوانبه . وكذلك كانت تعوزه الممارسة

الثورية في أحيان كثيرة . وكان حزب الاستقلال وبصدد موقعه الفكري ، يقع في يسار الوسط ، خاصة بعد التعديل الذي طرأ على نهجه الفكري في مرحلة الخمسينيات .

٤ - صحافة الحزب :

امتاز حزب الاستقلال في كثرة الصحف المؤيدة له . فقد كانت لواء الاستقلال لسان حال الحزب ، والتي صدرت في ٤ آب / أغسطس ١٩٤٦ . وكان السيد خليل كنة رئيس التحرير ، وقاسم حمودي المدير المسؤول . وقد صدر منها / ١٩٧٦/ عدداً، وتوقفت في ٢٩ أيلول / سبتمبر ١٩٥٤، إثر صدور مرسوم الغاء الأحزاب والجمعيات ، رقم ١٩ لسنة ١٩٥٤ . وقد أصدر الحزب صحيفة صدى لواء الاستقلال ، في ١٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٥٣ ، إثر تسلم نور الدين محمود رئيس الأركان ، رئاسة الوزراء في ٢٤ تشرين الثاني / نوفمبر عام ١٩٥٢، حيث قامت وزارته بإلغاء الأحزاب وصحفها . وكانت الافتتاحية الأولى بعنوان كلمة البدء ... بل هي لسان حال الامة ، بقلم محمد مهدي كبة جاء فيها : «ليست هذه الصحيفة التي نبدأ على اسم الله بها العدد الأول صفحة جديدة ، في تاريخ كفاحنا السياسي ، وجهادنا الوطني والقومي ، وعملنا الصحافي في نطاق حياتنا الحزبية العتيدة، والتي نجدد على أنفسنا العهد أمام الله والتاريخ ، وتحت سمع الأمة وبصرها، بأن لا ننطق فيها بغير الحق ، ولا تتوج صفحاتها بسوى الصدق ، ولا نستهدف منها إلاّ خدمة الصالح العام . أقول ليست هذه الصحيفة، كما قد يتوهم من عنوانها هي لسان حال حزب الاستقلال فحسب، بل هي لسان حال الأمة ، وترجمانها المعبر عن آمالها وآلامها ، والمعبر عن عواطفها ومشاعرها، والصادع بأمرها، وإرادتها . إن لنا كحزب سياسي وجماعة قومية ، فلسفتنا الخاصة في الحياة ، كما لنا طرائقنا المثلى في معالجة مشاكلنا المختلفة ، وهي تختلف ، قليلاً أو كثيراً ، عن غيرها . بيد أننا لا نريد ان نجعل من هذا الاختلاف سبباً مبرراً لخلق المنابزات والخصومات بيننا وبين سوانا من الأفراد والجماعات، لئلا يشغلنا ذلك عن أداء رسالتنا. إننا سنسعى في مجتمعنا بدراسة مشاكل العراق الداخلية والخارجية بصفتنا عراقيين. وحقيقة ان العراق وطننا الأصغر ، وسنحاول معالجة هذه المشاكل على ضوء ما يتضمن منهاج حزبنا من مبادئ ، وسنولي مثل هذه العناية لدراسة مشاكل البلاد العربية الأخرى ومعالجتها بصفتنا عرباً ، وبصفة البلاد العربية هي وطننا الأكبر . هذا هو شعارنا ، وهذه هي خطتنا، فليشهد الله على ذلك . وهو حسبنا ونعم الوكيل»(٣١). كان إلى الجانب لواء الاستقلال ، جريدة الحزب ثلاث جرائد تمثل خط الحزب في بغداد : اليقظة ، وصاحبها سلمان الصفواني ، والأفكار ، وصاحبها إسماعيل الغانم ، والجريدة، وصاحبها فائق السامرائي . وجميع أصحاب هذه الصحف من أعضاء الهيئة العليا للحزب. كذلك ألغت وزارة نوري السعيد العاشرة، في كانون الثاني / يناير ١٩٤٩ امتياز جريدة ، الناس ، لسان حال حزب الاستقلال فرع البصرة .

وقد افتتح حزب الاستقلال في المحافظات مكتبات – الشباب القومي، تباع فيها الكتب وصحف الحزب ، ويلتقي فيها الشباب القومي، وقد مارست السلطات الحاكمة مختلف الأساليب القمعية لإسكات منابر الحزب الإعلامية تلك .

أسهم حزب الاستقلال في النشاط السياسي العراقي ، وكانت توجهاته وأهدافه التي عبأ أعضاءه ومناصريه حولها ، والتي شكلت تصوراته الفكرية وطموحاته التي يصبو إلى تحقيقها على الصعيد العربي ، هي التحرير الكامل ، والوحدة بين جميع الأقطار العربية ، وعلى الصعيد الوطني كانت أغلب مواقفه منصبة على التصدي لسياسات السلطات الحاكمة ، التي تقبض على زمام الأمور، وتسير سياسة البلاد، بما يخدم البلاط والإنكليز. لهذا كان الصدام السياسي المباشر بين الحزب والجهات المتنفذة في البلاد طيلة فترة عمله . لا شك ان لحزب الاستقلال أثناء مسيرته صولات وجولات من أجل الدفاع عن حقوق المواطنين ، المحافظة على الثروات الوطنية من الاستغلال والنهب. وقد طالب الحزب بتأميم شركات النفط، وقاد يومئذ معركة سياسية كبيرة التفت الجماهير حول الشعار الذي رفعه ،وأدت المطالبة إلى استقالة نواب الحزب من المجلس ، إثر تمرير اتفاقات النفط . كذلك أسهمت صحيفة الحزب :لواء الاستقلال ، بمقالاتها التحريضية ، وتأكيدها مطالبة الشعب بالمحافظة على ثروته الوطنية. وتعددت إسهامات الحزب في إطار نضال الحركة الوطنية ، فعمل مع الأحزاب في التصدي لمعاهدة بورت سموث عام ١٩٤٨ ، واسقاط حكومة صالح جبر. وقد تمكنت تلك الوثبة الجماهيرية الرائعة من إفشال تمرير المعاهدة الاستعمارية الجائرة ، وقاد الحزب مع بقية الأحزاب الوطنية، معركة المطالبة بجعل الانتخابات النيابية مباشرة.

وقد تصدت السلطات القمعية لقوى المعارضة ، ووجهت لها ضربة قاسية، أثرت على مواصلة الأحزاب لمسيرتها بعد ذلك . وشارك الحزب في الانتفاضة الجماهيرية عام ١٩٥٢ ، حيث اسهم أيضاً في الجبهة الانتخابية عام ١٩٥٤ . وأثناء العدوان الثلاثي على مصر ، خرجت العديد من مظاهرات التأييد لمصر ، واستنكار مواقف الحكومة . وكان لحزب الاستقلال دور فعال في تلك الأحداث ، وفي جبهة الإتحاد الوطني عام ١٩٥٧ . ومنذ عام ١٩٥١ ، قام بالتنسيق مع الحزب الوطني الديمقراطي ، حتى تمكن قادة الحزبين من تأسيس هيئة تحضيرية / لحزب المؤتمر الوطني، عام ١٩٥٦، الذي لم تسمح له الحكومة القائمة آنذاك . وخلال مسيرة الحزب واجهته العديد من المشاكل الداخلية ، أدت إلى خروج بعض القياديين والكوادر والأعضاء، كل حسب ظروفه الخاصة، تهرباً من المسؤولية ، أمام اضطهاد السلطات، أو طمعاً بمكاسب حكومية. ورغم قصر الفترة الزمنية التي عمل فيها الحزب، فإنه لعب دوراً مهما في تاريخ الحركة الوطنية .

لقد تعرض الحزب للخلافات والصراع الداخلي ، الذي نجم عنه تبدل مواقف بعض القياديين، وإلى انسحابات من الحزب . فقد انسحب خليل كنة ، ورزوق شماس من أعضاء الهيئة الإدارية ، نتيجة الخلاف الذي نشب بين أعضاء قيادة الحزب ، حول مسلك الحزب وتوجهاته إزاء البلاط والحكومة . فكان رأيهما التعاون للاستفادة من المواقع السياسية التي يحصلون عليها خدمة لعمل الحزب . ولم يحصل رأيهم هذا على التأييد الكافي، فقررا الانسحاب ، وأجبر السيد داود السعدي على تقديم استقالته ، عندما تعاون مع المحامي الذي توكل عن اليهودي شفيق عدس المتهم بتوريد أسلحة للصهيونية (٣٢) .

وترك الحزب إسماعيل الغانم ، حينما فاز في الانتخابات كنائب عن بغداد ، ولم ينسحب من الانتخابات التي قرر الحزب مقاطعتها . كذلك انسحب عبد المحسن الدوري، عندما دخل الانتخابات النيابية خلافاً لموافقة الحزب على الاشتراك فيها. وهؤلاء جميعهم من الأعضاء المؤسسين لحزب الاستقلال . وسبقهم إنسحاب نائب رئيس الحزب ابراهيم الراوي ، بسبب مضايقة السلطات الحاكمة له، ورغم ذلك بقي صديقاً للحزب .

يقول محمد مهدي كبة في مذكراته : « وحينما يئس الحاكمون من صرف حزب الاستقلال عن واجباته الوطنية، وصرفه عن مهامه القومية ، تمادوا في مناصبته العداء ، وتضييق دائرة عمله ، ومطاردة أعضائه ومحاربتهم في أرزاقهم ، وتعبئة كل قواهم للحيلولة دون وصول أعضائه إلى المجالس النيابية بالإرهاب والتنكيل بالناخبين تارة، وبتزوير الانتخابات تارة أخرى، وبغير ذلك من الوسائل ، مع العمل على استهواء بعض الأعضاء ، واستدراجهم بمختلف المغريات، حتى إذا أعيا هذا البعض طول الكفاح ، وضعف عن الاستمرار في حلبة الجهاد ، واستهوته تلك المغريات ، تلقفته أيدي الطبقة الحاكمة ، وأفاضت عليه من بعض مغانمها ، وفتات موائدها ... وهكذا كان يتخلف عن ركاب الكفاح بين حين وآخر بعض ممن لم تكن له المناعة الكافية للصمود امام تلك المغريات »(٣٣) .

إن حزب الاستقلال العراقي، منذ منشئه، وحتى اضمحلاله، وتشتت أعضائه، كان له الأثر الكبير في الحياة السياسية العراقية. لقد قدم هذا الحزب، ومن خلال ممارسته السياسية، نخبة من الكوادر التي تركت بصماتها على العمل السياسي آنئذ. وعبّر حزب الاستقلال عن تطور مجموعة من المناضلين الذين اتخذوا من البعد القومي، موقفاً نضالياً متقدما. إلاّ ان أقطاب المجموعة بقيت في مواقفها، رغم تطور الأحداث من حولها في البلاد. كما قدم تجربة رائدة، في مجال العمل القومي خلال طرحه الجامعة الشعبية العربية، وفكرة إقامة حزب قومي واحد. وتطلع الحزب كذلك الى مختلف القضايا القومية، إذ أسهم إسهاماً متميزاً بها، وخاصة على صعيد القضية الفلسطينية. فقد أولاها اهتماماً كبيراً، وأسهم في التصدي للصهيونية سياسياً وفكرياً في جميع المراحل التي مرت بها القضية الفلسطينية، بالإضافة إلى القضايا العربية الأخرى. لقد مر حزب الاستقلال بمراحل متعددة، تطورت خلالها مفاهيمه السياسية والتنظيمية، واكتسبت طابعاً مميزاً في السياسة الوطنية العراقية حينئذ. وكانت تحالفاته مع القوى السياسية تعبيراً عن تلك الآراء والمفاهيم التي أحدثتها التحولات السياسية، كما وأثرت في بنيته ومفاهيمه العقائدية، تلك المعارك السياسية المحتدمة مع الحكومات المتعاقبة على الحكم. لذلك نستنتج من تجربة حزب الإستقلال، بأنه كان أسير المقاييس التي ولدتها الظروف السياسية العراقية في تلك الفترة. وكان عمل حزب الاستقلال السياسي في غالبية فتراته علنياً، ولم يعتمد العمل السري إلاّ قليلا. ويصح أن نطلق عليه شبه سري. وبدأت هذه المرحلة في منتصف الخمسينيات ، لذلك يعتمد كثيراً على رفع المذكرات ، والاحتجاجات إلى البلاط الملكي ورؤساء الوزارات. ولم يعتمد تنظيمياً أسلوب الخلايا، والعمل الجماعي، بل كان يديره أقطابه البارزون. وأدت هذه الممارسة، بالإضافة إلى العديد من القضايا التنظيمية والتكتيكية التي مارستها قيادة الحزب، إلى أن انفصلت عنه قواعده الشابة، والمتحمسة للعمل من أجل إيجاد أحزاب أخرى أكثر راديكالية وتنظيمياً، مثل حزب البعث العربي الاشتراكي، وحركة القوميين العرب. وكذلك حدث انقسام داخل الحزب خرج إثره غالبية كوادره وأعضائه، حيث تأسس منهم الحزب العربي الاشتراكي. أما من ناحية توجهاته العقائدية الفكرية والطبقية، فهو حزب بورجوازي، فقد كانت غالبية قيادته وأعضائه من الطبقة البرجوازية والبرجوازية الصغيرة. وقد اعتمدت دعوته القومية على

المطالبة بتحرير الأقطار العربية من الاستعمار، وتوحيدها ، فانطلقت الدعوة هذه من التراث العربي الإسلامي، لأن الفكرة القومية التي نادى بها كانت ممتزجه بالدين الإسلامي .

ونرى أن حزب الاستقلال ، على الرغم من اتجاهه القومي العام، فقد كانت هنالك عدة اتجاهات تتفاعل داخل بنيته الحزبية . الا ان أبرز تلك الاتجاهات ، اتجاهان رئيسيان ، اتجاه قومي علماني، واتجاه قومي اسلامي، وسببت تلك النظرة العديد من المماحكات والصراعات التي حدثت مع القوى الأخرى. إلاّ اننا نجد ، خلال استمرارية تجربة الحزب ، وخاصة في منتصف الخمسينيات تطور علاقاته السياسية وتوسيع دائرتها، وكذلك انفتاحها على مختلف الأيديولوجيات ، والتعاون مع الأحزاب العراقية جميعها ، واسهامه في تحالفات جبهوية حققت إنجازات وطنية كبيرة . ولم يقدم حزب الاستقلال فكراً ذا أبعاد واضحة من الناحية العقائدية . وهذا مما يشكل جملة من الإحراجات السياسية والفكرية، خاصة بالنسبة للعمل السياسي اليومي في البلاد . علماً ان هذه الصفة عامة تشمل بحدود جميع الأحزاب العلنية في نفس فترة حزب الاستقلال ، وأدت هذه وفي مناسبات مختلفة ، إلى عدم الوضوح، مما كان تعبيرها أن تجرأ بعض قياديي الحزب، ومدوا الخطوط مع أصحاب الشأن في البلاد : البلاط ورؤساء الوزارات المتنفذين، وفي مقدمتهم نوري السعيد . ولم يقدم حز ب الاستقلال تجربة تنظيمية ، متماسكة، بل اعتمد أسلوب التاثير المباشر ، والاعتماد على جميع الروابط العشائرية والأسرية .

وهذا الأسلوب ، لم يساعد على تبلور العملية الفكرية والأيديولوجية التنظيمية لدى أعضاء الحزب . كذلك فإن الحزب لم يتبع خطة لتثقيف وتوعية أعضائه فكرياً ونضالياً .

إلاّ أننا رغم هذه البساطة في التجربة ، نلمس تلك التاثيرات التي أحدثتها تجربة هذا الحزب على الصعيد الوطني والقومي فكراً وممارسة والاسهام في التصدي للمخططات كافة التي استهدفت النيل من الدعوة الى التحرير والتوحيد ، وتركزت محاربته لأهم تلك المعوقات وأخطرها ، إلا وهو الاستعمار الجاثم على صدر الأمة العربية آنذاك .

الهوامش

١- أعضاء الهيئة الادارية للنادي، وهم إضافة للرئيس ونائبه ، متى عقراوي ، خالد الهاشمي ، درويش المقدادي ، المقدم فهمي سعيد ، الدكتور صبري رشيد .

٢- محمد مهدي كبة : مذكراتي في صميم الأحداث، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٥، الصفحة ٥٥ .

٣- طاهر جاسم التميمي : من تاريخ الحركة العربية المعاصرة (مجلة المستقبل العربي) العدد ٢٨/١٢/١٩٨٥، الصفحة ١٥٠-١٥٥ .

٤- اسماعيل ياغي: حركة رشيد عالي الكيلاني، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٢٠٤ .

٥- الكتاب عبارة عن مجموعة خطب ومقالات عن القومية العربية أعدها مجموعة من أعضاء النادي ونشروها باسم د. سامي شوكت الذي كان عضوا في النادي ومديرا للتعليم في العراق آنذاك .

٦- د. خلدون ساطع الحصري : الأفكار السياسية ليونس السبعاوي (كتاب الحياة الفكرية في المشرق ١٨٩٠-١٩٣٩) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٩٨٣ص١٩٢ .

٧- اسماعيل ياغي : المرجع السابق، ص ٢٠ .

٨- خيري العمري : يونس السبعاوي ، سيرة سياسي عصامي ، أصدار وزارة الثقافة والفنون- بغداد ، ١٩٧٨ ص ١٢٢ .

٩- محمود الدرة: الحرب العراقية البريطانية ، دار الطليعة بيروت، ١٩٦٩ ص ٨٤ .

١٠- د. علي محافظة : موقف فرنسا والمانيا وايطاليا من الوحدة العربية، ١٩١٩- ١٩٤٥ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٥، ص٢٣٩ .

١١- محمد مهدي كبة ، المصدر السابق : ص١١٢ .

١٢- مقابلة مع محمد صديق شنشل، بتاريخ ١٥/ ١١/ ١٩٧٦، نقلا عن ليث الزبيدي، ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، دار الرشيد بغداد ١٩٧٩، ص ٩٦ .

١٣- محمد مهدي كبة : المصدر السابق ص ٢١١ .

١٤- مقابلة مع صديق شنشل بتاريخ ١٣/ ١٠/ ١٩٧٧ نقلاً عن عادل غفوري خليل، أحزاب المعارضة العلنية في العراق، ١٩٤٦-١٩٥٤، المكتبة العالمية ، بغداد ١٩٨٤، ص١١٣ .

١٥- عبد الرزاق الحسني : المصدر السابق ، ص ٣١ ، الجزء ٧ .

١٦-كامل الجادرجي : مذكرات كامل الجادرجي ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٨٦ .

١٧- عبد الجبار عبد مصطفى : تجربة العمل الجبهوي في العراق ، ١٩٢١-٩٥٨ ،وزارة الثقافة والفنون، بغداد ١٩٧٨ ، ص ١٢٤.

١٨- ليث عبد الحسن الزبيدي - المرجع السابق : ص٦٨ .

١٩- كانت مهنة القانون جيدة التمثيل في الحزب، وكان هناك ستة وعشرون محامياً من خلفية من الطبقة المتوسطة أساساً من أصل سبعة وثلاثين عضواً في اللجنة العليا للحزب. وكان هناك في اللجنة نفسها اثنان من الضباط السابقين، وأستاذا كلية سابقان وصحافيان وإثنان من متوسطي ملاك الأراضي وثلاثة من التجار المتوسطين. وكانت اللجنة تضم مسيحيين اثنين وخمسة عشر شيعيا وعشرين سنياً، انظر حنا بطاطو : العراق، الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية، من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية) الكتاب الأول مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ٩٩٠، ص٣٣٦ .

٢٠- محمد مهدي كبة : المصدر السابق، ص٢٢٠ .

٢١- محمد مهدي كبة : المصدر السابق، ص١١٣ .

٢٢- جريدة لواء الاستقلال: العدد ٣٥٧ ، تاريخ ٢٥ نيسان / ابريل ١٩٤٨، نقلاً عن غفوري خليل، المرجع السابق، ص١١٤ .

٢٣- عادل غفوري خليل: المرجع السابق، ص١١٥ .

٢٤- عادل غفوري خليل: المرجع السابق، ص ١١٥.

٢٥- عادل غفوري خليل : المرجع السابق، ص١١٦

٢٦- النظام الاساسي لحزب الاستقلال: المادة الثالثة، الفقرة السابعة .

٢٧- النظام الاساسي لحزب الاستقلال: المادة الثالثة، الفقرة الخامسة .

٢٨- النظام الاساسي لحزب الاستقلال، المادة الثالثة، الفقرة الخامسة .

٢٩- النظام الاساسي لحزب الاستقلال، المادة الثانية، الفقرة الثانية .

٣٠- عادل غفوري خليل ، المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

٣١- الدكتور عبد الكريم العكام: تاريخ حزب الاستقلال العراقي ١٩٤٦-١٩٥٨، دار الرشيد للنشر ، بغداد ١٩٨٠، ص٣٠ .

٣٢- محمد مهدي كبة : المصدر السابق، ص٢١٥ .

٣٣- محمد مهدي كبة : المصدر السابق، ص٢١٩ .

الفصل الرابع

قسطنطين زريق

داعية العقلانية في الفكر العربي الحديث

د. هاني أحمد فارس

يحتل قسطنطين زريق بين المفكرين العرب المعاصرين، ولاسباب عدة مكانة خاصة. من بين هذه الأسباب تتابع إنتاجه الفكري على امتداد فترة تقارب نصف قرن، الأمر الذي أتاح له تأسيس خطوط فكرية واضحة، وسمح لقطاعات واسعة من المثقفين العرب التعرف على كتاباته(*). ومن هذه الأسباب أيضا أن زريق كان من الرعيل الذي قام بوضع وتطوير بعض المفاهيم والعقائد الإجتماعية والسياسية التي لاقت منذ منتصف القرن الحالي إنتشاراً واسعاً، وعملت على رسم الملامح الفكرية للعالم العربي. وتعود مكانة زريق الخاصة اخيراً الى الأثر الذي خلفته كتاباته في بعض الحركات والشخصيات السياسية،والى النفوذ الفكري الذي كان له خلال سنوات طويلة من التعليم على اجيال متتابعة من الطلبة الجامعيين. ومن هنا فإن دراسة الإنتاج الفكري لقسطنطين زريق تتيح التعرف على آراء واحد من ابرز المفكرين العرب المعاصرين، وإلى تلمس واستشفاف بعض ملامح الفكر العربي الحديث.

ولد(١) زريق في مدينة دمشق بتاريخ ١٨/ابريل / نيسان١٩٠٩ لعائلة ارثوذكسية عرفت بتعاطيها الأعمال التجارية، وكانت تقطن حي القيمرية، وهو من أشهر أحياء دمشق القديمة، ومن أهم مواطن التجار الدمشقيين. كان والده قيصر قد هاجر الى كولومبيا، ثم عاد قبل الحرب العالمية الأولى وتزوج وخلف أربعة أولاد، كان قسطنطين أكبرهم. ثم نزح قيصر مجدداً الى كولومبيا في عام ١٩٢٣، وتوفي بعد عام واحد، وهو في المهجر.

أمضى زريق طفولته وصباه في دمشق، وكانت عائلته قد انتقلت الى دور للسكن تحيط بالكاتدرائية والمدارس الارثوذكسية، وتجاور الاحياء الإسلامية. وخلفت أجواء التسامح والتعاون التي سادت بين ابناء الديانتين اثراً بالغاً في نفسية زريق وشخصيته. ولعل هذه التجربة كانت مسؤولة الى حد بعيد عن الآراء التي عبر عنها فيما بعد في موضوعي الاسلام والقومية، والتي تتخلل معظم كتاباته.

اتم زريق دراسته الابتدائية والثانوية في مدارس الطائفة الارثوذكسية. وعلى الرغم من الارتباط الطائفي لهذه المدارس، الا إنها ضمت عدداً لا بأس به من التلامذة المسلمين،

وعرفت بإنفتاحها وبعدها عن التعصب وبرفعة مستواها خصوصاً في العلوم العربية. ومن المعروف ان السلطات الدينية الارثوذكسية حينذاك، وفي مقدمتها البطريرك غريغوريوس حداد، كانت متعاطفة مع الحركة الوطنية السورية والعربية، ومقربة لزعمائها. ويذكر انه عندما نشبت ثورة ١٩٢٦، وخشي البعض ان يحصل تعد على المسيحيين، جال قادة الثورة على الاحياء المسيحية، وطمأنوا أهلها، وحافظوا على سلامة هذه الأحياء وأمنها.

التحق زريق بالجامعة الامريكية، وبدأ تخصصه بالرياضيات. إلا أنه تحول إلى التاريخ بعد وقت قصير، بتشجيع من بعض اساتذته. وكان قد شغر حينذاك كرسي التاريخ العربي، فرشح زريق لاتمام دراسته التخصصية في الولايات المتحدة في هذا الموضوع، إعداداً له لتولي هذا الكرسي. وبعد أن تخرج بدرجة بكالوريوس في الآداب بامتياز، عام ١٩٢٨، سافر الى الولايات المتحدة، حيث نال الماجستير من جامعة شيكاغو في عام ١٩٢٩، والدكتوراه من جامعة برنستون في عام ١٩٣٠. ولهاتين المؤسستين برامج في الدراسات الشرقية لها مكانة مرموقة وشهرة خاصة.

توزعت الوظائف التي احتلها زريق في حياته العملية بين التدريس الجامعي، والعمل الأكاديمي الإداري، والمناصب الدبلوماسية. فلقد عيّن بعد تخرجه مباشرة أستاذاً مساعداً في التاريخ بالجامعة الأميركية. ورقى إلى أستاذ مشارك في العام ١٩٤٢ . وعمل زريق بعد الحرب العالمية الثانية ، ولفترة ثلاثة أعوام (١٩٤٥-١٩٤٧) في السلك الخارجي السوري، حيث خدم كمستشار اول ، ثم كوزير مفوض في المفوضية السورية بواشنطن. وكان خلال ذلك عضوا مناوباً في مجلس الأمن .

عاد زريق بعد تجربته القصيرة في الميدان الدبلوماسي إلى الحياة الأكاديمية، حيث التحق بالجامعة الأميركية من جديد، وعين استاذا للتاريخ ، ونائب رئيس للجامعة. وفي العام ١٩٤٩ أصبح رئيساً للجامعة السورية ، وبقي في هذا المنصب حتى العام ١٩٥٢. وأعيد تعيينه في ذلك العام نائب رئيس للجامعة الأميركية، وعميداً للكليات إلى إن أصبح رئيساً للجامعة بالوكالة بين الأعوام ١٩٥٤و١٩٥٧. وحصل في عام ١٩٥٦ على لقب أستاذ ممتاز للتاريخ ، وعلى لقب أستاذ شرف في عام ١٩٧٦. كما انه خدم كأستاذ زائر في جامعة كولومبيا ١٩٦٥ وجامعة جورجتاون ١٩٧٧ و جامعة يوتا ١٩٧٧.

إلى جانب وظائفه الرسمية المتعددة، نشط زريق ، وما زال ، في العديد من المنظمات الثقافية الأقليمية والعالمية، واحتل مناصب رفيعة في العديد منها. فهو عضو مراسل في مجمع اللغة العربية بدمشق ، وعضو مؤازر في المجمع العلمي العراقي ، وعضو فخري في الجمعية التاريخية الأميركية . وكان عضوا في المجلس التنفيذي لليونسكو (١٩٥٠-

١٩٥٤). وعضواً في المجلس الأداري للهيئة الدولية للجامعات (١٩٥٥-١٩٥٦)، ورئيساً لهذه الهيئة (١٩٦٥-١٩٧٠). وأصبح من ثم رئيسا فخرياً لها منذ عام ١٩٧٠. كما انتخب رئيسا لجمعية اصدقاء الكتاب في لبنان (١٩٦٠-١٩٦٥) ورئيساً لمجلس امناء مؤسسة الدراسات الفلسطينية، منذ ان تأسست هذه المؤسسة في عام ١٩٦٣. وهو منذ عام ١٩٧٩ من أعضاء مجلس أمناء جامعة قطر. وشملت نشاطات زريق الثقافية المميزة عضويته في الهيئة الدولية لكتابة التاريخ العلمي والحضاري للإنسانية التي رعتها منظمة اليونسكو (١٩٥٠-١٩٦٩)، ورئاسته للجنة الخبراء الدولية لدراسة سياسات القبول في الجامعات (١٩٦٠-١٩٦٢)، ومشاركته في لجنة الخبراء التي قامت بتقديم المشورة للحكومة الكويتية حول إنشاء جامعة الكويت. وتقديرا لنشاطاته، فقد قامت الحكومة السورية بتقليده وسام الأستحقاق (درجة ممتازة)، وقلدته الحكومة اللبنانية وسام المعارف (درجة أولى) ووسام الأرز الوطني (درجة كوماندور) ومنحته جامعة ميشغان دكتوراه فخرية في الآداب.

اتقن زريق اللغتين العربية والإنجليزية وكتب بهما، وأجاد الفرنسية وألم بالألمانية. إلا أن الحيز الأكبر من كتاباته كان بالعربية، وهي اللغة التي يبدو انه كان دوماً يفضل الكتابة بها. وهذه إحدى ميزات هذا المفكر. فعلى الرغم من انه قضى جميع مراحل دراسته الجامعية في مؤسسات أجنبية، وارتبط خلال معظم سنوات العمل في حياته بمؤسسة تربوية أجنبية، اختار زريق مع ذلك ان يخاطب باستمرار القارئ العربي، وان يتوجه في كتاباته إلى المواطن العربي، وأن تكون المواضيع التي يختار الكتابة بها ذات صلة مباشرة بالأوضاع السائدة في العالم العربي ومستقبله.

وقراءة كتابات زريق العربية متعة أدبية، ونادراً ما تجد بين الكتّاب العرب المحدثين من يستطيع أن يماثل أسلوبه اللغوي في السلاسة والفصاحه والبيان. كل هذا دون أن يسمح زريق للغة بأن تصبح عائقا للبعض عن قراءة كتاباته. فالقارئ، بغض النظر عن مستوى مهارته اللغوية، يستطيع ان يلتذ بما يقرأه، دون ان يشعر ان في ما يقرأه عبئا عليه، أو انه دون مستواه. ولقد حافظ زريق على هذا التميز في أسلوبه اللغوي، دون أن يكون ذلك على حساب جلاء المعاني والأهداف. فمقالات زريق أشبه بالبنيان المرصوص، تترابط أجزاؤها منطقيا بصلابة وبوضوح تام. يبدأ المؤلف دائما بتقديم الموضوع وشرح أهميته. ثم يثبت الأطروحة الأساسية التي يرغب معالجتها. ثم يستعرض عناصر الموضوع المختلفة ويحللها. وبعدها يعدد الاستنتاجات التي توصل إليها، وينهي الدراسة بتقديم ملخص عنها. ويتكرر هذا النمط من المعالجة في جميع كتابات زريق تقريباً. إلا أنه يلاحظ بالنسبة إلى أسلوب زريق في الكتابة كثرة لجوئه إلى الإعادة. فالمجادلة الواحدة تستعرض عدة مرات، والمفهوم الواحد يتكرر تفسيره بتعابير متعددة. على الرغم من

سلبيات ومخاطر هذا المنحى في الأسلوب، إلا أن جمال اللغة ، واستعمال الكاتب دوماً لمفردات وصيغ جديدة في إعادة عرضه للأفكار ، يتيحان له إبقاء القارئ مشدوداً إلى النص دون ملل.

منهج زريق في البحث هو بدون استثناء تقريباً المنهج الأستدلالي الديكارتي. ينطلق زريق في تحاليله من مبادئ عامة ، ومنها يستخرج عناصر الموضوع والقواعد والاستنتاجات. ولهذا تكون المعالجة على العموم على مستوى مرتفع من التجريد . وأما الأحداث والوقائع الحسية فتساق كاستشهادات للتدليل على حجج الكاتب ، وليس كأرضية تستخرج منها الأحكام . وقد يكون سبب لجوء زريق لهذا المنهج هو الطبيعة الكلاسيكية لتدربه، وخلفيته العلمية في حقل التاريخ خاصة، وفي الإنسانيات والأجتماعيات عامة، نظراً إلى أن الثورة السلوكية، ومناهج البحث الكمي، لم تكن قد أثرت في هذه الحقول العلمية قبل الحرب العالمية الثانية. لهذا ليس من المستغرب أن تتواجد لدى قارئ كتابات زريق قناعة بأن الأحكام والمعالجة تصدر عن مفكر واسع الألمام والأطلاع، وأن يترافق ذلك لديه مع شعور بالحاجة إلى مزيد من المعلومات . ويعلل زريق تبنيه لهذا المنهج في البحث في أكثر من موضع، في كتاباته بإثارة مبدأ مفاده ان معالجة التفاصيل والفروع تسهل عندما تتضح المبادئ والأصول. وكذلك الأمر بالنسبة الى تحديد السبل والوسائل ، حين يجري تبيان الغايات . ولا يخفى ان مثل هذا المبدأ يعتمد نظرة فلسفية تعتبر ان المبادئ والأصول والغايات، هي حقائق اساسية ثابتة بامكان الرجل العاقل ان يهتدي اليها.

تتوزع كتب زريق (٢) من حيث اهتمامات المؤلف وأهدافه إلى مجموعات ثلاث. المجموعة الأولى هي تحقيق لكتب من التراث وترجمات، ويغلب عليها الاهتمام المهني الصرف. وقد جاء معظمها في بداية حياته الأكاديمية. تحتوي هذه المجموعة على ترجمة عن الألمانية لدراسة تيودور نولدكه بعنوان امراء غسان من آل جفنة (١٩٣٣)(٣) يلي ذلك تحقيق لمخطوطة اسماعيل بك شول بعنوان: اليزيدية قديماً وحديثاً (١٩٣٤)(٤). وقام زريق ما بين الأعوام ١٩٣٦و١٩٤٢ بتحقيق ثلاثة أجزاء(السابع والثامن والتاسع) من تاريخ ابن الفرات (٥).

بعدها شارك أسد رستم في تحرير كتاب: قراءات في تاريخ العرب والحضارة العربية. وحقق الترجمة العربية لكتاب جورج سرطون : المدخل في تاريخ العلوم الذي نشر في القاهرة على دفعات، ما بين الأعوام ١٩٥٧و ١٩٦١ (٦) .وأخيراً ، قام زريق بتحقيق ونشر : تهذيب الأخلاق لأحمد بن محمد مسكويه، وترجمه إلى الإنجليزية (٧). ولقد ظهرت النسختان ضمن منشورات العيد المئوي للجامعة الأمريكية بالعربية في العام ١٩٦٦، وبالإنجليزية في العام ١٩٦٨.

تتألف المجموعة الثانية من أربعة كتب تجمع مقالات ومحاضرات مختارة للمؤلف كان قد جرى نشر العديد منها في أماكن مختلفة من قبل . أول كتب زريق في هذه المجموعة هو الوعي القومي : نظرات في الحياة القومية المتفتحة في الشرق العربي (١٩٣٩) . والكتاب كما يقول المؤلف فصول متفرقة وبداية محاولة لتوضيح الفكرة القومية والعمل على نشرها كي تصبح قاعدة للعمل الجماعي(٨) . ولقد لاقى الكتاب في حينه رواجاً كبيراً ، وأرسى شهرة للمؤلف في مجال الفكر القومي ما زالت ملازمة له حتى اليوم . الكتاب الثاني في هذه المجموعة هو : أي غد ؟ دراسات لبعض بواعث نهضتنا المرجوة (١٩٥٧)(٩) . والفصول الستة التي يحتويها الكتاب ، هي أصلاً نصوص محاضرات القيت في مناسبات مختلفة تعالج مواضيع اجتماعية وثقافية متعددة تتعلق بالأوضاع الراهنة للمجتمع العربي وآفاقها المستقبلية . وظهرت المجموعة الثالثة في محاضراته ومقالاته في كتاب : هذا العصر المتفجر : نظرات في واقعنا وواقع الإنسانية (١٩٦٣). وتتناول فصول هذا الكتاب امكانات وأخطار العصر الحاضر إنسانياً وعربياً(١٠) وظهر آخر البحوث المجموعة في كتاب : أعظم من منتصرين (١٩٦٨)الذي احتوى على خطب مختارة كان قد القاها في مناسبات عدة اقيمت في الجامعة الأمريكية ما بين الأعوام ١٩٥٣و١٩٦٦(١١) .

المجموعة الثالثة والأخيرة من كتب زريق هي الدراسات المتعمقة التي تتشابه رغم تفاوت أحجامها في أن كلاً منها يختص بمعالجة موضوع واحد بشكل موحد. وقدرات زريق الفكرية وإسهاماته تظهر على أفضل وجه في هذه الدراسات لما تتسم به من شمول وإحاطة وتعمق وترابط في العرض والتحليل. ومع ان بعض بحوثه الأخرى كان لها وقع اكبر عند نشرها، إلا إن الأثر الذي ستخلفه كتب هذه المجموعة سيكون ولا شك اكثر بعدا ودواماً . ومن المؤسف إن زريق بقي يهمل هذا النوع من الدراسات لفترة طويلة بعد بداية حياته الأكاديمية، ويركز على البحوث القصيرة التي لها اهمية آنية ، علماً بأنه كان يعتبر «إن الكتاب الموحد هو بلا جدال خير من الأبحاث المجموعة»(٢٢) ، وان في قلة هذه الكتب «قصورا من رجال الفكر ومن مجتمعهم »(١٢). وقد يكون مرد هذا القصور من زريق إنشغاله لفترة طويلة في التدريس والأعمال الادارية والأستشارات وغيرها، مما لم يتح له القدر الكافي من التفرغ والجهد المطلوبين للقيام بمثل هذه الدراسات .

أول نتاج لزريق في مضمار الكتب الموحدة هو: معنى النكبة (١٩٤٨). ويعالج الكتاب نكبة العرب في فلسطين في عام ١٩٤٨، ويعيدها إلى الأوضاع الداخلية للمجتمعات العربية ويقدم لها الحلول . وأصاب هذا الكتاب قدراً كبيراً من الشهرة والإنتشار لكونه قدم اطروحات فكرية جريئة تميزت بابتعادها عن المعالجة التبريرية العاطفية التي طغت على أدبيات تلك الفترة . ولقد صدرت ترجمة له بالإنجليزية في عام ١٩٥٦(١٣). والكتاب

الموحد الثاني لزريق هو : نحن والتاريخ: مطالب وتساؤلات في صناعة التاريخ وصنع التاريخ (١٩٥٩). وهو دراسة في المفاهيم الأساسية لحقل التاريخ ومناهجه ، ومعالجة لبعض الأسئلة التي تثيرها علاقة العرب بماضيهم(١٤). ثالث كتب زريق في هذه المجموعة هو : في معركة الحضارة : دراسة ماهية الحضارة وأحوالها وفي الواقع الحضاري (١٩٦٤). وتتناول الدراسة مفهوم الحضارة بمعانيه وجوانبه المختلفة ، وبما يتفرع عنه من نظريات . ويعتبر المؤلف هذه المحاولة الأولى من نوعها في اللغة العربية (١٥) .والكتاب الرابع في هذه المجموعة هو : معنى النكبة مجدداً الذي صدر بعد شهرين من الهزيمة العربية في عام (١٩٦٧) (١٦). وعلى الرغم من تماثل عنوان الكتاب واطروحته الأساسية مع عنوان واطروحة كتاب المؤلف عن حرب ١٩٤٨ ، إلا أن الكتابين يشكلان دراستين مستقلتين ، لكل منهما هيكله المتميز ومادته الخاصة. آخر الكتب في المجموعة هو : نحن والمستقبل (١٩٧٧) ، حيث يستعرض زريق أنماط ريادة المستقبل ويرسم التوجهات المستقبلية المطلوبة للمجتمع العربي (١٧) .

المحور الرئيسي لفكر قسطنطين زريق :

تعرف القضية المركزية التي شغلت الفكر العربي الحديث منذ بداية عصر النهضة وحتى اليوم «بالمسألة الكبرى» او «مسألة المسائل». وتتكون هذه المسألة في الشكل الذي تطرح به عادة من شقين : يجري التساؤل في الشق الأول عن الأسباب التي ادت الى ضعف الشرق (العالم الاسلامي سابقا والعالم العربي حالياً) وتأخره وقوة الغرب (العالم المسيحي أو أوروبة سابقا والدول الصناعية حاليا) وتقدمه. وتمارس ضمن هذا التساؤل عملية نقد ذاتي تتفاوت في صرامتها وحدتها . فبينما ينتهي بعضها إلى تبرير الذات القومية من الأخطاء والتقصير ، يؤدي بعضها الآخر إلى إنكار هذه الذات القومية . وأما الشق الثاني فله طابع اكثر ايجابية إذ يتضمن تحرياً للصيغ والوسائل التي تضمن في حال تبنيها وتطبيقها اقامة المجتمع العربي المنشود (١٨). وفكر قسطنطين زريق يدور في نفس الفلك الذي سار فيه الفكر العربي الحديث ، وهو أسير المسألة ذاتها . بل يصح القول ان زريق كان من أكثر الذين نذروا أنفسهم طوال الخمسين سنة الأخيرة للكتابة في هذه القضية وما يتفرع عنها من مواضيع . وقد عبر عنها في احدى كتاباته على الشكل التالي :

فالسؤال الأساسي اذن هو : كيف يمكننا ان نقلب المجتمع العربي قلباً جذرياً وسريعاً من مجتمع إنفعالي توهمي ميثولوجي شعري الى مجتمع فعلي تحقيقي عقلاني علمي ؟كيف يمكننا ان نحدث فيه هذه الثورة التي تضمن له السلامة والقدرة والكرامة في العالم الحديث (١٩).

يتضح من هذه الفقرة ان موقع زريق من هذه المسألة يتلخص في عدم رضاه عن المجتمع القائم وتفضيله لمجتمع له مواصفات مختلفة يعتبر انه أصلح لتحقيق عدد من الأهداف. لهذا كان أفضل مدخل للتعرف على فكره هو في استعراض وتحليل آرائه حول المجتمع العربي الراهن، والمجتمع العربي المنشود، والكيفية التي يمكن بواسطتها اجراء التحول المطلوب.

يعايش المجتمع العربي في رأي زريق حالة نهضة بعد ركود دام اكثر من خمسة قرون. فبعد ان وصلت المدنية العربية الى أوجها، وكانت عنواناً للتقدم الإنساني، بدأت قدرتها على التنظيم والابداع تضعف، بسبب عوامل داخلية، وسارت في طريق الإنحطاط والتدهور. من أهم هذه العوامل الإنقطاع عن النمو والجمود الذي أصاب العقل العربي، بسبب إنغلاق المجتمع على نفسه، ورفضه التيارات الجديدة، ومحاربته للحركات العقلانية. ولقد جاء ذلك على وجه الخصوص عقب قيام تحالف بين رجال السيف ورجال القلم على حساب عامة الشعب، وللحفاظ على الوضع القائم ومحاربة قوى التغيير (٢٠). فالموقف من النقد أو التفاوت بين اعتناق النظرة العقلية الفاحصة، وبين الاعتماد على التقليد والترداد، هو الذي يفرق بين عصور الازدهار والإنحدار في التاريخ العربي (٢١). ولقد تمثل الضعف الذي أصاب المدنية العربية في المقام الأول في التغيير الذي طرأ على الشخصية العربية التي تحولت الى السعي وراء الأهداف الشخصية والمادة، وانحط خلقها، وقل إنتاجها، وفقدت روح المسؤولية «وأصبحت منفعلة بعد أن كانت فاعلة»(٢٢). ويضيف زريق في موقع آخر ان تحول العرب في مجال القيم الجماعية عن الوحدانية والولاء الشامل والنظرة العالمية أدى إلى استبدالهم الحوافز الروحية بالحوافز المادية. وكان هذا من الأسباب الرئيسية لإنهيار الحضارة العربية (٢٣).

على عكس عملية الإنحطاط التي جاءت لاسباب داخلية، يعيد زريق بواعث النهضة الحديثة وعملية التغيير والتحول التي تواكبها الى عوامل خارجية. فالمجتمع العربي الذي كان يعيش حتى وقت قريب، ضمن عالم خاص به، موروث عن القرون الوسطى، اصطدم بالغرب وحضارته الحديثة. وهو الآن محاط من كل جانب بهذا الغرب الذي يؤثر في جميع سبل حياته،ويعمل على تقرير مستقبله. ولان هذا الغرب بحضارته الحديثة سيبقى يفرض نفسه على المجتمع العربي، ويغزوه، سواء أراد هذا المجتمع ذلك ام لم يرد، لهذا كان من الضروري ان يفهم العرب الغرب فهماً صحيحاً، ويعملوا على ادارك حقيقته حتى يمكنهم مجابهته(٢٤). ولان الحياة العربية الحديثة تعيش مرحلة إنتقالية، من القديم الى الجديد، وتتكون من تفاعل «شخصية الأمة الداخلية» مع الغرب(٢٥)، فلقد خصص زريق جزءاً كبيراً من كتاباته للحديث عن مفهومه لحقيقة الغرب من جهة، وماهية الشخصية العربية من جهة اخرى، ولاستعراض أوضاع المجتمع العربي الراهنة، والحكم عليها بمعايير الحضارة الحديثة.

يعرف زريق الغرب على أنه مجموعة الشعوب التي انتجت او تبنت إلى حد بعيد الحضارة الحديثة ، وخاصة أبرز عنصريها : العلم والتقنية . وتتميز هذه الشعوب في اعتمادها العلم الحديث وتطبيقاته بشكل واسع لتنظيم جوانب المجتمع المختلفة ، ولتحديد نظرتها للطبيعة والإنسان (٢٦). وفي احدى كتاباته الأولى يعتبر زريق ان هناك ثلاثة عناصر أساسية تتشكل منها «حقيقة» الغرب ، وهي : أولاً – نظام اقتصادي افرزته الثورة الصناعية ، يهدف إلى زيادة الإنتاج وتنظيمه ، من خلال استغلال طاقات الطبيعة والإنسان والآلة . وثانياً العلم الذي هو اساس النظام الاقتصادي الغربي وما يعتمده من طرق تفكير تحث على البحث الدائم عن الحقيقة وتعتمد العقل في الحكم على الأمور . وثالثاً فلسفة خاصة بالغربيين ، تميزهم عن غيرهم من الشعوب ، وتوحد فيما بينهم ، وتمدهم بنظرة الى العالم، وبمقاييس متشابهة ، وهي الأساس الذي يقوم عليه علم الغرب(٢٧) . وفي دراسته المتعمقة في موضوع الحضارة ، ينظر زريق الى الحضارة الغربية على انها تتميز باتساع نطاق اهتمامها الذي يشمل الطبيعة والمجتمع ، وبايمانها بأن استغلال قوى الطبيعة ، واصلاح الأوضاع الأجتماعية ، يؤديان الى التقدم ، بينما الحضارات الأخرى ومنها الهندية والمسيحية والاسلامية ، جعلت غايتها الرئيسية اصلاح الفرد(٢٨).

لم يميز زريق في كتاباته بين مفهومي الحضارة الغربية والحضارة الحديثة وبقي يستعملهما كمرادفين حتى وقت قريب ، حين عبر عن تفضيله لاستعمال تعبير الحضارة الحديثة . وفسر ذلك على انه بسبب توسع وتعدد مظاهر وإنطلاقات هذه الحضارة التي أصبحت عالمية النطاق ، ولان معاني الشرق والغرب قد اختلطت، وأصبح من الصعب التمييز بينها . مع ذلك يستمر زريق في التأكيد على وجوب التمييز بين هذه الحضارة الحديثة والحضارات الأخرى ، ويعتبر ان لها جوهراً خاصاً مفاده الإيمان بثلاثة مبادئ هي : أولا بأن العالم الطبيعي هو العالم الحقيقي، وثانيا بأن الإنسان هو «هدف الوجود وغاية التاريخ »، وثالثاً بأن العقل هو ميزة الإنسان وواسطته للوصول الى الحقيقة (٢٩).

نادى زريق في المراحل الأولى من حياته الفكرية بخصوصية للأمة العربية تتجلى في شخصيتها ورسالتها وحضارتها . وكان بذلك من أوائل المفكرين القوميين الذين ابرزوا فكرة الخصائص المميزة للأمة . وليس من المستبعد ان تكون آراؤه قد اثرت في معتقدات الأحزاب السياسية القومية التي قامت حينذاك .

يؤكد زريق في كتابه الوعي القومي ان للأمة العربية شخصية تنفرد بها عن الأمم الأخرى، وهي وليدة عناصر ذات اصول تاريخية ، أهمها اللغة والثقافة والتاريخ المشترك(٣٠) . كما ان المسيرة التاريخية الخاصة بهذه الأمة ومحيطها الطبيعي امداها في الماضي ،كما في المستقبل ، برسالة او مهمة مميزة هي هضم المدنيات المختلفة ، والتأليف ما بينها ، وإثراؤها ، ومن ثم تقديمها للعالم من جديد في وحدة منسجمة لتصبح

اطاراً للحياة المقبلة(٣١) . وإلى جانب شخصيتها ورسالتها ، خلص زريق الى إن للأمة العربية حضارة تقوم على اساسيات أو حقائق ثابتة ومميزة ، هي عبر ودروس تقدمها للإنسانية ، وأهمها أربعة : أولا إن الأمة تعيش وتحيا بالرؤى الروحية ، وبدونها تضمحل وتموت ، وثانيا ان الأبداع مرتبط بنظرة عالمية ، وثالثاً ان الايمان بوحدانية الحق يلغي التجزؤ الفكري والخلقي، ورابعاً وأخيراً ان اعتماد الروح التعاونية ، والإنفتاح على الثقافات الأخرى ، يغني الحياة ويجملها (٣٢).

وفي تحديده لماهية الحضارة العربية ، تعرض زريق الى موقع الإسلام من هذه الحضارة ، وقدم تحليلاً اعتمده فيما بعد العديد من المفكرين العرب الاصلاحيين مثالا يحتذى في معالجة هذه المسألة . تنطلق معالجة زريق من اطروحة مفادها : ان الدين واحد من اهم مظاهر الحضارة ، وهو يشكل بروحه وعقائده ونظمه مدخلاً رئيسياً لفهم أي حضارة، ولإدراك خصائصها وميزاتها(٣٣). ويعرف زريق الدين في هذا المجال على انه ما يؤمن به المجتمع ويعتبر انه الحقيقة(٣٤). والعقيدة الدينية حافز للافراد والجماعات على الابداع الحضاري ، طالما دعت الى حرية الإنسان وقدرته على الاختيار المسؤول . وتتحول العقيدة الى عائق لهذا الابداع حين تضعف الايمان بحرية الإنسان ، ويسيطر عليها فكرة التسيير (٣٥).

ويركز زريق في كتاباته على خصوصية العلاقة بين الحضارة العربية والاسلامية . فلقد اعطى الأسلام لهذه الحضارة طابعها «حيثما قامت وانتشرت»(٣٦). بل ان نشوء الحضارة العربية كان بسبب النهضة الروحية التي قامت مع مجيء الإسلام . ولهذا ارتبط «الحكم العربي والتصرف العربي والعلوم العربية والخلق العربي » بأوثق الروابط بالدين الأسلامي(٣٧). كذلك ارتبطت حظوظ الحضارة العربية بأحوال الدين الأسلامي . فحين كان هذا الدين على أشده ، كانت الحضارة العربية تعج بالحيوية وخلاقة ومبدعة . وحين اقتصر الاسلام على معتقدات يتناقلها الناس بشكل أعمى ، وشرائع وقوانين تفرض بدون وعي ، أدى ذلك إلى اضمحلال الحضارة العربية(٣٨) .

ولقد احتاج زريق ، كالآخرين الذين تعرضوا لمواضيع الشخصية والحضارة العربية، إلى معالجة العلاقة بين الاسلام والقومية العربية . فلقد إنقسم المفكرون العرب بين اسلاميين عرفوا الأمة بانها الجماعة الدينية ، وقوميين اكدوا على وجود امة عربية سابقة لقيام الاسلام . اما زريق فاتخذ موقفاً مغايراً للمجموعتين إذ اعتبر انه لا تعارض بين القومية الحقيقية والدين الصحيح لانهما ظاهرتان منفصلتان يجمع ما بينهما انهما في جوهرهما حركة روحية ، ولهما غاية واحدة . والتناقض الذي يظهر بين الحركتين سببه إما تقديم الرابطة الطائفية على الرابطة القومية ، أو الاعتقاد بان المجتمع القومي لا يقوم الا على انقاض الدين. ويقترح زريق وجوب قيام علاقة بين الحركتين تتمثل في اعتماد

القوميين العرب الاسلام مصدراً لعقيدتهم وقيمهم(٣٩). وفي الوقت ذاته يجب اقامة الدولة القومية على اسس علمانية بعيدة عن الثيوقراطية (٤٠).ولقد تبنى العديد من المفكرين العرب القوميين في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية موقف زريق في هذا الموضوع حيث جرى التركيز على الاطار الحضاري والثقافي والروحي للإسلام، واعتمد مبدأ القومية كأساس لتنظيم الأمة ولتوجيه جهودها في اعادة بناء المجتمع .

تهيمن على المجتمع العربي قيم سلبية صادرة اما عن بعض عناصر التراث ، أو عن عهود الإنحطاط ، أو عن الحضارة المعاصرة(٤١). ولقد اثرت هذه السلبيات في طبيعة الحياة العربية الراهنة ، فجعلتها تفتقر إلى الحياة العلمية من جهة، وتعاني من ضعف الفضائل الخلقية من جهة أخرى. وقد أدى افتقاد العلم الى قيام مجتمع «تقليدي واسطوري وجاهل» ، بينما ادى العجز والنقصان في مجال الفضائل الخلقية الى مجتمع «متفكك وعليل وفاسد »(٤٢) .

اعتبار العقل والخلق مصدر القدرة الفردية والجماعية شكل احد الخطوط الفكرية الأساسية التي طغت على معظم إن لم يكن كل كتابات زريق عند معالجته لواقع المجتمع العربي . فهو يعيد حالات الضعف والتفكك والضياع التي تطغى على هذا المجتمع ، وبشكل دائم، اما الى ازمة عقلية أو إلى أزمة اخلاقية ، أو إلى الأثنين معاً . ولان هذين المعيارين يستندان إلى مفهوم مطلق لقيم كالفضيلة والحقيقة والعدالة والجمال والخير وغيرها(٤٣)، جاءت معظم تقييمات زريق للواقع الراهن قاطعة، وتتسم بطابع الجرأة، ولكنها تعاني من ميل نحو التعميم . ولقد حمل ذلك بعض النقاد على تصنيف تفكيره ضمن التفكير المثالي والطوباوي الذي يفتقر الى الموضوعية(٤٤). وأثار ذلك زريق الذي رد بشكل غير مباشر على منتقديه في احدث كتبه : نحن والمستقبل؛ حين شكا من ان الفكر الذي يعالج امور المجتمع الفاضل والفضيلة أصبح يعتبر في هذه الأيام ناشزاً ورجعيا ومضللاً(٤٥) .

تحدث زريق عن أزمة روحية داخلية يعاني منها المجتمع العربي في الجانب الأخلاقي النفسي هي أساس ضعفه ومصدر علته . واعتبر هذه الأزمة اخطر وابعد مدى من الأزمات الأقتصادية والأجتماعية والفكرية والسياسية(٤٦). هذا المنحى في التفكير قاد زريق إلى القول بوجود علل جذرية في الإنسان العربي مسؤولة عن مشكلات المجتمع ، تظهر آثارها بشكل تخلف عربي في الميادين المختلفة، وخاصة الثقافية والمدنية منها(٤٧). ويسخر زريق في هذا المجال من المرددين للمقولة الشائعة حول تفوق روحي مزعوم للشرق على الغرب ، ويؤكد على انه لم يعد للروحانيات من اثر في هذه المجتمعات . ويدعو زريق مواطنيه الى التواضع في هذا الأمر والعمل من جديد على إنماء الصفات الروحية التي عرف بها اجدادهم(٤٨) .

أما بالنسبة إلى الجانب العقلي العلمي ، فقد تحدث زريق عن أزمة في العقل العربي سببها تقصير الأمة في الماضي في تطوير هذ العقل ، الأمر الذي أدى إلى توقفه عن الإنتاج وتجمده لمئات السنين . ونجم عن ذلك توقف سير المدنية في الديار العربية (٤٩). ويخضع هذا العقل في الوقت الحاضر للوهم والهوى ، وهو عاجز عن مقارعة خصومه الخارجيين ، ومجابهة ما يواجهة داخلياً من تحديات وتهديد (٥٠). وبكلمة اخرى، حمل زريق الأمة العربية نفسها مسؤولية عهود الإنحطاط التي حلت بسبب اضطهادها للعقول الحية . وخلص الى القول: إن «الحضارات تنتحر ولا تقتل» (٥١) للدلالة على إن العوامل الداخلية هي التي تقرر إزدهار الحضارات أو إنحدارها، وان «الأمة التي تهزأ بالعقل وتهمله يحق عليها لا عليه الهزء والاهمال والخسران» (٥٢) .

ويترافق ضعف العقلانية في الحياة العربية الحديثة ، في رأي زريق، مع غياب الروح العلمية ، وطغيان الاهتمامات الأدبية على الحياة الفكرية (٥٣) ولذلك لم يظهر في البلاد العربية بعد فكر صحيح(٥٤). وتجدر الاشارة الى إن تعريف زريق للعلم يتعدى المعرفة التقنية وتطبيقاتها ليشمل جميع القدرات العقلية والخلقية التي بامكانها ان تكتشف وتبتكر وتطبق(٥٥). ومن اجل ذلك كان العلم بالنسبة اليه شرطا اساسياً لتواجد الحرية ، وتوفير الكرامة ، وتحقيق التقدم ، والقيام بابداعات حضارية ، والحصول على القوة (٥٦) . وطريق العلم هو بالاضافة طريق المستقبل(٥٧). واعتمادا على هذا المفهوم ، وإنطلاقاً منه لقياس قدرة المجتمع العربي الحالي على البقاء واستحقاقه للبقاء، خرج زريق بحكم قاس يشكك فيه بقدرة هذا المجتمع على البقاء، وحتى باستحقاقه البقاء، اذا بقيت حاله على ماهي عليه(٥٨).

هذه المواقف حول مسألة العلم والعقلانية اعطت لفكر زريق موقفاً خاصاً في مسيرة الفكر العربي الحديث ، تميز في نواح ثلاث : نقد جريء للواقع العربي لافتقاره الى الحياة العلمية والعقلانية ، تنبيه مستمر الى ما لفقدان الروح العلمية والعقلانية من خطورة على المجتمع ، والربط بين التطورات العربية وهذا الواقع ، شرح وتفسير وتعميم المفاهيم الحديثة للعلم والعقل . ليس من المستغرب إذن أن اعتماد زريق لهذه الفرضيات في تحاليله جعلت العديد يعتبرون معنى النكبة مثلاً الكتاب الموضوعي الوحيد الذي ظهر في حينه عن كارثة العرب في فلسطين(٥٩) . وإذا ما أخذ سجل زريق الطويل بعين الأعتبار ، قد يكون من المناسب تصنيفه بين المفكرين العرب المعاصرين بداعية العلم والعقلانية .

الواقع العربي بكل سلبياته ومآسيه ومشاكله لم يكن في رأي زريق سبب ازمة الحضارة العربية . كان بالامكان ان تستمر الأوضاع على ماهي عليه لولا ان اصطدمت الحضارة العربية بحضارة غربية حديثة ، تتفوق عليها في مضامير الحياة المختلفة . فالأزمة هي في الكيان العربي باكمله، تواجهه كأفراد وكأمة ، بأسئلة خطيرة ، تتطلب

اجوبة حاسمة(٦٠).ومصدر ازمة الكيان ان العرب ما زالوا يقفون على عتبة الحضارة الحديثة ، مما يزج بهم في حالة من التخلف الحضاري(٦١). ويتوقف استمرار هذا الوضع الحضاري ، وتحديد جوهر الحياة العربية في المستقبل ، على كيفية تفاعل العرب مع هذه الحضارة الحديثة(٦٢) . فمعركة الحضارة هي بالنسبة الى زريق المعركة الأم(٦٣) .

تعكس الأزمة الحضارية نفسها في صورة نزاع ما بين القديم والجديد يهيمن على الحياة العربية الحديثة، ويقسم المجتمع الى فئات متناحرة ، ويلقيه في خضم فوضى فكرية بعيدة المدى وخطيرة تؤثر في جميع نواحي الحياة (٦٤).ويتخذ زريق من هذا النزاع موقفا واضحاً . فتقدم الغرب وسيطرته هو بسبب تقدم العقل عنده ، وتقصيره عند العرب. ويحتاج العرب لكسب معركة البقاء، ومجابهة التحدي ، الى اعتماد الوسائل التي اكتشفها العقل الغربي ، ليصبحوا جزءاً من العالم الحديث (٦٥). ويطرح ذلك ما يسميه زريق بالمشكلة الأساسية التي تجابه العالم العربي اليوم ، وهي «هل يمكن قيام حضارة عربية في عالمنا الحديث ؟»(٦٦)و لقد استحوذ تحديد وتعريف وبحث هذه المشكلة على حيز كبير من اهتمامات وجهود زريق كما يتضح من هذا العرض . وأما باقي جهوده فقد إنصبت على الأجابة عن هذا التساؤل .

إنتقد زريق بشدة حالة الاستخفاف التي تهيمن على تفكير وسلوك المواطنين العرب عند معالجتهم لقضاياهم المصيرية ، واعتبر هذه الحالة سبباً ونتيجة لوضعهم الحالي(٦٧). وفي كتاباته عن المستقبل ، حمل زريق لواء الدعوة الى تبديل جميع اوجه الحياة العربية تبديلاً جذرياً ، والى تغيير اساليب التفكير والعمل بشكل شامل (٦٨). ومع ان كتابات زريق لا تحتوي مع الأسف على نظرية متكاملة توضح طبيعة واوصاف المجتمع المنشود، الا ان هناك محاولات من المؤلف لرسم بعض ملامح هذا المجتمع . وآراء زريق في هذا المجال هي نتاج لأربع قناعات اساسية، تشكل القاعدة التي يرتكز اليها نظامه الفكري. القناعة الأولى هي ايمانه العميق بأن الشعوب مسؤولة الى حد بعيد عن تقرير مصيرها(٦٩). ولقد خالف في ذلك الكثرة من الكتاب المعاصرين الذين كانوا يرجعون الأوضاع العربية المتردية الى عوامل خارجية ، وخاصة طمع القوى الأستعمارية ومكائدها. أما القناعة الثانية ، فمفادها إن تقدم المجتمعات وحضاراتها تقرره ارادة العنصر البشرى، لا الأمكانات المادية (٧٠)، ولا العوامل الطبيعية والبيئة(٧١) . وباعتماده هذا الموقف ، اتخذ زريق موقفاً مغايرا للعقائد التي تعطي الأوضاع المادية اهمية كبرى في تفسير الأحداث الأجتماعية . فالفضيلة والفساد بالنسبة إليه هما في البشر اكثر منهما في الانظمة (٧٢). وتتشكل قناعته الثالثة من موقف فلسفي يعتبر ان إرادة الإنسان ناتجة عن حريته في السعي،(٧٣) وان للإنسان القدرة على اكتشاف الحقيقة وادراكها، وتحقيق سعادته في هذا العالم(٧٤). وهنا أيضا يتميز زريق عن العديد من معاصريه الذين إعتنقوا

مذاهب وتفسيرات دينية جبرية تحد من حرية الإنسان وارادته وتعيد الأحداث الى قوى غيبية ميتافيزيقية. وأخيرا تتمثل قناعة زريق الرابعة في قوله بأن الإبداع الحضاري خاصة فردية ، وان في صلاح الفرد صلاح المجتمع وخيره(٧٥) . ولهذا ركز زريق في كتاباته على المواصفات والقيم المثلى المطلوبة للمواطن ، وجعلها شرطاً ضروريا لتحديث المجتمع العربي ، كما حدد غاية النهضة العربية بتحرير الإنسان العربي (٧٦). وليس بمستغرب ان هذه القناعات مجتمعة جعلت كتابات زريق من ابرز ادبيات المنهج الليبرالي في الفكر العربي الحديث(٧٧) .

الوصف الذي يقدمه زريق للمجتمع المنشود ينسجم وتحليله لسلبيات الواقع العربي، ويعكس القناعات الأربع المشار اليها اعلاه . فنهضة العرب القومية يجب ان تقوم على أسس العقل والخلق اللذين يفتقر اليهما المجتمع الراهن. من هنا ، نادى زريق الى قيام مجتمع «حديث عقلاني علمي » من جهة ، و«متماسك سليم فاضل» من جهة اخرى(٧٨). ويحدد زريق في موقع آخر صفات المجتمع المطلوبة بالقومية والأتحاد والتقدمية(٧٩) ، ويعلن في موقع ثان إنها الإنتظامية والتقدمية والحضارية(٨٠). ولكن على الرغم من استعماله لتعابير مختلفة ، يرجع زريق سبل بناء المستقبل دوماً ، كما تبين ، الى قدرات عقلية من جانب ، وخلقية من جانب آخر. فالعقلانية هي التي تضمن سلامة ومستقبل الأمة ، وبدونها فالمصير هو الضلال والخسران(٨١) . ونجاح حركة النهضة العربية مرهون بمقدار ما تحطمه من الأغلال التي تكبل العقل(٨٢) . فاقامة المجتمع العقلاني هو هدف معركة الحضارة العربية لان العقلانية هي الحاجة التي تتضمن جميع الحاجات الأخرى. ولاعطاء هذا الأمر ما يستحقه من اهمية ، ينهي زريق دراسته في معنى الحضارة على النحو التالي : «ولو شئنا ان نلخص هذه الحاجات... في حاجة واحدة، لقلنا إنها: «العقلانية». فلا ندحة لهذه الشعوب (أي الشعوب العربية) اذا اردات النجاة والفوز في هذه المعركة التي هي مصدر المعارك الأخرى ومحورها – لا ندحة لها عن ان تتعقلن . فبالعقلانية تدرك ان مشكلتها الأولى هي التخلف الحضاري ، وبها تقدم على محاسبة ذاتها، وتحن الى التحضر ، وتؤمن بالحقيقة وبالعقل، وتتطلع الى المستقبل، وتتفتح للخير من حيثما اتى ، وتولد قدراتها الإنتاجية ، وتحقق امكاناتها البشرية ، وتضبط ثوريتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية» (٨٣) .

وأما القدرات الخلقية فهي التي يمكن بواسطتها اقامة المجتمع العربي الفاضل الذي يعرفه زريق على انه المجتمع العلمي الذي يكفل للإنسان كرامته وحريته. ويتمثل هذا المجتمع في رأي زريق بمجموعة من القيم : أهمها الولاء للحقيقة وللواجب وللعطاء وللغير وللمستقبل وللمسؤولية (٨٤). فالقيم هي التي تعطي للوطن قيمته ، وبدونها يصبح كيانا فارغاً (٨٥). من هنا كان شرط زريق لولادة المجتمع العربي الفاضل هي ولادة جديدة

للاخلاق والروح في صفوف العرب(٨٦). فالمجتمع العربي الذي يتمناه زريق اذن هو مجتمع العلم والفضيلة .

توصل زريق في معالجته لأحداث العام ١٩٤٨ في فلسطين الى قناعة بأن الوضع العربي الراهن إنتهى الى افلاس مادي ومعنوي فاجع (٨٧). واعتبر هذا الوضع بما يمثله من مستويات المدنية والثقافة مسؤولا عن الهزيمة(٨٨). فتفوق المجتمع الصهيوني في المعارك كان انعكاساً لتميز نظامه عن نظام المجتمعات العربية. ونظام المجتمع الصهيوني قائم على اسس الحضارة الحديثة ، بينما تعيش المجتمعات العربية اوضاع القرون الوسطى وعقليتها، وتخدر نفسها باحلام عن امجاد الماضي، وتتنكر في الوقت ذاته للحياة الحديثة(٨٩). فارق القوة بين المجتمعين يحدده اذن الفارق الحضاري بينهما(٩٠). فإن اراد العرب الإنتصار عليهم ان يخوضوا معركة بناء المحتوى الحضاري لكيانهم ، الى جانب معركة الحفاظ على النفس واقامة الكيان(٩١) ولان المعركة الأولى موجهة ضد التخلف الحضاري بجميع اوجهه، لذلك كانت هي الأهم والأكثر خطورة(٩٢) . ويتحقق إنتقال المجتمع العربي من حالة التخلف الراهنة إلى الوضع الحضاري المنشود عندما يتم اعتناق نظرة للأمور تعتبر ان عالم الأمس لا يمكنه ان يفي بحاجات اليوم، وان نوعية المستقبل تعتمد على ما يبذل من عزيمة وتضحية ، وليس على عوامل خارجية ، وتقدم الواجب على الحقوق ، وتمنع تبديد الثروات وتشجع الادخار ، وتتبنى العقلية العلمية في بناء المجتمع (٩٣) .

قناعة زريق الراسخة بأن المستقبل هو ملك الذين يستحقونه(٩٤)، وان خلاص العرب هو في يد العرب أنفسهم(٩٥)، قادته في ضوء هزائم العرب المتكررة الى التساؤل عما اذا كان مواطنوه اكثر اهتماماً بالحفاظ على النظم منهم على سلامة الوطن(٩٦). فالمجتمع العربي المنشود لا يمكن أن يقوم اذا ما بقيت الأوضاع الأجتماعية السائدة على حالها لان غاية مثل هذا الكيان هي ان يصبح العرب جزءا من العالم الحديث . ولا يتحقق هذا الأمر إلا عند اعتماد الخطوات التالية : استخدام الآله على نطاق واسع ، والفصل مابين الدين والدولة ، وتنظيم الحياة القومية على اساس آخر ما توصل اليه العقل والفكر ، وتشجيع الحياة العلمية، والابتعاد عن الرومنطيقية ، والإنفتاح على القيم العقلية والروحية للحضارات الإنسانية الأخرى(٩٧). ويقترح زريق اربعة معايير لقياس مدى تقدم المجتمعات هي : قدرة المجتمع على التحكم بقوى الطبيعة والاستفادة من مواردها أولاً ، ودرجة إنتشار العقلية والمعرفة العملية ثانياً ، ومدى احترام الشخصية الإنسانية ثالثاً، ومقدار توافر الشخصيات الحرة المنتظمة رابعاً (٩٨).

يتضح من العرض السابق امتناع زريق في معالجته لمواصفات المجتمع المرتجى عن اتباع الأسلوب المعتاد للعديد من المفكرين العرب في الاحتكام الى الماضي ، بأمجاده

الحقيقية والخيالية . كما ويلاحظ ان المعادلات التي يعتمدها في التحليل تخلو من اية فرضيات حول تفوق مزعوم او محتوم للشخصية أو للحضارة العربية . على العكس من ذلك ، دعا زريق بشكل مستمر الى التخلي عن العقلية الماضوية ، واستبدالها بالعقلية المستقبلية التي تؤمن بالعقل وتعمل بأحكامه(٩٩). ويذهب زريق الى أبعد من ذلك حين يعلن ان العقلانية هي بطبيعتها تقدمية مستقبلية ، تتعارض الى حد بعيد والنظرة الرجعية(١٠٠) .وانطلاقا من هذه الرؤية ، قدم زريق في كتاباته ، كما سيتضح في موقع لاحق من هذه الدراسة، تحليلا مبدعا لقضية شغلت الفكر العربي الحديث طويلاً، هي مسألة موقع التراث حاضرا ومستقبلاً في الحضارة العربية . وبالنسبة الى توجهات المستقبل ، عارض زريق ، على الرغم من تفاؤليته المعتاده ، النظريات التي تستند الى مفاهيم الحتمية التاريخية، واكد أن مستقبل العرب يعتمد على نوعية ردهم على التحديات التي تجابههم حالياً(١٠١) .

واخيراً ، قد يعطي هذا العرض لآراء زريق إنطباعا بأن كتاباته تتضمن تصوراً محدداً أو ثابتاً لمجتمع العلم والفضيلة المنشود . والواقع ان معالجة زريق لطبيعة هذا المجتمع تعاني من بعض الغموض ، ولحقها مع مرور الزمن بعض التغيير . ويظهر ذلك واضحاً في استعماله مثلاً لمفهومي المدنية الغربية والحضارة الحديثة ، ولموقف العرب منهما . ففي كتاباته الأولى ، مال زريق الى الموازاة بين المفهومين، واشترط لتقدم الأمة العربية تمثلها بالغرب . وفسر تلكؤ العرب في الأخذ بالمدنية الغربية بأنه عائد الى عدم فهمهم لها فهماً صحيحاً(١٠٢)، وخشيتهم من استعمارية الغرب وتوسعه(١٠٣) ولكون الغرب ينظر اليهم ويعاملهم مع باقي شعوب الشرق كوسائل للوصول الى غايات شخصية(١٠٤). من الواضح ان هذه التحفظات التي يسوقها زريق على عملية التفاعل مع الغرب ليست اساسية، ويتغلب عليها الطابع السياسي . ولهذا حبذ زريق الاقتباس من الغرب ، ما دام ذلك الاقتباس يلبي حاجات حقيقية ، ويأخذ آخر ما توصل اليه الغرب(١٠٥) . وموقف زريق من مسألة التمثل بالغرب حددها في تلك الفترة كما يبدو طبيعة نظرته للحضارة الحديثة . فهذه الحضارة ليست عقلاً وعلماً فقط ، ولكنها ايضا فلسفة تسمح للأمة التي تتبناها ببناء قدراتها الذاتية ، واكتساب القوة والمناعة . فالقوة في عالمنا الحاضر هي رديف الحضارة الحديثة ، والشعوب القوية هي أيضا الشعوب المتقدمة حضارياً . وقد توحدت في المدنية الغربية المعاصرة القدرتان المادية والحضارية(١٠٦). ولهذا كانت مناداة زريق للأخذ بالمدينة الغربية، هي برأيه مناداة للعصرنة والتحديث .

اعتمد زريق بعد تلك الكتابات الأولى نظرة أكثر نقدية للمدنية الغربية، فدعا، كما ذكرنا سابقاً إلى التفريق ما بينها وبين الحضارة الحديثة ، والى مشاركة العناصر المتحررة في داخل المجتمعات الغربية في محاربة ودحر بواعث الطمع والشر المتواجدة في صميم هذه

المدنية (١٠٧). واعلن إنه يجب لاقامة حوار مثمر وتقدير متبادل للقيم بين شعوب الشرق والغرب ان يتخلى الغرب عن معاملته الاستغلالية للشرق ، وان يقوم الشرق باستنباط القيم الأيجابية الموجودة في تقاليده والمحافظة عليها(١٠٨) . وحذر من استمرار إنتشار المدنية الغربية ، وطبعها العالم باكمله بطابعها ، لان في ذلك خسارة كبيرة للإنسانية التي يزداد ثراؤها بتعدد وتنوع الحضارات(١٠٩)، وتحدث عن ازمة في المدنية الغربية الحديثة ناجمة عن تطرفها في اتباع مفهوم الحقيقة الطبيعية ، والأثباتات الحسية ، وعن حاجتها الى اكماله بمفهوم الأيمان(١١٠). وتراجع زريق عن بعض مفاهيمه السابقة حين نفى ان تكون الحضارة الحديثة حائزة على تفوق في المعاني الخلقية والروحية(١١١)، وحصر تميز الشعوب والدول المتقدمة بالتفوق العلمي والصناعي ، وقيد مفهوم التقدم بهذين المجالين(١١٢).

وبهذا التحول في مفاهيمه ، اقترب زريق من المواقع الفكرية للمفكرين العرب الذين نفوا أي تفوق للحضارة الحديثة خارج المجالات المادية، بعد ان افترق عنهم معظم سنوات حياته . ويظهر هذا التحول بوضوح حين يحدد زريق مجال القدرة الخلقية على إنه المجال الوحيد المتاح للشعوب النامية لمنافسة الشعوب المتقدمة . ويصف التأثيرات الخارجية في المجال الخلقي على إنها سلبية بمعظمها ، وتزيد المجتمعات المتخلفة ضعفاً . وهكذا ففي احدث تصور لزريق ، يستمد المجتمع العربي المرتجى قدراته العلمية من الغرب ، ويتطلع الى داخله لتطوير قدراته الخلقية(١١٣). ولقد احتوت كتابات زريق على تحليل للوسائط التي تحتاجها الأمة العربية لتطوير هاتين القدرتين واقامة مجتمعها المنشود .

وعلى الرغم من تجنب زريق البحث بشكل عام في النواحي التطبيقية للمواضيع التي يعالجها ، تحتوي كتاباته على عرض عام للقواعد التي يجب اعتمادها في عملية تنفيذ الأهداف القومية . وبالنسبة الى قضية الإنتقال بالمجتمع العربي من وضعه الراهن الى الحالة المرجوة ، بالامكان بمراجعة دقيقة لمؤلفاته استخلاص أربع وسائط رئيسية مقترحة للقيام بعملية التحول . وفيما يلي بحث لهذه الوسائط الأربع .

العقيدة القومية : بدأت الفكرة القومية تلاقي في أعقاب الحرب العالمية الأولى إنتشاراً متعاظما في أوساط المفكرين العرب ، من مصلحين دينيين وعلمانيين . واشترك رجال الاصلاح من الطرفين في إبراز الهوية العربية ، والتأكيد على خاصية العنصر العربي ، وذلك بهدف توفير روابط معنوية توحد بين فئات المجتمع المتنافرة ، وتوجه جهودها لمحاربة الوجود الأستعماري الغربي . إلا أن الطرفين اختلفا من حيث تعيين الغاية النهائية للفكرة القومية . فالمصلحون الدينيون كالشيخ رشيد رضا وتلامذته تبنوا موقفا نفعيا ، ينظر الى المجتمع القومي كمرحلة وقتية تسبق إنبعاث المجتمع الأسلامي القوي المتحد من جديد . اما العلمانيون : كنجيب عازوري مثلاً ، فنظروا الى الأمة العربية كحقيقة نهائية ،

واعتبروا الرابطة القومية اقوى وأهم من الرابطة الدينية . وبقدوم العقد الثالث من هذا القرن ، تعاظم شأن العلمانيين من القوميين العرب ، وتبلورت مفاهيمهم وبرامجهم بشكل ملحوظ . واشتهر بينهم قسطنطين زريق الذي اعتبر منذ ذلك الوقت ممثلاً بارزا للفكر القومي العلماني .

إنطلق زريق في اول معالجة له للفكرة القومية من أطروحة أساسية تقول بحاجة جميع النهضات القومية إلى نهضات فكرية تسبقها أو تلازمها لتأدية وظيفتين : الوظيفة الأولى هي امداد المجتمع بأساس نظري أو فلسفة قومية ، تحدد لحركة التغيير فيه الغايات والأهداف والأتجاهات ، وتعين لها الوسائل والمعالم والحدود. وأما الوظيفة الثانية فهي ان توفر لأفراد المجتمع عقيدة قومية تدفعهم إلى العمل في سبيل اهداف جماعية . والعالم العربي الذي يشهد حركة انبعاث واسعة ، يفتقر الى النهضة الفكرية الموحدة والموجهة التي بامكانها أن تقضي على حالات التشتت والضياع التي يعاني منها. وتقع المسؤولية في ذلك على عاتق المفكرين العرب بالدرجة الأولى ، الذين بقوا بعيدين عن القيام بواجباتهم ، وفشلوا حتى في توضيح مفاهيم الفكر القومي الأساسية (١١٤) . وبعد انتقاده لهم ولانتاجهم الفكري ، دعا زريق اقرانه من المفكرين العرب الى بناء فلسفة قومية، وإلى استخلاص عقيدة قومية منها .

بالرغم من إن زريق لم يقدم بنفسه على تطوير الفلسفة القومية التي دعا اليها، الا انه ساهم بكتاباته بتوضيح العديد من مفاهيم الفكر القومي، وبتوجيه الأهتمام بواسطة الأسئلة التي كان يثيرها الى بعض الجوانب المهمة في الحياة القومية.

من الجدير بالملاحظة ان تناول زريق لفكرة القومية خلا إلى حد بعيد من المحاولات المعهودة في الأدبيات القومية الرامية إلى تبرير القومية وبرهنة تفوقها على غيرها من العقائد بالاحتكام إلى التاريخ ، أو إلى بعض القيم المطلقة . ولقد أتاح هذا الأسلوب لزريق الاندفاع في تبنيه للقومية كأساس لإعادة تنظيم المجتمع العربي ، دون ان يحتاج الى الدخول طرفاً في المعارك الفكرية التي استعرت بين اتباع المدارس الاصلاحية والتقليدية، وفي أوساط الأصلاحيين انفسهم ، حول دور العقل والإيمان، ومكانة القوانين والشرائع . ومفاضلة الديمقراطية والشورى وغيرها من القضايا الشاغلة للفكر العربي الحديث . وببقائه خارج هذه المجادلات استطاع زريق ان يتجنب الدخول في متاهات من النقاش والجدل ، وان ينطلق من فرضية تعتبر القومية العربية امراً قائما لا حاجة الى اثباته ، لانها الأطار الذي اختاره المجتمع العربي لتوجيه عملية التغيير التي يمر بها(١١٥). ولذلك فواجب المفكر العربي ، هو شرح وتفسير العقيدة القومية ، وتمكينها من النفوس ، لأن ذلك يؤدي الى إنهاء حالات التشتت والضعف والى الاستفادة بشكل ايجابي من قوة المشاعر القومية للجماهير(١١٦).

يتصف منهج زريق في تناوله للفكرة القومية بخصوصيتين بارزتين متميزتين . الخاصية الأولى، هي اعتباره القومية كعقيدة وكهوية ، واسطة لا غاية ، واختلافه مع المفكرين القوميين الآخرين في تعيين غايات هذه الواسطة. واعتبار زريق للقومية كواسطة يتجلى بوضوح في استعراضه وتفسيره لها على أسس نسبية ومؤقتة ونفعية . فالهوية العربية ، مثلا، هي المطلوبة في الحاضر وللمستقبل القريب ، لانها الأنسب للعرب. ولكنها ليست حقيقة أبدية ، وقد تتغير إذا دعت الظروف لذلك . والتمسك بالعقيدة القومية أيضاً ليس أمراً حتميا فتعلق المواطنين بها يعتمد على مقدار ما تحققه لهم من تقدم وحريات . فإذ فشلت في ذلك تفقد مبررها ، ويتخلى الناس عنها، ويفضلون عليها عقائد أخرى(١١٧). والمشاعر القومية ليست مجرد نتيجة لحالة طبيعية ، ولكنها وسيلة يجري تبنيها لتحقيق وظائف اجتماعية ايجابية كمعالجة الإنقسامات الأفقية والعمودية الحادة الناجمة عن الطائفية والقبلية والأقطاعية والأقليمية التي يعاني منها المجتمع العربي(١١٨). وإنطلاقاً من هذا التصور حدد زريق للقومية غاية أبعد من الأستقلال السياسي.، هي تحرير الفرد(١١٩). وبدلا من التركيز في تحليله للقومية على الأمة ، وضرورة خضوع الأفراد لها ، كما فعل ساطع الحصري مثلاً ، اعتمد زريق الفرد وحدة التحليل الأساسية عند معالجة الظاهرة القومية ، وأعتبر إن تحقيق مصالح هذا الفرد يجب أن تكون غاية القومية المباشرة والرئيسية . فجهاد العرب القومي ، على سبيل المثال، هو حصيلة جهاد نفسي يخوضه الأفراد ، يهدف الى بناء شخصية عربية جديدة ، تتصف بالنظام في التفكير والعمل أولاً ، وبالحرية من الجهل والتعصب والشهوة الى المادة والأنانية ثانيا، وبالشعور بالمسؤولية في الفكر والقول والعمل ثالثا(١٢٠). هذا التشديد القوي على دور الفرد يشكل على الأغلب ابرز مساهمة لزريق في تطوير الفكر القومي العربي (١٢١) .

أما الخاصية الثانية لمنهج زريق ، فهي اعتماده مفهوماً للقومية علماني الطابع وتقدمياً . فلقد اعتبر زريق العلمانية من الخصائص الجوهرية للحركات والدول القومية . وحذر من ان حركة القومية العربية لن تتمكن من تأصيل جذورها، إلا إذا اعتنقت مبدأ علمانية الدولة(١٢٢). فالقومية والعلمنة مرتبطان ببعض ، بحيث ان وجود وقوة أي منهما يعتمد بشكل مباشر على وجود وقوة الآخر . ويعلن زريق ان من أهم التحديات التي تواجه القومية العربية هي ضمان المساواة القانونية والواقعية لجميع المواطنين(١٢٣) . وأما التقدمية في مفهوم زريق للقومية ، فتتخذ مظهرين : فهي تقدمية أولا بالمقياس الزمني ، لانها تدعو الى توجيه الفكر الى المستقبل ، عند النظر في القضايا القومية ، والتخلي عن العقلية الماضوية المكبلة للفكر العربي (١٢٤). وهي تقدمية ثانياً ، من حيث مناداتها بالثورة على الإستغلال والرجعية . ويقول زريق في هذا الخصوص «أن أكبر خطر على قوميتنا هو الرجعية بشتى مظاهرها»(١٢٥) . ولهذا يرفض زريق عند معالجته لمستقبل الأقليات الدينية

في العالم العربي الأدعاء بأن هناك مشكلة بين الأسلام والمسيحية ، وبين المسلمين والمسيحيين . ويرجع المشكلات التي تظهر في هذا المجال إلى الصراع بين المنتمين إلى الرجعية والتحررية في كلا الجانبين . وهو الصراع الذي يتوقف عليه مستقبل العرب بأكملهم (١٢٦). إلا ان قومية زريق العلمانية والتقدمية لم تقده إلى الإغتراب عن التراث الإسلامي العربي، كما تبين سابقاً ، وكما يتضح من الجزء اللاحق عن التراث القومي ويكفي في هذا المجال الأشارة الى المكانة التي خص بها الرسول في مقالته المعنونة «القومية العربية والدين» المكتوبة بمناسبة ذكرى المولد ودعوته القوميين العرب الى التمثل بالسيرة النبوية . فالنبي محمد على علاقة وثيقة بالقومية العربية ، من حيث انه نبي الإسلام، والإسلام هو الديانة التي تشكل بنصوصها وأحكامها ونظمها أساس الثقافة العربية الحاضرة . وتعود هذه العلاقة الخاصة أيضا الى ان النبي هو موحد العرب ، ومثال رجل المبدأ والعقيدة(١٢٧) . ولهذا فكثيرا ما يشير زريق إلى الرسول بعبارات «النبي العربي » و «الزعيم العربي »و« القائد العربي» وغيرها من العبارات المشابهة . ويجدر الملاحظة في هذا المجال إن مقالة زريق هذه سبقت بعدة سنوات مقالة ميشال عفلق المشهورة والمماثلة عن الرسول التي القيت كخطاب في الجامعة السورية في العام ١٩٤٣(١٢٨). وليس من المستغرب إذن ان يعتبر البعض زريق مرجعا لجيل كامل من القوميين(١٢٩) .

يستخلص مما تقدم ان القومية العربية هي في رأي زريق ، العقيدة التي يحتاجها العرب لتوجيه جهودهم في اعادة بناء مجتمعهم . وأما محتوى هذه العقيدة فيحدده التراث والتربية القوميان .

التراث القومي : لم يكن لزريق، وهو الممتهن لدراسة وتدريس التاريخ ، أن يتجاهل أثر الماضي في الحاضر ، ودوره في بناء المستقبل . ولقد زاد من اهتمامه بهذا الأمر إدراكه لمكانة الماضي الخاصة المميزة في الحضارة العربية . ولهذا أعطى زريق للتراث في كتاباته إهتماماً خاصا وجعله واسطة رئيسية من وسائط التحول إلى المجتمع المطلوب .

تتوجه معالجة زريق لمسألة التراث إلى الإجابة عن ثلاثة أسئلة : ما هي مكانة التراث وما طبيعة حاجتنا إليه ؟ ما هي مواقف الفئات المختلفة في المجتمع من التراث ، وماذا يميز كل منها ؟ وما هو الموقف الذي يجب اعتماده من التراث؟

ينظر زريق الى التراث القومي على انه علامة الأمة العربية المميزة، وأرضيتها المشتركة مع باقي الأمم . فهو يضفي على الأمة خصوصية تنفرد بها عن غيرها ، ويشكل في الوقت ذاته مساهمتها في الحضارة الإنسانية (١٣٠) . وتمتد اهمية التراث الى الحاضر ، لانه الأساس الذي تقوم عليه الثقافة الحالية(١٣١)، والى المستقبل لأنه حقل للتعلم

لانه الأساس الذي تقوم عليه الثقافة الحالية(١٣١)، والى المستقبل لأنه حقل للتعلم والأختبار يستعان به لايفاء الحاجات المستقبلية(١٣٢). ولان للتراث بالمقياس الزمني هذه المكانة الخاصة ، خلص زريق إلى القول بأن «كل من لا ماضي له لا حاضر له ولا مستقبل »(١٣٣) .

ويقدم زريق عدة مقترحات لكيفية الأستفادة من التراث في تلبية حاجات المجتمع العربي ، وتحقيق أغراض قومية . من هذه المقترحات إيجاد ثقافة قومية مستمدة من التراث تبرز خصائص الأمة العربية ، وتخلق بين أبنائها وحدة عقلية وروحية ، تدعم وحدتها السياسية والأجتماعية(١٣٤). ويقترح زريق أيضاً استلهام التراث لتطوير ثقافة تاريخية ، تنمي شعور الأمة بأصالتها ، لأن في ذلك ما يعطيها ثقة بالنفس ، ومناعة في مواجهة الأحداث(١٣٥). ومن مقترحات زريق ايضا العودة الى التراث لاكتساب ادراك افضل للذات القومية والفردية ، لانه بمعرفة الذات ، يمكن اكتشاف الأسئلة والمشاكل الجوهرية والمهمة التي تعترض الأمة والمواطن(١٣٦). واخيراً ولا ن معايير التقييم الموجودة مشوشة ، نتيجة لظروف التغيير السريع الذي يرافق حالة النهضة ، مما يجعل من الصعب الأحتكام اليها، يقترح زريق استخلاص معاني التراث الأيجابية ، واستعمالها مقياسا في الحكم على القرارات القومية ، وحافزا على الأعمال الابداعية(١٣٧).

وبالنسبة إلى الموقف من التراث ، يورد زريق بعض الأحكام العامة التي تفسر اسباب تعدد واختلاف هذه المواقف في المجتمع . من هذه الأحكام : ان الموقف من التاريخ والتراث يعكس موقفاً من الحياة العامة(١٣٨) ،وأن لجميع البشر نظريتهم وتفسيرهم للماضي ، بغض النظر عما اذا كانوا على وعي بهذه الحقيقة ام لا(١٣٩). وتختلف الأجيال في نظرتها الى وقائع التاريخ وتفسيرها لها ، وتتعدد مواقفها منه لأن العودة الى التاريخ تتم في اطار اهتمامات الحاضر وآمال المستقبل(١٤٠). ويقدم زريق تفسيراً يربط مباشرة بين درجة الإنفتاح على التراث ، ومدى الإنفتاح او الإنغلاق على حضارة الغير ، وخاصة الحضارة المتفوقة او المتغلبة(١٤١). ويستعين زريق بهذا التفسير الأخير ليصنف المواقف من الإنفتاح على الغير وعلى التراث الى ثلاث فئات : الفئة الأولى : وهي التي تتخذ موقف الرفض المطلق لحضارات الغير ، مما يؤدي بها الى القبول المطلق للتراث. وتتصف هذه المجموعة بالتعصب والتشدد . وأما الفئة الثانية ، فتتخذ موقفاً مناقضا تماما للفئة الأولى في القبول المطلق لما يأتي من الخارج ، ورفض التراث كلياً ، إيماناً منها بأن في ذلك أفضل الطرق وأقصرها للتحديث والتطور . ولأن فشل هذه الفئة محتم تقريباً ، فسرعان ما يعود التراث الى فرض نفسه بأساليب وأشكال مختلفة . ويشير زريق إلى ان قيام هذه الحالة يؤدي في بعض الأوقات بأصحاب الفئة الثانية الى تبرير موقفهم على اساس انه يرمي في نهاية الأمر الى المحافظة على التراث وحمايته . وحينذاك يختلط الأمر

بين المجددين والمحافظين ، وبين التقدميين والرجعيين . والفئة الثالثة والأخيرة ، تضم مجموعة كبيرة من المواقف المتباينة في درجة رفضها أو قبولها للتأثيرات الخارجية ولكنها متفقة على مبدأ الأقتباس ، وضرورة التفاعل بين القديم والجديد . وتتميز هذه المواقف عن بعضها في الهدف والاسلوب. فمن حيث الأهداف تتنوع إلى مجموعتين : المجموعة التي تقبل ببعض عناصر الحضارة المتفوقة ، ولكنها ترفض قيم هذه الحضارة ، وهدفها الحصول على مصادر القوة، والدفاع في الوقت نفسه عن التراث والشخصية الذاتية ، والمجموعة التي تسعى إلى اكتساب المبادئ والأسس المسؤولة عن قدرات الحضارة المتفوقة ، بالأضافة الى عناصرها التي لها فائدة عملية. ومن حيث الأساليب تتوزع هذه المواقف إلى مجموعتين أيضاً : المجموعة التي تريد للأقتباس ان يتم بتدرج ، لأن ذلك أضمن لفاعليته واستمراريته، والمجموعة التي تلجأ الى الثورة لأحداث التغيرات السريعة لرغبتها التخلص من تخلفها بأقرب وقت (١٤٢).

ويستعمل زريق في تحديده للموقف الذي يجب اعتماده من التراث الحجج التالية : تنبه الأمة العربية الى تاريخها كان من العوامل المهمة في قيام نهضتها، كما ان النكبات التي مرت عليها ، كانت حافزا لها للتفكير في ماضيها وفي مصيرها(١٤٣). هذا النظر في تاريخ الأمة تمخض عن تيارات عديدة ، اختلفت فيما بينها في تعريف الماضي الذي تريد احياءه ، والغاية التي ترمي اليها عملية الاحياء(١٤٤). بين هذه التيارات اتجاهان يجب رفضهما بقوة .يتمثل الإتجاه الأول بإنجذاب دعاته الى الماضي بشدة تنسيهم اهتمامات الحاضر ، وبقصر اهتمامهم عادة على جزء معين من تاريخ الأمة . وبإضفائهم على هذا التاريخ هالة وقداسة تجعلهم غير راغبين في تخطيه(١٤٥) . وأصحاب هذا الاتجاه لا يعون أن كل من يحاول مقارعة الحاضر بالماضي، سيكون دوماً من الخاسرين (١٤٦).وأما الأتجاه الثاني الذي يجب رفضه فهو الداعي إلى نقض التراث ، لان في ذلك قضاء على عناصره الجيدة والسيئة معا . ويضاف إلى ذلك أن التجرد والإنفصال كليا عن الماضي غير مستحسن وغير ممكن واقعياً(١٤٧). ويطلق زريق على هذين الإتجاهين تسمية الرجعية المتخلفة، والمستقبلية الجامحة ، ويعتبر كلاً منهما خطراً على التراث(١٤٨) .

بالإضافة إلى استعراضه للتيارات المتواجدة ضمن المجتمع ، يتحدث زريق عن وجود علاقة تربط بين المستوى الحضاري للمجتمع ، وموقفه العام من تراثه . ففي حالات الإنحلال يأخذ المجتمع من تراثه الأشكال والتقاليد دون المضمون . ويصبح التاريخ عندئذ مرضا عقلياً ، يزيد المجتمع ضعفاً ، لان استعماله لهذا التاريخ ينحصر في المفاخره والأستعلاء (١٤٩). وعندما يصطدم المجتمع بحضارة اكثر تطورا يبدأ بالأستفاقة إلى تراثه . وأما طبيعة تأثره بهذا التراث ، فيعتمد على مدى تطور العقلانية في المجتمع ، وعلى حالة المجتمع النفسية. فإن ضعفت العقلانية ، وصاحبها شعور بعدم الأمان ، أدى

ذلك إلى توهم المجتمع بأن التراث ملجأ يحميه .وأن قويت العقلانية ورافقها شعور بالامان ، كان المجتمع اقدر على التمييز بين عناصر التراث ، واختيار ما يوافقه منه(١٥٠)

وينطلق زريق في عرض موقفه الخاص من التراث باعتماد مبدأ يقول : ان الشعوب الحية بحاجة مستمرة إلى تقييم تاريخها ، واستخلاص تراثها الإيجابي منه . ويعرف زريق التراث الأيجابي على انه مجموعة الأعمال التاريخية التي اتصفت بالأبداع والتقدم ، وساهمت في خلق ظروق الحرية والكرامة للمواطن وللإنسان عامة . ولهذا اعتبر زريق التاريخ عبئاً وحافزاً في الوقت ذاته . ودعا إلى ضرورة قيام الأمة بالحكم في تاريخها لكي تحسن فهمه واستخدامه في تلبية حاجات المستقبل ومتطلباته(١٥١). والحكم في التاريخ لاكتشاف قيم التراث التي هي أهل للإحياء يكون بواسطة العقل المتحرر والمنتظم الذي يحتاج العرب إلى اقتباسه من الحضارة الحديثة(١٥٢) .ويخلص زريق إلى انه باستخلاص الأعمال الأبداعية للسلف والتمثل بها يزداد المجتمع أصالة ، وتتعزز فيه العقلية المستقبلية (١٥٣) .

التربية القومية : اتجه زريق بشكل أساسي في كتاباته التي تتناول انظمة التربية والتعليم والثقافة في العالم العربي الى استعراض الملامح الرئيسية والأسس الفلسفية لهذه الحقول الثلاثة، والى تبيان الدور المتوقع منها في إعادة بناء المجتمع العربي .

عرف زريق التربية القومية على انها تهذيب مكتسب ، ينمي في غالبية الشعب مشاعر الإنتماء إلى الأمة ، المسؤولة بدورها عن قيام المواطن بواجباته تجاه أمته . وتؤدي التربية القومية بالنسبة إلى الأمم الوظائف ذاتها التي تقوم التربية المدرسية بأدائها بالنسبة إلى الأفراد . فهي تعد الأمة لأن تحيا حياة قومية صحيحة ، بتخفيفها من حدة النزاعات التي يتأجج بها المجتمع من الداخل . وهي توحد بين الإتجاهات السلوكية والفكرية المتباينة ، لأنها تمد المجتمع بهوية وغايات محددة .

وتعمل التربية القومية أخيراً على تأهيل المجتمع للمساهمة في الحضارة الإنسانية ، باطلاق طاقاته . وتوجيهه لتحقيق المثل العليا . ولتكتسب التربية صفتها القومية ، يشترط زريق أن تكون مستمدة من فلسفة قومية من جهة ، ومن الحياة الواقعية من جهة أخرى . فإذا توفر لها ذلك ، حازت على الأستقرار والأستمرارية، وجاءت موافقة لمحيطها وظروفه . وعالج زريق في كتاباته دور الوسائل المستعملة في بث التربية القومية ، ومنها منظمات التعليم ووسائل الأعلام والأحزاب السياسية والأسرة . ونبه في سياق معالجته لهذه الأساليب ، الى اهمية إنشاء الصحف والأحزاب السياسية العقائدية (١٥٤) .

ويقارن زريق بين الدين والتربية كوسائل لاصلاح الأفراد ، وادخال التغييرات الأجتماعية المطلوبة ، ويقرر إن للتربية في هذا المجال شأناً منذ أن أدى شيوع التعليم في العصر الحديث الى إنهاء احتكاره من قبل اقلية محافظة سلفية متحالفة مع السلطة(١٥٥) . إضافة إلى ذلك ، اعتبر زريق التربية أضمن الوسائل لإصلاح المجتمع العربي ، والسير به في طريق التحضر(١٥٦) . فبواسطتها يحفظ التراث ، وينقل من جيل إلى جيل . وهي المسؤولة كذلك عن تكوين الطبقة القيادية المطلوبة لتوجيه المجتمع(١٥٧) . ويعبر زريق بذلك عن القناعة ذاتها التي اعتنقها معظم الإصلاحيين العرب المحدثين ، والتي تمثلت على أفضل وجه في تعاليم مدرسة محمد عبده الفكرية .

ويتحدث زريق عن ازمتين في التربية العربية . الأولى خاصة بالمتعلمين العرب، والثانية تكمن في النظام التربوي للعالم العربي . وأما أزمة المتعلمين، فسببها عدم فهم هؤلاء بشكل صحيح لحقيقة العلم والثقافة ، وإنشغالهم بالمظاهر الخادعة ، وبالمعرفة الجزئية والسطحية(١٥٨) .وأما ازمة النظام التربوي ، فجوهرها تخلف هذا النظام في تلبية الحاجات الحالية والمتوقعة للمجتمع العربي(١٥٩).ويعلن زريق فشل النظام التربوي فشلا كليا في توضيح المسائل والمخاطر القومية للنشء ، والتوفيق بين قيم التراث والحضارة الحديثة ، وبلورة العقيدة القومية ، وتخريج طبقات قيادية جديدة. واعتبر أن المسؤولية في ذلك تقع على السياسات المتبعة ، كسيطرة الدولة على جهاز التعليم ، وطغيان المركزية، والتقلبات المستمرة في سياسات التعليم ، وعدم تشجيع روح الإبتكار ، والأعتماد على التلقين ، وعدم الإهتمام بتطوير الناحية الخلقية في شخصية الطالب . وتجاهل اهم عنصرين في العملية التربوية : الطالب والأستاذ(١٦٠) .

ويحذر زريق من ان استمرار نظام التربية العربية على ماهو عليه لن يؤدي فقط إلى تفاقم المشاكل العربية ، ولكنه سيجعل من التربية عائقا للتقدم . ويقترح لمعالجة هذه الأزمة مجموعة من الإجراءات الإصلاحية التي تهدف إلى إجراء تغييرات جذرية ، ومجموعة ثانية لمعالجة الوضع على المدى القصير . وتتناول إجراءات المجموعة الأولى مجالين : المفاهيم التربوية من جهة، والنظم والوسائل من جهة أخرى. فعلى مستوى المفاهيم ، دعا زريق إلى التركيز على تطوير الشخصية بدلا من التلقين ، واعتماد مبدأ التربية الشاملة ، بدلاً من التربية المحدودة والمجزأة ، وإحلال البرامج التي تشجع قيم الإنتاج والتنمية ، مكان البرامج التي تنشر قيم الإستهلاك والإنتفاعية وعلى مستوى النظم والوسائل حدد مجالات الإصلاح بإدخال الوسائل التكنولوجيه في العملية التربوية ، وتثوير الإدارة التربوية ، وخلق وتطوير المؤسسات التربوية التكنولوجية في العملية التربوية ، وتثوير الإدارة التربوية . وخلق تطوير المؤسسات التربوية كالمجالس المشتركة ، ومراكز البحوث والتخطيط ، وتنسيق الجهود العربية في المجال التربوي على

أسس قومية . واما إجراءات المجموعة الثانية ، فتشتمل على مقاومة سياسات التسييس للتربية واستخدامها للأغراض التجارية ، وتقليص مجالات التسيب والهدر الموجودة في النظام التربوي ، وتحسين اوضاع المعلمين ، وربط البرامج التربوية بعملية التنمية ، وامداد الجهاز التربوي بما يحتاجه من امكانيات لأغراض التنمية والتطور (١٦١) .

إلى جانب مواضيع التربية والتعليم ، تناولت كتابات زريق بالتوضيح مفهوم الثقافة على مستوى الفرد والوطن معاً . ويعرف زريق الثقافة الفردية على انها معرفة مكتسبة للفكر الأساسية التي تقوم عليها المعارف الإنسانية المختلفة ، مع تخصص وتعمق في احد نواحي المعرفة ، على ان يدعم ذلك صفات عقلية وروحية معينة كالرغبة الدائمة في معرفة الحقيقة، والشك في ظواهر الأمور ، والجهد والمعاناه في البحث ، والتواضع ، وطلب الثقافة لنفسها وليس لغاية مادية(١٦٢) . وأما على المستوى القومي ، فيقرر زريق انه من غير الممكن تعريف الثقافة العربية في هذه المرحلة ، لعدم وجود اتفاق بين العرب يحدد المقصود منها . ولكنه يناشد الأمة على خوض جهاد يهدف إلى الحفاظ على طابعها الثقافي . ويدعو زريق إلى الاستعانة بعدد من المبادئ في توجيه هذا الجهاد ، منها ان يجري ربطه بالعمل القومي السياسي لتحرير البلاد ، واستعادة الأمة لسيطرتها على مؤسساتها الثقافية ، وتحديد جوهر الثقافة العربية ومحتواها ، من خلال العمل على إحياء التراث ، والتعرف على القوى الفاعلة في ثقافته الحاضرة ، وإشاعة الثقافة العربية بمختلف الوسائل في أوساط الشعب(١٦٣) .

على الرغم من ان زريق أحجم عن الأعلان عن مفهومه لماهية الثقافة العربية الحاضرة ، إلا انه قام بتوضيح افكاره حول الصفات المطلوب توافرها في ثقافة المجتمع العربي المنشود . هذه الثقافة المستقبلية تتصف برأيه باساس شعبي واسع، وبتجاوبها مع حاجات مجتمعها ، وايمانها بالعقل واحكامه، وتأصلها بالعناصر الأيجابية في تراثها ، وتفتحها على الحضارة الإنسانية ومشاركتها فيها(١٦٤). ومن بين المؤسسات الوطنية المسؤولة عن تطوير هذه الثقافة ، يخص زريق الجامعات بالدور الأساسي والأهم ، ويستعرض هذا الدور في العديد من كتاباته (١٦٥) .

يتبين من معالجة زريق لمواضيع التربية والتعليم والثقافة تميز تفكيره في ثلاث نواح : الناحية الأولى ، هي تركيزه الشديد على الدور الحاسم للتربية في الحياة القومية ، مما يضع كتاباته في هذا المجال من الفكر القومي في المرتبة نفسها التي تحتلها مؤلفات ساطع الحصري . والناحية الثانية هي مساهمته الهامة في إدخال وتعميم مفاهيم التربية الحديثة إلى الفكر العربي ، ووضعه لبعض هذه المفاهيم موضع التطبيق عندما احتل مناصب عالية في المؤسسات التربوية . اما الناحية الثالثة والأخيرة ، فهي انصرافه كليا منذ الثلاثينيات الى تقييم ونقد الانظمة التربوية التي ادخلت في العصر الحديث الى العالم

الإصلاحيين المسلمين إلى تخصيص الجزء الأكبر من جهوده لتثبيت عدم ملاءمة نظم التربية الدينية التقليدية لاحتياجات العصر . ومما لا شك فيه ان التربية الحديثة التي تلقاها زريق ، واعتناقه لمبدأ العلمانية ، وللعقيدة القومية ، كان له أبلغ الأثر في تحديد اهتماماته وتوجيهها .

النخبة القومية : من الواضح ان الوسائط الثلاث السابقة ، والتي تشتمل على القومية والتراث والتربية غير قادرة بنفسها على نقل المجتمع من وضعه الراهن إلى حالته المرجوة ، لأنها جميعا تتكون من عوامل استاتيكية غير متحركة ، تحتاج لكي تصبح فعالة إلى قوة من خارجها تعمل على تنشيطها، وعلى توجيه وإستغلال الطاقات الكامنه فيها . وبدون تعيين هذه القوى الخارجية ، كان الهيكل الفكري الذي طرحه زريق سيفقد بالضرورة كل صفة عملية أو واقعية ، ويتحول إلى تنظير طوباوي غير قابل للتطبيق ، هذه الواسطة الرابعة التي تضفي على تنظير زريق بعده الديناميكي، هي فكرة النخبة التي نادى بها بقوة وبشكل دائم في جميع كتاباته تقريباً .

يساوي زريق بين مفهوم النخبة والمفاهيم الأخرى كالقيادة والطليعة والخميرة والرسل والصحابة وما إليه(١٦٦). وينظر الى جميع هذه المفاهيم على انها تشير إلى أقلية متميزة ، هي المسؤولة بقدراتها الإبداعية عن قيام الحضارات. ويذهب زريق في تأكيده على أهمية النخبة إلى أبعد من ذلك ، فيقول بأن قيمة الحضارات وأحوال المجتمعات، تعتمد على نوعية النخبة وأهليتها من جهة وترتبط بحال النخبة فيها من جهة أخرى.(١٦٧) فالنخبة تجسد اقصى درجات الوعي في مجتمعها ، وهي المؤهلة للابداع ، لانها لا تحجم عن تخطي ما هو قائم وارتياد المجهول ، وهي الطاقة التي تمد المجتمع بالحيوية والتجدد ، وهي اخيرا مصدر التقدم والرقي(١٦٨).

وبالنسبة إلى المجتمع العربي ، فقيام المجتمع الأفضل لا يكون إلا بمقدار الإنتاج الحضاري الذي تحققه النخبة العربية (١٦٩). والأخطر من ذلك ان نقطة الإنطلاق في عملية التحول الإجتماعي تكمن في توافر هذه النخبة . فبدونها يخلو المجتمع من العنصر الوحيد الذي لديه القدرة على التغيير والإصلاح . أما نجاح النخبة في تحقيق الآمال المعقودة ، فيعتمد على مدى إعتناقها وإيمانها بأهداف أمتها، ودرجة إنتظامها في أحزاب عقائدية ، وقدرتها على إمداد الأمة من ضمن صفوفها بالزعامة التي تحتاج إليها(١٧٠). النخبة أو القيادة المختارة إذن «هي الشرط الأول لبناء الأمم وإنشاء الحضارة»(١٧١).

هذا المفهوم النخبوي الذي يتبناه زريق هو نتيجة طبيعية للفرضيات التي انطلق منها في تفسيره للتقدم والحضارة. فبإرجاعه هذه الظواهر إلى إبداعات بعض البشر ، قاده المنطق إلى معادلة تعتبر إن توافر العنصر البشري المتميز يحتم قيام المجتمع المتقدم

المنطق إلى معادلة تعتبر إن توافر العنصر البشري المتميز يحتم قيام المجتمع المتقدم والمتحضر . ولهذا إنشغل زريق في التبشير بدور هذه النخبة ، والدعوة لها ، بدلاً من القيام مثلا ببحث الواقع الاجتماعي الذي كان يمكن ان يقوده الى تحسس الظروف الموضوعية، وتقدير أهميتها بشكل أفضل . بيد ان الباعث إلى ايمان زريق بالنخبة قد يكون مرده أيضاً تأثره بوضع المجتمع العربي في مرحلة ما بين الحربين العالميتين. فزريق من الأجيال الأولى في المشرق العربي التي حصلت على معظم ثقافتها العلمية الحديثة في مؤسسات تربوية خارج العالم العربي أو الإسلامي . وكان من الطبيعي أن ينظر زريق وأقرانه إلى أنفسهم كأعضاء في حلقة فكرية صغيرة جداً ، مختلفة عن باقي المفكرين العرب الذين سيطرت عليهم التقاليد وروح المحافظة ، وعن عامة الشعب التي كانت تعاني من درجة عالية من الأمية والجهل . ولقد عكس هذا الموقف نفسه بوضوح في الأحكام التي اطلقها زريق في كتابه الأول : الوعي القومي ، والتي جرت الإشارة الى بعضها من قبل . فالعالم العربي يفتقر إلى الفكر الصحيح ، ويعيش في فوضى فكرية . والمفكرون العرب لا يقومون بواجباتهم على نحو صحيح ، ويسيئون على وجه العموم إدراك وفهم طبيعة العلم والحضارة الحديثة . وهم لاهون بالقضايا الثانوية والأبحاث الجزئية ، ويجب إيقافهم عن ذلك . وتجدر الأشارة اخيراً إلى ان استعمال زريق لمفهوم النخبة يعاني من معضلة أساسية . فباستثناء الأقتراح بأن للمؤسسات التربوية دورها في إنتاج هذه النخبة، يفشل زريق في ان يبين كيف يمكن لمؤسسات تقليدية في مجتمع متأخر ان تفرز النخبة المطلوبة للإنطلاق في عملية التطور ، دون ان يسبق أو يرافق ذلك تغييرات اساسية في ظروف المجتمع الموضوعية . إن عدم تعرض وتوضيح زريق لهذه المسألة هو الذي يعطي لفكره وللفكر القومي في مراحله الأولى صبغتهما المثالية .

خاتمة : مراجعة وتقييم :

استعرضت هذه الدراسة فكر قسطنطين زريق ومساهماته في الفكر العربي الحديث في محاولة لاستخلاص القواعد العامة التي احتوتها كتاباته . ولتحقيق هذا الغرض ، تم تحليل مؤلفاته لاستبيان الخطوط الفكرية التي احتوتها ، والتي تشكل القواسم المشتركة والنسيج الذي يربط بعضها ببعض . ولهذا تغاضت هذه الدراسة عن المنهج التقليدي المتبع الذي يعالج إنتاج المفكرين ضمن اطار السياق أو التسلسل الزمني لتواريخ النشر .

يتضح مما سبق تبني زريق في كتاباته عدداً من المفاهيم الأساسية التي أمدته في مجموعها بإطار ذهني اضفى على نتاجه طابعاً مميزاً . وأهم هذه المفاهيم ثلاث : الحضارة والعقلانية والقومية . ولقد اعتمد زريق أول هذه المفاهيم الثلاثة منطلقاً لمعالجة كافة

قضايا المجتمع العربي التي تطرق إليها ، واعتبره «الحيز الذي تنبثق منه ، وتنتظم فيه ، مختلف القضايا القومية والإنسانية ». وأمد مفهوم الحضارة فكر زريق ببعده الشمولي ، واتاح له النظر الى نواحي المجتمع المختلفة كوحدة مترابطة متفاعلة ، حيث يعسر فهم ناحية منه دون الرجوع الى النواحي الأخرى. واستطاع زريق أيضا باعتماده لمفهوم الحضارة ان يبلور افكاره ضمن اطار إنساني وعالمي،وأن يخرج من مزالق القوقعة الذاتية التي طغت على العديد من مسارات الفكر العربي الحديث . فمفهوم الحضارة هو معيار للمقارنة بين المجتمعات ، وقياس مدى تقدمها ورقيها ، وللحكم على الأمور ، وللدلالة على وحدة العنصر البشري ، ووحدة مصيره في الماضي والحاضر . وأما بالنسبة الى العقلانية ، فلقد احتل هذا المفهوم في فكر زريق مكانة رئيسية ، وشكل الواسطة التي اراد زريق لها ان تكون معبر العرب الى الثقافة الحديثة . واعتمد في هذا المجال تعريفا للعقلانية يتألف من عنصرين هما العلم والخلق . وأخيراً ، حاز مفهوم القومية على الجانب الأكبر من اهتمامات زريق . فقد نظر زريق الى المسألة القومية على انها «مسألة الحياة العربية». وعمل جاهدا على بلورة الشعور والتربية القوميين . ومع انه لم يقدم في كتاباته على تطوير فلسفة قومية متكاملة ، أو على معالجة القضايا القومية «معالجة اختصاصية تفصيلية او حاسمة »، إلا إنه نجح في اثارة هذه القضايا ، ولفت إنظار المفكرين العرب الآخرين إلى ضرورة التصدي لها ومعالجتها. ولعل من أهم مساهماته في هذا المجال الكيفية التي عالج بها قضية فلسطين ، والتي اعتبرها محك النهضة العربية . فلقد استطاع زريق من خلال كتاباته المتعددة في القضية الفلسطينية أن يثري الفكر العربي ، ويحفزه على اعتماد منطلقات جديدة في النظر إلى قضاياه القومية .

وقد يكون أفضل تلخيص لإنتاج زريق الفكري ما جاء في رسالة بعث بها الى المؤلف مؤرخة ١٨ اكتوبر ١٩٨١ ، يوضح فيها القضايا الأساسية التي شغلته في حياته ، حيث كتب يقول :

« الباعث الأول لي للاهتمام بالقضايا التي عالجتها في مؤلفاتي ... هو الأحساس العميق بالأزمة الشاملة التي يجوزها المجتمع العربي في هذه الآونة ، وبتبعة المفكر – مهما يكن اختصاصه العلمي او المهني – في معالجة القضايا التي تطرحها هذه الأزمة . إن هذين الشعورين المزدوجين المتفاعلين يتخللان جميع مؤلفاتي ... ولعلي اعتبرت ان أول ما يجب القيام به بعد إثارة هذه القضايا ، هو الإقبال على توضيح المفاهيم الأساسية التي تنطوي عليها ، والتي يحيط بها الكثير من الاضطراب والبلبلة في أجوائنا الفكرية والعملية . فما هي الأمة ، وما مكوناتها ؟ وهل ثمة أمة عربية ، وما شأنها ماضيا وحاضراً ومستقبلاً ؟. ما القومية ؟ وهل هي مجرد حركة تحرر من الأستعمار ، ام يجب ان يكون لها محتوى ايجابي ، وما هو هذا المحتوى ؟ وهل يمكن ان نفصل الأمة والقومية عن الواقع

الحضاري ؟ إذن ما الحضارة ، وكيف تتمايز الحضارات ؟. وما هي ميزات الحضارة العربية الإسلامية في السالف ، والحضارة العربية التي نتشوفها في الحاضر والمستقبل؟. وهذا يثير علاقتنا بالتاريخ، وبالماضي من جهة وبالمستقبل من جهة أخرى . وأيهما يجب أن يتقدم على الآخر ويتحكم به ؟وفي هذا المضمار ما معنى التقدمية والمجتمع المتقدم ، والرجعية والمجتمع المتخلف ؟ واذا كان تخلفنا يفرض علينا السعي للنهوض المتسارع وللتوثب وللجذرية والثورية في الفكر والعمل ، فما هي الثورية المنشودة ؟ وهل يمكن ان نفصل اوضاعنا، ماضيا وحاضرا ومستقبلاً عن أوضاع بقية الشعوب والإنسانية جمعاء ، خصوصا في هذه الآونة التي توثقت بها الروابط بين الشعوب ، وكاد مصير الإنسانية ان يصبح واحداً؟.

إني اعتقد ان (١) اثارة القضايا الكبرى التي تجابه المجتمع العربي الحاضر و (٢) ايضاح المفاهيم الأساسية التي تنطوي عليها و (٣) تحري الروابط التي تربط هذه القضايا بعضها ببعض ، وترتيب القضايا حسب أولويتها وأهميتها – إن هذا هو من أهم الواجبات الملقاة على عاتق المفكرين العرب في هذه الأيام، وأرجو أن أكون اسهمت بنصيب – ولو قليل – في أداء هذا الواجب» .

وتشير عملية التقييم لفكر زريق على إسهامات ملحوظة في الفكر العربي الحديث في مجالات أهمها بلورة مفهوم علماني للقومية العربية، وإبراز الجانب الإنساني والفردي للقومية ، والطرح المبتكر لمسألة التراث وتوضيح العلاقة ما بين العروبة والأسلام . وقد يكون من أبرز هذه الأسهامات ان التراث الفكري لزريق كان حافزاً لبعض المفكرين العرب لتخطيه ، والإنطلاق به الى مجالات أوسع، وإلى معالجة المسائل التي أثارها بشكل أكثر حسما وتفصيلاً . ولعل هذا اقصى ما كان يطمح اليه قسطنطين زريق ويريده .

الهوامش

(*) يعرب الكاتب عن تقديره لجامعة الكويت التي منحته اجازة تفرغ علمي كان هذا البحث بعض ثمارها. ويتقدم بالشكر للدكتور جورج طعمه، ومركز دراسات الشرق الاوسط بجامعة هارفرد، ومركز الدراسات الاسلامية بجامعة ماكجيل لمساعدتهم في تجميع المصادر، والدكتور عيسى بلاطة للتعليقات والاقتراحات التي أبداها.

١- امد قسطنطين زريق المؤلف بالمعلومات التي تظهر في هذا الجزء من الدراسة .

٢- يستعرض هذا الجزء مؤلفات زريق من الكتب فقط.

٣- ترجمة عن الالمانية بالاشتراك مع بندلي جوزي لكتاب تيودور نولدكه .

امراء غسان من آل جفنه (بيروت ، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٣٣) .

٤- تحقيق لمخطوطة اسماعيل بك شول . اليزيدية قديماً وحديثاً (بيروت : المطبعة الاميريكية، ١٩٣٤).

٥- تحقيق تاريخ ابن الفرات ، الأجزاء السابع والثامن والتاسع (شاركت نجلا أبو عز الدين في تحقيق الجزء الثامن والقسم الثاني من الجزء التاسع) . (بيروت: المطبعة الأمريكية ، ١٩٣٦-١٩٤٢).

٦- تحرير بالاشتراك مع اسد رستم. قراءات في تاريخ العرب والحضارة العربية (بيروت ، المطبعة الامريكية، غير مؤرخ) وتحقيق الترجمة العربية مع آخرين لكتاب جورج سرطون . المدخل في تاريخ العلوم. الجزء الأول (القاهرة : ١٩٥٧- ١٩٦١) .

٧- تحقيق كتاب احمد بن محمد مسكويه. تهذيب الاخلاق (بيروت : منشورات العيد المئوي للجامعة الامريكية في بيروت ، ١٩٦٦).(: Constantine, Zuray k (tr.) The Refinement of Character (Beirut: The Aub Centennial Publica-(tions, 1966).

٨- الوعي القومي : نظرات في الحياة القومية المتفتحة في الشرق العربي (بيروت : دار المكشوف، ١٩٣٩) ص٧. وتعود اشارات هذه الدراسة الخاصة بهذا الكتاب إلى الطبعة الثانية التي ظهرت في العام ١٩٤٠.

٩- أي غد ؟ دراسات لبعض بواعث نهضتنا المرجوه (بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٥٧).

١٠- هذا العصر المتفجر : نظرات في واقعنا وواقع الإنسانية (بيروت : دار العلم للملايين ١٩٦٣)، ص٦.

١١- More Than Conquerors (Beirut : 1968).

١٢- هذا العصر المتفجر ، ص ٧-٨.

١٣- معنى النكبة (بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٤٨) . وتعود اشارات هذه الدراسة الخاصة بهذا الكتاب إلى طبعته الثانية التي ظهرت في العام ١٩٤٨ أيضاً.

١٤- نحن والتاريخ : مطالب وتساؤلات في صناعة التاريخ وصنع التاريخ (بيروت : دار العلم للملايين :١٩٥٩)، ص ٧-٨ . وتعود اشارات هذه الدراسة الخاصة بهذا الكتاب إلى طبعته الرابعة التي ظهرت في العام ١٩٧٩.

١٥- في معركة الحضارة : دارسة ماهية الحضارة واحوالها وفي الواقع الحضاري (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٤) ص ٨. وتعود إشارات هذه الدارسة الخاصة بهذا الكتاب إلى طبعته الثالثة التي ظهرت في العام ١٩٧٧.

١٦- معنى النكبة مجدداً (بيروت : دار العلم للملايين ١٩٦٧) أيضا :

The Meaning of the Disaster (translated by Bayly Winder) Beirut, Khayat, 1956

١٧- نحن والمستقبل (بيروت : دار العلم للملايين. ١٩٧٧) .وتعود اشارات هذه الدراسة الخاصة بهذا الكتاب إلى طبعته الثانية التي ظهرت في العام ١٩٨٠.

١٨- للإطلاع على تحليل للفكر السياسي العربي الحديث يعتمد هذا المنهج انظر : اديب نصور « مقدمة لدراسة الفكر السياسي العربي في مائة عام : ١٨٥٠-١٩٤٨ ، في فؤاد صروف ونبيه امين فارس (محررين) . الفكر العربي في مائة سنة (بيروت : الجامعة الامريكية في بيروت، ١٩٦٧) ص ٨٢-١٤٩.

١٩- معنى النكبة مجدداً ، ص١٧ .

٢٠- نحن والمستقبل ، ص ٣١٩-٣٢٠ .

٢١- نحن والتاريخ ، ص ٩٣.

٢٢- أي غد ؟ ص ٩٢-٩٣.

٢٣- «الحضارة العربية » ، الابحاث (بيروت)، سنة ٢ ، عدد ١ ، (آذار ١٩٤٩) ، ص٩.

٢٤- الوعي القومي، ص ٤٥ .

٢٥- المصدر السابق، ص ٤١ و ٥١ .

٢٦- هذا العصر المتفجر، ص٨٩.

٢٧- الوعي القومي، ص٤٥-٥١ .

٢٨- في معركة الحضارة، ص ٣٤٩.

٢٩- المصدر السابق، ص٣٥٤-٣٥٧ . للاطلاع على معالجة زريق للمعاني المختلفة لمفهوم الحضارة أنظر: «في مفاهيم الحضارة». مجلة المجمع العلمي العربي، مجلد ٣٩، عدد ١ (يناير ١٩٦٤) ص ٩٩-١١٢ .

٣٠- الوعي القومي، ص ٤٠ .

٣١- المصدر السابق، ٥٤-٥٥ .

٣٢- «الحضارة العربية»؛ ص٥-١٩.

٣٣- في معركة الحضارة: ص٩٥ و١٢٨.

٣٤- المصدر السابق، ص ٩٦.

٣٥- المصدر السابق، ص ١٨٥-١٨٦ ، ويضيف زريق ان التنافس ما بين العقل والايمان كان من أهم بواعث الابداع في الحضارة العربية .

انظر: Constantine Zurayk. Tensions In Islamic Civiliztion. (Washington D.C.: Center For Contemporary Arab Studies, Georgetown University, 1978).

٣٦- نحن والمستقبل، ص ٢٥ .

٣٧- الحضارة العربية، ص٦ .

٣٨- المصدر السابق، ص ٦-٧.

٣٩- الوعي القومي، ص ١٢٥-١٢٨ ،ودعا موقفه هذا بعض الكتاب الاجانب إلى مهاجمته واعتباره متطرفاً بين المسيحيين العرب، وذلك في محاولة منهم لتشويه واسقاط أطروحته حول العلاقة بين العروبة والاسلام.

٤٠- نحن والتاريخ، ص ٢٠٣ .

٤١- نحن والمستقبل، ص٣٠٦-٣٠٨ .

٤٢- المصدر السابق، ص ٢٣٧-٢٣٨.

٤٣ – وكمثال على ذلك كتب في احدى مقالاته يقول : «وبما ان الحقيقة واحدة فالحق يجب ان يكون واحداً ... هذا التجزؤ الذي نشهده في العالم اليوم سببه محاولتنا معرفة الحق عن طريق الذاتية الخاطئة وتجزئة الحق الذي لا يتجزأ. «الحضارة العربية » ص١٢.

٤٤ – انظر على سبيل المثال اتهام بسام طيبي لفكر قسطنطين زريق بالرجعية والتقليدية والحلول الوسطية والميتافيزيقية البرجوازية والسطحية وغيرها من الصفات السلبية في مقالته : «الفكر والهزيمة، آراء قسطنطين زريق في هزيمة حزيران» مواقف ، عدد ٨ سنة ٢ (آذار ١٩٧٠) . ص ١٦٠–١٦٥ .

٤٥ – نحن والمستقبل ، ص ٣١٠ .

٤٦ – الوعي القومي، ص ٧١،٥ ٢١–٢١٦.

٤٧ – نحن والمستقبل، ص ٢٧٧، إنظر ايضا أي غد؟ ص ١٣٠ .

٤٨ – أي غد ؟ ص ٨٨ ، انظر ايضاً : الوعي القومي، ص ٢٢٣ .

٤٩ – أي غد ؟ ص ٢٥.

٥٠ – المصدر السابق، ص ١٤٧ .

٥١ – هذا العصر المتفجر ، ص ٧١ .

٥٢ – المصدر السابق، ص١٨٢.

٥٣ – الوعي القومي ، ص ٤٩ ، ١٥٩.

٥٤ – أي غد ؟ ص ٣٤ .

٥٥ – نحن والمستقبل ، ص ٢٤٥ .

٥٦ – هذا العصر المتفجر ، ص ١٥٠ .

٥٧ – نحن والتاريخ ، ص ٢١٦.

٥٨ – أي غد ؟ ص ١٦٦ . وتنعكس هذا النظرة التشاؤمية ايضا في تقييم زريق لاحتمالات المستقبل القريب حيث تنبأ بأن قدرة العرب الذاتية على مجابهة التحديات في الثمانينات ستكون أقل مما هي عليه حالياً . أنظر «الوطن العربي في الثمانينات »، المستقبل العربي ، سنة ٢ ، عدد ١٣ (مارس ١٩٨٠) ص ١٤٦.

٥٩ – انظر على سبيل المثال نديم البيطار : الفعالية الثورية في النكبة ، (بيروت : دار الاتحاد ، ١٩٦٥) ص١٤٧.

٦٠ – أي غد؟ ص ٧١.

٦١- المصدر السابق ، ص ١٤٨ . أيضاً : هذا العصر المتفجر ، ص ١١ .

٦٢- أي غد ؟ص ١٣٠.

٦٣- في معركة الحضارة ، ص ٤١١ .

٦٤- الوعي القومي ، ص ١٧٢-١٧٣ . انظر ايضا أي غد ؟ ص١٠٤.

٦٥- أي غد ؟ص ٢٥-٢٦.

٦٦- «الحضارة العربية» ص ٢٠ ، للاطلاع على معالجة ثانية لهذا السؤال انظر : قسطنطين زريق «نظرة في تاريخ العرب والعالم » تاريخ العرب والعالم ، سنة ١ ، عدد ١ (نوفمبر ١٩٧٨) ص ٥-١٠.

٦٧- أي غد ؟ص ١٥٦.

٦٨- معنى النكبة ، ص ٤٢ .

٦٩- أي غد ؟ص ٢٩.

٧٠- هذا العصر المتفجر ، ص ١٤.

٧١- في معركة الحضارة ، ص ٢٠٢ .

٧٢- نحن والمستقبل ، ص ٣١٠.

٧٣- في معركة الحضارة ، ص ٢٠١ .

٧٤- أي غد ؟ص ١٣٢ .

٧٥- المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

٧٦-الوعي القومي ، ص١١٥ .

٧٧- وكان من الطبيعي ان يثير ذلك بعض المفكرين اليساريين ويحملهم على إنتقاد اطروحات زريق ومنهجه . كتب احد اليساريين المصريين يقول : « إنه (أي زريق) يروج في اسلوب يوحي بالحياد والموضوعية لقيم الديمقراطية البرجوازية والافكار القومية الشوفينية » . انظر غالي شكري : «استراتيجية الاستعمار الجديد في معركة الثقافة العربية »، الطليعة (القاهرة) سنة ٣ ، عدد٧ ، (يوليو ١٩٦٧) ، ص ١٦ .

٧٨- نحن والمستقبل ، ص ٢٣٧-٢٣٨.

٧٩- معنى النكبة ، ص ٤٦ .

٨٠- أي غد ؟ص ٧.

٨١- هذا العصر المتفجر، ص ١٠ و١٤٥-١٤٧.

٨٢- المصدر السابق، ص ١٤٥.

٨٣- في معركة الحضارة، ص ٤١٠-٤١١.

٨٤- نحن والمستقبل، ص ٢٩١- ٣٠٦.

٨٥- هذا العصر المتفجر، ص ١٨٨.

٨٦- «الحضارة العربية»، ص ٢١-٢٢.

٨٧- معنى النكبة، ص ٤٩.

٨٨- أي غد؟ ص ١٣٠.

٨٩- معنى النكبة، ص ٤٢.

٩٠- معنى النكبة مجدداً، ص ١٤.

٩١- هذا العصر المتفجر، ص ٧٩.

٩٢- نحن والمستقبل، ص ٢٦٦و٤٠٥. وللاطلاع على معالجة ثانية لموضوع التخلف الذاتي انظر: قسطنطين زريق «الطالب ومسؤولياته الوطنية» في الطالب الجامعي في لبنان: مستقبله ومشكلاته (بيروت: رابطة الاساتذه الجامعيين في لبنان ١٩٦٩)، ص ٣٠-٣١.

٩٣- هذا العصر المتفجر، ص ١٤٨-١٥٠.

٩٤- نحن والمستقبل، ص ٢٣٩.

٩٥- معنى النكبة مجدداً، ص ٨٢.

٩٦- المصدر السابق، ص ٦٧.

٩٧- معنى النكبة، ص ٤٦-٤٩.

٩٨- أي غد؟، ص ٤٨-٦٥.

٩٩- نحن والمستقبل، ص ١٩٨.

١٠٠- المصدر السابق، ص ٢٠٤.

١٠١- نحن والتاريخ، ص ٢٤٢.

١٠٢- الوعي القومي، ص ٤٥.

١٠٣- «الحضارة العربية»، ص ٢١.

١٠٤- هذا العصر المتفجر ، ص ٩٣ .

١٠٥- أي غد ؟ص ١٠٧ ، ومع ان زريق يعتبر النظامين الراسمالي والشيوعي حصيلة لحضارة واحدة هي الحضارة الغربية ، الا انه يستعمل تعبير العالم الغربي كمرادف لبلدان الكتلة الغربية . ويميل في كتاباته وخاصة تلك التي ظهرت مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية إلى مناداة العرب بالتمثل بنظام الكتلة الغربية ومحالفتها مع التنديد بسياستها الشرق اوسطية . ولقد عكس بذلك الموقف العام للفكر والحركات القومية في تلك الفترة . كتب في احدى مقالاته يقول : «وإني إذ افعل ذلك اجد نفسي في جانب النظام الغربي ، واقرر ان مستقبل البلاد العربية يكون اسلم وافضل اذا كانت في هذا الجانب » قسطنطين زريق ،«القضية العربية ١٩٥٣» في محاضرات الندوة اللبنانية ، سنة ٧ ، نشرة ٩-١٠ ، (أيار ١٩٥٣) ص ٢٤٢ . ويتخذ زريق في كتاباته اللاحقة موقفاً سياسيا اقل تحزباً .

١٠٦- في معركة الحضارة ، ص ٢٢٦ .

١٠٧- أي غد ؟ص ٢٨.

١٠٨- هذا العصر المتفجر ، ص ٩١-١٠٠ .

١٠٩- في معركة الحضارة ، ص ٣٣٦ .

١١٠- المصدر السابق ، ص ١٤١ .

١١١- معنى النكبة مجدداً، ص ١٢ .

١١٢- نحن والمستقبل ، ص ٢٩٢ .

١١٣- المصدر السابق ، ص ٢٩٨ . ويعبر زريق عن هذا الرأي في موقع آخر حيث يقول : «العلم الصحيح ليس اكتساباً عقلياً فحسب ، بل جهاد خلقي كذلك ... وهنا مجال الافادة من التراث» قسطنطين زريق ، «المستقبلية المعاصرة وبواعثها » في محاضرات الموسم الثقافي لعام١٩٧٤ / ١٩٧٥ (أبو ظبي : وزارة الاعلام والثقافة ، غير مؤرخ) ص ٢٧٩.

١١٤- الوعي القومي ، ص ١٢-٢٢. أنظر ايضاً أي غد؟ ص ١٩-٢٠.

١١٥- نحن والتاريخ ، ص ٢٠٤.

١١٦- الوعي القومي : ص ٧-١٩، وتجدر الاشارة إلى إن زريق لم يتعرض وبشكل حاسم لمسألة الإطار السياسي الذي يجب ان تتخذه القومية العربية إلا حديثاً . وقد يفهم من بعض المقاطع التي وردت في كتاباته الاولى انه يدعو إلى إندماج الوحدات السياسية المختلفة في كيان واحد. إلا انه يركز في آخر كتاب له على اهمية وحدة الولاء

والتضامن وتنسيق السياسات العامة التي يمكن لها ان تتخذ شكلا فيدرالياً . انظر نحن والمستقبل ، ص ٢٢٤ ، ٣٩٤ .

١١٧- نحن والمستقبل ، ص ٢٢٠-٢٢٦.

١١٨- أي غد .؟ص ١٠٣ . ويتضح مفهوم زريق في تعريفه القومية على انها عملية البناء القومي التي تستدعي تحويل الطاقات إلى وحدة عملية وفعالة . أنظر :

Constantine Zurayk "Arab American Relations : Danger and Opportunities " Arab Studies Quarterly , Volume2 ,No .2 p 121 .

١١٩- الوعي القومي ، ص ١١٥ .

١٢٠- المصدر السابق ، ص ٢٣٨-٢٥٨.

١٢١- إنني مدين لرامز طعمه الذي لفت نظري إلى هذه النقطة في دراسته المعنونة :

"The Arab Nationalist Thought of Professor C.K. Zurayk" , Unpublished paper.

١٢٢- نحن والتاريخ ، ص ٢٠٣ .

١٢٣- نحن والمستقبل ، ص ٢٢٣ .

١٢٤- الوعي القومي، ص ١٠٨.

١٢٥- معنى النكبة ، ص٤٥ .

١٢٦- قسطنطين زريق « المسيحيون العرب والمستقبل » المستقبل العربي ، سنة ٤ ، عدد ٢٧ (أيار ١٩٨١) ص ٣٠-٣٣.

١٢٧- الوعي القومي ، ص ١٢٥-١٣٢ .

١٢٨- للاطلاع على نص الخطاب انظر : «ذكرى الرسول العربي» في : ميشيل عفلق ، في سبيل البعث (بيروت، دار الطليعة ، ١٩٦٣) ص ٥٠-٦١ .

١٢٩- انظر : البرت حوراني ، الفكر العربي في عصر النهضة : ١٧٩٨-١٩٣٩ (بيروت : دار النهار للنشر ، ١٩٧٧)، ص ٣٦٩ .

١٣٠- هذا العصر المتفجر ، ص ٦٢.

١٣١- الوعي القومي ، ص ١٢٨.

١٣٢- نحن والمستقبل ، ص ٢٠٣ .

١٢٣- الوعي القومي ، ص ١٥٥ .

١٢٤- المصدر السابق ، ص ١٣٥-١٣٦.

١٢٥- نحن والتاريخ ، ص ١٦٩ .

١٣٦- المصدر السابق ، ص ١٦٥-١٦٧.

١٣٧- المصدر السابق ، ص ٢٢٧- ٢٣١.

١٣٨- المصدر السابق ، ص٢٨ .

١٣٩- المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

١٤٠- المصدر السابق ص ١٦٠- ١٦١ .

١٤١- في معركة الحضارة ، ص ٢٣٧.

١٤٢- المصدر السابق ، ص ٢٣٨-٢٤٥ .

١٤٣- نحن والتاريخ : ص ١٧-٢٠ . ويصنف زريق في موقع آخر المواقف من التراث إلى تقليدي وقومي وماركسي وعلمي . أنظر : نحن والتاريخ ، ص ٢٨-٤٥ .

١٤٤- المصدر السابق ، ص ٤٥ .

١٤٥- المصدر السابق، ص٢١٢.

١٤٦- معنى النكبة ، ص ٣٨ .

١٤٧- نحن والتاريخ ، ص ١٨ .

١٤٨- نحن والمستقبل ، ص ٢١٥.

١٤٩- في معركة الحضارة ، ص ٣٩٧ .

١٥٠- المصدر السابق ، ص ٢٣٥-٢٣٧.

١٥١- نحن والمستقبل، ص٢١٢.

١٥٢- معنى النكبة ، ص ٤٩ .

١٥٣- نحن والمستقبل ، ص ٢١٢-٢١٤ .

١٥٤- الوعي القومي ، ص ٧٥-٩٣.

١٥٥- نحن والمستقبل ، ص ٣١٥- ٣٢١ .

١٥٦- المصدر السابق ، ص ٣٩٥.

١٥٧- في معركة الحضارة ، ص ٣٢٤ .

١٥٨- الوعي القومي ، ص ١٩٤-١٩٥.

١٥٩- نحن والمستقبل ، ص ٣٧٣ .

١٦٠- أي غد ؟ص ١٠٢-١٢٠ .

١٦١- نحن والمستقبل ، ص ٣٧٢-٤٠٠ .

١٦٢- الوعي القومي ، ص ١٨٥-١٩٤ .

١٦٣- المصدر السابق ، ص ١٩٩-٢١٢ .

١٦٤- أي غد ؟، ص ١٦٦-١٧٧.

١٦٥- من بحوث زريق عن المؤسسة الجامعية المقالات التالية : «رسالة الجامعة في عالم عربي يتجدد » في كتاب فلسفة تربوية متجددة لعالم عربي متجدد لجماعة من علماء التربية ، الجامعة الامريكية في بيروت ، ١٩٥٦ ، «دور الجامعة في الحياة الوطنية »، المعرفة ، مجلد ١ عدد ٣ ، (أيار ١٩٦٢) : و « الجامعات امام مسؤولياتها». الابحاث ، مجلد ١٨، جزء ١ (آذار ١٩٦٥).

١٦٦- في معركة الحضارة ، ص ٢٠٣ .

١٦٧- المصدر السابق ، ص ٣٢٣و٣٤٦ .

١٦٨- المصدر السابق ، ص ٢٠٣-٢٠٤.

١٦٩- أي غد ؟ص ١٧٧-١٧٦.

١٧٠- معنى النكبة ، ص ١٥-٥٣ .

١٧١- أي غد ؟ص١٠٦.

ساطع الحصري

المفكر والداعية والنموذج

أ. الياس سحاب

نقل عن لسان ساطع الحصري(١) انه عندما كان يسأل في الستينيات ، عن خشيته من أن يكون الزمن قد تجاوز كتبه والأفكار الواردة فيها ، كان يرد دائماً بأنه سيكون أسعد الناس لو تحقق ذلك . لأن معناه أن الوعي العربي بضرورة الوحدة العربية قد نضج الى درجة كبيرة . وهذا اهم – بالنسبة إليه – من استمرار الحاجة إلى كتبه ، والى الأفكار الواردة فيها .

والحقيقة هي أن تقييم ساطع الحصري وكتبه يكون مبتوراً وغير منصف ، بل وغير دقيق علمياً إذا بقي محصوراً بالمعايير الفكرية والأكاديمية المحضة المجردة (بغض النظر عن نتيجة التقييم بهذه المعايير)، لأن الحصري كان مفكراً ، وداعية، ونموذجاً حياً لفكره ودعوته . بل إن صفته الدعاوية هي العنصر المحوري في فكره وكتاباته وحياته. ولعل في العبارة المنسوبة إليه في مطلع هذا المقال هي العنصر المحوري في فكرة كتاباته وحياته ولعل في العبارة المنسوبة إليه في مطلع هذا المقال تحديداً قاطعاً لموقفه من هذه المسألة . فالذي يهم ساطع الحصري في النهاية، هو وصول دعوته إلى هدفها ، أو اقترابها من هذا الهدف ، وليس اهتمامه بعمر كتبه وعمر أفكاره واجتهاداته ، أو قيمتها الأكاديمية المحضة.

وعلى أية حال ، فإن «العقيدة القومية» ثم الدعوة لهذه العقيدة ، هي التي دفعت ساطع الحصري إلى معترك البحث الفكري ، والكتابة الفكرية ، بل والعراك الفكري. فساطع الحصري لم يأت إلى الفكر السياسي من العمل السياسي ، ولا من الدراسات الأكاديمية السياسية أو الاجتماعية أو إلا نثروبولوجية ، بل إن نشاطه العملي الأساسي، والوحيد ، بقي مجاله التربية ، بشقيها النظري والعملي، سواء في الادارة العثمانية (حتى انهيار الأمبراطورية عام ١٩١٨)، حيث كان أول من أدخل علم النفس وعلم التربية إلى دار المعلمين في اسطنبول ، حتى بلغ نشاطه في هذا المجال حداً دفعه إلى حمل لقب «أبو علم التربية التركي»(٢) أو في حكومة الملك فيصل الأول في دمشق ،أو في حكومة الملك فيصل بعد انتقاله إلى بغداد . ولعل أكثر مناصبه العملية اقتراباً مباشراً من السياسة (وإن كان هذا الاقتراب نسبياً) ، هما منصباه العمليان الأخيران في القاهرة ، كمستشار للجنة الثقافية

التابعة لجامعة الدول العربية ، من ١٩٤٧ حتى ١٩٥٣ ، ثم كرئيس لمعهد الدراسات العربية العليا، من ١٩٥٣ حتى تقاعده عن العمل عام ١٩٥٧ .

واذا كانت ظاهرة صحية في الحياة العربية المعاصرة ، أن يمارس مفكر كل هذا النشاط السياسي في جوهره ، وكل هذا التأثير الفكري – السياسي على أجيال متعاقبة من بني أمته ، انطلاقاً من مقعده في الحقل التربوي ، فإن هذه الظاهرة كانت طريقاً حتمياً ، بل لعلها طريق اوحد أمام طبيعة التزام ساطع الحصري ، بفكرة القومية العربية والدعوة ، تلك الطبيعة التي اتخذت شكلاً من أشكال التصوف والترهب ، قولاً وممارسة .

وإذا كنت قد أفردت مقدمة المقال للحقائق الأساسية في حياة ساطع الحصري وفكره، قبل الدخول في التفاصيل ، فلعل الحقيقة الأقل ذيوعاً وانتشاراً، هي أن ساطع الحصري ، وإن كان يحتل ، في رأي الكثيرين ، مركز الصدارة في قائمة مفكري ودعاة الوحدة العربية والفكرة القومية العربية المعاصرة ، سواء في مثابرته، أو غزارة إنتاجه أو طول فترة نشاطه ، فإن ساطع الحصري لا يحتل مركز الصداره حتما بمعيار التسلسل الزمني . بل إنه – أكثر من ذلك – لم ينتقل إلى الايمان بالقومية العربية والوحدة العربية والدعوة لهما ، إلا منذ عام ١٩١٩ ، بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية ، وبعد أن شارف على الأربعين من عمره. ففي الوقت الذي كانت فيه الدعوة للعروبة تتصاعد في أواخر القرن التاسع عشر ، وتشكل لها الجمعيات العلنية والسرية ،كان ساطع الحصري يخوض معركة فكرية – سياسية أخرى ، هي معركة «العثمانية» ، وسط التيارات المتلاطمة التي اندفعت لمحاولة إنقاذ الامبراطورية العثمانية من الانهيار بسلسلة من التحركات والانتفاضات الاصلاحية، بين ١٨٨٠و ١٩٠٨ : ولكن لهذا التبدل الجذري في توجهات ساطع الحصري قصة معقدة نتركها للتفاصيل .

بقي أن نشير إلى الحقيقة الأساسية الأخيرة في هذه المقدمة الموجزة عن ساطع الحصري ، هي أنه كان وهو المسلم المؤمن ، أحد أشد المفكرين العرب تعصبا لعلمانية القومية العربية. ولهذا الموقف جذور في خلفية تربية ساطع الحصري وتكون شخصيته وفكره ، سنطلع عليها لاحقاً.

لمحة عن حياته (١٨٨٠ – ١٩٦٨):

ولد محمد هلال بن السيد مصطفى الحصري (والد ساطع الحصري) في حلب، عام ١٨٤٠، ابناً لعائلة تعمل في التجارة، وتحتل فيها مركزاً مرموقاً . وتلقى علوم اللغة العربية والشريعة في المدرسة الاسماعيلية في حلب ، ثم تابع دراساته في جامعة الأزهر بالقاهرة. وعاد منها ليعمل في منصب من مناصب القضاء في عدة مدن من ولاية حلب .

ثم تزوج فاطمة بنت عبد الرحمن الحنيفي ، من حلب أيضاً. ثم تدرج في سلك القضاء حتى عين رئيساً لمحكمة الأستئناف الجنائي ، في صنعاء، عاصمة ولاية اليمن، وفيها ولد ابنه مصطفى ساطع بن محمد هلال الحصري (ساطع الحصري) عام ١٨٨٠ . (وقد ثبت خطأ الرواية التي تقول: إنه ولد في حلب عام١٨٧٩). وقضى ساطع السنوات الثلاث عشرة الأولى من حياته منتقلا مع أسرته في عدد من الولايات الامبراطورية العثمانية :أضنه ، أنقره ، طرابلس الغرب ، اليمن (ثانية) ثم قونيه. وبسبب هذا التنقل والتعدد في مواقع الاقامة ، لم يُتَح لساطع الحصري أن يتلقى العلوم المدرسية التقليدية التي كانت سائدة في ذلك العصر ، والتي كانت ترتكز أساساً إلى حفظ القرآن ، ودراسات إسلامية أخرى، فكان أن تلقى تعليمه في البيت ، حيث كانت اللغة المحكية هي اللغة التركية التي يتكلمها أبناء الطبقة العثمانية المثقفة، بالأضافة إلى اللغة العربية، التي لم يستعملها الحصري كلغة أولى ، إلا بعد ١٩١٩ . كما أنه درس الفرنسية على أخويه الكبيرين بشير مجدي ، وبديع نوري . وقد كان لهذا التعليم ، غير التقليدي بالنسبة لذلك العصر ، أثر كبير في احتفاظ ساطع الحصري ، طول عمره ، بموقف مبني أساسًا على العلمانية .

المرحلة العثمانية :

انخرطت أسرة الحصري (محمد هلال وأبناؤه) في خدمة الامبراطورية العثمانية ، فكان الابن الأكبر بشير مجدي مدعياً عاماً في حمص وبنغازي. أما الابن الثاني ، بديع نوري (أكبر من ساطع بأربع سنوات) فقد تدرج في المناصب ليصبح رئيساً للإدارة البلدية لعاصمة السلطنة العثمانية (ما يوازي منصب محافظ العاصمة في أيامنا)، ثم أصبح متصرفاً (المنصب الذي يلي مباشرة منصب الوالي) لمتصرفية الناصرية ، في ولاية البَصرة ، حيث اغتيل مع قائد حامية البصرة ، فريد بك، على يد رجال السيد طالب النقيب .

فكان طبيعياً أن يسير ساطع على طريق أسرته في سلم الادارة العثمانية. وقد بدأ محمد هلال الحصري إعداد ابنه ساطع إعداداً مباشراً لذلك عام ١٨٩٣ ، عندما انتقلت العائلة إلى طرابلس الغرب ، ليلتحق ساطع بمعهد «ملكية مكتبي» «في اسطنبول» وهو المعهد العلماني الذي تأسس عام ١٨٥٩ ، ثم خضع للتحديث عام ١٨٧٧، والذي كان يتولى إعداد الموظفين للسلك الاداري العثماني. وقد تحول هذا المعهد ، حتى تحت حكم عبد الحميد الثاني ، إلى مركز اختمار ثقافي ، حتى أن عدداً من قادة «تركيا الفتاة» فتحوا عيونهم على تعاليم الحرية والوطنية ، على يد بعض أساتذة هذا المعهد .

إلا أن ساطع الحصري، برغم هذا الجو، اتجه في البداية إلى استغلال معرفته بلغة أجنبية –فرنسية – لاكتشاف أسرار الرياضيات والعلوم الطبيعية الغربية، بدلاً من الفقه

الدستوري والتعاليم الوطنية . وقد غذّ السير في هذا الطريق، حتى تابع دراساته في العلوم الطبيعية والرياضيات في الكلية الحربية وكلية الهندسة، وحتى استحق لقب «ارخميدس» ، الذي كان زملاؤه ينادونه به . وتخرج عام ١٩٠٠، بعد أن بذل جهداً خاصاً للتعمق في دراسة الطبيعيات واللغة الفرنسية.

وقد يبدو غريباً أن نعرف الآن ، أن الرسالة الأولى التي ندب ساطع الحصري نفسه لها بعد تخرجه ، هي تكريس حياته لنشر المعرفة بالعلوم الطبيعية، على طريقة العلامة الفرنسي الذائع الصيت في تلك الفترة لويس فيغييه (٣). وقد اقتنعت وزارة المعارف بمجهوداته هذه ، لدرجة تعيينه أستاذاً للعلوم الطبيعية في مدرسة ثانوية بولاية «يانيا»، على الحدود الحالية بين اليونان والبانيا ، حيث مكث ثماني سنوات متتالية، وحيث فتح عينيه للمرة الأولى على التطلعات القومية لأبناء البلقان، بين «يانيا» و «منستير» . وقد كانت الثانية مقراً لضباط جيش «تركيا الفتاة»، حيث تعاون ساطع مع « جميعة الاتحاد والترقي»، ولكنه اصطدم بالمناورات السياسية، فاستقال وعاد إلى اسطنبول ، حيث أسس مجلة «أنوار العلم»، وتابع نشاطه التربوي، مع الاحتفاظ بعلاقاته الحسنة مع الجمعيات الاصلاحية التركية ، التي أصبحت لها كلمة عليا في شؤون الامبراطورية بعد ١٩٠٨، الأمر الذي جعل ساطع الحصري واحداً من أكثر المربين والمثقفين نفوذاً في الأمبراطورية العثمانية ، في الفترة التي تميزت بإعادة الحياة الدستورية .

في ظل هذه الفترة الخصبة والمضطربة ، التي شهدت خلع السلطان عبد الحميد الثاني (١٩٠٨)، وتنصيب مرشح «تركيا الفتاة» محمد الخامس مكانه، ثم تسلم «جمعية الاتحاد الترقي» السلطة مباشرة عام ١٩١٢، وراء واجهة دكتاتورية عسكرية ثلاثية القيادة ، نشب صراع القيادات الفكرية التي كانت تحاول الاجابة عن السؤال الأهم :«كيف نخلص الأمبراطورية»؟.

عن هذا السؤال انبثقت ثلاثة تيارات فكرية أساسية : التيار العثماني ، الذي كان ينادي بدولة عثمانية علمانية ، يكون فيها ولاء الجميع للامبراطورية العثمانية، بغض النظر عن القومية أو الدين . وكان أبرز وجوه هذا التيار ، الشاعر الكبير توفيق فكرت، وكان ساطع الحصري أحد أبرز دعاة هذا التيار ، والتيار الأسلامي، وأخيرا ، التيار التركي ، الذي بدأ ينادي بضرورة إبقاء الوطنية التركية محوراً قيادياً للامبراطورية العثمانية . وكان ابرز دعاة هذا التيار «ضياء غوكلب ».

على الرغم من مناظرات عنيفة قامت بين الحصري وغوكلب ، فقد عاد الحَصري ، بعد انهيار الامبراطورية العثمانية ، وانضمامه إلى تيار القومية العربية، يستعيد الكثير من

أفكار وحجج خصمه القديم ، عندما كان يستحث الهمم حول دعوة القومية التركية ، (وهذا ما سنتابعه في موقع لاحق من المقال).

وتجدر الاشارة هنا ، إلى أن التيار العثماني الذي كان الحصري من كبار دعاته ومنظريه ، كان يسمى بـ «تيار الغربنة» أو « التغرب» Westernization ، لأنه كان يستعيد الكثير من مفاهيم العلمنة والحرية والمساواة من الغرب . وقد كانت آثار ثقافة ساطع الحصري الفرنسية شديدة البروز في المعارك الفكرية والدعاوية التي كان يخوضها في هذا المجال .

وفي تلك الأثناء ، كان ساطع الحصري قد تولى منصب مدير دار المعلمين (١٩٠٩-١٩١٢) ، التي أدخل إلى برامجها علم التربية وعلم النفس ، فأحدث ثورة في الأنظمة التربوية التركية ، جلبت له احترام أخصامه الفكريين .

بقي عنصر هام في المرحلة العثمانية من حياة ساطع الحصري وفكره ونشاطه، لا بد من استجلاء أمرها ، قبل الانتقال الى المرحلة العربية ، وهو موقفه من الحركات والدعوات القومية العربية التي كانت ناشطة في تلك الأثناء .

بدأ التململ العربي ضمن إطار الامبراطورية العثمانية يتجسد في عدة أندية وجمعيات كان أهمها : المنتدى الأدبي (في اسطنبول) ، حزب اللامركزية الادارية العثماني (في القاهرة)، «العهد» (جمعية سرية مؤلفة من عناصر عسكرية في اسطنبول) ، و «الفتاة» (جمعية سرية تأسست في باريس).

ومع اختلاف مناهج هذه الجمعيات وبرامجها ، كانت كلها تلتقي على طلب الاصلاح والتطوير ، ضمن إطار الامبراطورية العثمانية . ويبدو ذلك واضحاً على كل حال ، في مقررات المؤتمر العربي الذي عقد في باريس عام ١٩١٢، التي اقترنت فيها المطالب باعلان الولاء للامبراطورية العثمانية . إلا أن ذلك لم يمنع تحول أثر نشاط هذه الجمعيات إلى إيقاظ حاد لمشاعر قومية عربية.

وكانت تربط ساطع الحصري صداقة شخصية بعبد الكريم خليل (أحد شهداء ١٩١٦) ، وأمين المؤتمر العربي في باريس .إلا أن ذلك لم يمنع ساطع الحصري من الأمتناع عن المشاركة النشيطة في الحركات العربية . ومع أن الحصري قبل دعوة عبد الكريم الخليل ، لالقاء خطاب في « المنتدى الأدبي»، إلا أنه رفض الاقتراح الذي قدمه الخليل، ووافقت عليه السلطة العثمانية ، بأن يعين ساطع الحصري مستشاراً عربياً لوزارة المعارف ، وهو أحد المناصب التي استحدثت لامتصاص نقمة التطلعات العربية بعد مؤتمر باريس . وقد كان رفض الحصري فورياً وحاسماً ، إلا أن القسوة التي عامل بها

جمال باشا الوطنيين العرب في لبنان وسورية (وبالذات إعدام صديقه عبد الكريم الخليل) هز ساطع الحصري ... ثم بدأت الأمور تتوضح وتحسم مع انهيار الامبراطورية العثمانية، خلال الحرب العالمية الأولى.

المرحلة العربية :

مع أن تركيا أمضت فترة غير قصيرة من الحيرة وعدم وضوح الصورة ، بين انهيار الامبراطورية العثمانية، وظهور شخصية الدولة التركية الوطنية (الذي توّج بإعلان كمال اتاتورك الغاء الخلافة)، وضع ساطع الحصري أمام الخيار الصعب منذ الأيام الأولى لانهيار الأمبراطورية ، بين صداقاته وذكريات حياته الحافلة في اسطنبول ، وبين الوضع العربي الجديد الذي بدأ مخاضاً حافلاً بالاحتمالات مع دخول الملك فيصل الأول إلى دمشق .

يقول محمد كرد علي: إنه وجّه دعوة الى ساطع الحصري للقدوم إلى دمشق، وتسلم منصب مدير دار المعلمين، ومع أن الحصري لم يرد على الدعوة– يقول كرد علي – فإن تلاميذه الكثر في دمشق نشروا أخباراً كثيفة عن قرب قدومه ، الأمر الذي اضطر رضا الركابي ، الحاكم العسكري لدمشق ، إلى الموافقة على تعيين ساطع الحصري مديراً عاماً للمعارف في سورية، وهو موقع أكثر نفوذاً من الذي عرضه عليه محمد كرد علي(٤) .

وإذا كان من غير الواضح – في المراجع المتوافرة، الاطلاع بدقة على طريقة تفكير ساطع الحصري وتصرفه في تلك الفترة الانتقالية الصعبة والدقيقة بالنسب له ، فقد عبر عن ذلك بنفسه في مقابلة اجراها معه وليام كليفلاند عام ١٩٦٦ ، فقال: «أنا عربي ، وعندما انفصل العرب عن الامبراطورية العثمانية ، لم يكن أمامي خيار سوى الانضمام اليهم »(٥) . ومن التفاصيل التي تجدر الأشارة إليها عن الضغوط التي بذلها أصدقاء الحصري الأتراك من اجل استبقائه في اسطنبول ، خروج صحيفة «يخت» يوم سفره بعنوان قالت فيه « لقد انفصلت سوريا عنا»(٦) . وعلى أية حال ، يبدو أن تلك الفترة التي اصبح فيها واضحاً أمام العرب العاملين في تركيا إن ولاءهم للإمبراطورية العثمانية قد أصبح ولاء لشيء غير موجود، بعد انحسار غبار الحرب العالمية الأولى . فقد رحل ألوف منهم عائداً كل الى البلد العربي الذي ولد فيه أو جاء منه .

كان واضحاً في تلك الفترة أن الحركة العربية ، بكل روافدها السابقة ، قد علقت حول زعامة الملك فيصل الأول الذي دخل الى دمشق عام ١٩١٨ ، محاولا الاستفادة من الوعد الذي قطعته بريطانيا لوالده الشريف حسين عام ١٩١٦ ، بمساعدته على إنشاء الدولة

العربية الواحدة المستقلة ، إذا ساندها في الحرب ضد العثمانيين . إلا أن كل الأمور كانت تسير باتجاه معاكس ، واتضح بعد ذلك أن كل الأحداث انطلقت من نقطة أخرى غير الاتفاق البريطاني مع الشريف حسين ، هي اتفاقية سايكس - بيكو بين بريطانيا وفرنسا . ومن هنا كان الصدام حتمياً بين القوات الفرنسية والقوات العربية الملتفة حول حكومة الملك فيصل في دمشق .

في هذه الفترة ، نشأت صداقة شخصية بين الملك فيصل الأول وبين ساطع الحصري ، الأمر الذي دفع بالحصري إلى خضم العمل السياسي العربي ، في قمة مواقع القرار (بالنسبة لتلك الفترة) . ومع أن محمد عزت دروزة يقول في المجلد الأول من «حول الحركة العربية الحديثة » (صفحة ٧٧). إن ساطع الحصري قد انضم إلى جمعية «الفتاة» إلا أن الحصري نفى ذلك في مقابلة كليفلاند ، مؤكداً أنه على الرغم من مشاركته في بعض مؤتمرات الحركات العربية، إلاّ إنه لم ينضم لأي منها.

ولم تقتصر مهمة الحصري في تلك الفترة على مديرية دار المعلمين، وعلى منصب وزير المعارف في الحكومتين اللتين سبقتا معركة «ميسلون» ، فقد اختاره الملك فيصل (لعدة اسباب ربما كان منها المامه الرفيع باللغة الفرنسية) رسولاً إلى الجنرال غورو في «عالية» ، للتفاهم معه لوقف زحف قواته الى دمشق . إلاّ أن ما رسم كان قد رسم ، وفشلت مهمة الحصري فشلاً ذريعاً ، ودخل غورو إلى دمشق بعد يوم « ميسلون» الذي استشهد فيه يوسف العظمة .

ويبدو أن ارتباط ساطع الحصري بالقيادة السياسية للملك فيصل الأول كان الاطار الذي اختاره - في تلك الفترة - للعمل من أجل الفكرة العربية. فقد رفض في الفترة الانتقالية بين دمشق وبغداد عرضاً للإنضمام إلى المناضلين العرب الذين اتخذوا من شرقي الأردن قاعدة لهم ، وعرضاً آخر من مجموعة من المناضلين اختاروا نضال المنفى في باريس ، فآثر الالتحاق بالملك فيصل الأول عندما استقر في بغداد ، بعد أن كانت علاقاتهما الشخصية قد توطدت إلى حد بعيد .

وفي بغداد ، واصل الحصري نشاطه في الاطار الذي كان قد اختاره لنفسه، إطار العمل التربوي . وكان ساطع الحصري يفسر رأيه في ذلك بالتمييز بين «السياسة الهامشية» وكان يعني بهذه العبارة العمل السياسي المباشر و «السياسة العليا» ، وكان يعني بها التبشير بالفكرة القومية وبالوحدة(٧). وانسجاماً مع هذا الرأي ، وحتى يبقى نشاطه بمنأى عن التقلبات السياسية العابرة، تعمد الملك فيصل الأول عدم تعيينه وزيراً للمعارف ، بل مديراً عاماً للوزارة ، فكان الوزراء يتبدلون، وهو يمارس السلطة الأولى والثانية في مجال سياسة تربوية قومية وعصرية في العراق .

ولكن ما إن حل عام ١٩٢٧ ، حتى كان الحصري قد ألب من حوله كثيراً من العداوات، لعدة أسباب أهمها تطرفه وتشدده في صياغة مناهج التعليم العراقية بصيغة القومية العربية والعصرية، من منطلقات ثقافته العلمانية . فاذا أضفنا إلى ذلك طغيان شخصيته ومركزه على موقع وزير المعارف ، وعزلته الاجتماعية بسبب شخصيته المتزمتة ، تجمعت أمامنا أبرز الأسباب التي جعلت استمراره في مديرية دار المعلمين في بغداد مستحيلة عام ١٩٢٧ . فاستقال ، ليشغل طوال السنوات الأربع التالية (١٩٢٧– ١٩٣١)، مقعد التدريس في دار المعلمين نفسها ، ولكن مع بقائه ذا أثر اساسي في مناهج التعليم العراقية ، وبسبب نشاطه السابق ، وبسبب مؤلفاته الكثيرة في هذا المجال .

بعد مرور سريع بمنصب «مفتش وزارة المعارف » عام ١٩٣١ ، انتقل الحصري الى منصب عميد كلية الحقوق ، الذي استمر فيه حتى ١٩٣٥ . وبعد عام عاصف جمع فيه بين منصبي عمادة كلية الحقوق ، ومديرية الآثار ، تفرغ لمنصب مديرية الآثار من ١٩٣٦ حتى ١٩٤١ . وكان ملفتاً للنظر أنه تمكن في هذا المنصب الجديد عليه ، لا خلق اهتمام وطني عام بالآثار فقط، بل تعمق في الأجتهاد في هذا الحقل حتى عينته عصبة الأمم عضوا في اللجنة الأستشارية لشؤون الفن والآثار وعلم الأجناس ، فلم يترك المنصب إلا بعد أن أسس المتحف العراقي ، ونشر على أوسع مدى شعور الاعتزاز بالتاريخ العربي .

ففي عام ١٩٤١، كان المخاض السياسي والقومي في العراق ، وسائر بلاد المشرق العربي ، قد وصل إلى إحدى ذرواته الساخنة . ولم يستطع إيمان الحصري بالتمييز بين «السياسية العليا »و«السياسية الهامشية» أن يعصمه عن الانخراط في خضم الصراعات السياسية الساخنة .

ففي رسالة بعث بها خلدون ساطع الحصري ، إلى وليام كليفلاند بتاريخ أول اغسطس (آب) ١٩٦٩ ، أن خلاف الحصري مع مجموعة السياسيين العراقيين المعتمدين على بريطانيا ، قد وصل إلى حد التصادم مع نوري السعيد ، عندما عارض هذا الأخير ارسال أسلحة للمقاتلين في فلسطين، بسبب خوف نوري السعيد من استعمال هذه الأسلحة ضد القوات البريطانية . وكان ساطع الحصري يصف موقف نوري السعيد هذا بالولاء المطلق لبريطانيا (٨) .

وفي عام ١٩٤١ ، وعندما قامت ثورة رشيد عالي الكيلاني وفشلت، قامت حكومة عبد الإله بطرد عدد من الشخصيات الوطنية ، بعد تجريدها من الجنسية العراقية ، ومن هؤلاء طه الهاشمي وساطع الحصري . وقد كتب الحصري معلقا على هذه الخطوة وموجزا عقدين من نشاطه هناك، فقال: إن احد اهدافه الأساسية في العراق كان نشر الأيمان بوحدة الأمة العربية ، ثم أضاف : «ولقد عملت لهذا الهدف، بطرق مباشرة أحياناً

وبطرق غير مباشرة أحياناً اخرى، وضمن إطار مهماتي الرسمية وخارج إطارها... وباختصار، لقد انتهزت كل فرصة، واستعملت جميع الوسائل للعمل من أجل هذه القضية. ويؤلمني القول بأن هذه هو السبب الذي دفع حكومة عبد الإله لإبعادي عن العراق وتجريدي من الجنسية العراقية عام ١٩٤١»(٩).

وكانت حلب، مدينة عائلته، هي النقطة التي أبعد اليها من العراق، إلا أنه سرعان ما انتقل إلى بيروت، حيث أمضى ثلاث سنوات. ثم استدعته الحكومة السورية الحديثة الاستقلال عام ١٩٤٤، ليعمل كمستشار في الشؤون التربوية. وكانت تقاريره الستة عشر التي وضعها حول هذا الموضوع، هي أساس تعريب التعليم في سورية. ومع أن البرلمان السوري، وصف قانون المعارف الجديد (المعتمد الى حد بعيد على تقارير الحصري واقتراحاته) بمثابة «اعلان الاستقلال الثقافي» فإن النزعة العلمانية التي تميزت بها اقتراحات الحصري قد دفعت بعض العناصر الطلابية المدفوعة من بعض القوى المتزمتة، الى الخروج في تظاهرة في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٦، تهتف في شوارع دمشق «لا اله إلاّ الله، الحصري عدو الله». ومرة أخرى، اضطر ساطع الحصري للاستقالة، والعودة الى بيروت الا أن الحكومة السورية صمدت أمام الضغوط، واحتفظت بقوانين الاصلاح التعليمي التي صممت بناء على اقتراحات الحصري.

ثم انتقل ساطع الحصري الى القاهرة، عام ١٩٤٧، ليستقر فيها حتى عام ١٩٥٧، متنقلاً بين مناصبه كمستشار للجنة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية، ومحاضر في جامعة القاهرة، ثم كأول مدير لمعهد الدراسات العربية العالية (١٩٥٣)، الذي استقال منه عام ١٩٥٧، وتقاعد نهائياً في سن السابعة والسبعين، بعد أن خاض معارك عديدة مع بعض الأساتذه الذين حاولوا صبغ المعهد ذي الاتجاه القومي، بصبغة دينية، لم يأل الحصري جهداً بمقاومتها، باتجاهه العلماني الذي تميزت به جميع كتاباته.

ومع إن ساطع الحصري كان متقاعداً في سنواته الأحدى عشرة الأخيرة، فقد ظل يكتب من بانسيون «فينوان» في القاهرة، وبيروت وبغداد (التي توفي فيها في كانون الأول / ديسمبر عام ١٩٦٨) بهمة وغزارة مواصلاً الدعوة للوحدة العربية، خائضاً المعارك على جميع الجبهات دفاعاً عنها.

ملامح فكرية :

يمكن القول من غير مبالغة، إن ساطع الحصري قد انفق نصف القرن الأخير من حياته في جهد يومي متواصل للدعوة للفكرة العربية، ثم لمحاولة نحت صيغ حديثة لها، قادرة على مجابهة تحديات العصر. فهو العربي العلماني، الذي وإن كان يعتز بالتراث

العربي ، بل ويجتهد لنشر الاعتزاز به ، فانه يصر على أن يكون العربي ابن عصره ، لا عربي العصور الغابرة . وقد كان التاريخ هو المادة الأساسية التي اعتمد عليها الحصري ، سواء في مجال الدعوة للعروبة ، أو في مجال نحت صيغ فكرية حديثه لها ، حتى أن البعض يأخذ عليه أنه كان يستقرئ احداث التاريخ ، ليس بالتجريد الفكري الأكاديمي ، بل بحرارة الداعية ، وغرضه الواضح المحدد . ولعل من أشد الأمثلة صراحة في هذا المجال ، أنه في الوقت الذي كان فيه الحصري يخوض المعارك الفكرية مع «غوكالب» داعية القومية التركية، دفاعاً عن فكرة الانتماء للامبراطورية العثمانية ، كان يرفض اتخاذ التجربة الوحدوية الألمانية كنموذج ، لأن وحدة اللغة كانت عنصراً اساسياً فيها، بينما الفكرة العثمانية مبنية على تكامل شعوب ذات لغات مختلفة. الا أن الحصري، بعد أن التزم بالفكرة العربية ، أصبح يجد في الوحدة الألمانية التجربة التاريخية النموذجية التي يمكن أن يقتدي العرب بها ، والتي تتطابق بعناصرها المتعددة الى حد بعيد مع التجربة العربية .

وما كان الكلام لينتقص من القيمة الفكرية لمقولات الحصري واجتهاداته ، بل لوضعها في إطارها الموضوعي الذي لا يستقيم الحكم عليها بدونه. ولكن هذا الأطار لا يكتمل ، إلا إذا أشرنا إلى العنصر الثاني المهم فيه ، وهو المساجلات . فقد طرح الحصري العديد من آرائه الأساسية، وفي سياق المعارك الكلامية الكتابية التي كان يخوضها مع أعداء الوحدة العربية ، أو ضعيفي الأيمان بها، أو أنصار الأقليميات المتعددة (خاصة في مصر ، سواء ضد أنصار الفرعونية أو أنصار الالتحاق بالغرب). وهنا أيضا نجد أنفسنا أمام إطار يضطرنا ، حتى لا نظلم الحصري في الحكم على صلاحية أفكاره وعمقها ، ألا نعامل نصوصه بشكل متفرق مجتزأ ، بل أن نقرأها قراءة شاملة متكاملة ، ونستخلص منها السياق الفكري العام ، والروحيةالعامة . وهذه جولة سريعة مع اهم الملامح العامة للطروحات الفكرية المتشعبة التي طرحها الحصري ، داعياً للقومية العربية ، مجتهداً في محاولة نحت اطاراتها التاريخية الفكرية ، نعرض خلالها آراءه الرئيسية بالنسبة لأهم المشكلات التي عالجها ، أو القواعد الأساسية التي حاول ارساءها :

العنصرية والمركز الممتاز بين الشعوب :

يقول ساطع الحصري معلقاً على طروحات «آرنت» حول ملامح القومية الألمانية(١٠) انه يرى الأمة كائناً معنوياً ، مشدداً على العناصر الطبيعية في تكوين الأمة، ولكن في الوقت الذي يقول فيه آرنت إن المانيا متفوقة على بقية الأمم في اللغة وفي المزايا العرقية السلالية، وأنها تمتلك بالتالي تفوقاً خلاقاً على تلك الأمم ، فقد كان الحصري يقصر دعوته على مفهوم ضيق ، فيدعو للاعتزاز بالحضارة العربية، ولكن من غير التعبير عن شعور مقارن بالتفوق العرقي ، كما أنه ميز دعوته عن الرومنطيقيين الألمان فلم يدع العرب للقيام

بمهمة حضارية على مدى العالم بأسره، كما أنه لم يؤمن بتقسيم الأجناس البشرية الى درجات في سلم التقدم ، حتى أنه وصف مفاهيم «فيخته» في هذا الصدد بـ : الصوفية(١١)

بين الوطنية والقومية :

من مساهمات ساطع الحصري القيمة ، اجتهاده في توضيح مفردات الفكر القومي، وتحديد معالم هذه المفردات والمفاهيم الكامنة وراءه . من ذلك تحديده للفارق بين «الوطنية» و«القومية» . فالوطنية هي الارتباط بأرض الوطن، والقومية هي الارتباط بالأمة . والأمة هي مجموعة من البشر ترتبط بعلائق محددة من اللغة والتاريخ ، أما الوطن فأرض تسكنها مجموعة خاصة من هذه الأمة (١٢)، وهو أحياناً يميز بين الوطن الخاص (الوطن)، والوطن العام (وطن الأمة).

بين الوطن والدولة :

وفي محاولة لتعميق وتحديد مفهوم الوطن والوطنية بدقة ، انتقل ساطع الحصري ، إلى مناقشة الفارق بين الوطن والدولة . فيعرف الدولة بأنها وحدة سياسية ، ومجموعة مستقلة من الناس ، تعيش على أرض واحدة لها حدود معينة(١٣). ثم ينتقل الى التشديد على عدم الخلط بين الدولة (بهذا المفهوم) وبين الوطن. وإلا – يقول الحصري – فإن علينا أن نعتبر أن سكان كل من برلين وفرانكفورت كانوا يعيشون في أوطان مختلفة ، قبل توحيد ألمانيا بينما هم في الحقيقة كانوا يعيشون في دول مختلفة . ثم يطرح مثالاً معكوساً فيقول : إن سكان بودابست وفيينا كانوا يعتبرون أبناء وطن واحد – خطأ – لأنهم كانوا يعيشون في دولة واحدة (قبل انفصال المجر عن الامبراطورية النمساوية). ويضيف الحصري في هذا المجال ، إن المفكرين الفرنسيين تأخروا في التفريق الدقيق بين مفهومي الوطن والدولة ، لانهم حققوا وحدتهم القومية في وقت مبكر ، بينما كان الألمان أنشط منهم في هذا المجال ، لأنهم كانوا يعانون مشكلة التجزئة القومية ، فهم يحتاجون بالتالي إلى خلق مفاهيم محددة وواضحة في هذا الصدد (١٤) .

اللغة والتاريخ :

ظل ساطع الحصري يكرر في كتابات متعددة أنه يعتبر اللغة والتاريخ، العنصرين الوحيدين الأساسيين ، اللذين يفرقان أمة عن الأخرى ، فهو يرى :(١٥) أن أسس تكوين أمة وبناء قومية هي وحدة اللغة والتاريخ . ذلك لأن الوحدة في هذين المجالين تؤدي الى وحدة المشاعر والميول ، وحدة الآمال والآلام ، ووحدة الثقافة ، الأمر الذي يجعل الناس يشعرون أنهم أبناء أمة واحدة ، مختلفة عن الأمم الأخرى.

وبين هذين العاملين ، يضع الحصري عنصر اللغة في المرتبة الأولى، ويضرب مثلا بـ «بولونيا» التي زال كيانها السياسي تماماً بعد تقسيمها، ولكن كيانها كأمة بقي بسبب محافظة الشعب البولوني على لغته .

الدين والقومية :

كان ساطع الحصري أحد اكثر المكافحين في سبيل ربط القومية العربية بالمفاهيم العلمانية، فمع اعترافه بالقوة الروحية التي يمنحها الدين ، الا إنه كان يرى أن الأديان السماوية، مثل الأسلام والمسيحية ، ذات الرسالة العالمية المنفتحة على جميع البشر، من مختلف الجنسيات والقوميات ، لا يمكن أن تكون مرادفة للمفهوم القومي. ويستخدم الحصري كعادته، أمثلة تاريخية لدعم وجهة نظره هذه . فيتحدث عن التاريخ العربي قبل الاسلام ، كما يضرب مثلا بـ «بلغاريا» التي كافحت، في سبيل استقلالها الوطني والقومي ، ضد هيمنة الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية، تماماً مثلما كافحت ضد الهيمنة العثمانية ، كما يضرب مثلاً بـ «بافاريا» الكاثوليكية و«بروسيا» البروتستانتية ، اللتين لم يمنعهما فارق المذهب الديني من استكمال وحدتهما القومية الألمانية (١٦).

الأصول العرقية والقومية :

وكما رأينا نفى الحصري في مقطع سابق المفهوم الألماني للتفوق العرقي (برغم تأثره الشديد بالتجربة القومية الألمانية)، لأن فكر ساطع الحصري قد تميز – على وضوح وحدة التزامه بالقومية العربية – برفض الأصول العرقية كعامل من عوامل القومية . وهو يرد على أصحاب نظرية «الأصول العرقية الواحدة في الأمة الواحدة» بقوله : إن كل الدراسات العلمية المبنية على وقائع التاريخ ، واكتشافات علم الأجناس لا تدع مجالاً للشك في عدم وجود أية أمة على وجه الأرض متحدرة من أصل واحد، أو ذات دم صاف (١٧).ويضيف الحصري إلى ذلك إن تعدد الأجناس لا يمنع انتظامها في قومية واحدة . ويضرب مثلاً على ذلك في فرنسا ، أول القوميات الأوروبية اكتمالاً ، برغم تحدرها من أصول عرقية مختلفة واضحة المعالم في تكوينها البشري الحديث.

عن الاشتراكية والشيوعية :

ومع أن من المآخذ التي تسجل حديثاً من قبل مراجعي فكر ساطع الحصري ، خلو دعوته القومية الوحدوية من الالتفات الجدي للأوضاع الأجتماعية للأمة العربية ككل ، ولكل شعب عربي على حدة وأثر هذه الأوضاع في المسيرة القومية الوحدوية، إلا أننا يجب أن نكون شديدي الحذر والدقة في هذا الموضوع ، فلا نندفع –مع البعض– إلى تفسير ذلك بأنه عداء من الحصري للاشتراكية، أو عقدة قومية من الشيوعية أو الماركسية.

فعلى قلة أدبيات الحصري في هذا المجال ، إلا أنه يلمس هذا الموضوع لمساً سريعاً يظهر مفاهيمه العامة التي لا يمكن اعتبارها مناقضة للاشتراكية ، أو معقدة من الشيوعية عقدة « عداء قوي شوفيني مستحكم».

ففي مقالة نشرها في مجلة «الرسالة» المصرية (عام ١٩٣٨) بعنوان «بين الوطنية والأممية » (المجلد الرابع ، الأعداد ٢٤٢-٢٤٤)، يقول : إنه من الضروري بذل كل جهد لتطوير الأوضاع الحالية ولإلغاء الظلم بأسرع ما يمكن، شرط أن لا ننحرف في عملنا ووسائلنا عن متطلبات الوطنية.

كذلك ، فإن الحصري لم ينغمس مرة في تحديد شكل النظام الأقدر على تحقيق التغيير المطلوب . ولكنه كان من وقت لآخر، يعطي آراء في هذا النظام السياسي أو ذلك ، من باب تحديد علاقته بالقومية، فيتطرق في مجلة «الرسالة» (المرجع المذكور أعلاه) إلى موضوع الشيوعية، فيبدي اعتراضه عليها وعلى أي شكل من أشكال الأممية ، من زاوية تعارضها مع الروابط القومية . ومع اعترافه بفضل الاتحاد السوفيتي في دعم العرب في نضالهم ضد الأمبريالية ، إلا أنه يرفض حل الروابط القومية لتحل محلها أممية الروابط الطبقية ، ولكنه سرعان ما يوضح أنه ليس لديه اعتراض على الشيوعية أو الاشتراكية كشكل من أشكال النظم السياسية، ولكنه يطالب هذه الحركات بأن لا تجعل دعواتها معادية للقومية . ويضيف موضحاً أن الأمة العربية أفاقت من نوم طويل ، وأن روابطها الوطنية القومية ما زالت ضعيفة ، وأن أي انجذاب منها نحو الأممية مؤذٍ ، ولا يمكن التغاضي عنه (المصدر المذكور اعلاه).

عن مصر ودورها القومي :

كانت أولى تجارب ساطع الحصري العملية بعد انضمامه النهائي إلى العروبة، معايشته لثورة عام ١٩١٩ في مصر ، وكان يأمل أن تؤدي هذه الثورة إلى دفع مصر للانخراط في خضم النضال العربي الذي كان قد بدأ يستعر عملياً بعد طول مخاض فكري وحركي : إلا أن خيبة أمل ساطع الحصري كانت كبيرة في هذا المجال ، بعد أن انكفأت مصر على نفسها ، وانكفأ العرب عنها ، طوال الفترة الفاصلة بين ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ .

وكان لساطع الحصري رأي قاطع في مسألة عروبة مصر ، كان يحدده بثلاثة عناصر :

أ- أن مصر بلد عربي .

ب- أن مصر يجب أن تكون ، عملياً ، زعيمة العالم العربي .

جـ- أن من غير المقبول للمصريين أن يكون لهم ارتباط أو ولاء أو التزام بعقيدة غير العروبة . وبالفعل، فإن الحصري لم يكن ينظر إلى مصر كبلد عربي فقط، بل أهم البلدان العربية(١٨). وقد نشر عام ١٩٣٦ بحثاً بعنوان «دور مصر في النهضة القومية العربية» يقول فيه: «لقد حبا الله مصر بكل المقومات والمزايا التي تجعل واجباً عليها الإضطلاع بدور قيادي في يقظة القومية العربية، فهي تقع في قلب البلاد العربية ، وهي أغناها وأكثرها تقدماً، وهي تضم أكبر كتلة بشرية عربية، وأطول تاريخ تكوين دولة سياسية حديثة . كل ذلك يجعل مصر الزعيم الطبيعي، للقومية العربية». ثم يوضح الحصري كلامه هذا باضافة اخرى فيقول : إنا من الذين يؤمنون بأن لمصر موقعاً خاصاً في العالم العربي ، واتمنى من كل قلبي ، أن تعمل مصر لتحقيق الوحدة العربية ، كما عملت «بروسيا» للوحدة الألمانية ، وكما عملت «بيدمونت» «للوحدة الأيطالية».

عن التراث والحداثة :

حتى في هذه المسألة البالغة الحساسية والأهمية لم يشذ ساطع الحصري عن قاعدته الذهبية بالنظر إلى كل المسائل من منظار الوحدة العربية ، فيؤيد كل ما يدعم التوجه نحو الوحدة ، ويعارض كل ما يعرقل هذا التوجه . من هنا فإن نظرة الحصري إلى التراث العربي نظرة مركبة . فهو ينظر إلى التراث نظرة إكبار واعتزاز كعنصر أساسي من عناصر تماسك الأمة عبر الحقب ، ولكنه يرفض كل ما من شأنه في هذا التراث، أن يعوق تحديث الأمة العربية، ووقوفها على قدم المساواة مع بقية الأمم في هذا العصر . فالتراث بالنسبة له قاعدة انطلاق لبناء مستقبل عربي، وليس لإعادة بناء الماضي. وقد كتب في بحث بعنوان «بين الماضي والمستقبل» يقول : «يصبح الماضي مؤذياً ، إذا بدأ يصبح قوة جذب تدعونا للعودة إلى الوراء . فليس بامكاننا اعتبار الماضي هدفاً علينا أن نتوجه نحوه. ولكن من الضروري أن نجعل من الماضي قاعدة أساسية نستند عليها في انطلاقنا الى الأمام، فنخلق منه قوة محركة تدفعنا نحو مستقبل جديد ، باختصار ، يجب أن يكون شعارنا في هذا الصدد هو تذكر الماضي مع تطلع دائم الى المستقبل» .

عن التربية والتوعية القومية :

مثلما رأى المفكر الألماني «فيخته» أن خلاص «بروسيا» بعد هزيمتها أمام «نابليون» ، يكمن في إعادة تكوين مجتمعها عبر وسائل وأساليب تربوية جديدة ، فإن الحصري لم يؤمن بذلك فقط ، بل جعل حياته كلها تعبيراً عن هذا الأيمان ، سواء في ذلك نشاطه في

المرحلة العثمانية ،أو في المرحلة العربية: بين سورية والعراق ومصر. فقد وضع الحصري كل آماله بالمستقبل، في تنشئة الأجيال العربية الجديدة، وفقاً لأساليب تربوية حديثة ، ليس للمحافظة على المجتمع القديم مثلما وجد ، بل لخلق مجتمع جديد(١٩).

الخاتمة :

ليس هنالك شك في أن ساطع الحصري، هو واحد من أبرز الأسماء التي ارتبطت بمسيرة الفكرة القومية العربية المعاصرة ، ودعوة الوحدة العربية ، ارتباطاً بلغ حد التطابق بشكل من الأشكال ، مع كل انتصار لفكرة الوحدة العربية ومع كل انتكاسة لها .

فقد كان من أول الخطوات العملية التي تمت يوم قيام أول وحدة عربية في التاريخ المعاصر بين مصر وسورية قيام أكرم الحوراني ، رئيس مجلس الشعب السوري سنة ١٩٥٨ ، بتوجيه برقية تهنئة إلى ساطع الحصري .

وعندما وقع الانفصال بين مصر وسورية، في ٢٨ سبتمبر (ايلول) ١٩٦١ ، شعر أفراد عائلة ساطع الحصري أنه في حالة خطر صحي تقتضي العناية الخاصة به. وقد استمرت هذه العناية اياماً ، لحين تمكن الحصري من استيعاب صدمة الانفصال .

كان ساطع الحصري – من غير مبالغة – اشبه بالرائد الذي يحمل العلم أمام الكتيبة . لذلك لم يكن غريباً أن يلتفت العرب اليه عند كل حدث طارئ ، للأطمئنان على الراية . ففي الوقت الذي كانت فيه الآراء غير نهائية في تقييم وتحديد هوية وأبعاد الانقلاب العسكري الذي وقع في مصر عام ١٩٥٢ ، كان للعبارة الشهيرة التي أطلقها ساطع الحصري في هذا الصدد أثر قاطع على الصعيد القومي ، عندما قال بعد أن قرأ الدستور الجديد الذي ينص على أن مصر جزء لا يتجزأ من الأمة العربية ما معناه: إن قلبه أطمأن الآن إلى مستقبل الثورة .

وإذا كان فكر ساطع الحصري مادة تخضع للغربلة الفكرية والسياسية الدائمة، وإذا كان الحصري قد وفر علينا الكثير من المشقة في هذا المجال باقراره بأنه أول من يتمنى أن تتجاوز الأمة العربية الحاجة إلى أفكاره وكتبه ، فالشيء الذي أصبح ثابتاً ونهائياً ومحسوماً، هو أن التاريخ العربي المعاصر قد سجل اسم ساطع الحصري على رأس قائمة المبشرين بالوحدة العربية ، المترهبين في سبيلها ، المصرين على طرحها معياراً سياسياً فاصلاً ، نحكم به على أي حدث سياسي يتعلق بنا.

ترى متى يمكننا أن نقول إننا قد استوفينا حاجتنا من ساطع الحصري المفكر، وساطع الحصري الداعية ، وخاصة ساطع الحصري النموذج ؟.

قائمة بيليوجرافية كاملة بكتابات ساطع الحصري باللغة العربية

١- المؤلفات

- أبحاث مختارة في القومية العربية (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٤).

- أحاديث في التربية والاجتماع (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٢).

- الاحصاء (بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٣٩).

- آراء واحاديث في التاريخ والاجتماع (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٠).

- آراء وأحاديث في التربية والتعليم (القاهرة ، مطبعة الرسالة ، ١٩٤٤).

- آراء وأحاديث في العلم والاخلاق والثقافة، (القاهرة، مطبعة الاعتماد، ١٩٥١).

- آراء وأحاديث في القومية العربية (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٤).

-آراء وأحاديث في اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية (بيروت ،دار الطليعة ، ١٩٦٦).

- آراء وأحاديث في الوطنية والقومية (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦١).

- الاقليمية : جذورها وبذورها (بيروت ، دار العلم للملايين ،١٩٦٤).

- البلاد العربية والدولة العثمانية (بيروت ، دار العلم للملايين، ١٩٦٥).

- تقرير عن حالة المعارف في سورية واقتراحات لاصلاحها (دمشق ، دار الهلال،١٩٤٤).

- ثقافتنا في جامعة الدول العربية (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٢).

– حول القومية العربية (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦١).

– حول الوحدة الثقافية العربية (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٥٩).

– دراسات عن مقدمة ابن خلدون (القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٦١).

– دروس في أصول التدريس (بيروت ،دار الكشاف ، ١٩٤٨).

– دفاع عن العروبة (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٥٦).

– رسالة في الاتحاد (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٥٤).

– صفحات من الماضي القريب (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٤٨).

– العروبة أولاً (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٥).

– العروبة بين دعاتها ومعارضيها (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦١).

– ما هي القومية؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات (بيروت ، دار العلم للملايين،١٩٦٣).

– محاضرات في نشوء الفكرة القومية (القاهرة ، مطبعة الرسالة ١٩٥١).

– المحاضرة الافتتاحية (القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٤).

– مذكراتي في العراق ١٩٢١– ١٩٤١ ، جزآن (بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٦٧– ١٩٦٨).

– نقد تقرير لجنة مونرو (بغداد ، مطبعة النجاح ، ١٩٣٢).

– يوم ميسلون : صفحة من تاريخ العرب الحديث (بيروت ، دار الاتحاد؟).

٢– مقالات في مجلة الرسالة (القاهرة):

– الاستعمار والتعليم (مجلد ٤ ، عدد ١٢٧، سنة ١٩٣٦).

– بقايا التركية في لغة مصر الرسمية (مجلد ٥ ، عدد ١٨٩، سنة ١٩٣٧).

– بين الوحدة الاسلامية والوحدة العربية (مجلد ٧، عدد ٣٢٨ ، سنة ١٩٣٩).

- بين الوطنية والأممية (مجلد ٦، عدد ٢٤٢-٢٤٤، سنة ١٩٣٨).

- التعليم الالزامي في مصر (مجلد ٦) عدد ٢٦١، سنة ١٩٣٨.

- حول استقلال الكلمات في المعاجم (مجلد ٨، عدد ٣٤٥، سنة ١٩٤٠).

- حول كتاب مستقبل الثقافة في مصر (مجلد ٧ ، عدد ٣١٦- ٣٢١، سنة ١٩٣٩).

- حول الوحدة العربية (مجلد ٧ ،عدد ٣١٥، سنة ١٩٣٩).

- حياة الأمة العربية بين الماضي والمستقبل (مجلد ٥ ، عدد ٢٣٣، سنة ١٩٣٧).

- شمال افريقية والعروبة (مجلد ٨، عدد ٣٣٩، سنة ١٩٤٠).

- العلم للعلم أم العلم للوطن؟ (مجلد٥ ، عدد ٢٠٦، سنة ١٩٣٧)

- العلم والوطنية (مجلد ٥ ، عدد ٢٠٦، سنة ١٩٣٧).

- قصة سامرا (مجلد ٨، عد ٣٤٤،، سنة ١٩٤٠)

- مصر والعروبة (مجلد ٦، عدد ٢٨٥، سنة ١٩٣٨).

- معارف مصر في حولية المعارف الأممية (مجلد ٨، عدد ٣٤٦، سنة ١٩٤٠).

- ملاحظات انتقادية على قواعد اللغة العربية (مجلد ٦، عدد ٢٧٢- ٢٧٤، سنة ١٩٣٨).

- نقد نظام التعليم في مصر (مجلد ٥ ، عدد ١٨٧، سنة ١٩٣٧).

٣- دوريات وحوليات :

- حولية الثقافة العربية (٥ مجلدات، القاهرة، ١٩٤٨-١٩٥٧).

- مجلة التربية والتعليم (٥ مجلدات، بغداد، ١٩٢٨-١٩٣٢).

الهوامش

١- اعتمد هذا المقال بشكل اساسي على دراسة صدرت عام ١٩٧١ عن جامعة برنستون الأميركية بعنوان: "The Making of An Arab Nationalist, Othomanism and Arabism In The Life and Thought of Sati AL- Husry, ByWilliam L. Clev land. Princton University Press" ويبدو أن هذا الكتاب هو أشمل وأدق دراسة صدرت حتى الآن، بأية لغة، عن حياة ساطع الحصري وفكره. فقد اعتمد مؤلفها على المؤلفات الاساسية للحصري، بالتركية والعربية، ثم على عشرات المراجع (أكثر من مائة وثلاثين) مؤلفاً بالعربية والتركية والانجليزية والفرنسية، عن الحصري وعصره، بالاضافة الى مقابلة شخصية مع ساطع الحصري شخصياً عام ١٩٦٦، وأربع مقابلات مع ولده خلدون الحصري عام ١٩٦٧.

٢- نيازي بيركس: تطور العلمانية في تركيا (بالانجليزية) (The Develoment of Secularism in Turkey, Mc Gill University Press. 1964,P405.) وحلمي ضيا أولكن: التاريخ الثقافي المعاصر لتركيا، بالتركية (المجلد الاول، صفحة ٢٧٠).

٣- Louis Figuier (١٨١٤-١٨٩٤) كان أحد أعلام التبسيط الشعبي للعلوم الطبيعية، ومن أوائل الذين كتبوا زاوية علمية في الصحافة الفرنسية اليومية.

٤- محمد كرد علي: المذكرات، دمشق ١٩٤٨ (ص٢٧٧).

٥- William Clevland: The Making of an Arab Nationalist , 1971,P45.

٦- خلاصة ترجمة حال ساطع الحصري (غير منشور).

٧- ساطع الحصري: آراء وأحاديث في التربية والتعليم، القاهرة ١٩٤٤، (ص١٤٨).

٨- The Making of an Arab Nationalist.P. 75.

٩- ساطع الحصري: مذكراتي في العراق، بيروت، المجلد الأول، (ص - ١٠).

١٠- Hans-Kohn : Arndt and th Character of German Nationalism, The Ameican Historical Review. المجلد ٥٤، العدد الرابع، ١٩٤٩، ص ٧٩١

١١- ساطع الحصري: نشوء الفكرة القومية، (ص٣٦).

١٢- ساطع الحصري: أبحاث مختارة في القومية العربية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٦، (ص٢٨ و ٣٢).

١٣- المرجع السابق، (ص٢٨).

١٤- ساطع الحصري: ما هي القومية، دار العلم للملايين بيروت، (ص٣٥ - ٣٨).

١٥- ساطع الحصري: ابحاث مختارة ، (ص ٢٤٩).

١٦- ساطع الحصري: ما هي القومية (ص٤٥ - ٤٩).

١٧- ساطع الحصري: أبحاث مختارة ، (ص٣٩).

١٨- William Cleveland: The Making of an Arab Nationalist, P134.

١٩- ساطع الحصري: آراء وأحاديث في التربية والتعليم، القاهرة، ١٩٤٤، (ص١٤٤).

القسم الرابع



الحركة العربية القومية
من الانفصال إلى كمب ديفيد
١٩٦٢-١٩٧٧





مدخل :

تبدأ هذه المرحلة بحدث جلل ، هو وقوع الانفصال سنة ١٩٦١ ، وتنتهي بحدث اكثر خطورة : توقيع اتفاقيتي كمب ديفيد ، بين حكومة مصر والعدو الصهيوني .

كان الحدث الأول انتكاساً لتجربة وحدة عظيمة ، ربطت بين مصر وسورية ، القطرين المتباعدين ، لتعبر عن إرادة الجماهير العربية في الوحدة العربية ، وفي مقاومة العدو الصهيوني والتحديات الامبريالية .

وجاء الانفصال ليكرس واقع التجزئة ، وليكشف الأهداف الحقيقية لقوى التجزئة العربية ، والمخططات الامبريالية المساندة لها .

ولكن الانفصال ، كشف أمرين آخرين ، يستحقان الوقوف عندهما :

الأول : ضعف بنية السلطة في مصر ، وعجزها عن إدارة قضية الوحدة .

ورغم تحمل المشير عبد الحكيم عامر مسؤولية كبرى في هذه المسألة ، إلا أن المشير كان جزءاً من بنية النظام .

الثاني : ضعف قوى الوحدة وجماهير الوحدة في الدفاع عن الوحدة . ورغم الانفصال، فان الصراع استمر على كل الجبهات .

ففي سنة ١٩٦٢ تحررت الجزائر ، وقامت دولة عربية فيها ، بعد مائة وخمسة وثلاثين عاماً من الاحتلال ، وما لبث اليمن الجنوبي أن تحرر ، سنة ١٩٦٧ .

وتسلم حزب البعث السلطة في سورية والعراق أوائل ، سنة ١٩٦٣ ، وحاول الرئيس جمال عبد الناصر ، ان يرد على الانفصال ، فعمل على محورين:

الأول : تعميق تجربة البناء في مصر ، وكان من نتيجة ذلك صدور الميثاق ، والمزيد من الاجراءات الاشتراكية .

الثاني : مساندة القوى الصاعدة في الوطن العربي ، من اليمن الى الجزائر .

ولكن الأمور لم تستقر ، إذ ما لبث العدو الصهيوني ، أن شن هجومه على مصر وسوريا والأردن ، سنة ١٩٦٧ ، فاحتل سيناء والجولان والضفة الغربية وغزة ، بمساندة أمريكية علنية.

وقاد هذا الى صدور القرار ٢٤٢ عن مجلس الأمن.

ولكنه قاد الى أمور أخرى، أبرزها:

١- صدور قرارات قمة الخرطوم، تشرين الثاني١٩٦٧، التي سميت لاءات الخرطوم.

٢- انبثاق مقاومة فلسطينية جديدة سنة ١٩٦٧، استمراراً للمقاومة التي انطلقت، سنة ١٩٦٥، وتطويراً لها.

٣- بدء مقاومة رسمية مصرية، سُمِّيت حرب الاستنزاف.

وفي هذا الوقت، مات جمال عبد الناصر، فقفز السادات إلى السلطة، وأطاح بالناصريين، وبدأ نهج التعاون مع حكومات الولايات المتحدة واوروبا، وضرب العلاقات مع السوفيات. وفي هذه الظروف، قامت حرب تشرين ١٩٧٣، التي قادت الى الاختراق الصهيوني في أرض مصر، وتوسيع رقعة الاحتلال في سورية، والى صدور القرار ٣٣٨ الذي ينص على تنفيذ القرار ٢٤٢.

وما أن انتهت حرب ١٩٧٣، حتى بدأت الحرب الأهلية في لبنان، وتدخلت القوات السورية، لينفجر الصراع مع قيادة المقاومة.

وترافق ذلك مع التدهور السياسي الذي حصل في مصر، بعد حرب تشرين، والذي قاد الى زيارة السادات القدس، ومباحثات كمب ديفيد التي قادت الى اتفاقيتي كمب ديفيد، وبدء مرحلة الاعتراف بالعدو الصهيوني.

وفي هذه المرحلة التي شهدت انجازات، مثل انتصار الثورة الجزائرية والثورة في اليمن الجنوبي، واستقرار أوضاع الثورة في اليمن، وسقوط الحكم الملكي في ليبيا، وتأميم النفط في العراق، شهدت انتكاسات كبرى كالانفصال، نكسة حزيران، ووفاة

جمال عبد الناصر، كما شهدت خلافات كبرى، كالخلاف البعثي الناصري ١٩٦٣–١٩٦٧ خاصة. والخلاف بين جناحي حزب البعث في سورية والعراق – ١٩٦٣–١٩٩٥.

كما شهدت الصدام بين القوات السورية وبعض قوى المقاومة الفلسطينية في لبنان، وتوقيع اتفاقيتي كمب ديفيد ..

لقد اختلطت الانجازات بالنكسات، واذا كانت ارادة الامة واضحة، فقد كان البرنامج المعادي واضحا، وكانت نقاط الضعف في حياة القوى القومية كبيرة... ومع اتفاقيتي كمب ديفيد تنتهي مرحلة لتبدأ مرحلة جديدة.

«المحرر»



الفصل الاول

حركة القوميين العرب
وجدلية العلاقة بين الوطنية الفلسطينية
والقومية العربية

د. إبراهيم أبراش

مقدمة :

بالرغم من قصر عمر «حركة القوميين العرب» كحزب سياسي قومي ، إذ لم يتجاوز عقدين من الزمن، فان هذه الحركة استطاعت ان تتبوأ مكانة بارزة ضمن الحركة القومية العربية ، وتشكل احد أهم المرتكزات النضالية للحركة القومية العربية ، بل وصل الأمر في بعض المراحل انها كانت أكثر الحركات السياسية فاعلية وحضوراً في ساحة النضال الشعبي العربي ، سواء من حيث شعبيتها ، أو من حيث تحالفاتها ، أو من حيث نهجها النضالي ومنطلقاتها الفكرية التي تفاوتت ما بين المثالية القومية المتطرفة ، والنضال السياسي السلمي وبين النضال المسلح .

وبالرغم من وحدة الأوالية التي تجمع الحركة مع غيرها من القوى القومية كحزب البعث العربي الأشتراكي والحركة الناصرية وهي الفكر القومي كقاعدة، والوحدة العربية كهدف ، الا أن الحركة تميزت عن غيرها بحساسيتها الدقيقة تجاه القضية الفلسطينية ، بل يمكن القول أن نشأة الحركة وصيرورتها ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالقضية الفلسطينية وتحولاتها . فالحركة كانت إفرازا لحرب ١٩٤٨ وبداية نهايتها جاء ايضا عقب هزيمة ١٩٦٧ حيث تباينت الاجتهادات في صفوف الحركة حول النهج الأقوم في التعامل مع مستجدات القضية الفلسطينية ، وعلاقة الوطني الفلسطيني بالقومي العربي .

بالأضافة إلى خصوصية البعد الفلسطيني ، فقد امتازت الحركة بأسلوبها المتميز والمتطرف في تعاطيها مع موضوعات النضال القومي العربي هذا التطرف الذي كان محكوماً بمبدأ (كل شيء او لا شيء) كان السبب في عدم ثبات الحركة على ايديولوجية واحدة ، فما ان تصطدم بصعوبة تحقيق كل شيء حتى تتحول الى ايديولوجية جديدة ،

وعلاقات جديدة ، ولو كانت متناقضة مع طرحها الأول ، فمن تنظيم او تيار قومي يعتمد أسلوب العنف الثوري المتطرف ، الى حركة قومية مثالية تتبنى فكراً قومياً طوباوياً، إلى حركة اشتراكية ملحقة بالناصرية ، ما تلبث أن تتحول إلى حركات يسارية وطنية ، ومن معاداة مطلقة للشيوعية إلى تبني مطلق للفكر الماركسي ... الخ .

هذه التحولات لا تعكس في حقيقة الأمر أزمة فكرية وتنظيمية عند حركة القوميين العرب فحسب ، بل عند الحركة القومية العربية ، وأيضا أزمة حركة التحرر العربية التي تبحث عن هوية وانتماء ، وتعيش أزمة التوفيق بين الوطني والقومي.

وبالرغم من صعوبة الإحاطة بفكر الحركة ، ومتابعة مسيرتها القصيرة زمنياً، والمليئة بالأحداث والتحولات. من خلال بحث محدود الصفحات ، فسوف نقارب الموضوع من خلال أربع مباحث ، ارتأينا أنها تغطي المنعطفات الرئيسية في مسيرة الحركة، وهي :

المبحث الأول : البعد الفلسطيني في تأسيس الحركة .

المبحث الثاني : المنطلقات الفكرية الأولى للحركة . (الطور القومي المثالي).

المبحث الثالث : التحولات السياسية والأيديولوجية في الحركة .(الطور الاشتراكي).

المبحث الرابع : حرب يونيو وبداية انهيار الحركة، (مرحلة الأزمة الأيديولوجية والتنظيمية).

المبحث الأول : دور البعد الفلسطيني في تأسيس الحركة

المطلب الأول : أثر نكبة ١٩٤٨ على مؤسسي الحركة .

لا يمكننا أن نبحث في العلاقة القائمة ما بين القضية الفلسطينية ونشوء حركة القوميين العرب، إلا إذا رجعنا إلى نقطة المنطلق ، وتبينا أثر نكبة ١٩٤٨ على مؤسسي الحركة اذ يتحدث جورج حبش أحد أبرز قادة الحركة ، والمؤسس الرئيسي لها ، عن الأثر الذي تركته أحداث فلسطين ١٩٤٨ فيقول :

« لقد شعرت بالاهانة في أحداث ١٩٤٨ . فقد أتى الاسرائيليون الى اللد ، وأجبرونا على الفرار ، إنها صورة لا تغيب عن ذهني ، ولا يمكن أن أنساها، ثلاثون ألف شخص يسيرون ... يبكون يصرخون من الرعب ... نساء يحملن الرضع على أذرعهن ، والأطفال يمسكون بأذيالهن ... والجنود الأسرائيليون يشهرون السلاح في ظهورهن . بعض الناس سقط على قارعة الطريق ،وبعضهم لم ينهض ثانية . لقد كان أمراً فظيعاً ، ما ان ترى ذلك حتى يتغير عقلك وقلبك ... فما الفائدة في معالجة الجسم المريض عندما تحدث مثل هذه الأمور ؟ . يجب على الانسان أن يغير العالم ، أن يقتل إذا اقتضى الأمر ، يقتل ولو أدى إلى أن نصبح بدورنا غير إنسانيين »(١) .

إلى هذا الحد تركت النكبة بصماتها المقيتة على مؤسسي الحركة ، فجورج حبش فلسطيني ، عاش في أرضه ودياره ، وشاهد وحشية الصهيونيين وقسوتهم، كما شاهد تخادل الأنظمة العربية في التعامل مع الوضع، وأثر النكبة على شعبه وأهله المشردين في المخيمات. وكان رد الفعل لديه سريعا ومباشراً ،على حبش .

وقد انضم حبش ، وكان قد تخرج طبيباً إلى مجموعة من المتطوعين الذين اشتركوا في الحرب العربية الاسرائيلية ، على الجبهة السورية اللبنانية، ويروي حبش أن اتصالاته السياسية الأولى بدأت مع حرب فلسطين ، ذلك إنه لم يكن يهتم كثيرا بالعمل السياسي ، أو بالمشاركة في أي تنظيم حزبي .

ولكن معاناته الشخصية ، والصدمة التي ولدتها النكبة في نفسه ومشاعره، جعلته يولي اهتماماً كبيراً للأمور السياسية، وخصوصا تلك التي لها علاقة بالصراع العربي اليهودي. فنكبة فلسطين بالنسبة له ، لم تكن مجرد نكبة قومية ، ولكنها تجربة من المعاناة الشخصية التي صقلت افكاره ومفاهيمه في اتجاه محدد بحيث أصبحت النكبة بالنسبة له

اليهودي. فنكبة فلسطين بالنسبة له، لم تكن مجرد نكبة قومية، ولكنها تجربة من المعاناة الشخصية التي صقلت افكاره ومفاهيمه في اتجاه محدد بحيث أصبحت النكبة بالنسبة له إهانة قومية وشخصية معا.

ومن خلال اتصالات حبش مع زملائه الطلبة العرب في الجامعة الأمريكية في بيروت، لأجل جمع الأنصار والمؤيدين لموقفه من الصراع العربي اليهودي تعرف على هاني الهندي(٢)وهو من الشباب العربي الذين تأثروا بنكبة ١٩٤٨.وأحسوا بخطورتها على العرب أجمعين، وقد شاطر الهندي حبش في معاناته وأفكاره حول ضرورة تغيير الوضع، والعمل بجدية لمصلحة عرب فلسطين.

ويروي أحد أصدقاء الهندي عن الأثر الذي تركته نكبة فلسطين في أحاسيس ومشاعر الهندي قائلا :«لقد كانت خسارة فلسطين نقطة تحول في حياته، والفكرة الوحيدة التي سيطرت على عقله، هي العمل بجد وقبل فوات الأوان، لأن استرداد فلسطين أصبح الهدف الوحيد في حياته. وكان مستعداً للتضحية بحياته من أجل الوصول لهذا الهدف»(٣). وكان الهندي قد لعب دوراً نشيطاً وفعالاً في تشكيل«كتائب الفداء العربي» التي سنتطرق اليها فيما بعد، والتي كانت مهمتها الأساسية الأنتقام من المسؤولين عن النكبة.

لقد كانت أحداث ١٩٤٨، هي نقطة المنعطف في السيرورة الروتينية في حياة مؤسسي الحركة، حيث انتقلوا من مرحلة المناقشات السياسية المترفة والنظرية البحت، وفي جو الجامعة الأمريكية في بيروت، إلى مرحلة العمل الجدي الدؤوب لأجل الأرتقاء الى مستوى أعلى من التنظيم السياسي، يتم تجسيده في منظمة سياسية تأخذ على عاتقها مواجهة التحديات الصهيونية في فلسطين والأستعمارية في الوطن العربي عموماً.

وكانت جمعية «العروة الوثقى»، في الجامعة الأمريكية في بيروت هي المباءة الفكرية والثقافية، التي استطاع مؤسسوا الحركة من خلالها نشر أفكارهم ومواقفهم ذات الصلة بمجمل القضايا التي تشغل الشارع السياسي العربي، وخصوصاً فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية، على الرأي الطلابي في الحرم الجامعي. ومن على منبر جمعية « العروة الوثقى»، انتقدوا وبشدة مواقف الفئات السياسية الأخرى، والتي حملوها المسؤولية عن النكبة وخصوصا حزب البعث(٤)، حيث اتهم بعدم إيلائه الأهمية الكافية للقضية الفلسطينية، وإنه وجه جل اهتمامه للعمل البرلماني والتدخل لاسقاط الحكومات، ونسج المؤامرات في البلدان العربية.

كما أن حبش ورفاقه لم ينظروا بارتياح للشيوعيين العرب، وذلك لمواقفهم المترددة والخيانية من القضية الفلسطينية، ومواقفهم من قرار التقسيم، واعترافهم بحق تقرير

المصير للشعب اليهودي(٥) كما انتقدوا المواقف الخيانية والتخاذلية للأنظمة العربية ، ولجامعة الدول العربية لتقاعسها عن نصرة الشعب الفلسطيني وترددها في مد كتائب المجاهدين الفلسطينين بالمال والعتاد(٦) .

ولقد ولدت أحداث ١٩٤٨ ، في نفوس مؤسسي الحركة نقمة عارمة ضد مسببي النكبة ، وإيماناً قوياً بضرورة معاقبتهم ، وضرورة العمل بجد لمواجهة مخلفات النكبة . ولكن العواطف والمشاعر الثائرة والنبيلة وحدها لا تكفي لمواجهة الخطر الداهم ، ولحشد جميع طاقات الأمة في هذا الأتجاه . وهذا ما دفع بمؤسسي الحركة للبحث عن نظرية سياسية تكون الرمز الذي يلتف حوله أبناء الأمة العربية، وتختلف في نفس الوقت عما هو سائد من أفكار ومفاهيم ثبت فشلها وعدم صلاحيتها إبان النكبة .

المطلب الثاني : الخلفية النضالية والسياسية لمؤسسي الحركة.

في حرم الجامعة الأمريكية في بيروت ظهرت فكرة تأسيس حركة سياسية مقاتلة. ومن هنا فكر حبش ورفاقه بتشكيل مجموعة ثورية مقاتلة ، هدفها القيام باعمال الإغتيال والقتل ، ضد القادة العرب المسؤولين عن النكبة. والذين كانوا يبدون استعدادا للصلح مع «اسرائيل» ، وكذلك مهاجمة التجمعات والمصالح اليهودية والأستعمارية في البلاد العربية . وقد تولد هذا التفكير العنفوي لدى هؤلاء الشباب ، نتيجة لقراءاتهم عن الحركات الثورية في أوروبا الغربية . وقد كان مثلهم الأعلى آنذاك هو «جيوسبي غاريبالدي» القائد الأيطالي الذي قاد انصاره المعروفين، «بأصحاب القمصان الحمراء »، لتخليص ايطاليا من وضعيتها المزرية، من تخلف وتجزئة، والمشابهة للوضع العربي . كما تأثروا ايضا بشخصية ثورية اخرى «مازيني» الذي كان عضوا في الجمعية الوطنية السرية الأيطالية «كاربوناري» ومؤسساً لجمعية ايطاليا الفتاة . وقد استفاد الشباب العربي الثوري من هذه المنظمة الأخيرة في كيفية استعمال الأسماء المستعارة ؛ والكلمات السرية ، وغيرها من أساليب المنظمات السرية(٧) .

وكانت منظمة كتائب الفداء العربي هي الوليد الذي أفرزته هذه الأفكار الثورية الاندفاعية لدى حبش ورفاقه . وبالرغم من نفي القادة المؤسسين للحركة وجود أية علاقة تربطهم بمنظمة «كتائب الفداء العربي» ، فإنه مما لا شك فيه أن العلاقة كانت موجودة بينهم ، وخصوصا اذا عرفنا ان كلا من جورج حبش وهاني الهندي كانا من مؤسسي الكتائب ، كما ان محسن ابراهيم احد قادة «حركة القوميين العرب » اعترف صراحة بوجود هذه العلاقة ما بين منظمة «كتائب الفداء العربي» وحركة القوميين العرب (٨). وما محاولة الانكار هذه الا تملص من فترة من النضال اعتبرت سوداء في تاريخ قادة الحركة النضالي، سواء من حيث الأفكار المطروحة ، أو من حيث الممارسات التي قاموا بها .

بدأ التفكير بخلق هذه المنظمة ، مباشرة بعد حرب ١٩٤٨ ، وتجلى ذلك في الاتفاق الذي تم بين جورج حبش ، وهاني الهندي وعدد من زملائهم في «العروة الوثقى» في الجامعة الأمريكية ببيروت . وكلهم مقتنعين بضرورة القيام بعمل مسلح ضد الخونة الذين تسببوا فيما آلت اليه القضية الفلسطينية ، والذين يبدون استعدادا للصلح مع العدو الصهيوني . وبينما كانت هذه الأفكار تراود جورج حبش ورفاقه في بيروت ، كانت هناك مجموعتان أخريان تسعيان لنفس الغاية ، احدى هاتين المجموعتين كانت سورية بقيادة «جهاد ضاحي» ، وهو صديق لهاني الهندي ، والمجموعة الثانية مصرية شكلها اللاجئون المصريون في سورية . وعندما وصلت أخبار هاتين المجموعتين الى مجموعة بيروت ، سافر «هاني الهندي» الى سوريا خصيصا لمفاوضة هاتين المجموعتين ، من أجل تشكيل تنظيم واحد يجمعهم . وكانت مفاوضاته مع المجموعة السورية سهلة ، حيث كانوا كرفاقهم في بيروت متأثرين بنكبة فلسطين ، وتجربتهم الحزبية والنضالية قليلة ، اما المجموعة المصرية التي كان لديها تجارب عن أعمال العنف التي مارستها في مصر ، وكانت تؤمن ايمانا مطلقا بالعنف والأرهاب ، وخصوصا زعيمهم حسين توفيق(٩). الذي كان ايمانه بالنضال السياسي ضعيفا ويمجد العنف ، فقد ردت على اقتراح هاني الهندي بوضع برنامج سياسي مشترك للمجموعات الثلاث ، مشترطة القيام بأعمال عنف مشتركة بين هذه المجموعات . وقد تم الوصول الى اتفاق بين المجموعات الثلاث في مارس ١٩٤٩ ، حيث مثل جورج حبش ، وهاني الهندي مجموعة بيروت ، ومثل «جهاد ضاحي» المجموعة السورية ، بينما مثل « حسين توفيق » المجموعة المصرية . وهكذا برزت منظمة «كتائب الفداء العربي» بقيادة هاني الهندي . وجورج حبش ، وحسين توفيق ، وعبد القادر أمير(١٠).

كان أول عمل قامت به «الكتائب » هو مهاجمة معبد لليهود في دمشق بالقنابل اليدوية في ٦ أغسطس ١٩٤٩ . وكانت حجة «الكتائبيين» لتبرير هذا العمل، هو عرقلة مفاوضات لوزان – التي تهدف للوصول إلى صلح بين العرب واليهود، وإفشال المفاوضات التي تقوم بها سورية من أجل توطين اللاجئين الفلسطينيين. وفي ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ، هاجم رجال «كتائب الفداء العربي» المقدم «سترلنك» وهو أحد الموظفين البريطانيين ، وكانت حجتهم في ذلك ، أن المقدم سترلنك هو ضابط في المخابرات البريطانية . وتوالت أعمال العنف التي قام بها «الكتائبيون» ضد عدد من المراكز اليهودية ، غير ان معظمها كان غير مجد ومردوده السياسي سلبياً ، هذا الوضع خلق حالة من التشكيك بجدوى هذا النمط من النضال ، وخصوصا لدى مجموعة بيروت التي يتزعمها جورج حبش ، وطرحت التساؤلات حول دور العنف في النضال القومي .

ومن هنا عاد التباين بين المجموعة المصرية والمجموعتين الأخريين يظهر للعيان . وكانت المحاولة الفاشلة للكتائب في اغتيال الزعيم السوري اديب الشيشكلي في عام ١٩٥١ ، هي الحدث الذي فجر الموقف بين التيارين المتعارضين داخل منظمة الكتائب ، حيث ادى فشل المحاولة الى ملاحقة الشرطة لأعضاء المنظمة ، واعتقال بعض أعضائها ، ومن بينهم حسين توفيق الذي اتهم بمحاولة الاغتيال ، بينما اضطر بقية الأعضاء الى اللجوء الى العمل السري(١١) .

وعاد حبش ورفاقه الى حرم الجامعة الأمريكية في بيروت ،والى «العروة الوثقى» ليعيدوا نشاطهم واتصالاتهم مع زملائهم الجامعيين بأفق سياسي جديد ، ونظرة نضالية جديدة ، تنبذ العنف المجرد كوسيلة من وسائل النضال ، وتعتبر ان العمل الجماهيري هو الوسيلة الأكثر نجاعة في تحقيق الأهداف القومية . ومن هنا بدأ التفكير من أجل ايجاد منظمة بديلة للكتائب ، باعتبار أن العمل النضالي الجماهيري لن يكون مجدياً، دون وجود إطار تنظيمي يتم من خلاله استقطاب الجماهير على اسس سياسية واضحة . وتمت صياغة برنامج سياسي ، تم التمييز فيه بين مرحلتين من النضال ، الأولى مرحلة النضال السياسي التي تهدف الى التخلص من اليهودية والأمبريالية في الوطن العربي ، والعمل على ايجاد دولة الوحدة التي ستقود الأمة العربية الى النصر الأكيد . وفي هذه المرحلة من النضال السياسي ، يجب ان تلتقي جميع الجهود لمواجهة الحركة الصهيونية والقوى الأستعمارية في المنطقة ، دون إضاعة الجهد والوقت في مجالات جانبية ومعارك سياسية ثانوية . وقد اكدت الحركة الجديدة بأن النضال في هذه المرحلة لا يعرف الطبقية، ففي مواجهة الخطر الصهيوني يجب ان تلتقي جميع الجهود لمواجهة الخطر ، فلاطبقية في النضال ضد الصهيونية(١٢) . أما المرحلة الثانية من النضال ، فهي مرحلة النضال الاجتماعي ، والاقتصادي ، التي تمهد بدورها الطريق للاشتراكية والديمقراطية ، أي انه بعد القضاء على الخطر الصهيوني وتحرير فلسطين ، والقضاء على النفوذ الاستعماري بقيام دولة الوحدة ، حينئذ يمكن تركيز الأهمية على المشاكل الداخلية من اجتماعية ، واقتصادية .

هذا الفصل ما بين مراحل النضال ، سبب كثيرا من الانتقادات للحركة ، سواء من قبل الفئات الحزبية السياسية المتواجدة على الساحة العربية ، أو داخل صفوف الحركة . وقد اضطرت الحركة تحت ضغوط التطورات الاجتماعية، والاقتصادية ، والسياسية ، التي شهدتها الساحة العربية ، وخصوصا قيام الوحدة بين مصر وسوريا ، سنة ١٩٥٨ ، والاعلان عن قوانين يوليو الاشتراكية في مصر ١٩٦١، الى اعادة النظر في سياسة

المرحلية وجدواها . وقد تم العدول عنها ، وخصوصا بعد المؤتمر القومي الذي عقدته الحركة في ١٩٦٢ .

وكانت معاداة الشيوعية تعتبر من الهواجس التي سيطرت على مؤسسي الحركة الأوائل الذين اعتبروا ان الشيوعيين العرب ، سبب فيما آلت اليه القضية الفلسطينية ، حيث مارسوا الخيانة القومية ضد انفسهم باعترافهم بحق اليهود في تقرير مصيرهم(١٣). كما ان ايمانهم بضرورة حشد جميع الجهود لمواجهة الخطر الصهيوني ، جعلهم يتساءلون : « كيف يمكن ان تثار قضية الاشتراكية، في وقت تكون الأمة العربية فيه احوج ما تكون الى الوحدة الوطنية، كما انهم لم يستطيعوا ان يدركوا علاقة الاشتراكية بالقوة (١٤) .

فانطلاقا من هذا الأفق السياسي ، وبناء على برنامج سياسي يأخذ بمرحلية النضال، قرر حبش ورفاقه الظهور الى مسرح الأحداث والعمل بصورة علنية ، ولكن تحت اسم منظمة سميت «هيئة مقاومة الصلح مع اسرائيل» . وذلك ابتداء من عام ١٩٥٢ ، وكان حافزهم لذلك النجاح النسبي الذي وجدوه في الجامعة الأمريكية ، حيث استطاعوا تشكيل عدد من الخلايا التنظيمية بين الطلاب العرب ، بالاضافة لظهور ظروف سياسية جديدة حتمت عليهم الظهور العلني .

كانت منظمة «هيئة مقاومة الصلح مع اسرائيل » هي الأداة التي استعملها القوميون العرب لتعبئة الجماهير العربية والفلسطينية لمواجهة الخطر اليهودي، وقد استطاعت الهيئة عن طريق نشرة سمتها «الثأر» (١٥) والتي وجدت رواجا في صفوف اللاجئين الفلسطينيين ، أن تقوم بحملة تحريضية واسعة ضد وكالة الغوث التابعة للأمم المتحدة ، وضد كل المشاريع الاستعمارية التي هدفت الى انهاء القضية الفلسطينية والاعتراف باسرائيل . وكان التلاعب بالألفاظ ، واستعمال التوترات اللفظية ، والتشنجات العاطفية ، هي الوسيلة التي اتبعتها النشرة للوصول الى افئدة وقلوب اللاجئين الفلسطينيين الذين يملأ قلوبهم الأمل بالعودة ، والحقد على مسببي النكبة .

وكان شعار «الثأر» الذي رفعته الحركة يتسم بالحدة في تفسير الصراع العربي اليهودي ، فالثار في مفهوم الهيئة ، هو «القوة» بأعمق معانيها ، والإيمان بالقوة بطبيعة الحال ، باعتبار ان القوة هي وحدها التي تحل قضية العرب في فلسطين ، وتقضي على الخطر اليهودي . وانه من الغباوة ان ننشد حلا لمشكلتنا في فلسطين عن غير هذا الطريق(١٦) . وقد بلغ من شدة تعلق الحركة بهذا الشعار وبمضامينه القبلية ، أن سميت بجماعة «الحديد والنار»، و « جماعة الثأر»، بسبب تعظيمهم للقوة .

وللوقوف ضد كل محاولات انهاء القضية الفلسطينية عن غير طريق القوة، وقفت «هيئة مقاومة الصلح مع اسرائيل» ضد محاولات هيئة الأمم المتحدة الرامية لتوطين اللاجئين الفلسطينيين ، واعتبرتها اداة في خدمة اليهود والامبريالية وسياستها « انما هي سياسة التشريد والكبت والارهاب تستلهمها من اسيادها المستعمرين واليهود .. والوكالة في تعففها اللئيم لا تتورع عن اتباع كافة الطرق والوسائل لتنفيذ مآربها وتحقيق مؤامرتها» (١٧)

وحتى في الحالات التي كانت تقدم الوكالة فيها مشاريع انسانية للاجئين الفلسطينيين ، فقد هاجمت «الثأر» هذه المشاريع ، لأنها ترى خلفها اهدافا سياسية، أبعد من الأهداف الانسانية الظاهرة، فكل عمل تقوم به وكالة الغوث ، أو أية هيئة تابعة للغرب ، تصب في المحصلة النهائية في مصلحة العدو . فعندما طرحت وكالة الغوث مشروعا لاسكان اللاجئين الذي يقطنون في الخيام . اعتبرت «الثار» ان «غرض الوكالة من تقديم مشاريع الاسكان ، هو خلق حياة من الأستقرار للنازحين العرب ، وتهيئة السبل الكفيلة بجعلهم ينسون وطنهم المسلوب » (١٨) .

وخلال هذه الفترة ١٩٥٢-١٩٥٥ ، التي نشطت فيها المنظمة كان جورج حبش ووديع حداد(١٩)، قد غادرا لبنان إلى عمان، حيث فتحا عيادة طبية سمياها «عيادة الشعب» ، وأهتما بعلاج اللاجئين الفلسطينيين بدون أجر ، وقد اتاح لهم عملهم هذا فرصة للاتصال بأحد أهم المجالس السياسية في الأردن ، وهو «مؤتمر عمان» الذي كان يضم نخبة من المثقفين البورجوازيين ، وكان يعتبر مركزاً لتجمع القوميين والمثقفين العرب في الأردن والبلاد العربية الأخرى، وقد تعرف حبش ، ووديع حداد في المؤتمر على حمد الفرحان أحد أبرز رجال الأعمال الأردنيين حيث تم استقطابه الى منظمتهم، وكذلك تم استقطاب شاب أردني نشيط من مدينة السلط وهو نايف حواتمة(٢٠).

ولم يدع حبش ورفاقه ان تفوتهم فرصة وجودهم بين كثافة فلسطينية في الأردن ، فعملوا بجد وذكاء في عمان، حيث استطاعوا في يناير ١٩٥٤، من اصدار نشرة أسبوعية باسم «الرأي» (٢١) ، وكانوا يهاجمون من خلالها الأحلاف والمعاهدات العسكرية التي حاول الغرب فرضها على العرب بربطهم بالعجلة الامبريالية، واستعمالهم كأدوات في الحرب الباردة بين القوة الامبريالية والاتحاد السوفياتي، وقد رأت «الرأي» أن هذه المحاولات التي يقوم بها الغرب لجر العرب للمشاركة في أحلافه ، هي محاولة منه لفرض الصلح مع «اسرائيل» ، كما هاجمت المجلة «غلوب باشا» قائد الجيش الأردني، واعتبرته عميلاً صهيونياً استعمارياً .

إلا إنه لم تمر إلا شهور قليلة حتى اغلقت السلطات الأردنية المجلة، ولاحقت المسؤولين عنها، فاضطر حبش ورفاقه للاختفاء ، كما تمكن هاني الهندي الى العودة الى دمشق – بعد ان تم القضاء على نظام الشيشكلي هناك – وأصدر النشرة من دمشق ابتداء من ٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٥ .

إن هذه المرحلة الأولى من عمر الحركة ، والتي استمرت من ١٩٥٢-١٩٥٨ ، والتي عملت فيها الحركة تحت اسم «هيئة مقاومة الصلح مع اسرائيل »، يمكن اعتبار الحركة فيها عاشت المرحلة الفلسطينية الخالصة من عمرها، حيث كان الهاجس الأساسي المسيطر على تفكير قادة الحركة هو الخطر اليهودي ، وحشد الطاقات العربية لمواجهته . ولكن مع انتماء اعداد متزايدة من الشباب العربي لصفوف الحركة ، غيرت الحركة إسمها إلى «حركة القوميين العرب»، وأصبح لها امتدادات في الاقطار العربية، وأخذت تلعب دوراً متزايداً في الصراعات التي عرفتها الساحة العربية للوصول الى الحكم والمجالس النيابية، وبالتالي يمكن القول: إنها دخلت الطور العربي، وانتقلت بذلك القضية الفلسطينية من الاهتمام المركزي الأول إلى قضية ضمن قضايا عدة شغلت نشاط الحركة .

المبحث الثاني: المنطلقات الفكرية الأولى للحركة.

وحدة- تحرر - ثأر

كما سبقت الاشارة الى ذلك ، فقد أخذت الحركة بسياسة المرحلية في مسيرتها النضالية، فمع ايمان الحركة بضرورة بناء المجتمع داخلياً، واقامة النظام الديمقراطي الإشتراكي الذي يفتح الطريق أمام العقل العربي للخلق والابداع والتعبير، والذي يقف في وجه المستغلين والانتهازيين، إلا أن الحركة ارتأت ان هذه المهمة النضالية ستكون لاحقة لمهام أكثر ضرورة، والحاحاً، ألا وهي تحقيق مرحلة النضال السياسي التي ترتكز على المهام النضالية الثلاث : الوحدة والتحرر والثأر. هذه المرحلية النضالية تقوم على أساس ان التخلص من المشكلة السياسية ضروري للتخلص من المشاكل الأخرى، ولا يمكن تقديم مرحلة على أخرى . وهذه المشكلة السياسية بجوانبها المتعددة ، تدعم بعضها بعضا : « فالتجزئة التي تجعل العرب مفككين في كيانات صغيرة . ضعفاء عسكرياً واقتصادياً . تعمل على تثبيت الاستعمار في الوطن العربي لأن الاستعمار لن يخرج إلا إذا اخرجناه بالقوة . والقوة لا تتوفر الا بالوحدة ، ونحن مجزأون» .(٢٢)

من هنا فقد رأت الحركة ان المهام النضالية الأساسية الواجب اتباعها، هي في الأساس مهام نضالية سياسية مرتبطة مباشرة بالوجود الصهيوني في فلسطين، وبالتالي فان أي

نضـال لا يأخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار ،سيكون نضـالا غير مرتبط بالواقع العربي ، ونضالا مشتتاً لقوى الأمة العربيه، لأنه من غير المعقول خلق المشاكل بين أبناء المجتمع الواحد ، والغوص في متاهات فكرية حول طبيعة النظام الذي سيقام في الوطن العربي، في الوقت الذي يقف فيه اليهود على الأبواب ، كما أنه من غير المعقول :« ان نناضل الآن في هذه الفترة بالذات من أجل زيادة رغيف واحد على الرغيف الذي نأخذه ، ونترك الدفاع عن حياتنا وسلامتنا وبقائنا ».(٢٣)

وكان التواجد اليهودي في فلسطين ، بما يمثله من تهديد مستمر للمسيرة النضالية العربية، ولكل عمل وحدوي عربي، هو الدافع وراء العمل على تقديم مرحلة النضال السياسي، الهادفة أساسا للقضاء على «اسرائيل » . لأن الحركة اعتبرت بأن «اسرائيل» لن تسمح لأي عمل وحدوي حقيقي ، أو عمل باتجاه البناء الداخلي ان يتم في الساحة العربية ، وستحبط أي عمل بهذا الاتجاه(٢٤) . ومع ان الحركة كانت في بداية مراحلها النضالية تدافع باصرار عن هذا البرنامج المرحلي للنضال ، وتبتعد عن أي عمل نضالي آخر يستهدف تقسيم النضال العربي، ويجعل من المجتمع العربي فئات وطبقات متطاحنة حيث «لا طبقية في نضالنا مع اليهود» ، فان عددا من الانتقادات قد وجهت لهذا التقسيم المرحلي . مما حدا بالحركة لتوضيح مقاصدها من هذا . ولتنفي الحركة أن المقصود من تقسيم مراحل النضال إلى مرحلتين، هو الفصل الميكانيكي بين مهام كل مرحلة ، بل المقصود هو التلاؤم والتكيف مع الظروف التي تمر بها الأمة العربية . « فكون المرحلة والظروف التي تمر بها الأمة العربية ، تستلزم ان يمر النضال العربي بمرحلتين ، لا يعني اطلاقاً اهتماماً خاصاً بالمشكلة السياسية، واهمال المشاكل الأقتصادية والاجتماعية وانكار اهميتها. وما هذا التقسيم إلا من قبيل التخطيط الاستراتيجي للنضال القومي ، وفق مراحل محددة لا يمكن الوصول الى الثانية الا باختراق الأولى . فنحن إذا لم نخترق مرحلة النضال السياسي، ونوحد الكيان العربي الواحد المتحرر ، لن نصل الى مرحلة البناء الاقتصادي والاجتماعي ، ونوجد المضمون العادل للمجتمع العربي» (٢٥).

وبناء على ذلك ، حددت الحركة الأهداف القومية التي يجب ان يسعى النضال العربي لتحقيقها وهي :

القضاء على التجزئة   بالوحدة العربية.

والقضاء على الاستعمار   بالتحرر .

والقضاء على اسرائيل   بالثأر .

المطلب الأول : القضاء على التجزئة بالوحدة :

كان رفع الحركة لشعار «الوحدة العربية » في مرحلة انطلاقتها الأولى ، لاحقاً في الأهمية لرفعها شعار «الثأر» حيث اخضع شعار الوحدة والمفاهيم التي أعطيت له لمتطلبات حشد الطاقات العربية لمواجهة التحديات اليهودية والاستعمارية في المنطقة . فالحركة اعتبرت ان الوحدة تعني القوة ، والوحدة ستفجر القوة الكامنة في الأمة العربية ، والوحدة هي الوسيلة الوحيدة لتجسيد هذه القوة(٢٦) . ولكن لماذا هذه القوة الجبارة ؟. وما الحاجة لتجميع طاقات الأمة العربية من اقتصادية وسياسية، وثقافية ...؟. تجيب الحركة على ذلك بأن هذه الطاقة لازمة وضرورية للقضاء على اليهود ، وأخذ الثأر منهم . « ففي وحدتنا قوتنا ، وفي قوتنا ثأرنا ، وفي ثأرنا حل لجميع مشاكل النازحين»(٢٧) .

وعلى هذا فإن الهاجس الأساسي الذي كان وراء رفع الحركة لشعار الوحدة، هو الأخذ بالثأر من اليهود . وبالتالي، فان الحركة في مرحلتها النضالية الأولى، لم تلتفت كثيراً للبحث في محتوى دولة الوحدة، وفي مصلحة مَن مِن الفئات الأجتماعية ستصب في النهاية النتائج المترتبة عن الوحدة ؟ . كما ان شعار الوحدة بصورته البدائية الغامضة ، كان مرتبطا بالمفهوم المثالي للحركة عن القومية ، حيث ان القومية تعني وجود دولة تجمع الشعوب المشكلة لهاته القومية ، وبالتالي فالوحدة هي النتيجة الحتمية لوجود القومية العربية .

وبناء على ذلك يمكن القول: إن الحركة في رفعها لشعار الوحدة العربية، كانت تعتمد على منطلقين:

الأول : سياسي وهو اعتقاد الحركة بأن الوحدة هي الطريق الى تحرير فلسطين.

الثاني : نظري يعتمد على مفهوم الحركة القومية العربية الذي يعد نقيضاً لواقع التجزئة .

ومن هذا المنطلق لفهم الحركة لشعار الوحدة ، كانت المواقف المؤيدة التي وقفتها الحركة من مشاريع الوحدة العربية ، اياً كانت الصورة التي تأخذها هذه الوحدة أيضاً . كان تركيزها الأساسي على الشعارات التي تعبر عن الوحدة وترفعها فوق كل الاعتبارات، مثل «الوحدة بأي ثمن» «الوحدة أولاً والوحدة أخيرا» والوحدة قبل كل شيء ، والوحدة فوق كل شيء»، و « الوحدة طريق التحرر، ومفتاح كل المعضلات التي يواجهها المجتمع العربي »... الخ .

ويبدو ان هذا الفهم للوحدة كان وراء مواقف الدعم والتأييد التي وقفتها الحركة، خلال الخمسينات لكل محاولات الوحدة السياسية بين الأقطار العربية، بغض النظر عن اختلاف النظم السياسية والاجتماعية التي تميز بين كل بلد وآخر، ما دام هدف هذه الوحدة هو تجميع الطاقات لمواجهة العدو اليهودي . فقد دعمت الحركة بقوة وحدة الأردن والعراق . وجهدت في إيجاد الحجج والمبررات لتدافع بها عن مواقفها هذه ، بل حثت الأطراف السياسية الأخرى لدعم هذه الوحدة . وأعلنت ترحيبها ومباركتها لهذه الوحدة ، ولأي وحدة تكون على شاكلتها ، مع تفضيل ان يكون العراق أحد اطراف الوحدة لما يمتلكه من قوة عسكرية ستكون وسيلة فعالة لمواجهة اليهود (٢٨).

فقد أيدت الحركة هذه الوحدة بين العروش ، في وقت كان فيه العالم العربي مقسماً الى تيارين أحدهما بقيادة عبد الناصر ، ويقف في الخط المعارض للأحلاف العسكرية الغربية والمشاريع الامبريالية الهادفة لجر الدول العربية للتوقيع على اتفاقيات الدفاع المشترك ، والخط الثاني تتزعمه المملكة العربية السعودية ، ونظام نوري السعيد في العراق ، هذا الخط كان مؤيداً للسياسة الغربية في المنطقة ، ويعتبر أن الخطر الأساسي المهدد للأمة العربية ليس الغرب، ولا حتى «اسرائيل» ولكنها الشيوعية الملحدة الطامعة في الأمة العربية ... وبالتالي فإنه يرى من الواجب على جميع القوى المسلمة والعاقلة أن تتحالف مع الصديق المخلص « الدول الغربية وأمريكا » لمواجهة الخطر الأحمر ...

ومن هنا كان موقف الحركة المؤيد لوحدة العروش موقفاً متناقضاً مع الأفكار التي كانت ترفعها الحركة الثورية العربية ، والقوى القومية الأخرى المتواجدة آنذاك . ففي عام ١٩٥٧ ، وبمناسبة إلغاء الاتفاقية البريطانية الأردنية ، أخذت الحركة على عاتقها الدعوة لتأييد الوحدة بين سوريا والأردن، في وقت كانت فيه الحكومة الأردنية متهمة بأنها منساقة مع مخططات حلف بغداد الاستعماري، وتأخذ على عاتقها مهمة التصدي للحركات والقوى الثورية المناهضة في المنطقة .

لقد انساقت الحركة بحماسة واندفاع لدعم كل مشاريع الوحدة ، دون أن تكلف نفسها عناء البحث في مدى توفر الظروف والمحددات الموضوعية لقيام الوحدة، واعتبرت أن الوحدة يمكن أن تتم بقرار فوقي يتخذه هذا الملك او ذلك الرئيس .«فملك الأردن عربي صرح بأنه ملك للعروبة ، وأنه مخلص لوحدتها ، ورئيس سوريا عربي صرح بأنه ملك للعروبة ، وانه مخلص لوحدتها ، وكلاهما منزه عن الأنانية ، فلا ملك الأردن يقبل أن يكون احتفاظه بعرشه عقبة في وجه توحيد الأردن مع سورية ، ولا رئيس سورية يقبل بأن يكون احتفاظه بكرسيه عقبة في وجه توحيد سورية مع الأردن»(٢٩) .

وقد انتقدت الحركة وبشدة معاداة مصر والسعودية لوحدة سوريا والعراق والأردن، واعتبرت أن العداوة التي تبديها هذه الدول لدولة الوحدة ، هي أكثر مما تبدي من معاداة لاسرائيل (٣٠) . اعتبرت أن نواة الوحدة العربية المنشودة تبدأ بالوحدة بين سوريا والعراق والأردن، باعتبارها الخطوة العملية الأولى نحو الوحدة العربية الشاملة (٣١).

ومع ظهور عبد الناصر على المسرح الثوري العربي ، وبروزه رائداً للقومية العربية ، ومدافعاً عن الوحدة العربية وداعية لها، وخصوصاً بعد أن حقق عبد الناصر انتصارات سياسية بعد حرب السويس عام ١٩٥٦ ، ربطت حركة القوميين العرب نفسها به ، وجعلت من نفسها أداة منفذة لسياسته في الوطن العربي. ومن هنا كان موقفها الداعم والمؤيد لقيام الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا ، دون أية معارضة أو تردد . واعتبرت أن دولة الوحدة الجديدة هي «كماشة» حول إسرائيل ، وستقضي على الدولة اليهودية . أي أن الحركة تخلت عن رأيها السابق باعتبار دولة الوحدة بين الأردن وسوريا والعراق هي نواة الوحدة العربية ، فأصبحت الوحدة بين مصر وسورية هي نواة الوحدة العربية الشاملة. ومن هنا علقت الآمال على الجمهورية العربية المتحدة كطليعة لمستقبل الوحدة العربية (٣٢)، حتى وصل الأمر بالحركة أن تبدي استعدادها لحل تنظيمها السياسي لتصبح جزءاً من الحركة الناصرية الوحدوية .

وكانت تجربة الوحدة الفاشلة بين مصر وسوريا ، بالاضافة الى بداية تغلغل الأفكار والمفاهيم الاشتراكية داخل صفوف الحركة، بتأثير تزايد فاعلية العناصر الشابة بالحركة، وبتأثير القرارات التي اتخذها عبد الناصر في المجالات الاجتماعية والاقتصادية، وما سميت (بقرارات يوليو الاشتراكية) ١٩٦١ ، كانت هذه منعرجات مصيرية في مسيرة الحركة النضالية عموماً والوحدوية خصوصاً ، حتمت على الحركة اعادة النظر في مجمل سياستها المرحلية ، من ضمنها نظرتها للوحدة العربية ، بحيث أن ... «حركة الوحدة العربية التي كان هدفها الأساسي خلق دولة عربية واحدة ، كهدف نهائي ، تجاوزت هذا الطرح ، وأصبحت تطالب بإدخال تغييرات جذرية في الواقع الاجتماعي العربي ، أي دولة ذات مضمون اشتركي» (٣٣) .

كانت بداية هذا التغيير الذي طرأ على مواقف الحركة وسياستها في بداية الستينيات، مترافقا كما ذكرنا ، مع بداية صعود التيارات والفئات الثورية الاشتراكية في صفوف الحركة ، وشعور هذه العناصر الشابة أن المسيرة النضالية الثورية في الوطن العربي قد تخطت في مفاهيمها ، الأفكار التي ما زالت تؤمن بها الحركة، والتي تتسم (بالبدائية الفجة)، وبتحليل سطحي لطبيعة الصراع العربي الاسرائيلي . وبالتالي اخذت هذه العناصر الشابة في الحركة تربط ما بين مهام مقاومة العدو الصهيوني في فلسطين، وما بين مجمل القضايا التي يعاني منها المجتمع العربي. وعليه ارتأت أن مواجهة العدو

الصهيوني ، واقامة دولة الوحدة ، مرتبط ارتباطاً تاماً باحداث تغييرات اجتماعية واقتصادية في بنيات وهياكل المجتمع العربي، وكانت هذه الحقيقة هي بداية تراجع أولوية الوحدة والثأر في سلم أولويات الحركة.

وأخيراً يمكن القول ، فيما يتعلق بتبني الحركة لشعار الوحدة، ان أخذ الحركة بهذا الشعار كان مرتبطا بفهم الحركة القومية العربية كنقيض للتجزئة لأن طبيعة القومية العربية ان تكون واحدة ، والوحدة أساس هام جوهري من اسس الوجود القومي العربي ، ولذلك فان أية تجزئة في مظاهر الحياة العربية، سياسة كانت ام اقتصادية ام اجتماعية ام ثقافية ، انما هي وضع شاذ يتنافى وطبيعة الوجود القومي العربي الواحد (٣٤).

وعلى هذا ، فما دام شعار القومية العربية هو الشعار والرمز الحي الذي يجسد طموحات العرب نحو الوحدة، فانه من الضروري أن يتجسد الوجود القومي العربي «في كيان واحد متفاعل ، تعبر به القومية العربية عن نفسها تعبيراً ينبع من الوضع الطبيعي لحقيقتها وأصالتها» (٣٥).

المطلب الثاني : القضاء على الاستعمار «بالتحرر» :

كان الشعار المرحلي الثاني الذي طرحته الحركة في بداية مسيرتها النضالية،هو شعار «التحرر». ومفهوم التحرر في فكر الحركة مرتبط بالموضوع المركزي الذي شغل مركز الصدارة في اهتمامات الحركة، وهو اغتصاب فلسطين، والثأر للكرامة العربية التي اهدرت ، ومرغت بالتراب على يد اليهود والاستعمار. كما ان التحرر يعني طرد النفوذ الاستعماري من المنطقة، وقطع جذوره ، وخصوصا الاستعمارين الفرنسي والبريطاني اللذين يعدان ... « مسؤولين عن ترسيخ الانشقاقات الاقليمية والدينية والسياسية في البلاد العربية ، وللدور الذي لعباه في خلق دولة اسرائيل» (٣٦).

فقد كان القضاء على الاستعمار والهيمنة الأجنبية ، هو الهاجس وراء رفع الحركة لشعار التحرر، باعتبار ان الأستعمار هو المسؤول الأول عن خلق «دولة اسرائيل»، وعن الوضع المخزي الذي يعيشه الوطن العربي من تجزئه ، وتخلف ، وفقر. وبالتالي فان التحرر من هذا النفوذ الاستعماري ، المباشر منه ، وغير المباشر، سيكون هو المنفذ والمدخل المؤدي لا محالة الى تخطي واقع التجزئة والتخلف ، والانطلاق نحو أفق رحب من التقدم والوحدة والديمقراطية.

هذا المفهوم للتحرر الذي طرحته الحركة كان يطغى عليه الجانب السياسي المباشر، وهو السمة الغالبة على جميع مواقف الحركة وشعاراتها الأخرى، فهي عندما تطرح جانب التحرر، لا تقوم بتحليل علمي واضح للعلاقة بين الاستعمار والفئات والطبقات المسيطرة

على مجمل مرافق الحياة في الوطن العربي. كما انها لا تضع حداً فاصلاً بين الفئات ذات المصلحة بالتحرر، وتلك المنتفعة من تعاملها مع الاستعمار. وعلى هذا نجدها تطالب الفئات الحاكمة بالتخلص من الاستعمار. وهذا الموقف ناتج عن جهل للعلاقة المصلحية والتبعية التي تربط الأولى بالثانية، وتحكم العلاقة بينهما.

إلا ان تركيز الحركة على الجانب السياسي لشعار التحرر، لم يمنعها من ان تربط ما بين هذا الجانب السياسي من الشعار، ومتطلبات الواقع النضالي القومي. ففي الوقت الذي شددت فيه على أهمية الجانب السياسي للتحرر، واعتباره متطلباً جوهرياً، إلا إنها اعتبرت أن ذلك لا يمنع من احتواء هذا الجانب للجوانب الأخرى التي تتطلبها العقيدة القومية.

ولكن ما هي متطلبات العقيدة القومية العلمية والموضوعية والتقدميـــــة ؟.

إن أدبيات الحركة في مرحلة انطلاقتها الأولى، لم تعالج بشكل واضح الفرق ما بين مفهومها للتحرر، والاستقلال السياسي الذي حصلت عليه بعض الدول العربية(٣٧). فالاستقلال كما عرفته هذه الدويلات، لا يعدو كونه استقلالاً سياسياً ظاهرياً، قد يؤمن للدولة طرد الاستعمار المباشر، ويؤمن بالتالي بعض معالم سيادة الدولة كالرئاسة، والمجالس التشريعية، والتنفيذية والقضائية، وما الى ذلك، إلا أنه لن يستطيع بحال أن ينفذ إلى أعماق المجتمع، ليقتلع الفساد من الجذور، ومن ثم يبني اسس مجتمع تقدمي سليم، ليس فيه أي اثر للنفوذ الأجنبي (٣٨).

ومع رفض الحركة لكل انواع النفوذ والهيمنة الخارجية، إلا إنها لم تفرق ما بين النفوذ المباشر للإستعمار، والوجود غير المباشر. كما إنها اعطت للنفوذ الأستعماري الغربي أهمية كبرى من عدائها وهجومها، فانها لم تتجاهل خطورة الحركة الشيوعية على المنطقة، و: «مصيبة الحزب الشيوعي في كل بلد، تكمن في تقلبه، وتقلب الحزب الشيوعي مرتبط بسياسة موسكو .... وسياسة موسكو مرتبطة بمصالح الاتحاد السوفيتي... ومصالح الاتحاد السوفيتي لا يمكن ان تعبر عن مصالح كل بلد يوجد فيه حزب شيوعي» (٣٩).

وهكذا، فبينما أعطت الحركة في مرحلتها الأولى مفهوماً سطحياً ذا رؤية ضبابية للامبريالية، دون أن تربط ما بين المصالح الأمبريالية العالمية، والفئات والقوى التي تدور في فلك الأمبريالية، والمتواجدة في المنطقة العربية، والتي هي أدوات منفذة لسياسة الامبريالية، ودون ان تحدد القوانين الموضوعية والعلمية لطبيعة العمل الامبريالي، وكيفية تغلغله في المنطقة، ونوعية التحالفات التي يقيمها، نجدها قد ربطت ما بين

الشيوعية الدولية والشيوعية المحلية. ومع أن العلاقة واضحة ما بين الشيوعية المحلية والشيوعية العالمية ، وهي علاقة تبعية بينهما، إلا أنه من الخطأ اعتبار الشيوعية هي الخطر الرئيسي المهدد للأمة العربية، والمعارض لتطلعاتها نحو التحرر والتقدم والوحدة.

وهذا لا ينفي الدور المعيق الذي قام به الشيوعيون المحليون، بسبب جهلهم في ترتيب الأولويات النضالية . فمأساة الشيوعيين العرب ، هي انهم أخذوا على عاتقهم مهمة التطبيق الحرفي لمبادئ وأفكار وقيم، ظهرت في ظروف تاريخية وموضوعية وانسانية ، تختلف عن المرحلة الراهنة التي يعيشها الوطن العربي. فالأحزاب الشيوعية العربية يبدو انها ارادت ان تخضع الواقع العربي بقيمه وتراثه وبكل ما يميزه ويعطيه الشخصية المستقلة حضارياً، لنظرية ظهرت كرد فعل لواقع مغاير تماماً عما هو سائد محلياً.

ومع هذا ، فإنه يؤخذ على الحركة إعطاؤها اهمية كبرى للخطر الشيوعي، واعتبارها الشيوعية نقيضا مباشراً للأمة العربية ، وأن الحرب مع الشيوعيين يجب ان تستمر وتمتد، فـ «المعركة المحتدمة بيننا وبين الشيوعيين في الوطن العربي، على الصعيدين السياسي والنضالي ، والتي يصح أن نصفها بكونها تنازعاً للبقاء بين القومية العربية والشيوعية المحلية ... هذه المعركة كانت في تقديرنا لا بد واقعة عاجلاً أو آجلاً »(٤٠) فالشيوعية فكر مستورد غريب عن الأصول والقيم العربية. لذلك فان «الحركة الشيوعية لا يمكن أبداً ان تكون جزءاً من صلب تكوين الحركة القومية للأمة العربية»(٤١) على هذا فانه يجب تصنيف الحركة الشيوعية في الوطن العربي بما لا يقبل الشك والتردد في «صف القوى المعادية لأهداف العرب ولحركة التطور القومي التقدمي »(٤٢) .

لقد حددت الحركة مواقفها العدائية من الشيوعية المحلية ، اعتماداً على المواقف العدائية التي وقفتها هذه الأخيرة والاتحاد السوفيتي من القضية الفلسطينية في مراحلها الأولى. فالاتحاد السوفيتي اعترف باسرائيل ، والشيوعية المحلية انتقدت الحرب العربية الأسرائيلية ، باعتبارها اعتداءاً عربياً عنصرياً على الشعب اليهودي... ووصل الأمر بالشيوعية المحلية العربية الى حد منح اليهود الشرعية النظرية بكونهم يشكلون امة قائمة بذاتها ، وبالتالي فمن حقهم ان يكون لهم وطن(٤٣).

ان هذه المواقف العدائية القاسية ضد الشيوعية ، واعتبارها الخطر الذي ينبغي ان يتجه للتصدي له جميع القوى العربية ، ان هذا يعتبر انحرافاً بالمسيرة النضالية العربية. وتوجيهاً خاطئاً للقوى العربية ، بعيداً عن الخطر والنقيض والأساسي للوجود القومي العربي ، الى خطر ثانوي لا يشكل نقيضا للوجود القومي العربي وللمصالح القومية العربية .

المطلب الثالث : القضاء على اسرائيل «بالثأر»:

أما الشعار الثالث الذي رفعته الحركة ، وأولته كل اهتمامها ونشاطها، فهو شعار «الثأر»، بحيث تأثرت الشعارات الأخرى للحركة بمفهوم شعار الثأر. فالوحدة هي الوسيلة لتحقيق القوة التي تؤدي لأخذ الثأر من العدو اليهودي ... ، والتحرر يعني التخلص من النفوذ الأستعماري، وكل ألوان الهيمنة التي تقف في وجه العمل الجماهيري الهادف لأخذ الثأر من اليهود . الا أن رفع شعار الثأر ، بالصورة التي فسرته الحركة في مرحلة انطلاقتها الأولى، كان يتسم بشيء من التطرف، يدل على الرؤية القبلية التي تفسر بمقتضاها الحركة الصراع العربي – اليهودي. وقد أدى هذا الى ان توجه للحركة انتقادات لرفعها شعار الثأر بهذه الكيفية ،وخاصة من حزب البعث العربي الاشتراكي ، ومن قبل عدد من الحركات والقوى السياسية المتواجدة على الساحة (٤٤) . وقد أخذ المسؤولون عن اصدار نشرة الثأر على عاتقهم مهمة الدفاع عن هذا الشعار، مدعين انه لا يوجد خيار امام الأمة العربية لمواجهة التحديات اليهودية، إلا خيار القوة ... «لان القوة هي وحدها التي تحل قضية العرب في فلسطين ، وتقضي على الخطر اليهودي ، وأنه من الغباوة ان ننشد حلاً لمشكلتنا في فلسطين عن غير هذا الطريق» .(٤٥) .

فالثأر هو الإيمان بالقوة كطريق لبناء الكيان العربي ، ودفع الأخطار التي تهدد هذا الكيان، وهو يعني أيضاً بمفهوم الحركة رفض كل المشاريع التصفوية والاستسلامية، وانصاف الحلول التي تهدف لوضع حد للقضية الفلسطينية. فهو اذن «الإيمان بالحلول الجذرية الحاسمة ، وضرورة اليقظة والحذر لتجنب الانزلاق في طريق المعالجات الفرعية، والحلول الجزئية الخاطئة . فكل اتجاه لا يهدف إلى استئصال المشكلة من جذورها لا يمكن ان يكون اتجاها سليماً لحل المشكلة. فالثأر هو وجوب محو العار واسترداد الكرامة القومية (٤٦) .

كان ايمان الحركة بالثأر نابعاً من ايمانها بالقوة كطريق وحيد لحل المشاكل العربية ، واسترداد الكرامة القومية التي أهدرت في فلسطين. هذا الإيمان بالقوة، هو ايمان غير مقتصر على الأخذ بالقوة كطريق لتحرير فلسطين فقط، بل هو إيمان مطلق بالقوة كفلسفة ونظرية للحركة ، تأثرت بها من خلال إعجابها بالحركات الثورية في كل من ايطاليا ، وألمانيا ، واعتماداً على دراسة الحركة للواقع الدولي حيث «علمتنا النكبة ان السياسة الدولية لا تقوم إلا على أساس المصلحة ، ولا تفهم – حتى اليوم – إلا لغة واحدة هي لغة القوة وحدها »(٤٧).كما ترى ان العرب لن يعيدهم الى ديارهم السليبة قرار من جمعية عامة او تصريح ودي يدلي به وزير إسرائيلي أو غربي، او برقيات العطف التأييد . أو مشاريع التوطين والإعانة. لأن «الحلول النصفية الهزيلة لن تقف لحظة واحدة امام مفهوم الثأر المتطرف العنيف»(٤٨)؟.

وبقيت الحركة مجتمعاً مغلقاً على نفسه حول شعار «الثأر»، طوال السنوات الأولى من الخمسينات ، حتى إنه أطلق عليهم اسم «جماعة الثأر» ، و«جماعة الحديد والنار»، دلالة على ايمانهم المطلق بالقوة ، وانغلاقهم حول مفهوم «الثأر» (٤٩) الا أن محسن ابراهيم، اثار، سنة ١٩٥٧ الجدل حول جدوى رفع شعار الثأر ومدى ملائمته لمرحلة النضال القومي الثوري الذي تخوضه الحركة . وقد حمي الوطيس بين محسن إبراهيم والمتمسكين بشعار الثأر ، وتم التوصل أخيرا لحل باستبدال شعار «الثأر» بشعار «إسترداد فلسطين». وبصورة عامة فقد تم التراجع عن إعطاء الأولوية للقضية الفلسطينية بصورة عامة ، مع اتجاه الحركة نحو الارتباط بمصر عبد الناصر ، وتوجهها نحو تبني الفكر الاشتراكي ثم الماركسية اللينينية ، على ما سوف نبينه فيما بعد .

وفي فهم الحركة للخطر اليهودي، الذي لا يهدد فلسطين فقط ، بل يهدد الأمة العربية كلها ، لم تفرق الحركة بين اليهودية كديانة، والصهيونية كعقيدة وأيديولوجية «فالصهيونية هي الشعب اليهودي في طريقه الى فلسطين»(٥٠) وانه من السذاجة بمكان وضع الفواصل والتباينات ما بين اليهودي الصهيوني ، واليهودي غير الصهيوني. فكل اليهود هم أعداء الأمة العربية. وجميعهم عمل وأسهم في طرد شعب فلسطين ، وفي التآمر على الأمة العربية : « وقد قضت الخنادق الواحدة التي كان الشيوعيون اليهود يحاربون فيها جنباً إلى جنب مع كافة اليهود والمنظمات اليهودية الأخرى ، على آخر أثر من خرافة التفريق بين اليهودية والصهيونية في فلسطين»(٥١).

واعتبرت الحركة إن الصراع العربي اليهودي ليس وليدا ، أو إنتاجا لمرحلة تاريخية محددة، أو مرتبطاً بعلاقات معينة ظهرت حديثاً ، بل هو عداء تاريخي بدأ منذ مئات السنين، ولن يتوقف الا بالقضاء على أحد الطرفين إما نحن أو هم ، إما ان نكون ، أو أن يكونوا ، ولا حل غير هذا الحل (٥٢) .

ولكي تبعد الحركة عن نفسها تهمة العنصرية الطائفية،وحتى لايظهر الصراع كأنه صراع بين العروبة واليهودية كدين وكعقيدة سماوية ، شككت الحركة باليهودية المعروفة الآن ، باعتبارها ليست دينا كبقية الأديان، بل اعتبروها رابطة متعصبة عنصرية ، تجمع معتنقيها حول اهداف ومبادئ تخدم المصالح الاقتصادية والسياسية لليهود . وإن الذين يعتبرون اليهودية كدين، واليهودية المعروفة الآن شيئا واحداً، سيكونون عاجزين عن إدراك ضخامة العدو الذي يواجه الأمة العربية ويتحداها(٥٣).

وكان من الطبيعي أن تترك هذه النظرة العدائية لكل اليهود بصماتها على نظرة الحركة لليهود المقيمين في البلاد العربية، وغيرها من الدول ، خارج «دولة اسرائيل»، فبما أن «كل يهودي هو صهيوني والعكس ليس صحيحاً» ، فإن اليهود المقيمين في البلاد العربية هم

إحتياطي صهيوني . ومواقفهم النهائية هي في المحصلة تصب في مصالح الحركة الصهيونية . وعلى هذا الأساس ، فقد طالبت الحركة بمعاملة اليهود المقيمين في البلاد العربية ، كما تعامل «اسرائيل» العرب المقيمين في فلسطين ، وانه من الخطأ الشنيع تجاهل الخطر الكامن في صفوف العرب . كما اعتبرت «ان بقاءهم مواطنين في بلادنا ، يسهل لهم سبل التجسس والتآمر على سلامتنا، وتمتعهم بالحرية المطلقة ، يمكنهم من السعي لتخفيف حدة حقدنا على جرائمهم، وييسر لهم نشر روح مسالمتهم ، وبث روح الهزيمة والاستسلام في صفوف جماهيرنا»(٥٤) .

وارتأت الحركة لتفادي هذا الخطر اليهودي الكامن في عقر دار العرب ، ان يعامل اليهود بشدة وقسوة، كما يعامل يهود فلسطين العرب الذين يعيشون هناك، طبقا لمبدأ المعاملة بالمثل ، وأسوة بالمعاملة التي يلقاها إخواننا في فلسطين المحتلة . وذلك عن طريق اصدار التشريعات الكفيلة بوضعهم تحت الرقابة الشديدة للقضاء على نشاطهم ، ومصادرة املاكهم وأموالهم(٥٥) .لأن معركة الثأر التي يخوضها العرب ضد اليهود ، لا تنحصر باولئك المقيمين في فلسطين ، بل هي معركة ضروس ضد كل اليهود أينما وجدوا، وخصوصا يهود البلاد العربية الذين يشكلون الطابور الخامس المسخر لخدمة «اسرائيل» (٥٦) .

وقد ارتبط تضخيم الحركة للخطر اليهودي ، وضرورات حشد الطاقات لمواجهته ، وعدم اضاعة الجهد والطاقات العربية في حروب جانبية ثانوية ، باعطائها الخطر اليهودي وضعاً مميزاً، وخصوصية تفرقه عن الاستعمار . فالعدو اليهودي لا يشكل جزءا من الأمبريالية ، أو أنه أداة تابعة لها» وعلينا ان لا نقر بما هو سائد بين شعبنا بأن الخطر اليهودي «هو مشروع إمبريالي ... سيختفي مع إختفاء الأمبريالية». (٥٧) . ورأت الحركة أن عملية الخلط التي تولدت عند الناس ، ما بين الخطر اليهودي والخطر الامبريالي ناتجة عن وجود أطماع مشتركة لكليهما في المنطقة ، ووجود علاقات من تبادل المصلحة ، وتبادل الأدوار بينهما، وليس لكونهما شيئاً واحداً لأنه بينما نجد أن الاستعمار، هو «نظام فاسد هدام، وهو صائر إلى زوال محتوم ، وأجله قريب جداً – نجد أن اليهودية – هي دين ، وهي جماعة بشرية معروفة من أقدم العصور وحتى اليوم . ولا شيء يدل على عدم استمرارها كذلك وهما شيئان مختلفان لكل منهما شخصيته المميزة ، وتجاهل شخصيتيها المتميزتين خطأ ليست السذاجة دائما سببها الأصيل» (٥٨).

. بالرغم من أن الحركة قد تراجعت عن كثير من أطروحاتها ومواقفها السالفة، في إطار إعادة النظر التي عرفتها مجمل أفكار الحركة ، في بداية الستينيات، بسبب القصور الذي أصبح يعتري مسيرة الحركة النضالية، بالنسبة للحركة الثورية العربية التي اخذت ريحها

تهب في الوطن العربي ، فإنه يجب أن تؤخذ مواقف الحركة السابقة في سياقها التاريخي ، وكصدى متجاوب مع طبيعة المرحلة آنذاك، والوضع السياسي الاجتماعي والنفسي الذي كانت تعيشه الجماهير العربية .

لقد انطلقت الحركة كرد فعل مباشر لنكبة ١٩٤٨ ، واندفع الشباب القومي مؤسسو الحركة، لمواجهة نتائج هذه النكبة ، من خلق لكيان إسرائيل ، وتشريد لشعب فلسطين، وإهدار للكرامة العربية . ومواجهة هذا الخطر الآني والمباشر لم يكن يعطي مجالاً زمنياً، وحتى نفسيا للحركة ، لان تخوض مناقشات من الترف الفكري ، تذهب بها بعيداً نحو البحث حول تحليل الحركة الصهيونية وعلاقتها باليهود والاستعمار وعلاقته باليهود ، وتحليل للواقع العربي الشعبي الرسمي .

فجرائم اليهود في فلسطين كانت وما زالت ماثلة للعيان ، أمام مؤسسي الحركة ، وعمليات التشريد والارهاب ما زالت مستمرة، وقد عانى منها مؤسسو الحركة ، وتركت آثارها على نمط حياتهم وعلى واقع معيشتهم ، والمشاعر العربية ما زالت ملتهبة من هول الواقعة ، وتخاذل الجيوش والأنظمة الرسمية العربية كان هو الحديث الذي تتناقله الألسنة، كل هذا لم يعطِ للحركة الفرصة لتقوم بوضع نظرية سياسية مترابطة ومتكاملة .

المبحث الثالث: التحولات السياسية والأيديولوجية في الحركة.

الطور الاشتراكي:

لعبت الثورة المصرية، عام ١٩٥٢، دوراً بارزاً في التأثير على مجريات الأمور في الوطن العربي، وفي الشرق الأوسط عموماً، سواء من حيث نوعية المفاهيم والمنطلقات الفكرية التي طرحتها، كمنهاج وخطة للعمل على الصعيد الداخلي، أو بالنسبة لمجمل تحالفاتها وعلاقاتها مع الأنظمة العربية القائمة ونظرتها لطبيعة التحالف مع القوى الخارجية. وكانت حركة القوميين العرب، من أشد الفئات السياسية تأييداً للثورة المصرية برغم موقفها الحذر من الثورة في السنوات الأولى – فقد وجدت الحركة: «في الثورة المصرية القوة العربية الوحدوية القادرة على القيام بمهمة الوحدة العربية، والقضاء على الخطر الصهيوني»، الأمر الذي ترتب عليه ربط « الحركة» لنفسها بالثورة المصرية، لتصبح أداة من أدواتها، منفذة لسياستها حتى منتصف الستينيات. ولم يبقَ فكر «الحركة» ومواقفها معزولة عن نتائج التحالف الجديد ما بين «الحركة » والثورة المصرية . فقد عرفت «الحركة»، إبان تلك الفترة ، عملية إعادة نظر واسعة لمجمل منطلقاتها الفكرية الأولى ومواقفها الأيديولوجية. وعلى هذا يمكن القول : إن تحالف

«الحركة» مع الثورة المصرية ، ترافق مع دخول الحركة مرحلة جديدة من مراحل تطورها الأيديولوجي ، وهي مرحلة الاشتراكية المتأثرة بالفكر الناصري .

المطلب الأول : الثورة المصرية وأثرها في حركة القوميين العرب .

يمكن القول إن العلاقة بين حركة القوميين العرب والثورة المصرية مرت بعدة مراحل ، نقسمها كما يلي :

المرحلة الأولى : منذ قيام الثورة ١٩٥٢ ، حتى الغارة الاسرائيلية على غزة في ١٩٥٥/٢/٢٨.

المرحلة الثانية : من ١٩٥٥، حتى قيام الوحدة المصرية السورية ١٩٥٨ .

المرحلة الثالثة : من قيام الوحدة ١٩٥٨ ، حتى الانفصال ١٩٦١ .

المرحلة الرابعة : وتمتد من حدث الانفصال الى الحرب العربية الاسرائيلية ١٩٦٧.

المرحلة الخامسة : العلاقة بعد العدوان الاسرائيلي ١٩٦٧.

المرحلة الأولى : ١٩٥٢ حتى ١٩٥٥ .

امتازت هذه المرحلة الأولى من عمر الثورة ، بتوجه قادة الثورة نحو بناء البيت من الداخل . وبالتالي فقد اتسمت حركة الضباط الأحرار بكونها حركة تحرر وطنية الأفق، لم يتبلور لديها في المرحلة الأولى تطلعات قومية عربية ، بل كان هدفها مواجهة الفساد المستشري داخل المجتمع المصري. هذه السياسة الوطنية، التي انتهجتها الثورة المصرية، لم تنظر اليها حركة القوميين العرب بعين الارتياح، وتعاملت مع الثورة المصرية بحذر ، وإن لم يكن بعداء. ويعود سبب ذلك الى عدة اسباب :

أولا : حذر الحركة من العسكر بصورة عامة. فقد مرت الحركة بمرحلة كان نضالها منصباً على العمل العسكري. وعانت الحركة الكثير من ذلك لكون هذه الأعمال لم تؤدِ الى نتيجة محققة لأهدافها القومية. وبالتالي ، فقد خشيت الحركة ان يصبح وجود العسكر في السلطة هدفاً بحد ذاته يجهض أي عمل سياسي .

ثانيا: عدم بروز هوية قومية تحررية لدى قادة الثورة ، حيث كانت مواقفهم القومية غامضة ، ولم يظهر منهم أية اشارة يستنتج منها الرغبة في العمل القومي ، أو التعاطف مع النضال العربي المشترك .

ثالثاً : حل الأحزاب السياسية ، فقد اعتبرت الحركة ، أن هذا العمل ، هو انعكاس لقناعات فكرية ومواقف ايديولوجية لدى قادة الثورة ، ترمي لخلق نظام دكتاتوري، يجهض أي تحرك سياسي ديمقراطي، خصوصاً ان البديل الذي طرحته قيادة الثورة هي هيئة صغيرة «هيئة التحرير».

وقد اعتبرت الحركة ان حل الأحزاب السياسية، وخلق نظام الحزب الواحد، عمل مشابه للوضع الذي كانت عليه الفاشية في ايطاليا، والنازية في المانيا (٥٩).

رابعا : عدم ارتياح الحركة لتطور العلاقة بين قادة الثورة ، والولايات المتحدة الأمريكية، في وقت كانت فيه الولايات المتحدة ، تركز جهودها لاعادة ترتيب الأوضاع في منطقة «الشرق الأوسط» ، بما يتناسب مع المستجدات التي عرفها العالم بعد الحرب العالمية الثانية ، حيث برز الصراع الأيديولوجي بين القوتين العظميين وتدهورت مكانة الدول الأوروبية : فرنسا ، بريطانيا ، في الوطن العربي، وبالتالي جهدت الولايات المتحدة لأخذ موقع لها في الوطن العربي لتخلف النظام الاستعماري القديم .

خامساً : تذمر الحركة من توقيع الاتفاقية المصرية – الإنجليزية في عام ١٩٥٤، التي اسمتها الحركة (عملية بيع للامبريالية) (٦٠).

فقد اتهمت «الحركة» رجال الثورة المصرية اتهاماً صريحاً ، بأنهم وقفوا الى جانب الغرب بتوقيعهم اتفاقية الجلاء، والتي بمقتضاها يسمح باحتلال قناة السويس، وباستعمال الموانئ والمطارات المصرية (٦١) .

ويمكن القول، إن الحركة في هذه المرحلة ، وقفت موقفاً حذراً من الثورة المصرية ، وحتى عندما صرح عبد الناصر بأن البلاد ستعرف من جديد النظام البرلماني في نهاية ١٩٥٥، علقت «الرأي»(٦٢). قائلة بأنه غالباً ما سمعنا وعوداً من الشيشكلي شبيهة بذلك ، دون ان ينفذ شيء . وأعتبرت ان النظام العسكري في مصر ، لا يختلف كثيرا عن نظام الشيشكلي(٦٣).

المرحلة الثانية : من الغارة الاسرائيلية على غزة حتى قيام الوحدة المصرية السورية في ١٩٥٨ .

عرفت هذه الفترة مرحلة جديدة من العلاقات بين قادة الثورة المصرية وحركة القوميين العرب ، امتازت بقيام تحالف وثيق ، وتنسيق في مجالات العمل السياسية والفكرية ، لدرجة يمكن معها القول بأن «الحركة» اصبحت فرعاً من الحركة الناصرية.

ومع أن تاريخ بداية هذه المرحلة يبدأ من تاريخ الغارة الاسرائيلية على غزة، فانه عملياً يمكن القول ان ارهاصات هذه المرحلة ،والعوامل الفاعلة والمهيئة لها، قد بدأت منذ أواخر ١٩٥٤ ، عندما وجد كل من «الحركة» والثورة المصرية انهما يعملان في ميدان نضالي واحد ، وهو محاربة السياسة الامبريالية الغربية ، الهادفة الى فرض اتفاقات للدفاع المشترك، واقامة احلاف عسكرية ، من أمثال حلف بغداد.

ففي مارس ١٩٥٤ ، انفجرت موجة من العنف السياسي ، تجلى في القيام بمظاهرات وشن الاضرابات ، التي شملت عدة أقطار عربية ، كتعبير شعبي صريح على رفض سياسة الأحلاف ، ورفض توجه بعض الأنظمة العربية في اتجاه التعامل مع هذه السياسة، الهادفة أساساً إلى تكريس خضوع المنطقة للنفوذ الغربي ، وحل المشكل الفلسطيني لغير مصلحة شعب فلسطين.

ففي لبنان دعا الطلبة القوميون للقيام بمظاهرات، تعبيراً عن رفض سياسة الأحلاف ومعاهدات الدفاع المشترك ، وقد واجهت حكومة عبد الله اليافي هذه المظاهرات بحملة قمع شديدة ، حولت المظاهرة السلمية ، الى مظاهرة دموية ، نتج عنها استشهاد طالب ، وجرح عدد كبير من الطلاب ، وقامت إدارة الجامعة الأمريكية في بيروت بطرد خمسة من قادة الطلبة المسؤولين عن الحادث (٦٤) وقد لفت هذا النشاط الثوري للحركة ، نظر قادة الثورة المصرية ، الذين أخذوا يسيرون في اتجاه مناهضة سياسة الأحلاف ، وكل أنواع الهيمنة الامبريالية. وهذا ما دفع بعبد الناصر لقبول الطلبة القوميين المفصولين من الجامعة الأمريكية ، ليكملوا دراستهم في الجامعات المصرية . وبفعل نشاط الطلبه القوميين في القاهرة، فقد أصبحوا صلة الوصل ما بين الثورة المصرية و «الحركة»، وعملوا على تجنيد أعداد من الطلبة العرب الذين يدرسون في مصر ، هؤلاء الطلبة الذين كونوا لاحقاً الخلايا الأولى للحركة في عدد من البلاد العربية .

إلا أن المنعطف المهم في علاقة الحركة بالناصرية ، كان اعلان عبد الناصر تأميم قناة السويس في عام ١٩٥٦، وقيام العدوان الثلاثي على مصر ، حيث أبرزت هذه الأحداث جمال عبد الناصر كمناضل ثوري قومي ، يرفض الأحلاف والهيمنة ، وينتهج سياسة حيادية صلبة . وهذا ما دفع بحركة القوميين العرب الى تعزيز تأييدها لعبد الناصر واعتباره رمزا للنضال العربي التحرري (٦٥) .

وكان أبرز مثال على التنسيق النضالي بين عبد الناصر و «الحركة» في هذه المرحلة ، هو العمل في الساحة الأردنية ، والذي كان يهدف من حيث الغاية السياسية المباشرة إلى إلغاء الاتفاقية الأردنية البريطانية . والتي كانت تقيد حكومة الأردن وتربطها بعجلة السياسة الامبريالية ، اما الهدف غير المباشر لتفجير الصراع في الساحة الأردنية ، فهو

الوقوف ضد كل السياسات الهادفة لالغاء الشخصية الفلسطينية ، وطمس الهوية الفلسطينية ، ومنع كل مشاريع التسوية(٦٦).

المرحلة الثالثة: من ١٩٥٨ حتى الانفصال في ١٩٦١.

تمثل هذه الفترة قيام دولة الوحدة بين مصر وسوريا ، التي اعتبرت في حينها نقطة تحول في المسيرة النضالية الوحدوية العربية . وقد تعاملت «الحركة» مع دولة الوحدة باعتبارها انجازاً عربياً عظيماً ، ونواة للدولة العربية الشاملة ، ورأت في قيام ج.ع.م القوة العربية التي ستقضي على الخطر الصهيوني لا محالة . من هنا نسقت الحركة جميع مواقفها وسياساتها العربية والدولية مع سياسة دولة الوحدة. وفي اوائل ١٩٥٨ وبعد قيام ج.ع.م مباشرة ، نقلت «الحركة» مقر القيادة من بيروت الى دمشق ، واستطاعت الاستفادة من الجو السياسي المؤيد والمتعاطف مع منطلقاتها الفكرية ، لتعمل على استقطاب عناصر حزبية جديدة لها . وقد كان صدور مرسوم ١٢ مارس ١٩٥٨ ، والقاضي بحل الأحزاب السياسية في الاقليم الشمالي (سوريا)(٦٧) نصراً عظيماً «للحركة»، حيث انعكست نتائجه الايجابية لمصلحة «الحركة». وقد أيدت الحركة هذا القرار ، واعتبرته «خطوة لبناء منظمة سياسة صالحة للدفاع عن الوحدة »(٦٨).

ومن ناحية ثانية ، فان «الحركة» ، وبفعل تعاطف عبد الناصر ، والنظام السياسي الجديد في سوريا ، شهدت في أواخر الخمسينيات عملية إعادة تنظيم وإعداد سياسي عسكري بحيث هيئت الحركة لتكون أداة لتنفيذ سياسة ج.ع.م في عدة دول عربية ، وأصبحت سوريا ملجأ وقاعدة للحركة.

المرحلة الرابعة: من ١٩٦١ حتى حرب ١٩٦٧.

شهدت هذه الفترة حدثاً كبيراً ، كان له الأثر الواضح في التأثير على الفكر الوحدوي العربي ، وعلى مجمل الأفكار السياسية الرافدة له ، ألا وهو حدث الانفصال. فقد اعتبر انفصال سوريا عن ج.ع.م ضربة شديدة للفكر الوحدوي الانفعالي والاندفاعي الذي ساد الساحة العربية طوال الخمسينيات ، والذي كان يطالب بالوحدةالعربية ، وينظر لها فكرياً ، أكثر مما يعمل واقعياً وعلمياً على تهيئة الظروف المحققة للوحدة .

فقد تعاملت الحركة ، وكذلك عبد الناصر مع حدث الانفصال ، باعتباره من تخطيط القوى الرجعية العربية ، والامبريالية العالمية . وبالتالي ، فقد اتجهت الانظار نحو خلق حركة اشتراكية عربية ثورية ، تبعد عن قيادتها الطبقات الرأسمالية والأقطاعية. ومن هنا كانت دعوة عبد الناصر لقيام الحركة العربية الواحدة، كرد فعل على نكبة الانفصال ، حيث استجابت حركة القوميين العرب لهذه الدعوة ، وعقد مؤتمر قومي في يوليو ١٩٦٤ ،

حضره كل من (الحزب الاشتراكي العربي)، و (حركة الاشتراكيين الوحدويين) و (الوحدويون الاشتراكيون الديمقراطيون) بجانب (حركة القوميين العرب). وقد تم الأتفاق في هذا المؤتمر على تكوين (الاتحاد الاشتراكي العربي) في كل من سوريا ، والعراق ، وتشكيل الجبهة القومية لتحرير اليمن الجنوبي في عدن .

لقد جاء هذا التحول الفكري والتنظيمي ليتناسب مع التحولات التي عرفتها ج.ع.م ، حيث تم تكوين «الاتحاد الاشتراكي العربي» في مصر ، واتخذت عدة قرارات اعتبرت خطوة في طريق بناء الاشتراكية، بحيث «تحولت الناصرية الى حركة اشتراكية وحدوية، تمثل اليسار الجديد الفاعل في حاضر المشرق العربي، والمستوعب لمجرى التقدم التاريخي في الوطن العربي كله . ويستند هذا اليسار الناصري الجديد، الى جملة مقومات تجعل منه الحركة الثورية الأساسية القائدة لعملية التحول الاشتراكي الوحدوي على صعيد النضال الوطني العربي كله »(٦٩) .

سارت «الحركة» خطوة اخرى في اتجاه تعزيز وتقوية تحالفها وارتباطها بالناصرية، بالرغم من حدث الانفصال . ففي «المؤتمر القومي العام» للحركة في ١٩٦٥ ، اتخذت بادرة تتضمن دمج «حركة القوميين العرب» بالناصرية على الصعيد القومي ، والعمل على خلق حركة عربية اشتراكية واحدة، تتبنى الفكر الاشتراكي ، وتضع قيادتها بيد عبد الناصر(٧٠). ولم تستطع الحركة ان ترى امكانية العمل السياسي خارج اطار الحركة الناصرية ، لأنها وجدت في الحركة الناصرية القوة القومية الثورية الوحدوية في الساحة العربية ، القادرة على التعامل مع مكونات الواقع العربي بكل سلبياتها تعاملاً يقضي على كل عوامل الفساد والتخلف ، ويخرج للوجود القوى الحية الفاعلة في المجتمع العربي لمنحها الحياة والوجود ضمن استراتيجية ثورية اشتراكية ..

إلا أن هذا التحالف السياسي ، والتوافق الفكري بين «الحركة» والناصرية، لم يكتب له النجاح طويلاً ، حيث وجدت «الحركة» بانها كانت مخطئة في تعاملها مع الناصرية كحركة فكرية سياسية متكاملة، وخاضعة تماما لعبد الناصر ، لأن الناصرية، بدون عبد الناصر ، ما هي الآ تيار سياسي خاضع للمخابرات المصرية، والأجهزة البيروقراطية الادارية ، والتي لا تنطلق دائما في تعاملاتها الادارية والسياسية بناء على اعتبارات ايديولوجية ، ولكن ضمن مقتضيات المصلحة الوطنية المصرية ، وأحيانا ضمن مصالح شخصية او ادارية محددة .

وهكذا بدأت المسيرة التراجعية في العلاقات مابين الحركة والناصرية، وبدأت الخلافات، تنتقل من خلافات سياسية، إلى خلافات تركت انعكاساتها على علاقات التعامل اليومي في عدة ساحات عربية . وكانت بوادر ظهور الصراع قد ظهرت في اليمن ، عندما

وقف الضباط المصريون في اليمن مواقف عدائية ضد «الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن »، والتي تهيمن عليها « الحركة» ثم توالت الأنشقاقات ما بين فروع «الحركة» والناصريين في كل من العراق وسوريا ، حيث انسحب القوميون العرب من الاتحاد الاشتراكي .

وكان اجتماع اللجنة التنفيذية «للحركة» في يوليو ١٩٦٦ ، اعترافاً رسمياً بوصول العلاقات ما بين «الحركة» والناصرية لطريق مسدود ، ونادى المجتمعون بضرورة التمييز ما بين «يمين» الناصرية ، المتمثل بوكلاء البيروقراطية والبورجوازية، و«يسار» الناصرية ، المتمثل في العناصر والقوى التقدمية الموجودة ضمن التيار الناصري .

وكانت «الحركة» من المثالية السياسية ، بحيث كانت تعتقد بأنها تستطيع أن تثير حرباً ضد يمين الناصرية ، وفي نفس الوقت تحتفظ بصداقتها وتحالفها مع عبد الناصر نفسه (٧١) .

المرحلة الخامسة: ما بعد ١٩٦٧ من الاشتراكية الناصرية الى الماركسية .

ترافقت هزيمة ١٩٦٧ مع تغييرات فكرية عميقة ظهرت ضمن صفوف حركة القوميين العرب ، وبلورت لديها اتجاهاً فكرياً جديداً ،أعلن القطيعة التامة مع كل التراث الفكري الاشتراكي الانتقائي للحركة ، بما يعنيه هذا التراث الفكري من تحالفات مع عبد الناصر والقوى السياسية الأخرى في الساحة العربية .

واذا كانت «الحركة» قد اذابت شخصيتها السياسية، ضمن الحركة الناصرية ، على أمل ان يقود عبد الناصر الأمة العربية نحو تحقيق أهدافها القومية، وعلى رأسها تحرير فلسطين ، فان هزيمة ١٩٦٧ قد زعزعت ثقة الحركة بعبد الناصر ، بكل ما يمثله من فكر وسياسة وممارسة. وأثر حرب ١٩٦٧ مباشرة، بالرغم من وجود ارهاصات أولية للخلاف قبل ذلك ابتداء من ١٩٦٥، وجدت «الحركة» نفسها تسير في اتجاه معاكس ، ونقيض للاتجاه الذي يسلكه عبد الناصر ، بما يمثله من فكر السلطة التي هي سلطة البرجوازية الصغيرة بأفقها الفكري الإصلاحي المحدود ، والتي تسير الى فشل محقق لكونها نقيضة لفكر الطبقة العاملة الذي بدونه لا يمكن أن تنجح المسيرة الثورية التحررية العربية (٧٢) .

انتقل الخلاف السياسي والايديولوجي بين « الحركة» و عبد الناصر بما يمثله من فكر وايديولوجية الى صفوف الحركة، وداخل هياكلها وبنياتها التنظيمية، حيث عقدت «الحركة» عدة اجتماعات موسعة ضمن التيارات المختلفة في صفوف الحركة، وتواجه فيها التيار الذي يمثل القيادة التقليدية المؤسسة للحركة، حيث رفض هذا التيار المقولات

الماركسية الجديدة، وتمسك بالخط الناصري، وبأفكار الحركة والتيار ، الذي تزعمته مجموعة من العناصر الشابة، المؤمنة بضرورة إحداث تغييرات جذرية تمس مختلف هياكل الحركة ومواقفها الأيديولوجية . وبالتالي رفض الواقع العربي بهياكله القائمة . وقد اعتبر هذا التيار اليساري أن الفكر الناصري ، وفكر الحركة الأشتراكي الانتقائي، قد سقطا مع هزيمة ١٩٦٧. وبالتالي فان الحاجة تدعو لإعادة النظر في المسيرة النضالية الثورية العربية ، وضرورة نقل قيادة الحركة الثورية العربية لتتسلمها الطبقة العاملة، وتفجير الصراع الطبقي ، وبالتالي إعلان الطلاق الكامل مع الحركة الناصرية، بكل ما تمثله من قيم ومفاهيم (٧٣) .

ولقد تمخضت هذه الصراعات الفكرية ، داخل صفوف الحركة ، عن تفسخ «حركة» القوميين العرب ، ودخولها طوال سنتي ١٩٦٧–١٩٦٨ في بداية طور جديد من أطوارها الفكرية، وهو الطور الماركسي ، مما أدى في النهاية إلى تحول الحركة إلى عدد من المنظمات السياسية ، والتي تتبنى النظرية الماركسية اللينينية، وبالتالي تطرح وجهة نظر جديدة في معالجتها للقضية الفلسطينية ، وللنضال القومي العربي بشكل عام .

المطلب الثاني: « الحركة» وإعادة النظر في منطلقاتها الفكرية الأولى.

مثلت فترة الستينيات منعطفاً سياسياً مهماً بالنسبة للجو الفكري السائد في الوطن العربي. فقد شهدت هذه المنطقة عدة مستجدات فكرية وسياسية واجتماعية هيمنت على الحياة السياسية والاجتماعية العربية . ففي هذه الفترة ، عرف الفكر «الاشتراكي» انتشاراً واسعاً في الأوساط الشعبية والتنظيمية العربية . بل وصل الأمر إلى أن يتبنى هذا الفكر عدة أنظمة حكم عربية ، بحيث أصبحنا نجد أن أية حركة سياسية ، أو نظاماً سياسياً جديداً، يقوم مباشرة بعملية الربط الجدلي ما بين مهمات إحداث تغييرات في البنيات الفوقية للواقع العربي ، بإحداث تغييرات في بنياتها التحتية الأقتصادية والأجتماعية، وبالتالي وضع حد للتفاوت القائم ما بين المسيرة السياسية ، والمسيرة الأجتماعية الأقتصادية .

لقد نالت هذه المستجدات الفكرية بتأثيراتها «السحرية» اغلبية الأحزاب والقوى السياسية ، ومن ضمنها حركة القوميين العرب ، التي كانت تمتاز بأفكارها ومفاهيمها التقليدية الرافضة لكل ما يمت بصلة للاشتراكية والصراع الطبقي .

ومع أن «حركة» القوميين العرب كانت : متقدمة فيما أخذت به من أسلوب ثوري عنفي إرهابي في مواجهة العدو الصهيوني والأستعماري ، إلا انها في اهدافها كانت غارقة في

اليمينية الشوفينية المتعصبة قومياً. وكانت تضع «الأمة» محل «الطبقة» ، والصراع بين الأمم محل الصراع بين الطبقات ، وبالتالي لعبت بذلك دور المعيق ، لأي تطور فكري قائم على أساس الصراع الاجتماعي الاقتصادي(٧٤) .

ولكن بفعل تحالف «الحركة» مع الناصرية ، بما عرفته من نزوع نحو انتهاج الطريق الاشتراكي ، وبفعل الاحتكاك اليومي المباشر لعدد كبير من الشباب المنتمين «للحركة» بالجماهير ، وبالفكر السائد بين هذه الجماهير ، وبفعل المطالعات العامة والتثقيف السياسي الموسع، أخذت أعداد كبيرة من الشباب في صفوف الحركة يشعرون بتخلف حركتهم الفكري، عما يسود المنطقة من تيارات فكرية ثورية تحررية ويسارية ، وشكلوا بالتالي تياراً متنامياً داخل «الحركة» ، أخذ على عاتقه مهمة فرض الأفكار الاشتراكية على القيادة التقليدية للحركة .وهذا ما أدى في النهاية إلى هيمنة هذا التيار اليساري على مجمل فروع «الحركة».

ومع ذلك يمكن القول : إن تبني «الحركة» «الفكر» « الاشتراكي» لم يكن وليد خطة مسبقة ، أو نتيجة لتطور مدروس ومخطط من قبل قيادة الحركة ، بقدر ما كان رضوخاً لتطور الأحداث السياسية ، ومجاراة للمتطلبات التي تفرضها التحالفات الجديدة «الحركة».

وقد توافقت عملية التحول «الاشتراكي» في «الحركة» باتخاذها لعدد من الخطوات التراجعية ، استطاعت من خلالها أن تتهرب من عدد من منطلقاتها الفكرية الأولى ، ودفعتها إلى الأمام في اتجاه طور جديد من أطوارها الفكرية والأيديولوجية . لان «حركة القوميين العرب بكل فروعها لم تكن تستطيع البقاء محصنة في وجه هذه التطورات الموضوعية، ومغلقة كلياً على فكرها الفاشي وبرنامجها السياسي اليميني» (٧٥) .

ومن هنا بدأت القواعد التنظيمية للحركة على مختلف مستوياتها القاعدية منها والقيادية ، تعرف تفاعلات فكرية حاسمة ، حيث عرفت السنوات الخمس الأولى من الستينيات عدداً من المؤتمرات الحركية التي تمخض عنها بروز وهيمنة التيار الاشتراكي بأفقه البرجوازي الصغير ، واندحار القيادات اليمينية التقليدية .

وكانت قرارات يوليو الاشتراكية التي أعلنها عبد الناصر في ١٩٦١ ، هي الحدث الذي دفع الصراعات الفكرية داخل صفوف الحركة على مسرح الأحداث بشكل علني، حيث طرحت على قيادة الحركة ضرورة أخذ موقف محدد من الفكر الاشتراكي. ومع أن جميع قيادات الحركة قد وافقت على الأخذ من حيث المبدأ بالقررات الاشتراكية ، إلا أنهم أخذوا بها من منظور إصلاحي محض ، لا يهدف إلى إعادة قولبة المفاهيم والعلاقات الاجتماعية والسياسية ، بما يتناسب مع المستجدات الفكرية والثورية ، وبالتالي اعتبروا ان الوصول

للاشتراكية يتم بصورة سلمية ، ضمن إطار تحالف واسع، يضم جميع فئات الشعب من عمال ومثقفين والرأسمالية الوطنية . أما بالنسبة للتيار الثاني، والذي مثلته مجموعة شابة من كوادر الحركة منهم محسن ابراهيم ، محمد كشلي ، ونايف حواتمة ، فقد انتقدوا النظرة الانتقائية للاشتراكية التي تبنتها المجموعة الأولى ، وربطوا ما بين الأخذ بالنهج الاشتراكي وضرورة وجود حزب اشتراكي .

ورفضوا نظرية الانتقال السلمي نحو الاشتراكية ، باعتبراها نظرية تهدف إلى إدخال رتوش وتجميلات على الواقع القائم دون تبديله(٧٦) ، وبصورة أوضح إنها نظرية تهدف إلى العمل ضمن الشرعية القائمة .

وقد وضع المؤتمر القومي للحركة المعقود عام ١٩٦٢ ،حداً لمحاولات إخفاء الصراع الفكري داخل صفوف الحركة ، حيث استطاع الفريق «التقدمي الاشتراكي» في قيادة الحركة ، أن يطرح برنامجاً سياسياً ينطلق من منظور إيديولوجي يعتمد الصراع الطبقي . ومع أن القيادة التقليدية للحركة قد وافقت لفظياً على الأخذ بهذا البرنامج ، إلا إنها عملياً مارست سياسة نابعة من طبيعة نشأتها الفكرية الأولى الحذرة من اثارة الصراعات الطبقية في الواقع العربي، وعرقلت عملياً جميع المحاولات الهادفة إلى نقل مضمون هذا البرنامج اليساري إلى واقع الممارسة.

وبقيت نتائج مؤتمر ١٩٦٢ هزيلة ، لم تستطع إدخال تحولات جذرية في بنية الحركة . وكان هذا: «دليلاً واضحاً على أن الفريق التقدمي لن يستطيع اكتساب مواقع سياسية ، إذا هو استمر منضبطاً ضمن أطر العلاقات التنظيمية الفاشية التقليدية»(٧٧) .

وقد أدى فشل القيادة في حل صراعاتها الفكرية ضمن مؤتمراتها القومية، والخروج بوجهة نظر مشتركة، إلى نزول هذه الخلافات إلى القواعد القاعدية للحركة . ولعبت مجلة «الحرية» التي يسيطر عليها الفريق اليساري في الحركة دورا في نقل وجهة نظر هذا الفريق اليساري في الحركة إلى مختلف القواعد الحزبية للحركة ، مؤكدة على أن: «الثورة القومية في المجتمع العربي لا تستأنف مجراها وتجدد نفسها، إلا من خلال إسقاط البورجوازية الكبيرة وحلفائها ، وصعود تحالف الطبقات الوسطى من الفلاحين والعمال والفئات الشعبية المسحوقة ،كي تضطلع بمسؤولية تحقيق وحدة الأمة العربية واستقلالها. ولا يمكن لهذا الجدل التاريخي أن يأخذ مجراه إلا باستثارة الصراع الطبقي وتغذيته وتعميقه » (٧٨) .

واستمرت التفاعلات الفكرية في صفوف الحركة تفعل فعلها على كل المستويات تنظيمياً وسياسياً وايديولوجياً ، وفشل مؤتمرا ١٩٦٣-١٩٦٤ القوميان في إيجاد حلول لهذه المشاكل المصيرية ، والتي تمس وجود الحركة من الأساس ، واعترف في مؤتمر

١٩٦٤ بوجود أزمة فكرية عنيفة في صفوف الحركة، مما أدى عملياً إلى بداية انهيار وتسيب داخل صفوف الحركة ، أدى عملياً إلى ادخال تغييرات موضوعية وكيفية على هيكل الحركة .

ويبدو أن العناصر القيادية التقليدية في الحركة ، لم تستطع أن تستوعب الأفكار الاشتراكية اليسارية التي بدأت تطرحها العناصر الشابة في الحركة. ومن ناحية ثانية لم تستطع أن تحكم هذه العناصر ، بما تمثله من أفكار سياسية ضمن الاطار التنظيمي للحركة . فاضطرت القيادة التقليدية أن تتخذ مواقف سلبية ، تمثلت في انسحاب أعداد منها من الحركة ، وتجميد عناصر أخرى لنشاطاتها داخل صفوف الحركة ، متهمة العناصر المنتمية للفكر الاشتراكي بأنها شيوعية ومعادية للفكر القومي . ومن ناحية ثانية بدأت الحركة تشهد انتساب أعداد متزايدة من الشباب العربي المؤمن بالفكر الأشتراكي في صفوفها. وهكذا عرفت الفترة من ١٩٦٢-١٩٦٥ إعادة تأسيس فعلي للحركة ، نشأت من خلالها حركة جديدة ملتحقة بالناصرية بصفتها الاطار العام المتقدم السائد على رأس حركة التحرر الوطني العربية .

واستمرت الحركة تعمل ضمن إطار الناصرية ، بما يمثله من فكر «اشتراكي» انتقائي، هو أقرب إلى رأسمالية الدولة منه إلى حقيقة الاشتراكية ، إلى أن كانت حرب حزيران ١٩٦٧(٧٩) والتي وضعت حداً للتحالف بين الحركة والناصرية، ووضعت الحركة على أعتاب مرحلة جديدة، دفعت بالحركة نحو تبني الفكر الماركسي اللينيني ، وتحولها إلى عدة منظمات ، تتعامل مع الواقع الفلسطيني والعربي ضمن هذا المنظور .

المطلب الثالث : الحركة والكيانية الفلسطينية .

أولا : الحركة و م . ت . ف :

ترافقت التطورات الفكرية والتنظيمية في صفوف حركة القوميين العرب، مع انبثاق ظاهرة لها دلالتها المصيرية، من حيث التعامل مع القضية الفلسطينية، وكيفية ربط علاقات نضالية جديدة بين الشعب الفلسطيني والحركة الثورية العربية ، وهي بروز الشخصية الفلسطينية المستقلة،كحركة ثورية فلسطينية، ذات منطلق وطني، لتنفي من خلال هذه الوطنية وجود الكيان الصهيوني في فلسطين . لم تستطع الحركة ان تبقى معزولة عن هذا النهوض الجماهيري الفلسطيني ، وهي التي كان مبرر وجودها واستمرارها قضية فلسطين. فسارعت قيادة «الحركة» للتجاوب والتفاعل مع المستجدات المحيطة بالقضية الفلسطينية، وخصوصاً ان الفلسطينيين المنضوين تحت لواء الحركة،

طرحوا السؤال حول دور الفلسطينيين الخاص في نطاق الالتزام بالعمل القومي الشامل...؟ .

لم يكن تجاوب «الحركة» مع المستجدات التي طرحها نهوض الشعب الفلسطيني، تعني انسلاخ «الحركة» عن تراثها الفكري والسياسي القومي ولكنها : «شأنها شأن غيرها من الأحزاب والمؤسسات العربية الفلسطينية، لحظت دوراً خاصاً للفلسطينيين في صفوفها ، ومهمات محددة لهم ، دون ان يعني هذا تخليها عن أي من شعاراتها القومية ومفاهيمها العربية الشمولية »(٨٠) .

وهكذا اتجهت الحركة نحو إعطاء الفلسطينيين المنضوين تحت لوائها دوراً مميزاً . ففي ١٩٥٨ شكل الفلسطينيون القياديون في «الحركة» لجنة إقليمية ، سميت «لجنة فلسطين» ، جعلت من اختصاصها بحث ومناقشة كل ما يتعلق بقضيتهم الفلسطينية وتطوراتها السياسية . وفي عام ١٩٦٠ ، تم تشكيل جهاز فلسطيني تابع للحركة ، سمي «اقليم فلسطين » ، على غرار فروع الحركة القطرية القائمة في الأقطار العربية.

وسارت الحركة خطوات أوسع في طريق بلورة مواقف فلسطينية واضحة، ومجاراة الزخم الثوري للحركة الثورية الفلسطينية التي قادتها «فتح»، ولتسحب البساط من تحت اقدام حركة «فتح» التي استطاعت استقطاب قطاعات واسعة من الجماهير الفلسطينية ، فأنشئت الحركة قيادة خاصة للعمل الفلسطيني ، سميت «قيادة العمل الفلسطيني» ، عام ١٩٦٤ ، وقد أسندت إلى هذه المؤسسة مهمة الاشراف على جميع التنظيمات الحزبية الفلسطينية التابعة للحركة في أماكن الوجود الحزبي للحركة .

وقد التقت جهود حركة القوميين العرب مع جهود عبد الناصر الهادفة لإحياء القضية الفلسطينية ، وضرورة إعطاء دور مميز للشعب الفلسطيني. وأيدت الحركة ألرئيس جمال عبد الناصر في جهوده المبذولة لمعالجة هذه القضية . وذلك ضمن إطار الاستراتيجية الثورية العربية المؤمنة ، بأن «الوحدة هي طريق العودة»، وأن تحرير فلسطين لن يتم الاّ بحشد الجيوش العربية على جبهات القتال . وقد قام عبد الناصر بدعوة جامعة الدول العربية في ١٩٥٩، لأن تأخذ المبادرة ، وتبحث في الطرق والوسائل الكفيلة بإخراج الكيان الفلسطيني إلى حيز الوجود . إلا أن حركة القوميين العرب لم تنظر بارتياح إلى موضوع طرح القضية الفلسطينية على مجلس الجامعة العربية ، لأنها لم ترَ في الجامعة الهيئة المؤهلة لمعالجة قضية مصيرية مثل القضية الفلسطينية ، بسبب المساومات والمزايدات التي تسود مجلس الجامعة، ولهيمنة الروح الاتكالية، ومعارضة بعض الدول العربية لأي بحث يتناول إبراز الكيان الفلسطيني .

كما شككت «الحركة» في مقدرة الجامعة العربية على التوصل لحلول ثورية ومقنعة لقضية شعب فلسطين، لان ... «تنظيم شعب فلسطين، وإعداده، موضوع سقط في المناقشات المفرغة داخل إطارات جامعة الدول العربية. وهذا السقوط ذاته يعني أن الخطوة الأولى في طريق بحث الموضوع هي خطوة سلبية، وغير ذات نتيجة ... ذلك أن طرح موضوع ثوري من هذا الطراز في أروقة مؤسسة «لا ثورية» من طراز الجامعة العربية، يعني سلفاً قتل القضية وتحريرها من كل ثوريتها وفاعليتها»(٨١) ومن هنا دعت الحركة لوقف المناورات البالية في أروقة الجامعة العربية، ولفضح مواقف المتخاذلين، بدل التستر خلف ستار من الاتفاقات الكلامية(٨٢). ورأت الحركة أن الحل الوحيد الواجب اتخاذه لمصلحة القضية الفلسطينية، هو حشد القوى العسكرية والبشرية في كل قطر عربي، ووحدة عسكرية، تواجه من خلالها العدو كتلة متراصة، بقيادة واحدة وتخطيط واحد.

وعندما نجح مجلس الجامعة في إصدار قرار يتعلق بإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية، والدعوة لتنظيم شعب فلسطين،وقفت حركة القوميين العرب موقف التردد تجاه منظمة التحرير الفلسطينية حيث انتقدت بشدة قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، وطريقة عملها اللاثورية. ففي المؤتمر الوطني الفلسطيني الأول، المنعقد في القدس ٢٨ مايو ١٩٦٤، بينت الحركة موقفها بوضوح، وأعلنت انها ليست ضد منظمة التحرير، أو ضد وجود كيان فلسطيني، ولكنها ضد الممارسات اللامعقولة واللاثورية التي تمارسها قيادة منظمة التحرير ضد العناصر الحزبية الثورية الفلسطينية. وادعت ان هناك خطة وضعتها قيادة المنظمة، تهدف الى ابعاد العناصر الحزبية عن المنظمة(٨٣). كما انتقدت الحركة وبشدة انعقاد المؤتمر الوطني الفلسطيني في القدس، وتحت رعاية الملك الحسين، واعتبر ذلك تشويها للعمل الثوري الفلسطيني، ومحاولة لإعادة فرض الوصاية الاردنية على الشعب الفلسطيني، ورأت الحركة ان اجتماعات المؤتمر قد تعرضت لضغوطات عربية صرفت المنظمة عن العمل الأساسي الذي خلقت من اجله، وانتقدت الطريقة التي تم بها تأليف اللجنة التنفيذية للمنظمة ،وشككت في مقدرة هذه اللجنة على القيام بمهامها، لعدم تمثيلها للجماهير الفلسطينية، ذلك لأن: «هناك دلائل واضحة تشير الى اعتزام الشقيري، على مواصلة عزل المنظمات الثورة التي اخذت على عاتقها في السنوات ١٦ الماضية العمل في صفوف الفلسطينيين تنظيماً وتثقيفاً واعداداً». (٨٤).

لم يكن خلاف «الحركة» مع منظمة التحرير الفلسطينية خلافاً سياسياً او فكرياً، وخصوصاً أن منظمة التحرير في مراحلها الأولى لم يكن لديها ايديولوجية فكرية خاصة بها، تميزها عن الفكر العربي السائد، ولكنه خلاف حزبي تركز حول أحقية «الحركة» بأخذ مناصب قيادية في المنظمة، اعتماداً على تراثها النضالي في ميدان القضية الفلسطينية.

وقد رفض أحمد الشقيري ان يترك المنظمة لتكون ميدانا للصراع الحزبي ، وأراد إبعادها عن الحزبية ، وإبعاد الحزبيين عنها(٨٥). ففي تصريح أدلى به الشقيري لصحيفة الحياة البيروتية ، قال بأنه بدأ محاولاته لابعاد جميع العناصر الحزبية عن المراكز الحساسة في المنظمة، لأن هذه العناصر الحزبية، حسب رأيه ، تعمل من أجل مصلحتها ، بدلاً من العمل في سبيل القضية ، وأنه لن يستعين إلا بالمستقلين . وقد قالت الصحيفة : «إن هذه الخطوة من قبل الشقيري ، جاءت في أعقاب الحملة العنيفة التي شنها عليه الحزبيون ، وخاصة حركة القوميين العرب التي اتهمته بالدكتاتورية(٨٦).

أسهمت المواقف الثورية الواضحة التي بدأت منظمة التحرير الفلسطينية في نهجها ، وإعلان الشقيري على أن المنظمة تؤمن بالكفاح المسلح كطريق لتحرير فلسطين ، بالاضافة الى احتدام الصراع بين المنظمة والحكومة الأردنية ، أسهم كل هذا في رأب الصدع بين الطرفين . وخصوصاً أن الحركة تعرضت لضغوطات من قبل عبد الناصر للتخفيف من حدة انتقاداتها للمنظمة . كما ان الشقيري اخذ يسعى لاقامة علاقة مع القوى الحزبية ، الثورية لتوسيع القاعدة الشعبية للمنظمة .

وتوجت جهود المصالحة بين حركة القوميين العرب ومنظمة التحرير الفلسطينية ، بقيام «لجنة العمل الفلسطيني الموحد» (٨٧) والتي تشكلت من القوى الفلسطينية السياسية الهادفة لتوحيد العمل الفلسطيني ، واستطاعت هذه اللجنة الوصول لأرضية مشتركة بين المنظمة والحركة ، هذه المصالحة التي ادت لاحقاً لقيام «منظمة أبطال العودة» الفدائية التابعة للحركة بتمويل ومساندة من منظمة التحرير الفلسطينية (٨٨) .

ثانيا : الحركة وموقفها من العمل الفدائي .

كانت استراتيجية التحرير التي اخذت بها حركة القوميين العرب، وبقية القوى القومية العربية المتأثرة بالفكر الناصري والفكر القومي المثالي تنطلق من ان مشكل فلسطين لا يحل إلا ضمن استراتيجية عمل عربي رسمي ، تحشد بموجبها الجيوش والعتاد لتقضي على «اسرائيل» في حرب نظامية. هذا الفكر دفع بالقضية الفلسطينية ، لان تصبح مجرد قضية من جملة القضايا المطروحة على الحركة الثورية العربية بشقيها الرسمي والشعبي. وتراجعت اولويتها ، لتصبح تابعة ومرتبطة بعدد من المهام النضالية ذات الطابع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، حيث اعتبر ان «تحرير فلسطين مرتبط **بالمسافة التي لا بد أن يقطعها العرب نحو مزيد من التقدم الاجتماعي والوحدة القومية ... وأن اكتساب القوة الذاتية العربية بالوحدة وبالاشتراكية ، هو القانون الذي لا بد ان يشكل جوهر الاعداد الحقيقي لتحرير فلسطين ..»** (٨٩) .

في مواجهة هذه الاستراتيجية طرحت حركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح» منطلقاتها الاستراتيجية التي تعتمد على الكفاح المسلح، والتي ادخلت الوطن العربي كله في مرحلة جديدة ، امتازت بالصراع المستمر مع العدو الصهيوني والامبريالية العالمية وعملائها . وقدّمت استراتيجية التحرير على استراتيجية الوحدة.

لم تنظر الحركة بارتياح الى انطلاق العمل الفدائي الفلسطيني المعتمد على حرب التحرير الشعبية والكفاح المسلح ، ذلك ان استراتيجية الحركة لم تكن ترى حلاً للقضية الفلسطينية خارج اطار الجهد العربي الرسمي المشترك ، باعتبار ان اداة الحسم الرئيسية في معركة تحرير فلسطين هي الجيوش العربية العاملة في ظل دولة الوحدة العربية ، او على أقل تقدير في ظل تنسيق رفيع المستوى .

كما شككت الحركة بمردودية العمل الفدائي وجدواه ، واعتبرت ان العمل الفدائي أطلق في توقيت غير مناسب ، وانه قد يجر الدول العربية لخوض حرب مع «إسرائيل» هي غير مستعدة لها ، وإن العمل الفدائي الذي تقوم به «العاصفة»(٩٠) يتعارض مع إستراتيجية منظمة التحرير الفلسطينية والدول العربية . ودعت لضرورة تنسيق مسبق تقوم به العاصفة مع الخطة العربية الشاملة ، ومع استراتيجية الدول العربية تجاه قضية فلسطين(٩١) .

ولم تستطع الحركة أن تستوعب اسلوب الكفاح المسلح كوسيلة لتحرير فلسطين ،ونظرت للعمل الفدائي كعمل متمم لأعمال الجيوش العربية ،وعاملاً مساعداً لها ، لأن العمل الفدائي في فلسطين من حيث نتائجه الممكنة أقرب إلى أعمال الكوماندوس الملحقة بالجيوش النظامية منه للثورات الشعبية المسلحة(٩٢). ولذا فقد رأت ان أي عمل فدائي في فلسطين يجب ان يكون قائماً على التنسيق مع الدول العربية الثورية ذات الاهتمام المباشر بالصدام مع العدو الصهيوني ، واعتبرت الحركة أن العمل الفدائي الفلسطيني ، إن كان غير منسق أو مرتبط بالعمل الرسمي العربي، فانه لن يتعدى أن يكون مجرد عمل عاطفي يشك في جدواه ، لان تحرير فلسطين إما أن يكون عربياً أو لا يكون . والعمل الفدائي العربي لن يكتسب جدواه ، إلا إذا حدد مواقفه بوضوح ضمن استراتيجية الموقف العربي كله (٩٣) .

ونددت الحركة بما سمته بالعمل العشوائي والارتجالي لمنظمات الكفاح المسلح . ودعت لضرورة وضع خطة واضحة المعالم مرتبطة باستراتيجية عربية، حيث اعتبرت بأن وجود تصور واضح لمعاني الدور الفدائي الفلسطيني أمر لا يجوز تجاهله أو إغفاله ، ولا قيمة مطلقاً لأي لقاء مفتعل بين القوى الفلسطينية، إذا هي لم تتمكن من التوصل الى قناعة مشتركة حول استراتيجية العمل الفدائي الفلسطيني(٩٤) .

ومع ذلك لم تثبت معارضة حركة القوميين العرب للعمل الفدائي طويلاً. فقد تبين للحركة أن البديل الاستراتيجي الذي تبنته وراهنت عليه، ألا وهو استراتيجية الجيوش النظامية العربية، يكتنف تحقيقه كثير من الصعاب والعقبات، وأن الضرورة تفرض وجود عوامل وحوافز مشجعة، تدفع الدول العربية لاتخاذ مواقف أكثر إيجابية وتجذراً تجاه القضية الفلسطينية. كما أن توالي فشل مؤتمرات القمة العربية في الوصول إلى استراتيجية موحدة لمواجهة التحديات الصهيونية، وتكرار الحديث عن احتمال امتلاك «اسرائيل» لقنبلة ذرية، وأخيرا فإن العمل الفدائي واستراتيجية الكفاح المسلح لنفسها في الساحة الفلسطينية، كل ذلك دفع الحركة للتبني الحذر للعمل الفدائي: «فاذا لم يستطع خطر الذرة – القنبلة الذرية الاسرائيلية – أن يوجد عملاً موحداً من أجل فلسطين، فان أي خطر آخر لن يستطع إيجاد هذا العمل، وأن على الشعب الفلسطيني ان يبادر بنفسه الى خلق حالة متوترة تحيي قضيته في كل المجالات(٩٥).

خطت الحركة خطوة أخرى في اتجاه ممارسة العمل الفدائي، كمحاولة لاستباق الزمن، ولمنع التدهور والتبعثر الذي أخذت تعرفه على المستوى التنظيمي والسياسي، ولاستقطاب منظمات الكفاح المسلح لإعداد متزايدة من الجماهير الفلسطينية. ففي اواخر ١٩٦٦ أعلنت الحركة عن أولى عملياتها العسكرية داخل فلسطين المحتلة، وذلك عبر منظمة «أبطال العودة»(٩٦) الفدائية. وترافق هذا بدعوة الحركة لمنظمة التحرير الفلسطينية لتبني العمل الفدائي وتدعيمه: «فعلى منظمة التحرير أن تتبنى العمل الفدائي، وتضعه في المرتبة الأولى، وذلك لأن منظمة التحرير الفلسطينية هي الجهة الفلسطينية الوحيدة التي تبدو منذ اللحظة الأولى مالكة لامكانات الإعداد لمثل هذا العمل والاستمرار فيه (٩٧).

وقبيل حرب يونيو ١٩٦٧ أعلنت الحركة عن قيام تنظيم جديد تابع لها «منظمة شباب الثأر». هذه المنظمة مثل سابقتها «منظمة أبطال العودة»، بالرغم من كونها منظمة فدائية شعبية، فإنها كانت تعتبر الجيوش العربية النظامية هي الأداة الوحيدة القادرة على تحرير فلسطين. ففي بيان للمنظمة في ١/٦/١٩٦٧ أكدت منظمة شباب الثأر على تمسكها باستراتيجية العمل الرسمي العربي، وبأهمية الدور الذي تقوم به الجيوش العربية، باعتبار «أن العمل الفدائي هو عمل مكمل ومساعد لها، ويجب أن يكون منسقاً مع العمل الثوري العربي، ومهماته جزء من المخطط الشامل لمعركة التحرير، وأن الدور الفلسطيني يمهد ويساعد الدور العربي الكامل لاسترداد فلسطين».(٩٨).

المبحث الرابع: حرب يونيو ١٩٦٧ وبداية انهيار الحركة.

تعتبر حركة القوميين العرب من اكثر الأحزاب السياسية العربية تأثراً بهزيمة ١٩٦٧، لكون الهزيمة لم يقتصر تأثيرها على مواقف الحركة السياسية من القضية الفلسطينية، وتصوراتها لسبل التحرير والعودة، ولكنها تعدت ذلك الى كل ما مثلته الحركة من فكر وايديولوجية وممارسة، طوال خمسة عشر عاماً من نشوئها.

فقد وضعت حرب ١٩٦٧ «الحركة» أمام تحد كبير، حتم عليها ان تعيد النظر في كل ما تمثله فكرياً، وتنظيمياً، وطبقياً، لتنتهج نهجاً جديداً، اعتبر اكثرجذرية في معالجته لمتطلبات مرحلة النضال الوطني العربي عموماً، والقضية الفلسطينية خصوصاً.

المطلب الأول : التحول الأيديولوجي في الحركة .

يمكن القول أن حرب ١٩٦٧، كانت حافزاً وعاملاً دفع لتفجير ما يعتمل داخل «الحركة» من صراعات فكرية، وتنظيمية، وايديولوجية، بحيث رجحت هذه الحرب آراء الفريق اليساري، المنادي: بانتهاج وسائل ثورية أكثر راديكالية، على الفريق الأكثر اعتدالاً، ووضعت بالتالي حركة القو ميين العرب بكل ما مثلته فكرياً، وسياسياً وطبقياً، أمام اختيار صعب، وأمام مفترق الطرق، حيث طرحت المعضلة التكوينية للحركة، والجدوى من استمرارية «الحركة» في الوجود.

فبعد تجميد «الحركة» لعلاقتها مع الحركة الناصرية، بعد فترة من التحالف الاستراتيجي المتين، كادت أن تذوب فيه الحركة في تيار الناصرية، لم تجد «الحركة» في هذا التجميد مع الحركة الناصرية، وما تمثله من فكر، وسياسة، وممارسات، حلاً للمعضلات التكوينية التي تعيشها كتنظيم سياسي، أصبح يعيش حالة من الارتباك النظري والسياسي والتنظيمي، تعكس أزمة البورجوازية الصغيرة التي تقودها وتقود حركة التحرير الوطني عموماً (٩٩). وفي الوقت نفسه كانت القيادة السياسية للحركة تخشى انهيار تنظيمها الذي بنته أثناء تحالفها مع الناصرية. وبفضل الفكر الناصري عرفت الحركة توسعاً تنظيمياً وعملية انضمام واسعة في صفوفها. تولدت التناقضات ما بين جزء من القيادة السياسية المؤمنة بالنظرية الماركسية، وبفشل ايديولوجية الطبقة البرجوازية الصغيرة في قيادة حركة التحرر الوطني، وبين قطاعات واسعة من القاعدة الحزبية الصغيرة في قيادة حركة التحرر الوطني، مدعومة بالقطاعات الأمينة لعبد الناصر وللحركة الناصرية، والمؤمنة بمقدرة حركة التحرر الوطني على الاستمرار في النضال، تحت قيادة برنامجها القومي الاشتراكي. وكان لا بد للصراعات الفكرية في صفوف «الحركة»، أن تخرج عن نطاق الخلافات الفوقية داخل اطار القيادة المركزية للحركة،

لتنزل إلى القطاعات الحزبية الواسعة ، وبالتالي تخلق ازمة تكوينية تنظيمية واسعة ، تهدد وجود الحركة من الأساس .

فتحتَ وطأة الاحساس بالخطر المهدد «للحركة» ومصيرها ، لم تجد القيادة المركزية مناصاً من الدعوة إلى مؤتمر قومي ، اتفق على عقده بعد أن يتم التحضير له . ولهذا تم تشكيل لجنة تحضيرية ، في أوائل عام ١٩٦٧ ، لتحضر لاعمال المؤتمر . وضمت هذه اللجنة عناصر مثلت التيارات المتصارعة في صفوف الحركة (١٠٠) ، وعقدت عدة اجتماعات ، خلال النصف الأول من عام ١٩٦٧ ، وناقشت فيها مختلف القضايا التي تجابهها «الحركة» تنظيماً ، وايديولوجياً ، وسياسياً وفاجأت هزيمة ١٩٦٧ ، أطراف «الحركة » قبل أن تصل ، إلى تحليل مشترك لما يعترضها ويعترض حركة التحرر الوطني العربية من مأزق . وهكذا «جابهت الحركة الهزيمة بارتباك لم يكن يختلف عن ارتباك أي مواطن عربي فاجأته حرب الأيام الستة» (١٠١) .

وبفعل شدة وقع الصدمة التي ولدتها هزيمة ١٩٦٧ ، فإن ردود فعل «الحركة» المباشرة ، على الهزيمة كانت مضطربة ، وعبرت عن التخبط الفكري الذي تعاني منه ، وبداية التحول في مواقفها وايديولوجيتها . فقد أصدرت «الحركة» تقريراً حول موضوعات حرب حزيران ١٩٦٧ ، تناولت فيه أثر الهزيمة على الواقع العربي وأسبابها . ووسائل مواجهتها . وكانت نقطة المنطلق ، في هذا التحليل ، هو اعتبار الحركة بأن الدولة الصهيونية تشكل في الأساس فرعاً من الامتداد لمعسكر الرأسمالية العالمية والاستعمار في الوطن العربي : «لأن الدولة الصهيونية هي في حقيقة تركيبها جزء من حركة الامبريالية العالمية ، والأمريكية بشكل خاص . وهي بحكم مصالحها الذاتية ، في التوسع والأمتداد مستعدة دائماً لأن تكون يد الاستعمار في هذه المنطقة من العالم (١٠٢) . وعلى هذا ، فإن حرب العرب مع «اسرائيل» ما هي في حقيقتها إلا حرب مع الولايات المتحدة الأمريكية ، ذات الأطماع التوسعية في المنطقة العربية . وإن العدوان الاسرائيلي في ١٩٦٧ ، ليس في حقيقته إلا مظهراً من مظاهر هذه الحرب ، ونتيجة من نتائج الاستراتيجية الأمريكية التي وضعتها للتصادم مع حركة الثورة العربية» (١٠٣) .

كما أخذت «الحركة» في تحليلها هذا على حركة التحرر العربية عدم واقعيتها وجديتها . فبالرغم من ربط حركة التحرر العربي لفظاً بين الدولة الصهيونية ، والاستعمار ، والأنظمة الغربية ، إلا إنها عمليا لم ترتبط باستراتيجية ثابتة ودائمة تنطلق من التحليل القائل ... «بأننا سوف نقترب على صعيد العمل اليومي الحقيقي الملموس من

اللحظة الحاسمة لتصفية الوجود الصهيوني ،بقدر ما تنجز على صعيد تصفية الوجود الأستعماري والرجعي في الوطن العربي »(١٠٤) .

وبعد ذلك تناولت «الحركة» في تقريرها الآنف الذكر ، والذي مثل بداية التحول الفكري ، والطبقي ، في توجهاتها - الأوضاع الطبقية لحركة التحرر الوطني العربية ، فاعتبرت ان قيادة حركة الثورة العربية كان مسيطراً عليها من قبل الطبقة البرجوازية الصغيرة . ومع الاشارة بالدور الثوري والتقدمي الذي نهضت به هذه الطبقة على رأس حركة التحرر العربية ، في مجابهتها للاستعمار «القديم» وخلق انظمة تقدمية في المنطقة . الاّ ان الحركة اعتبرتها بأنها لم تعد مؤهلة لممارسة دور القيادة على رأس حركة الثورة العربية ، في هذه المرحلة الجديدة من النضال ، والتصدي للاستعمار الجديد ، لأن متابعة هذه الحرب ضد الاستعمار الجديد - بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية - بكل أبعادها الداخلية والخارجية ، وبآفاقها الاقتصادية والسياسية الفكرية والعسكرية، «باتت تتطلب إنتقال مقاليد القيادة إلى الطبقات الاجتماعية الكادحة ، الأكثر جذرية في مقاومة الاستعمار وحلفائه ، بحكم مصالحها وطبيعة ايديولوجيتها »(١٠٥) .

هذه النقلة النوعية في فكر الحركة وايديولوجيتها، والتي تتضح من خلال قراءة البيان المشار إليه ، لم يكن المقصود منها في تلك الفترة المبكرة من مرحلة التحول ، الخروج باتجاهات يسارية جذرية . فالحركة اعتبرت أن المرحلة الراهنة التي يجتازها الوطن العربي، هي مرحلة تحرر وطني ، تمهد للتحول الاشتراكي وللوحدة ، وتتصل بهما. وهذا لا يعني أن الحركة في موقفها هذا تسجل تراجعا استراتيجياً ، ولكنها تعيد: «النضال الاشتراكي الوحدوي إلى أرضيته التاريخية الحقيقية ، أرض الثورة الوطنية ، ضد الاستعمار الجديد ، فلا يبقى مجرد محاولات هروب إلى الأمام ، ولا يتحول إلى نضال عاطفي ، مقطوع الجذور يرتطم بالتجارب دون ان يتمكن من استخراج معانيها»(١٠٦) .

لقد جسد بيان «الحركة » هذا ، في ردها على الهزيمة ، حالة الارتباك والتردد الذي تتخبط به القيادة السياسية للحركة ، فلا هي استطاعت حسم الموقف لمصلحة أطروحات اليسار ، ولا هي بقيت متمسكة بمنطلقاتها الأولى وايديولوجيتها السابقة. ولم تستطع القيادة أن تجد مخرجاً لهذا المأزق التكويني ، الذي بدأت تعيشه الحركة يوماً بيوم ، وساعة بساعة، سواءً على المستوى النظري المحض، أو على مستوى الممارسة اليومية والاحتكاك المباشر مع قطاعات « الحركة» الحزبية ، فيسار الحركة أخذ يشعر بأن «الحركة» بما مثلته على امتداد سنوات نشأتها الماضية ، سياسياً،وايديولوجياً وطبقياً ، وتنظيمياً ، هي أضيق من أن تستوعب تطلعاته التقدمية اليسارية ، الهادفة لانتهاج

إستراتيجية يسارية جذرية تتحرر بها من أفكارها وممارستها السابقة ، وتتقدم على طريق نهج ثوري بأفق طبقي وأيديولوجي، متسلح بالنظرية الماركسية اللينينية ، بينما نجد أن القيادة التقليدية ، المؤسسة للحركة، اخذت تتخوف من تزايد نشاط العناصر اليسارية الشابة ، والتي ترفض التقيد بسياسات القيادة المركزية «للحركة». وبالتالي فقد كانت القيادة المؤسسة للحركة تخشى أن تسيطر العناصر الشيوعية على المراكز القيادية للحركة، ومن ثم تسيطر على مركز اتخاذ القرار .

المطلب الثاني : انهيار الحركة.

وكان لا بد لهذه الصراعات الفكرية ان تفرز ، خلال الفترة التي أعقبت هزيمة ١٩٦٧، وعلى امتداد سنة ١٩٦٨ ، النتائج التنظيمية والأيديولوجية التي تمثل أطراف الصراع ، والتي ظهرت بوضوح في سلسلة المؤتمرات والاجتماعات القطرية ، التي انتهت إلى إنهاء الوجود الفعلي للحركة ، وتحولها إلى منظمات يسارية . وهكذا عرفت مختلف فروع «الحركة» التنظيمية ، في أماكن تواجدها ، وعلى امتداد عام ١٩٦٨ التي حرصت اللجنة التنفيذية خلال اجتماعاتها على المحافظة عليها ، طوال سنة ١٩٦٧ وما قبلها ، ماهي إلا سراب . واعتبر يسار الحركة ، بأن الموافقة اللفظية التي أعطيت له على برامجه وأطروحاته اليسارية ، إنما كانت تخفي وراءها رفضاً حقيقياً لتوجهات اليسار وموضوعاته .

فعندما بدأت هذه الموضوعات ، والتي هي محل الخلاف ، تنتقل إلى أرض الممارسة العملية في ساحات العمل العربية ، وبالتالي أصبحت تلامس المعضلات التكوينية الجوهرية « للحركة» ، وقفت عناصر القيادة اليمينية التقليدية المؤسسة ، والجيوب التنظيمية التابعة لها تعارضها علناً لتتكفىء عبر هذه المعارضة على مواقع نشأتها الطبقية الأيديولوجية الأولى ، ذات الأفق البورجوازي اليميني (١٠٧). ففي العراق عقد فرع الحركة هناك (الحركة الاشتراكية العربية) مؤتمراً قطرياً في منتصف ١٩٦٨ ، نوقشت فيه ورقة عمل ، قدمتها العناصر اليسارية ، تضمنت تحليلا لنكسة ١٩٦٧ وأسبابها ونتائجها ، وأعطت تحليلاً طبقياً ، سياسياً ، للوضع السياسي في العراق . وفي هذا الإطار طرح يسار الحركة برنامج تطور ديمقراطي يعتمد الصراع الطبقي ، ويدفع باتجاه بلورة طليعة سياسية جديدة تلتزم ايديولوجية الطبقة العاملة وتلتحم معها .

ووقفت غالبية اعضاء المؤتمر مؤيدة لهذا التحليل الطبقي ، بينما تمثلت المعارضة في اقلية مثلت الاتجاه اليميني في الحركة (١٠٨). وحيال رفض هذه العناصر المعارضة الأخذ

بالبرنامج اليساري ، الذي طرحه يسار الحركة ، ورفض الاعتراف بنتائج المؤتمر ، فقد اتخذت اللجنة المركزية في العراق قراراً بفصل الأقلية «اليمينية» مع الجيوب التنظيمية والعناصر المؤيدة لها(١٠٩) .واستمرت العناصر «اليسارية» تعمل تحت اسم (الحركة الاشتراكية العربية).

وفي سوريا :

عقدت اللجنة المركزية للحركة مؤتمرها القطري في النصف الثاني من عام ١٩٦٨، ناقشت فيه الأوضاع المتعثرة «للحركة»، وعدم مقدرتها على حسم الصراع الدائر في صفوفها. وقد استطاع يسار الحركة أن يفرض مواقفه السياسية ، نظراً لانسحاب العناصر المؤسسة والمعارضة من صفوف الحركة في وقت مبكر من عام ١٩٦٨ ، لتتجمع حول فرع الحركة الفلسطيني ، مما سهل على المؤتمر أن يتبنى برنامجاً يسارياً ، داخلياً ، يستهدف تصفية بنية «الحركة» التقليدية . وفي أوائل ١٩٦٩ ، عقد مؤتمر آخر للجنة المركزية التي يسيطر عليها اليسار ، وأثناء انعقاده حللت اللجنة المركزية أوضاع حركة القوميين العرب . وقد خلص مؤتمر اللجنة إلى نتيجة مؤداها أن: «طبيعة التكوين الفكري والطبقي لحركة التحرر الوطني هي سبب أزمتها ، وأن الخروج من هذه الأزمة يتطلب تغييراً لهذا التكوين »(١١٠) .

واعتبرت ان هذا التغيير لن يتم إلا في ظل تجذير الحركة الوطنية في الوطن العربي لمصلحة العمال والفلاحين ، والاهتداء بايديولوجية ثورية هي الماركسية (١١١) . وحيث أن حركة القوميين العرب تمثل جزءاً من حركة التحرر الوطني العربية ، فإن اللجنة أرتأت أنه لا يجدي مجرد فصل العناصر اليمينية في الحركة، ولكن المطلوب هو إنهاء الوجود الفعلي للحركة طبقياً ، وأيديولوجياً ، وتنظيمياً ، لمصلحة بناء حزب ماركسي لينيني .

وفي لبنان :

عقدت الحركة مؤتمراً قطرياً في أوائل ١٩٦٨ ، طرحت فيه العناصر القيادية اليسارية، والتي تشكل الأغلبية في قيادة فرع «الحركة» هناك ، تحليلاً لمجمل الأوضاع السياسية ، والأيديولوجية ، والتنظيمية ، التي تمر بها الحركة ، كما تناولت بالتحليل الوضع السياسي في لبنان ، ووضعت برنامج تطور ديمقراطي، داخلي «للحركة» ، يهدف إلى محاصرة الأفكار البورجوازية الصغيرة ، المعارضة للتحولات الثورية الجذرية ، ودفع عملية الفرز الطبقي إلى الأمام ، لإتاحة الفرصة أمام جماهير العمال والفلاحين ، ليأخذوا على عاتقهم مهمة قيادة العملية الثورية في لبنان ، ولم تستطع الجيوب التنظيمية

المعارضة لعملية التحول اليساري ، والتي احتواها المؤتمر .أن تجاهر بمواقفها اليمينية المعارضة ، نظراً لقوة التيار اليساري، وانحياز غالبية أعضاء المؤتمر لتأييد تحليلاته ، مما اضطرت معه هذه العناصر المعارضة لمغادرة الحركة نهائيا (١١٢) .

وفي الخليج العربي :

فقد عرفت فروع الحركة هناك عملية تحول تنظيمي ، وايديولوجي ،مشابه لما يحدث في الفروع الأخرى . ففرع «الحركة» في اليمن كان قد قطع شوطاً مبكراً على طريق فصم كل ما يربطه من علاقات مع حركة القوميين العرب ، وذلك بتحالفه مع عناصر تقدمية ثورية اخرى ، وتأسيسه (الحزب الديمقراطي الثوري اليمني).

أما فرع الحركة في الكويت ، ونظراً لوقوعه تحت هيمنة عناصر لا تلتزم صراحة بالماركسية ، وضعف تواجد العناصر اليسارية فيه ، فقد عرفت عملية التحول لمصلحة اطروحات اليسار كثيراً من العقبات ، حسمت في الأخير لمصلحة اليسار (١١٣) .

المؤتمرات القطرية التي عرفتها مختلف الساحات ، والتي كرست هيمنة العناصر اليسارية على المراكز القيادية في «الحركة» ، هذه مهدت لانعقاد اللجنة التنفيذية القومية «للحركة»، والتي أصبحت تمثل يسار «الحركة» ، وذلك في يناير ١٩٦٩ . وقد وقفت اللجنة التنفيذية مطولاً ، أمام دراسة تحليلية نقدية «للحركة» ، منذ نشأتها وحتى الأوضاع الراهنة، وخرجت انطلاقاً من هذه المناقشات بالنتائج التالية :

أولاً : إن ما تعرفه «حركة القوميين العرب» على الصعيد القومي ليس مجرد عملية انشقاق لبعض العناصر ، بل معناه أن «الحركة» ، وبكل ما مثلته ايديولوجياً، وتنظيمياً ، وطبقياً ، تعيش مرحلة تصفية نهائية .

ثانياً : ضرورة انفصال اليسار عن الحركة ، بكل ما تمثله هذه الأخيرة من أفكار وممارسات بورجوازية .

ثالثاً : عدم وجود أي مبرر لبقاء عناصر اليسار في العمل تحت اسم «حركة القوميين العرب ».

رابعاً : على فصائل اليسار المنفصلة عن «الحركة» ، ومن أجل أن تكسب صفة الطليعة الماركسية اللينينية ، أن تتقدم عمليا على طريق ممارسات سياسية طبقية جديدة ، في اقطارها ، واستخراج اساليب النضال الديمقراطي ، المتوافقة مع الظروف الذاتية والموضوعية لكل قطر .

خامساً : إن العلاقات التي تنشأ لاحقاً بين فصائل اليسار في أماكن وجودها لن تكون علاقات بين فروع تنظيم واحد تخضع لسلطة مركزية واحدة، بل ستكون علاقات بين منظمات مستقلة . (١١٤)

وهكذا وضع بيان اللجنة التنفيذية «للحركة» حداً لوجود «حركة القوميين العرب» نظرياً وعملياً .

الخاتمة

أول ما يتبادر إلى ذهن الباحث والمعني بالفكر القومي العربي، وهو بصدد الكتابة عن أو التفكير في الحركة القومية العربية، وما آلت إليه من تفكك واندحار، هو التساؤل أين يكمن الخلل ؟. هل هو خلل في الفكرة القومية بحد ذاتها؟. أم الخلل في البناءات الفكرية والنظرية التي تعاملت مع الفكرة القومية ؟. أم الخلل في الأشخاص والأحزاب التي أخذت على عاتقها مسؤولية تحويل القومية العربية من فكر الى واقع وحدوي عربي ؟.

إن شرعية السؤال تنبع من قدسية وعدالة الفكرة القومية العربية التي تتأكد ضرورتها مع كل يوم اسود قاتم تمر به الأمة العربية هذه الأيام. وشرعية السؤال ومبرراته لاتحيلنا إلى الماضي كمصدر للاجابة، بل تنبع من الحاضر أيضا، لأن القضية محل البحث والنقاش ما زالت مطروحة اليوم وبحدة.

يقيناً، أن الخلل لا يكمن في فكرة القومية العربية التي تنبع من كون العرب امة واحدة، ومن حقهم ان يقيموا دولتهم الواحدة، أسوة بكل الأمم المتحضرة اليوم. فالعرب لا يقلون عن بقية الشعوب التي أسست كياناتها القومية، سواء من حيث الامتداد الزمني للأمة العربية، او من حيث توفر عناصر الأمة بمفهومها العلمي الحديث، ومن حيث الضرورة المصلحية الأمنية والاقتصادية للوحدة العربية، بل يمكن القول: أن كل يوم يمر، وكل تحول يشهده العالم، يؤكد على ضرورة الوحدة العربية .

ومما يؤكد هذه الحاجة للوحدة، ولتأكيد الوجود القومي العربي، هذا الانبثاق لأمم كان يعتقد أنها اندثرت وذابت في كيانات مغايرة، حتى يحق القول إن من أهم سمات ما يسمى بالنظام الدولي الجديد، أنه أحيا الفكر القومي مجدداً، سواء لدى شعوب الاتحاد السوفيتي سابقاً، أو لدى الشعوب في العالم الثالث، والمفارقة هنا، أن هذا التوجّه نحو الانبثاق القومي، يقابل عربيا بتوجه نحو مرحلة ما قبل القومية، أي توجه نحو الطائفية والقبلية .

إذن فإن تطور الأحداث لا يعمل لمصلحة الفكر المعادي للقومية العربية والوحدة العربية، بل أن هذه التطورات تؤكد مأزق الأنظمة القطرية العربية، ومأزق البدائل التي حاولت أن تطرح نفسها بديلاً عن الفكر القومي العربي ومتطلباته النضالية. وهذا ما

نلمسه، سواءً على مستوى الصراع مع العدو الصهيوني ومأزق التسويات الاقليمية المنفردة، بل ونتائجها المدمرة، أو على مستوى المواجهة مع العالم الخارجي، سواءً كانت مواجهات اقتصادية أم حضارية أم عسكرية، أم على مستوى الاوضاع الاجتماعية والثقافية داخل الاقطار العربية ذاتها، حيث يلاحظ حالة من الضياع وانعدام الهوية، وما يترتب على ذلك من تخبط في تحديد معسكر الاصدقاء والحلفاء ومعسكر الأعداء.

فإن لم يكن الخلل كامناً في الفكرة القومية العربية فإنه بلا شك كامن في الاشخاص والاحزاب المتعاملة مع هذا الفكر. وبالتالي فإن الفشل والسقوط لا ينسحبان على القومية العربية بحد ذاتها، كما يروج اعداؤها ، بل هو فشل قيادات ونخب وأحزاب، وهو الأمر الذي يعطي الشرعية لقوى جديدة بأن تحيي النضال القومي، ما دامت الفكرة صحيحة، ببرامج جديدة، وسلوكيات جديدة وعقليات جديدة، تتجاوز من خلالها كل سلبيات المرحلة السابقة.

الهوامش

(*) لا نتفق مع الباحث د. ابراهيم ابراش في تسمية القطري بالوطني، لان الوطني يتعلق بالوطن، والوطن هو الارض التي عاشت عليها الامة، وتكونت الوطنية خلال العلاقة بين الارض والامة، والقطري الذي يكرس القطر حدود تجزئة، يتناقض مع الوطني، ولقد جرى تداول مصطلحي الوطني والقومي على انهما مختلفان، وهما في الحقيقة مترادفان، ولا يجوز ان نسمح للحالة العربية الخاصة الناتجة عن وجود تجزئة سياسية، ان تربط الوطنية بالقطرية والدفاع عنها. «المحرر»

١- باسل الكبيسي : حركة القوميين العرب ، دار العودة ، بيروت ، ط ٢ (ص٧٧).

٢- شاب سوري ولد في ١٩٢٧ ، وكان طالبا بكلية العلوم السياسية .

٣- KAZZIHA WALID - REVOLUTIONARY TRANSFORMATION IN THE ARAB WORLD

(HABASH AND HIS COMARDES FROM NATIOALISM TO MARXISM).

CHARLES KNIGHT ; COMPANY LIMITED - LONDON ; TCN BRIDGE ; FIRST PUBLISHED ;1975 . P : 19 .

٤- الكبيسي : مرجع سابق : ص ١٠٠ .

٥- يعتبر كتاب الحكم دروزة (الشيوعية المحلية ومعركة العرب القومية) أهم مرجع في ما يتعلق بهذا الموضوع .

٦- هاني الهندي، محسن ابراهيم: اسرائيل ، فكرة ، حركة ، دولة ، (بيروت دار الفجر الجديدة . ١٩٥٨ طبعة أولى، ص ٨٤).

٧- الكبيسي : مرجع سابق ص ٧٩.

٨- يرجع في هذا لموضوع (لماذا منظمة الاشتراكيين اللبنانيين) ص ١٦.

٩- وكان حسين توفيق مطلوبا للمثول أمام العدالة في مصر بتهمة اغتيال عثمان أمين أحد الوزراء المصريين آنذاك .

١٠- كل ما يورد من معلومات حول (كتائب الفداء العربي) وردت في كتاب الكبيسي المشار اليه ، وذلك ضمن مقابلات كان المؤلف قد اجراها مع عدد من مؤسسي الحركة ، الكبيسي ، ص ٨٩.

١١- الكبيسي ، مرجع سابق ، ص ٩٥.

١٢- محسن ابراهيم : لماذا منظمة الاشتراكيين اللبنانيين - مرجع سابق - ص ١٩ .

١٣- يعتبر كتاب الحكم دروزة : الشيوعية المحلية ومعركة العرب القومية المشار اليه سابقاً مرجعاً وافياً لمعرفة مواقف الحركة الشيوعية عموماً والشيوعية المحلية خصوصاً .

١٤- ناجي علوش : الثورة والجماهير ، ص ١٩٣.

١٥- وهي نشرة اسبوعية كانت تصدر في بيروت بهذا الاسم عن هيئة مقاومة الصلح مع اسرائيل ، وكانت تولي اهمية كبيرة لشعارات الحركة الثلاثة وهي : وحدة ، تحرر - ثأر ، توقفت عن الصدور في أواخر الخمسينات .

١٦- نشرة الثأر - ١٩٥٦/٦/٧.

١٧- الثار - نفس المصدر .

١٨- الثار- نفس المصدر - عدد ٣/ ١٩٥٣/٢١.

١٩- فلسطيني من سكان فلسطين انهى دراسة الطب في الجامعة الأمريكية ببيروت في العام الدراسي ١٩٥١-١٩٥٢ وكانت عائلته قد نزحت من فلسطين الى عمان خلال النكبة .

٢٠- KAZZIHA : O,P, CIT , P 25 .

٢١- KAZZIHA : O,P CIT ,P: 27 .

٢٢- الحكم دروزه حامد جبوري - مرجع سابق ص ١٦٧ .

٢٣- الرأي - ١٩٥٧/٦/١٧ .

٢٤- الرأي ١٩٥٧/٦/١٦.

٢٥- حكم دروزه وحامد جبوري - مرجع سابق ص ٦٦ .

٢٦- الرأي - ١٩٥٧/٦/٣.

٢٧- الرأي - ١٩٥٤/٣/٢٥ .

٢٨- الثأر ١٩٥٤/٢/٢٥.

٢٩- الرأي - ١٩٥٧/٢/١٨ .

٣٠- KAZZIHA , O.P. CIT . P: 57 .

٣١- KAZZIHA , O.P. CIT . P : 63 .

٣٢- KAZZIHA , P : 59 .

٣٣- مجلة الحرية - ١٩٦١/٢/٢٠.

٣٤- حكم دروزه وحامد جبوري - مرجع سابق - ص ١٨٠.

٣٥- نفس المصدر - ص ١٢٤ .

٣٦- KAZZIHA : P : 6 .

٣٧- الثأر - ١٩٥٨/٢/٢٠ .

٣٨- الثأر - ١٩٥٨/٣/٦.

٣٩- الحكم دروزة : (الشيوعية المحلية ومعركة العرب القومية)، مرجع سابق ص ٣١١ .

٤٠- الحكم دروزة : الشيوعية المحلية ومعركة العرب القومية - مرجع سابق - ص ١٢ .

٤١- نفس المصدر : ص ١٣ .

٤٢- نفس المصدر : ص ١٦ .

٤٣- نفس المصدر : ص ٣١٩ .

٤٤- KAZZIHA , P : 53 .

٤٥- الثأر - ١٩٥٦/٦/٧.

٤٦- الثأر - ١٩٥٦/٦/١٤.

٤٧- الرأي ١٩٥٥/٥/١٥.

٤٨- الثأر - ١٩٥٢/١١/٢٠.

٤٩- KAZZIHA , P : 54 .

٥٠- هاني الهندي - محسن ابراهيم ، اسرائيل ، فكرة ، حركة، دولة - مرجع سابق - ص ٣١٧ .

٥١- الحكم دروزه - الشيوعية المحلية ومعركة العرب القومية - مرجع سابق ص ٩٤ .

٥٢- الثأر - ١٩٥٢/١١/٢٠.

٥٣- هاني الهندي - محسن ابراهيم - اسرائيل ، فكرة، حركة ، دولة --- مرجع سابق ص ١٠٦.

٥٤- الثأر - ١٩٥٤/٧/٢٩.

٥٥- نفس المصدر .

٥٦- الثأر - ١٩٥٨/٤/٢٤.

٥٧- المرحلة العربية الحاضرة وأهدافها (- منشورات الحركة - سنة ١٩٥٧ .

٥٨- هاني الهندي - محسن ابراهيم - اسرائيل ، فكرة ، حركة ، دولة ، مرجع سابق ص ٩٦ .

٥٩- KAZZIHA , P : 59 .

٦٠- باسل الكبيسي - مرجع سابق - ص ١٢٤ .

٦١- جريدة الرأي : ١٩٥٤/٨/٢.

٦٢- الرأي هي الجريدة الرسمية الناطقة باسم الحركة في منتصف الخمسينات وصدرت في عمان ثم دمشق ، وكان يشرف على اصدارها جورج حبش .

٦٣- الرأي - ١٩٥٥/٥/٢٢.

٦٤- سامي ذبيان - الحركة الوطنية اللبنانية - (دار المسيرة - بيروت - طبعة اولى نوفمبر ١٩٧٧) ص ٢١٢ .

٦٥- الكبيسي - مرجع سابق ٠- ص ١٢٨.

٦٦- وكانت صحيفة «الرأي» التي تصدرها «الحركة» في عمان ، ويترأسها جورج حبش ، منبرا تشن من خلاله الانتقادات للحكومة الأردنية ، وقد اكتسبت الصحيفة جمهورا كبيرا من القراء، مما سبب ازعاجا للحكومة ، ودفعها لايقافها في اب اغسطس ١٩٥٥ . الا ان الجريدة سرعان ما استأنفت صدورها في دمشق بعد ثلاثة شهور ، والى جانب صحيفة «الرأي» كان هناك اذاعة «صوت العرب» البرنامج الاذاعي الموجه من القاهرة ، يقدم دعما سياسيا اعلاميا للحركة في نضالها السياسي ضد حكومة «هزاع المجالي» الأردنية ، ومحاولتها دفع الأردن للارتباط بالاحلاف العسكرية.

٦٧- وكان قد سبق حل الأحزاب السياسية في مصر - الأقليم الجنوبي - في ١٦ يناير ١٩٥٣، ص:٢ .

٦٨- حركة القوميين العرب -- التقرير الشهري - يونيو ١٩٥٨ ص ٢ .

٦٩- الحرية : ١٩٦٤/٨/١٧.

٧٠- الكبيسي : مرجع سابق ، ص ١٥١ .

٧١- الكبيسي : مرجع سابق، ص ١٥٥ .

٧٢- الكبيسي: مرجع سابق ، ص ١٥٦ .

٧٣- محسن ابراهيم : (لماذا منظمة الاشتراكية اللبنانية) مرجع سابق ، ص ٨١ .

٧٤- سامي ذبسيان - مرجع سابق - ص٢١٢.

٧٥- محسن ابراهيم - لماذا منظمة الاشتراكيين اللبنانيين - مرجع سابق - ص ٤٦ .

٧٦- الكبيسي - مرجع سابق - ص ١٤٦.

٧٧-محسن إبراهيم - لماذا منظمة الاشتراكيين اللبنانيين ؟ مرجع سابق ، ص ٤٩ .

٧٨-الحرية - ١٩٦٤/٩/٧ .

٧٩- محسن ابراهيم : لماذا منظمة الاشتراكيين اللبنانيين ؟، مرجع سابق ، ص ٥٢ .

٨٠- عيسى الشعيبي : الكيانية الفلسطينية ، طبعة اولى ، ١٩٧٩ ، بيروت ، إصدار مركز الابحاث الفلسطينية ، ص ٨٩ .

٨١- الحرية - ١٩٦١/٤/١٥ .

٨٢- الحرية - نفس المصدر .

٨٣- بيان حركة القوميين العرب حول المؤتمر الوطني الفلسطيني ومنظمة التحرير في ١٩٦٤/٦/١٤ ، مجلد الوثائق العربيه، سنة ١٩٦٤، ص٢٩٥.

٨٤- نفس المصدر .

٨٥- بسبب النزاع القائم بين الشقيري وحركة القوميين العرب . فقد استقالت عدة شخصيات قيادية في منظمة التحرير الفلسطينية ،ممن ينتمون للحركة او المتعاطفين معها ، منهم د. فايز الصايغ ، وسامي ابو شعبان ، ومنذر العنبتاوي وباسل عقل وعمر النابلسي .

٨٦- يوميات فلسطينية - اصدار مركز الدراسات الفلسطينية الفلسطيني - لعام ١٩٦٥ .

٨٧- تكونت لجنة العمل الفلسطيني الموحد من ممثلين عن التنظيمات الفلسطينية في حزب البعث العربي الاشتراكي وحركة القوميين العرب، بالإضافة الى ثلاث منظمات اخرى مؤتلفة في هيئة تدعى «هيئة التحرير» .

٨٨- حسين ابو النمل : قطاع غزة - بين ١٩٤٨-١٩٦٧ (تطورات اقتصادية وسياسية واجتماعية وعسكرية) طبعة اولى، ابريل ١٩٧٩ ، بيروت، إصدار مركز الابحاث الفلسطيني ص ٢٤٥ .

٨٩- الحرية : ١٩٦٥/٦/٢١ .

٩٠- الجناح العسكري لحركة فتح .

٩١- فلسطين : ملحق المحرر ، ١٩٦٥/٢/١١ ، العاصفة ومنطلق العمل الفدائي .

٩٢- فلسطين : ملحق المحرر ، عدد ٨ .

٩٣- الحرية :١٩٦٥/٦/٢١ .

٩٤- نفس المصدر - عدد ٥٨ .

٩٥- فلسطين : ملحق المحرر، عدد ٥٣ .

٩٦- منظمة أبطال العودة ظهرت في أواخر ١٩٦٦ ، وكانت رسمياً مرتبطة مع جيش التحرير الفلسطيني عبر علاقة خاصة مع اللواء وجيه المدني قائد جيش التحرير الفلسطيني ، إلا إنها عملياً كانت تنظيماً تابعاً وخاضعاً لحركة القوميين العرب .

٩٧- فلسطين ملحق المحرر ، عدد ٥٥ .

٩٨- فلسطين - ملحق المحرر - عدد يونيو ١٩٦٧ .

٩٩- بيان اللجنة التنفيذية للحركة ١٩٦٩ - مرجع سابق .

١٠٠-تكونت اللجنة من : محسن ابراهيم ، نايف حواتمة ، محمد كشلي، جورج حبش، هاني الهندي، وديع حداد .

١٠١- لماذا منظمة الاشتراكيين اللبنانيين - مرجع سابق ص ٨٠ .

١٠٢- كراس الثورة العربية أمام معركة المصير، التقرير السياسي الصادر عن الاجتماع الموسع للجنة التنفيذية القومية للحركة في أواخر ، يوليو ١٩٦٧، ص ٩ .

١٠٣- الثورة العربية : أمام معركة المصير، مصدر سابق، ص١٢.

١٠٤- نفس المصدر : ص١٧.

١٠٥- نفس المصدر: ص١٧.

١٠٦- نفس المصدر: ص٣٩.

١٠٧- بيان اللجنة التنفيذية لحركة القوميين العرب حول أوضاع الحركة في كل الفروع، بيروت، يناير ١٩٦٩، الحرية، بيروت ١٩٦٩/٢/١٠. (وثائق عربية، سنة١٩٦٩، بيروت، الجامعة الامريكية، دائرة الدراسات السياسية والادارة العامة، بلا تاريخ) ص٩٢.

١٠٨- مثل الأقلية المعارضة كل من هاشم علي محسن، وفؤاد الركابي.

١٠٩- بيان اللجنة التنفيذية القومية لحركة القوميين العرب حول أوضاع الحركة في مختلف الفروع، مرجع سابق، ص٩٢.

١١٠- التقرير السياسي لحركة القوميين العرب في سوريا (الحرية، بيروت٢٠/٢٧/ ٦٩/١) وثائق عربية: سنة١٩٦٩، ص٥٠.

١١١- نفس المصدر.

١١٢- بيان اللجنة التنفيذية القومية لحركة القوميين العرب حول اوضاع الحركة في مختلف الفروع، مرجع سابق، ص٨٦.

١١٣- نفس المصدر: ص٩٣.

١١٤- المصدر السابق: ص٩٦.

الفصل الثاني

الناصرية على الصعيد القومي

رؤية وشهادة

أ. أمين اسكندر

ما حدث ليلة ٢٣ يوليو، لم يكن صدفة، ولم يكن ضربة حظ، وانما كانت ليلة فاصلة في تاريخ مصر، وتاريخ الامة العربية، وتاريخ العالم. ليلة فاصلة بين عصر الاحتلال الانجليزي، وحكم القصر الملكي، واحزاب تدمن تداول السلطة في ظل الاحتلال. تلك كانت مصر قبل ٢٣ يوليو. فقر وجهل ومرض، تلك هي الثلاثية الحاكمة للجماهير المصرية البائسة. وعلى الجانب الآخر من الضفة اثرياء وباشوات، اقطاع، ارستقراطية. إنه مجتمع النصف في المائة.

لقد كانت ليلة ٢٣ يوليو على المستوى المصري بمثابة جدلية للهدم والبناء. هدم في بناء الاحتلال والاستقلال والقهر والتسلط والإستئثار بالسلطة، وبناء سلطة الجماهير الشعبية، سلطة العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين والرأسمالية الصغيرة المنتجة، بناء سلطة الثقافة الوطنية التقدمية، بناء مشروع التحرر والتقدم والتنمية والوحدة.

لقد كانت ٢٣ يوليو ليلة فاصلة في تاريخ الأمة العربية، ليلة فاصلة بين احتلال انجليزي وفرنسي وايطالي واسباني منتشر في كل أرجاء المعمورة العربية، وبين حركات تحرر واستقلال متتالية، حتى أصبحت الخريطة العربية خالية من الاحتلال باستثناء فلسطين ولواء الأسكندرونة وسبتة ومليلة. ليلة فاصلة بين حدود مصطنعة رسمتها قوى الاستعمار، الى حلم للوحدة يجسد نفي الحدود، وحرية كاملة للمواطن العربي على ارضه.

ليلة فاصلة بين انفصام واعٍ متآمر بين اقاليم افريقيا العربية وآسيا العربية، وبين تجسيد إرادي لوحدة مصر وسوريا، اي اعادة لحمة افريقيا العربية بآسيا العربية.

ليلة فاصلة بين ثروات منهوبة لمصلحة الاستعمار، وبين ثروات مملوكة او شبه مملوكة للجماهير العربية .

ليلة فاصلة بين جماهير أقصى ما كانت تتمناه ان تجد قوت يومها، واقصى ما يقدم لها من عطف من قبل الزعامات والقيادات التي قبلت ان تحكم من خلال الاستعمار أن تسمح لها بجمع القروش للبس الاحذية (مشروع الحفاة)، وبين جماهير أصبحت في التنظيمات والاحزاب السياسية، وفي مجالس الادارة والتشريع، واصبحوا هم المسيطرين على وسائل الانتاج والشركاء في ثروة أوطانهم.

ليلة فاصلة بين جماهير معزولة مسجونة في أطر الاقليمية، وبين جماهير متفاعلة في مظاهرات وثورات وعنف خلف بطلها القومي جمال عبد الناصر في كل الساحات العربية.

لقد كانت ليلة ٢٣ يوليو على المستوى العالمي، ليلة فاصلة بين قطبين يتحكمان في مصير العالم (الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي) وبين بروز قطب ثالث يعبر عن مصالح الدول الصغيرة وحديثة الاستقلال، دول عدم الانحياز والحياد الايجابي، والتي أصبح لها وزن وحساب وبين استعمار يستغل ويقهر شعوب افريقيا واسيا وامريكا اللاتينية وحركات تحرر منتشرة ومدعومة من قبل ثورة ٢٣ يوليو في كل المواقع والبلدان الواقعة تحت الاحتلال الاستعماري.

ذلك هو الفرق بين ما قبل ٢٣ يوليو وما بعدها، ولعل ذلك جاء تعبيراً عن موقع وقيادة تفاعلت مع الظرف العالمي والبيئة الدولية، بذكاء وبصيرة. ولقد كان هذا التفاعل تعبيراً عن القانون المحوري في مسيرة الزعامة الناصرية، إنه قانون جدل الواقع والفكر. ذلك هو القانون المفسر لكل احداث وتفاعلات ثورة يوليو القومية، داخل القطر المصري والوطن العربي والعالم. ولعله القانون الحاكم للمرحلة الناصرية في فترة ثورة يوليو، وللحركة الناصرية فيما بعد ١٩٧٠، مع قناعتنا باختلاف الأسباب في كل فترة.

ديالكتيك الواقع والفكر:

تحدث عبد الناصر في «فلسفة الثورة» عن الدور الهائم الباحث عن بطل. وهذا البطل لم ينتظر حتى يبلور نظرية ومنهجاً، وانما الحاح الواقع فرض عليه ان يبدع ويبتكر ويبلور الأهداف العامة للحركة الوطنية المصرية في المبادئ الستة الشهيرة، والتي كانت تعبيراً عن مسيرة النضال الوطني، الذي قاد نضاله وعبر عنه كثير من زعماء وقادة الحركة الوطنية المصرية من احمد عرابي ومصطفى كامل ومحمد فريد، وسعد زغلول حتى مصطفى النحاس.

والحديث عن التنشئة الفكرية للمناضل جمال عبد الناصر، يكشف لنا أثر البيئة السياسية الاجتماعية والثقافية على جمال عبد الناصر، وكيف أثر ايضاً هو فيها.

فلم يكن جمال عبد الناصر ميشيل عفلق- مؤسس حزب البعث، ولا ماو، زعيم الحزب الشيوعي الصيني، ولم يكن بالطبع لينين، زعيم الثورة البلشفية. فلقد كانت نشأة كل من

هؤلاء في سياج عقيدة وايديولوجية، تأثر بها ميشيل عفلق من أفكار استاذه- دارس السوربون - زكي الأرسوزي ذلك المفكر القومي البارز الذي تأثر بأفكار القومية من التاريخ الاوروبي .

اما ماو ولينين فلقد كان نضالهما في بيئة الماركسية ومرشدهما العملي هو المانفستو الشيوعي وكتاب رأس المال.

أما جمال عبد الناصر فلقد تحكمت في نشأته الموضوعات الليبرالية العامة، التي يكتبها جيل الثلاثينات والاربعينات من مثقفي مصر. درس عبد الناصر في كلية أركان الحرب المصرية، والتي تحتوي على التاريخ والجغرافيا والسياسة الدولية، هذا بالإضافة الى التكتيك والاستراتيجية والموضوعات العسكرية المختلفة. ولعل تلك الدراسة هي التي أسهمت في تنظيم طريقة التفكير لدى عبد الناصر.

وظل عبد الناصر طوال تاريخه في السلطة محافظاً على الإطلاع على ما هو حديث في الفكر القومي والاشتراكي ومذكرات القادة الكبار من رجالات الدولة في العالم، ومن خبراء الاستراتيجية. ولعل ما يحكيه خالد محي الدين، يؤكد لنا تلك المتابعة الدقيقة، حيث كان يطلب منه قبل القيام بأية رحلة للخارج، أن يأتي له بأحدث اصدارات الفكر الاشتراكي. ويحكي ايضاً الفريق اول محمد فوزي، وزير الحربية بعد هزيمة ١٩٦٧ حتى ١٩٧٠ إن عبد الناصر ارسل له كتاباً حديثاً للخبير الاستراتيجي - اندريه بوفر - وكان ذلك اثناء اعداد الجيش لحرب الاستنزاف ، وطلب منه ان يتحاورا فيه.

أما د. اسماعيل صبري عبد الله الخبير الاشتراكي البارز، فيحكي عن الحوارات الهامة التي كان يدعو لها جمال عبد الناصر مع خبير التخطيط الاشتراكي شارل بتلهايم .

ولعل محادثات الوحدة قد كشفت لنا عن عمق معرفة عبد الناصر وقدرته على استخلاص العبر والدروس من خبرات الحياة والممارسات النضالية اليومية، هذا، بالاضافة الى ما يضفيه الواقع من مشاكل واشكاليات تحتاج التأمل والبصيرة والحلم.

ولعل أولى الوقائع التي كشفت طريقة التفكير عن جمال عبد الناصر، كانت في طريقة تفكيره في تشكيل أداة التغيير الثوري - منظمة الضباط الاحرار. فلقد حدد عبد الناصر الهدف بوضوح: تغيير النظام الملكي الفاسد. ولم يكن اي من الاحزاب والمنظمات الحزبية العلنية والسرية مؤهلاً للقيام بذلك التغيير. ولقد كان الجيش هو المنظمة الوحيدة التي تمتلك وتعبر عن قوة موازية في مواجهة قوة القصر المدعوم من الاحتلال الانجليزي. وهي الاداة المنظمة تنظيماً علمياً، والتي يتوافر داخلها بيئة غاضبة لما ترى من فساد، وحكمة ورغبة وطنية جارفة في طرد الاحتلال الانجليزي عن مصر. وفي سبيل الهدف

المحدد بدأ التخطيط الذي اعتمد على شبكة واسعة من المناورات والتكتيك والدراسة لكل الظروف المحيطة. فلقد احتوى تنظيم الضباط الاحرار بعضاً من الضباط العقائديين من الشيوعيين، مثل خالد محي الدين ويوسف صديق واحمد فؤاد، ومن حركة الاخوان مثل عبد الرؤوف وآخرين. ولكن الجميع اصطفوا في الإطار الوطني العام للضباط الاحرار من أجل تحقيق الهدف: إسقاط الحكم الملكي الفاسد، بل يكاد المرء ان يستنتج، ان ضم أنور السادات عضو الحرس الحديدي – تنظيم الملك وقبضته الضاربة في الجيش المصري– كان نوعاً من الاختراق للتنظيم الملكي، وقبول محسوب للمخاطر، وتوظيف له اكثر من هدف. هذا بالاضافة الى دور جمال عبد الناصر في التواصل مع الحركة الوطنية في حزب الوفد وبعض قياداته والشيوعيين والاخوان المسلمين وحركة مصر الفتاة، وبعض الشخصيات العامة من الصحافيين والمناضلين، مثل محمد حسنين هيكل وفتحي رضوان. ويحكي هيكل ان عبد الناصر قد زاره قبل الثورة ليستمع منه عن قدرة الجيش البريطاني الموجود بالقناة، اذا وقع تحرك ما بعد حريق القاهرة.

ومن ذلك يتبين لنا تحديد دقيق للهدف، اختيار أداة صالحة لتحقيق الهدف، دراسة كاملة للبيئة المحيطة، عدم الوقوع في براثن ما هو موجود ومغرٍ مثل الحركة السرية الحزبية الموجودة في ذلك الوقت مثل الحركة الشيوعية والاخوانية. ولم يقع ايضاً في اغراءات الاحزاب الليبرالية الجماهيرية، مثل حزب الوفد ويسار حزب الوفد، الطليعة الوفدية، وذلك ليقينه الكامل ان أياً من تلك الحركات والاحزاب غير مرشح للقيام بدور التغيير الانقلابي. وانما كل الدور كان من وجهة نظره تعبيراً عن الاسهام في خلق مناخ للحشد والتعبئة، للوعي وللغضب.

وعندما اختار عبد الناصر الجيش كأداة للتغيير، كان يعلم ايضاً، انه يقدم نموذجاً جديداً للانقلاب التقدمي. وذلك عكس كل نظريات التغيير السائدة: الماركسية والليبرالية والاسلامية. ولعل هذا كان من ضمن اسباب عدم فهم دور الجيش في التغيير الثوري الذي حدث من قبل تلك القوى. ولعل تلك الواقعة كانت من الوقائع الهامة التي عبر عنها جدل الواقع والفكر– القانون الحاكم لجمال عبد الناصر. ولعلها ايضاً كانت اسهاماته الاولى في الفكر القومي والانساني. وهذا ما كشفت عنه حركة التغيير بعد ذلك في واقعنا العربي، بل في الدائرة الافريقية وبلدان امريكا اللاتينية، آخذين في الحسبان البيئة الدولية والثنائية القطبية التي سمحت عبر تناقضاتها بمساحة من الحركة لثورات التحرر الثالثية.

الفكرة القومية عند جمال عبد الناصر:

يكشف لنا عبد الناصر الطالب في المدرسة الثانوية عن بداية تسرب الوعي العربي اليه، وذلك في فلسفة الثورة. «وأنا اذكر فيما يتعلق بنفسي ان طلائع الوعي العربي بدأت

تتسلل الى تفكيري، وانا طالب في المدرسة الثانوية، أخرج مع زملائي في إضراب عام في الثاني من شهر نوفمبر من كل سنة، احتجاجاً على وعد بلفور، الذي منحته بريطانيا لليهود، ومنحتهم به وطناً قومياً في فلسطين اغتصبته من أصحابه الشرعيين».

ولقد كان لدخول جمال عبد الناصر الكلية الحربية، أثر كبير في بروز وعيه العروبي، بعدما تسربت اليه عاطفة العروبة. فالدراسة في الكلية الحربية بلورت وثبتت مجموعة من المبادئ في فكر عبد الناصر، حسب قول محمد حسنين هيكل، يأتي على رأسها :

١- ان حركة مصر التاريخية تتجه نحو الشرق.

٢- ان الدفاع عن مصر يرتكز على الشام، وبالتحديد فقد كان يعتقد أن خط غزة / بئر سبع هو الخط الاخير للدفاع عن مصر، وبعده فليس هناك إلا خط المضايق، وهو خط يدافع عن قناة السويس والقاهرة .

٣- إن هناك تشابكاً في قضية الأمن بين مصر وسوريا بصفة عامة، وفلسطين بصفة مركزة .

وعن محتوى دراسة جمال عبد الناصر في الكلية الحربية يتحدث في يومياته عن حرب فلسطين:

«بدأ نوع من الفهم يخالج تفكيري. أدرس تاريخ حملات فلسطين بصفة خاصة، وأدرس بصفة عامة تاريخ المنطقة وظروفها التي جعلت منها في القرن الاخير فريسة سهلة». وعن اشتراكه في حرب الدفاع عن فلسطين كتب يقول :

« ولما بدأت أزمة فلسطين كنت مقتنعاً في أعماقي بأن القتال في فلسطين ليس قتالاً في ارض غريبة، وليس انسياقاً وراء عاطفة، وإنما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس ».

وهكذا كان جدل الفكر مع الواقع ،كان سبباً محورياً في بلورة حقائق جغرافيا المنطقة وثوابت تاريخها.

لذا فالحديث عن الفكرة القومية لدى عبد الناصر، تتطلب منا أولاً ان نأخذ في الحسبان دور التنشئة، وكيف اكتشف عبد الناصر الفكرة القومية عبر فلسطين وأمن مصر: وعلينا أن نأخذ في الحسبان الدور التاريخي الذي القى على عاتق القائد التاريخي لهذه الأمة، ذلك بالاضافة الى طبيعة البيئة الدولية الاقليمية، ناهيك عن المخاطر المحيطة بالامة في تلك المرحلة. وعلينا ان نأخذ في الحسبان الفرق بين المُنظّر وبين القائد السياسي. فالأول

يعطي اولوية لمشاكل الفكر والاطروحات النظرية والأنساق الفكرية، والثاني يعطي اولوية لمشاكل الواقع والامن والبشر.

ولهذا فإن الفكرة القومية لدى عبد الناصر تتواجد كبديهية، وكحقيقة تاريخية وخبرة معاشة بين ابناء الامة العربية. إنه ينادي بأمة عربية، ويعبر عنها اكثر مما يحللها في جذورها وبنيانها. ولقد اهتم الفكر الناصري في المرحلة الناصرية في الدولة، ان يوكد على عناصر اربعة تشكل ابعاد الأمة : اللغة، التاريخ، الوجدان، الاخطار المشتركة (مشاريع الهيمنة والعدوان). وهكذا فإن الامة العربية في الخطاب الناصري تعبير عن رابطة تاريخية ثقافية في مكونها الموضوعي ، ورابطة نضال وأمل في بعدها المعاش.

«يكفي ان الامة العربية تملك وحدة الأمل التي تصنع وحدة المستقبل والمصير».

«يكفي ان الامة العربية تملك وحدة اللغة التي تصنع وحدة الفكر والعقل».

«لقد حاولوا ان يخدعونا، وحاولوا ان يضللونا، وكانوا يقولون لنا ، ما لكم والعرب؟ ..

كلنا شعب واحد، شعب عربي واحد. فلنكافح جميعاً متحدين متكاتفين من أجل حقنا في الحرية، ومن أجل حقنا في الحياة. فلنكافح جميعاً ضد الاستعمار وضد اعوان الاستعمار، لن تقطع اوصالنا مرة اخرى، كما قطعت بعد الحرب العالمية الاولى».

من هذا يكشف لنا أن مفهوم الأمة عند جمال عبد الناصر وفي الخطاب الناصري، لم يكن مفهوماً قدرياً ميتافيزيقياً ، ولم يكن مفهوماً ارتجاعياً ماضوياً، وانما كان مفهوماً معاصراً مناضلاً هاضماً لمتغيرات العصر، مفهوماً متحركاً في بيئة وظروف دولية، مفهوماً مستقبلياً: «الوحدةالعربية هي نداء بالتجمع والانطلاق الى بناء المستقبل».

وفي حركة سريعة مستجيبة لنكسة الانفصال والهجوم الشرس من الرجعية العربية في مواجهة الوحدة، يربط عبد الناصر بين الوحدة والقضية الاجتماعية، وبحنكة القائد التاريخي يفرز القوى الاجتماعية مع الوحدة وضد الوحدة:

مع الوحدة، العمال، الفلاحون، الجنود، المثقفون، الرأسماليات الصغيرة المنتجة.

ضد الوحدة، الاقطاع، الرأسمالي المستقل، الاحتكارات الدولية .

الرجعية تعارض الوحدة للمحافظة على امتيازاتها الشرهة، التي استطاعت ان تبنيها من خلف الحدود المصطنعة .

وفي هذا يقول عبد الناصر : الرجعيون عقبة أمام تقدم الأمة : «نهبوا أموال العرب» ويتم تنسيق بينها وبين الاستعار «الاستعمار ينسق العمل معها»، و«تسير في نفس مخطط الاستعمار وإسرائيل» ولا يمكن فصلها عن الاستعمار.

فلقد كان جمال عبد الناصر مدركاً لحقيقة الظلم الاجتماعي الواقع على الجماهير العربية. وكان مدركاً للعلاقة الوثيقة بين الاستعمار «واسرائيل» والرجعية العربية، من أجل المحافظة على الامتيازات والنهب المستمر لثروات الامة على حساب شعبها العربي من منتجين.. لذا فقد وعى درس الانفصال، وربط بين قضية الوحدة وقضية الاشتراكية، حيث لا يمكن ان تتم وحدة، وهناك مصالح اجتماعية متمايزة، تريد ان تحافظ على تمايزها، ولا يمكن قيام وحدة دون تحالف واسع معبر عن اصحاب المصلحة في الوحدة، ومدافع عن قيامها وبقائها.

وادراكاً من جمال عبد الناصر لأهمية الانسياب الكامل والتفاعل الخلاق بين الوطنية والقومية، وبين دور الاديان التي نزلت على أمتنا ومدى تفاعلها في تاريخها ومستقبلها، استطاع ان يقدم مفهوماً متفاعلاً مدركاً لكل تلك الثوابت المنصهرة في بوتقة القومية والعروبة، هي التي عبر عنها في الميثاق قائلاً : «إن اعظم تقدير لنضال الشعب العربي في مصر، ولتجربته الرائدة، هو الدور الذي استطاع ان يؤثر فيه في حياة امته العربية، وخارج حدود وطنه الصغير، الى آفاق وطنه الكبير».

«إن الأمة العربية تعتز بتراثها الإسلامي، وتعتبره من أعظم مصادر طاقتها النضالية. وهي في تطلعها الى التقدم ترفض منطق هؤلاء الذين يريدون تصوير روح الاسلام على أنها قيد يشد الى الماضي. وهي ترى إن روح الاسلام حافزاً يدفع الى اقتحام المستقبل، على توافق وانسجام كاملين مع مطالب الحرية السياسية والحرية الاجتماعية والحرية الثقافية».

وفي موضع آخر يتحدث عبد الناصر عن الانسان العربي المؤمن : «نحن لم نفرق في يوم من الايام بين العربي المسلم والعربي المسيحي والعربي اليهودي. لقد عاش الجميع جنباً الى جنب في المنطقة دون خلافات».

بهذا المعنى الشامل العميق لمفهوم القومية، والمتجدد بما يتلاءم مع العصر، وفي نفس الوقت المحافظ على الثوابت، يخوض عبد الناصر معاركه من معركة التسليح وبناء السد العالي وتأميم قناة السويس، الى معركة الوحدة والانفصال، ومعركة اليمن والجزائر، انتهاءً معركة التنمية ومواجهة الهزيمة في ١٩٦٧، مطوراً ومضيفاً للقومية من نتائج ودروس تلك المعارك. لقد كانت حقيقة ديالكتيك الواقع مع الفكر هي الحقيقة المسيطرة عند عبد الناصر.

اما الإضافة الثانية البارزة والناتجة من ديالكتيك الواقع والفكر عند عبد الناصر فهي الارتباط الجدلي بين الثورة الوطنية والثورة الاجتماعية. «كانت الأمة تواجه مرحلتين من مراحل كفاحها، مرحلة التحرر السياسي ومرحلة التحرر الاجتماعي. وكانت مطالب كل مرحلة تختلف عن مطالب الأخرى، ولا يمكن ان نفصل الثورة الاجتماعية عن الثورة السياسية» (٢٢ فبراير ١٩٦٢).

لقد اكتشف عبد الناصر من خلال ممارسته لدوره في قيادة الدولة، أنه لا يمكن تحقيق الاستقلال بمجرد طرد الاستعمار الانجليزي من البلد، وأنه من المهم إحداث تنمية اجتماعية مخططة على جميع المستويات والأصعدة المجتمعية، وهي المشكلة التي صار من المحتم، تقريباً، ألا يتم حلها إلا عن طريق الاختيار الاشتراكي، حيث لا نمتلك بصفتنا دولة من بلاد العالم الثالث، تراكم الثروة الحادث في اوروبا، والناتج من الكشوف الجغرافية، والنهب الاستعماري المنتظم لبلدان المستعمرات، وايضاً الحادث نتيجة التقدم التكنولوجي المذهل. ومن هنا، فلا يمكن ان نعيد الكرة – كما يقال – فلا قدرة ولا رغبة اذا توافرت القدرة على احتلال شعوب اخرى، ولا تقدم علمي وتكنولوجي. ومن هنا فلا حل إلا التخطيط العلمي المدقق للامكانيات والدراسة للاحلام والمخطط لتحقيقها حسب المراحل الزمنية المتتالية. ولن يتأتى ذلك إلا بتجميع المدخرات الوطنية، واعادة توزيع دخل وثروات المجتمع، حسب الحاجة التخطيطية.

ولعل تلك الظروف والبيئة قد وضعت كل الثورات الوطنية أمام خيارين، الاول منها هو التوقف عند حدود طرد المحتل، اي عند حدود الثورة الوطنية، مما يعني الوقوع مرة أخرى عبر الشركات الاحتكارية العملاقة، ومؤسسات التمويل الدولية في براثن السيطرة الاستعمارية مرة أخرى.

والخيار الثاني الذي جاء تعبيراً عن إضافة حقيقية للفكر القومي، هو التزاوج بين الثورة الوطنية والثورة الاجتماعية، وفي ذلك يقول عبد الناصر في خطاب ٢٥/ ١١/ ٦١.

«في سنة (١٩٦٠) أنا كنت اشعر أن الدافع الثوري غير قائم، الثورة بدأت تتعثر، الرأسمالية المستغلة بدأت تنفذ وبدأت تتهرب، وبدأت تتسلل للصف.. والأمثلة كانت واضحة أمامنا، وكانت باينه، كان الخطر إيه؟ الرأسمالية المستغلة والرجعية توشك ان تجند الثورة الوطنية، او تلم الثورة الوطنية لحسابها الخاص».

أما الإضافة الثالثة للفكر الناصري فكانت في مفهوم الحرية.

والحرية عند عبد الناصر حرية وطن وحرية مواطن، والوطن هو الامة العربية قاطبة، فلا يمكن ان نتحدث عن حرية الوطن، وهناك جزء منه محتل وأيضا لا يمكن أن نتحدث عن

حـرية المـواطن دون أن يكون في وطن حـر، ودون الربط بين الحـرية السـيـاسـيـة، الديمقراطية، والحرية الاجتماعية، الاشتراكية. فالمواطن الحر لا بد ان يعيش على ارضية من العدل الاجتماعي والديمقراطية المعبرة عن مصالحه وذلك في اطار من وطن حر غير محتل، وغير مُستغل لشعوب اخرى، او غير مُستغَل من شعوب اخرى اي غير تابع.

لعل تلك هي اهم الاضافات الى الفكر والحركة القومية، والمستخلصة من ديالكتيك الواقع مع الفكر، ومن اجل استكمال صورة تلك الاضافات، فعلينا ان نتناول الجانب الحركي التنظيمي على الساحة القومية، من أجل كشف ماهية تلك الاضافات، ولعل الحديث عن الطليعة العربية التي نشأت وأسسها جمال عبد الناصر في الوطن العربي، تكشف لنا عن طريقة تفكيره وملامح تصوراته عن نظرية الاسلوب، ونعني بها طريق الوصول الى الغاية او الهدف. وفي ذلك يقول جمال عبد الناصر في الميثاق: «الانسان هو وحده القادر على تغيير الواقع، وأن الانسان العربي سوف يقرر بنفسه مصير الأمة». اذن فالحلقة الاولى من نظرية الاسلوب، هو ذلك الانسان العربي الاجتماعي أي الانسان في المجتمع ..العامل.. الفلاح المثقف. فهو صاحب المصلحة في ثورة عربية واحدة، وهو المناضل في سبيل دولة الوحدة، وهو المنشيء لحركة قومية واحدة.

ولقد قدم عبد الناصر ما اسماه بالإطار العام، والاطار الخاص، او بالتنظيم العام، والتنظيم الخاص. الاطار العام يحتوى على الطبقات والشرائح الاجتماعية التي من مصلحتها الدفاع عن أمة عربية واحدة، دولة عربية واحدة، واطار خاص يوخذ حركة الكادر الطليعي، والعمود الفقري للاطار العام. وفي ذلك يقول عبد الناصر في مباحثات الوحدة الثلاثية: «فيه حاجتين: فيه الحزب، وفيه المنظمات الشعبية، ودى حاجتين لازم تقوم مع بعض، اذا فهمنا ان الحزب هو المنظمات الشعبية نلاقي نفسنا بنقع في غلط كبير.. النتيجة الوحيدة لهذا الفهم ان ينعزل الحزب عن الشعب، ويضطر الحزب ان يمارس دكتاتورية الحزب.. لازم حاجتين بيمشوا مع بعض، الحزب كطليعة، اذا اعتمدنا على الحزب على انه هو الطليعة وهو القائد، وفي نفس الوقت المنظمات الشعبية ألتي تقودها الطليعة».

اذن الطليعة العربية في الفكر الناصري تعبير عن طليعة التحالف الواسع، تحالف قوى الشعب العربي العامل، وهي الحاضنة لوحدة الكادر القومي على كل الساحة العربية. وهي المناضلة من اجل تحقيق المشروع القومي التحرري التنموي والوحدوي. وهي القائدة لإدارة الجدل بين اصحاب التناقضات الثانوية في الاطار الواسع، ومن داخل تلك الرؤية – العام والخاص، يطرح جمال عبد الناصر المقياس الثوري السليم لاختيار الكوادر الثورية للعمل في الساحة العربية. وكان ذلك حواراً بين المناضل القومي اياد سعيد ثابت وبين

القائد القومي جمال عبد الناصر – الشورى العدد الخامس ١٩٧٤ – جاء فيه على لسان عبد الناصر:

«إن الشخص الذي سيتم اختياره هنا بصورة مبدئية، ووفقاً لشروط ومواصفات معينة، والذي سنقوم بإرساله الى احدى الساحات العربية المختلفة، وحتى يكون المقياس المطبق هناك مطابقاً بالنسبة له، فإننا لا بد ان نجعله يخضع لظروف مشابهة تماماً لتلك التي يعيشها المناضلون هناك». وهذه المسألة تحتم علينا اتخاذ ما يلي:

أ– ان هذا الشخص الذي تم اختياره يجب ان يكون على جهل تام بالهدف الحقيقي الذي نقصده من وراء ارساله الى الاقاليم، اذ انه يجب ان ينفذ فقط الأوامر الصادرة اليه للالتحاق بالثورة، ولا شيء أكثر من ذلك.

ب– وعلينا بعد ذلك ان نقطع جذوره من الارض المصرية، وأن تقطع كل صلة مباشرة بينه وبين اية قيادة سياسية هنا مهما كان نوعها. انه يجب ان لا نتيح له الاحساس بأي تفوق او امتياز له على الآخرين في المنزلة او الخلفية – عليه ان ينتظم مع بقية الثوار في صفوفهم ... يمارس كل ما تعطيه له الثورة من حقوق، ويتحمل كل ما تفرضه عليه من واجبات وأعباء، وفي هذه الحالة فقط، سيصبح المقياس صحيحاً، فعلى مقدار انضباطه، وعلى نوعية سلوكه ومدى استعداده للصمود والتضحية، سيتوقف كل مستقبله السياسي.

جـ– ولكن ما الذي يدعونا لجعل مثل هذا الاجراء قاصراً على المصريين وحدهم؟.

لماذا لا نجعل منه مبدأ عاماً يطبق بالنسبة لجميع المناضلين العرب؟. اي لماذا لا نجعل الساحات العربية المختلفة تتبادل مناضليها بموجب قرارات صادرة من القيادة العربية العليا، بعد انبثاق التنظيم العربي الواحد؟. اننا لو طبقنا هذا المبدأ نكون قد حققنا غاية اخرى بجانب تحقيق المقياس السليم لاختيار الكوادر الثورية .. إننا سنساعد عن طريق تحقيق هذا الاسلوب النضالي في تحقيق الانسجام التام بين المناضلين في مختلف الاقاليم فكرياً ونفسياً.. اذ لا شيء مثل الممارسة اليومية للنضال المشترك طريقاً لإذابة الفوارق الاقليمية .. لا شيء كالحوار اليومي المستمر من خلال ألنضال اسلوباً لتلاحم الثوار، واذابة الترسبات الاقليمية الضارة، ولا شيء كالمواجهة اليومية لتحديات النضال اسلوباً لتقارب النفسيات وانسجامها».

انه نموذج فريد يسجل لنا طريقة تفكير قائد قومي فذ، تغلب على كل الترسبات الاقليمية رغم رئاسته لاكبر دولة في الامة العربية.

ومرونة القائد ميّزته بميزة طرح ما هو ثابت، وما هو مناسب للمرحلة وتحدياتها. ولعل طرحه لوحدة القوى الثورية العربية، بعد انفصال الوحدة بين مصر وسوريا، وذلك في ٢٢/٢/١٩٦٧، عندما اعلن عن ضرورة وجود وحدة في العمل قائلاً: «ضرورة قيام شكل من الاشكال البسيطة للوحدة .. وحدة العمل في مؤتمرات القمة». ورغم ان الرجعية قد ضربت تلك الاشكال البسيطة من وحدة العمل. إلا أنّ جمال عبد الناصر يتمسك في نفس الخطاب السابق بوحدة القوى الثورية،، «معركة وحدة القوى الثورية معركة متشعبة متعددة الجهات .. جبهه تعمل فيها القوى الثورية معاً في داخل اوطانها الصغيرة، لكي تثبت وجودها وتأثيرها، وجبهة تلتقي عليها القوى الثورية معاً، وتنسق عملها معاً وتحدد أهدافها، ووسائلها معاً، ثم جبهة صراع مع العدو الاساسي للامة العربية واهدافها .. العدو الاساسي للامة العربية».

وفي حديث امام مؤتمر المحامين العرب في الثامن من آذار (مارس) ١٩٦٧ قال عبد الناصر موضحاً ومفسراً وحدة القوى الثورية: «وحدة القوى الثورية ممكن تيجي في عدة أشكال.. وموش ضروري أبداً نصمم على الوحدة بصفتها المطلقة، اي الدمج والتوحيد الكامل .. في كل بلد موجود المناضلين الثوريين، ودى الحقيقة اللى بتخليني اقول ان الواجب علينا في هذه المرحلة ان نعمق النضال ونقوى قيادات هذا النضال». هكذا يتضح لنا عبر قانون جدل الفكر والواقع، والواقع والفكر، ان عبد الناصر قد أثرى بتجاربه الحركية والتنظيمية مسيرة الفكر القومي. هذا، بالاضافة الى نجاحه في الاختراق الواسع للنسيج العقلي للجماهير العربية في كل الساحات العربية، وذلك لمصلحة طرح فكرة أهمية وجود أداة نضالية، تعمل لصالح الوحدة العربية.

عصر الردة

الحركة الناصرية في مصر من رحيل القائد حتى الحزب العربي الديمقراطي الناصري

أ-من رحيل القائد حتى انتفاضة ١٩٧٧ م:

رفض عبد الناصر اطلاق تعبير الناصرية على المؤمنين بخطه الفكري والسياسي والحركي - داخل القطر المصري. وبعد رحيله في سبتمبر ١٩٧٠ شاع التعبير، ولكن بعد نضال مرير، دخل فيه جيل جديد من الذين لم يعايشوا تجربة يوليو، ولكنهم عاشوا مكتسباتها وانجازاتها، وعاشوا ايضاً هجوم اعدائها عليها، وهم كثر، حيث جمعت المصلحة بين تحالف واسع في الخارج والداخل، تشكل من الاستعمار العالمي بقيادة الولايات المتحدة الامريكية والحلف الرجعي العربي النفطي والتابع، ورجال الاقطاع والرأسماليين القدامى، الانفتاحيين الجدد الذين ظهروا بعد رحيل عبد الناصر هذا بالاضافة الى الصهيونية العالمية والكيان الصهيوني.

لقد اتسعت رقعة الجماهير العربية المؤمنة برؤية القائد القومي جمال عبد الناصر، وناضلت معه، تحت رايات الحلم القومي من الحرية والاشتراكية والوحدة، ناضل معه العمال والفلاحون والمثقفون وكافة الشرائح الاجتماعية الفقيرة والكادحة والمنتجة، وهم اغلبية شعبنا العربي. ولما كانت المكتسبات المادية المحققة من مساكن شعبية، وعلاج مجاني، وتعليم مجاني، وثقافة رفيعة، وملايين من فرص العمل، ومئات من المصانع وآلاف من أفدنة الارض توزع على فقراء الفلاحين.

لكن الفرق كبير واسع بين المستفيدين والمؤمنين المناضلين بالمشروع الناصري. لقد ظهر الفرق بين الجماهير الواسعة والطليعة المناضلة وتلك قصة لا بد من روايتها:

رحل عبد الناصر، وقدم رجال التنظيم الطليعي - التنظيم السري الحاوي للكادر الاشتراكي المفرز من قبل السلطة تقديم السادات - نائب الرئيس للجماهير العربية المصرية.

اختلط الحابل بالنابل :

جماهير فاقدة للاتزان بعد رحيل القائد، وطليعة تطلب منها الوقوف خلف أنور السادات، لكي تسير السفينة نحو البر، والبر في ذلك الوقت كان تحرير التراب الوطني من

قبضة الاحتلال الصهيوني. الجماهير تعرف من هو انور السادات والطليعة ايضاً، لكن الطليعة تزيف الواقع بحجة تسيير السفينة نحو البر.

وهنا لا بد من شهادة، حيث دار بين المرحوم المناضل عبد الهادي ناصف، وكاتب السطور حوار. وكان ذلك عام ١٩٨٠ تقريباً. فلقد حكى لي انه كلف من التنظيم الطليعي (وكان أحد قياداته البارزة) للنزول الى مدينة السويس- مجال عمله السياسي لكي يقنع اهالي السويس بالوقوف خلف السادات رئيسا للجمهورية بعد رحيل القائد عبد الناصر. فذهب الى مقهى شهير يجلس عليه رجال التنظيم في السويس ودار الحديث، ودافع المرحوم عبد الهادي ناصف عن وجوب انتخاب السادات من اجل تحرير الارض والاستعداد للمعركة. وتحدث البعض عن سلبيات السادات حتى صرخ صاحب المقهى قائلاً: «يا استاذ عبد الهادي كيف تطالبني بإنتخاب السادات، وهو كان يأتي هنا ليتعاطى... ؟؟

وإن كان من دلالة لتلك الحكاية، فهي ذلك الخلط الكثيف بين الصواب والخطأ. وهذا ما اصاب الجماهير في تلك المرحلة بخداع في الرؤية. هذا بالاضافة الى انتقال السلطة من خلال الدولة بطريقة سلسلة دون مقاومة او عنف.

لذا فعندما اصدر السادات اوامره بالقبض على رفاق عبد الناصر، ورجال دولته في مايو ١٩٧١، لم تشعر الجماهير باي تغيير او انقلاب. فتلك هي الدولة، وذلك هو قائد الدولة. والدولة في مصر محور الحياة.

وبعد ما تم القبض على تلك القيادات، ومعها بعض الفعاليات المؤمنة بخط عبد الناصر السياسي والفكري، التزم كوادر التنظيم الطليعي،. وهم بالآلاف الحرص، واختارت اغلبيتهم الانضمام لطريق السادات، والبعض منهم اعتزل العمل السياسي، والقلة القليلة هي التي قاومت وظلت تعمل وتمارس.

ماذا كان يعني ذلك بالنسبة للجيل الجديد. الناصريون الجدد؟.

المعرفة حدثت بالنسبة لنا عندما بدأت الحملة المغرضة في الاعلام الرسمي على القائد جمال عبد الناصر. وعندما عاد للظهور على الساحة بعض رموز العهد البائد، وعندما وقع السادات اتفاقية فصل القوات الاولى ثم الثانية بين النظام في مصر والكيان الصهيوني، وعندما اصدر السادات قرارة المؤرخ بتاريخ ٢١/٤/١٩٧٣، والخاص بالانفتاح الاقتصادي، كان السادات على رأس الحكومة آنذاك. وبعدها جاءت ورقة اكتوبر التي توسعت في توصيف الانفتاح، بالاضافة الى ذلك صدور القانون رقم ٤٣ لسنة ١٩٧٤. والذي نظم وقنن فتح باب الاقتصاد المصري لرأس المال العربي والأجنبي في

شكل استثمار مباشر، وتوظيف رأس المال الاجنبي مع الرأسمال المصري العام او الخاص، ونص ايضاً على عدم جواز تأميم المشروعات او مصادرتها واعفى الأرباح التي تحققها تلك المشروعات التي تنشأ طبقاً لهذا القانون من الضريبة على ايردات القيم المنقولة وملحقاتها لمدة خمس سنوات.

ولعل تعليق ديڤيد روكفلر، رئيس بنك تشيز مانهاتن على ذلك، في اعقاب جولة قام بها في الشرق الاوسط في فبراير ١٩٧٤ – يوضح لنا مدى الانقلاب الحقيقي الذي حدث: «اعتقد ان مصر قد ادركت الآن ان الاشتراكية والقومية العربية المتطرفة لم تحسن حالة سكان مصر البالغ عددهم ٣٧ مليوناً.

وإذا كان الرئيس السادات يريد مساعدتهم، فعليه ان يولي وجهه شطر المشروع الخاص والمساعدات ...

ولقد ناقشت هذا الأمر الى حد كبير مع بعض الاسرائيليين، وهم يتفقون معنا في ذلك، ويشعرون ان موقف الرئيس السادات من بلاده موقف بناء، كما يشعرون ان هناك فرصة افضل لإنهاء الحرب إذا ما اعطيت له لبناء بلده بطريقة اقتصادية سليمة». وقد نشر هذا التصريح بجريدة النيويورك تايمز في فبراير ١٩٧٤.

تلك هي المظاهر الحقيقية للانقلاب الذي حدث، ولم يكن ما حدث في ١٥ مايو ١٩٧١، إلا مقدمة لم يشعر بها جيلنا تماماً.

ماذا فعل شباب الناصرية في تلك الآونة؟. لقد تحدثنا عن فهمنا للانقلاب ولحظات الضبابية، ومن ساهم فيها. ولكن ماذا عن ادوات الحركة؟. ادوات الفعل الناصري والتي عن طريقها تم التواصل مع الجماهير، واعلان الناصرية المعارضة في وسطها.

اللجنة العربية لتخليد القائد عبد الناصر:

تشكلت في اعقاب رحيل القائد، وكان من ابرز قادتها د. عبد الكريم احمد، المفكر القومي ووكيل وزارة التعليم العالي، والاستاذ حاتم صادق، الباحث في العلوم السياسية وزوج هدى عبد الناصر، والطبيب سيد الغريب، وهو من ابرز القيادات الشابة في تلك الآونة. وكان هناك ايضاً احمد الجمال، ومحمد صبري مبدي، واخذت اللجنة على عاتقها العمل على نشر مواثيق الثورة وتراث الفكر الناصري. وقد نجحت في اخذ تصريح السلطات الامنية بعمل مؤتمر جماهيري ناصري او اكثر في احتفالات ثورة ٢٣ يوليو، ورغم استمرارها القانوني لمدة طويلة، وتغيير مجلس ادارتها في كل انتخابات تقريباً، إلا انها لم تعط الكثير للحركة سوى كتاب مجمع لمواثيق الثورة (فلسفة الثورة – الميثاق–

بيان ٣٠ مارس) وفشلت في أن تكون صيغة وإطاراً مجمعاً للحركة الناصرية في غيبة شرعية الحزب. ويرجع ذلك الى الخلافات التنظيمية في الطليعة العربية، وللخلافات بين رجال الطليعة العربية، والقيادات الناصرية الشبابية في مصر، ذلك بالاضافة الى ان اللجنة العربية لتخليد عبد الناصر كانت قد اخذت التصريح بتأسيسها الشرعي من قبل وزارة الشؤون الاجتماعية، وترتيباً عليه كان التصريح بالتأسيس يتضمن شروطاً مختلفة عن شروط الحزب الجماهيري.

رابطة الطلبة العرب الوحدويين:

وقد تشكلت أيضاً بعد رحيل القائد عبد الناصر، وكان من أبرز قادتها في مصر العربية في ذلك الوقت. عبد الحميد عطية، والمهندس طارق النبراوي، د. صلاح الدسوقي، وقيادات طلابية عربية متعددة، ونجحت تلك الرابطة في تكوين وبلورة قيادات عربية شابة في بعض الساحات العربية، مثل لبنان والسودان وسوريا. ونجحت أيضاً في الارتباط بالدارسين العرب في اوروبا.

منظمة الشباب الاشتراكي الناصري :

لقد اعلن عن تأسيس منظمة الشباب الاشتراكي في ظل الدولة الناصرية عام ١٩٦٥م، حيث تم تخريج الفوج الاول من اعضاء المنظمة من طلاب الجامعات. وكان من بينهم مصطفى الفقي في اكتوبر ١٩٦٠م. وكانت المنظمة هي بوتقة انصهار وتفاعل بين الشباب المؤمنين بأفكار الثورة، وذلك عبر الدورات ومدارس الكادر الفكرية والتثقيفية، وايضا عبر مشاريع العمل والادوار والتكليفات في مواقع العمل الانتاجي والجماهيري. ولقد اعطاها عبد الناصر الكثير من وقته وجهده، وواظب على حضور معسكراتها، وأدار الكثير من الحوارات مع أعضائها. ولعل ذلك كان سبباً في الصدام الواقع بين مؤسسات الدولة الناصرية في تلك الآونة، مثل القوات المسلحة بقيادة المشير عبدالحكيم عامر وايضاً الاتحاد الاشتراكي العربي، التنظيم السياسي من جانب، ومنظمة الشباب على الجانب الآخر، والتي اخذت دفعات من النشاط والحركة الديمقراطية ، فأخذت تهدد وتكشف استغلال النفوذ وبيروقراطية قيادات التنظيم السياسي في بعض المواقع. فلقد كانت على يسار الدولة.

ومن هنا فلقد اعتبرت نفسها مسؤولة عن المحافظة على طريق عبد الناصر، ونهجه الراديكالي بعد رحيله. وفي أول مؤتمر لها عام ١٩٧١م، كلفت بعض قياداتها بالعمل على اصدار كتاب مجمع لأقوال عبد الناصر على ان يرتب ترتيباً منهاجياً، يكشف عن مواقفه في كل القضايا، وإعمالاً لذلك التكليف صدر كتاب «عبد الناصر والثورة». وبعد ذلك تم

تعديل اسم الكتاب في الطبعة الثانية، وذلك بسبب استشعار قادةالمنظمة بخطوات السادات الحثيثة نحو الانقلاب على خط ونهج عبد الناصر، وصدرت الطبعات التالية تحت اسم « عبد الناصر الفكر والطريق»، وأضافت الى اسمها «الناصري» فأصبحت منظمة الشباب الاشتراكي الناصري. وكان من أبرز قادة المنظمة في تلك الآونة علاء قاسم، محمد خليل، رائف أنس، محمد يوسف ، عادل آدم ، عبد المنعم وهدان، محمد عواد، سيد الطحان، عبد العظيم المغربي، رضا طلبة، يحيى عبود وآخرون. وبعد ان اصدرت الدولة قرارها بحل منظمة الشباب الاشتراكي الناصري، توزعت عضويتها التي وصلت الى مئات الألوف من خريجي مدارس الكادر ومعاهده الى المواقع المختلفة من اجهزة الدولة، وجميع مواقع مصر الإنتاجية والجماهيرية والسياسية من احزاب ومنابر وتيارات سياسية.

ورغم اتساع رقعة انتشار الكادر المتخرج من المنظمة، إلا ان اضافاتها للحركة الناصرية كان قليلاً، لا يقاس بنسبة الأعداد الألفية المتخرجة. ولكن من المؤكد أن أجهزة الدولة الحزبية والسياسية والاقتصادية، والثقافية هي التي استقطبت اعداداً واسعة من الخريجين. وكان على رأس هؤلاء د. حسين كامل بهاء الدين، ودكتور محمود الشريف، ود. مصطفى الفقي، ود. الاحمدى ابو النور، ود. أسامة الغزالي حرب، وخيرت الشاطر، المتهم الأول في قضية سلسبيل الإخوانية. د. مفيد شهاب – د. رمزي الشاعر. ويكفي ان نعرف السكرتارية المركزية لمنظمة الشباب في عام ١٩٦٥، حتى نتبين دور الدولة في استقطاب العناصر، فكان على رأس السكرتارية د. حسين كامل بهاء الدين (٣٣سنة)، والدكتور عادل عبد الفتاح (٢٤ سنة)، والدكتور عبد الاحد جمال الدين (٣٤سنة)، والدكتور مفيد شهاب (٢٩سنة)، وهاشم العشيري (٣١سنة) وعبد الغَفّار شكر امين التثقيف (٢٩سنة).

لأول وهلة سوف يتبين لنا ان الوحيد الذي ظل ثابتاً على افكاره الاشتراكية من تلك المجموعة التي تشكلت منها السكرتاريا المركزية هو الاستاذ عبد الغَفّار شكر، والأغلبية انضمت الى احزاب السلطة بعد انقلاب مايو ١٩٧١.

أما الذين ناضلوا من أجل بناء حزب ناصري، فكانوا أعداداً قليلة، وعلى رأسهم محمد عواد، يحيى عبود ، سيد الطحان، عادل آدم، رائف انس، محمد يوسف، فتحي المغربي، محمد فريد حسنين، ويرجع ذلك في اعتقادي الى الدور الواسع لأجهزة الدولة المصرية مما يتسبب في تقليص دور الأحزاب والحركات السياسية التقدمية،ذلك بالاضافة الى حدوث الانقلاب والقبض على بعض القيادات الناصرية، وبزوغ حقبة النفط واستقطابها كل النشطاء من الشرائح الاجتماعية المختلفة من اجل تحسين أحوال معيشتها.

لقاء ناصر الفكري :

وهو يعتبر من ركائز الحركة الشبابية الناصرية، والذي عن طريقه، وعبر سبع سنوات تقريباً – منذ رحيل القائد حتى ١٩٧٧، تم تخريج دفعات من القيادات الشابة، وفي نفس الوقت كان المنبر السنوي لأعلان كلمة الناصرية والموقف الناصري مما يتم داخل مصر والوطن العربي. ولقد تميز هذا اللقاء بانعقادة كل ايلول (سبتمبر) من كل عام، في ذكرى رحيل القائد عبد الناصر، ولمدة ثلاثة ايام. وكان من ابرز قياداته في جامعة عين شمس أحمد الحمدي، محمد حسيب، عادل قاسم، ماجد جمال الدين، طارق النبراوي، محمد سامي، ماهر مخلوف، امل محمود، نازلي عبدالله، والمرحومة فاطمة صالح، ورفعت بيومي، وأحمد سامي الوكيل، مصطفى غزاوى، سيد عبد الغني، عصام الاسلامبولي، حمدي ياسين، حامد جبر، علاء الرياش. ولقد نشأ هذا اللقاء نتيجة سيطرة التنظيم الطليعي في الحركة الطلابية على جامعة عين شمس عبر اتحاد الطلاب. ولهذا اللقاء قضية تجسد التقاء التنظيم الطليعي بطلاب الجامعة النشطاء. فلقد كان التنظيم الطليعي ممثلاً في مسئولي اتصال جامعة عين شمس، وهم المهندس احمد حمادة، والاستاذ عادل الاشوح، والاستاذ مهدي عسر. وفي عام ١٩٦٨ اشترك الطلاب في مظاهرات صاخبة في شوارع القاهرة وبعض المحافظات احتجاجاً على قلة الاحكام الصادرة ضد المسئولين عن النكسة، ورصد التنظيم الطليعي مجموعة من النشطاء في كلية هندسة عين شمس، الكلية التي قادت المظاهرات. وبعد انتهاء المظاهرات بإعلان الزعيم عبد الناصر بيان ٣٠ مارس بدأت قيادة التنظيم الطليعي في جامعة عين شمس مفاتحة العناصر النشطة، وتجنيدها لعضوية التنظيم الطليعي، واقسموا القسم في مكتب السيد سامي شرف، وكان ذلك في نوفمبر ١٩٦٨، وتم تشكيل مجموعتين في كلية الهندسة:

المجموعة الاولى جمعت كلاً من محمد سامي، طارق النبراوي، أسامة عطوة.

المجموعة الثانية جمعت كلاً من احمد الحمدي، بسام مخلوف ، ماجد جمال الدين، محمد اسماعيل.

وكانت تلك العناصر قد دخلت منظمة الشباب الاشتراكي في عام ٦٥– ١٩٦٦، وبعدها تم تجميد المنظمة في عام ١٩٦٧. بعد خلافات نشبت بين قيادة الجيش وقيادة التنظيم الطليعي. وكانت تلك هي الفرصة التي جعلتهم يسيطرون على اتحاد طلاب عين شمس، بعد دخولهم الجامعة. ويحكي المهندس طارق قائلاً : «انهم لا يعتبرون انفسهم نتاج نظام دولة عبد الناصر، رغم نشأتهم في مؤسسات الدولة، وذلك لأنهم كانوا اولاً على يسار تلك المؤسسات، بل ومعارضين لبعض ممارساتها، فيكفي ان اقول: انه في اوائل

عام ١٩٦٨، اي قبل المظاهرات الشهيرة والتي اعقبها بيان ٣٠ مارس طبعنا نشرة عن وجهة نظرنا في منظمة الشباب، وتناولنا فيها اهمية تشكيلها ديموقراطياً وتمت مصادرة النشرة من قبل مباحث أمن الدولة وتم التحقيق معي ومع محمد سامي بشأنها. وهناك واقعة اخرى تؤكد اننا لم نكن نتاج مؤسسات الدولة الناصرية، بعد احداث مايو ١٩٧١، اتخذت مجموعات عين شمس الطليعية قراراً ذاتياً بفتح عضويتها السرية على بعضها البعض وأخذت ثانياً قراراً بالاستمرار التنظيمي، رغم اعلان حل التنظيم واعتقال قياداته».

ولقد افادت تلك الحالة المتمردة الحركة الناصرية الشبابية كثيراً، من خلال سيطرتها على اتحاد طلاب جامعة عين شمس، واستثمارها مناخ عدم العداء السافر في تلك الفترة بين سلطة السادات وشرعية جمال عبد الناصر. فلقد ضم لقاء ناصر الفكري عبر دوراته السبع (السابعة لم تكتمل) اعداداً كبيرة من الطلاب والشباب، وبعض القيادات والرموز الناصرية». وعن طريقه تم طرح الناصرية كمشروع فكري مناضل ومعارض لما يحدث في الدولة، حقبة السادات. وعن طريقه تم فضح وكشف الثورة المضادة للخط الناصري. وعبره تم تجميع بعض دوائر الحركة الناصرية، وخلق تفاعل بينها، بالإضافة لخلق تواصل مع بعض الرموز العمالية والنقابية.

ولقد تميز الرعيل الأول لهذا اللقاء في جامعة عين شمس بسمات الكادر السياسي الحركي ذي النشاط الاجتماعي.

نادي الفكر الناصري :

تلك مؤسسة من أهم المؤسسات الناصرية التي خرّجت أجيالاً متعددة تمثل الآن عصب الحركة الناصرية في مصر. في عام ١٩٧٤ شهر كانون الاول (سبتمبر) اجتمع بعض المتنادين الناصريين في جامعة القاهرة (سمير عزب– سيد الغريب – حمدين صباحي، عبد الله السناوي، كمال ابو عيطة، محمد سعيد ادريس، مجدي رياض، مجدي بدر الدين، احمد عبد الحفيظ، احمد الصاوي، تهاني الجبالي، سامح عاشور، شريف قاسم، سهام نجم، جمال عبد الحفيظ، محمود العكازي، ابراهيم الصياد).

اتفقت تلك الكوكبة على تأسيس نادٍ للفكر الناصري بالجامعة. وفي تلك الفترة كانت جامعة القاهرة بمثابة اهم موقع للحركة الماركسية والشيوعية في وسط الحركة الطلابية. ومن أهم قيادتهم في تلك الفترة احمد عبد الله قائد مظاهرات ١٩٧٢. وكانت حركة التنظيم الطليعي في جامعة القاهرة متعثرة، ودوائر حركتها ضعيفة. ومن أبرز الاسماء الطليعية في جامعة القاهرة :مجدي حماد، عبد الحميد الجزار، جمال عفيفي ، سمير عزب.

لذا فقد قرر الرعيل الجديد، منشىء نادي الفكر الناصري الاهتمام بقضيتين هامتين :

الاولى : تقديم الناصرية كمشروع فكري مستقبلي يحتوي على توصيف وتحديد لمشاكل الأمة، ويطرح الحلول لتلك المشاكل. هذا بالاضافة الى القوى الاجتماعية صاحبة المصلحة في التغيير واداة التغير واسلوب التغير، وتقديم الناصرية أيضاً كمشروع معارض للدولة القائمة، بعد ما كانت ولادتها من رحم الدولة.

الثانية : قضية التنظيم المستقل للناصرية. تلك هما القضيتان المعروفتان في أدبيات الحركة بالتنظير والتنظيم.

ولما كان بعض تلك القيادات المؤسسة لنادي الفكر الناصري، قد التحق بمنظمة الشباب في دورتها الاخيرة قبل حلها، وفي نفس الوقت كانوا حضوراً في لقاء ناصر بجامعة عين شمس، فقد تدارسوا التجربتين، ووضعوا أيديهم على بعض مثالبهما، وأيضاً على قانون تميزها. وكان أو ل انجازهم السيطرة على اتحاد طلاب جامعة القاهرة (حمدين صباحي رئيس اتحاد الجامعة). وحصلوا أيضاً على موقع نائب رئيس اتحاد طلاب الجمهورية لموقع الاعلام. وترتيباً على ذلك تمت السيطرة على جريدة اتحاد الطلاب (الطلاب)، وتأسيس اكثر من جريدة لاكثر من جامعة، مثل (الحوار الصادرة عن جامعة الاسكندرية)، و (صوت حلوان الصادرة عن جامعة حلوان) و(المنصورة) و(رأي الجامعة). وعبر تلك الجرائد تم فتح حوار مع الجماهير عن قضية التنظير في الناصرية والتنظيم للناصريين.

نجد ذلك في عدد (١٤٥) بتاريخ ٣ مايو ١٩٧٦، من «الطلاب» حيث كتب حمدين صباحي في مفتتح الجريدة، وفي صدر صفحتها الاولى تحت عنوان «الاضاءة» مقالاً بعنوان: «على القوى الناصرية ان تجيب على السؤال المطروح: وماذا بعد ؟». لقد كان ذلك بمناسبة رفض المنبر الاشتراكي الناصري.

والاجابة على سؤال الساعة هذا نحدد:

أولاً : وبحساب التاريخ : من هي القوى المتنامية في مجتمعنا، والتي سيرتفع معدل تناميها بإطراد، لانها ترتبط بالهموم الحقيقية للانسان المصري، وتعي مشاكل هذا الواقع بلا زيف او تزييف، وترتبط – ارتباطاً مصيرياً، باهداف قوى شعبنا.. ومن هي القوى التي سيشهدها جيلنا، وهي تضمحل، وتسقط لاقطة انفاسها الاخيرة في مقابر التاريخ، لان مصالحها ضد الاغلبية، وتطلعاتها على حساب الجماهير، وتعبيرها عن الشارع المصري، ادعاء زائف.

من هي القوى النامية شعبيا؟، ومن هي القوى الهابطة؟. ذلك بحساب التاريخ ما يحدد «ماذا بعد» ؟. بغض النظر عن القوى النسبية لكل منها في اللحظة الراهنة.. ثم ان الاجابة تحدد ثانياً وبحساب الواقع ... أساليب الممارسة السياسية اليومية، وكيف تكون الحركة الحقيقية مع الجماهير صاحبة المصلحة الحقيقية في الثورة .. الجماهير المنزوية بعيداً عن أضواء المدن الساكنة في قلب مصر الأخضر، الممتد على ضفاف النيل، من جنوب أسوان حتى بحيرة البرلس.

إن القوى الناصرية أكثر حاجة للإجابة على هذا السؤال في ظل عدة اعتبارات لعل أهمها :

اولاً : الحجم الهائل والامتداد الواسع للقوى الناصرية في انتشارها الأفقي فوق خريطة مصر، هذا الانتشار الذي يقابله قصور في قنوات التوصيل بين هذه القوى او البؤر والتجمعات الناصرية، مما يؤدي الى إهدار كثير من طاقاتها، والمصادرة على امكانيات الحركة المنسقة لها.

ثانياً : غياب التجربة التنظيمية لقوى الناصرية .. ذلك ان الظرف التاريخي الذي تبلورت فيه هذه القوى وتنامت كتيار شعبي واسع وممتد، لم يتح لها بالدرجة الكافية ممارسة واعية تنظيمياً او خبرة طويلة بطبيعة العمل السياسي في مصر.

ثالثاً : افتقاد الناصرية كتيار الى الصياغة الواحدة نظرياً لأسس المنهج الناصري ومفاهيمه، وإلى كثير من التفصيلات النظرية التي لا غنى عنها كضرورة للوحدة الفكرية لكل المنتمين لهذا التيار، وكمقدمة لوحدة التحليل للواقع الراهن والحركة خلاله. ان هذه الاعتبارات تكشف عن حقيقة الأزمتين الأساسيتين اللتين تواجههما الناصرية في مصر، بل في الوطن العربي كله، وهما أزمة التنظير، وأزمة التنظيم.

والأزمتان، كتحد، تواجهان هذا التيار الناصري الشعبي باطراد، تفرضان عليه ان يقيس حركته اليومية، وأن يجيب على السؤال الذي يواجهه الآن إجابة عملية تضع في اعتبارها أول ما تضع، انها ستكون - هذه الاجابة - عملية ومعطاءة بقدر ما تستطيع ان تقترب، عملياً، من مواجهة هذا التحدي، بوضع الصياغة النظرية الواحدة جماعياً للناصرية كمنهج سياسي بكل أبعاده، وبحل أزمة التنظيم الذي يتحول به هذا التيار الشعبي الواسع الى قوة منظمة قادرة على التأثير المتناهي حتى يفرض ارادته، تحقيقاً لاهداف قوى شعبنا العامل.

ولم يكن ذلك هو الهم الوحيد الواقع على عاتق ذلك الرعيل الناصري في جامعة القاهرة. فلقد كان حريصاً ان يقدم نموذجاً ديمقراطياً حقيقياً للقوى السياسية الأخرى، وبالذات بعدما تعالت الاتهامات من تلك القوى للدولة الناصرية بأنها لم تكن ديمقراطية.

ولما كان حمدين صباحي رمزاً من رموز هذا الرعيل، وقد نجح في موقع رئيس اتحاد طلاب جامعة القاهرة، فلقد تبلورت في فترة فترته كل القوى السياسية في جامعة القاهرة، بعد أن أخذت شرعية التواجد والنضال بين صفوف الطلاب وظهر كل من نادي الفكر الاشتراكي (ماركسي). وظهرت الجماعة الاسلامية، هذا بالإضافة لنادي الفكر الناصري، ولم يقف الناصريون في جامعة القاهرة عند ذلك، بل لقد تبنى نادي الفكر الناصري دعوة لتحالف اليسار داخل الجامعة وشكل تعبيراً عن ذلك لجان نوفمبر التقدمية، والتي شارك فيها كل من (نادي الفكر الاشتراكي ونادي الفكر الناصري).

وقبل تشكيل لجان نوفمبر كان هناك اسبوع «الجامعة في المجتمع»، وقدموا نقداً واضحاً وعالياً لسلبيات النظام. وعن ذلك يكتب حمدين صباحي في جريد ة الطلاب العدد (١٥٢) الصادر في اول كانون اول (سبتمبر) ١٩٧٦ «تجتاز جامعة القاهرة الان ، بعد كل تطورات الاحداث الاخيرة التي اعقبت اسبوع «الجامعة والمجتمع» واحدة من أدق مراحل تطور الحركة الطلابية.. فلقد بدأت القوى التقدمية بالجامعة تتعلم درس الواقع والتاريخ.. تتلعم ان التقاءها قد تعدى بكثير الرغبة المخلصة الى الضرورة الملحة .. وبدأت القوى التقدمية تعي بالفعل لا باللفظ فقط ان تغير علاقات الانتاج في المجتمع لمصلحة الرأسمالية الطفيلية النامية، والاقطاع العائد، وما ارتبط به من تفريغ لأدوات التعبير الديمقراطي من أي محتوى تقدمي، وما ترتب عليه من سياسات في مجال قضايا الوطن ليس مجرد تراكم بالكم في الحياة الاجتماعية ، بل هو انتقال بالكيف في طبيعة هذه الحياه، بما يعني – بالطبيعة – تغير القيم والعادات ومؤثرات الوعي لدى المواطن.

وباعتبار الحركة الطلابية ظاهرة خاصة من ظواهر المجتمع السياسي منضبطة بالضرورة ، تأثيراً وتأثراً بحركة المجتمع، فإنه في اطار ما هو عام، اي حركة القوى الاجتماعية السياسية في المجتمع، كان لا بد ان تطور الحركة الطلابية من برامجها وشعاراتها تفاعلاً وتعبيراً عن حركة الواقع الاجتماعي والسياسي.. وفي إطار ما هو خاص، اي حركة القوى السياسية داخل الجامعة، بالإضافة الى المعطيات الخاصة لواقع الجامعة، كان لا بد على هذه القوى السياسية ان تطور اساليبها وادواتها، وأن تعيد النظر في تحالفاتها وخصومها..

ما تأثير الجبهة ولجان نوفمبر التقدمية على الحركة الشعبية الناصرية؟

هذه هي القضية الاهم.. لانها المعيار الصحيح لمدى صحة او عدم صحة اي موقف تكتيكي ..

ان الحركة الشعبية الناصرية قد حددت لها الآن هدفاً استراتيجياً اساسياً، وهو النضال من اجل انتزاع التنظيم الشعبي الناصري ...».

لقد استفاد ذلك الرعيل الناصري الشاب، والمجسد في نادي الفكر الناصري بجامعة القاهرة، من سيطرته على سلطة اتحاد الطلاب، ولسان حال الطلاب (الطلاب). ولقد وعى هذا الرعيل اهمية ربط الكادر الطلابي بالمجتمع وقضاياه. ولذا فقد نصت لائحة النادي على اهمية وضرورة اسكان الكادر الطلابي في موقع للعمل الجماهيري (الحي السكني)، وأن يشارك في مشاريع خدمة المجتمع (معسكرات ردم الترع والقوافل الطبية والرعاية الاجتماعية، ومحو الأمية وفصول التقوية المدرسية».

واهتم ذلك الرعيل بالتعرف ثم الارتباط ببعض كوادر الطلاب في المحافظات المصرية، مما نتج عنه انشاء عدة اندية للفكر الناصري داخل الجامعات المختلفة في مصر، مثل نادي الفكر الناصري بجامعة الاسكندرية والزقازيق واسيوط والمنصورة والمنيا - وبعض المعاهد العليا.

وانضمت قيادات اخرى من الجامعات الاقليمية والمعاهد الى كوكبة جامعة القاهرة، مثل (عاطف جلال، أمين اسكندر، حسام رضا، مجدي زعبل، مجدي المعصراوي، محمد بدر الدين، محمد منيب، عبد الحليم قنديل، عادل الجوجري، طاهر عبد الحليم، محمد بسيوني، ممدوح كامل، ابراهيم عبد القادر، محمد عباس، عادل محمود). وهكذا حقق نادي الفكر الناصري، اولاً : إبراز الناصرية المتفصلة عن مؤسسات الدولة والمعارضة للنظام.. وحقق، ثانياً: الاهتمام بالبلورة النظرية للناصرية.. وحقق ثالثاً : تقديم نموذج لممارسة السلطة الناصرية في الجامعة، والذي أعطى عبر بواباتها شرعية الوجود لكل القوى السياسية، وضرب نموذجاً في الديمقراطية، واقام جبهة تقدمية بين نادي الفكر الاشتراكي وبينه. وكانت عينه على ما يحدث في المجتمع.. وحقق، رابعاً : ربط الحركة الناصرية الطلابية بالقوى الاجتماعية في المجتمع .. وحقق، خامساً : الاهتمام المتزايد والعملي بقضية التنظيم الشعبي الناصري.. وحقق وحدة تفاعل بين الكادر الناصري في جامعات مصر، وتجسد ذلك في اعلان وثيقة الزقازيق ولجان العمل الناصري.

وثيقة الزقازيق ولجان العمل الناصري :

في مدينة الزقازيق بمحافظة الشرقية اجتمع ما يقرب من ستين من كوادر الحركة الناصرية في الجامعات المصرية، والمنتمية لأندية الفكر الناصري. وبعد حوار وتفاعل وتقويم لمسيرة الماضي وتأملات في المستقبل استمر لمدة خمسة أيام، تم اعلان وثيقة الزقازيق، والتي شملت موقفاً واضحاً لا لبس فيه من نظام السادات، ووصمته بخيانة

مشروع الأمة التحرري والتنموي الوحدوي. ووجّهت دعوة لكل القوى الناصرية لإسقاط هذا النظام، واخرجت للوجود أداة لإدارة العمل اليومي، وكلفت تلك الأدارة بالتواصل مع كل المواقع الناصرية الجماهيرية في المحافظات، من اجل الحوار على الوثيقة، وتشكيل لجنة للعمل الناصري في كل محافظة من رموز العمل الناصري. وقد شملت تلك الادارة كلاً من (د.سيد الغريب، امين اسكندر).

ثم تم عرض الوثيقة على لقاء ناصر الفكري السادس (سبتمبر ١٩٧٦)، فتمت الموافقة عليها، وعلى لجان العمل الناصري. وفي تلك الآونة وعى الرعيل البارز في حركة الناصريين الطلاب أهمية أن يتعود التيار الناصري على قدر من السرية في حركته تحسباً للأيام القادمة.

وتكشف لنا صفحات جريدة الطلاب، عدد ٨ أكتوبر ١٩٧٦، العدد (١٤٩):

(الناصريون .. من هم .. وماذا يريدون؟.

وحدة التحليل ... والبرنامج.

تتقدم الحركة الناصرية خطوات جديدة الى الامام في اتجاه تحقيق المهمة الاساسية للناصريين في هذه المرحلة، وهي اقامة «التنظيم الشعبي الناصري».

وقد عبر عن هذه الخطوات انجاز لقاء ناصر الفكري السادس،والذي استطاعت المواقع الناصرية المشتركة فيه – ومعظمها طلابي وشبابي – ان تبلور قناعاتها حول رؤية الناصريين للواقع الراهن، بتحليل الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، وتحليل طبيعة النظام السياسي القائم والموقف منه، وتحليل طبيعة وتكوين وأهداف القوى السياسية المتحركة في الشارع المصري، وأهمها اليمين بدرجاته، ما بيّن الرجعية المعلنة والتستر وراء شعارات ثورية الشكل، واليسار الماركسي بفصائله وانشقاقاته، والتيارات الدينية المسيّسة بمواقفها المتباينة، ثم تحديد الموقف الناصري من هذه القوى.

إن الاستمرار في الاجتهاد الفردي لم يعد مطلوباً في ظل توحد آراء الناصريين على تحليل للواقع تمت صياغته جماعيا بالحوار الديمقراطي بين جميع المواقع الناصرية المتفاعلة في لقاء يوليو الفكري الاول بالزقازيق، وخرجت منه «الوثيقة الناصرية لتحليل الواقع»، والتي تحركت بها من بعده «لجنة العمل الناصري» ، التي شكلها اللقاء. ثم جاء إقرار لقاء ناصر للوثيقة، بعد تعديلات أكدت على جوهرها، ورسخت منهجها في التحليل...

.. تطرح الوثيقة تحليلاً للواقع الاقتصادي والاجتماعي يكشف حقيقة التخلف الذي يعانيه وطننا، وحقيقة التفرقة الطبقية التي تتميز بها قلة على الاغلبية. ثم تكشف عقم السياسة التي تطرحها السلطة الآن، وهي سياسة «الانفتاح الاقتصادي»، لإنها غطاء لتمرير التراجعات عن خط الثورة في كل المجالات، وتحت شعار الانفتاح.. إن النمو الخطير للرأسمالية الطفيلية في مصر، يدلنا على ان شعارات الانفتاح لن تجدي نفعاً للجماهير الواسعة، ولكنها بوابة مفتوحة لنمو تحالف الاقطاع مع الرأسمالية الطفيلية لضرب مصالح قوى شعبنا العاملة.

إن الواقع الاقتصادي والاجتماعي الذي يفرز الاقطاع والرأسمالية الطفيلية كتحالف يصعد الآن إلى السلطة بمؤسساتها التشريعية والتنفيذية، وإلى أجهزة الاعلام ليمارس التضليل والخداع وتزييف الوعي نفس الوقت الذي يصعد فيه الى امتلاك الثروة ليستغل شعبنا، هذا الواقع هو نفسه الذي يفرز القوى صاحبة المصلحة في الثورة، ويحددها في الفلاحين والعمال والمثقفين الثوريين والرأسمالية الوطنية المنتجة وغير المستغلة، والجنود أبناء التحالف الحقيقي.

إن القوى صاحبة المصلحة الحقيقية في استمرار الثورة وتعميقها عليها في كل الواقع، أن تتحرك مع طلائعها الثورية التي ينبغي ان تبادر الآن من أجل تغيير هذا الواقع ثورياً في اتجاه تحقيق أهداف قوى شعبنا العامل في الحرية والاشتراكية والوحدة، وفي حركة الطلائع الثورية مع جماهيرها.

ولذلك يصبح من الضروري تحليل القوى السياسية الاخرى لتحديد «الخصومات» و«التحالفات». وهنا فإنه لا مهادنة مع اليمين لانه تعبير سياسي عن القوى المستغلة في هذا الوطن، والصاعدة على اكتاف الجماهير لتمتص عرقها ودمها، ثم انه لا تحالف مع اليسار الماركسي، إلا في وجود التنظيم الشعبي الناصري، ليكون التنسيق في حدود تخدم الاهداف المشتركة في هذه المرحلة.

ولا بد من التفاعل مع القوى الدينية التقدمية الملتزمة بأهداف قوى شعبنا العامل. وفي اتجاه انجاز البرنامج الناصري، جاء تحديد «المهام الاساسية للحركة الناصرية» والذي خرج عن لقاء ناصر الفكري السادس، والذي ينبغي ان تتلقفه كل المواقع الناصرية الان لتناقشه تفصيلاً بالتعامل اليومي مع الواقع الحي من الريف والمصانع، وتتيح من خلال حركتها في الشارع، وارتباطها بالجماهير برنامجاً ناصرياً تحتشد وراءه الجماهير صاحبة المصلحة وتناضل من اجله»..

لقد تميزت تلك المرحلة من رحيل القائد عبد الناصر حتى أحداث يناير ١٩٧٧م في تاريخ الحركة الناصرية بالآتي :

١- انقطاع التواصل بين أجيال الحركة الناصرية: وعندما نتناول انقطاع التواصل، فيعني ذلك افتقاد الآليات من شبكة اتصال وتراث فكري وتنظيمي وخبرات حركية. فلقد خرجت الحساسية الجديدة للحركة الناصرية، دون أن تكون متواصلة مع حساسية رجال الدولة الناصرية، وذلك عكس كل التيارات السياسية العقائدية، مثل الماركسية، وحركة الاسلام السياسي.

لقد خرج الجيل الشاب في الحركة الناصرية عبر التجربة والخطأ.

٢- اعتماد الحركة على المبادرات الفردية . وكان ذلك طبيعيا في ظل غياب استراتيجية واضحة المعالم للحركة الناصرية، وفي ظل التجربة والخطأ، وفي ظل غياب التواصل بين أجيال الحركة. لذا فالمبادرة الفردية التي تنم عن وعي متقدم لأحد الكوادر، مما يجعله مرشحاً لاداء دورا في سحب الحركة على أرضية تلك المبادرة، دون ان تكون الحركة هي صاحبة المبادرة، مما عرض هذا الجيل لمرض الشخصانية.

٣- غلبة التفكير الطلابي على الحركة الناصرية : لقد كانت الجامعة هي الحضن الدافئ للحركة الناصرية وللفكرة الناصرية. وكان أبرز مناضلي الحركة من صفوف الطلاب في تلك المرحلة، مما وسمَ الحركة الناصرية بانتشار الخطاب الطلابي وسطها. ولعل هذا قد تسبب في اتساع الهوه بين الجماهير صاحبة المصلحة في الثورة، فلم يع الطلاب في تلك المرحلة الفرق بين وعي الطلائع المتقدم في الجامعة، والمصالح المتقدمة في المجتمع، وترتيباً عليه الفرق بين لغة الخطاب في الجامعة، ولغة الخطاب السياسي في المجتمع، بالإضافة إلى سلبيات الحركة الناصرية، آخذين في الاعتبار مناخ الانفتاح، وانقلاب قيم المجتمع، وبدء العمل لترتيب الساحات العربية لقبول فكرة السلام مع العدو الصهيوني.

من يناير ١٩٧٧ حتى ١٩٨٥ م:

لقد تميزت أحداث يناير ١٩٧٧ بإبراز التيار الناصري في ساحة العمل السياسي الجماهيري الواسع، ولعل انتشار صور عبد الناصر، ورفع شعارات ناصرية، واعتقال مجموعة من الرموز الناصرية الشابة، كان تعبيراً عن مصداقية ذلك الانتشار.

لقد جاءت الانتفاضة والحركة الناصرية في مصر تمتلك أداة «لجنة العمل الناصري»، والتي ضمت مندوباً عن كل موقع ناصري في أنحاء الجمهورية. ولقد استطاعت تلك المواقع واللجان ان تشارك بجدية في انتفاضة الجماهير المصرية، يومي ١٩،١٨ يناير. وكان معظم نشطائها في الصفوف الاولى للانتفاضة في مختلف أنحاء الجمهورية. وبقدر

ما اثبتت تلك الانتفاضة ناصرية الشارع المصري، إلاّ انها كشفت ايضاً عجزاً واضحاً في الطليعة الناصرية.

فلا يستطيع أحد أن يدعي أن الطليعة الناصرية كانت قائدة للانتفاضة، بمعنى صنع وتخليق الانتفاضة. لكن من المؤكد انه كان هناك التحام واسع مع الجماهير المنتفضة في تلك المرحلة. ولا يستطيع أحد أن يدعي ان لجنة العمل الناصري قد اعطت تعليمات لاعضائها للمشاركة في تلك التظاهرات، ولكن من المؤكد ان التراكم الحادث في وعي ونشاط وخبرة شباب الحركة في ذلك الوقت قد اسهم في توجيه الاعضاء للمشاركة. وتصديقاً لذلك يكفي ان اذكر واقعة تخص كاتب هذه الدراسة: «حيث كنت قائداً لمظاهرة من اضخم المظاهرات في ميدان التحرير حتى ميدان رمسيس، مروراً بميدان العتبة، وعند ميدان رمسيس، وبعد ان دارت التظاهرة في شوارع تلك المنطقة، قمت ببلورة أهداف التظاهرة في عزل وزارة ممدوح سالم، واعلان جميع الأحزاب السياسية المعبرة عن كل القوى السياسية، والغاء رفع الاسعار، وزيادة مرتبات العاملين بالحكومة والقطاع العام..الخ.

وما يؤكد ان عناصر لجنة العمل الناصري كانت قد نزلت إلى الشارع دون توجيهات، هو اكتشافي في المظاهرة تلك لكل من حمدين صباحي، عاطف جلال، صفوت حاتم، عبد الله السناوي، جمال فهمي، محمد حماد.وكلهم كانوا اعضاء قياديين في لجنة العمل الناصري.

لقد كانت تلك الانتفاضة تعبيراً عن نهاية مرحلة وبداية مرحلة أخرى، تعبيراً عن عدم كفاءة الأدوات، مما استدعى الشعور بأهمية التفكير الجديد وأهمية امتلاك أدوات اخرى مكملة تنسق مع المرحلة الجديدة، مرحلة ما بعد الانتفاضة.

فلقد كان العجز واضحاً في الطليعة الناصرية، وذلك بعدما انكشف لنا اثناء حركتنا لجمع بعض التبرعات لإعالة المعتقلين من الناصريين في تلك الاحداث، وكان على رأسهم (سيد الغريب، حمدين صباحي، محمد عواد، سيد عبد الغني، حسين معلوم، امل محمود، عادل بيجرمي، محمد سلماوي، احمد الجمال، محمد النمر وآخرون» ان الحركة تحتاج الى تخطيط مركزي، وإنها تحتاج الى مزيد من القيادات الواعية الصلبة، فلم يعد يكفي عقد المؤتمرات الواسعة لأنصار عبد الناصر، ولم يعد كافياً تنظيم الطليعة في تنظيمات علنية مثل لجنة العمل الناصري، وفي وسط الحصار الامني والمراقبة والمطاردة. نضجت الرؤية من خلال حوار جماعي شمل كلاً من (عبد الله السناوي، مجدي بدر الدين، امين اسكندر، سمير عزب، كمال ابو عيطه).

فلقد اصبح من المؤكد أن النظام الساداتي، سوف يواجه بالعنف كل القوى الناصرية والتقدمية، لاستكمال مسيرة الانقلاب. وبعدما حدث شرخ عميق في شرعية وجوده، كان بسبب تلك الانتفاضة الواسعة في ١٩،١٨ يناير ١٩٧٧.

وكان ذلك هو المناخ الذي اسست فيه طليعة سرية في وسط الحركة الناصرية الشابة، وقد شملت تلك المحاولة كل رموز الجيل وتلك الحساسية الجديدة، من جميع روافد الحركة (الاندية الفكرية والسياسية، ومنظمة الشباب، وبعض القيادات العمالية). وكانت تلك لحظة ميلاد مرحلة جديدة بملامح جديدة. ولقد اتسم هذا التنظيم بغلبة العناصر الطلابية عليه، وبالتالي التفكير المتسم بالتوتر والانفعال، والميل الى التنظير، وعدم القدرة على استخدام خطاب سياسي يتسق مع وعي الجماهير البسيطة. وأيضاً اتسم ايضاً بالتجريبية، فلقد كانت الخبرة منعدمة وبالذات خبرة النضال السري والأمني وديمقراطية البناء التحتي النضالي، وطرق ادوات اتصال مع حلقات اوسع من الانصار والجماهير، ومعضلة الامكانيات وتوافرها في ظل امكانياتنا المتواضعة. ولعل كل اسباب القصور تلك كانت سبباً في انفجار التجربة بعد ثلاث سنوات من عمرها. ولكن بعد ان نجحت أولاً في تثبيت فكرة النضال السري وسط الحركة الناصرية، بعدما كانت متعودة على النضال العلني الجماهيري الواسع. وبعد ان اعطت دفعات معنوية كبيرة للحركة، ومرت من عنق زجاجة البطش والعنف الذي استخدمه النظام الساداتي، بعدما فقد شرعية وجودة بعد الانتفاضة، وقيامه بتوقيع معاهدة كامب ديفيد – بقدر قليل من التضحيات، حيث اعتقل عدد من رموز التنظيم والحركة. وكان من بينهم حمدين صباحي، كمال ابو عيطه، محمد حماد، امين اسكندر، حسين عبد الغني، حنفي عبد العال، صفوت حاتم، محمد عواد، سيد عبد الغني.

ورغم ذلك استمرت محاولات بناء الطليعة الناصرية، عبر اسماء اخرى، وبمشاركة عناصر جديدة وقديمة في محاولة الاستفادة من نواقص التجربة الاولى، ورغم بدائية العمل الطليعي الاول، لم تحدث اختراقات أمنية لصفوف الحركة.

ولعله من المفيد ذكر بعض الاحكام العامة التي كانت ضابطة لعملنا الأول، ولم تكن منصوصاً عليها. ولكنها كانت بمثابة العرف السائد، الأول منها كان يختص بالتمويل، فكان محرماً لدينا قبول تمويل من اية دولة أو جهة مهما كان خطها السياسي. والثاني منها كان يختص بسفر اعضاء الحركة للعمل في خارج مصر، وكان ايضاً غير مسموح بالسفر مهما كانت المبررات والأسباب.

ومن المعلوم ان اقساماً من معارضة السادات ونظامه قد تشكلت من العناصر التي خرجت من مصر، وذهبت الى بعض الأقطار العربية مثل العراق وليبيا وسوريا ولبنان ولندن وباريس.

ومن المؤكد ان تلك الاحكام العامة قد أفادت كادرنا الثوري في تربيته تربية صلبة، وأفادت ساحة العمل الناصري في مصر، حيث حافظت على الزخم الموجود في صفوف الناصرية. ومن المؤكد ايضا انها افقدتنا بعض الامكانيات التي كان لا بد من توافرها لتشغيل أفضل الكوادر، وتلبية بعض الحاجات الانسانية، والعمل على استمرار تلك السياسة يتطلب حل لبعض المشاكل الحياتية للكادر، والقدرة على التخطيط المستقبلي.

وهذا ما كشفته لنا الأيام التالية.

اما الخط الآخر للنضال السري، فقد شمل بقايا تنظيم الطليعة العربية والتنظيم الطليعي داخل مصر. وهو تنظيم سري تعود أصوله الى فترة حكم جمال عبد الناصر، وكان يمارس حركته داخل القطر المصري، تحت اسم «الطليعة الاشتراكية»، وفي الساحات العربية تحت اسم «الطليعة العربية». وقد وجه هذا المحور الطليعي عمله داخل الساحات العربية لعدم توافر عناصر له في داخل الساحة المصرية تسمح له بالوجود المؤثر، وتوفر له امكانيات كبيرة من قبل بعض الانظمة التي كانت تحاول ان تستقطب الحركة الناصرية، من اجل القيام بدور قومي أو التأثير على الساحة الداخلية في مصر، ولقد كانت رابطة الطلبة العرب الوحدويين هي المنبع والرافد لهذه الطليعة.

لكن من المؤكد ان تنظيم الطليعة العربية قد أثر على الساحات العربية، رغم ما شابه من عيوب وقصور، أدى الى تفكك التجربة وتحللها. وقد اثر ذلك على الساحة الداخلية في مصر، عبر وجود بعض العناصر التي تم استقطابها داخل الساحة المصرية، وأيضا نقل لنا عدوى التمويل والتبعية لبعض الانظمة العربية. ولعل السرية تقتضي منا عدم الخوض التفصيلي في تلك التجربة.

وعلى محور العمل العلني الجماهيري، ظلت المحاولات مستمرة من المنبر الاشتراكي بقيادة المناضل كمال رفعت ومعه شباب الحركة الناصرية آنذاك إلى التنظيم الشعبي الناصري (كمال احمد، محمد يوسف، أحمد الجمال، محمد سلماوي، ومعهم الشباب الناصري) مروراً بالتعاون مع تنظيم اليسار الذي قام المناضل كمال رفعت، ومعه كل من عبد العظيم المغربي، ومحمد عقل، ثم المناضل عبد الهادي ناصف، وكمال أبو عطية الذي انضم بقرار من شباب الحركة الناصرية).

وفي عام ١٩٧٨م دخلت بعض قيادات الحركة الناصرية الشابه المعتقل، تحت قضية عنونت باسم قضية التنظيم الشعبي الناصري، وكان على رأس المعتقلين حمدين صباحي. وبعدها جاءت محاولة كمال احمد، عندما اعلن خلال المؤتمر الفكري الذي عقده شباب الحركة الناصرية في نقابة الصحافيين . بمناسبة ذكرى ٢٣ يوليو الـ ٣١، انه تقدم بإخطار تأسيس حزب ناصري باسم «الحزب الناصري– تنظيم تحالف قوى الشعب العامل». وبعد حوارات ومداولات، تم الاتفاق بين شباب الحركة وكمال احمد، على ان يتم الاكتفاء بتقديم الإخطار، وأن يتم استكمال الاوراق والوثائق بعد ان يكون قد تم جمع توقيعات عشرة آلاف مؤسس. يقوم مندوبون عنهم بتقديم الاوراق. وهكذا نكون قد حققنا شرط وجود الحزب الواقعي قبل تقديم الطلب. وبدأت خطة انجاز ذلك، إلاّ ان كمال احمد قام بتقديم الأوراق باسم اثنين وستين مؤسساً، دون ان يكمل المسيرة المتفق عليها. وعند ذلك قاطعه الشباب ، ورفضوا العمل معه.

وقبل ذلك بقليل، رحل عن عالمنا المناضل كمال رفعت، وأخذ موقعه المرحوم عبد الهادي ناصف. وظلت مسيرة النضال الجماهيري لنيل شرعية للحركة الناصرية، تتراوح بين تقديم الاخطارات، و رفع القضايا أمام المحاكم، والعمل داخل الاحزاب العلنية الشرعية، مثل التجمع والعمل ومصر الفتاة، وبين النضال العلني والسري لنيل شرعية الوجود الناصري المستقل.

وفي محاولة من السلطة للاقتراب من تفكير الشباب الناصري في تلك المرحلة، طلب من رمز من رموزهم تقديم رؤيته عن الناصرية، وبعد حوارات تم تقديم ورقة تحت اسم «الناصرية .. تعريف نظري» واحتوى على :

(١)– الناصرية : التعريف .

(٢)– الناصرية : المشروع الحضاري.

(٣)– الناصرية: المضمون الفكري .

(٤)– الناصرية: ملاحظات أخيرة.

جاء بهذه الورقة ان الناصرية هي ايدولوجية، وبشكل اكثر تحديداً هي ايديولوجية الثورة العربية. او ايديولوجية المشروع الحضاري العربي. فهي نتاج التجربة الثورية الرائدة لشعبنا العربي، تحت قيادة جمال عبد الناصر. وهي ايديولوجية شاملة، بمعنى امتدادها الى كل قضايا الوجود العربي، وطرحها لاعادة صياغة هذا الوجود في مشروع

حضاري حديث. وهي ايدولوجية انسانية، حيث الأصل في مشروعها الحضاري هو تحرير الانسان العربي كل القيود التي تعوق انطلاقه كفرد وكمجتمع. وهي ايديولوجيا قومية بحكم تعبيرها واستهدافها لمصلحة الامة العربية قاطبة. وهي ايديولوجيا تقدمية. بمفهوم يختلف عن التطور والتغير، فهو مفهوم يحمل معنى قيمي أخلاقي غير محايد، ويتجه نحو مثال أعلى أو مستهدفات محددة لجماعة بشرية في لحظة تاريخية. وهي ايديولوجيا مستقبلية، حيث ان قيمة الزمان التاريخي في إطارها لا تعدو كونها مرجعاً تراثياً، تستمد منه الناصرية ثوابته، وتتخطى متغيراته، الى حيث تصنع نسيجاً متكاملاً للمستقبل. وهي ايديولوجيا راديكالية، حيث موقفها من الأبنية والعلاقات المجتمعية والاقليمية والدولية، هو موقف النقد، ومن ثم ضرورة التغيير العميق والشامل والحاسم. الناصرية بهذا المعنى منظومة المفاهيم عن الكون والمجتمع والانسان والفكر، وان كانت كأيديولوجية تطرح ملامح منهج علمي انساني قادر بمزيد من الاجتهادات الفكرية ان يصل الى صياغة متكاملة لعلوم اجتماعية .

والناصرية كأيدلوجيا ليست تبريراً ذرائعياً لواقع موجود، او حتى لحقبة تاريخية ماضية، وإنما هي رؤية فكرية تفسر الوقائع التاريخية والآنية من منظور جدلي مؤمن بترابط أجزاء الظاهرة الاجتماعية العضوي والجدلي، وتعتمد وحدة التعامل المنهجي والنظري عبر أبعاد تلك الظاهرة، عبر الأداة الوحيدة لذلك، وهي الانسان (الوعي – الارادة).

عام ١٩٨٠م وارتكاب الخطيئة:

في عام ١٩٨٠م خرجت قيادات التنظيم الطليعي من سجن السلطة. وكان قد خرج شعراوي جمعه، وضياء الدين داود وآخرون من سنوات سبقت خروج (علي صبري، محمد فائق، فريد عبد الكريم).

ورغبة من شباب الحركة الناصرية ورموزها في إظهار الحركة الناصرية بمظهر قوي ومتحد بفاعلية كبيرة في الشارع السياسي، تبنوا فكرة إقامة احتفال جماهيري ضخم بمناسبة ذكرى ٢٣ يوليو، يتحدث فيه ممثل واحد لكل الناصريين، وطرحوا دعوتهم على المرحوم عبد الهادي ناصف الذي رحب بالفكرة، وسأل من هو الممثل الوحيد من وجهة نظرنا، فأبلغناه انه فريد عبد الكريم. سأل لماذا؟، أجبناه لعدة اسباب : اولاً : فريد رجل عمل سياسي، ولم يتولَّ مسؤولية تنفيذية، اي لم يستوزر .

ثانياً : هو الوحيد حكم عليه نظام السادات بالاعدام الذي خفف للمؤبد.

ثالثاً : رفضه الاعتذار من داخل السجن، كما فعل غيره.

رابعاً : هو وقلة معه، رفضوا اختيار السادات بعد عبد الناصر.

خامساً : تواصله السريع مع شباب الحركة، بعد خروجه من السجن مباشرة.

إلا ان المناضل عبد الهادي ناصف أبلغنا نحن المتحاورين معه (حمدين صباحي، امين اسكندر، محمد سامي) بأن الذي سوف يتحدث في المؤتمر، وذلك في الجلسة الثانية من الحوار في (جروبي سليمان باشا) كل من السادة الفريق أول محمد فوزي، محمد فائق، فريد عبد الكريم.

عند ذلك طرحنا عليه أهمية تمثيل شباب الحركة الناصرية في المتحدثين لهذا المؤتمر، وذلك حتى لا يتم اغفال دور جيلنا في العشر سنوات الفائتة. فطلب ان نمهله اسبوعاً. وفي الجلسة الثالثة، ابلغنا بأن الذي سوف يتحدث باسم الشباب السيد محمد غفل (نائب في مجلس الشعب، بعد كان قد هاجم التنظيم الطليعي أمام مجلس الشعب في عصر السادات).

عند ذلك شعر الشباب بالانفصال الحقيقي بين المدرستين، المدرسة القديمة والمدرسة الحديثة، والذي تأكد بعد ذلك من خلال الممارسات اليومية، وصناعة القرار، وتصورات العمل وأساليب النضال. ورغم ذلك استمر التعاون والتواصل في طرح وتبني صيغة الحزب العربي الاشتراكي الناصري «تحت التأسيس».

ودار حوار طويل بين رموز الشباب الناصري، وفريد عبد الكريم، تم الاتفاق فيه على البدء في تشكيل الحزب. وكانت رؤية الشباب آنذاك ان ساحة العمل السياسي في مصر، تحتاج لجهود الجميع، وأنه من المحرمات ان تنشق الحركة الناصرية ، حيث مثلت في مخيلتنا تجربة لبنان بوضوح في تلك الفترة. ومنذ ان جمعنا الإطار العلني، برز في العلاقة بين المدرستين قانون الوحدة والصراع، وحدة فيما هو متفق عليه، وصراع على ما هو غير متفق عليه.

من ١٩٨٥ حتى ١٩٩٤م، من تحت التأسيس للشرعية :

في منزل فريد عبد الكريم بالجيزة، اجتمع (حمدين صباحي وعادل آدم وفريد عبد الكريم) وطرح حمدين فكرة تأسيس حزب جماهيري واقعي لا يتعارض مع محاولة أخذ الشرعية المتبناة من قبل كمال أحمد، والتي كانت تنظر أمام المحكمة، ويتلخص مفهوم المدرسة الجديدة (الشباب) لحزب واقعي في الاتي:

١- لا تقديم لأوراق رسمية للدولة.

٢- يقام الحزب في الواقع، وعندما تأتي الشرعية من المحكمة عن طريق الأوراق التي قدمها كمال أحمد، نكون قد عبأنا قوانا الشعبية، ونظمنا صفوفنا.

٣- أن يكون البناء ديمقراطياً، وأمامنا فرصة لمزيد من التعارف والاختيار تحت التأسيس. وتم الاتفاق على فكرة «تحت التأسيس»، والغرض منها كان التحايل القانوني على مسألة تقديم الأوراق الى لجنة الأحزاب، وبالطبع اتسق ذلك مع ظرف المجتمع في ذلك الوقت، حيث طفا على سطح الحياة السياسية الاسلام السياسي بجماعاته المختلفة، وتضافر ذلك مع أن الحركة الناصرية صارت قوة لا يمكن الغاؤها من الشارع في مصر والوطن العربي.

في تلك الفترة أيضاً، لوحظ أن حركة الطليعة العربية كانت قد طرحت في بيروت عام ١٩٨١، اي بعد خروج قياداتها من السجن، أهمية وجود حزب ناصري جماهيري، ولكنها لم تستطع ان تتقدم بذلك داخل مصر في تلك الآونة، لقلة عناصرها، وعدم معرفتها بحقائق خريطة الحركة الناصرية في مصر، وكان لفريد عبد الكريم دور كبير في تفهم تلك الخريطة.

وبعد أن تقدم فريد عبد الكريم بإخطار لوزارة الداخلية يبلغها فيه أنه بصدد الحوار والحركة من أجل التحضير لإعلان الحزب العربي الاشتراكي الناصري، وتم الاتفاق على بدء نشاط المؤسسين، وفي تلك الفترة أيضاً يناضل الناصريون عبر القضاء من أجل أخذ الشرعية القانونية ويناضل رجالات دولة عبد الناصر من الناصريين مع النظام، في الغاء حظر النشاط السياسي عن المفرج عنهم في قضية مايو. هذا بالاضافة الى نجاحهم في إصدار حكم المحكمة الدستورية العليا بعدم دستورية (شرط تأييد معاهدة كامب ديفيد) ضمن الشروط التي يجب أن تتوفر في طلب الترخيص لتشكيل حزب سياسي.

وتمكن الحزب الاشتراكي العربي الناصري (تحت التأسيس) من التواجد على ساحة الفعل السياسي، وذلك عبر حركة الشباب المتسعة في تلك المرحلة، والتي كانت بسبب

واقعة اطلاق الرصاص من الجندي سليمان خاطر على الجنود الصهيونيين في سيناء، وقد تبنى شباب الحركة الدعوة لتشكيل اللجنة القومية للدفاع عن سليمان خاطر. وبالفعل تم تشكيل اللجنة من كل من (المناضل الكبير فتحي رضوان، دكتور عصمت سيف الدولة، الاستاذ أحمد نبيل الهلالي. دكتور أشرف بيومي، دكتورة رضوى عاشور، محمد عبد القدوس، دكتورة لطيفة الزيات، فريدة النقاش. محمد خليل، مجدي أحمد حسين، حمدين صباحي. كمال ابو عطية، مجدي زعبل، أمين اسكندر)، وقد تم اختيار أمين اسكندر سكرتيراً عاماً لهذه اللجنة.

وبدأ التحضير لعقد اللجنة العامة في عام ١٩٧٨، وهو بمثابة المؤتمر العام للحزب «تحت التأسيس»، واتصل بعض رجالات الدولة الناصرية السابقة برجال الدولة آنذاك، لكي يتم التصريح بالاجتماع، لكن وزارة الداخلية أبلغت المرحوم شعراوي جمعة بعدم الموافقة، وتزعم شباب الحركة مع فريد عبد الكريم وكيل مؤسسي الحزب (تحت التأسيس)، عقد الاجتماع حتى ولو حدثت مواجهة مع رجال الأمن، الا أن بعض رجال ١٥ مايو من الناصريين، وعلى رأسهم المرحوم شعراوي جمعة، كان رأيهم غير ذلك.

وتم الاتفاق مع حزب التجمع لاستضافة إجتماع اللجنة العامة. وتم عقد الاجتماع، وفي جلسته الافتتاحية، والتي حضرها بعض من القيادات الناصرية العربية، وبعد كلمة افتتاحية درامية من فريد عبد الكريم، بدأ عمل اللجان، وعلى ضفاف اللجان واجتماعاتها بدأ التباحث حول تشكيل قيادة العمل اليومي، وظهر مرة أخرى على السطح رغبة رجال الدولة في الهيمنة والسيطرة على الحركة، وعدم السماح بمشاركة المدرسة الجديدة لهم في تحمل المسئولية، وسماحهم فقط بتمثيل الشباب بواحد أو اثنين فقط، وسط قيادة يقرب عددها من الثلاثين. هذا بالاضافة الى بروز الجانب التسلطي من شخصية فريد عبد الكريم الذي أخذ قراراً بفصل اثنين من قيادات الحركة الطلابية والشبابية وسط اجتماع اللجنة العامة، وانتهى الاجتماع نهاية درامية بعد قسمته الى فريقين، فريق تقوده المدرسة القديمة، يتشكل من فريد عبد الكريم ، محمد فائق، الفريق الاول محمد فوزي، محمد عروق، عبد العظيم المغربي، عادل آدم، محمد عقل، مصطفى الغزاوي، أحمد شهيب)، وفريق تقوده المدرسة الجديدة (حمدين صباحي، عبد الله السناوي، أمين اسكندر، كمال ابو عطية، أمل محمود، محمد فيومي، محمد سامي، محمد حماد، مجدي بدر الدين، مجدي زعبل، طاهر عبد الحليم، عزازي علي عزازي، محمد منيب، عبد الحليم قنديل، طارق النبراوي، فايز الكرته (قيادي عمالي)، محمد بدر الدين، محمد بسيوني، جمال الشامي، محمد صبره). وهكذا ولد الحزب تحت التأسيس وفي داخله بذرة فنائه، واستمر العمل داخل الحزب لإيمان الشباب بوحدة الاطار العام للحركة الناصرية. الا أن التجربة قد أخذت في التداعي، حتى وصل الأمر إلى أن المستوى القيادي كان يواظب على

اجتماعاته بستة أعضاء من حوالي ثلاثين عضواً. ووصلت الحال إلى درجة يستحيل معها الصمت، بعدما انفرد فريد عبد الكريم بالقرار، وتحلقت حوله مجموعة من العناصر غير المؤهلة، واختلف معه رفاق السجن من رجال الدولة، مثل محمد فائق، محمد عروق، والفريق أول محمد فوزي، والسيد عبد المحسن ابو النور، وعبد العظيم المغربي .. الخ.

وبدأ الشباب مرة أخرى في فتح باب للحوار معهم من أجل المشاركة في اصلاح الحزب وذلك بعدما يقرب من أربع سنوات على مسيرة تحت التأسيس، وشارك في هذا الحوار عبد العظيم المغربي، أحمد حسن ومحمد عروق، واتفقنا على عقد اجتماع اللجنة العامة مرة خرى، من أجل اختيار قيادة جماعية حقيقية، تلجم سلوك انفراد فريد عبد الكريم بالسلطة، والذي أدى الى تدمير الحركة في الحزب «تحت التأسيس». وقد جاء في مشروع وثيقة الدعوة لانعقاد اللجنة العامة الآتي:

«نحن الموقعون على هذه الوثيقة ندعو، الى انعقاد اللجنة العامة للحزب الاشتراكي العربي الناصري في غايته ٢٣ يوليو ١٩٩٢، إعمالاً لنص اللائحة الداخلية، والذي يجيز لـ (٢٥٪) من عضوية اللجنة العامة حق دعوتها للانعقاد (المادة ٢٨. الباب الثاني من لائحة الحزب : يجوز عقد اجتماع طارئ للجنة العامة للمؤسيين بدعوى من وكيل المؤسسين أو من أمانة اللجنة أو بناء على طلب ٢٥٪ من الاعضاء).

ويؤكد الموقعون التزامهم المبدئي بوحدة العمل الناصري وصيانتها، واعتقادهم الجازم بأن إقرار الديمقراطية في العمل الحزبي وحياته الداخلية، وترسيخ قيمة ومبدأ القيادة الجماعية، يمثلان معاً ضمانة حقيقية لتجاوز حالة التدهور العام في الأداء السياسي والتنظيمي، والارتقاء الى مستوى التحديات التي تفرضها هذه الرحلة الهامة والخطيرة من تاريخ مصر وأمتها العربية. وإذا كانت ملامح الأزمة الداخلية قد بدت بوادرها في أعمال الدورة الأولى للجنة العامة (فبراير ١٩٨٧)، إلا إنها في الفترة الاخيرة قد اتسعت واتخذت ابعاداً سياسية وتنظيمية مدمرة، قللت الى حد كبير من حجم الحضور السياسي الناصري، وتدنت بفاعليته الى حدود تدعو الى الأسى، لتيار كان يوصف حتى وقت قريب، بأنه أكثر التيارات السياسية في مصر جماهيرية وشعبية. وبطبيعة الحال، فإن ادارة الحزب. ووكيل المؤسسين تحديداً – يتحمل المسئولية الاولى عن هذا التدهور التنظيمي والسياسي بحكم وضعها في البناء الحزبي. وقد وصل التدهور الى حد أن الأمانة العامة على مدى السنوات الثلاث الماضية لم تعقد اجتماعاً واحداً مكتمل النصاب، فضلاً عن عدم دعوتها أصلاً للانعقاد لفترات طويلة، على الرغم من كونها المستوى المنوط به إدارة العجلة الحزبية، واتخاذ القرارات السياسية، مما أدى بكثير من القيادات الفاعلة الى تجميد نشاطها فعلياً في هذا المستوى، وفيما يليه من المستويات.

ووسط هذه الفوضى في إدارة الحزب ولا نقول قيادته، حيث غابت تماماً المفاهيم الصحيحة للقيادة التنظيمية، انهارت مواقع العمل الحزبي في المحافظات، وتآكلت البنى التنظيمية، وكان طبيعياً أن ينحسر العمل السياسي الناصري. ولا نخلي أنفسنا نحن الموقعين على هذه الوثيقة من المسئولية، الا أن هذه المسئولية متفاوتة بالطبيعة في المقدار والدور حسب الموقع التنظيمي. ومن هنا يأتي أهمية دعوة واستحضار اللجنة العامة «أعلى مستوى سياسي تنظيمي» لوضع حد للتدهور في الاداء العام الناصري، وبحث سبل إنهاض التيار القومي الناصري بمصر من جديد .. الخ » .

وقبل تلك الازمة الحادة، صدر قرار من المحكمة برفض طلب حزب كمال أحمد، وكانت تلك هي المرحلة الاخيرة في الاستشكال القانوني، عندها اجتمع السيد علي صبري مع رفاقه من رجال مايو (محمد فائق – عبد المحسن ابو النور، ضياء الدين داود، الفريق محمد فوزي، فريد عبد الكريم) واتفقوا جميعاً على أهمية تواصل ذلك الخط القانوني في إنشاء الحزب، وتم تكليف ضياء الدين داود: عضو الأمانة العامة للحزب العربي الاشتراكي « تحت التأسيس» بتقديم طلب لتأسيس الحزب العربي الديمقراطي الناصري، عن طريق ٥٤ مؤسساً لم يعرف لأحد منهم تاريخ ناصري سوى أحمد حسن ود. محمد أبو العلا، وفي سرية تامة قدمت الاوراق للجنة الأحزاب، وهاجم الشباب تلك الخطوة غير المفهومة، والغريب أن فريد عبد الكريم تملص منها، وهاجم ضياء الدين داود، واعلن عدم معرفته بها، وطالب بتوقيع العقوبة اللائحية عليه.

في تلك المرحلة، مرحلة نشأة الحزب تحت التأسيس، كانت هناك مجموعتان ناصريتان واحدة في القاهرة، والثانية في الجيزةومجموعة القاهرة موجودة في القاهرة فقط، ومن أهم رموزها محمد عواد، وسيد عبد الغني، ومجموعة الجيزة موجودة في الجيزة فقط، ومن أهم رموزها د. صلاح الدسوقي وعلي عبد الحميد وأحمد الصاوي وقد رفضت هاتان المجموعتان دخول تجربة «تحت التأسيس» لأسباب تقديرية من جانبهما، وتبين بعد ذلك ان د. صلاح الدسوقي كان قد انشق عن تجربة الطليعة العربية، ومعه كثير من النشطاء العرب، وبعدها شكل تنظيماً عرف باسم «التنظيم الناصري المسلح»، قام بعدة تفجيرات صغيرة أمام بعض المصالح الامريكية في القاهرة وقد فشل معظمها، وتم القبض على بعض عناصرها، وهرب بعضها الآخر، وهكذا طفت على السطح مجموعة صلاح دسوقي مرة آخرى.

وفي تلك الفترة ايضاً ظهر على سطح الحياة السياسية «منظمة ثورة مصر الناصرية» والتي قامت بعمليات مدروسة ومخططة لاغتيال عناصر الموساد في شوارع القاهرة،

واثارت ضجة كبرى، واصبحت حلماً لدى الشباب، وتبين بعد ذلك إن قائدها هو خالد جمال عبد الناصر. وكان خالد قريباً من حركة الشباب الناصري، وقريباً من الحركة الوطنية في مصر، وقد حافظ على ظهوره في وسط الاحداث العامة.

ووصلت أزمة الحزب العربي الاشتراكي (تحت التأسيس) إلى طريق الانفجار، وبدأت الحركة الوطنية تفرز جماعات عنف كان على رأسها الجماعات الاسلامية، وتزعمت مصر قيادة خط الاستسلام العربي، وأخذت علاقات التبعية بين مصر لامريكا تتعمق، تلك كانت الخريطة والرؤية البانورامية لاي معلق محايد.

ولادة الحزب العربي الديمقراطي الناصري:

في الخامس من مايو (آيار) سنة ١٩٩١ تم تقديم طلب الترخيص من ضياء الدين داود الى لجنة الاحزاب، من اجل الترخيص للحزب العربي الديمقراطي الناصري. وفي ١٠/٩ من نفس العام، رفضت لجنة الاحزاب هذا الطلب بالترخيص، واستندت الى أربعة أسباب هي :

١- انعدام الشروط القانونية في وكيل المؤسسين، حيث تمت إدانته في قضية ضد أمن الدولة، عرفت باسم «١٥ مايو ١٩٧١».

٢- إن بعض المؤسسين متهمون بالمشاركة في تظاهرات ضد الدولة.

٣- إفتقاد الحزب العربي الديمقراطي الناصري شرط التمييز عن الاحزاب السابقة.

٤- قيام الحزب على النظام الشمولي الذي يتعارض مع الديمقراطية السليمة، من خلال تبنيه لوثائق ثورة ٢٣ يوليو.

ومن ذلك أدرك الناصريون طبيعة المعركة، وثابروا على خطواتها واجراءاتها، حتى قدم ممثل هيئة مفوضي الدولة تقريراً تضمن رفض قرار لجنة الاحزاب. ونظرت المحكمة برئاسة المستشار طارق البشري (المؤرخ الوطني المعروف) في القضية، واصدرت المحكمة الادارية قرارها بالزام لجنة الاحزاب بالترخيص للحزب العربي الديمقراطي الناصري، واعتباره الحزب الشرعي العاشر. وانضم كل الناصريين للحزب، حتى الذين قاطعوا التجربة الاولى (تحت التأسيس).

وظهر على السطح أول خلاف في الحزب الجديد، الحزب العربي الديمقراطي الناصري.

الخلاف على القيادة:

لقد تصور فريد عبد الكريم (وكيل المؤسسين لتجربة تحت التأسيس) أنه هو صاحب الحق في قيادة الحزب الشرعي الجديد. فهو الذي قاد مرحلة «تحت التاسيس»، وهو الذي شارك في التخطيط من أجل أن يتقدم ضياء الدين داود بطلب الترخيص، بعدما اسقطت المحكمة حزب كمال أحمد. بالاضافة لذلك فهو المؤهل لقيادة الحركة بعدما تعايش مع مشاكلها المتعددة وعرف خباياها.

وتناسى فريد عبد الكريم أن ضياء الدين داود هو الذي جاء بالترخيص وشرعية النظام، وتناسى ثانياً أن ضياء قد نجح في انتخابات مجلس الشعب، وعبر معركة شعبية واسعة، وتناسى ثالثاً ان تجربة قيادته لحزب « تحت التاسيس» كانت محصلتها سلبية تماماً. كل ذلك أدى الى صراع مكتوم ثم معلوم، بين ما أطلقت عليه اجهزة الدولة الأمنية جماعة عابدين (حيث يقع مقر تحت التأسيس في ميدان عابدين) وشملت كلاً من عادل آدم، مصطفى الغزاوي، محمد عقل، وبين الحزب الشرعي في طلعت حرب– بقيادة ضياء الدين داود.

ولقد تجسد هذا الصراع في أساليب توزيع استمارات العضوية واستقبالها، وفي الصراع حول المقر (عابدين)، وفي محاولة فريد التأثير والسيطرة على جماعة المؤسسين الأعضاء الخمسين الذين وقعوا على طلب الترخيص للحزب.

وكان للشباب رؤية في معالجة أخطاء وخطايا المدرسة القديمة، بعدما تكشف لهم زيادة واتساع المخاطر، وعدم التخطيط العلمي للمواجهة، من قبل ضياء الدين داود. عند ذلك تقدموا برسالة في ١٠/١٠/١٩٩٢ إلى الامين العام. جاء فيها:

«نعلم جميعاً، أن حزبنا العربي الديمقراطي الناصري لم يولد من فراغ، وأن حركة الناصرية بإنجازاتها وإخفاقاتها تعود إلى سنوات طويلة خلت، وأن تجربة الحزب الاشتراكي العربي الناصري (تحت التأسيس) أكدت سعينا المشروع بالتاريخ والطبيعة والدستور إلى نيل حقنا القانوني في التنظيم العلني المستقل، ونعلم ان حركة الناصرية متعددة الأجيال والمنابع والخبرات التاريخية، وأن تجربة حزبنا (تحت التأسيس) أخفقت للأسف في ضمان التفاعل المتكافئ بين روافد الناصرية. وأن تجربة انشاء حزبنا بقوة الواقع، صادرتها ممارسات تنكرت لحقائق الواقع وظروفه المواتيه، وأن قوى الناصرية الحية اجتهدت في العمل للإصلاح والتغيير مع حرصها المسؤول عن وحدة النسيج الحزبي وعدم السماح بتمزيقه، وأن جبهة الإصلاح والتغيير امتدت لتشمل الغالبية الساحقة، وساندها رفاق عبد الناصر، وبينهم أنتم شخصياً، في آخر مشاهد تجربة حزبنا (تحت التأسيس).

ونعلم، أن الميلاد المفاجئ لحزبنا العربي الديمقراطي الناصري جاء ليطوى صفحة المعاناة الأليمة، وأن الفرحة الغامرة التي غمرت قلوبنا جميعاً لم تنسنا ضرورة الاستيعاب العقلي للدروس المستخلصة من تجربة حزبنا (تحت التأسيس)، وأن الكل، إلا من قلة نحت الى التعويق، وجدوا اطار عملنا الحزبي الاكثر صحة في الوحدة والديمقراطية والفعالية، وأن وحدة حزبنا تتحقق بفتح أبوابه للجميع، واستيعاب كل الناصريين دونما شبهة استبعاد او تهميش تقود الى تعددية ناصرية لا يحمد عواقبها، وأن ديمقراطية حزبنا تتأتى بتأكيد مبادئ الانتخاب النزيه للمستويات، وجماعية القيادة والتراضي العام والتفاعل المتوازن بين الأجيال، وأن فعالية حزبنا تتحقق بتأكيد صورته كحزب قائد للمعارضة الجذرية، وإبداع أساليب عمل جديدة تكفل التحام الحزب بالجماهير الشعبية الكادحة صاحبة المصلحة في التغيير الشامل.

ولاشك انكم تعرفون، اننا رحبنا بإلتزامكم المعلن ببرنامج الحزب ولائحته التنظيمية، رغم التسليم بقصورهما وعوادهما المشتهر، وأننا إلتزمنا بحصر قرار الحزب الاساسي في قضايا البناء الحزبي، وأنكم وافقتم بحماسة على إقتراحنا بعد تطويره الى فكرة اللجان النوعية المعاونة (التنظيمية، السياسية، الإعلامية) في لقاءات مفتوحة تمت معكم في المقر المركزي لحزبنا وخارجه، وانكم اعلنتم اقتناعكم العميق باقتراحنا المطور، ووعدتم بتنفيذه فور عقد مؤتمر حزبنا الجماهيري الحاشد في ٢٣ يوليو ١٩٩٢.

وتعلم اننا التزمنا بقرار الأمانة العامة المؤقتة كونها السلطة الشرعية بمقتضى اللائحة حتى ١٩ اكتوبر بمد تاريخ فتح باب العضوية الى ١٩٩٢/٨/٣٠، ورغم تأكيدكم السابق على عدم مدها بعد تاريخ ١٩٩٢/٧/٣١.

ولعل القرار الصادر بمد فتح باب العضوية كان سبباً مباشراً في فتح باب التنافس غير المحمود الذي اضر بنقاء الوعاء الحزبي، خاصة مع الركود الملموس في الأداء المركزي للحزب، بسبب تأخر اصدار القرار الخاص بتشكيل اللجان النوعية التي اقترحناها.

نعلم ذلك كله، ورغمها فوجئنا بصدور قراركم الاخير (وبعد ان كادت المهلة اللائحية المتاحة للتأسيس الحزبي ان تنقضي) بإنشاء عدد هائل من اللجان مقطوعة الصلة أغلبها بمناقشاتنا السابقة في الخصوص، ونأمل ان تتقبلوا بصدر رحب ملاحظاتنا على قراركم الأخير. فاللجان التي أصدرتم قراركم بشأنها متداخلة الإختصاصات والمهام، على نحو يؤدي الى شل عملها، ربما قبل ان تبدأ، واللجان التي قررتموها بعضها له صلة بمهام التأسيس الحزبي المفضية إلى عقد المؤتمر العام، وأغلبها خارج سياق المهام المطروحة، وطريقة اختيار أسماء الأعضاء العاملين في اللجان شابها الخلط العشوائي (بتكرار أسماء

بذاتها في لجان متعددة). ثم انها مالت إلى نفي واستبعاد وتهميش اسماء بعينها، هي الأكثر حضوراً، وقد يكون أوفر كفاءة، فيما يخص المهام المطروحة ..

وتعلم، أننا حريصون على استمرار الحوار لا افتعال القطيعة، وأن نجاح اي حوار ناصري يدعمه الوعي بشروط بناء حزب موحد وديمقراطي وفعال، ومن ثم نعلمكم باعتذارنا الجماعي عن المشاركة في عمل لجان تم تشكيلها على نحو يجافي الدروس المستفادة من تجربتنا في البناء الحزبي، وفي الوقت نفسه، نطالبكم بمراجعة قراركم الاخير لما فيه المصلحة العليا لحزبنا، وندعوكم للتركيز على هدف التعجيل بعقد المؤتمر العام استكمالاً للتأسيس الحزبي ديمقراطياً ..

وأخيراً: إن موعد عقد المؤتمر العام يحل طبقاً للائحة التنظيمية في ١٩ اكتوبر الجاري، ونعتقد ان اي تأخير في عقد المؤتمر هو تقصير تنظيمي وسياسي يجب تلافيه على وجه السرعة، حجباً لتهديدات فراغ السلطة الحزبية ومخاطره، وأول خطوة واجبة هي الإسراع بإعلان كشوف العضوية (بحد أقصى يوم ١٩ اكتوبر الجاري)، وفتح باب الطعون والشكاوى والتصحيحات لمدة أسبوع، بعدها تبدأ إجراءات الإنتخاب طبقاً لتفسيرات لائحية متفق عليها، وبالتوازي مع إعداد الوثائق الاساسية ، ودعم خطوات صدور جريدة (العربي) الناطقة بلسان حزبنا. وفي ضوء تلك المهام العاجلة نتصور أن لا يتأخر تاريخ عقد المؤتمر العام للحزب عن نهاية النصف الأول من شهر ديسمبر ١٩٩٢م».

الموقعون

الرئيس والأمين العام:

اما الخلاف الثالث، ولقد وقع في المؤتمر العام الأول للحزب العربي الديمقراطي الناصري، فلقد كان أيضا بخصوص تصورات متباينة لكيفية تجسيد القيادة لفعاليات ومدارس الحزب المختلفة. فلقد طرحت المدرسة الجديدة في الحزب مشروع قرار للعرض على المؤتمر القومي العام الأول، وتحركت لجمع التوقيعات عليه من قبل أعضاء المؤتمر العام (٣٥٠ توقيعاً في اليوم الاول من قوة المؤتمرين ٨٥٠ عضواً). وكان ذلك بشأن وجوب تبني المؤتمر العام لقرار ان يكون على رأس القيادة المركزية للحزب رئيس وأمين عام.

لكن مشروع القرار قد ووجه بعاصفة من الانتقاد والتعبئه المضادة والتشويه، مما نتج عن ذلك سحبه بعد مرور اليوم الأول من عمر المؤتمر.

ولقد جاء نص مشروع القرار كالآتي :

مشروع قرار للعرض على المؤتمر القومي العام الاول

تاكيداً على مبدأ وحدة الحزب، وأملاً في ان يقدم حزبنا نموذجاً لديمقراطية البناء وجماعية القيادة، وإيمانا بضرورة تكامل وامتزاج الأجيال الناصرية في بوتقة العمل الحزبي، وبالنظر الى مستقبل الحزب والآمال المعلقة عليه، والتطلع الى تحقيق أقصى استفادة من الخبرات والقدرات والكفاءات المتوافرة لديه، يقترح الموقعون ان يتبنى المؤتمر العام الاول للحزب مشروع هذا القرار :

اولاً : ان يكون على رأس القيادة المركزية للحزب رئيس وأمين عام، يحدد هذا القرار الصلاحيات الممنوحة لكل منهما.

ثانياً : رئيس الحزب هو الممثل السياسي والقانوني للحزب، والمسئول السياسي عن صحافته ومطبوعاته، وعن متابعة القضايا السياسية. وهو يمارس صلاحياته في ظل مقررات مستويات الحزب المختلفة، وفي إطار من قواعد القيادة الجماعية. ويحق له ان يصدر القرارات الضرورية في حالة تعذر انعقاد المكتب السياسي. ويتوجب عليه في هذه الحالة عرض قراراته على أول اجتماع للمكتب السياسي.

ثالثاً : الأمين العام، يتولى متابعة الإدارة اليومية لشؤون الحزب وتنظيماته وأجهزته بالتشاور مع رئيس الحزب، ويقوم بالاشراف على مقر الحزب المركزي وشؤونه المالية، والتنسيق بين اللجان الرئيسية والانشطة الحزبية من خلال امناء اللجان.

رابعاً : تزكية الأخ الاستاذ / حمدين صباحي لشغل موقع الامين العام للحزب بالصلاحيات المنصوص عليها في البند الثالث .

الموقعون

أما الخلاف الرابع، فكان في تشكيل المكتب السياسي الحزبي : حيث تم تشكيل المكتب السياسي عبر الانتخابات، دون مراعاة الاوزان السياسية والمواءمات الحزبية التي تراعي تواجد الجميع في صناعة القرار الحزبي. ودون ان تراعي الروافد المتعددة لنشأة الحزب. وقد نتج عن ذلك استبعاد اتجاه المدرسة الجديدة في عضوية المكتب السياسي (٢١ عضواً بالامين العام)، ومما يؤكد منهج الاستبعاد والنفي ان اتجاه المدرسة

الجديدة قد نجح في اخذ ما يقرب من (١٨ مقعداً داخل الأمانة العامة المكونة من ٧١ عضواً) ولم ينجح لها أحد في المكتب السياسي، وذلك لتحالف إدارة الحزب مع مجموعة من الأقليات حتى تضمن الاغلبية لها. وهذا ما يفسر ان اقلية قد حصلت على أربعة مقاعد في الامانة العامة، وقد حصلت على ٣ مقاعد في المكتب السياسي، بعدما تحالفت مع ادارة الحزب. ذلك بالاضافة الى ممارسة سلوكيات انتخابية لا يمكن السماح بممارستها في حزب ناصري يريد التغير الثوري.

ونتيجة لعدم مواءمة أعلى مستوى في الحزب واقعه التنظيمي والسياسي المستقبلي، فلقد قدمت المدرسة الجديدة رسالة مفتوحة للامين العام، وكانت موقعة من قبل فريق الحوار مع المدرسة القديمة، والذي كان يستهدف الاتفاق حول تشكيل مكتب سياسي معبر عن الجميع، دون نفي او استبعاد لاي اتجاه مهما كان حجمه ووزنه، حتى تضمن مسيرة الحزب الفعالية، وعدم الدخول في مشاكل داخلية، والتفرغ لمشاكل الواقع وهي كثيرة.

ولقد شارك في هذا الحوار كل من حمدين صباحي، عبد الله السناوي، امين اسكندر من المدرسة الجديدة، وكل من السادة ضياء الدين داود، محمد فائق، محمد عروق من المدرسة القديمة. وكان مكان الحوار هو منزل السيد محمد فائق. وقد تم الاتفاق بنسبة ٩٩٪ إلا أن المدرسة القديمة، نقضت الاتفاق في اليوم التالي.

وقد جاء في الرسالة المفتوحة الى الأمين العام الآتي :

«بعد التطورات السلبية المتلاحقة في عملنا التنظيمي، والتي كانت ذروة المأساة فيها إنتخابات ونتائج المكتب السياسي، نجد من واجبنا أمام ضميرنا السياسي، وأمام عضوية الحزب أن نشرح موقفنا كاملاً وأن نحدد المسئولية كاملة، وادانتنا الواضحة لسيادة منهج الاستبعاد في أساليب العمل الحزبي.

ولا شك أنكم تعرفون، ويعرف اغلب اعضاء الحزب، اننا قاتلنا بكل الوسائل السياسية والتنظيمية منذ اللحظة الاولى لإعلان انشائه، من أجل إعلاء شأن الشرعية التنظيمية في مواجهة محاولات فرض الانشقاق والصراع عليه. وكان ذلك استمراراً لخط ثابت انتهجناه في تجربة الحزب الاشتراكي العربي الناصري «تحت التأسيس»، ويدعو الى «الوحدة والديمقراطية» في صفوف الناصريين، وضرورة توسيع مساحة المشاركة الديمقراطية في صناعة القرار السياسي، وتكريس قيم القيادة الجماعيةوالعمل المؤسسي التنظيمي. ورغم تحفظات كثيرة لنا على مستوى الأداء القيادي والتنظيمي في «تجربة تحت

التأسيس»، ورغم أسلوب الاستبعاد الذي تعرضنا له في اجتماع لجنته العامه في فبراير ١٩٨٧، فإننا أكدنا وقتها، وعلى رؤوس الأشهاد، أهمية وقيمة الاستمرار في صفوف الحزب والمعارضة من داخله، ورفض أية نزعات انشقاقية.. ومرة اخرى نجد أنفسنا، ويجد معنا تيار عريض، تعرفون ويعرف عامة الناصريين في مصر، وفي وطننا العربي الكبير، انه يستحيل موضوعياً حذفه من المعادلة الناصرية القيادية، في نفس الموقف الذي كنا فيه من قبل: عرضة لجريمة استبعاد حقيقية. ونأسف لاستخدام مثل هذه التعبيرات، ولكنها الحقيقة التي يبدو ان بعض الذين أسهموا في فرضها أثناء تجربة «تحت التأسيس» ما زالوا يصرون على تكرارها..

كنا نرى توافقاً سياسياً بين الاتجاهين الأساسين في الحزب، ولا بد ان نعترف بوجود اتجاهين في حزبنا اخترت انت شخصياً ان تكون في جانب دون آخر– ضرورة تمليها المصلحة الناصرية العامة...

كنا مع التوافق السياسي، ولم يكن غيرنا معه.

كنا مع وحدة الحزب، ولم يكن غيرنا معها.

كنا مع ديمقراطية البناء، وكان غيرنا يحارب معركة الاستبعاد والتآمر على وحدة التيار الناصري وسلامة نسيج وحدة الحزب.

ولعلك تشهد أن غيرنا قد استنزف الوقت في المرتين من أجل فرض الاستبعاد عبر انتخابات مشكوك في نزاهتها، وتدخلت فيها سطوة الادارة، واستخدم خلالها اسم الأمين العام. في كل مرة ترك غيرنا ثغرة في الاتفاق الذي يوشك ان يتحقق، لنسفه إن تيقن أن لديه أصواتاً تفي بغرض الاستبعاد، وفرض الهيمنة المطلقة لجماعة محدودة، ثم الادعاء بانه لم يكن هناك اتفاق اصلاً.

إن هذا النهج التآمري وغير المسئول هوى بالديمقراطية الحزبية الى مستوى انتخابات النقابات الصفراء، وأجدر به نقابة صفراء، لا حزب سياسي جماهيري يريد ان يجسد وحدة تياره العريض، وطموحات جماهيره في نفس الوقت..

ومن حقنا والأمر كذلك، وبديلاً عن الانشقاق الذي نرفضه من حيث المبدأ، أو الانسحاب من العمل الحزبي الذي لا ندعو اليه، الدعوة والتحرك السياسي والتنظيمي لإقرار وتجسيد المبدأ الديمقراطي الذي يتيح للمعارضة في الحزب، خاصة اذا كانت تحوز

اكثر من ٤٠٪ من عضوية اللجنة المركزية، واكثر من ٣٥٪ من عضوية الامانة العامة حق تشكيل منبر يعمل من خلال صفوف الحزب وهياكله التنظيمية، ويناضل من اجل إقرار حقه في المشاركة الكاملة في صناعة القرار.

إن فكرة المنبر تعد رداً مسئولاً عن أسلوب غير مسئول في ادارة العمل السياسي الحزبي .ولم تكن تلك هي آخر مشاكل الحزب الداخلية، فما زالت الرؤى متباينة وبالذات حول بناء الحزب، وتفعيل مؤسساته، وعدم ادارته بكفاءه». ولعل ذلك ما جعل مجموعة د. صلاح الدسوقي، المعروفة بـ (جماعة التنظيم الناصري المسلح. وكانت قد حصلت على ثلاثة مقاعد في المكتب السياسي تعبيراً عن اربعة مقاعد في الامانة العامة) أن تصدر رؤية في ورقة تسطر فيها رؤيتها لازمة الحزب، بعدما تكشفت لها الثغرات والسلبيات والمعوقات. وجاء في هذه الورقة الآتي ;

«إن الازمة التي يعيشها حزبنا العربي الديمقراطي الناصري تعود في حقيقة الامر الى جملة من العوامل ..

اولاً : عوامل تاريخية، وهي تلك التي تتصل بنشأة التيار الناصري، ومساره التنظيمي والسياسي والفكري فيما قبل قيام الحزب..

ثانياً: عوامل بنيوية وتنظيمية مثل توجيه العضوية التأسيسية، إذ قصر الاستهداف عند جمع العضوية التي يمكن التأثير على تصويتها إبان اجراء تشكيل المستويات التنظيمية بالانتخاب .. والصراع بالاستبعاد .. والعضوية الورقية وتضخم الهيكل .. واولوية الصراع الداخلي .. واختلاف نظريات العمل التنظيمي..».

تلك كانت مسيرة الحركة الناصرية بعد رحيل القائد عبد الناصر، مسيرة يتغلب في بعض مراحلها جدل الذات، ومراحل اخرى جدل الذات مع الموضوع. ولعل الايام والشهور القادمة تكشف لنا الى أي مدى سوف تستمر تلك المسيرة، وذلك الجدل الذاتي الحاكم لها، وبالذات إن هناك جدول أعمال كبيراً ومتضخماً ينتظرها، يبدأ بإعادة ترتيب الصفوف وحشد وتعبئة الجماهير صاحبة المصلحة في التغيير. وذلك عبر معارك متعددة يقع في القلب منها قضية بيع القطاع العام، وقضية مواجهة التطبيع والتغلغل الصهيوني والشرق اوسطية، واستشراء الفساد في مصر – على المستوى الداخلي، ويمر بأهمية وحدة الحركة الناصرية على المستوى القومي، وقدرة حزبنا ان يلعب دوراً قائداً دون تحيز وانتماءات سابقة. فهو اولاً واخيراً المعبر عن الحركة الناصرية في مصر العربية،

الاقليم القاعدة، ومن المؤكد أن جدول الأعمال هذا لن ينتهي عند اهمية تحديث خطابنا الناصري، بما يستوعب المتغيرات الهائلة في عصر الموجة الثالثة. ودون ان يقع في هوى الظاهر من خريطة تفاعلات عالم اليوم، وتأثيراتها على الثوابت من افكار المشروع القومي الناصري.

ومن اليقين ان جدول الأعمال هذا هو المحك والفرز الحقيقي للحركة الناصرية في مصر العربية، وللحزب العربي الديمقراطي الناصري، وهذا ما سوف تكشفه المرحلة القادمة.

أمين اسكندر

١٩٩٥/١/١.

الفصل الثالث

الوحدة في فكر ياسين الحافظ

أ. ناجي علوش

-١-

ياسين الحافظ مناضل ومفكر وحدوي معروف ، في إطار المثقفين المسيسين العرب ، وفي الأوساط النضالية العربية ، وخاصة في المشرق.

ولكن إلى أية درجة عُرف ياسين الحافظ ؟، وإلى أية درجة دُرس ؟، وماذا كانت تعني الوحدة العربية في فكر هذا المناضل القومي ؟.

إن الإجابة تحتاج إلى وقفة . لأن ياسين ، وهو مناضل سياسي بارز، منذ بداية الستينيات ، حتى وفاته ،أواخر سنة ١٩٧٨، لم ينل حقه من الدراسة بعد. ولأن ياسين ، وهو بالاضافة إلى نضاله السياسي ،كان أكثر بروزاً في ميدان التثقيف السياسي ، والتنظير السياسي. ومع ذلك ، فإنه لم ينل حظه من المناقشة النظرية .

وياسين ، بالاضافة إلى هذا وذاك، مناضل ومنظر قومي ، يمثل مدرسة جديدة في الفكر القومي ، حاولت أن تتجاوز المدارس القومية التقليدية والرومانسية، وأن تتخطى اليسار الماركسي ، الذي تبنى أممية لا ترى الحدود القومية، وقُطرية تتجاهل الوجود القومي. وهذا ما تبرزه كتابات ياسين الحافظ كلها. ورغم ذلك، فإننا لم نلمس اهتماما بتراثه عند الدارسين .

ولو أخذنا أبرز المعالجات التي صدرت في السنوات الاخيرة ، عن الفكر القومي ، لما وجدنا حتى اشارة لياسين الحافظ(١) . فلماذا حدث ذلك ؟.

هنالك أسباب عدة ، ابرزها :

أولاً : أن ياسين ، أخذ يمد في مرحلة جزر المشروع القومي الوحدوي. ولقد شهد مدُّ ياسين الحافظ الضربات المعادية المتتالية ، من هزيمة حزيران ١٩٦٧، إلى زيارة السادات القدس ، واتفاقيتي كمب ديفيد ١٩٧٧-١٩٧٨ .

وتتالت ، بعد وفاة ياسين ، أواخر ١٩٧٨ ، التراجعات في كل الميادين ، من غزو لبنان سنة ١٩٨٢ ، إلى غزو الجزيرة العربية والعراق ، سنة ١٩٩٠ - ١٩٩١.

ورافق ذلك :

١ - اتجاه رسمي قطري ، يكرس الحدود ، ويجعل من حدود التقسيم الامبريالي حدود أمم. ومن الطبيعي أن يكون هذا الاتجاه ضد المشروع القومي الوحدوي ، وأن يعمل على تثبيت الحدود القائمة ، وإيجاد مرتكزات إيديولوجية وثقافية وسياسية واجتماعية لها .

٢- اتجاه ديني ، يبشر بدولة فوق قومية ، ويعتبر القومية العربية مؤامرة امبريالية وحركة تغريبية .

٣ - اتجاه طائفي ، يسعى للتفتيت ، ما وسعه ذلك ، تحت شعارات مختلفة ، وبمبررات متعددة .

٤ - اتجاه استسلامي ، يتكيف مع السياسات الدولية ، ويربط الاقتصاد والسياسة بمراكز القرار الدولي ، ولا يرى غرابة في التدخل الدولي بقضايا الوطن. وحين لا تهرع الدول الكبرى للتدخل ، يطالبها هذا الاتجاه بالتدخل . وحين تتدخل ، وتسيء التدخل ، لا يرفض تدخلها ، كما حدث ، منذ ١٩١٨ حتى الآن ، ومن قرارات عصبة الأمم ، بعد الحرب العالمية الأولى ، إلى قرارات مجلس الأمن، بعد الحرب العالمية الثالثة في الخليج .

ثانياً : أن ياسين ، حاول أن يجسد ، منذ بدايات هذا التراجع ، إرادة التحدي القومي الديمقراطي ، وطرح ضرورة هذا التحدي . ولذلك فإن ياسين كان يجدف في مواجهة تيار جارف ، لأنه كان يرى: «ان سياسة قومية حديثة ، هي وحدها التي يمكن أن تنجز عملاً تاريخياً ينقض او يوقف هذه السيرورة التقهقرية الانحدارية التي انخرطت فيها معظم ، ان لم نقل كل الشعوب العربية ، ثم يقلبها في اتجاه تقدمي صاعد»(٢) .

وكان ياسين يرى أن : « الحديث عن الوحدة العربية ، قد يبدو أشبه بمفارقة»، «في مناخ الاستنقاع الاقليمي الراهن »، كما كتب سنة ١٩٧٤ . والوحدوي، كما يقول ياسين : «الذي يملك نظرة واقعية ثورية ، لا يسعه إنكار الهزيمة أولا : ولا يسعه إلا أن يأخذها بالاعتبار ثانيا » . ولكن الهزيمة ، كما يرى ليست هزيمة الوحدة فقط ، لا هي «هزيمة أشمل» ، انها :

«هزيمة حركة الثورة العربية بوجه عام » . ويضيف : «وهذا يعني أنه عندما تنفض الثورة العربية غبار الهزيمة ، ستنفض الحركة الوحدوية ، هي أيضاً ، غبار الهزيمة ، وستستعيد مواقعها وتتقدم »(٣) .

ثالثا : ان ياسين الحافظ اتخذ موقفاً نقدياً، لا من الانظمة والسلطة ، بل من الاحزاب ، ومن المجتمع كله . ولقد انتقد ياسين الهزيمة ، بعد حزيران ١٩٦٧، وحاول ان يقدم «نقدا معمقا »، و«الذهاب ، ربما ولاول مرة ، من نقد السياسة ، إلى نقد المجتمع في تفسير هذه الهزيمة » . ولذلك ، فقد كتب ياسين في مقدمة كتابه : «الهزيمة والايديولوجية المهزومة »، «آمل ان يخدم هذا الكتاب في تنمية الوعي بالاسباب العميقة (الايديولوجية ، السوسيولوجية ، الاقتصادية ، السياسية) التي ولدت الهزيمة »(٤) .

إن هذه الروح النقدية ، كانت أيضاً خارج الخط الاستسلامي الامتثالي الذي تفرضه الأنظمة الحاكمة ، والقوى الاستسلامية الرسمية ، وغير الرسمية .

رابعاً : إن ياسين الحافظ ، كان يرى الثورة الديمقراطية بَدْوَة في المشروع القومي. المشروع القومي، بالنسبة لياسين مشروع ديمقراطي . ولقد فشل المشروع القومي ، لأنه لم يكن مشروعاً ديمقراطياً . فالديمقراطية طريق الوحدة، وهناك : «تلاحم وتكامل بين المشروع الديمقراطي والمشروع الوحدوي »(٥).

وبهذا كله ، كان ياسين غائباً عن الندوات وصفحات المجلات في العقد الماضي، وإن كان قراؤه يزيدون.

وزاد من تعقيد المشكلة ، أن الحركة العربية القومية ، كانت، خلال هذه المرحلة، تتفتت وتتراجع ، وأن الاتجاهات التقليدية والمحافظة غلبت عليها ، محاولة أن تجعلنا نكتفي بساطع الحصري ، أو أن تدعونا إلى ربط القومية العربية بالاسلام، وكفى الله المؤمنين شر القتال. وياسين في ذلك علماني ، يرى ضرورة الفصل بين الدين والدولة .

ويرى أن الانتلجنسيا العربية : «اختارت الاصالة والتقليد، فعجزت عن الدفاع عن وجود الأمة ، بل تجديده ووضعه في العصر» على نقيض الأنتلجنسيا الفياتنامية (٦) .

وهكذا يجد الباحث منا ياسين الحافظ ، كما هو ، ويعود إليه في مقالاته ودراساته وكتبه التي نشرت في حياته ، وبعد وفاته . ولا يجد مادة أخرى يعود اليها، لتساعده في الفهم والتحليل ، واكتشاف الأبعاد الفكرية لمشروع ياسين الحافظ السياسي والاجتماعي.

ومن هذا الخلاء ستكون بدايتنا .

-٢-

والآن ، ماذا كانت تعني الوحدة العربية عند ياسين الحافظ ؟ .

الوحدة العربية ، لدى ياسين الحافظ ، ليست موضوعاً يتحدث فيه ، إلى جانب مواضيع أخرى، ولا هي مشكلة تبحث في مكان ، أو تاريخ ، ليبحث غيرها في مكان آخر . إنها الموضوع الذي تجده أينما قرأت ياسين ، وفي أي موضوع كتب . لأن الوحدة بالنسبة لياسين ، هي شرط أولي «للبقاء العربي والتحرر العربي» ، وعلى المستوى عينه «شرط أولي للتقدم العربي» (٧) .

وما دامت الوحدة شرطاً للبقاء والتحرر والتقدم ، فإنها ، يجب أن توضع في محور عملنا الاستراتيجي. فعن اية وحدة، يتحدث ياسين الحافظ؟ وما الفرق بينه وبين المفكرين القوميين السابقين واللاحقين؟ (٨).

إن ياسين هنا ، لم يبحث موضوع الوحدة ، كما بحثها ساطع الحصري ، من حيث إثبات وجود الأمة، ودراسة عوامل تكوينها ، ومقارنة ذلك بالأمم الأخرى . لأن ياسين منطلق من أن الامة موجودة ، ويتحدث عن ضرورة الوحدة، وكيف يمكن أن تتحقق ، ولماذا تفشل المساعي الوحدوية .

ولذلك يطرح ياسين على نفسه هذا السؤال : «كيف يمكن للسيرورة الوحدوية أن تنطلق وتذلل العقبات»(٩) .

ولا نبالغ إذا قلنا :إن كل كتابات ياسين تحاول الاجابة على هذا السؤال .

وفي الاجابة على هذا السؤال ، حاول ياسين أن يوضح أسباب الفشل في المسيرة الوحدوية ، كما حاول أن يبين طريق النجاح .

وكان ياسين يرى أن هناك عوامل نابذة للوحدة ، وأخرى جاذبة .

أما العوامل النابذة ، فهي :

١ – أن التأخر العربي، هو «العامل الأول النابذ في السيرورة الوحدوية». ويتجلى التأخر :« أولا ، سياسياً ، في إلغاء دور الشعب ، ويتجلى ثانياً ايديولوجياً في كون الوعي العربي وعياً مفوتاً وقاصراً عن متطلبات التقدم العربي ، ويتجلى ثالثاً ، اقتصادياً ، في كون الاقتصاد العربي اقتصاداً متأخراً، مندلقاً ، وتابعاً للاقتصاد الامبريالي». ولا يرى ياسين الحافظ أفقاً لتطور «اقتصادي عربي مستقل »، رغم «طوفان المداخيل النفطية». وعليه فإنه يرى أن : «احتمالات بقاء التأخر العربي ، بل تقدم هذا التخلف لا تبدو غير واردة ».

٢ – إن الهيمنة الامبريالية ، هي : «العامل الثاني النابذ في السيرورة الوحدوية». وهذه الهيمنة ، تحاول : «ممارسة ضرب من التجميد للاحتمالات الوحدوية السياسية». وهذا ما يؤكده ياسين باستمرار .

٣ – إن : « واقع التجزئة والمقاومة التي يبديها »، هو«العامل الثالث النابذ في السيرورة الوحدوية» .

٤ – إن «الايديولوجيات الضمنية أو الصريحة للأقليات الدينية والقومية في الوطن العربي» هي :«العامل الرابع النابذ في السيرورة الوحدوية »(١٠) .

ويلاحظ هنا أن ياسين يعطي التأخر العربي الأولوية ، من بين هذه العوامل، ويؤكد على ذلك في أكثر من مناسبة(١١) .

ونحن نرى أن هذا الأمر بحاجة إلى مناقشة ، وأن موضوع التأخر ، لا ينفصل عن موضوع الهيمنة ، وأن الامبريالية عامة ، والأميركية خاصة ، هي التي تلعب الدور الرئيسي في تكريس التأخر ، وفي منع الوحدة (١٢) .

ومقابل هذه العوامل النابذة ، هناك عوامل جاذبة ، تتلخص فيما يلي :

١ – العامل :«الاول هو شعور هؤلاء البشر المنتشرين من الخليج إلى المحيط ، بأنهم ينتمون إلى أمة واحدة ، ويجمعهم مصير مشترك ».

٢ – العامل : «الثاني الجاذب»، هو : «مفاعيل الهيمنة الامبريالية ، وضغوطها ونهبها للشعب العربي ، فضلاً عن زحوف أو تهديدات عدد من الدول القائمة على أطراف الوطن العربي ،وفي قلبه» . ويشير هنا ياسين دائماً إلى الكيان الصهيوني من جهة ، وإلى إيران وتركية والحبشة من جهة ثانية .

٣ – العامل «الثالث الجاذب» ، « يتمثل في النزوع العربي إلى التقدم، إلى دخول العصر، إلى تأكيد الذات »(١٣) .

ولما كانت الوحدة العربية ،«تشكل مفتاح عملية إعادة تأكيد الذات القومية»(١٤)، كما يرى ياسين ، بات تحقيقها المهمة الراهنة التي تتطلب النضال الطويل ، لأن الوحدة لا تتحقق دون هذا النضال .

وكان ياسين يرد على الذين يعتقدون أن تحقيق الوحدة سهل وميسور قائلاً :

«من قال أن حركة الوحدة، ينبغي أن تنجح في ثلاثة عقود أو أربعة » (١٥) ولكن كيف تتحق هذه الوحدة ؟.

هنا حاول ياسين أن يحدد ، وفي أكثر من مناسبة ، وبأكثر من أسلوب ، ولكنه، وفي كل هذه الحالات ، شدد على مايلي :

أولاً : الحاجة إلى طليعة وحدوية . وهنا يتحدث ياسين عن الحزب الذي : «يشكل طليعة فعلية للشعب ، ويملك أيديولوجيا حديثة »، باعتبار أن وجود هذا الحزب ضروري ليفرض : «منطقه ووعيه على انتلجنسيا بلده»(١٦).

ويصر ياسين على ضرورة وجود إنتلجنسيا . لا لأن الأنتلجنسيا قادرة وحدها، ولكن لأنها ضرورية لتوليد الوعي . وتتبع الحتمية الوحدوية : «اذا لم تواجه بعرقلات أخرى ، من وعي أجزاء الأمة ضرورة وفائدة الوحدة ، فضلاً عن الارادة»(١٧) ولذلك فان ياسين ، كثيراً ما ينتقد قصور الوعي ، وهو يتحدث عن هزائم المشروع الوحدوي (١٨) .

ولذلك ، فإن ياسين كان يرى أن هناك دوراً حاسماً للأنتلجنسيا(١٩) . ولكن هذا الاهتمام بدور الأنتجلنسيا ، لم يكن ليجعله نخبوياً . فهو يرى أن إنجاز المشروع القومي ، بكل ما يتطلبه من ثورية وجذرية ، «لا يمكن أن ينجز على أكمل وجه ، بدون تسييس الشعب ، مهما بدا ، في بلد متأخر ، دور الطليعة أو النخبة أساسياً وأولياً » ... إن هذه العملية الكبرى ،تتطلب أولاً : « تسييس كتلة (= الأكثرية الساحقة) الأمة، وزرقها بسيكولوجية نضالية ، وتصفية روح العزوف السائد في صفوفها ، ويتطلب ثانياً الانتقال

بالشعب العربي ، من نمط مجتمعي مفوّت ، إلى نمط مجتمعي عصري ، عبر نقلة راديكالية»(٢٠) .

«والسياسة تبدأ حيث الملايين » : بالنسبة لياسين ، الذي يؤكد ذلك بالعودة إلى لينين . ولذلك ينتقد ياسين «الهجوع السياسي الذي يسيطر على كتلة الامة»(٢١) .

ولكن ما دور الأنتجلنسيا تحديداً ؟ . وما هو دور الحزب ؟وما علاقة الحزب بالشعب ، وكيف يُسيِّس الشعب ؟. إن الزمن لم يتح لياسين أن يسترسل في الأجوبة .

ثانياً : الحاجة إلى سياسة التغيير الراديكالي الذي يدعو إليه ياسين . وتقوم هذه السياسة . في نظر ياسين على ثلاثة أركان :

الأول : هو الأمة . وروح المواطنية ، واشتق هنا مصطلح الأموية ، أي القومية، ليعبر عن هذا المفهوم (٢٢) .

الثاني : هو بناء الديمقراطية .

الثالث : هو الوعي المطابق ، أي أن : «تملك هذه السياسات الوعي المناسب لحاجات تقدم الأمة العربية وتحررها ووحدتها » . وهذا الوعي هو : «وعي كوني ، في المستوى الأول، وفي المستوى الثاني وعي حديث ، وفي المستوى الثالث ، هو وعي تاريخي»(٢٣).

وفي سبيل بلورة هذا الوعي ، وانضاج هذه السياسة، أفنى ياسين عمره . دخل حزب البعث . ثم انتقل إلى الحزب الشيوعي ، وما لبث أن أيد عبد الناصر ، ولكنه خرج من ذلك كله بنقد الفكر السياسي العربي ، والممارسة السياسية العربية، والدولة والمجتمع ، القيادات والجماهير . وخرج بهذه الأفكار التي قدمها في مقالاته ودراساته ، والتي أعاد نشر معظمها في كتبه .

ويحاول ياسين أن يلخص تجربته في : «تاريخ وعي – أو سيرة ذاتيه إيديولوجية سياسية. » ولعل ابرز ما يؤكده في تأريخه وعيه ما يلي :

١ – أنه نبذ المعتقد القومي ، من حيث هو :«هذه الصياغة الايديولوجية السياسية للمشروع القومي العربي ، التي أبقت البنى المجتمعية – الثقافية – الايديولوجية، بمنجاة من التشكيك والنقد ، والتي تفتقر إلى وعي كوني تاريخي، كانت في التحليل الأخير ، وكما بدأت اكتشف ذلك في نهاية الستينيات، ضرباً من عملية تحديث للتقليد . ولذلك فقد نبذ المعتقد القومي، واحتفظ «بالأهداف القومية العربية »، كما يقول ، وعلى رأسها الوحدة .

٢ – أنه بتعرفه إلى الماركسية ، استطاع أن ينبذ «الشعور الماضوي للقومية العربية ، والوحدة العربية » ، وأن ينزع « عن الوحدة العربية القشرة الصوفية الرومنسية التي كساها بها المعتقد القومي العربي ». ورغم أنه تبنى الماركسية في العهد الستاليني ، فإنه يرى : «أن القاع العقلاني للماركسية ، في تناقضه غير المتصالح مع المعتقدية ، يلغم أساس المعتقد الايماني ، ويهيء امكانية لتجاوزه».

٣ – أنه ، ومن خلال هذا كله ، وقف مع المشروع الناصري : «كواحد من هذه الأمة المقهورة ، المجزأة ، التي مشت وراء عبد الناصر ، ووضعت فيه ثقتها وأملها. كان طبيعياً أن أصغي إلى نبضها ». ويضيف ياسين : «نعم، كانت لي شكوك حول جدوى ومستقبل الثورة الناصرية ، إلا أنني لم أكن أسمح لنفسي أن أفقد الأمل في أن يتجاوز عبد الناصر نفسه ، ويجدد تجربته ، ناهيك عن أنني لم أكن قد توصلت بعد، إلى رؤية نقدية كلية وجذرية للمشروع الثوري الذي طرحه...»(٢٤) .

وهو هنا يعترف بقصور رؤيته للناصرية ، وغلبة مكونات وعية الأولى على موقفه منها ، وقبل أن يتبلور لديه هذا النقد .

–٣–

وبعد ذلك ، فإن من واجبنا ، أن نقدم بضعة استخلاصات وصلنا إليها ، من خلال قراءة ياسين الحافظ :

الأول : أن ياسين الحافظ دعا إلى مشروع قومي ثوري لتحقيق الوحدة . ولم يكن يرى الوحدة تتحقق بسواه . وإذا كان قد وقف مع المشروع الناصري، فلأنه رأى بعض الآفاق الثورية فيه ، ودون أن يرى المشروع الثوري الذي يدعو إليه راهناً.

وهذا المشروع الذي يدعو إليه ثوري ديمقراطي وشعبي ، دور الأنتلجنسيا فيه طليعي وتنويري ، ولكنه ليس الدور الأوحد ولا النخبوي .

ورغم أن ياسين كان ماركسياً ، إلا أنه كان يرى الثورة الديمقراطية بالمعنى البرجوازي، من جوهر الثورة القومية ، وأن التعدد وحقوق المواطنة ، وحقوق الأقليات من أركان هذه الثورة .

والمشروع القومي ، بالنسبة لياسين ، يتجه إلى الحاضر والمستقبل ، لا إلى الماضي. وهو مشروع الأمة ، لا مشروع نخبة ، أوطائفة ، أو فئة ، أو حزب. ولأن هذا المشروع كذلك ، فإنه يتحقق بالثورة والشعب ، الأكثرية الواسعة، لا بالانقلاب ، ولا بالقيادة المشخصة ، لأن شخصنة السلطة من العوامل النابذة للوحدة ، ولأن شخصنة السلطة يمكن :«أن تصبح عاملاً ايجابياً – او جاذباً في السيرورة الوحدوية ، لو أن ثمة احتمالاً لطريق بروسي إلى الوحدة العربية». وياسين لا ينفي الطريق البروسي نفياً مطلقاً، ولا ينظر :«لطريق ديمقراطي إلى الوحدة » بوصفه مطلقاً وقانوناً يحكم السيرورة الوحدوية ، وكل ما عداه يشكل خطأ أو محاولة لا جدوى منها :«بل يرى أن ديمقراطية الحياة السياسية العربية، تفتح أرحب السبل أمام المشروع الوحدوي ، وتتسق معه ، وتنضجه»(٢٥) .

وياسين يرى ضرورة الاقليم القاعدة ، ويتحدث عنه بأشكال مختلفة من «الكتلة المحور»، إلى ضرورة «وجود قطر مؤهل»، إلى ضرورة دور وحدوي مبادر اقتحامي ، يقول به بلد ، قطر (٢٦) .

ولكن هذا الدور ، يلعبه هذا الاقليم القاعدة ، ضمن إطار الخط السياسي الذي قدمناه سابقاً، وليس ضمن أي إطار آخر ، كالمشروع القومي التقليدي أو الرومنسي ، أو المشاريع الماركسية التقليدية .

الثاني : إن ياسين يرى هذا المشروع معادياً للامبريالية ، لا لأنه يتصادم مع الاحتلال، والقوى الرجعية الحاكمة وغير الحاكمة فقط ، بل لأن الامبريالية لا تقبله أيضاً ، وتعاديه وتحاربه وتعمل لتصفيته (٢٧) .

وكان ياسين يرى أن معاداة الامبريالية ركن أساس في كل مشروع قومي، عربي ، وأن هذه السمة من سمات المشروع الذي يجب أن يؤيد (٢٨) . ولذلك أيَّد ياسين مشروع عبد الناصر كما ذكرنا (٢٩) .

والامبريالية ، بمقدار ما تحارب الوحدة ، وتعمل على اغتيال المشروع الوحدوي تدفعنا إلى الوحدة .

وقوة المشروع الوحدوي ، من قوة الثورة ، وقوى القطرية والاقليمية من قوى الهيمنة الامبريالية (٣٠) .

الثالث : أن ياسين استشرف المرحلة الشخبوطية (٣١) . ولم تكن عندما توفي ، سنة ١٩٧٨ ، إلا احتمالاً راجحاً ، من بين احتمالات . ولقد انتصرت الشخبوطية الآن انتصاراً كبيراً ، بكل ما تعنيه ، من ارتباط بالامبريالية ، وتكريس للقطرية والطائفية ، وتبنٍ للتخلف والتبعية ، وانتصار لشيوخ النفط وامراء الخليج والجزيرة، وعودةٍ الهيمنة الامبريالية بشكلها التقليدي .

الرابعة : أن ياسين ، كان معنيا بالمشروع الديمقراطي ،ولكنه كان معنياً بما يسميه الانصهار القومي ، وبالتالي التمركز ، ويرى أن هذا كان طريق التقدم والديمقراطية في اوروبا . وهو ما جهلته او تجاهلته القوى السياسية العربية (٣٢) .

وهو يرى طريق الانصهار القومي والتمركز طريق الديمقراطية ، لا طريق التجزئة والتفتيت والتشرذم .

الخامسة : أن ياسين رأى التكامل الايديولوجي ، بين الاخوان المسلمين والقوماويين، او القوميين التقليديين . ومثل هذا التكامل ، هو الذي كان يجعل نظام عبد الناصر « يحصد الاخوان المسلمين سياسياً، في حين أن سياسته التعليمية والتربوية ، كانت تزرعهم ثقافياً وايديولوجياً » (٣٣) .

ولقد تطور هذا التكامل فيما بعد ، حين عاد الاتجاه التقليدي ، وغلب على الحركة القومية الرسمية ، وإلى حد الشعبية ، ليجعل من الاسلام إيديولوجيا القومية العربية . وترافق ذلك مع تصاعد المد الأصولي ، بعد الثورة الايرانية ، سنة ١٩٧٩ ، كما تواكب مع هزائم الحركة القومية، وتراجع احزابها وقواها سياسياً وفكرياً.

السادس : أن ياسين الحافظ رأى ضرورة إبعاد المشروع الثوري عن :«دائرة التنافس، أو الصراع الاميركي السوفياتي »(٣٤) . لأن هذا المشروع يجب أن يحفظ استقلاليته . وإذا كانت هذه الفكرة مرتبطة بمرحلة وجود معسكرين ، وصراع دولي حاد ، فانها اليوم أكثر ضرورة ، في عهد تفرد الهيمنة الاميركية .

والأساس في ذلك ، أن تكون الحركة حركتنا ، وأن تكون مستندة على قوة وعينا ، وقوة شعبنا ، لا على أي عامل خارجي .

وفي الوقت الذي عادى فيه ياسين الحافظ الامبريالية وثقافتها ، لم يخف الغرب، وأعلن عن علاقة حميمة مع ثقافته العلمية الثورية الديمقراطية (٣٥) .وعلى هذه الأسس ، بنى ياسين مشروعه القومي ، وهندس مشروع الوحدة . وكان دائماً يرى أنه مشروع سياسي ، وأن السياسة هي الأساس ، وليس الاقتصاد، أو الثقافة أو غير ذلك . ولذلك كثيراً ما شدَّد على أولوية السياسة(٣٦) .

والوطن العربي ، بالنسبة لياسين وطن وعالم ، ولذلك ترد كلمة العالم في كتاباته ، بلا تحفظ(٣٧) .وتشغله الاقليات، والبنى القطرية، واشكاليات التأخر والتشوه الناتج عن الاحتلال والتبعية، كما لم تشغل واحداً من المنظرين القوميين. غير ان ياسين يظل مع الوحدة.

من هذا كله ، اكتسب ياسين تفرده . لقد كان مدرسة ، وكان يجسد خط الوعي والنضال الشعبي الديمقراطي ، في وجه القمع المتصاعد ، والشخبوطية المتفاقمة .

وكان يجسد ذلك ، في وقت تتراجع فيه القوى القومية ، لا عن ثوريتها فحسب، بل وعن قوميتها أيضاً .

ونحن اليوم بحاجة إلى مشروع ياسين الحافظ ، أكثر مما كنا بحاجة إليه من قبل . لأننا نعيش في عهد الشخبوطية الذليلة المستأسدة ، ونتعرض لكل رياح التضليل السياسي ، ولكل أشكال الغزو السياسي والثقافي ، ولكل أنماط التسلط الرجعي القمعي والطغيان الشرقي والاضطهاد الامبريالي .

هل يعني هذا أن نتبنى نصوص المشروع القومي لدى ياسين الحافظ ؟. إننا ندعو إلى تبني خطه القومي الديمقراطي ، وإلى روحه العلمية النقدية ، وندعو أيضاً ، إلى تطويره ، عبر فهم تجربة العقد الذي مضى ، وعلى ضوء التطورات العربية والعالمية التي نعيش .

ونرى أن هذا كله ، يجب أن ينطلق من فهمه ونقده أساساً.

الهوامش:

١- يراجع مثلاً:

أ- د. ناصيف نصّار: تصورات الأمة المعاصرة، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ١٩٨٦. لا اشارة لياسين الحافظ.

ب- عدد مجلة الفكر العربي، حول الفكر القومي العربي، نقد وتجديد: لا إشارة لياسين الحافظ.

ج- وتراجع اعداد مجلة الوحدة ١٩٨٤-١٩٩١، هناك مقالة واحدة، في العدد ٧ السنة الاولى. نيسان ١٩٨٥ بقلم د. رشيد شقير، بعنوان قراءة في المسألة القومية في فكر ياسين الحافظ، ص١٠٧.

٢- ياسين الحافظ: الهزيمة والايديولوجية المهزومة، الهيئة القومية للبحث العلمي، معهد الانماء العربي، سنة ١٩٩٠، ص(١٣-١٤).

٤- ياسين الحافظ: الهزيمة، مرجع سابق، ص٥.

٥- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص٣٩، والهزيمة: مرجع سابق. ص١١و١٨و٣٧.

٦- ياسين الحافظ: التجربة التاريخية الفياتنامية، دار الطليعة، ١٩٧٩. ص٨٣.

٧- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص١٨.

٨- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص١٥.

٩- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص٢٠-٢١.

١٠- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص٣٢-٣٧.

١١- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص١٧-٣٢.

١٢- ياسين الحافظ: الوحدة العربية، العوائق والمشكلات، المجلس القومي للثقافة العربية، ١٩٩١.

١٣- ياسين الحافظ: مرجع سابق، ص٢٦-٣٠.

١٤- ياسين الحافظ: مرجع سابق، ص٣٠.

١٥- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص٥٨-٦٠.

١٦- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص٥٨-٦٠.

١٧- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص٢٢.

١٨- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص٢٢،٧٤،٧٧،٨٨،٩٠.

١٩- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص٣٥.

٢٠- ياسين الحافظ: الهزيمة، مرجع سابق، ص١٨٥.

٢١- ياسين الحافظ: الهزيمة، مرجع سابق، ص١٩٤.

٢٢- ياسين الحافظ: الهزيمة، مرجع سابق، ص١٨٧-١٩٧.

٢٣- ياسين الحافظ: الهزيمة، مرجع سابق، ص٧-٣٧.

٢٤- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ٣٨-٣٩.

٢٥- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ٥٥-٦١.

و ياسين الحافظ: الهزيمة، مرجع سابق، ١٨٥-١٩٤.

٢٦- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص١٧-٣٥-٧٨-٨٦-٨٨.

٢٧- ياسين الحافظ/ حول تجربة حزب البعث، الفكر السياسي، العدد ١، دار دمشق١٩٦٣، ص١٨٢.

٢٨- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص٢٣.

٢٩- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص١٤٧.

٣٠- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص١٤٠-١٤١.

٣١- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص ١٩١.

٣٢- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص١٤٢-١٤٣.

٣٣- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص١٣٩.

٣٤- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص٢٧-٣٠.

٣٥- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص١٨٧.

٣٦- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص ١٢١.

القسم الخامس



رؤى وشهادات



مدخل :

نقدم في هذا القسم «رؤى وشهادات»، وجهات نظر عدد من المفكرين العرب حول الفكر القومي : ماضيه ومستقبله، أهدافه وتجربته، وحول الحركة العربية القومية : المطامح والنتائج.

ولكننا، ونحن نقدم وجهات النظر هذه، نرى من الضروري أن نؤكد على ما يلي :

أولاً : إن هذه وجهات نظر، وأنها تطرح أفكاراً، وتعبر عن قناعات. ولذلك فانها تحتاج إلى المزيد من المناقشة، من حيث الاتساع، لأن المشاركين، لا يتجاوزون أصابع اليد، ومن حيث التعمق، لأن الموضوع أوسع وأعقد من ان تحيط به أطروحات لم يتح لها من الوقت والمساحة والجهد ما يكفي لأن تكون أبحاثاً معمقة شاملة.

ثانياً : إن الحركة القومية العربية مرتبطة بوجود الأمة ومطامحها، وبالتالي فان الحركة القومية، قد تتراجع، كما حصل، وقد تضعف، وقد تعجز، ولكنها لن تتوقف، ما دامت الأمة تقاوم.

ثالثاً : إن الحركة العربية القومية، التي تعيش نهاية المرحلة الرابعة من مراحلها ١٩٦٢-١٩٨٢، وكانت المرحلة الأولى ١٨٧٥-١٩١٧، والثانية ١٩١٨-١٩٤٥، تبدأ الآن مرحلة جديدة. ورغم ما يبدو مداً إسلامياً، فإن الموجه الاسلامية، تتراجع، منذ انتصار الثورة الاسلامية، في إيران أعظم الحركات الإسلامية، سنة ١٩٧٩. وقد رجحت كفة التراجع تجربتا افغانستان والجزائر.

وقد لا يبدو هذا واضحاً، ولكن هناك علامات واضحة عليه، من ذلك :

١ – أن تجارب وصول إسلاميين إلى السلطة ، لم ترتبط بتقديم بديل سياسي أو اقتصادي ، ولم تحل مشاكل المجتمع المتفاقمة ، وقادت إلى «حلول ذرعية» اكثر مما قادت إلى «حلول قرآنية» .

٢ – أن اندلاع القتال في أفغانستان ، بعد سقوط الحكم الشيوعي ، واستمراره سنوات، أعطى تجربة المجاهدين صورة غير مشرقة ، وأثار مخاوف لم تكن تخطر على بال الجماهير المؤمنة ، والباحثة عن غد أفضل .

٣ – أن تجربة سفك الدماء في الجزائر لا تشجع سلوك هذا الطريق، رغم أننا لا نربط هذه التجربة بالاسلام، ولا نرى فيها دليلاً على الخيار الاسلامي .

وكان مما اكتشفه الاسلاميون أن الهجوم على القومية العربية، واعتبارها «بدعة استعمارية» ، والسخرية من الأهداف العربية ، ومهاجمة القوميين ، لا يعطي الحركات الاسلامية البعد الذي تريد . لذلك ، فقد أوقفت الحملات السابقة إلى حد بعيد ، وجرت محاولة للحديث عن مشروع عربي إسلامي ، وصار التعاون مع القوميين مقبولاً ، وفي كثير من الأحيان جزءً من برنامج العمل السياسي لكثير من الاسلاميين .

ولذلك كله ، ولأن مشكلة التبعية تتفاقم ، ومشكلة التجزئة تزداد خطراً ، ومشكلة الماء والغذاء تزداد تعقيداً ، ووجود الأمة يتعرض لمخاطر أشد وأقسى من أي وقت مضى ، فإننا أمام إرهاصات مد قومي جديد ..

الفصل الاول

الفكر القومي العربي

أي أفق . أي مستقبل

د. فهمية شرف الدين

اذا كان مقبولاً أن نُشَبِّه ما يحدث اليوم في العالم بالبركان، فإن ملاحظة نار البركان التي لم تنطفئ بعد، هي الأخرى مسألة مقبولة ، فلا تزال حجارة البركان المشتعلة تضرب في كل الاتجاهات، تجتاح الأبنية التحتية للنظام العالمي الحالي ، فتنهار الحدود، وتنفك الامبراطوريات والدول ، وتهتز الأبنية الفوقية ، بكل ما فيها من ثوابت ومحرمات ، فيغلّف الشك مصير الأفكار، ويحيط بمستقبل القيم اللبس والغموض ، وتنهار الايديولوجيات، وتتساقط كما الأوراق الموسمية .

في ظل صورة كهذه يختلط فيها الشك باليقين ، هل يسمح لنا بتناول القضايا وإصدار أحكام بشأنها ؟. أم أن وظيفة التحليل أي تحليل ، هي في محاولة فهم ما يجري انطلاقاً من الوقائع الفعلية التي تتناسل بصورة دراماتيكية ، ولكنها تشير في نهاية التحليل إلى نقطة البدء، وربما، وفي تقدير، أقل، إلى الاتجاه العام الذي يحكم تطورها .

ودون الدخول في متاهات الاستباق النظري ، ننطلق من الملاحظة التجريبية في محاولة البدء في عملية التفكيك المطلوبة لحاضر الفكر القومي ، وأدائه المرحلي ، لعلنا نتوصل إلى صياغة ، ولو مفترضة ، لأفق هذا الفكر ودوره في المرحلة القادمة. ونستطيع أن نوجز ملاحظاتنا في نقاط ثلاث :

١ – أن الأزمة الخانقة التي تعاني منها الأفكار الإنسانوية ، ليست سوى تتويج لأزمة مستعصية في مستويات التطبيق . ومن ثم فإن معاناة الترسيمة الإيديولوجية لهذه الافكار ، تنبثق من هذه الأزمة، وتعيد إنتاجها بصورة دائرية ، بحيث أن التجاوز كمفهوم خطي أو لولبي ليس قابلاً للتحقق . فالدائرة المغلقة التي تحكم العناصر النظرية المستولدة للأدوات التطبيقية ، تمنع أي تطور من داخل ، وتجعل المخرج الوحيد لهذه الأزمة يتركز في كسر الدائرة ، وبالتالي انهيار النظمة «السيتام» الذي يحكمها .

٢ -إن هذه الأزمة التي تطال الطموحات الإنسانية التاريخية، أي مفاهيم الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وحقل تحركها وتفاعلها ، تجعل المأزق يبدو أكثر حدة وأكثر اتساعاً وشمولاً ، فهو إلى جانب الاشكالية الأساسية التي يطرحها على مناهج النقد ، تلك المفاهيم التي استطاعت أن تساعد في كشف التناقض الحقيقي ما بين المروي والمكنون في الخطاب النهضوي الصاعد ، يطرح أيضا تساؤلاً لا يقل حدة على الممارسات النظرية التي أسست لمفاهيم الهوية بمستوياتها الوطنية القومية ، والتي شكلت الركائز الايديولوجية لحركات التحرر الوطني .

٣ – نستدرج من الملاحظتين السابقتين ملاحظة أخرى، وهي أن الأزمة الحالية التي تعصف بالفكر الاشتراكي، قد طالت قبل ذلك بكثير الأفكار القومية التحررية. ربما نستطيع أن نقول: إن أزمة هذه الافكار كانت المؤشرات الأولى لفشل البديل الاشتراكي ؟. ألم تستند هذه الأفكار في ممارساتها النظرية التطبيقية إلى النموذج الاقتصادي والسياسي للبديل الاشتراكي ؟. وكما الأمر في البيولوجيا ، فإن ملامح المرض الأولى بدأت تظهر في الأماكن الأقل مناعة. ولم تكن الأنظمة الوطنية والقومية التي قلدت النموذج أقل مناعة بسبب وجودها على أطراف هذا النموذج فحسب ، بل لأنها في اقتباسها للنموذج كانت أقل تماسكاً وأكثر تذبذباً .

ولا أجد مفيداً أو ضرورياً العودة إلى المماحكة النظرية التي استنفدت الكثير من النقاش حول تعريفات الفكر القومي وحقله المعرفي. اكتفي بالقول إن مشروعية هذا الفكر تستند إلى مجموعة القضايا السياسية والاجتماعية التي تبناها ودافع عنها، وأقصد بها الاستقلال السياسي، وتحقيق التنمية القومية. كما تستند إلى مجموعة القوى الاجتماعية الواسعة والمختلفة التي دعت إليه أو تبنته بشكل أو بآخر، كما أن مشروعيته السياسية تنبثق من المرحلة التاريخية التي أحاطت بمسألة الانتماء والهوية، وأحالت التعبير عن هذه المسألة إلى مشروع إيديولوجي واسع الانتشار وبالغ التأثير. إذن سنتجاوز هذا النقاش لنركز في هذه الورقة على نقطتين نعتبرهما جوهريتين في رصد أفق ومستقبل الفكر القومي .

المسألة الأولى: تتناول حاضر الفكر القومي، بما هي جزء من الأزمة الفكرية العربية التي بدأت باكراً منذ هزيمة ١٩٦٧ العسكرية ، والمسألة الثانية: هي أفق هذا الفكر ، وإمكانياته المستقبلية .

البدايات :

١ – التفصيل في الظروف التاريخية التي أدت إلى نشوء الأحزاب القومية في الوطن العربي، وردت في أكثر من مؤلف ، وناقشها الكثير من المفكرين. ومهما اختلفت الرؤى بين هؤلاء المفكرين، إلا أنهم يجمعون على أن بدايات الفكر القومي كانت إجابة فعلية للنهوض القومي الذي بدأ يمارس دوره النظري، إبتداءً من بدايات القرن العشرين. وهي ايضاً صدى للحركات التحررية التي عمت العالم بعد الحرب العالمية الأولى، وبروز مفاهيم حق تقرير المصير ، والإقرار بحق الشعوب في أن تحكم نفسها بنفسها . وإذا كان لنا أن نحدد الاتجاهات النظرية التي سادت البدايات ، فإن التركيز على المفاهيم التي تصدرت الشعارات القومية يتيح لنا التعرف على الخلفية النظرية التي حكمت الخطاب ، ومن ثم أسهمت في رسم البدايات وتأصيلها.

فإذا كانت الشعارات قد جعلت من القومية نقطة ارتكاز أساسية في البناء النظري ، فإن هذه القومية قامت على أساس استحضار عناصرها الأساسية في التاريخ العربي، وهي وحدة التاريخ ووحدة اللغة ، ووحدة الثقافة. كما أنها استثارت عناصرها الاساسية في الجغرافيا السياسية ، وما تنتجه من وحدة الحاضر والمستقبل. فكان مفهوم الوحدة هو المعبر عن هذا القيل الجامع للتاريخ والجغرافيا. وأصبح هذا المفهوم إحدى الركائز الاساسية لإنتاج الفكر القومي(١). كما أن ألوحدة أصبحت المقياس الأساسي لتصنيف الفكر السياسي والحركات السياسية بشكل عام . ولقد كان التركيز على ماضي العرب وحضارتهم المجيدة ، ورسالاتهم السماوية، ومساهمتهم التاريخية في تقدم العلوم والمعارف ، يتجه في خلفيته وفي مضمونه إلى تكوين ايديولوجية قومية تسمح لهذه الأمة بالتمايز، وإنتاج نظريتها الخاصة في التطور والتقدم . فاستشارة الخصوصية كمفهوم نظري يؤدي إلى بناء حدود للشخصية العربية تؤكد حضورها من جهة ، وتمايزها عن «الآخر» الذي يحاول تغييبها أو إلغاءها ، من جهة أخرى. ولقد كان لهذا التصور أثر مباشر على البناء النظري الكامل الذي حاول الفكر القومي إنتاجه وصياغته، ضمن حدود الذات والهوية القومية. هذه الهوية التي حددتها علاقات التناقض مع الآخر كمستوى عملي من مستويات الصراع السياسي .

ولقد أدى هذا التعسف في استخدام الأنا والهوية(٢)، إلى انصراف الفكر القومي عن ملاحقة الوقائع الأساسية التي تفرضها المتغيرات الدولية والتطورات الداخلية في مستويات التركيب الاجتماعي الداخلي . فلم يستطع هذا الفكر أن يقيم مواءمة بين الواقع

المادي الذي خضع لعملية انفكاك وتركيب هائلة في بدايات الستينات، فرتب أولويات جديدة في مستويات العمل ، وبين التحليل النظري الذي تجمد في قوالب أصبحت هي الأخرى متحجرة وغير قابلة للحركة .

١-٢ ربما يفسر هذا الموقف النظري الجامد ، الموقف الأول من الانفصال، سنة ١٩٦١، والذي تبناه حزب البعث العربي الاشتراكي . لقد تم تحليل الموقف بناء على لغة مفهومية لا تصلح للتعبير عن التغيرات الفعلية التي حدثت في مستوى البنى الاجتماعية العربية وفي مستوى النظر. وإذا كانت الناصرية كانت الأقدر على إعادة صياغة مشروعها القومي، في علاقة وثيقة بالتطورات التي حصلت على الساحة العالمية، وازدياد مساحة الفعل لحركات التحرير في العالم ، فإن الخطاب القومي لحزب البعث ظل يراوح مكانه عدة سنوات، قبل أن يصوغ من جديد منطلقاته النظرية في مؤتمره السادس(٣). على ضوء متغيرات فعلية في العالم : أولاها في مستوى الفكر ، حيث انزاح الكابوس الستاليني عن الفكر الماركسي ، وبدت الماركسية أكثر حيوية وانطلاقاً في تحليلها واقترابها من الخصوصيات المحلية ، وعلى المستوى السياسي حيث بدأ الانقسام العالمي يتبلور بين القوتين الكبيرتين ، أميركا والاتحاد السوفياتي، بعد أن تمت تصفية الاستعمار القديم في آسيا وإفريقيا .

ولقد أدى التقاط الفكر القومي لهذه الوقائع، إلى إعادة الاعتبار للنظريات الكلية لا بوصفها أساساً للعمل ، بل بوصفها قابلة للمقارنة وللاستلهام، وللتحالف. وبدت المرحلة الثانية، بما هي تعبير عن مستوى آخر للفهم وللفعل تعطي نتائجها النظرية : صياغة الميثاق بالنسبة للناصرية ، وصياغة المنطلقات النظرية التي أقرها المؤتمر السادس لحزب البعث العربي الاشتراكي ،كانت انعكاساً امنياً لهذا المستوى . ولكن الرؤية الموضوعية للوقائع المستحدثة لم تكيف الموقف النظري «الخاص» الذي التزم به الفكر القومي العربي بشكل عام. لقد ظلت الخصوصية سلاحاً فعالاً ضد النظريات الكلية، ولعبت دوراً اساسياً في مساندة وتدعيم «الانتقاء» النظري الذي هيمن في المرحلة الثانية للخطاب القومي. وهي المرحلة التي جعلت من الاتجاه نحو اليسار أمراً ضرورياً وحتمياً في ظل الشروط التاريخية آنذاك. ولكنها منعت في الوقت نفسه الالتقاء الكلي مع الراديكاليين ، والذين كانوا ممثلين آنذاك بالتيارات الماركسية الصاعدة في ذلك الوقت .

ويفسر هذا «الانتقاء» أيضاً الخطوط المتكسرة التي رافقت العلاقات الفكرية والسياسية السائدة ، التي كانت ترتكز في أساسها، إما إلى الفكر الماركسي، أو الفكر القومي . فكان التقارب الذي يسود في فترة ما، لا يتعدى الحدث السياسي العابر، ليعود فيقيم المسافة الأصلية بين الخطابين .

إن قراءة متأنية لادبيات الفكر القومي ، والتي كانت تتم على حواشي هذا الفكر وفي سياقه ، تظهر المأزق الفكري الذي تخبط فيه المفكرون القوميون. فلقد سيطر الهم السياسي على ما عداه . وكان لوصول الأحزاب القومية إلى السلطة أثر سلبي على الاجتهاد النظري. فالبرغم من المساحة الواسعة الامتداد التي انتشر عليها هذا الفكر ، لم يستطع أن يتجاوز الأطروحات الأصلية التي انطلق منها، ولم يستطع المفكرون القوميون(٤) أن يقيموا فصلاً بين الابداع النظري اللازم والضروري لتجديد الفكر ومضامينه ، وما بين الاجتهادات الايديولوجية التي كانت تقيم في خواء الاستنهاض الجماهيري الذي يكرر نفسه في دائرة مغلقة تزداد عنفاً مع ازدياد الانهيارات السياسية، والتي توجتها هزيمة حزيران ١٩٦٧ .

٢ – لهزيمة حزيران طعم خاص بالنسبة للقوميين، فهي عنوان الفصل الأخير في تاريخ صعود الفكر القومي ، ولكنها ، وفي الآن نفسه ، بداية للفصل الأول في تاريخ الانهيارات العربية الحالية . لقد أدت الهزيمة إلى نشوء حالة عامة من الانكسار في جميع مستويات الاتجاه القومي . فعلى المستوى السياسي ، تراجع الفعل السياسي العربي، من موقع الهجوم الذي قاده عبد الناصر ، منذ مؤتمر باندونغ في آسيا وأفريقيا لتصفية الاستعمار، ومواجهة التغلغل الامبريالي والصهيوني الجديد، نحو مواقع دفاعية تبريرية تتجنب المواجهات، وتدعو إلى حلول وسط لقضايا شائكة ومعقدة . وفي المستوى الاقتصادي بدت الأخطار الجسيمة التي ارتكبت في مسارات التحول الاقتصادي العربي نحو الاستقلال تعيد إنتاج التبعية من جديد. وفي المستوى الاجتماعي ، ظهرت الملامح الأساسية للفئات الطفيلية الكمبرادورية التي نشأت وتطورت في رحم التغيير الاشتراكي المزعوم(٥) .

أما في مستوى الفكر ، فقد برز المأزق النظري في الساحة الثقافية التي استباحتها الايديولوجيا، ومزقتها الشعارات السياسية . وإذا كانت المقاومة الفلسطينية استطاعت أن تشق عتمة الليل بنور شمعة أضاءتها بعد الهزيمة، إلا أن هذا النور ما لبث أن غاب في ظل الفوضى العارمة التي أحدثتها الهزيمة . فالناصرية، بكل ثقلها الجماهيري، وامتدادها القومي لم تقوَ على البقاء لأكثر من سنوات قليلة بعد موت عبد الناصر . وحزب البعث أثخنته جراح الانقلابات العسكرية والانقسامات الحزبية . أما الحركات الصغيرة الأخرى، فما لبثت أن أنضوت في إطار المقاومة الفلسطينية التي جعلت دائرة تحركها تجتاز البعد القومي، لتقيم تحالفات مع حركات التحرير العالمية .

ونستطيع أن نصف الهزيمة بالزلزال، من حيث نتائجها الفعلية . فلقد أدت هذه النتائج إلى تفكيك المشروع القومي الراديكالي في جميع مستوياته الاجتماعية والايديولوجية

والسياسية. وإذا كانت التحولات الايديولوجية والفكرية لم تظهر مباشرة، فإن الحراك الاجتماعي الذي برز في أعقاب الهزيمة، أدى إلى إعادة ترتيب القوى الاجتماعية بشكل آخر. هذا الشكل الجديد هو الذي سيهيء الشروط الموضوعية لإدارة الانفتاح الاقتصادي في السبعينيات، بشكل يتلاءم والنتائج السياسية المترتبة على الهزيمة.

لقد أظهرت التغيرات السياسية المتسارعة ما بعد عبد الناصر، الحاجة الفعلية إلى إعادة ترتيب الخطاب النظري ليتلاءم مع ما تم إنجازه في المستوى الاجتماعي. ولم يكن من السهل أو من الممكن، رفض الخطاب السائد آنذاك، وهو الوحدة والحرية والاشتراكية، فكان أن تم تجاوز الخطاب لمصلحة مفهوم آخر، اعتبر المفتاح الرئيسي للتغير المطلوب باتجاه «الانفتاح» وهو الديمقراطية.

فلقد استخدمت الديمقراطية بمعناها الكلاسيكي كبديل عن الخطاب النظري، او رديف له في أحسن الاحوال. فتم الربط الشديد ما بين الفشل في إنجاز التغيرات المطلوبة في البناء الاجتماعي، والتي كانت هدف المرحلة السابقة، وما بين غياب الديمقراطية. ولقد ترافق ذلك مع نشر الأرقام الحقيقية والعجز الاقتصادي المزمن. وتم التركيز على الإخفاقات المتتالية لخطط التنمية، وبرزت الحاجة إلى بناء اقتصاد السوق الذي يسمح بإعادة تكوين المدخرات المحلية، وترتيب الانفتاح على الخارج.

ولم يكن بالإمكان ترتيب هذا الانفتاح بقرار فوقي فقط، بل إن إرهاصاته الاجتماعية كانت قد بدأت بالتبلور في زخم التغيرات التي ارستها الدولة الاستقلالية(٦) في الستينيات. ولا يقلل الحكم السلبي على نتائج هذه الاجراءات التي اتخذتها الدولة الاستقلالية من حجمها وتأثيراتها في البنى الاجتماعية العربية(٧). ولقد كان من شأن هذه الاجراءات زيادة حجم الشرائح الوسطى (زيادة في حجمها الكلي مرتين) ونفوذها في المجتمع عموماً، كذلك توسيع حجم الطبقة العاملة الحديثة، وتحسين أوضاع الفلاحين، وفتح ممرات الحراك الاجتماعي أمام أبناء هذه الطبقات للصعود إلى أعلى. وقد رافق هذه التغيرات تحالف سياسي اجتماعي بين الشرائح الوسطى والطبقات الدنيا أدى إلى الاستقرار النسبي في بنية هذه الدولة.

ولكن هذا التحالف ما لبث أن انفك نتيجة للاختلال الذي أحدثته هزيمة ١٩٦٧ في المستوى السياسي. فعناصر الشرائح الوسطى التي تسلمت السلطة، أصبحت بعد عقد او عقدين «طبقة عليا جديدة»، تتمتع إلى جانب النفوذ السياسي، بمزايا اقتصادية واجتماعية هائلة. وكانت الهزيمة مناسبة لفك تحالفها مع الطبقات الدنيا، والتحالف مع بقايا الطبقة العليا القديمة، وفتحت الباب من جديد أمام الاستثمارات الاجنبية والشركات

المتعددة الجنسيات ، وأصبحت الحامل الاجتماعي للمشروع الكمبرادوري الجديد الذي أسس للانفتاح بالمعنى الاقتصادي والسياسي للكلمة (٨) .

ولم يكن هذا الانفتاح سبيلا إلى التحولات الاقتصادية والسياسية فحسب ، بل إن التفكيك الذي حصل في مستوى البنى الاجتماعية، سينسحب أيضاً على مستويات الايديولوجيا والخطاب . وهكذا بدا سلاح النقد الذي كان أداة الانفتاحيين لكشف نواقص وعثرات الفترةالسياسية السابقة ، وبالتالي لتفكيك المشروع الذي حملته الدولة القومية الاستقلالية ، بدا جاهزاً للاستعمال في تفكيك الخطاب القومي لا من اعداء هذا الخطاب فقط تمهيداً للإجهاز عليه ، بل أيضا من المفكرين القوميين، في محاولة منهم لنقد الذات، والكشف عن النواقص والسلبيات التي رافقت التطبيق النظري تمهيداً لتجاوزها .

ولكن امكانية التجاوز لم تكن متوفرة ، لا في المستوى السياسي، حيث مارست السلطة السياسية الجديدة ضغطاً كبيراً لتحويل هذا الواقع عبر إنضاج عملية ترتيب القوى الاجتماعية البديلة، والحاملة للمشروع الآخر الذي سيقوم على أنقاض المشروع القومي الراديكالي ، ولا في مستوى الخطاب ، حيث ظهرت الانتقائية النظرية التي مارسها الفكر القومي لإقامة المواءمة الكيفية ما بين الأصالة والمعاصرة، وكأنها المسؤولة عما حدث في مستويات التطبيق النظرية . وهي بذلك هروب إلى الأمام، تغيب المشكلة بدلاً من أن تجد حلاً لها .

وكان أن انفجر المشروع القومي إلى أطرافه المتناقضة، الأصوليين من جهة، والذين تجمعوا وانضووا تحت لواء الأصالة ، مستندين إلى الاتجاهات الكامنة في التكوينات الاجتماعية، والتي ضربت أو غيِّبت في الفترة السابقة. هذه الاتجاهات التي أبرزت العلاقة العضوية ما بين فشل المشروع السياسي، وما بين البعد عن الأصالة، والانسياق وراء مشاريع «مستوردة» في الفكر والسياسة . أما الطرف الآخر النقيض، فهم التحديثيون، والذين أعادوا فشل المشروع القومي السابق إلى نقص في مستلزمات الحداثة ، أكان ذلك في مستوى الخطاب، أم في مستوى التطبيق .

٣ – بدءاً من هذه اللحظة ، سيصبح الخطاب القومي مكاناً للفرز، وليس للاستقطاب. وسيتم الفرز في علاقة عضوية بالمسافة ما بين العروبة والإسلام. والعروبة هنا تعني عروبة علمانية تحديثية، وترمز إلى الفترة السابقة ، والإسلام هنا يعني العودة إلى الأصالة. وهو بهذا المعنى يرمز إلى استبعاد «الفكر المستورد» بأشكاله المتعددة، ويتكيء على التأسيس الذي أرساه الفكر القومي في علاقته بالأنا الخصوصية، وبالهوية القائمة على استثارة الذات القومية، وتناقضها مع «الآخر» . وبدا التناقض ما بين المفهومين يتعمق تدريجياً، بقدر ما تتعمق اتجاهات التغيير السياسي ما بعد السبعينات. ولا شك أن

الكتابات الكثيرة التي ناقشت هذا الموضوع، والندوات التي عقدت من أجل هذا الموضوع، ليست سوى مؤشرات على بروز هذا التناقص(٩) واستثماره من قبل التيارات المختلفة: الاصوليين من جهة، حيث اعطوا الأولوية للإسلام، باعتباره الإطار الأوسع الذي يشمل العروبة وغيرها، ويعطيها معنى حضارياً متميزاً، والقوميين العلمانيين الذين يؤكدون على أن العروبة هي وعاء الاسلام وأرضيته المتميزة. وأن الحضارة الإسلامية اكتسبت مع العروبة معنى محدداً، هو الذي يدفع باتجاه تمايزها عن الحضارات الأخرى من جهة أخرى.

هذه المسألة تصبح أكثر حدة، مع تزايد الانحرافات السياسية في الوطن العربي، وبخاصة بعد التحول الهائل في بنية السلطة السياسية في مصر، وفي تغير تحالفاتها وشكل علاقاتها الخارجية، وأيضاً التحول الذي طرأ على السياسة العملية لكل الدول الراديكالية تقريباً. وقد مثلت العلاقة مع الولايات المتحدة وحدة القياس بالنسبة لدائرة التغيرات السياسية في الوطن العربي (١٠).

ومما لا شك فيه أن المناخ السياسي بعد هزيمة ١٩٦٧، والتداعيات التي حصلت تباعاً في الحركة السياسية العربية، قد أثر سلباً على الفكر القومي العربي. ولم ينفع في ذلك اندفاع المقاومة الفلسطينية بعد ١٩٦٧، والتأييد الشعبي الذي حظيت به في أعقاب معركة الكرامة سنة ١٩٦٨، وتكريسها كرافعة للعمل القومي. لقد حاول الفكر القومي أن يقيم توازنه على احتضانه لهذه الحركة، وجعلها عنواناً للممارسة السياسية. إلا أن التناقضات القوية ما بين المقاومة الفلسطينية التي ارتكزت إلى البعد الشعبي في شكلها الأول، وما بين الأنظمة السياسية، والتي كانت تتزايد حدتها مع تزايد الانحراف السياسي اليميني في الوطن العربي، خاصة بعد معاهدة كامب ديفيد، وبداية ترسيخ مفهوم الصلح مع «إسرائيل»، والدعوة إلى الواقعية السياسية، أسقطت أيضاً الموقف برمته.

ولم تكن معاهدة الصلح مع «إسرائيل»، هي الحدث السياسي الوحيد في الوطن العربي. صحيح أنها كانت التجلي الواضح لانهيار المشروع السياسي للفكر القومي الذي أسس ركائزه على قضية فلسطين، باعتبارها قضية العرب المركزية، إلا أن الحدث الآخر المتزامن معه، والذي سيعدل الخريطة السياسية في الوطن العربي، هو الثورة الإيرانية.

وليست الثورة الايرانية حدثاً عابراً في الحياة السياسية العربية (١١). لقد كانت عظيمة الأثر في تعميق التمايز ما بين العروبة والإسلام. وابتداءً من هذا التاريخ، ستعيد الحركات الإسلامية صياغة مشروعها السياسي، وسيبرز الفرق الواضح ما بين الصيغة المستندة إلى الأنظمة اليمينية المرتبطة بالحلول الاستعمارية في المنطقة والتي تمثلها السعودية، وما بين الحركات الأصولية التي ستتبنى شعارات الفكر القومي الذي يؤكد على محاربة

الاستعمار والعدالة الاجتماعية، ولكن في إطار الإسلام كمنبع للفكر والثقافة والممارسة السياسية .

هكذا نستطيع فهم «الأزمة الثقافية» ، التي تمت داخل الخطاب القومي العربي. فلم يكن من الصعب على المفكرين القوميين الاندفاع نحو الاسلام بوصفه أساساً ومنبعاً للتراث القومي ، لأن ذلك لم يتطلب جهداً استثنائياً، بل استثمار للخصوصية التي يبني عليها الفكر القومي تمايزه عن التيارات الأخرى.

ولم تعد الخصوصية موقفاً فكرياً فقط، بل أصبحت ترمز إلى جملة من الممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وترتبط بشكل وثيق بالموقف من الآخر، والذي جسده الغرب بشكل عام . وقد نشأ من ذلك موقف فكري واضح، يعتبر الحداثة مرادفة للغرب، ويدعو إلى تفكيك مشاريع الحداثة المستندة إلى ثقافة الغرب وتنظيماته الاجتماعية والسياسية ، والعودة إلى بناء حداثة أخرى، تستمد مشروعيتها من خصوصية الثقافة الإسلامية، وتستلهم نماذج ماضي الدول الإسلامية القومية. وسادت في الخطاب القومي لغة مفهومية أخرى، تستبدل الديمقراطية بالشورى ، والاشتراكية بالعدالة الاسلامية، والدولة بالخلافة ، وأضيفت صفة الإسلامية إلى كل التجارب الاقتصادية والاجتماعية الحديثة، فظهر إلى الوجود مفهوم البنوك الإسلامية ،والاقتصاد الإسلامي ، والاستثمارات الإسلامية ، وأصبح الحديث عن الدولة الإسلامية مرادفاً للتعريب، وأصبح الاستقلال عن الدولة العثمانية خيانة للأمة . وإن الأشكال التي اتخذتها الدولة الاستقلالية ليست سوى صنيعة للاستعمار ومستمدة منه ، فاعتبرت القومية العلمانية بشكلها السائد «شعوبية جديدة»، دعت إليها وساندتها الأقليات في الوطن العربي (١٢) .

هكذا بدت الخصوصية منهجا للفرز ، والاستغراق فيها يزداد حدة مع ازدياد حدة الانهيارات السياسية من جهة وصعود الحركات الإسلامية المتطرفة من جهة اخرى. ولا شك أن الثورة الإيرانية سرعت وتيرة هذه الاتجاهات، وزادت من حدة الانفكاك عن المشروع القومي . أما الطرف النقيض أي العروبيون العلمانيون ، فقد تجمعوا حول السلطة السياسية وفي أروقتها، مستفيدين مما تقدم لهم من دعم معنوي. لكن ذلك لم يؤدِ إلى تعديل في مضمون الخطاب أو الاجتهاد عليه ، بل ظل الخطاب القومي الرسمي يدور في فلك الشعار الأساسي ، الوحدة والحرية والاشتراكية، دون أن يكون لهذا الشعار أثر فعلي في الحياة السياسية أو في مسألة الاستقطاب الاجتماعي .

حاضر التيار القومي وآفاقه :

تبدو صورة الفكر القومي التي تبلورت تدريجياً في السبعينيات، آخذة في التعمق. ويظهر المأزق النظري غير قابل للتجاوز. فالعلاقة ما بين الأصالة والمعاصرة ، لم تعد علاقة إيجابية، كما حاول الفكر القومي أن يسميها في البدايات، بل إن التناقض بينهما وصل إلى ذروته في الخطاب النظري حول الهوية. وقد أصبحت الهوية تعود بكليتها إلى الدين ، مختصرة بذلك زمن الجدل حول الأولويات . ويزداد هذا الاتجاه عمقاً، مع ازدياد التراجع في حركة التيارات التحديثية الأخرى: الليبرالية بشكل عام، والماركسية بشكل خاص.إن الحديث عن حاضر التيار القومي يصبح ذا شأن، إذا أخذنا بالاعتبار الحركة الاجتماعية التي ترتبت على الانهيارات والتغيرات العالمية في مجال السياسة والفكر .

إن إعادة النظر بمفهوم الطبقة ، والصراع الاجتماعي، كوسيلة لصياغة وبلورة الحركات السياسية بشكل عام، سيجعل من العودة إلى الفكر القومي باعتباره محملاً للتعاطي الفعال مع الخصوصية ، ولكنه يرتب أيضاً إعادة نظر فعلية بشكل الخطاب ومضمونه من جهة ، وبالممارسة السياسية للحركة القومية من جهة أخرى،إن الخروج من المأزق ، يتطلب أكثر من مجرد الكفاح على جبهة الفكر ، اذ يتطلب أولاً وقبل كل شيء، الخروج من المأزق في مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية. ولكن النضال على جهة الفكر ضروري جداً ، إذ أن التحرر في ميدان الحياة الاجتماعية، يجب أن يصحبه تحرر في مجال الفكر. وإن سوء تقدير أهمية هذا العنصر الأخير، والاندفاع نحو اتخاذ مواقف انتهازية أمام تحديات الفكر ، إنما كان أحد الأسباب الرئيسية لإجهاض محاولات التحرير السابقة (١٢). ويبقى السؤال ينتظر الاجابة .

فهل يستطيع التيار القومي الرد على التحديات المعاصرة ؟، وما هي مستلزمات الرد وعناصره ؟. ليس ما يحدث اليوم مسألة عابرة في تاريخنا السياسي العربي. فالنتائج المترتبة على مؤتمر السلام ، مهما كانت درجة قبولنا لهذا المؤتمر، أو درجة رفضنا له ، هي نتائج بالغة الأهمية. وهي بمعنى أوضح تعبير عن أن الأزمة قد بلغت مداها التراكمي، وأن العناصر الضرورية لإنجاز التغير الكيفي لهذا الواقع، قد أصبحت جاهزة. وبصرف النظر عن انتمائنا العاطفي لماض قريب شاركنا في صنعه وفي أحلامه، وبصرف النظر أيضاً عن رغباتنا في أن تتوقف عقارب الساعة عند حدود هذا الماضي ، فإننا لا بد أن نعترف بأن وقائع جديدة قد بدأت تظهر للعيان ، وأن ما كان حتى الأمس القريب من الثوابت أصبح من المتغيرات، وما كان من المحرمات والمقدسات أصبح قابلاً للنقاش الواقعي . وحتى لا يقع التباس في الموقع الذي نقف فيه مع غيرنا، لنعلن أننا ننتمي إلى هؤلاء الذين يعنيهم سقوط الايديولوجيات القومية الاشتراكية من موقع المتضرر ، فنحن ضحية تقسيم العمل على الصعيد الدولي. لأننا نشغل الموقع الادنى في هذا التقسيم. وإذا

كنا قد استطعنا أن ننجز تعديلاً على هذا الموقع في فترة تاريخية سابقة، استناداً إلى النهوض القومي المتكيء على التناقض القائم ما بين القوى الفاعلة على مستوى العالم إبان الحرب الباردة ، فإن هذا التعديل قد تم الغاؤه الآن وعاد موقعنا إلى حجمه السابق ، مكاناً لاستخراج المواد الخام بأرخص الاسعار، وسوقاً للاستهلاك، ويداً عاملة رخيصة لمواقع الانتاج .

الاعتراف بكل ما سبق غايته تجاوز المنهجية والأدوات المعرفية التي بها كنا نتعرف على الوقائع ، في محاولة لايجاد لغة مفهومية جديدة لا تزال مطلباً ملحاً لتحل مكان القديم الذي بات لا يفي بالحاجة، وتمنع حلول قديم آخر. يقدم نفسه بديلاً دون أن تكون لديه القدرة على إثبات ذلك .

فإذا كانت مسألة الهوية والانتماء القومي قد شكلت نقطة الارتكاز للمشروع السياسي العربي، في مواجهة الاستلاب الكلي للإنسان العربي، فإن هذه الهوية أصبحت الآن معرضة للتعديل. فالهوية الوطنية أو القطرية تحل تدريجياً محل الهوية القومية . وها قد أصبح التعريف بالعربي لا يفي بالمطلوب لأن هناك تمايزات عائدة للتشكيل الاجتماعي أصبحت ضرورية لاستكمال التعريف ، فأصبح العربي السوري ليس هو نفسه العربي المغربي، أو العربي المصري أو العربي السعودي. وليس هذا التصنيف مسألة عابرة أو اعتباطية ، فهي وإن كانت لا تمس التاريخ لكنها تشير إلى المستقبل. هذا المستقبل الذي ترتسم حدوده في انتماء أكثر تحديداً، أو أكثر خصوصية ، تحميه تمايزات الاقليمية الجغرافية التي أنتجت تفاوتات الغنى والفقر ، والتقدم والتخلف، ودرجة الاندماج في النظام العالمي. هل يعني ذلك التخلي عن فكرة القومية العربية كأساس للمشروع السياسي ؟. إن هذا التساؤل لا يجد جواباً له في مناقشة الأساس النفسي والتاريخي للفكر القومي. بل إن الاجابة عليه تقع في القراءة الحقيقية لمستقبل الوطن العربي في النظام العالمي، وكيفية فهم السيرورة الفعلية لهذا النظام .

فإذا كانت نظرية التطور غير المتكافئ للرأسمالية العالمية، قد سمحت بتبلور نوع من «التوافق المجتمعي» الذي يقوم على تنمية اقتصادية شاملة، وتوزيع فوائدها على مختلف طبقات الأمة، وإن بشكل غير متساوٍ ، في المراكز ، الأمر الذي يفترض أن أطراف التوافق ، أي العمال، البرجوازية والشرائح المتوسطة، تقبل قوانين اللعبة القائمة على التنمية الرأسمالية، والمؤسسة على هيمنة الملكية الخاصة لوسائل الانتاج، ونظام العمل الأجير من جانب ، وقبول قواعد اللعبة السياسية، أي الممارسات الديمقراطية من جانب آخر ، فإن اختلاف الظروف الموضوعية في أطراف النظام، نتيجة عدم قدرة الرأسمالية هنا في

إنجاز التنمية المطلوبة لإحداث تبلور حقيقي في مستوى القوى الاجتماعية ، ستحول هذه القوى إلى تجمع مائع متداخل من الطبقات والفئات الشعبية .. بعضهم عمال، وبعضهم من صغار وفقراء الفلاحين، إلى جانب فئات مختلفة من الطبقة الوسطى بمعناها الواسع .

إن الاعتراف بهذه المعادلة، يتيح لنا استخلاص النتائج التالية ، والتي تنبني في سياقها رؤيتنا لأفق الفكر القومي وحقل تحركه الفاعل. ونستطيع أن نوجز هذه المعادلة في نقطتين :

الأولى : الإقرار بأن ظروف أطراف النظام العالمي، مهما تبدلت القوى السياسية الحاكمة فيها، ستظل بحاجة لنضال حقيقي ضد استغلال مراكز النظام الرأسمالي. وهذا النضال سيكون دائماً معادياً للرأسمالية، ويعمل من أجل تحسين موقعه وشروط تعامله مع المراكز الامبريالية . وهذا النضال سيأخذ شكل النضال القومي ومدلولاته .

الثانية : أن المتغيرات الحالية في الواقع السياسي العربي ، ستعيد ترتيب القوى الاجتماعية التي ستعزز دينامية جديدة لهذا الواقع. فغياب المبررات الصراعية للعدو القومي المباشر بعد مؤتمر السلام، ستعيد من جديد تشكيل القوى الاجتماعية من أجل مشروع وطني آخر، يستقطب أوسع الفئات المتضررة من الاستغلال الاجتماعي . وإذا كان المشروع الرأسمالي عاجزاً هنا، كما يقول سمير أمين، عن التخفيف من حدة تناقضاته، الأمر الذي يحول دون هيمنة ايديولوجيا الرأسمالية هيمنة كاملة، فإن الظروف الموضوعية تطرح الثورة المعادية للرأسمالية على جدول أعمال التاريخ بصورة دائمة .

إن هذه الملاحظة الأخيرة تعيد للفكر القومي دوره الفعلي. فإذا كانت الرأسمالية في الأطراف لا تستطيع تحقيق الوعود بالازدهار الشامل ، هذه الوعود التي انبنت في الهامش التناقضي لأزمة التنمية الاشتراكية ، فإن ديناميكية الحركة الشعبية، ومبدأ الصراع الاجتماعي، سيؤديان إلى إعادة تشكيل الفكر القومي في مشروع وطني شعبي يتجه نحو المستقبل .

في أي أفق يتحرك هذا الفكر ؟.

هذا التساؤل يفرض اعتبار اشكالية الاشتراكية في قلب الموضوع. فالتحالف الوطني الشعبي الذي سيكون الحاصل الاجتماعي لهذا التحالف، يستبطن هدفاً اجتماعياً لا نجد اسماً له غير «الاشتراكية». والاشتراكية هنا مشروع مستقبلي قابل للتحقيق، وعلينا أن نحققه، وليس نموذجاً موجوداً علينا فقط أن نقتدي به .

الهوامش

١- لمزيد من التفاصيل، راجع: انطونيوس، جورج: يقظة العرب، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت١٩٦٦، أيضا، الفكر القومي بين النظرية والممارسة، مركز دراسات الوحدة، ندوة- مركز دراسات الوحدة العربية١٩٨٤.

٢- ميشال عفلق: في سبيل البعث، دار الطليعة، بيروت.

الياس فرح: تطور الايديولوجيا الثورية، دار الطليعة١٩٨٢

٣- المنطلقات النظرية لحزب البعث العربي الاشتراكي، ١٩٦٦.

٤- نذكر على سبيل المثال لا الحصر، المفكرين الذين كانوا على جوانب الناصرية: عصمت سيف الدولة وآخرون، والمفكرين الذين كانوا على جوانب البعث: منيف الرزاز والياس فرح.

٥- راجع في هذه النقطة: سمير أمين: أزمة المجتمع العربي، ما بعد الرأسمالية.

٦- هي ما تسمى الآن بالدولة القطرية.

٧- من ذلك تأميم المصالح الاجنبية، تأميم مصالح البرجوازيةالكبيرة، إنجاز قوانين الاصلاح الزراعي، القيام بالتوسع في التعليم والخدمات والمشروعات الاقتصادية العامة.

٨- تراجع مجلة الطليعة المصرية، ما بين سنة ٦٥ و ٧٢ بالنسبة الى هذا الموضوع، فكتب الكثير عن الطبقة الجديدة، والطبقة الكمبرادورية والبيروقراطيةالعسكرية.

٩- انظر، مجلة المستقبل العربي، حيث استأثر هذا الموضوع بكثير من المداخلات، كما أن مركز دراسات الوحدة أبدى اهتماماً بهذا الموضوع في ندوتين منفصلتين، القومية العربية والإسلام (١٩٨٠)، والاصالة المعاصرة(١٩٨٦)، هذا إلى جانب إدخال هذا البعد في كل الندوات الأخرى التي نظمها المركز أو مراكز أخرى مشابهة.

١٠- انظر، رشيد الخالدي: التحول الإجتماعي والسلطة السياسية في الدول العربية الراديكالية، حيث يشير الى تغير الاتجاهات السياسية في كل البلاد العربية

الراديكالية. ففي مصر، حيث أمكن ملاحظة ذلك علناً، بسبب ولع السادات بالظهور وهي المفاجأة. او في سوريا، حيث مثلت العلاقة مع امريكا تجلياً واضحاً لهذا التحول. اما الموقف العراقي الذي كان اكثر تصلباً في بداية السبعينيات، أصبح أكثر ميولاً للموقف الامريكي (موقفه في قمة فاس). أيضاً التغيرات المشابهة في الجزائر – المفاوضات التي عقدتها مع إيران، نيابة عن الولايات المتحدة بشأن اطلاق رهائن السفارة الامريكية في طهران.

الأمة والدولة والاندماج في الوطن العربي: مركزدراسات الوحدة العربية١٩٨٨.

١١– يشير وليد قزيها، في دراسته لأثر القضية الفلسطينية على السياسات العربية، الى ارتباط الثورة الإيرانيةبالثورة الفلسطينية، حيث ان معظم التنظيمات التي شاركت في الثورة الايرانية، كانت على علاقة وثيقة بالمقاومة الفلسطينية «الامة والاندماج»، الجزء الأول، ص١٨٣، مصدر مذكور سابقاً.

١٢– انظر كتابات وجيه كوثراني، رضوان السيد، حسن الضيقة، ومنير شفيق وعادل حسين وآخرين.

١٣– سمير أمين: ازمة المجتمع العربي، دار المستقبل العربي، القاهرة ١٩٨٥. محاولة محمد علي– المحاولة الناصرية.

الفصل الثاني

العرب وقوانين التاريخ الوحدوية

حوار أجراه

أ. عياد جلول مع د. نديم البيطار

منذ ما يربو على أكثر منذ ربع قرن، والمفكر العربي الدكتور نديم البيطار، يسخّر إمكانياته الفكرية وأدواته المعرفية، لبلورة وصياغة مشروع قومي عربي يحقق الوحدة العربية. وجل اسهامات الدكتور البيطار تنطلق من منظور قومي وحدوي عربي، وتتمحور حول الوحدة العربية، وكيفية الطريق الى بلوغها. وينتهج الدكتور البيطار في دراساته وأبحاثه المنهج العلمي العقلاني، والرجوع الى التجارب الوحدوية في التاريخ، التي درسها وسبر أغوارها، وتوصل إلى قوانين محددة يعتبرها ضرورية لبناء دولة الوحدة.

وتلقى الاسهامات والفرضيات العلمية المتقدمة التي يقدمها الدكتور نديم البيطار اهتماماً خاصاً من لدن الباحثين والمهتمين في قضايا الوحدة والفكر العربي القومي.

وفي هذا الحوار يوضح د. نديم البيطار أطروحاته:

■ كنتم تؤكدون دائماً على ان الطريق إلى الوحدة العربية تحددها ثلاثة قوانين رئيسية، وهي: توفير اقليم قاعدة، والسلطة الكاريزمية أو القائد الملهم، ووجود عدو خارجي مشترك. هل ما زلتم تتمسكون بهذه الأطروحة، خصوصاً بعد المستجدات والمتغيرات السياسية والاجتماعية التي تشهدها الأمة العربية؟

– طبعا لا أزال على نفس الأطروحة. لأن ما قدمته ليس أطروحة، بل نظرية وحدوية موضوعية علمية شاملة. لتجارب التاريخ الوحدوية، أي للتجارب التي كانت تتوحد فيها مجتمعات مجزأة، أو كيانات سياسية مستقلة. لقد راجعت هذه التجارب عبر التاريخ، أي تجارب التوحيد السياسي، كي اكشف عَمّا يمكن أن تنطوي عليه من (Process) صيرورات علاقات إنتظامية أو قوانين عامة. فعندما باشرت هذا العمل طبعاً، لم أكن أدرك ما سوف تكون عليه النتيجة. لكن مراجعتي هذه التجارب عبر التاريخ في أمكنة وأزمنة مختلفة، دلت على ان هناك بعض العلاقات الانتظامية (Regularities) قوانين عامة تعيد ذاتها بشكل منتظم، وخصوصاً ظاهرة الاقليم القاعدة. لم أجد مثلاً، تجربة واحدة ناجحة

دون إقليم قاعدة أو ما يماثله. وعليه، فإن مقولة الاقليم القاعدة ليست أطروحة، وليست فرضية. كان يمكن أن تسمى فرضية أو أطروحة في البداية، عندما باشرت هذه الدراسة. ولكن الآن يجب وصفها بنظرية موضوعية شاملة لتجارب التوحيد السياسي عبر التاريخ، أي التجارب التي كانت تنتقل فيها المجتمعات المجزأة، والكيانات السياسية المستقلة، من حالة التجزئة إلى حالة الوحدة.

الناحية الثانية التي يجب أن أصحّحها هي إنني لم أقل كقانون ثانٍ أو ثالث بضرورة توفر الزعيم الملهم. أنا لم أستخدم هذه الكلمة أبداً. ولم أستخدم كلمة زعيم، ولا ملهم أبداً أبداً. وهذه من «فروسيات» العرب ألصقوها بي. ما قلته، هو أن القيادة، السلطة الرمزية، أو السلطة التي تمثل وتجسد كرمز التطلعات الوحدوية والتطلعات الثورية، تتخذ عادة شكلاً مركزاً يتفاوت في الدرجة مع تفاوت حدة التناقضات التي تكشف عنها مرحلة الانتقال من حالة التجزئة إلى حالة الوحدة. إن مفهوم الزعيم الملهم، اذنْ، كما يدركها المثقف العربي، ليس له مكان هنا. لأن الزعيم الملهم بالنسبة للمثقف العربي كلمة أو عبارة أو مفهوم أو فكرة، ليس لها علاقة بالواقع الموضوعي، تستخدم كتطلعات ذاتية، أو عن تفاسير ذاتية للعمل السياسي، أو للدولة في إدراكهم للتاريخ.

■ وبالنسبة للعدو الخارجي المشترك؟.

– لقد رأيت باستمرار أن هناك عدواً خارجياً خطراً، يولّد الضغوط التي تحفّز المجتمع المجزأ أو الكيانات المستقلة على توحيد جهودها للتصدي لهذا العدو. فالقوانين الثلاثة مترابطة، ولا يصحّ الفصل بينها. ولكن يمكنني نسبياً أن أقول: إن الإقليم القاعدة قد يكون أهمها، لأن الاقليم القاعدة إن لم يتوافر فلا تتوافر القيادة الرمزية. وهذه الأخيرة ترتبط بشكل مستمر بتوفر الإقليم القاعدة، وإن توفرت الضغوط الخارجية، أو العدو الخارجي دون ان يتوفر إقليم قاعدة، يقود عملية التصدي والتوحيد في مقاومة العدو، يكون وجود الخطر الخارجي دون فائدة.

■ رشحتم مصر دائماً للإقليم القاعدة في الوطن العربي، وذلك بحكم دورها وموقعها، كمحرك أساسي للنظام الاقليمي العربي. فإلى أيّ حد يمكن لنا أن نتحدث عن نفس الدور لمصر، خصوصاً بعد انكفاء دورها الوحدوي والفاعل في النظام العربي؟.

– عندما راجعت تجارب التاريخ الوحدوية، رأيت أن هناك وقائع مهمة جداً، كشفت عنها في تجارب التوحيد السياسي التاريخي، مما يدعم بشكل إضافي دور الإقليم القاعدة. فبعد أن راجعت هذه التجارب، وجدت أنها كلها تدل على عدم توافر اقليم قاعدة، أو تدل على وجود إقليمين أو دولتين تحاولان ممارسة دور الأقليم القاعدة. فمثلاً كانت

اليونان القديمة ممزقة، ولم تستطع تحقيق دولة واحدة على الرغم من تطلعات كانت في شتى أنحاء اليونان إلى ضرورة الاتحاد لمقاومة الضغوط الخارجية والعدو الخارجي .. الخ وذلك بسبب المنافسة التي كانت بين أثينا واسبارطة بشكل خاص. فاليونان اتحدت عندما توفر لها الإقليم القاعدة في مقدونيا والملك فيليب. ثم جاء الاسكندر الكبير. أقرب حادثة لنا من هذا النوع نجدها في المانيا مثلاً التي كانت ممزقة، واستمرت كذلك أكثر مما يجب إلى مئات من الدول والإمارات الصغيرة بسبب المنافسة التي كانت بين النمسا وبروسيا.

ألمانيا لم تستطع ان تخطو نحو التوحيد، إلا عندما توفر خطر دائم، وهو خطر الجيوش الفرنسية بقيادة نابليون بعد الثورة الفرنسية. ثم قدرة بروسيا على القيادة، واستثناء النمسا من عملية التوحيد السياسي. وهنا نجد أن وجود دولتين تتنافسان على دور القيادة للمجتمع الألماني الممزق، أخّر هذا التوحيد، الذي لم ينجح إلا عندما استطاعت بروسيا أن تفرض وجودها كإقليم قاعدة.

أما من حيث الإشارة لمصر، أقول اولاً: إنني لم أذكر مصر فقط. بل ذكرت في عدة مناسبات أن هناك إمكانات أخرى يمكن ان تسهم في تحقيق الوحدة العربية، ومنها مثلاً ذكرت بالضبط السعودية، إذ هناك احتمال أن يحدث «انقلاب» داخلي يطيح بالنظام السعودي، ويقيم بديلاً عنه دولة عربية وحدوية. فإن حدث هذا الاحتمال، وصّحت وحدوية القائمين به فيمكن لهذه الدولة الجديدة أن تستقطب قوتها المالية لتحقيق الدولة الواحدة، أو تحقيق قفزة كبيرة بإتجاه هذه الدولة الواحدة. ولا نحتاج عندئذ إلى معركة عسكرية لتحقيق هذه الدولة. وذكرت أيضاً العراق، حيث يمكن أن نتصور أوضاعاً يمكن فيها للعراق أن يقوم بدور الإقليم القاعدة عن طريق الجزيرة العربية، مثلاً أن يسقط من الخارج النظام السعودي، وعندما يحدث ذلك، فإن المشيخات الأخرى تسقط بشكل عفوي تقريباً. ونجاح خطوة من هذا النوع، يؤدي إلى قيام دولة عربية وحدوية جديدة قوية، لا تحتاج إلى أكثر من تلك القوى المالية التي ذكرتها لتحقيق دولة الوحدة.

إذن، لقد ذكرت احتمالات أخرى، لكن بالنسبة لدور مصر كإقليم قاعدة، أقول بأن هناك وقائع تاريخية تشير إليه، وتدل عليه، وهي أن مصر هي القطر العربي الوحيد الذي انطلقت منه حركات توحيد سياسي ناجحة في العصر الحديث نحو توحيد العرب، إذ حدثت محاولتان: الأولى انطلقت من مصر بقيادة محمد علي باشا، والثانية انطلقت في المرحلةالناصرية. وهذا برأيي ليس من قبيل الصدفة، بل هناك وقائع موضوعية تفسر هاتين المحاولتين.

فعندما خرجت مصر عن دورها كإقليم قاعدة ماذا حدث!؟. استمرت مصر في ممارسة دورها كإقليم قاعدة، لكن بشكل سلبي في تدمير العمل الوحدوي، وتدمير فكرة الوحدة، ومعركة التحرير نفسها. فخروجها عن دورها كإقليم قاعدة خلق فراغاً، دلّ في وجوده على أهمية مصر كإقليم قاعدة، خصوصاً عندما خرجت عن دورها في إطار الساداتية، وتوقيع كامب ديفيد. كل ذلك ادّى إلى وجود الدول العربية كلها في جانب، ومصر في جانب آخر. وفي النهاية كل الدول العربية جاءت إلى مصر. فمصر في دورها السلبي هذا، المنحرف، الخارج عن الوحدة العربية استقطبت اليها في ما بعد هذه الدول العربية. كل هذا يدل على قيمة مصر ووزنها. وباختصار إن خروج مصر عن دورها كاقليم قاعدة، دللّ سلبياً على أهمية دورها. وذلك بتدمير العمل الوحدوي التحريري في الوطن العربي.

وفي هذه المناسبة أقول: إن وقوف الفصائل والحركات الثورية العربية في معظمها ضد القاهرة بعد الحرب ١٩٦٧، كان كارثة بالنسبة للمستقبل العربي، وبالنسبة للأمة العربية، ولمعركة تحرير فلسطين.

فالتوجه إلى مصر كإقليم قاعدة يرتبط بالتناقضات الداخلية التي تتطور وتنمو داخل مصر. فالمشاكل الديمغرافية والاقتصادية التي تواجه مصر، مثل زيادة عدد السكان، والمشاكل الاقتصادية الأخرى الخانقة التي تتزايد كلها يمكن ان تفجر الوضع، وتدفع مصر إلى تبني دور الإقليم القاعدة. لأن الحل الوحدوي سوف يكون المخرج الوحيد لأزمات ومشكلات مصر. وعندما أذكر مصر في إطار الإقليم القاعدة، استغرب كثيراً الفكر التبشيري الاعتباطي الذي يقدمه الكثير من المثقفين العرب، عندما يبادرون بالقول إلى أن مصر لا تمثل ذلك الوعي الوحدوي الذي يحتاجه العمل الوحدوي. فالقضية ليست قضية وعي وحدوي، بل أنها قضية ضرورات موضوعية تفرض، أو لا تفرض العمل الوحدوي، تدفع أو لا تدفع إليه.

إنني عندما أقول باحتمال رجوع مصر إلى دورها كإقليم قاعدة، فلا أقول: إن الوعي الوحدوي في مصر هو أكثر نمواً ونضوجاً وعمقاً مما هي عليه الحال في الأقطار العربية الأخرى، إنني أقول ذلك بسبب التناقضات الداخلية التي أشرت إليها.

■ يلعب العدو الخارجي المشترك دوراً مهماً في نظريتكم لتحقيق الوحدة، فهل أن فقدان هذا العدو الذي هو «إسرائيل» من خلال الهرولة الحالية العربية نحو التطبيع معه، سوف يؤدي إلى انتهاء المعركة الوحدوية.

–إذا لم يتوفر العدو الخارجي لا يظهر أي اتجاه وحدوي فعّال وناجح. وهذا أصبح واضحاً في الوطن العربي، فحتى المنافسات والخصومات، بل والحروب أصبحت سمة بين الدول العربية، والتباعد أصبح يزداد مع الوقت. فالمركز الذي يمكن ان يوّحد وينسق ويستقطب غير موجود. فدون هذا المركز الذي يوجه ويستقطب تخلق الاتجاهات القطرية والسياسات التي تنطلق وترجع إلى القطر، وتصبح حالة طبيعية. لأن الأزمة لا تسلخ القطر من قطريته، وتوجهه إلى أبعاد وحدوية، وإلى إتجاه العمل الوحدوي الذي يشيد دولة الوحدة. فدائماً، وبالاستناد إلى تجارب التوحيد السياسي عبر التاريخ، لا بد من توفر الخطر الخارجي، لأنه بدون توفر هذا الشرط، فلا تجد الدولة القطرية من يضغط عليها من الخارج كي تتحد مع الأقطار الأخرى في العمل ضد العدو. إن الانزلاق المستمر في الإقليمية في الوطن العربي دليل على ذلك. أنظر إليهم كيف يتسابقون الى هذا التطبيع.

■ كيف تقومون موقف الانتلجنسيا العربية اليوم ؟.

– أنا لم أجد أي فرق بين ما كان عليه المثقفون العرب في الستينات، وما هم عليه في التسعينات. فالوعي لا يزال هو ذاته، وعي ذاتي أخلاقي تبشيري، لا يقوم على العلم أو المنطق العلمي. ولذلك لا أجد حالياً أي أمل في هذه الانتلجنسيا العربية. الأمل أجده في الأجيال الجديدة من المثقفين العرب الذين يتخرجون من الجامعات. الأنتلجنسيا العربية كانت العدو الداخلي الذي مهّد الطريق للعدو الخارجي، والذي تعاون مع العدو الخارجي دون إدراك منه لمقاصد هذا العدو. النوايا الصادقة والحسنة لا تنفع في ذاتها، فهي قد تضر أكثر مما تفيد، المأساة هي أن الأنتلجنسيا العربية، وفي طليعتها فصائل المقاومة الفلسطينية لم تدرك الكارثة التي كانت تترصدها، ولم تدرك في ذلك الوقت أن عملية التوحيد هي الأساس، وأنها يجب أن تكون، جنباً إلى جنب، مع معركة تحرير فلسطين. وقلت في ذلك الوقت: إن معركة التحرير دون معركة التوحيد، لا يمكن أن تؤدي إلى تحرير شبر واحد.

■ يلاحظ البعض مغالاتكم الشديدة في الاستناد الدائم، والرجوع إلى تجارب أمم أخرى، مما أدى إلى وضع القارئ أمام مقولات مختلفة ووقائع متناقضة، على اعتبار أن الواقع العربي مغاير تماماً لتجارب هذه الأمم؟.

– لقد سمعت هذا القول عدة مرات، ولم ارّد عليه. فليس هناك من قول يفضح المثقف العربي، ويكشف عن تخلفه الفكري أكثر من هذا القول. فهناك بديهية علمية بسيطة جداً شرقاً وغرباً تفرض ذاتها في العقل العلمي الحديث، وهي أن قصد العلم الأساسي هو التمييز بين العام والخاص. المنهج العلمي يتطلع أساساً إلى الكشف عن النظام العام الذي يقف وراء الظواهر الخاصة. فعندما تقدم نظرية مثلاً حول الانتحار أو الطلاق أو الجريمة

أو الثورة أو التوحيد السياسي، فالباحث العلمي هنا لا يهتم بالخاص، بل ينشد الكشف عن العوامل المشتركة فيه. فعندما يدرس الباحث العلمي الانتحار، لا يدرسه في حدّ ذاته، بل يدرس العام الذي تشارك فيه قضايا الانتحار، أو بالأحرى العام الذي تشارك فيه الأحداث الفردية للانتحار، ويهمل ويتجاهل ما يميز زيداً أو عمراً أو فاطمة أو خديجة.. وهذا شيء لا يحتاج إلى عقل علمي كي نتبين أن الوعي الانساني يعمل ضمن هذا الإطار، يهمل الخاص بشكل مستمر، ويرتبط بالعام كي يمكن للإنسان أن يتحرك كإنسان في المجتمع. ولو أردنا ان نصف النظام وماذا يعني؟. لو جدنا أنه عام يشارك فيه الناس بصرف النظر عن مميزاتهم الفردية. عندما اقول رأيت إنساناً، أو رأيت امرأة، لا أصف فرداً معيناً، بل أصف الانسان العام. وهناك دائماً عام يُصَنِّف الظواهر الفردية، أو يصف الاشياء والظواهر والكائنات في نماذج عامة. فالعلم الذي أشرت إليه في هذا الشأن يترجم في الواقع حالة طبيعية على شكل أعلى من الوعي.

لنراجع التاريخ العربي، فسنجد أن عمليات التوحيد السياسي كانت تنطلق دائماً من المركز. عملية التوحيد التي انطلقت في ظل الإسلام حققت هذه الشروط الثلاثة التي ذكرتها. الرسول انتقل من مكة إلى المدينة، لأنه كما يبدو كان من الأسهل والأفضل له كسب المدينة ككل من كسب مكة. وبالأحرى فإن الرسول انتقل إلى المدينة، ولم يبق في مكة. والمدينة تحولت إلى قاعدة عندما استتب الأمر للاسلام في المدينة. انطلق الإسلام من المدينة إلى الخارج، ومن ثم تحولت الحجاز إلى قاعدة. وبالنسبة للمخاطر الخارجية أقول: إن العربي يجب ان يكون في دنيا غير هذه الدنيا التي نعيشها كي لا يكون قد سمع بحروب ذي قار وحروب الفرس والعجم التي كانت مستمرة. حتى الأحباش وصلوا إلى مكة وداسوا على رقابنا. إن لم يقرأوا التاريخ، فليقرأوا القرآن على الأقل. سنة الفيل موجودة في القرآن مثلاً. بالنسبة للرمز والقيادة الرمزية، فقد كانت تتمثل بالخلفاء. فهذه القوانين كانت موجودة في التجربة الكبرى في التاريخ العربي الذي قام عليها التراث العربي في أعلى ما وصل إليه من منجزات كانت تقوم على التوحيد في ظل الإسلام. وقد توفرت لها هذه الشروط الثلاثة، الإقليم القاعدة والقيادة الرمزية والمخاطر الخارجية. وعندما توحّد العرب في الجزيرة عن طريق الإسلام، فأول ما قاموا به هو شن معارك ضد الأعداء السابقين الرومان والفرس، حيث راحوا يكافحونهم شرقاً وغرباً في ذلك الوقت.

■ تؤكدون دائماً على أوليّة العمل السياسي في العمل الوحدوي العربي، فهل أن التحديات السياسية والاقتصادية والأمنية التي شهدها الوطن العربي، وخصوصاً في بداية عقد الثمانينات، ودخول الدول العربية في تجمعات جهوية على أساس اقتصادي أدى إلى إحداث تغيير في الأوليات؟.

– أنا لم اتخذ موقفاً حول هذا الموضوع، إلا بعد ان درست تجارب التاريخ الوحدوية. وقد درست تجارب التاريخ الاقتصادية العربية في كتابي: النظرية الاقتصادية والطريق إلى الوحدة العربية، والتي دللت فيها تاريخياً وبالاستشهاد بعلماء درسوا هذا الموضوع، على أن التجارب الاقتصادية التي أريد منها التوحيد، أو التي كان يمكن أن تدفع إلى توحيد سياسي، لم تصغ ذلك ابداً، في اية تجربة من تجارب التاريخ. وذكرت بعض الدراسات حول الموضوع الذي انطلق من اعتقاد بدور ما للعامل الاقتصادي، ولكني رجعت عنه، بعد أن درست التجارب الإقتصادية، ووقفت على دراسة اعدت سنة ١٨٤٢، أذكر انني اكتشفتها في مكتبة كنت اشتغل فيها. وهذه الدراسة لباحث الماني، أراد ان يستدل من تجارب التاريخ، إن كان العامل الاقتصادي يقود إلى التوحيد أم لا. فدرس ما توفر له من وقائع تاريخية. وصل إلى نتيجة سلبية من حيث هذا العامل. فوجد أن هذا العامل لا يحقق التوحيد السياسي. فأنا عندما كنت أوكد على أولية العمل السياسي، كنت استند في ذلك على أساس موضوعي علمي. ومن ناحية أخرى وجدت أن العوامل التي كانت كامنة وراء عمليات التوحيد السياسي الناجحة، هي عوامل سياسية وثقافية وغيرها.. لكن هذا لا يعني أن العامل الاقتصادي دون قيمة. لقد ذكرت العامل الاقتصادي كأحد القوانين الثانوية الأهم، حيث أنني ذكرت قوانين أخرى ثانوية. المصلحة الاقتصادية والعامل الاقتصادي مهمان. ولكن لكي تكشف عن أهميتها، فيجب أن تعمل في إطار القوانين الثلاثة، وخصوصاً في إطار الإقليم القاعدة. ولا تنس ان الاتحاد الاقتصادي الأوروبي الذي أريد منه أن يؤدي إلى توحيد سياسي، ابتدأ تقريبياً منذ ٤٠ سنة، ولم يؤدِ إلى أي اتحاد سياسي. حيث أنه يتعثر، ولا تنسَ أن هذا الاتحاد كان يتوفر فيه بعض القوانين السياسية التي ذكرتها مثل الضغط الخارجي من طرف الاتحاد السوفياتي ودور الإقليم القاعدة، وهو أمريكا تقريباً.

وحتى الآن لم يتحقق هذا الإتحاد، والعملة الواحدة، لم تتحقق، بريطانيا والدنمارك لهما تحفظات، ولم تنضما إلى الإتحاد إلا بشرطين، أن لا تشاركا بالسياسة الخارجية، وكذلك بالعملة الواحدة .. وهناك استطلاع جديد للرأي في فرنسا، أكد أن فرنسا سوف تخرج عن هذا الاتحاد. لا تنس أن فرنسا اختارت الانضمام إلى هذا الاتحاد بنسبة ١٪ فقط. لقد توفرت لأوروبا الغربية كل عوامل التماثل تقريباً، الحروب التاريخية التي كانت تمزق أوروبا، انقلبت وتحولت إلى عامل إيجابي باتجاه التوحيد، لأن الأوروبي نفد صبره من هذه الحروب التاريخية، ولا يريد أن يفكر في أي حرب عالمية أخرى ثم إنه لو تحققت هذه الوحدة الاقتصادية، فإن ذلك لا يعني تحقيق الوحدة السياسية.

■ ألا تبدو المقاربة الإقليمية للوحدة العربية من خلال قيام تجمعات إقليمية عربية تقوم على أساس التماثل والتشابه السكاني والجغرافي والاجتماعي أكثر واقعية لتحقيق عملية التوحيد؟.

– إن اتحادات من هذا النوع يمكن أن تقنع بفائدتها وايجابياتها وقدرتها على تحقيق التوحيد الانتلجنسيا العربية فقط، وذلك بسبب تخلفها . فلو نظرنا إلى هذه الاتحادات الإقليمية العربية التي نشأت منذ بداية الثمانينات، لوجدنا النتائج الضعيفة التي حققتها هذه التجمعات وعلاقاتها المريبة في ما بينها. فمثلاً نجد أن اتحاد المغرب العربي كان أول من أيد الحصار على أحد اعضائه، وهو ليبيا، على الرغم أن آخر التقارير الصادرة عن المخابرات الأمريكية تؤكد أن المسؤول عن تفجير الطائرة الامريكية فوق لوكربي ليس ليبيا. ومجلس التعاون العربي الذي انشأ في أواخر الثمانينات، قامت دولة من أعضاء هذا المجلس، وهي مصر، بالمشاركة الفعلية مع دول التحالف الغربي بشن حرب ضد عضو آخر في المجلس، وهو العراق. ومجلس التعاون الخليجي تحول إلى قاعدة عسكرية للدول الغربية المتحالفة في حرب الخليج الثانية.

لقد قمت بإحصاء مشاريع التوحيد الاقتصادي والسياسي العربي منذ أربع سنوات تقريباً، فوجدت أن عددها تقريباً ثمانية عشر مشروعاً. والآن أصبحت أكثر من عشرين مشروعاً، كلها فشلت، بل إنها كانت مهزلة. والمشروع الوحيد الذي نجح كان الجمهورية العربية المتحدة، لأنه المشروع الوحيد الذي توفرت له الشروط الثلاثة التي ذكرتها، وخصوصاً الإقليم القاعدة.

أريد أن أقف على قضية وهي معروفة، قضية الباخرة كليوباترا، فعندما رفض العمال في نيويورك تفريغ حمولة الباخرة قام عبد الناصر بواسطة وسائل الإعلام بمخاطبة العمال العرب، وقال لهم هذا ما حدث، وإذا بالعمال العرب في جميع الأقطار العربية، يتوقفون عن تفريغ البواخر الأمريكية في الموانئ العربية. وظل الأمر كذلك حتى جاء الاميريكيون بأنفسهم إلى عبد الناصر يستغيثون به لحل المشكلة. أما الآن، فإنهم يقومون بعمل قرصنة، يحاصرون الجماهيرية ويدمرون العراق، ولا يحرك أحد ساكناً.

■ ما هو الدور الذي يجب أن يضطلع به المثقفون العرب والانتلجنسيا العربية اليوم؟.

– الرجوع إلى الإقليم القاعدة. أما كيف يمكن القيام بذلك، فهناك برنامج مجزأ أو شامل. وهذا يتطلب دراسة أخرى. إن أهم ما يمكن أن نقوم به الآن في ظل هذا التقلص الثوري والايديولوجي، هو الإعداد لرجوع مصر إلى دورها كإقليم قاعدة. لكن هذا للأسف من المتعذر حدوثه.

إنني أرى الآن انه حتى العراق لم ينته دوره كإقليم قاعدة نهائياً، فيمكن للعراق أن يرجع إلى دوره كإقليم قاعدة. وما حدث في حرب الخليج، يعتبر أكبر كارثة أصابت الأمة العربية منذ اكثر من الف عام. إذ ان المأساة الأولى بالنسبة لي، هي ضياع إقليم قاعدة جديدة، كان يمكن للعراق أن تقوم به. فتدمير هذا الدور كان من أهم عناصر هذه الكارثة التي أشرت اليها.

وأريد أن أشير أيضاً إلى أن الوعي السياسي العربي، أو بالاحرى وعي الانتلجنسيا العربية لم يكن وعياً علمياً، بل وعي قصير النفس، لأن الوعي الذي لا يتسلح بنظرية علمية موضوعية، حول الظاهرة التي ينشغل بها يكون وعياً ذاتياً. والوعي الذاتي بطبيعته ساذج، وعي غير قادر على الاستمرار والحياة الطويلة، لأنه يكون عبارة عن انفعالات وردود فعل انفعالية لاحداث الخارج، بينما الوعي العلمي الذي ينبثق من دراسة موضوعية للظاهرة التي ينشغل بها. ويعمل في ضوء القوانين والعلاقات الانتظامية العامة التي تضبط هذه الظاهرة، يستطيع أن يُحقق لذاته النفس الطويل، لأنه يستند على شيء متأصل بطبيعة الظاهرة التي ينشغل بها. وهذا كان يمثل نقصاً وقصوراً في موقف الانتجلنسيا العربية. وكان يجب على الانتجلنسيا العربية أن تفهم من البداية أن الاحتلال الإسرائيلي ليس في فلسطين، الإحتلال الإسرائيلي هو في واشنطن. وأن المعركة العربية ليست مع «اسرائيل» بل مع امريكا، فاسرائيل بدون امريكا تصبح بيتاً من كرتون.

أنا لا أضع آمالي في المستقبل البعيد على احتمال انحطاط النظام الامريكي، مثلا. وهذه فكرة ذكرتها في عدة مناسبات، وأصدرت كتاباً في هذا الموضوع، وهو هل يمكن الاحتكام إلى الولايات المتحدة في النزاع العربي الإسرائيلي؟، حللت فيه طبيعة النظام الامريكي، وكشفت عن الثقوب التي كان يمكن للصهيونية التسرب منها لهذا النظام وسيادته من الداخل. ولهذا طالما أن هذا النظام قائم، فالمعركة يجب ان تتجه إلى هذا النظام. وما يحدث لهذا النظام في المستقبل، يكون ذا اهمية أولى بالنسبة لنا. أنا أتوقع، مثلاً، كاحتمال في المستقبل القريب انحطاط هذا النظام، فالقضية ليس في أن الانحطاط سوف يكون أو لا يكون، أعتقد أن الانحطاط بدأ، ولكن تجارب التاريخ تدل أيضاً على أن انحطاطا لنظام معين يأخذ وقتاً، وهناك منخفضات، وهناك مرتفعات، فالانحطاط لا يسير على وتيرة واحدة وخط مستقيم. وأرى أن هناك أوجه شبه كبيرة بين انحطاط النظام الامريكي وانحطاط النظام السوفياتي.

لأنه ليس هناك في الغرب بلد واحد آخر يقوم على الايديولوجيا كالاتحاد السوفياتي أو أمريكا. عندما تمزقت الايديولوجيا الشيوعية كان من الطبيعي ان يتناثر ذلك الاتحاد. إن تناثر الاتحاد السوفياتي وسقوطه سبقه تقلص للإيديولوجية الشيوعية بين الولاء والانتماء له، لأنها خسرت قوتها الجاذبة الملهمة التي كانت تتمتع بها في البداية، فوحدة

الاتحاد السوفياتي خسرت القوة المستقطبة لها، غورباتشوف كان المفجر فقط لهذا الخلل الذي أصبح في الواقع عميقاً. وهذا ما يفسر السقوط. وبالنسبة لامريكا سوف يحدث نفس الشيء. فامريكا تقوم على الايديولوجيا. الاميركي يشارك في قيم معينة كل المهاجرين الذين يلجأون إلى امريكا كانوا يذوبون في النظام الامريكي من هذه الزاوية. فكانوا جزءاً من هذا النظام بسبب مجموعة من القيم يتمثلونها وينطلقون منها. وعندما تزول هذه الايديولوجيا وتتساقط، فليس من الغريب أن يحدث نفس الشيء في امريكا مثل ما حدث في الاتحاد السوفياتي، اي تمزق امريكا إلى ولايات مختلفة. وفي الواقع هذا موضوع آخر. ولكن من الممكن الوقوف عند هذه الظاهرة، وعرض المؤشرات لها. فلقد بدأت تؤكد ذاتها في الساحة الامريكية.

أهم مؤلفات الدكتور نديم البيطار:

- الايديولوجية الانقلابية، بيروت، دار الطليعة ١٩٦٤.

- النظرية الاقتصادية والطريق إلى الوحدة العربية: معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨٠.

- حدود الإقليمية الجديدة، معهد الإنماء العربي ١٩٨١.

- هل يمكن الاحتكام إلى الولايات المتحدة الامريكية في النزاع العربي الاسرائيلي. معهد الانماء العربي، بيروت ١٩٨٦.

- المثقفون والثورة. المجلس القومي للثقافة العربية، المغرب، الرباط ١٩٨٧

- التجربة الثورية بين المثال والواقع. المجلس القومي للثقافة العربية - المغرب الرباط ١٩٨٧.

- فكرة المجتمع الجديد في المذاهب السياسية والايديولوجية الحديثة. صدر حديثاً عن المؤسسة العربية للنشر والإبداع، الرباط، المغرب ١٩٩٣.

- بالإضافة إلى العديد من المؤلفات الأخرى.

الفصل الثالث

آفاق المشروع القومي العربي

د. أحمد الجباعي

«أنت غنية وأنت فقيرة ،

أنت قوية وأنت ضعيفة،

يا أمنا يا أمة العرب».

لقد بات في حكم المرجح أن القرن الواحد والعشرين ، هو قرن التجمعات السياسية والاقتصادية العملاقة . ففي القارة الأوروبية، حيث قطعت مسيرة الوحدة الاقتصادية والسياسية أشواطاً متقدمة، من المنتظر أن تستكمل قبل نهاية هذا القرن، يستعد العملاق الأوروبي للخروج من قمقم الدولة القومية، التي باتت تضيق أمام حركة تدويل الاقتصاديات الرأسمالية المتعاظمة، سيما وأن تغيرات أوروبا الشرقية قد فتحت إمكانيات توحيد «البيت الأوروبي» بكامله بعد أن أزيح الجدار الذي كان يقسم «الصالون» الألماني .

وفي الطرف الشمالي للكرة الأرضية يزداد التكامل بين الولايات المتحدة الأمريكية وكندا ، والمكسيك ، مع إمكانية توسعه نحو امريكا اللاتينية ، الحديقة الخلفية «للبيت الامريكي» .

وفي الشرق الآسيوي تبرز الصين واليابان ، وعدد من الدول النامية بوتائر جيدة في جنوب شرق آسيا ، مع احتمال تشكل قطب آسيوي بزعامة اليابان ودعم الصين .

كما أن روسيا الاتحادية ، «ومجموعة الدول المستقلة» التي تمخض عنها تفكك الاتحاد السوفيتي، يمكنها أن تعود إلى لعب دور أكثر تأثيراً على الصعيد العالمي، وخصوصاً أن القاعدة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية متوفرة ، رغم السياسات التي تنتهجها غالبية النظم الليبرالية السائدة حالياً، وذلك مرهون بالخيارات السياسية الداخلية وتوازناتها ، وبتوازنات السياسة الدولية في مرحلة ما بعد الحرب الباردة .

وعلى الضفاف الشرقية والجنوبية للمتوسط، ومن الخليج العربي شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، يمتد الوطن العربي على مساحة شاسعة مقدارها(١٤) مليون كم٢، أي ما نسبته ١٠,٢٪ من مساحة اليابسة في العالم، يسكنه أكثر من (٢١١)مليون نسمة (١) أي ما نسبته ٤٪ من سكان العالم، ويتمتع بموقع جيوسياسي (Giopolitic) متميز ، وينطوي على ثروات باطنية طائلة .

ففيه اكثر من ٦٠٪ من احتياطي النفط المؤكد في العالم ، وهو عصب الصناعة والمدنية الى عقود عديدة قادمة ، وتتلقى أسواقه معظم وارداتها من الأسواق الرأسمالية المتقدمة، بدعم الإمكانات الاقتصادية الهائلة التي يمكن أن يوفرها التكامل الإقتصادي العربي ، فإذا نظرنا الى الفوائض المالية العربية، وهي حوالي ترليون دولار (٢)! مع الإمكانيات البشرية والفنية والعلمية المتاحة ، والسوق الواسعة للاستهلاك ، والتصريف ، والإنشاءات التكنولوجية وعمق الروابط القومية ، التاريخية ، اللغوية ، الدينية ، الجغرافية ، الحضارية ...الخ . التي ترشح جميعها لقيام تكتل سياسي – اقتصادي قومي له كل مقومات الحضور والفعالية كدولة كبرى، في الساحة الدولية . فإن الواقع البائس اليوم يشير الى ما يعاكس هذه الإمكانية ، حيث تشرذم الأقطار العربية ، واندلاق الأسواق نحو الخارج، وعدم الالتزام بمواثيق التكامل الاقتصادي التي أقرتها المؤسسات المتخصصة في جامعة الدول العربية ، وتدني مستوى التجارة البينية العربية إلى أقل من ١٠٪ من اجمالي تجارتها .والصراعات التي استفحلت بين النظم العربية وتميزت بانفجار مشكلات الحدود ،والأمن ، وانهيار مقومات النظام العربي، والتهديد باختراقه من كل زاوية وصوب.

وبرغم الحالة المأساوية للأمة المجزأة ، والمفككة ، والمستباحة ، في حاضرها ، بثرواتها وأمنها ولقمة عيشها ، والمهددة في مستقبلها ، فإن المشاعر والطموحات العربية الشعبية، ظلت على الدوام تتوق إلى إنجاز المشروع القومي النهضوي العربي.

وأثبتت الروابط القومية الكثيرة بين أبناء الشعب العربي ، أنها عميقة ، ومتأصلة في النفوس ، وأنها أقوى من كل المحاولات الرامية الى طمس الهوية القومية ، أو محاولة إنماء طحالب هويات قطرية أو إثنية أو طائفية في مواجهة / وعلى حساب الهوية القومية العربية.

واذا كان الفكر القومي – الديمقراطي ، بكل مدارسه وبمختلف روافده، مدعواً اليوم إلى مراجعة التجربة التاريخية لمحاولات النهوض والإخفاق ، فإن الحس النقدي والعقلانية ، والراديكالية الأيديولوجية والسياسية ، تشكل أسلحة فعالة لمواجهة هذه المرحلة الخطرة ، والاستفادة من الخبرات التاريخية المتراكمة لإعادة بناء الفكر القومي

الديمقراطي ، ومعها حركات التغيير ، بهدف إعادة إنهاض المشروع القومي – الديمقراطي المتعثر ، ودفعه قدماً في مواجهة العوائق والتحديات الكبيرة التي تواجهه في الداخل والخارج .

والقومي الديمقراطي ، المؤمن بحق أمته في الوجود والبقاء، وبحقها في التقدم، وبقدرتها على التجدد والنهوض لتجد لها مكانها اللائق بين الأمم المتمدنة ، تملؤه الثقة الفعلية بامكانيات ، وضرورة نهضة الأمة ، التي أثبتت قدرتها دوماً على النهوض من الرماد كطائر الفينيق الاسطوري .

وهذه الثقة ، ليست ثقة متعالية على حقائق التاريخ ، بل تنطلق من أرضيته، وتنبع من مصالح غالبية فئات الشعب العربي التي يشكل المشروع القومي الديمقراطي إطاراً ومحتوى مصالحها .

لذا يرتبط إنهاض المشروع القومي من جديد ، ارتباطاً حميماً بنهضة الجماهير العربية، وتوسيع مشاركتها السياسية ، وهي المكبلة اليوم بدرجات متفاوتة في مختلف أقطارها ، مما يجعلها قادرة على صنع خيارها السياسي بحرية، ويطلق طاقاتها الكامنة، ويعبئها في معركة الوجود ، والدفاع عن المستقبل .

والفكر القومي الديمقراطي العربي ، مطالب اليوم بأن يهجر لغة الآحادية والشمولية واللون الواحد ، نحو التعددية ، بحيث يغتني بكل الروافد والتيارات النهضوية بتعدد روافدها ، وتياراتها ، ومدارسها الفكرية أو السياسية (قومية ، ماركسية ، دينية متنورة ، ليبرالية ...)(٣) .

وهو مطالب أيضا بإعادة النظر في أسسه المعرفية ، وأهدافه ، ووسائل تحقيقها ، بما يمكنه من التأثير والفعالية ، نحو تجاوز الرؤى الرومانسية والاحادية، والقسرية للتوحيد، الى رؤية المشروع القومي الديمقراطي بوصفها عملية ، أو سيرورة (Process) متداخلة المهام ، والمراحل، مرتبطة لا برغبة زعامات فردية، او حزبية ، أو طموحات توسعية ، بل مرتبطة أساساً بنمو المجتمع المدني، وتصلب عوده طرداً، مع المكتسبات الديمقراطية التي يمكن أن تنتزعها القوى الشعبية ، اقتصادياً، وسياسياً ، وتحافظ عليها .

إنه بالواقع مشروع ديمقراطي من الطراز الرفيع ، تحمله الأغلبية الشعبية بقيادة مختلف طلائعها ، ومؤسساتها ، وتُطوره بتجاربها النضالية ، وتتحمل تبعاته، وتواجه عقباته وأعداءه .

وعلى عاتق المثقفين القوميين الديمقراطيين ، باختلاف مدارسهم وانتماءاتهم، تقع اليوم المسؤولية الأولى لمواجهة تحديات تجديد الفكر القومي ، وتطوير منظوراته على المستويات المنهجية والمعرفية والسياسية من جهة، ومواجهة الدعوات ما دون المنهجية، وما فوق القومية (التي تؤول في التحليل الأخير إلى الأولى) تلك التي بدأت تطل برأسها في مناخ الإحباط والهزيمة من جهة أخرى.

أولاً : المشروع القومي في مواجهة الإمبريالية والصهيونية :

يواجه المشروع القومي العربي اليوم التحدي الإمبريالي – الصهيوني ، الذي واجهه سابقاً ولا يزال لكن في ظروف أقل تكافؤاً ، على الصعيد العربي، بعد انهيار محاولة النهوض القومي التي قادتها الناصرية، وعلى الصعيد الدولي، بعد انهيارات الاتحاد السوفيتي وبلدان أوروبا الشرقية ، وانتهاء الحرب الباردة ، وخروج الامبريالية ، بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية ، «منتصرة»، ومحاولتها فرض سيطرتها على العالم لقرن كامل كما يحلم الرئيس الأمريكي «جورج بوش»(٤) .

وقد تفاقمت الأزمة بشكل خطير ، وانكسرت موازين القوى ، وتهدد النظام العربي برمته بعد النتائج الكارثية لحرب الخليج الثانية، والتي استثمرتها الدوائر الإمبريالية – الصهيونية، لتشن هجومها على الأمة ، بهدف تحطيم القدرات العربية العسكرية والحضارية ، والسيطرة على منابع النفط ،وإعادة المنطق الكولونيالي والاحتلال المباشر، وفرض تسوية مذلة على الأمة وفق الشروط الأمريكية – الصهيونية، وفي ظل موازين قوى محلية ودولية لا ترشح أبداً لإمكانية «تسوية عادلة » للصراع التاريخي المفتوح بين الأمة العربية ومشروع نهضتها ووحدتها ، وبين المشروع الإمبريالي للهيمنة ، والنهب ، ورأس حربته المشروع الصهيوني. ولا يزال العدوان الإمبريالي يتوالى فصولاً.

لقد مر النظام الرأسمالي بمراحل متعددة: الميركانتيلية – الصناعية، المالية، وبرزت الظاهرة الإمبريالية كنتيجة لتطور المراكز الرأسمالية، ونزوعها للهيمنة بأشكال جديدة، دون الحاجة إلى السيطرة المباشرة كولونيالية الطابع .

والرأسمالية المعاصرة ، تمر اليوم ، وخصوصاً في مراكزها ، في مرحلة الثورة العلمية والتكنولوجية التي يمكن أن تلمس ملامحها في ثلاثة ميادين رئيسية :

١ – ميدان المعلومات (المعلوماتية):

ويشمل الإلكترونيات الدقيقة ، والكومبيوتر ، والروبوت(الإنسان الآلي) والإتصالات، وتكنولوجيا الفضاء، ولعل ميدان تبادل المعلومات (٥) والاتصالات بسرعة

فائقة هو الميدان الأكثر أهمية من ميادين ثورة العلم والتكنولوجيا ، التي حولت العالم إلى مدينة واحدة صغيرة ، وأسقطت الكثير من الحواجز الإيديولوجية والسياسية ، وقربت بين الثقافات لدى مختلف الأمم ، وأفراد البشر .

كما أن استخدام تكنولوجيا (الليزر) في مجال المعلومات، والتي لا تزال في بدايتها تبشر بحصول تطور دراماتيكي في تكنولوجيا التسجيل والطباعة والمعلومات والإتصالات ...

٢ – في ميدان التكنولوجيا الحيوية :

تعتمد التطورات الجديدة العلمية في هذا الميدان على إحداث وحث تبدلات في النشاط البيولوجي للخلايا الحية ، عن طريق التأثير على المورثات أو الجينات (Gens) بهدف الحصول على كائنات جديدة ، أو مواصفات أفضل . وهذا ما يدعى بالهندسة الوراثية التي تفتح بالفعل آفاقا سحرية أمام حل مشاكل الغذاء ، والزراعة ، وتربية الحيوان من خلال الحصول على بذور ذات نوعية محسنة جداً ، أو الحصول على نباتات وحيوانات جديدة ومن طرائف هذا الموضوع محاولة الحصول على أبقار من نوعية جديدة ، تلد مرة كل شهر ، ويمكن التحكم بأن تكون كل المواليد من الإناث، ناهيك عن إمكانية إيجاد مصادر للغذاء ، أو الطاقة وتطوير صناعات دوائية، وبتروكيماوية جديدة .

٣ – في ميدانُ تكنولوجيا المواد :

لقد اعتمدت الصناعة سابقاً على عناصر ومواد أولية وفلزات طبيعية، لم يتجاوز عددها الثلاثين . أما اليوم فإن أعداداً كبيرة ومتزايدة من العناصر والمواد والخلائط الصنعية الجديدة زاد عددها إلى المائتين . ذات الجودة العالية والمواصفات المرنة والمناسبة ، والمقاومة باتت تدخل في إنتاج الصناعات الحديثة، وخصوصاً في ميدان الصناعات البتروكيماوية . وهكذا تراجع دور الفلزات والخامات الطبيعية، وحلت محلها الخامات الصناعية الجديدة وعليه «فإن حجم المواد الخام المطلوبة لإنتاج وحدة من المنتجات الصناعية، لا يتجاوز الآن ٢٠٪ مما كان مطلوبا عام ١٩٠٠»(٦).

لقد استفادت الرأسمالية المعاصرة من معطيات ثورة العلم والتكنولوجيا في التجديد المستمر والمتسارع للقوى المنتجة ، وفي التغييرات الهيكلية التي أصابت الصناعة، حيث تحولت اكثر فأكثر نحو الاوتوماتية أو (التسيير الذاتي)، وهبطت الأهمية النسبية للصناعات التعدينية ، وزادت أهمية الصناعات التحويلية ، وازدادت أهمية المعلومات، وصارت تدخل بشكل متزايد الأهمية في الإنتاج، وأصبح التنافس على العقول ، أو ما يسمى «بالثروة الرمادية» وهو مقدمة التنافس على امتلاك العُقد العليا للتكنولوجيا في الساحة الدولية .

وأصبحت التكنولوجيا ، أكثر من أي وقت مضى، معطيات علمية ومعلوماتية قادرة على التوطن والنمو ، أكثر من تطبيقات صناعية .

وقد استفادت المراكز الإمبريالية المتقدمة من ذلك ، فاحتكرت الفروع الأكثر تقدما للتكنولوجيا ، ومصادر المعلومات ، وبدأت بتصدير الصناعات التقليدية ذات العمالة المرتفعة ، أو الملوثة للبيئة الى عدد من دول العالم الثالث .

كما تغير هيكل الإقتصاد القومي ، وهيكل قوى العمل ، إذ ازدادت أكثر فأكثر أهمية الأيدي العاملة الماهرة والعقول، وقلت أهمية العمل العضلي ، وتغيرت بالتالي تركيبة الطبقة العاملة وشروط عملها ، وحياتها ، وتغير الإقتصاد الدولي الذي يزداد عالمية (Mondial) باستمرار ، وتفاقمت الفروق بين المراكز الرأسمالية الغنية والأطراف التابعة والمفقرة، وازدادت تبعية البلدان النامية ، وصار بمقدور المراكز تصدير أزماتها نحو الأطراف بشكل أوسع ابتداء بتصدير الصناعات التقليدية المكلفة والملوثة للبيئة ، مروراً بتصدير ظاهرة التضخم النقدي، وصولاً لتصدير فائض الأسلحة ، والنفايات النووية الكيماوية، وثقافات الاستهلاك، وأنظمة القمع !.

ناهيك عن الهجوم الذي تقوده اليوم الليبرالية الجديدة ، للتخفف من أعباء «الكينزية»، والانقضاض على عدد من المكاسب السياسية والاجتماعية في المراكز المتقدمة في الوقت الذي تُركز هجومها الشامل ، لتفكيك التجارب «الاشتراكية» بشكل تام، والانقضاض على حركات اليسار والتحرر القومي الديمقراطي ، وتقود عملية فكرية – سياسية – اقتصادية وعسكرية عند اللزوم لإعادة كومبرادورية «العالم الثالث» (٧) .

وهذا ما يضع أمام البلدان المتأخرة التابعة تحديات جديدة وخطيرة، في ظل انكسار ميزان القوى على الصعيد العالمي ، وتزايد ظاهرة الاستقطاب الحاد في النظام الدولي اقتصادياً وسياسياً مما يهدد العديد من الدول الفقيرة بالتهميش التام وبفقدان دورها في التقسيم الدولي السابق للعمل القائم على تخصص دول متقدمة بالصناعة، وتخصص الدول الفقيرة بالزراعة ، وتصدير الخامات ، ومصادر الطاقة.

فالواقع ينبئ إن هذا التقسيم قد تعرض منذ عقود لتعديلات جذرية، فلم يعد التصنيع حكراً على دول (الشمال)، بل جرت عملية نقل للصناعات المتقدمة من خلال الشركات متعددة الجنسيات Trans-International Co دون أن تتغير ظاهرة الاستقطاب تلك ، بل إنها تعمقت في مجموع النظام العالمي ، وظهر العديد من دول «العالم الرابع» التي ازداد تهميشها وحذفها من دائرة التبادل الاقتصادي الدولي، وتركت لمصيرها المفجع في مواجهة الجفاف والتصحر والتلوث والمجاعات وحروب التدمير الذاتي .

وازداد الأمر خطورة مع انتهاء الحرب الباردة ، حيث فقدت الكثير من الدول جزءاً من أهميتها الإستراتيجية السابقة كدول القرن الافريقي (ويشكل الصومال حالة نموذجية في هذا السياق) ، ناهيك عن أن القوى الإمبريالية، بعد انتهاء الحرب الباردة لمصلحتها صارت حرة في اشعال «الحرب الساخنة» حيثما تهددت مصالحها وسيطرتها، بعد انسحاب القطب السوفياتي ، مما انعكس بشكل دراماتيكي على بنية المنظمة الدولية ، ودورها ، فتحولت إلى ما يذكر (بعصبة الأمم) السابقة التي كانت الغطاء الشرعي الجاهز لاعطاء شرعية صكوك الانتداب .

كل ذلك تحت يافطة «النظام الدولي الجديد» الذي لا يعدو كونه نظاماً رأسمالياً لا متكافئاً واستقطابياً على الصعيد الاقتصادي، ونظاماً للعلاقات الدولية القائم على هيمنة القطب الأمريكي الواحد في هذه المرحلة الانتقالية ، وريثما تتبلور الأقطاب الدولية الجديدة الصاعدة.

وقد خبرت أمتنا ، أول تباشير هذا النظام الدولي الجديد ، مع العدوان الامريكي، الأطلسي على العراق ، لتدمير إمكاناته العسكرية والحضارية ، والهيمنة على منابع النفط العربي، والتمهيد لفرض تسوية للصراع العربي الصهيوني بالشروط الامريكية – الصهيونية المذلة.

إن الرأسمالية تبدو اليوم في صورة رأسمالية عالمية ، بقيادة الشركات متعددة الجنسية التي تتوزع مراكزها في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية واليابان ، رأسمالية عصرية مدولة باضطراد، قادرة على التكيف مع المستجدات، والتغلب على عدد من أزماتها ، وحل عدد من تناقضاتها الكلاسيكية في نفس الوقت الذي تنفتح فيه أمامها تناقضات جديدة ، حيث يتفاقم التناقض بين المراكز الرأسمالية ، والأطراف ، ويزداد التناقض بين الطابع الاجتماعي والإنساني لمنجزات ثورة العلم والتكنولوجيا التي تعد بحل مشاكل الفقر والجوع وتلوث البيئة ، ومشاكل الصحة ، وبين طابع النظام الرأسمالي القائم اساساً على مبدأ الربح والتملك الخاص . فنجد ذلك التعايش الغريب بين أرفع منجزات العلم والثقافة الإنسانية الديمقراطية والاشتراكية ، وبين سباق التسلح والرعب ، وتلوث البيئة ، والحروب المدارة امبريالياً، وتصعيد النزعات العرقية والدينية المتأخرة، وتعميم ثقافات الاستهلاك والميوعة والاستلاب، وتأجيج النزعات العنصرية وقيم العنف والإرهاب .

كما أن التناقضات بين المراكز الرأسمالية تزداد ، وتتخذ اشكالاً جديدة، حيث أصبح التنافس العلمي والتكنولوجي في الدرجة الأولى ، وأصبح الصراع يأخذ منحنى قارياً أكثر من صراعات بين دول قومية .

كما إن التناقضات الداخلية مستمرة ،وتأخذ اليوم طابعاً ديناميكياً جديداً ، يتسم بتوسع دائرة المنابت الطبقية ، والاتجاهات الفكرية والسياسية التي تعارض منطق النظام الرأسمالي في الداخل الخارج . وتخوض معارك الدفاع عن المكتسبات الاجتماعية والسياسية التي تحاول الليبرالية الجديدة في موجتها الراهنة القضاء عليها (بيع قطاع الدولة للقطاع الخاص، التخلي عن دعم سياسات التوظيف ، وسياسات الضمان الاجتماعي لعدد من المستفيدين من قبل الدولة)، وتدافع عن القيم الديمقراطية الإنسانية ضد موجات العنصرية المستيقظة من جديد ، وعن حق الشعوب المضطهدة في التقدم والتحرر ، وعن السلام العالمي ، ونقاوة البيئة ، حيث تقوم المؤسسات الرأسمالية العملاقة بقيادة سباق تسلح جنوني ، واستنزاف بيئي للمجال الأرضي أكثر جنوناً ولا عقلانية .

كل ذلك يؤكد أن الرأسمالية ، ليست نظاماً بدون تناقضات أو أزمات، كما يؤكد أن الاشتراكية ستظل هي الحل الأساسي الذي يرتسم في الأفق لحل مشكلات النظام الرأسمالي العالمي حلاً جذرياً ، دون أن يعني انهيار العديد من التجارب «الإشتراكية» انهياراً للقيم والمثل التحررية والاشتراكية كما يحاول أن يثبت منظرو الليبرالية الجديدة . بعد أن تصوروا أن التاريخ قد وصل إلى سقفه الليبرالي ثم توقف (٨).

تضع الإمبريالية ، وعلى رأسها الإمبريالية الامريكية في أسس استراتيجيتها تجاه الأمة العربية هدفين محوريين تدور حولهما سياساتها المختلفة، وهما السيطرة على النفط العربي إنتاجاً وتسويقاً وفوائض مالية . ودعم الكيان الصهيوني ، وضمان تفوق إسرائيل النوعي على مجمل العرب بوصفها وكيلاً امبريالياً فرعياً ، معتمداً في المنطقة، تتمحور جل مهامه في التصدي لأية محاولة جدية لنضهة الأمة ووحدتها ، الأمر الذي يضع المصالح الإمبريالية – الصهيونية على كف عفريت .

ولم يكن قيام الكيان الصهيوني أصلاً ، مجرد مصادفة تاريخية ، بل كان ثمرة تخطيط الحركة الصهيونية ، وسياسات الدول الاستعمارية الرامية إلى خلق كيان دخيل غريب عن المنطقة ، ليحول دون تقدم الشعب العربي، ونهضة ووحدة أقطاره . وقد سهل التأخر العربي مرور هذه المخططات ، وعجز عن تحقيق تصد فعال لها لإحباطها أو تخفيف آثارها .

ويمكن القول: إن وجود الكيان الصهيوني ، وتقدمه، هو جزاء تاريخي للتأخر والضعف العربيين، في ظل التناقض التاريخي القائم بين المشروع القومي الديمقراطي العربي ، والمشروع الاستيطاني الصهيوني .

والتحالف بين الحركة الصهيونية، والإمبريالية ، تحالف متين ، ناجم عن تقاطع المصالح الذي استطاعت أن توظفه الحركة الصهيونية منذ بداية نشأتها ، لصلحة تمرير مشروعها وتطويره .حيث احتضنه الاستعمار الغربي ممثلاً ببريطانيا على وجه الخصوص، حتى فترة ما بعد الحرب الكونية الثانية، وما إن برزت الولايات المتحدة الامريكية كزعيمة للعالم الرأسمالي دون منازع حتى نقلت الصهيونية اتجاه تحالفها نحو القوة الامريكية الصاعدة بقوة ، وتوطدت العلاقات الإسرائيلية، الأمريكية ، وتطورت قدماً حتى أخذت صفة التحالف الإستراتيجي ، ولا ينسى اليوم منظرو واستراتيجيو الكيان الصهيوني دراسة الواقع الجديد عالمياً، وتوازنات القوى الدولية بين المراكز الإمبريالية الأكثر تقدماً للاستفادة منه وتوظيفه في الوقت الذي لا يفعل فيه العرب ، المفككون والمتقاتلون، وخصوصاً الأنظمة القطرية المتقاتلة مع شعوبها وأشقائها ، سوى وضع البيض كله في السلة الأمريكية.

إن الذين يحاولون الفصل، بين المشروع الصهيوني ، والمشروع الإمبريالي، اليوم ، يتجاهلون درس التاريخ البليغ ، ويتجاهلون أيضاً الحقائق الواقعية التي تنبئ عن زيادة التحالف العضوي بين المشروعين ، وإن تبدلت بعض الأدوار ، واختلف شكل ومحتوى بعضها .

يقول الكاتب الأمريكي ستيفن غرين :

«لم تقم امريكا أية علاقة مشابهة مع دولة أخرى، علاقة يزود الامريكيون إسرائيل بموجبها بكل مقومات الحياة اليومية. ففي السنوات (١٩٤٨-١٩٨٣) منحنا إسرائيل ٢٧ مليار دولار على شكل عون اقتصادي وعسكري رسمي ، وهو ما يمثل اكثر من ٧٧٠٠ دولار لكل فرد يعيش في اسرائيل ... » (١٠) .

كما أن الرئيس الامريكي السابق رونالد ريغان قد لخص سر هذه العلاقة في مذكرة رسمية صدرت عام ١٩٨٠ في بدء ولايته :

«إن اسرائيل هي الدولة الوحيدة في المنطقة ، القادرة على مساعدة امريكا على الصعيد الإستراتيجي ، فسقوط شاه ايران قد ضاعف من قيمة إسرائيل لان الدول المعتدلة الصديقة لامريكا ضعيفة ومعرضة للخطر ، ولدى إسرائيل العزيمة اللازمة والتضامن القومي والقدرة التكنولوجية والعسكرية للوقوف الى جانب الولايات المتحدة كصديق وكحليف يمكن الوثوق به » (١١) .

وما يجري اليوم من تدفق لكل أنواع المساعدات العسكرية ، والتكنولوجية ، والمالية، ومن اعلانات رسمية على اعلى المستويات (في الإدارة الامريكية) بالحفاظ على أمن

إسـرائيل ، وتفـوقـهـا النوعي على العـرب ، إضـافـة الى تطوير مـسـتـويات التـعـاون الإستراتيجي، بين الولايات المتحدة وإسرائيل (١٢) ، رغم انتهاء الحرب الباردة ، حيث يتم القيام بتعاون أمني ومناورات مشتركة ، وتقديم إمدادات عسكرية متزايدة، وتخزين الأسلحة ، وتطوير المشاركة في أبحاث حرب النجوم ، ناهيك عن تقديم ضمانات قروض بمبلغ عشرة مليارات دولار مؤخراً .

كل ذلك يؤكد على استمرار الترابط بين المشروعين الصهيوني والإمبريالي ، كما يؤكد على استمرار الطابع العدائي الاغتصابي لهذا الحلف .

فقد خاض الكيان الصهيوني، باسناد مباشر ودعم وثيق من المراكز الإمبريالية، منذ قيامه، وحتى اليوم ست حروب (١٩٤٨-١٩٥٦-١٩٦٧-١٩٨٢-١٩٩١) أي بمعدل حرب كبيرة كل ثماني سنوات ، إذا صرفنا النظر عن «الحروب» الدائمة المستمرة في المجالات العسكرية ، والعلمية والتجسسية ، والدبلوماسية ، والإعلامية والثقافية ...

وهي نسبة عالية جداً ويكاد ينفرد بها الصراع العربي - الصهيوني ، بالقياس الى الصراعات الدولية المعاصرة .

مما يؤكد على حدة الصراع التاريخي بين المشروع الصهيوني - المتحالف مع الإمبريالية، والمشروع القومي النهضوي العربي الذي لا يمكن أن يختزل الى مجرد صراع حدود ، أو مجرد « نزاع مسلح» أو صراع ثقافي أو ديني ، بل هو صراع تاريخي مفتوح متعدد الجبهات والمراحل لا يمكن كسب اية معركة من معاركه المتعددة، إلا إنطلاقا من إنهاض الوضع العربي على أسس التحديث ، والوحدة ، والديمقراطية ، بدلاً من استجداء تسويات مذلة ، أو المراهنات الزائفة على «الحق التاريخي» المجرد ، او «الشرعية الدولية» .

ثمة ثوابت استراتيجية يتعامل بها الكيان الصهيوني مع الأمة العربية يمكن تحديدها بالنقاط التالية :

١- تمتين التحالف مع المراكز الإمبريالية ، مع محاولة الحفاظ قدر الإمكان، على هامش مناورة مستقل ، لأن هذا التحالف ضرورة حيوية لبقاء الكيان الصهيوني الذي لا تتوفر له مقومات البقاء، نظراً لحجم موارده الضيقة، وللعداء المستحكم مع الجوار (بحكم ضرورات المصلحة والتاريخ ، والأرضية الثقافية والحضارية)، ونفقات التسلح الهائلة لمواجهة هذا العداء ، وبشكل لا يتناسب أبداً مع إمكاناته الحقيقية وقدراته البشرية والاقتصادية .

٢- العمل على تجميع يهود العالم في «دولة اسرائيل» . وهذا ما يستلزم مزيداً من التوسع والاحتلال والاستيطان ، مع المحافظة في نفس الوقت على امكانية هضم هذا التوسع ،بأقل الخسائر ، والمحافظة على الطابع الديموغرافي اليهودي للدولة العبرية. ويقدر عدد يهود العالم حالياً بحوالى (١٣,٥) مليون نسمة، منهم٣,٥ مليون في «اسرائيل». ويتوزع الباقي في الولايات المتحدة وأوروبا والاتحاد السوفياتي السابق ، وقد تزايدت بشكل خطير معدلات الهجرة اليهودية بعد تفكك الاتحاد السوفياتي، منذ أواخر الثمانينيات. ويقدر أن ما بين نصف مليون إلى مليون يهودي سيهاجرون إلى «اسرائيل» خلال عقد التسعينيات. نظراً للظروف الاقتصادية الصعبة في الدول التي ورثت الاتحاد السوفياتي من جهة ، وللتشجيع الامريكي للمهاجرين اليهود للسفر إلى إسرائيل ، أمام حصر قبول الولايات المتحدة لخمسين ألفاً فقط من هؤلاء المهاجرين سنوياً (١٣) .

وتعتبر هذه الموجة الجديدة من الهجرة اليهودية ، خطيرة جداً، لأنها تأتي في ظروف انهيار التوازنات الدولية ، وفي ظل ضعف وتفتت عربي مهين ، مما يرشح لامكانية قفزة استيطانية جديدة، رغم كل ما يقال عن التسوية والسلام، حيث تتعامل معه إسرائيل كهدنة تكتيكية في إطار مشروعها الاستيطاني الاستراتيجي .

٣- مواجهة أي نزوع نهضوي أو وحدوي عربي ، يمكن أن يتبلور داخل أي قطر أو بين عدة أقطار ، بشتى الوسائل والامكانيات ، السياسية والاقتصادية والدبلوماسية، والتجسسية العسكرية عند الاقتضاء، ودرس التاريخ القريب يؤكد ذلك بجلاء فمن العداء المستحكم للتجربة الناصرية بوصفها محور النهوض القومي العربي ، إلى العداء للوحدة المصرية السورية ، وصولاً لضرب منظمة التحرير الفلسطينية ، وتدمير إمكانات القطر العراقي،والتهديد الدائم بتدمير أية امكانيات عربية واعدة . وقد اثبتت الغارة الجوية على المفاعل النووي العراقي (أوزيراك)، والهجوم على مقر م.ت. ف في تونس أن ذراع إسرائيل طويلة ومجهزة لضرب كل العرب، وليس فقط «دول المواجهة ».

٤- التعامل مع الشعب العربي ، لا على أنه شعب واحد ، له خلفية حضارية وتاريخية ، ولغوية وطموح واحد ، ورابطة قومية واحدة ، بل على أنه خليط من «الشعوب» والاثنيات والعشائر والطوائف، والمناطق ، والأقاليم، والسعي من خلال ذلك الى الاستفادة من مشاكل الأقليات الطائفية والقومية والاثنية ، ومن النزاعات المحلية والقطرية ، واللعب عليها لتأجيجها، وتفتيت المنطقة بما فيها الدول القطرية الراهنة، على أسس دينية أو عرقية أو طائفية، بحيث يصبح الكيان الصهيوني «عملاقاً» بين مجموعة من الدويلات الطائفية القزمة المتحاربة تحت السيطرة الإسرائيلية، وضمن مجال الهيمنة الإمبريالية، والامريكية منها خصوصاً .

ولا يخفي قادة إسرائيل هذا الهدف الإستراتيجي ، بل يعلنونه بكل وقاحة وصرامة(١٤) ويصوبون كل هجومهم لوأد الفكرة القومية العربية بوصفها النقيض التاريخي لمشروعهم الاستيطاني .

والمؤسف والخطير أن تنامي الطابع القمعي للنظم العربية ، وتقلص وانحسار دور وفعالية المجتمع المدني، ومعه دور الشعب ، الذي يؤسس لتنامي التيارات الطائفية ، والمذهبية ، وحركات التطرف السياسي الديني ، يساعد بشكل مباشر أو غير مباشر على تعميق آلية التفتيت العربي ، وخصوصاً في ظل ما يطرح حالياً «لتطبيع» العلاقات بين اسرائيل والعرب ، الذي يعني اعطاءها الحرية الكاملة في اللعب على هذه التناقضات والاستفادة القصوى منها .

٥- المحافظة على التفوق الإستراتيجي ، (والعسكري خصوصاً) على كل الدول العربية، من خلال تقوية ترسانتها التقليدية ، وتطوير ترسانتها النووية والكيماوية والجرثومية ، ناهيك عن الصواريخ بعيدة المدى ، والصواريخ في إطار مبادرة الدفاع الإستراتيجية أو ما يدعى «بحرب النجوم»، والعمل في عين الوقت على منع أية دولة عربية من الحصول على أسلحة متطورة ، أو إمكانات تكنولوجية وعلمية واعدة .

وهي تسعى من خلال تأكيد تفوقها الدائم ، إلى فرض الأمر الواقع على الشعب العربي ، وتعتبر اليوم أن الفرصة مؤاتية ، في ظل الانهيار العربي ، وتخلخل التوازنات الدولية لفرض (تسوية) للصراع العربي – الصهيوني، تضمن إقامة «النظام الشرق أوسطي » الذي يهدف الى تفكيك الروابط القومية العربية ، وإقامة تكتل يضم دول الشرق العربي ومصر والخليج وايران وتركيا ، حيث تلعب فيه اسرائيل دور الشريك الأصغر للولايات المتحدة . مما يحقق حلم اسرائيل المقبل الذي عبر عنه شمعون بيريز ، بالسعي لاقامة نظام يجمع بين وفرة المواد المائية التركية، وسعة السوق الاستهلاكية المصرية ، والتكنولوجيا الإسرائيلية ، والفوائض المالية الخليجية (١٥) بما يمكن اسرائيل من مواجهة استحقاقات التطورات الدولية ، ويعطيها هامشاً واسعاً للمبادرة ، وفي نفس الوقت الذي تبقى فيه قادرة على التوسع والإستيطان عبر احتلالات جديدة عندما تسنح الظروف، مما يؤكد أن دور الكيان الصهيوني فيما يسمى «بالنظام الدولي الجديد»، مستمر ، فهو محافظ على دوره التقليدي ، والمتمثل في كونه مخفراً إمبريالياً متقدماً، مع إمكانية تحوله للعب أدوار جديدة ، بالتحالف مع المراكز الإمبريالية ، دون أن يتخلى عن دوره السابق ، وإن اقتضى الأمر بعض التعديلات على «الماكياج» .

إن المعركة مع الكيان الصهيوني لا يمكن حسمها عسكريا فقط ، كما توهمت العديد من المنظمات والأنظمة العربية ، رغم أهمية بناء قوة عسكرية حديثة، وقادرة على الردع ،

بل تتم أساساً من خلال استراتيجية نهضوية عربية متكاملة ، تبدأ باطلاق الحريات الديمقراطية ، وحقوق الإنسان والمواطن ، المنتهكة بدرجات متفاوتة لكن متقاربة ، في مختلف الساحات القطرية العربية ، وهو ما يشكل شرطاً لازماً لإنعاش المجتمع المدني وإنهاضه ، بوصفه القاعدة الصلبة للنهضة، وقاعدة السيرورة الوحدوية عينها ، وتمر بإطلاق طاقات الجماهير ، وتسييس الشعب، وتوحيد مختلف الطاقات النهضوية لمواجهة معارك التقدم والوحدة والتحرر المترابطة جدلياً على مختلف الجبهات، عندما يعي الفكر العربي إن القوة الإسرائيلية ، ليست الا الصورة المعكوسة للضعف العربي ، وعندما تعي النظم العربية ، المتقاتلة أن المصالح والسياسات القطرية الضيقة، ليس لها مستقبل ، سوى هدر الثروات والإمكانيات ، والارتهان المتزايد للخارج وفق علاقة التبعية ، ووضع المجتمعات القطرية على حافة الانفجار والتفكك، وعندما تعي القوى الحية في الأمة بمختلف تياراتها وفصائلها ، أن العمل القومي العربي ، هو المدخل الحقيقي ، لتجاوز وضعية التأخر والتجزئة، وأن مشروع الأمة ليس مشروعاً فئوياً أو حزبياً أو طائفياً، بل هو مشروع نهضوي ، يستمد قوته من تعبيره الأكفأ عن مصالح الطبقات والفئات الشعبية الأوسع، ولا يمكن حشره في أقفاص ايديولوجية ضيقة ، وأحادية، بل هو نهر عريض ، يستقبل كل الروافد النهضوية ، ويتسع للتعددية الفكرية والسياسية، ويصوغ القواسم المشتركة التي تتوافق عليها القوى والأفراد والهيئات في لحظة تاريخية معينة ، في اطار خيار ديمقراطي لا رجعة عنه .

وعندما يكف الوعي السائد عن النوسان بين تقديس الرؤية الأحادية الشمولية، دينية كانت أم دنيوية ، وفرضها على الآخرين ، وبين الوقوع في التشتت والتناثر بدعوى التعددية ، دون القدرة على إنتاج آليات ديمقراطية ، لتنظيم القرار ومركزته، وتنفيذ رأي الأغلبية مع ضمان حق الأقلية القانوني والفعلي في التعبير عن وجهة نظرها ، وإتاحة المجال أمامها لتحوز الأغلبية في مرحلة اخرى، مما يضع اساسا مكيناً لتداول السلطة والمسؤولية ، وينفي عنها كل صفة مطلقة وقدسية ودينية او غير دينية .وعندما ينتهي النّواح الدائم على الماضي «المؤسطر»، والواقع البائس ، وينتهي الهروب (إلى أمام أو وراء لا فرق) من مواجهة بلايا الضعف والتأخر، ومواجهة منطق السياسات الدولية الحديثة، القائم على المصالح وموازين القوى بمنطق العمل والإنجاز لمباشرة التقدم المطلوب، واللحاق بالأمم الأكثر تقدماً ، وهذا التقدم ليس استعادة (لعصر ذهبي) من فوق التاريخ ، أو الغرق في «الماضي المجيد»، بل هو دخول واثق في عالم العصر والثبات فيه والتقدم في ميادينه ، مما يفترض فهم ثقافة العصر فهماً نقدياً ، بالاعتماد على المناهج العلمية الحديثة، وتوظيفها لخدمة الأمة ، بعيدا عن الانغلاق الثقافوي والديني والحضاري الذي يغذي وهم الحفاظ على الذات القومية المستباحة ، او الدفاع السلبي والمتأخر عنها ، بينما يقوي في واقع الأمر حظوظ استمرار التأخر والتجزئة، ويدمر بالنتيجة أسس الهوية ولا يحميها .

وعندما تصل الأغلبية الشعبية الى قناعة تامة ، بأن الهيمنة الإمبريالية ، والتفوق الصهيوني ليس قدراً محتوماً ، بل نتيجة للتأخر العربي ، يصبح طريق التقدم هو إطلاق صيحة الحرب ضد كل بلايا الواقع المتأخر ، وفتح معركة النهوض والتجديد على مصراعيها. والمشروع القومي الديمقراطي بآفاقه الاشتراكية ليس سوى إطار ومحتوى هذه المعركة المفتوحة .

وعندما تكف القوى والتيارات النهضوية عن الصراع المجاني ، ويؤمن كل منها بحق الآخر في الوجود والاختلاف إيديولوجياً ، ومنهجياً وتنظيمياً، وتؤمن في نفس الوقت بضرورة تضافر جميع القوى القابلة والقادرة لإنجاز المهمات المشتركة في لحظة يحددها مستوى التطوّر التاريخي للأمة ، يكون المشروع القومي الديمقراطي ، قد بدأ خطواته الأولى من جديد على الطريق الطويلة والصعبة التي شقتها الحركات النهضوية على امتداد هذا القرن، والذي تظل مهامه مهما تعرقلت، او انهزمت ، قيد الإنجاز .

وثانياً: آفاق الحركة القومية، في ظل تصاعد التطرف الديني (وانفجار مشاكل الاقليات).

تجاهل الفكر القومي الكلاسيكي العربي ، مشكلة الاقليات الدينية والطائفية ، والعرقية، تارة باسم التعالي عن الانقسامات ، والنفور من الاعتراف بالتعدد الذي يمكن أن يؤذي الرؤية الوحدوية الأحادية ، وتارة أخرى باعتبارها مجرد صدى باهت للتآمر الاستعماري الخارجي الذي حاول دوماً إذكاءها واستثمارها سياسياً.

وجاء تقدم حركة النهوض القومي بقيادة الناصرية ، ليدفع بالمشكلة إلى الوراء أمام التحديات المباشرة ، والمعارك المتواصلة مع الإمبريالية والصهيونية، وفي ظل النهج العقلاني والعلماني الذي اكتسبته تلك الحركة ، وإن ظل محدوداً، مما أعطى بعض المشروعية لذلك التجاهل . لكن توالي الهزائم والانكسارات وخصوصاً بعد ضرب الناصرية من الداخل والخارج ، وتراجع الفكر القومي ، ومن ثم خفوت وتلاشي الوهج الاشتراكي مع انهيار الكثير من التجارب الاشتراكية، وصعود وتنامي قوة حركات التطرف الديني السياسي، أعاد طرح مشكلة الأقليات بشكل حاد. وكانت الحرب الأهلية اللبنانية التي انفجرت في السبعينيات أولى تجلياتها الصارخة، ولا زالت المشكلة تتفاقم طرداً مع تزايد الانهيار العربي ، وتهميش المجتمع المدني ، وتنامي الطابع اللاديمقراطي للأنظمة العربية ، حيث أصبح الوجود القطري ذاته مهدداً بالتفكك، مما يجعل تناول المشكلة بموضوعية ووضوح ، شرطاً اولياً لفهمها ومعالجتها وحلها بما يجنب الأمة الكوارث ، التي يراهن عليها اعداؤها.

والواقع أن مشكلة الأقليات سواء كانت طائفية او دينية ، أم قومية أو اثنية لها حضورها في الواقع العربي ، الذي يختلف بالدرجة بين قطر وآخر ، فمن مشكلة الأقلية القومية الكردية في المشرق ، الى المشكلة «الامازيغية» في المغرب ، مروراً بمشكلة الجنوب السوداني ، والمشكلة القبطية في مصر ، والمشاكل الطائفية التي لا يخلو منها قطر من الأقطار العربية . واذا كانت الاقليات موجودة كوجودها في كل أمة حديثة ، فإن تجاهل مشكلاتها من جهة ، والانهيارات القومية في الداخل والخارج من جهة أخرى ، يهدد بتصاعدها واشتعال فتيلها .

تتوجس الإيديولوجيا الأقلوية خوفاً من المشروع القومي العربي في صيغته التقليدية ، فالأقليات غير العربية تتوجس من طابعه القومي العربي ، بينما تتوجس الاقليات الدينية غير الإسلامية من طابعه الإسلامي ، في حين تخاف الأقليات الدينية الإسلامية من طابعه السنّوي (نسبة الى السنة الطائفة الإسلامية الاكثر عدداً) .

وهذا لا ينفي الدور الطليعي الذي لعبه ، ويمكن أن يلعبه المثقفون والسياسيون المنحدرون من أوساط الاقليات(١٦) ، في عملية التنوير الفكري والثقافي ، ودفع المشروع القومي على أسس ديمقراطية وعصرية ، شرط أن يتخلصوا من التأثيرات السلبية للايديولوجيا الأقلوية المنغلقة .

ولا ينفي ابداً اقبال هذه الأقليات على الانخراط في المشروع القومي الديمقراطي ، كلما اكتسى طابعاً ديمقراطياً وعلمانياً . حيث يستطيع حل مشكلة الاقليات القومية حلاً ديمقراطياً ، بعيداً عن التعصب القومي ، ابتداءً من الاعتراف بالحقوق الثقافية واللغوية ، أو الإدارة الذاتية ، وصولاً لحق الانفصال وتقرير المصير حسب الظروف .

كما يفتح الطريق رحباً أمام حل مشكلة الاقليات الدينية والطائفية ، من خلال تجذر خياره العلماني والعقلاني في بناء مؤسسات الدولة القومية الحديثة ، ومؤسسات المجتمع المدني ، مما يكفل الحريات السياسية ، والدينية ، والثقافية ، ويطلق سيرورة الاندماج المجتمعي على مداها .

إن المشروع القومي العربي ، يستمد ملمحه الديمقراطي العميق ، من كونه تعبيراً عن حركة شعب مضطهد (بفتح الهاء) بغالبية طبقاته وفئاته ، وطموحه للتقدم ، في مواجهة النظام الرأسمالي العالمي ، وواقع التبعية ، بركائزها الداخلية والخارجية .

ولن يقوى هذا المشروع على السير ، ما لم يعبئ الطبقات الشعبية الأوسع في إطار

خيار استراتيجي ، للتنمية القومية المستقلة ، مما يجعل خياره الاشتراكي مرتسماً في الأفق ، بوصفه طموحاً لتجاوز واقع النظام الرأسمالي الزاخر باللاتكافؤ بين الطبقات ، وبين الأمم .

كما يستمد المشروع القومي ، بعده العلماني الملازم بداهة لبعده الديمقراطي، كونه يسعى لبناء الدولة القومية على أساس عصري حديث ، يتساوى أمامها المواطنون باختلاف مذاهبهم واعتقاداتهم ، وإثنياتهم ، وتضمن لهم حق التعبيير والاعتقاد والتفكير ، وممارسة جميع العقائد في إطار القانون الديمقراطي الذي يصون التعددية والتسامح السياسي والديني تحت شعار (الدين لله والوطن للجميع).ومن البديهي أن يكون الإسلام كهوية حضارية شاملة ومنفحته ، الإطار الأوسع الذي يحتوي الألوان والتنويعات المختلفة ، بوصفه تعبيراً عن التجربة التاريخية لأوسع قطاعات الشعب ، لكنه بالطبع ليس الإسلام – السياسي المتشنج ، الذي يرفع شعار (حاكمية الله) أو (تطبيق الشريعة) وفق فهم مغلق وطائفي للدين، وفي ظل تزمت فكري سياسي، ومعاداة للمجتمع المدني وتكفيره، ما يهدد بإنتاج نسخ استبدادية خطرة على المستقبل العربي .

وبعيداً عن التناول الديماغوجي لمفهوم العلمانية ، وتصويره كمرادف للإلحاد، أو كرمز للسيطرة الفكرية والسياسية للغرب ، أو اعتباره مجرد مطلب خاص بالأقليات ، او افتراض العلمانية في الساحة العربية – الإسلامية ، مجرد نسخة طبق الأصل عن تجربة العلمانية في الغرب الأوروبي التي عرفت في أحيان كثيرة مساراً متطرفاً في عدائها للكهنوت والدين (تجربة الثورة الفرنسية).

بعيداً عن كل ذلك، نعتقد أن الدين الإسلامي ، وهو دين الغالبية الساحقة من العرب، رغم تعدد المذاهب والطوائف الاسلامية لا يشكل عائقاً امام العلمانية المفهومة فهماً صحيحاً ، فليس في الاسلام سلطة ثيوقراطية متجبرة كالتي عرفتها اوروبا في العصور الوسطى ، ويمكن له أن يحتضن عوامل التسامح والعقلانية ، تلك التي نجدها مستقرة في الوعي الشعبي عبر تاريخ طويل من التعايش الوطني بين الطوائف وابناء الاقليات القومية الاخرى ، وقد فشلت المحاولات الاستعمارية في ضرب هذا التاريخ، وستفشل محاولات المتطرفين على اختلاف مواقعهم في ذلك .

كما يمكن للدين الإسلامي ، أن يكون حافزاً على العقلانية والتنوير ، وعاملاً روحياً هاماً من عوامل الوحدة العربية، ومعاداة الإمبريالية والصهيونية ، عندما تدور عجلة النهضة، وتسطع أشعة التنوير الفكري والسياسي ، وتقطع عملية تحديث الفكر والثقافة من ضمنها الفكر الديني الإسلامي أشواطاً الى الامام .

يرتكز مفهوم العلمانية (Secularism) على مبادئ فلسفية ، تشكلت في سياق، صراع فلسفة الأنوار التحررية ، مع فكر القرون الوسطى الديني الكهنوتي. أول هذه المبادئ هو الدنيوية ، التي تعيد الاعتبار للدنيا ولسعادة البشر في حياتهم الأرضية، وترفض تبرير التباينات الطبقية الصارخة بحجج دينية. ثاني هذه المبادئ هو الانسانوية (Humanism) التي تنطلق من كون الانسان محوراً للتقدم، وغاية لجميع المؤسسات الاجتماعية والسياسية التي تسعى لتحقيق حاجاته المتزايدة كماً ونوعاً ، والإنسان ليس وسيلة لغاية أخرى خلفه (الفردوس ، الاجيال القادمة، الدولة القومية، الاشتراكية ...الخ).

وثالث هذه المبادئ : الديمقراطية التي تضمن التعددية والنسبية ، فجميع الأفكار والمبادئ والإيديولوجيات محدودة ونسبية ، ولا يستطيع أن يزعم الكمال لايديولوجيته الاّ متعصب جاهل ، حتى لو كانت إيديولوجيا دينية ، فلا يستطيع أحد أن يحتكر فهمه للدين والشريعة والعبادة ، ناهيك عن محاولة فرضه بالقوة على الدولة او المجتمع المدني، ويجب خضوع جميع الأفكار والتفسيرات والتأويلات والعقائد لسلطة المناهج العلمية لمراجعتها وتصويبها ، فالعلمانية إذن ترتكز على المبدأ العلمي .

كما ترتكز على مبدأ العقلانية : (Rationalism) التي تعتبر العقل الإنساني ، إذا أحسن تهذيبه وتدريبه منهجيا ، وعلمياً ، قادراً على ابتداع الحلول المناسبة لتنظيم حياته في محيطه الطبيعي أو في محيطة الاجتماعي .

وترتكز أخيراً على فكرة التقدم التي تعني في الأساس تحسن النوع الإنساني وتقدمه عبر مراكمة تجاربه التاريخية، والاستفادة منها على خلاف النزعة الماضوية التي تحاول استعادة (عصر ذهبي) أو (ماضٍ مجيد) من فوق ركام التطور التاريخي الطويل. فهي تنطلق من فكرة أن البشر يتقدمون عبر التاريخ إجمالاً رغم الانقطاعات والانهيارات والكوارث ، كما أن تقدمهم ممكن دوماً في المستقبل. والعصر الذهبي ليس مختبئاً هناك في الماضي المؤسطر ، بل هو في الأمام تسعى إليه البشرية دوماً دون أن تبلغ الكمال .

والعلمانية لا تتجسد كمشروع اجتماعي وسياسي إلاّ إذا تقدمت وتجذرت في الافكار والإيديولوجيات تمهيداً لتجسيدها في المجتمع المدني والدولة .

فالدولة العلمانية لا تأخذ شرعيتها السياسية من حق إلهي في الحكم، أو من تطبيق نصوص مقدسة ، دينية أو دنيوية ، بل تستمد شرعيتها السياسية من الشعب عبر أشكال مختلفة من التمثيل الانتخابي ، دولة لا تحاول أن تتستر خلف دين معين، او تتبنى ديناً خاصاً بها ، بل تترك ميدان الاعتقاد الديني والفكري والسياسي مصوناً لجميع التيارات داخلها، طالما مارست ذلك ضمن حدود القانون الديموقراطي. ولا يجوز لها أن تمنع حرية المواطن في ممارسة عقائده وشعائره الدينية .

إن الإصرار على ربط ميدان الدين بميدان السياسة، أو عدم وضع الحدود الفاصلة بينهما على الاقل ، يضر بكليهما ، فيجعل الدين (بما يحمله من شحنة عاطفية ووجدانية ، متأصلة وواسعة ، تؤسس لعلاقة الإنسان بربه ، وتصوغ معالم اخلاقه ووجدانه ، وتوقه للخلاص) مطية للأغراض السياسية المباشرة حين تدعي فئة سياسية ما ، أنها قيِّمة على الدين ، أو مكلفة من الله بتفسيره وتأويله، وتقسم العالم الى عالمين : عالم الظلمة والكفر الذي يشمل كل ماعداها، وكل ما لا يدخل في دائرة اعتقاداتها وتأويلاتها ، وعالم النور والإيمان الذي تحدد حدوده ومساحته . وهذا ما نجده في ثنايا الخطاب السياسي لدى القسم الأكبر من الحركات الإسلاموية الراهنة .

كما يضر بالدولة التي من شأنها حماية جميع مواطنيها ومساواتهم التامة أمام القانون، ويفجر أمامها مشكلات دينية وطائفية وعرقية خطيرة ، كما أن اضفاء الطابع المقدس على اجهزتهما، يحول دون تطوير مؤسساتها أو تجديد بنيانها، ومحاسبة مسؤوليها المختبئين خلف التبريرات المقدسة التي تتراوح بين تطبيق الشريعة وولاية الفقيه (١٧) المستمدة من مبدأ «الحاكمية لله » الثيوقراطي .

والذين يعارضون العلمانية بحجة أن العقيدة الإسلامية السمحاء ، لا تتناسب معها، وأن الإسلام « دين ودولة»، يتجاهلون أن ربط الدين بالدولة، لم يكن (باستثناء فترة التأسيس ربما) لمصلحة الدين بل كان وسيلة لإضفاء الطبيعة الحقيقية للدولة الحاكمة (دولة قبلية ، سلطانية ، ملكية وراثية ، امبراطورية) تحت اسم الخلافة التي لم تعد تعني خلافة الرسول العربي الكريم في ادارة شؤون الدولة ، بل أصبحت خلافة الله في ارضه. لذلك نجد أبا جعفر المنصور يخطب في الناس اثناء الحج :

«يا ايها الناس : إنما أنا سلطان الله في ارضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وأنا خازنه على فيئه ، أعمل بمشيئته ، وأقسمه بارادته ، وأعطيه بإذنه، قد جعلني الله عليكم قفلاً اذا شاء أن يفتحني لأعطياتكم وتقسيم فيئكم وأرزاقكم فتحني وإذا شاء أن يقفلني أقفلني»(١٨) .

والواقع أن الدولة كما رسم ملامحها الإسلام في مجتمع نصف بدوي – نصف حضري ، كانت أقرب إلى الطراز الشوري ، المستمد أساساً من تجربة الشورى القبلية ، وظلت عملياً طوبى سياسية، لأنها تفترض حكاماً ورعين يندمج عندهم ميدان السياسة بميدان العقيدة والأخلاق ، ورعية مؤمنة ، أخلصت في إيمانها إلى درجة التقى . وهي في كل الأحوال ، أبعد ما تكون عن نموذج الدولة الاستبدادي ، أو الفردي ، أو الإمبراطوري .

رغم أن يوتوبيا الخلافة ظلت طوال التاريخ الإسلامي، وحتى مطلع هذا القرن، غطاء ايديولوجياً لأنظمة حكم استبدادية (١٩). وهذا ما يعطي القوة الاستمرارية لذلك التأويل الاستبدادي الشائع لطبيعة الدولة وملامحها كما رسمها الإسلام . رغم أن الكثيرين من المتنورين والمصلحين قد أكدوا أن الدولة الديمقراطية الحديثة هي أقرب الى النموذج الإسلامي كما تحدد وفق مقاصد الشريعة(٢٠) .

وفي ظروف التأخر ، والردة السلفية التي تعيشها أمتنا اليوم ، نتيجة الإخفاقات النهضوية المتتالية ، تقوم العديد من الحركات الإسلامية ، بإشاعة ومحاولة فرض، تأويل ثيوقراطي متطرف «للدولة الإسلامية المنشودة » يهدد بإنتاج أشكال جديدة من الحكومات الاستبدادية الشمولية، التي يراد لها أن تدق المسمار الأخير في نعش الأمة .

وفي المقابل تبدو ملامح تيارات دينية متنورة ، ديمقراطية، تقبل بالرأي الأخر، وتحاول إعادة النظر في منهج الاجتهاد والتقليد لاعادة إنتاج خطاب ديني متلائم مع شروط وإلزامات العصر . وإن كانت هذه التيارات لا تزال في طور التأسيس والدعوة الإيديولوجية الفكرية التي يقودها عدد من المفكرين المتنورين .

وهذه التيارات المتنورة تشكل في الواقع جزءاً لا يتجزأ من قوى النهوض العربي، ورافداً غنياً من روافد الفكر القومي الديمقراطي .

إن إعادة بناء الحركة القومية العربية على أسس أقل حصرية وأحادية وأكثر ديمقراطية وإنفتاحاً، سيسهم في إعادة إنهاض المشروع القومي العربي الحديث من كبوته الطويلة ، ويقطع الطريق على قوى الاستبداد والظلامية والتأخر ، سواء كانت حاكمة او معارضة .

هذا النهوض الذي يظل في رأس جدول الأعمال ، وفي طليعة المهمات التاريخية، إذا اريد لهذه الأمة أن تنهض، وتجد مكانها اللائق بين الامم في عالم تزداد فيه التحديات الخطيرة ، والاستقطاب المتزايد ، فيما تميل المراكز الرأسمالية الأكثر تقدماً لتجاوز حدود الدولة القومية، والانتظام في تجمعات اقتصادية وسياسية عملاقة، تتجه الأطراف التابعة والمتأخرة ، العاجزة عن السيطرة على اقتصادها ، وثقافتها وثرواتها وامكاناتها البشرية وفي المحصلة ، على خط تطورها ، ومستقبلها، نحو التجزؤ والتفكك والحروب الأهلية المفتوحة.

وهو ما يجعل مهمات النهوض القومي الديمقراطي ، مصيرية أكثر من أي وقت مضى.

الدولة القطرية والمشروع القومي:

إذا تأملنا في عوائق وتحديات المشروع القومي التي تناولناها، سابقاً، وأعني الهيمنة الإمبريالية، والمشروع الصهيوني، والحركات والاتجاهات الدينية المذهبية المتزمتة وغيرها، نجد أن واقع التجزئة المتجسد في الدولة القطرية، هو الأكثر حضورا وفاعلية، مما يستدعي تناول هذا الموضوع ببعض التفصيل:

فالفكر القومي الكلاسيكي، باختلاف اتجاهاته ومراحله، رأى في التجزئة محصلة مباشرة للاستعمار الكولونيالي الغربي، وفي الدولة القطرية، صنيعة من صنائعه، وتصور تبعاً لذلك، أن زوال الاستعمار المباشر سيقود مباشرة نحو الوحدة، التي بدت كأنها قاب قوسين أو ادنى من التحقق، مع حصول التحرر والاستقلال. لكن خط التطور سار بشكل آخر، فحركات التحرر العربية بدأت تأخذ شيئاً فشيئاً ملامح قطرية في نضالها، وبنيتها. وجاءت الدول الوطنية بعد الاستقلالات، لتكرس تدريجياً سلطاتها، وتسير بدولها وأقاليمها في اتجاهات لا وحدوية رغم حيوية الشارع العربي، ووحدويته الصاخبة التي سجلت خصوصاً في الخمسينيات والستينيات بالتواكب مع التجربة الناصرية.

وأخيراً تفككت القوى والمنظمات القومية إلى شظايا قطرية، وأصيب الفكر القومي التقليدي بخيبة أمل مريرة، حين وقف يرصد بأسى مسار صعود وتوطد اسس الدولة القطرية وارتفاع أسوارها، فضاعف ادانته الاخلاقية لها، في الوقت الذي يجد فيه نفسه عاجزاً ازاءها. فيدعو الى مقاطعتها، وينكفئ على احلامه الوحدوية التي تتباعد مع كل خطوة تخطوها الدولة القطرية نحو التوطد والاستمرار(٢٢).

ولا بد في بداية تناول هذا الموضوع من تبديد التصور الشائع، بأن العرب كانوا موحدين تحت الاحتلال العثماني. فالولايات العثمانية (وهي التي كانت في الغالب تطابق خصوصيات اقليمية أو طائفية أحيانا) كانت تشكل أقاليم منكفئة على نفسها في ظل نظام اقتصادي – اجتماعي، مغلق بملامح اقطاعية عسكرية، حيث تكتفي الدولة المركزية فيه بالجباية المرهقة، وضمان الولاء السياسي، دون أن تعنى كثيرا بالخصوصيات الداخلية التي تتركها للمتحدات الاجتماعية التقليدية.

كما أن هناك خصوصيات جغرافية ، وتاريخية لها حضورها المميز في الواقع العربي، مما يؤكد أن التجزئة تعود إلى ما قبل الاستعمار الغربي الكولونيالي، لكن هذا الأخير عمقها ، وأعطاها سماتها المعاصرة، ورسم حدودها ، وحرس «شرعياتها»، وجعلها قاعدة مكينة من قواعد استراتيجيته للسيطرة على المنطقة ونهب ثرواتها، والإبقاء على تأخر شعبها، والحيلولة دون وحدته ونهضته .

وتتكرس التجزئة، ويعاد إنتاجها نظراً لوجود نخب محلية قطرية ، من مصلحتها حمايتها وتكريسها ، لذا يبدو واقع التجزئة العربية الراهن نسيجاً لعوامل ثلاثة متشابكة ومتساندة، هي الهيمنة الإمبريالية والمشروع الصهيوني، والتأخر العربي ، الذي يتجلى أساساً بغياب الشعب عن ساحة الفعل، وبتهميش وضمور المجتمع المدني .

والدولة القطرية العربية الراهنة ، تمايزت في منشئها ، أو سيرورة تشكلها، حيث يمكننا تمييز أربعة أنماط تاريخية مختلفة : نمط تتمتع فيه هذه الدولة بخصوصيات إقليمية وتاريخية راسخة كمصر واليمن، ونمط آخر تبلور نتيجة حركات توحيد داخلية تحت قيادة حركات سياسية تقليدية كالحركة الوهابية التي قادت الى توحيد السعودية ، والحركة السنوسية التي قادت توحيد ليبيا ، والحركة المهدية التي قادت توحيد السودان، وإن كانت عملية التوحيد تلك لم تنجز مهامها على الوجه الأكمل، نظراً للطابع المتأخر للقيادة السياسية، وللإخفاقات التنموية اللاحقة .

وهناك نمط ثالث نجم عن تفكيك وتفتيت كيانات اقليمية واسعة كتفتيت بلاد الشام والمغرب العربي الكبير .

وهناك أخيراً نمط رابع يتميز بدرجة شديدة من الاصطناعية، والنموذج الصارخ لذلك دويلات الخليج العربي، و«دولة» البوليساريو التي يجري الإعداد لقيامها.

ومهما كانت السيرورة التاريخية لنشأة الدول القطرية ، ومهما اختلفت الطبيعة الطبقية أو الفئوية ، التي تشكل مراكز القرار فيها ، فإن شبكة المصالح القطرية تمتد لتطال فئات وشرائح اجتماعية مستفيدة من وضعية التجزئة ، والتبعية للسوق الرأسمالية .

لذا ، ليس من المصادفة أن يتم الهجوم على الخط القومي الوحدوي ، وفي نفس الوقت الذي تهاجم فيه الطموحات الاشتراكية ، ومشاريع التنمية القومية المستقلة تحت شعارات «الانفتاح» و«السلام» ، «وإطلاق قوى السوق» في نسيج فكري سياسي يشكل منظومة ايديولوجية، تعبر عن مصالح الفئات والشرائح الطبقية القطرية الممسكة بزمام القرار في الدول القطرية ، والتي تقوم في الواقع بدور حماية وحراسة وضعية التبعية والتأخر والتجزئة .

واذا كان الفكر القومي العربي التقليدي ، مقصراً في فهم جوانب وآليات الدولة القطرية ، فإن التمييز اليوم ضروري ، بين مستويين في بنية الدولة القطرية الراهنة ، مستوى الدولة كجهاز مؤسسي ، وقانوني وإداري ، تقترب من مستوى الدولة العصرية الحديثة، بمقدار ما تتدقرط (تصبح ديمقراطية) مؤسساتها وتتجدد حيّزاتها ،وتنفتح قومياً في سياق معاداة الامبريالية والصهيونية ، وفي ظل خيار تنموي قومي مستقل ، على قاعدة تطوير وتقوية مؤسسات المجتمع المدني، او تبتعد عن مستوى العصر بمقدار ما تضيق دائرة القرار السياسي وتتشخص مؤسساتها، ويعم الإستبداد والفئوية ، جنباً إلى جنب مع الفقر التسولي او الترف الاستهلاكي ، هذا من جهة . ومن جهة أخرى هناك مستوى السلطة السياسية الممسكة بزمام القرار السياسي والاقتصادي في الدول القطرية ، تلك التي تقود دولها ، نظراً للمصالح الطبقية أو الفئوية التي تحميها وتستند إليها، وفي خط تطور قطري منكفئ على الذات القطرية من جهة، ومندلق اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً على الخارج الإمبريالي من جهة اخرى. وتنتهك بدرجات متفاوتة ، لكنها متقاربة ، استقلالية مؤسسات المجتمع المدني (أحزاب ، نقابات ، جمعيات ، نواد ، صحافة ، مؤسسات الرأي العام). وتعمم القمع والتهميش السياسي ، والاقتصاديَ والثقافي حتى لو تزينت بواجهات ليبرالية ، قومية ، يسارية ، اسلامية .. الخ . مما يجعل الدولة القطرية مختصرة الى حدود بعيدة في السلطة السياسية القابضة على زمامها ، وتختصر هذه الأخيرة بدورها إلى حفنة صغيرة من صانعي القرار الذين تندمج أشخاصهم بالمراكز التي يشغلونها .

وهذا ما يعطي في الواقع المبرر لاستمرار الخلط وعدم التمييز بين هذين المستويين المتلازمين في الدولة القطرية ، مستوى الدولة ومستوى السلطة .

وإذا كانت الدول القطرية اليوم تحت هيمنة السلطات القطرية التابعة والمستبدة، هي اشد عقبات المشروع الوحدوي، كما يلاحظ ذلك بحق الأستاذ ناجي علوش (٢٣)، فإنها وفي نفس الوقت المحطة التي لا بد أن يعبرها قطار الوحدة العربية، دون أن يضطر لتدميرها. وستشكل الدول القطرية في حال تغيُّر ميزان القوى الطبقي الذي يحكمها، وفي حال نمو وتوطد بنى المجتمع المدني طرداً مع تزايد المضمون الشعبي للخيارات السياسية، ستشكل إحدى لبنات البناء القومي الوحدوي. والذين يتصورون أن تهديم الدول القطرية سيقرب هدف الدولة القومية الواحدة ، ينسون أنهم يدعون في الواقع لتقويض أسس الدولة القومية ذاتها.

فالدولة ، أية دولة ، يمكن أن تنحل بأحد ثلاثة اتجاهات :

فإما أن تدمر بالقوة، ويعاد إخضاعها لسلطة دولة أخرى، أو تتفكك بعوامل داخلية وخارجية مختلفة، وينفتح عندها ميدان الحرب الاهلية المفتوحة بكل ما تحمله من مخاطر،

خصوصاً في المجتمعات التي لم تقطع سيرورة اندماجها القومي اشواطاً بعيدة، وعلى رأسها مخاطر التفتت الأقوامي والطوائفي والحرب البربرية المدمرة.

أو أنها أخيراً تتطور نحو صيغة أوسع منها، وذلك بالتنازل الطوعي عن جزء من سلطاتها لسلطة فوقها، وتتكامل مع دول أخرى كما في تجربة الوحدة الأوروبية الجارية حالياً.

وإذا كان طريق الضم القسري، وفق الطريقة البسماركية التي داعبت خيال أجيال متلاحقة من القوميين العرب قد أصبح صعباً إلى حدود الاستحالة، في ظل التوازنات الدولية المعاصرة، فضلاً عن كونه يستند الى فلسفة ظلامية معادية لحقوق الإنسان والمواطن، ولحق الشعوب في اختيار اتجاهات تطورها والدفاع عن خياراتها، فإن الطريق الوحدوي العربي، هو ذاته طريق إنهاض الوضع الشعبي، وتطوير مؤسسات المجتمع المدني، وتسييس الشعب وتطوير مشاركته الواعية في الحياة السياسية، وصولاً لتعديل ميزان القوى المسيطرة على آلة الدولة القطرية التابعة، وتوجيهه في اتجاه التكامل القومي. وهذه العملية هي بالأحرى سيرورة تاريخية قد تطول أو تقصر، وقد تسير بخطوات تدريجية او بقفزات ثورية صاخبة، لكن مدخلها هو الإيمان بالمخرج الديمقراطي لدى القوى السياسية العربية، وقوى ومؤسسات المجتمع المدني، ومؤسسات الرأي العام.

لقد خسر المشروع القومي العربي الكثير من مواقعه، مرتين، مرة عندما أدارت كل من السلطات القطرية ظهرها للأخريات، ومرة ثانية عندما تحولت القوى السياسية والشعبية الى حدودها القطرية، وانكفأت دونها.

واذا كانت بعض السلطات القطرية العربية اليوم تتلمس مخاطر هذا النهج على استقرارها وأمنها ذاته، وتسعى لإقامة أشكال من التعاون أو التجمع السياسي والاقتصادي (وإن كانت شكلية وظرفية)، فإن من المؤسف ألا تشعر بذلك أغلبية القوى القومية الديمقراطية والاشتراكية التي انزلقت في معظمها إلى اللعبة القطرية، وباتت تمثل صورة معكوسة (Negative) عن النظم التي تواليها أو تعارضها، مما أفقدها جزءاً كبيراً من مصداقيتها، وفتح الباب أمام قوى شعوبية جديدة، للسيطرة على الشارع الشعبي وفق شعارات الرفض التي ترفعها العديد من التيارات الإسلاموية المتطرفة، والتي تصب من حيث لا يرغب دعاتها في تكريس «القطرنة» تحت شعارات ما فوق القومي التي تحاول ان تصطنع تعارضاً بين العروبة والإسلام، وتحاول تعميم وفرض نموذج مغلق ومتطرف مغرق في التأخر، للدين الإسلامي الحنيف، مما يشكل دفعاً لآليات الصراع الطائفي والمذهبي والاثني، ويرشح لإنتاج حروب التدمير الذاتي، أو إعادة إنتاج أنظمة شمولية

ثيوقراطية، أشد استبداداً وفاشية من الأنظمة التي تسعى لمعارضتها. وفي المحصلة تضيف إلى الأمة مشكلات وبلايا جديدة، بدلاً من مواجهة البلايا القائمة وتجاوزها.

ويظل المخرج القومي الديمقراطي المتمثل في إنهاض الشعب ، وتسييسه وتعميق الديمقراطية وترسيخها في مؤسسات المجتمع المدني والدولة ، وإطلاق مسيرة التحديث الفكري والسياسي ، ومواجهة الهيمنة الإمبريالية والمشروع الصهيوني ، وانتهاج طريقة التنمية المستقبلية المعتمدة على الذات في إطار قومي، وبآفاق اشتراكية، وفتح سيرورة التوحيد العربي واطلاق آلياتها، يظل هذا المخرج، المخرج الممكن للأمة إذا أرادت البقاء والتقدم، والطريق الوحيد لإنقاذ الأمة من الدرك الذي ساقتها اليه عوامل الهيمنة الإمبريالية والصهيونية وواقع التأخر ، ونظم القمع والاستبداد والاستنقاع القطري .

لقد حاولت أمتنا النهوض مراراً ، وبعد كل هزيمة كانت تتجمع عوامل النهضة لديها من جديد، وإذا كنا نعيش اليوم ظرفاً عصيبا ، فإن خيار اعادة النهوض يدق الأبواب بقوة . وعلى جميع القوى والتيارات والأفراد... التي يهمها مستقبل النهضة، ، أن تدرس بعمق وجدية التجارب التاريخية السابقة وتستخلص الدروس ، لتجنب الأمة تجارب فاشلة جديدة لم يعد يسمح لحصولها الواقع الدولي الجديد الذي يهدد العرب وغيرهم من الشعوب المتأخرة والتابعة ، تهديداً جدياً في حاضرهم ومستقبلهم ...

وبعد .. هل يحق لنا أن نضع المعادلة التالية :

المخرج القومي الديمقراطي أم خروج العرب من التاريخ (٢٤) ؟.

الهوامش

١- حسب إحصاء ١٩٨٨، نقلاً عن التقرير الاقتصادي العربي الموحد ١٩٨٩.

٢- نقلاً عن : محمد حسنين هيكل: حرب الخليج أوهام القوة والنصر، مركز الاهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط/ ١، ١٩٩٢ .

٣- انظر للتوسع حول هذا الموضوع : وجهة نظر المؤلف في اطروحات حول تجديد الفكر القومي، مجلة المستقبل العربي.، مركز دراسات الوحدة العربية.

٤- ان مختلف الدراسات الاقتصادية والاستراتيجية تؤكد على ان وضعية هيمنة القطب الأمريكي على العالم وضعية انتقالية ومؤقتة ، ريثما تتبلور مراكز القوى الدولية الصاعدة ، مما يجعل حلم الرئيس الامريكي أقرب الى «حلم اليقظة».

٥- وصلت حصة قطاع المعلومات الى ٥٢٪ من الناتج القومي الامريكي، ومن المتوقع ان تصل الى ٨٠٪ في نهاية هذا القرن .

٦- د. فؤاد مرسي: الرأسمالية تجدد نفسها، سلسلة عالم المعرفة الكويت، رقم (١٤٧) ،آذار مارس ١٩٩٠، ص (٤٧). وهو المرجع الرئيسي الذي اعتمدناه حول آثار ثورة العلم والتكنولوجيا .

٧- للتفصيل حول هجوم الليبرالية الجديدة يرجى مراجعة د. رمزي زكي: هذه الليبرالية الجديدة ... المتوحشة، مجلة الفكر الاستراتيجي العربي، العدد (٤١)، ١٩٩٢ .

٨- نشير هنا الى «نظرية » فرانسيس فوكوياما ، التي جرى الترويج لها امريكياً ، والقائلة «بنهاية التاريخ ».

٩- انظر للتفصيل : ياسين الحافظ، الهزيمة والايديولوجيا المهزومة، دار الطليعة بيروت .

١٠- ستيفن غرين: الانحياز، م.د.ن، بيروت ١٩٨٥ ط / ١، ص (٢٢٣) .

١١- حسن ابو طالب ، السياسة الدولية – العدد ٧٥، تموز (يوليو) ١٩٨١، ص (٧١) .

١٢- انظر للتفصيل حول هذا الموضوع ، هشام الدجاني، تطور العلاقات الامريكية الاسرائيلية ، مجلة الوحدة، العدد (٩٤-٩٥) سنة ١٩٩٢ – ص ١٧٣.

١٣- انظر للتفصيل حول موضوع الهجرة اليهودية : احمد يوسف احمد: المخطط الراهن لتهجير اليهود السوفيات الى فلسطين، مجلة المستقبل العربي، العدد (١٤١) - ١١ / ١٩٩٠، ص (٨٠-١٠١).

١٤- أنظر على سبيل المثال :

اودد بينون: أمن اسرائيل في الثمانينات .

١٥- شيمون بيريز: السوق المشتركة، جيروزاليم بوست ١٣/٩/ ١٩٩١.

١٦- انظر للتفصيل : ياسين الحافظ : المسألة القومية الديمقراطية، دار الطليعة بيروت .

١٧- انظر حول هذا الموضوع : محمد جمال باروت: الخطاب الاسلامي السياسي، مجلة الوحدة، العدد ٩٦، ايلول ١٩٩٢ .

١٨- الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ط٢ ، بيروت دار الكتب العلمية، ١٩٨٧، ج٤، ص٥٣٣ .

١٩- انظر : د. عبدالله العروي: مفهوم الدولة .

٢٠- انظر مثلا بحث المؤلف : الكواكبي هم التأخر العربي وهاجس النهضة، مجلة الوحدة، العدد ٨١، يونيو، ١٩٩١ .

٢١- انظر على سبيل المثال : جورج طرابيشي - الدولة القطرية والنظرية القومية، دار الطليعة، بيروت، حيث يسجل الكاتب رصداً مهماً لمختلف جوانب الظاهرة القطرية، لكنه يصل في النهاية الى الدعوة لمقاطعة الدولة القطرية وادانتها .

٢٢- ناجي علوش - الوحدة العربية المشكلات والعوائق، سلسلة ثقافتنا القومية، رقم ١، المجلس القومي للثقافة العربية، ط/ ١، ١٩٩١ .

٢٣- إشارة الى العنوان المثير لـ د. فوزي منصور: خروج العرب من التاريخ .

الفصل الرابع

الحركة القومية العربية في منعطف الألف الثالث : الحدود والآفاق

أ. تركي علي الربيعو

في منعطف الألف الثالث ، ونحن على اعتاب قرن جديد، يجد القومي العربي نفسه مكرها، وهو المكره ابداً في هذه الفترة التاريخية الحرجة من تاريخ الأمة العربية ، والمكروه بآن واحد من قبل قوى خارجية وداخلية . على الالتفاق باستمرار الى الماضي البعيد والقريب في شقيه الحديث والمعاصر ، ليتيه في زحمة الأسئلة ، التقليدية منها ، او تلك الصياغات الجديدة المتفرعة عنها .

لماذا فشلت الحركة القومية العربية في الوصول الى أهدافها؟ والحركة القومية العربية هنا ، هي ناتج مجموع حرقات، فمنذ الحرب العالمية الأولى وحتى اللحظة المعاصرة، تعثرت الحركة القومية العربية في الأغلب وفشلت في العموم ، في الوصول الى اهدافها . وتشير الدراسات الى انه ومنذ الحرب العالمية الاولى وحتى الآن ، يوجد هناك على الساحة العربية اكثر من ثلاثمائة حزب سياسي عربي ترفع شعار الوحدة والحرية بشكل او بآخر،وثلثها حكم او شارك في الحكم،لكنها سرعان ما تحولت الى اداة فرقة بدلامن ان تكون اداة وحدة (١) . وتحولت ايضا الى اداة بيد الاجنبي للجم الحراك القومي والشعور القومي على صعيد الجماهير العربية.

لماذا لم تنجح طقوس الاعتراف،التي جاءت بعد الهزائم الكبرى التي مرت بها الأمة العربية ؟، من هزيمة ١٩٦٧ الى هزيمة حزيران / يونيو ١٩٨٢ ، في الوصول الى اهدافها وتجاوز اعترافها وأشير هنا الى ندوة سويسرا ١٩٨٣ التي ضمت البعثيين والشيوعيين والقوميين العرب الناصريين في اطار جلسة اعتراف . لنقل طقس اعتراف بالفشل ، فشل اليسار القومي العربية في الوصول الى اهدافه في الوحدة والتقدم . فقد قادنا تقرير الندوة الى القول : إن اليسار العربي الراديكالي قد فشل في الوصول الى اهدافه (٢) .

اذا كان جوهر الأمة العربية يظهر على أشده أثناء الأزمات وعلى مدى تاريخنا الطويل، كما يرى بعض من المثقفين العرب ، وان ادوار الأزمات في تاريخها هي الأروع الأدوار(٣) فلماذا يبدي عرب اليوم خورا وضعفا وتشرذماً امام ازماتهم وهزائمهم المتلاحقة . وبدلا من ان تتحول خيارات شمشون ، وخيارات بوشى وقاذفاته العملاقة الى مهماز يفجر وعيهم القومي بضرورة الوحدة والتعاون، العربيين ، نراها – أي هذه الخيارات – تتجسد في حزب من الانتهازية السياسية، او لنقل حزب من العقلانية السياسية العربية الجديدة والتي هي من وجهة نظرنا لا عقلانية سياسية تهدف الى تكريس الاحتلال والتجزئه وغياب الكرامة الوطنية والقومية كنتيجة لغياب الأهداف الكبرى .

هذه الأسئلة الاستهلالية لها طابع تقليدي وتاريخي . وفي رأيي ان الباحث في تاريخ الحركة القومية العربية وفي تاريخيها وهو الأهم ، يجد نفسه في مواجهة مجموعة من الاسئلة ، منها ما هو تاريخي وكما بينا اعلاه والتي تدور في فلك لماذا، ولماذا فشلنا وتقدم غيرنا ، ولماذا لم نصل ووصل غيرنا ، لماذا نضل الطريق في كل مرة نظرا اننا قاب قوسين او ادنى منه ، لماذا نجح استعمار استيطاني ان يثبت نفسه على الأرض العربية في الوقت الذي تراجع فيه من جميع انحاء العالم وأشير هنا الى الدويلة الصهيونية . والأغرب من ذلك كله ، كيف جاءت جيوش المحتل الأجنبي الى الأرض العربية مع بداية العقد الأخير من القرن العشرين لتجثم على صدرها ولمدى طويل . برضى العرب ورضى جامعتهم ومؤتمرات قمتهم ؟ وفي هذه الاسئلة التي يواجهها الباحث ما هو تاريخي نظري ويتعلق ذلك ببنية الحركة القومية العربية المعاصرة .

هل فشل الحركة القومية العربية المعاصرة في الوصول الى اهدافها ، هو ناتج فشل اولوجي كما انتهى اليه العروسي في تقويمه لتجربة المهدي بن بركة في المغرب وبن بلة في الجزائر وعبد الناصر في مصر . بمعنى ان هذه الحرقات بقيت تنوس بين حدي الصواب والخطأ كما جاءت تسميتها بأنها تجربة الخطأ والصواب، دون ان تهتدي الى لواء الاولوجة الحديثة والتي تم توصيفها على انها رقية ذات طابع سحري يستطيع نقل المجتمع العربي من التقليد الى الحداثة (٤) .

هل فشل الحركة القومية المعاصرة هو ناتج نزعة ذات طابع تساومي تتحكم في بنية هذه الحركة كما يرى احد الباحثين القوميين المعاصرين (٥) .

هل فشل الحركة القومية العربية يرتد الى كونها بقيت اسيرة الوهم ، وهم الذات ودورها التاريخي ووهم العوامل الموضوعية التي من شأنها ان تقود الى الوحدة، أي انها وضعت نصب عينيها اهدافا غير موضوعية في واقع غير موضوعي.

ومن هذه الأسئلة ما هو تاريخي سياسي بمعنى :

هل يرتد فشل الحركة القومية العربية المعاصرة في الوصول الى اهدافها الى ضرب من الخطاب السياسي المنفصل عن الواقع والذي بقي متحكما في رقاب العقلية السياسية العربية التي تنظر للوحدة القومية بمنظور متخلف قاد الى التجزئة وتعميقها وليس الى الوحدة .

هل البحث في الوصول الى الاجتماعية والسياسية للحرقات القومية العربية المعاصرة وقادتها من شأنه ان يقدم الجواب عن سر الإخفاقات المعاصرة التي يجري تبريرها تحت عناوين مختلفة يجمعها قاسم مشترك يتمثل في بروز نزعة سياسية استسلامية عربية بدأت تتحكم في الخطاب السياسي العربي(٦) بمعنى آخر هل الخطاب السياسي العربي الراهن الذي ينظر للوحدة والتقدم لا يزال يمتح من موروثه القديم ولا يزال مشدودا الى ربقته ويدور في حلقة مفرغة، لنقل دائرة ركائز ثلاث نقاط ، القبلية بصورتها الحديثة او الطائفية، والغنيمة سواء تلك المتأتية من الريع النفطي (الوليمة النفطية) او تلك المتأتية من تهريب الحشيش وبيع الأرض ، والعقيدة بكافة صفوفها(٧) .

هل فشل الحركة القومية العربية المعاصرة يرتد الى عنف الهجمة الشرسة للقوى الامبريالية والصهيونية على الأرض العربية كما تجلى ذلك جيدا اثناء حرب الخليج الأخيرة ١٩٩١ . والتي كانت بكل المعنى حربا عالمية ثالثة على العرب (٨).

هل تمثل مجموع المحاولات التي تهدف الى اعادة تقويم مسيرة العمل القومي العربي تحديا تقوم به الذات المهزومة حين ترفض الهزيمة ام انها تمثل تحديا حقيقيا لواقع جديد يتمثل بهيمنة اعداء الامة العربية ، تحديا يجد مبتغاه في القوى المقاومة الجديدة من أبناء الأمة العربية ، ممثلة في قوى الانتفاضة الفلسطينية وصمود الشعب العراقي في وجه اعتى وأقوى هجمة شرسة على الأمة العربية، وممثلة ايضا في الحراك الجماهيري على صعيد الساحة العربية وفي قواه السياسية الآخذه في التبلور .

عقد السبعينات عقد الانقلابات الكبرى

يمكن القول بدقة ان عقد السبعينات هو عقد الانقلابات الكبرى على الصعيد العالمي والعربي والتي ستؤثر سلباً على مسار ومسيرة الحركة القومية الغربية.

فعلى الصعيد العالمي ومع نهاية عقد الستينات ومطلع السبعينات يدخل النظام الاقتصادي العالمي بفترة جزر وركود طويلة جديدة ، بعد فترة الرواج الطويلة التي امتدت منذ نهاية الحرب الكونية الثانية وحتى مطلع السبعينات . وهذه الفترة / الأزمة هي جزء

من الأزمة العامة الشاملة ، أي ازمة النمط الحضاري الشامل والمهيمن والتي يمكن تلمسها على أصعدة عدة .

اولاً : على الصعيد الاقتصادي فقد انخفض معدل النمو السنوي للإنتاج الصناعي في مجموع الدول الرأسمالية المتقدمة من ٢,٦٪ خلال الستينات وسيصل الى ١,١٪ في منتصف الثمانينات كما تشير بعض الدراسات الحديثة (٩) . وبالمقابل نجد تدهورا في الاستثمارات المنتجة ، فقد انخفض معدل نمو الاستثمارات المنتجة من ٦,٥٪ سنويا الى ٥,١ سنويا بالنسبة الى مجموعة دول المنظمة الاقتصادية للتعاون والتنمية من عقد الستينات الى عقد السبعينات . وتدهورا في معدل ربحية رأس المال ، وتزامن ذلك مع نمو ظاهرة التضخم وزيادة معدلها (١٠) .

ثانياً : أزمة اخلاقية هي بحق أزمة النمط الحضاري الغربي والتي يمكن تلمسها وعلى أصعدة مختلفة ، مثل تراجع اليسار الأوروبي بأحزابه ومفكريه عن الوقوف الى جانب حركات التحرر في العالم الثالث . وبروز نزعة عنصرية اوروبية / غربية متمركزة على الذات معادية لشعوب العالم الثالث وفي المقدمة الإسلام كحضارة مجاورة وقد غزت هذه النزعة حتى حقل الدراسات الاتنولوجية والانثربولوجية وكما صرح بذلك بعض اعلامها .

وقد وجدت هذه النزعة تعبيرها الحي اثناء حرب الخليج الأخيرة . فقد وقف الغرب يمينه ويساره في اطار هجمة شرسة هي التعبير الحي عن الهمجية الغربية بكل معانيها ، في سبيل إبادة أو إعقاة شعب عربي بأكمله وأقصد الشعب العراقي . والتلويح بشن هجومات متتالية على شعوب العالم الرابع ان هي قالت «لا» لعملية النهب والاستغلال والتدمير القائمة من قبل بلدان المراكز الامبريالي (١١) .

ثالثاً : وهناك ازمة معرفية حاده تمتلك الخطاب العربي / خطاب الحداثه . وهي ناتج عملية تمركز غربي / عنصري طويلة الأمد لم يستطع اليسار الأوروبي ولأسباب عديدة أن يفلت من ربقتها ، فكلاهما اليمين الأوروبي وكذلك اليسار يسوقان نفس التعميمات بشأن الدور التاريخي للرأسمالية الغربية في تحديث وتطوير شعوب العالم الرابع . يقول سمير امين في تحليله لخطابات اليسار الأوروبي الجديد . ان الفكرين يتفقان باسم معاداة (العالمثالثيه) ويشتركان في تكبر قريب من العنصرية(١٢) .

هذه الأزمة المعرفية الحادة والتي نقرأها في خطابات اتنولوجيين وانتربولوجيين وساسة وقادة فكر سوف تصل الى ذروتها في القول ان «الحضارة الرأسمالية الغربية المعاصرة هي نهاية التاريخ كما تشهد على ذلك اطروحة فوكوياما الشهيرة»(١٣) .

على الصعيد الآخر نفسه سوف يشهد مطلع عقد السبعينات بداية حقيقية للإنفراج الدولي بين المعسكرين الاشتراكي بزعامة الاتحاد السوفيتي والرأسمالي بزعامة الولايات المتحدة كما تشهد على ذلك اتفاقيتي سالت او سالت ١٩٧١/ ١٩٧٢، وسوف يتزامن هذا الانفراج والذي كان مطلبا عزيزا على صعيد القيادة السوفيتية انذاك ، مع الهجمة الضارية والتي ستشنها الولايات المتحدة الأمريكية على المنطقة العربية بهدف اعادة كمبرودرية المنطقة لصالحها والتي سوف تصيب مقتلاً في الحركة القومية العربية. وجد تعبيره في القول ان ٩,٩٩٪ من أوراق ما سمي بأزمة الشرق الأوسط بيد أمريكا. هذا الاتجاه والذي ستكتب له السيادة سوف يمثل بداية الوهن الذي سيصيب الحركة القومية العربية والذي ستحصد الأمة العربية نتائجه، بدءا من محادثات الكيلومتر / ١٠١/ الى كامب ديفيد ٩٧٨ الى هزيمة يونيو / حزيران ١٩٨٢ ، والى مؤتمر قمة القاهرة ١٩٩٠ ونتائجه الكارثية على صعيد الأمة.

على صعيد الوطن العربي ، سيشهد مطلع السبعينات مجموعة من الظواهر :

اولاً : غياب الزعامة الكازرمية القومية ممثلة بشخص الرئيس عبد الناصر ، فقد أخذ البطل طريقه الى مثواه الأخيرَ في خريف ١٩٧٠ وسط خضم هائل من الجماهير التي هبت لوداعه يعتصرها الألم وتمزقها اللوعة. ووارته الثرى وهي تبكي بكاء اطفال تيتموا قبل اكتمال طفولتهم وهجرهم أب معبود. وبغياب البطل انتهى على حين غرة ذلك المهرجان الخطابي والعيد القومي الذي لم يعرف العرب مثيلا له منذ النبوة القرآنية. ولربما كان الألم بحجم الصمت الذي سيغرق فيه المجتمع العربي مستقبلاً (١٤)، فالناصرية الظاهرة لا الممارسة كانت وبأجلى مظاهرها.

ثانياً : مع مطلع عقد السبعينات، تكتمل التبعية للخارج ، وتتبلور بموازاة ذلك مؤسسات الدولة التسلطية الحديثة ، دولة النخبة المتفرنجة في اشكالها المختلفة العديدة على حساب الاكثرية الجماهيرية. وستتمكن هذه المؤسسة من اختراق فضاءات المجتمع الأهلي والمدني وكبح جماح تطوره وعلى جميع الأصعدة. وسيتبلور بموازاة ذلك خطاب سلطوي قمصي وهرمي ، وقطري عام بآن واحد. بمعنى انه داخل كل قطر عربي ، القطرية التي تتبلور ايضا كنتاج للدولة التسلطية، تبلور خطاب يمجد الحاكم وعائلته ويشيد بعزاته بمعنى انه قدر لهذا الخطاب ان يغزو الساحة العربية بكل اقطارها دون ان يجد المرء واحة ليتنفس الهواء فيها (١٥).

كان القادة العسكريون الذين جاؤوا الى السلطة في نهاية عقد الستينات وبداية عقد السبعينات، هم بشكل آخر نتاج المدرسة القومية العربية بكل تشعباتها من ناصرية (السادات والقذافي والنميري) وبعثية (احمد حسن البكر وحافظ الأسد). وبتأثير من بقايا

نزعة قومية عربية سوف يقدر لها ان تعيش على صعيد الخطاب لا الواقع . ومن كابوس هزيمة حزيران / يونيو ١٩٦٧ شهد مطلع عقد السبعينات مجموعة محاولات وحدوية هي بالاصح حراك قومي عربي موسوم بالمساومة، ومطبوع بطابع الواقعية السياسية الجديدة ذات النزعة الاستسلامية التي بدأت بمغازلة امريكا . ففي ١٧ نيسان / ابريل ١٩٧١ اعلن عن إنشاء دولة الاتحاديين مصر وليبيا وسوريا وفي ٣٠ آب / اغسطس من العام نفسه صدر دستور دولة الاتحاد، وفي الثاني من آب / اغسطس ١٩٧٢، صدر بيان الوحدة بين مصر وليبيا، وستتكرر هذه المسرحيات الهزيلة من وجهة نظر الرأي العام العربي ، التي يقودها ممثلون مسرحيون اتقنوا فن اللعبة وممارسة فن قواعد الخطاب القومي وبذلك هدف اسباغ الشرعية على نظم لا شرعية لها .

وفي السادس من اكتوبر / تشرين اول ١٩٧٣ جاءت حرب تشرين كتعبير حي عن التعاون الوثيق بين مصر الساداتية وسوريا بقيادة الرئيس حافظ الأسد. ففي عصر اليوم الأول للحرب عبر الجيش المصري بانضباطية عالية قناة السويس واجتاز خط ماجينو الاسرائيلي واقصد خط بارليف وتوغل عبر اراضي سيناء بخطى ثابتة وقدرة كبيرة على صد هجمات العدو .وبنفس الوقت وصل الجيش السوري الى قمة جبل الشيخ مجتازاً استحكامات العدو وخطوط دفاعه .

كانت المفاجأة كبيرة حتى على صعيد العدو الاسرائيلي وحليفته امريكا ، ومهما قيل عن حالة التشرذم العربي بعد رحيل عبد الناصر فقد كانت الحرب ببعدها القومي العربي متوقعة . حيث قدر لها ان تكون آخر محاولة من قبل التيار الراديكالي العربي ممثلا بجناحيه الناصري والبعثي لفرض نفسه كشريك متساو ومحترم على الساحة الدولية (١٦) لكنها ظلت تغذي بلا انقطاع حنينا خفياً يغذي احلام الساسة العرب بالعودة الى الحلم الازلي ، الى اسطورة العود الأبدي الى احضان الولايات المتحدة الأمريكية .هذا هو الحكم الكبير الذي جاء بحرب تشرين . وهذا ما افصح عنه السادات وما أراده من الحرب ، فالحرب هي حرب تحريك لا حرب تحرير ، وبهذا كانت الحرب ملتقى ارادتين . ارادة السياسة العربية التي يغذيها نهج من الاستسلامية الجديدة للإرتماء باحضان امريكا . وارادة السياسة الامريكية التي جاءت للإجهاز على نتائج الحرب وعلى الحركة القومية العربية ممثلة بالنظام الاقليمي العربي وهذا هو أهم الأهداف الأمريكية في المنطقة يقول مؤلفا النظام الاقليمي العربي .كان لا بد للولايات المتحدة لتحقيق أهدافها في المنطقة العربية من ان تركز اشد التركيز على اختراق النظام العربي من عدة جوانب وان تعمل على النفاذ الى شبكة تفاعلاته بحيث تتمكن من احداث تحولات جذرية في قيم النظام وهياكله وقواعد السلوك السائدة فيه ، ولا شك ان ظروف النظام ساهمت في تسهيل المهمة الامريكية (١٧) .

وقد تمكنت السياسة الامريكية من تحقيق اهدافها ، فقد تحولت السفارة الامريكية في القاهرة الى ورشة عمل بقيادة هنري كيسنجر وزير الخارجية الامريكية انذاك ، وكان محور اهتمامها وهدفها هو اختراق النظام الاقليمي العربي وركيزته مصر اولاً «اختراق يتم بموجبه القضاء على القيم الوطنية والقومية والانجازات الاجتماعية ويفرض قيماً جديدة في مجالات الاستهلاك والانعزالية والعداء للعروبة والعرب» (١٨) . وجاءت نتائج هذا التوجه وثماره سريعة «فلقد اتخذت في مصر عدة اجراءات وسياسات من شأنها (ان تؤدي – بوعي او بدون وعي – الى فقدان تقاليد القيادة ، من بينها حزب الفكر القومي في مصر ومطاردته ، فحدثت عدة خطوات تم بمقتضاها ابعاد عدد من القوميين عن وظائفهم ، وخاصة في المجال الاعلامي ، أو اضعاف تأثيراتهم . وقامت السلطة بتشجيع القيادات الاسلامية المتطرفة بهدف محاربة التيارات القومية اليسارية بين الشباب . وفرضت تقييما شاملا على كل الانجازات القومية في السياسة المصرية . وارتبطت هذه الاجراءات بحمله اعلامية وسياسية مضادة للفكر القومي قادها ممثلو الفكر الانعزالي» (١٩) .

بالمقابل ، لم تستطع الثروة النفطية ، بعد الزيادة الهائلة في اسعار النفط اعقاب حرب تشرين، الا ان تحرك امالا واهية وكاذبة بالرخاء والتنمية العربية والتكامل الاقتصادي. ويمكن القول ان هذه الثروة كانت اشبه بلعنة ابدية على العرب، وهذا ما ستكشفه وكشفته حرب الخليج الثانية .

كان البترو- دم تعبيرا حيا عن ارادة سياسية عربية ارادت توظيف النفط كأداة سياسية فعالة لخدمة مصالح العرب ، وهذا ما حدث اثناء حرب اكتوبر ١٩٧٣ . لكن سرعان ما حلت قيم البترودولار محل قيم البرودم ، وجاء طوفان السلع الاستهلاكية وقيمها الجديدة بموازاة نزعة توفيقية ذات طابع مساوماتي في جميع المجالات . في السياسة حيث ساهم الثراء النفطي في ابراز قيم سياسية جديدة هي مزيج من قيم البداوة والبترودولار ، قدر لها ان تسود ، وان تبرز معها الى الواجهة دول الاطراف العربية (المشيخات النفطية الجديدة) وذلك على حساب دول المركز العربي ، وكان هذا يعني في الحسابات الجديدة إضعافا للحركة القومية العربية لحساب قيم التجزئة الجديدة التي تحرسها الثروة النفطية والنزعة التسلطية التي ستبدأ بالتبلور وسيحصد العرب نتائج ذلك ايما حصاد ، حين تتحول الثروة النفطية الى بؤرة تآمر مع القوى الامبريالية لضرب كل المحاولات النهضوية والقومية عند العرب كما حدث اثناء حرب الخليج.

وفي مجال الفكر ، سوف يكتب لهذه النزعة ، ان تغزو وتسود في حقل الثقافة العربية المعاصرة ،وسيشهد مطلع عقد الثمانينات دعوة صريحة الى الفكر العربي للأخذ بالتوفيقية ، فهي سبيلنا الى الرشاد . يقول محمد جابر الأنصاري في خاتمة كتابه الموسوم بـ تحولات الفكر السياسي في الشرق العربي . وبعد مناقشة مستفيضة

لنصوص في الفكر السياسي العربين » بذلك تنكشف امامنا الأهمية البالغة للنظرية التوفيقية في تفسير التاريخ العربي المعاصر ، وفهم دينامية المجتمع العربي الحديث ، وادراك طبيعة النتاج الثقافي (الفكري والأدبي) للعقل العربي الجديد »(٢٠).

ومع التوفيقية الجديدة التي عززتها وشذبتها الثروة النفطية ، سوف تبرز الى الواجهة في فكرنا العربي المعاصر ، قيم المصلحة والاستنفاع والجاه ، على حساب قيم الحرية والحقيقة، والتي ستصيب شرخا في حقل الثقافة العربية. وسيتراكض الكثير من المثقفين العرب تحت وطأة جاذبية قيم الاستهلاك الجديدة ، للبحث عن قناة تربطهم بالأمير ، لنقل عن جسر ، خشبي او فضي او ذهبي يساهم في تجسير الفجوة بين المثقف والأمير (٢١). وسوف يساهم مجموع ذلك ، تعدد الجسور واشكالها ، وسيادة النزعة التوفيقية وما تحمله من قيم الجاه والثروة ، في اذكاء خطاب سياسي يدعو الى التجزئة علانية، ومضمر بالعداء للحركة القومية العربية والتي تظهر في هذا الخطاب ، على انها نتاج المدرسة الشامية وعلى حد تعبير عبد الله بشاره ، المتسرعة في دعوتها وقراراتها ، والتي عليها ان تستقي دروسها الآن من المدرسة الخليجية وأبعادها الوحدوية الجديدة(٢٢) والتي ظهرت نتائجها الرائعة في تشكيل نادي للاغنياء العرب ، يضم الدول الخليجية الست في اطار مجلس التعاون الخليجي ، وقد استبعد العراق بالرغم من كونه دولة خليجية – من عضويته ، بحجة يمكن صياغتها على النحو التالي : أن العراق محكوم بهاجس المدرسة البعثية الشامية ومن شأنه ان يسبب احلاما مزعجة وكوابيس لأعضاء النادي ، ومن بينها على الأقل العودة المضمرة لشعار بترول العرب للعرب .

مع مطلع السبعينات ، كانت الحركة القومية العربية ممثلة بجناحها اليساري الراديكالي ، قد بدأت بالتمهيد الى القيام بمصالحة جذرية بين القومية العربية والماركسية بعد قطيعة دامت لفترة طويلة غذتها ماركسية مشقية متكئة على عكاز القيادة السوفيتية ، مثلتها الأحزاب الشيوعية في الوطن العربي . فها هو العروي يعزي فشل تجاربنا القومية الحديثة الى فشل ادلوجي ويدعو بالمقابل الى تأسيس ادلوجية عربية معاصرة يسميها بـ الايديولوجية القومية المعاصرة . والتي تؤسس على ركائز ماركسية جديدة . فالمطلوب من وجهة نظر العروي ان نقوم بمركسة الواقع العربي مركسة تامة وهذه المركسة تطال كل تاريخنا القومي ، وأن تستخدم كمنهج ضمني في ابحاث وتحليلات جدية وجديدة حول ماضينا وحاضرنا ، تفسر بكيفية بضعة نقاطا غامضة من التاريخ العربي ، مثل قيام الدولة العباسية، انهيار الخلافة الفاطمية او انتشار المذهب المالكي في المغرب والأندلس . وتكثر هذه الابحاث الى حد يستوعب المجتمع العربي المنطق الماركسي كأداة فعالة في توضيح ماضيه وحاضره (٢٣). بالمقابل كان الحافظ يؤكد الى ان الهزيمة هي ناتج

ايديولوجية مهزومة ويدعو بشدة الى المصالحة بين الماركسية والقومية العربية. يقول الحافظ «لقد كانت ماركسيتي متصالحة مع القومية، لا بصورة ضمنية فحسب، بل بصورة صريحة ايضاً. لذا ساعدتني على ان ادرج المشروع القومي العربي في منظورات اكثر رحابة وانفتاحا وعقلانية. مع الماركسية لم اعد قوما وبل قوميا (او امويا)، وبالتالي لم تعد الأممية دعوة الى تخل عن القومية، بل دعوة الى فهم المصلحة القومية في سياق عالمي ارحب واكثر توازنا وواقعية (٢٤) ويضيف في مكان اخر بقوله: كذلك فإن الماركسية قد ساعدتني على نبذ التصور الماضوي للقومية العربية والوحدة العربية، على ان انظر اليها من زاوية مستقبلية، كحجر زاوية في بنيان النهضة العربية المرجوة، وشيئا فشيئا، وبفضل الماركسية ايضا، نزعت عن الوحدة العربية القشرة الصوفية والرومانسية التي كساها بها المعتقد القومي العربي (٢٥) وها هو الياس مرقص يعلن بوضوح انه الماركسي الناصري(٢٦)، وبتأثير من الإنتصار العسكري في حرب تشرين / اكتوبر ١٩٧٣، راح التيار الراديكالي العربي يدعو الى تطبيق الماركسية في الواقع العربي، تطبيق من شأنه ان يقود الى حرق البجعة المختصرة = المجتمع التقليدي العربي، ثم بعثها في رمادها على انغام القصيدة الجديدة التي يعرفها الشاعر الماركسي. يقول احسان مراشي في دعوته الى تطبيق الماركسية في الواقع العربي وفي اطار عملية المصالحة بين الفكر القومي العربي والماركسية. في كل مرحلة تحول من التاريخ، ثمة اذن بجعة تحتضر، اشكال معنوية انسانية جميلة تموت، وفي ثنايا الاشكال نفسها، ثمة ايضا قصيدة شعرية ما تزال خفية، مبثوثة، غير ظاهرة ولا مسموعة، فهي تحتاج الى شاعر، كي يستشعر مكنوناتها، ويلتقط بوادرها، ويستلهم اطيافها، ويستجمع معانيها، ويتمتم احرفها ومكملاتها، ويؤلف نغمها وموسيقاها، وينظم تفاعيلها وقوافيها، فيخرجها السحر وروعة الخيال، وليس له من القوة الا حرارة القلب، وشدة النزوع والتطلب والحب، وقوة الايمان وهذا الشاعر معلق عليه ومنوط به اذن، ان تأخذ هذه القصيدة تدريجيا شكلها، وهذا الشكل هو الذي سيسير الزمن الحاضر نحو تحقيقه في المستقبل. حيث سجل محل الاشكال القديمة التي تكون حينئذ قد ووريت في تراب هذا الشاعر وهو الماركسي العربي(٢٧).

مع اواسط عقد السبعينات، كان المشرق العربي والذي احتضن الحركة القومية العربية منذ نشأتها وكان بمثابة القلب الذي يضخ الوعي القومي العربي الى جميع انحاء الجسد العربي الممتد من المحيط الى الخليج. أقول «كان مهددا بالانفجار. وراحت رياح البلقنة تهب على المشرق العربي، وكانت اللبننة صداها الأول(٢٨) ودخل المشرق العربي في دوامة من الصراعات الطائفية بدأت بلبنان وامتدت الى معظم بلدان المركز القومي العربي وبدأ القتل على الهوية، واستشرى العنف السياسي ليغطي الساحة العربية في بلدان المشرق العربي وليتعداها وقد اختارت القوى السياسية الجديدة الطائفية منها أو

الاصولية ان تبرز على الساحة السياسية بكل مظاهر العنف وتظاهراته والذي يقل كثيرا عن عنف السلطة ويظن على انه نتيجة من نتائجها عبر مسلسل دموي ، بدأ بالحرب الطائفية اللبنانية وامتد الى مصر بحادثة الفنية العسكرية ١٩٧٥ ووصل الى سوريا بحادثة الكلية العسكرية (حلب ١٩٧٨) وامتد الى العراق والى السعودية (احتلال المسجد الحرام من قبل حركة جهيمان ١٩٧٩).

وأما هول الأحداث ، والمحاولات الراقية الى الاجهاز على النظام الاقليمي العربي كتجسيد حي للحركة القومية العربية . من خلال اقامة محاور اقليمية جديدة تربط قلب الوطن العربي بدول الجوار الجغرافي . تمثل بسعي السادات وبوحي مباشر عن هنري كيسنجر لاقامة معادلة جديدة تعبيرها في محور سياسي يضم مصر والسعودية وايران الشاه ١٩٧٥ . امام هذا كله ، جاءت المفاجأة الكبرى ، عندما حطت طيارة الرئيس المصري انور السادات في مطار بن غوريون في الساعة الثامنة ودقيقة واحدة من مساء يوم السبت ٢٠ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٧٧.

لا يمكن النظر الى معاهدة كامب ديفيد ١٩٧٨ ، على انها صلح منفرد بين اسرائيل والدولة – القاعدة أي مصر ، فالمعاهدة وفي منظور اخر مختلف مثلت خيارا على مستويات عدة .

اولاً : فقد مثلت المعاهدة خيارا من منظور السياسة المصرية الجديدة ، له بعد استراتيجي ، فالهدف ليس الصلح مع اسرائيل ، بل اللحاق بالغرب والانخراط به . وقد صور هذا الخيار على انه خيار بين التخلف والحضارة ، بين الموت والحياة وهذا ماعبر عنه السادات جيدا في خطابه الموجه لـ «أحمد بن سوده رئيس ديوان الملك الحسن الذي جاءه بـ / ٥ / بليون دولار من قمة بغداد. يقول السادات : هل تظن انها مسألة مال ؟ لقد انتهى الموضوع ، وانا لست حريصا على البقاء في صفوفكم . هذا العصر مضى . وانا لا اريد ان اظل مع المتخلفين ، وانما مكاني هناك مع المتقدمين» (٢٩) .

ثانياً : كانت المعاهدة تتويجا لنزعة قطرية تجزيئية لاحت تباشيرها مع هزيمة ١٩٦٧ وتعثر المشروع القومي العربي ، وسياسات الانفتاح الجديدة ، حيث برزت كل الأماني دفعة واحدة، وعبر فحيحها المتاصل تطالب بالقطرية والتجزئة ، وراحت تعزي تخلف وتعثر الحال المصرية الى نتيجة واحدة . هو دفاع مصر عن العروبة ، في الوقت الذي لم تجن منه شيئا . والخلاص يكمن بادارة الظهر للعرب والعروبة واللحاق بالغرب .

ثالثاً : كانت المعاهدة إيذانا بانتصار جديد لما يسمى بالنظام الاجتماعي العربي الجديد ، الذي تغذيه وتدعمه الثروة النفطية ، كان سقف النظام الاجتماعي العربي الجديد

فعبر بكل الوان السلع الاستهلاكية الجديدة التي غذتها ودعمتها الثروة النفطية. وكان المشروع القومي العربي يقف على نقيض الثروة النفطية الجديدة، كان عليه ان يتلاشى امام زخمها . وكان على الحركة القومية العربية أن تتوارى لصالح النزعة القطرية الضيقة، بصورة ادق كان عليها ان تتراجع لصالح الدولة الريعية والتي ستتطور باتجاه الدولة التسلطية .(٣٠)

وبمقدار ما برزت داخل النظام الاجتماعي العربي الجديد ، قوى سياسية جديدة ، الا ان هذا النظام وبكل صوره كان تعبيرا عن حالة اللاتكافؤ – ان جاز لنا استخدام تعبير سمير امين – بين قلب الوطن العربي وأطرافه الخليجية هذه المرة . وستجد هذه الحالة ذروتها في ثورة الخبز التي عاشتها معظم القلب العربي في اواسط الثمانينات في مصر (يناير ١٩٧٨/ ١٩٨٨) ولبنان (آب١٩٧٨) والأردن (نيسان ١٩٨٩) ثم تونس (١٩٧٨) والجزائر (١٩٨٨) والسودان (١٩٧٨/ ١٩٨٨/ ١٩٨٩) .

كان النظام الإجتماعي العربي الجديد يدعم حالة اللاتكافؤ وجاء مجلس التعاون الخليجي بمثابة افراز طبيعي لهذه الحالة يقول هيكل : «ان الهدف الرئيسي من مجلس التعاون الخليجي هو اعتبار الأمن الداخلي للنظم الحاكمة في دول الخليج قبل أي هدف ، وبالتالي فإنه يمكن القول ان مجلس التعاون الخليجي ظهر كإفراز طبيعي لواقع الحال فرض نفسه على أواخر حقبة السبعينات »(٣١)

ومع ان مجلس التعاون كان وكما سبق القول ناديا للأغنياء العرب . فقد وصف على انه قطار الغد نحو المحطة الأخيرة (٣٢) لكن محطة القطرية ضيقة كما شهدتها حرب الخليج . فقد طرحت الهوية السعودية في مقابل الهوية القومية العربية. يقول رئيس تحرير صحيفة سعودي غازيت ، «انني سعودي قبل ان اكون عربياً ، وان المساس بوطني يجعلني احارب كل الدنيا بما في ذلك القومية العربية» هكذا طرحت النزعة القطرية الضيقة (المصرية او السعودية) في مواجهة النزعة القومية وجاء فؤاد عجمي لينظر للقطرية الضيقة في اواخر عقد السبعينات يبشر بنهاية عصر القومية العربية(٣٣) .

لم تستطع مؤتمرات القمة العربية، قمة بغداد ١٩٧٨، ولا قمة الصمود والتصدي ، ان توقف التدهور . وكان الخلاف المزمن بين جناحي حزب البعث في سوريا والعراق قد اصاب مقتلا في الحركة القومية العربية. ولأسباب بنيوية داخلية تتعلق بالتركيب الاجتماعي لكل من الحزبين ، فقد دخل الحزبان في صراع مستتر احيانا وعلني في معظم الأحيان ساهم في شل الحركة القومية العربية التي استبشرت خيرا في مؤتمر قمة بغداد ١٩٧٨ بإمكانية التوحد بين القطرين الشقيقين سوريا والعراق . وستتدافع الأحداث لتحول دون اية امكانية للقاء وستصل الى ذروتها بقول الرئيس حافظ الأسد ، بعد حرب الخليج الثانية: نحن حزبان مختلفان .

كانت مرحلة الانحسار القومي التي شهدها النظام الأقليمي العربي في عقد السبعينات، قد بلغت أوجها مع توقيعي اتفاقية كامب ديفيد ١٩٧٨ وخروج مصر وتضحيتها بالنتائج العسكرية لحرب اكتوبر قربانا على مذبح بيغن ، وعلى مذبح جائزة نوبل للسلام والتي ستمنح للرئيس السادات ولرئيس الوزراء الاسرائيلي . وبخروج مصر، كانت دول الفراطة العربية وعلى حد تعبير ياسين الحافظ قد بدت مشلولة . وراحت تتداعى الاحداث بشكل مأساوي ، وظهرت كأنها نتيجة لما حدث . فتسارع الأحداث كان يقود باتجاه تصفية الجناح الراديكالي العربي او ما تبقى منه بالأصح . واكتملت المؤامرة وجاءت هزيمة حزيران / يونيو ١٩٨٢ لتعلن اموراً عدة :

أولاً : الضعف اللامتناهي للعرب ، امام التوسعية الصهيونية وقدرتها على اختراق النظام الاقليمي العربي .

ثانيا : فشل الثروة النفطية في ان تكون سلاحاً سياسيا واستراتيجيا بيد العرب . فقد اصبحت وسيلة لاستبعادهم كما ستثبت ذلك وبصورة هائلة حرب الخليج .

ثالثا: فشل قدرة اسرائيل على اختراق العمق العربي ، وتصفية منظمة التحرير الفلسطينية جسدياً ، لتجعلها قابلة لكل المساومات .

رابعاً : فشل السياسة السوفيتية في الشرق الأوسط (٣٤) .

في هذا الجو ، جو ما بعد الهزيمة الجديدة ، راح اليسار العربي الراديكالي، والذي يضم كلاً من البعثيين والشيوعيين والقوميين العرب والناصريين ، حسب التصنيف الذي اعتمدته ندوة سويسرا ١٩٨٣ في تعريفها لليسار العربي الراديكالي . اقول راح اليساريون العرب القوميون – في اطار عملية المصالحة بين الماركسية والقومية العربية – يتداعون الى عقد اجتماع يهدف الى تقويم الوضع العربي ومسار الحركة القومية العربية بعد الهزيمة الجديدة . وجاء البيان الختامي للندوة معلنا ، ان اليسار العربي الراديكالي ، سواء منه الذي استلم السلطة او شارك فيها فشل في تحقيق امرين : التنمية المستقلة والديمقراطية (٣٥) .

كان فشل اليسار العربي الراديكالي في تحقيق التنمية المستقلة، إيذانا بسقوط العريق الذي رفعه اليسار العربي الراديكالي ، والذي يقول بالتلازم بين النضال القومي والنضال الاشتراكي ، وذلك في غمرة حماسته القومية . وكان هذا يعني ايضا على فشل تجربة التنمية القومية ، ان جاز لنا التعبير ، والتي تصورها بعضهم على انها ستكون نتيجة من نتائج قمة عمان الإقتصادية ١٩٨٠ . وسيقود هذا الفشل سريعا، الى ثورة الخبز التي شهدتها اطراف الوطن العربي وقلبه في نهاية عقد الثمانينات .

اما على صعيد الديمقراطية ، فإن الاعتراف بعجز اليسار العربي الراديكالي القومي عن تحقيقها ، فهذا يعني ان هناك خللاً بنيوياً ، لنقل شرخاً بنيويا في تكوين الأحزاب القومية . الشرخ الذي سرعان ما يقود الى تعميم نموذج الدولة التسلطية على صعيد الوطن العربي ، والتي من شأنها ان تقود الى نتائج كارثية ، تتمثل في حجب الجماهير عن المشاركة والدفاع عن الوطن ، وقسرها على خيارات معادية لطموحاتها القومية. وبذلك كانت الدولة التسلطية العربية بمثابة اعلان حرب على القومية العربية. بالإضافة الى ذلك، فإن التصنيف الذي اعتمدته الندوة في تعريفها لليسار العربي الرادكالي، ظل شاهدا على استمرار الأزمة في صفوف اليسار العربي، ودليلا على استشراء الأدلوجية المتخشبة بين صفوفه. فالتصنيف يقوم على إحداث تضامن نهائي وقطيعة بين اليسار التقدمي واليميني الرجعي وبمثابة اعلان حرب على اليمين . في ذروة انحسار النظام الاقليمي العربي ، وفي نقطة الانعطاف بتوقيع اتفاقية كامب ديفيد ١٩٧٨ . كانت ايران الشاه تمور وهي في حالة غليان شعبي ، وتسارعت الأحداث ، ودخل آية الله الخميني العاصمة طهران مكللاً باكاليل الغار ، وخرج الشاه ليقضي نحبه في مصر السادات . وليدفن في المسجد الذي دفن فيه ابوه ومع ان العرب استبشروا خيراً بمجيئ الثورة الاسلامية في ايران ، وكانت الإبتسامة المفلطحة تغطي وجه الزعيم الفلسطيني ابو عمار. الا ان النتائج سرعان ما جاءت مخيبة للآمال . فمجموع آيات الله كانت تحركهم شهوة ضم الأقطار العربية المجاورة تحت راية تصدير الثورة ، وقد ورثوا هذه النزعة من شاه ايران، ولكن باسم الثورة الاسلامية هذه المرة. وكان كبش الرهان هو العراق . فالعراق مشروخ من الداخل الى شرخين عموديين جعلاه موضع رهان . الشرخ الأول عربي / كردي وايران تملك في هذا المجال ارثا كبيرا في التعامل مع الاكراد لضرب وحدة العراق يعود بجذوره الى التعاون الوثيق بين شاه ايران والملا مصطفى البرازاني . والشرخ الثاني هو الأهم سني / شيعي . فالشيعة في العراق تصل نسبتهم الى اكثر من ٥٠٪ والحركة الأصولية الاسلامية تتمركز في اوساطهم . بالاضافة الى ذلك، فإن هناك شرخا كبيرا تعيشه الأمة العربية بحركتها القومية العربية، والذي شانه – لا نستطيع القول ان هناك شرخا سنيا / شيعيا اذ لو كان هذا الشرخ لاستحال بقاء العراق موحدا حتى الآن. ان يسهل على المعدة الإيرانية ابتلاع العراق ، ثم الاتجاه بعد ذلك الى الخليج العربي ، والذي يضم اقليات شيعية من شأنها ان تكون كما يقول المثل الشعبي (مسمار جحا) .

وجاءت الحرب العراقية الايرانية ، واستمرت زهاء ثماني سنوات، وسط لا مبالاة عالمية ، وأجواء من الاحتفاء بها بالدوائر الامبريالية والصهيونية ، ومراهنات عربية مضمرة وعلنية على سقوط النظام في العراق . ولم تتوقف الحرب الا بعد ان تجرع

الخميني مذاق سمها الأخير ، كما جاء في بيانه الشهير الى الامة الايرانية ١٩٨٨، العام الذي شهد وقف اطلاق النار .

نحو حركة قومية عربية جديدة :

حدثان كبيران بارزان ستشهد الساحة العربية ميلادهما في نهاية عقد الثمانينات . الاول تمثله قوى الانتفاضة الفلسطينية والتي تبرز الى الواجهة كرد فعل حضاري ومقاوم على حالة الانهيار العامة التي اصابت قوى الثورة الفلسطينية بعد هزيمة ١٩٨٢ ,, فعبر ضرب من التقنية جديد (الحجارة) وعزيمة يحدوها الاستشهاد، راح ابطال الحجارة يجدون العزم على امكانية المواجهة والصمود في وجه الهجمة الصهيونية والامبريالية على المنطقة .

ام الحدث الثاني ، فيتمثل في بروز العراق بثقله العسكري وبإمكانيته الإقتصادية والبشرية كقوة اقليمية داخل القلب العربي ، وتجددت الآمال القومية بالدور الكبير الذي يمكن للعراق ان يلعبه ، كونه الطرف المهم في المعادلة القومية بعد غياب مصر ، وتجددت الآمال ايضا عند المفكرين العرب القوميين بنظريتهم السياسية ، التي تقول بأهمية الاقليم – القاعدة في العمل القومي ، اهميته كقاعدة للإنطلاق والعمل على صعيد الأمة ككل .

وسط هذا كله ، كان الشعور القومي عند المفكرين العرب القوميين ، وكذلك المثقفين العرب القوميين ، يدفع باتجاه نظرة جديدة للحركة القومية العربية لنقل باتجاه تأسيس حركة قومية عربية جديدة فقد آن الأوان (٣٦) كانت الحاجة الى حركة قومية عربية جديدة تتنامى وتمليها اعتبارات عديدة .

أولاً : فأمام الهجمة الامبريالية الجديدة ، والتي تستهدف تمزيق الامة الى دويلات وطوائف ، كان على المفكر القومي العربي ان يعيد النظر في حساباته ، في اطار سعيه الى تأسيس حركة قومية عربية جديدة ، وكانت اعادة النظر تهدف الى تجسير الفجوة بين المثقف القومي وتراثه ، بصورة ادق ، بين العروبة والإسلام . وكان هذا بمثابة اقرار ضمني بفشل الاتجاهات المتطرفة التي سعت في مطلع عقد السبعينات الى تأسيس الفكر القومي على اسس ماركسية ، الاتجاهات التي دعت الى المصاهرة والتصالح بين ما هو قومي وما هو ماركسي كذلك الاتجاهات العلمانية التي دعت الى فصل الدين عن الدولة في سعيها لتحقيق مبدأ المواطنة .

ثانياً : في اطار عملية تهدف الى لم الشمل ولملمته ، كان على الحركة القومية العربية الجديدة ان تقيم جسوراً للحوار مع القوى الثورية الاسلامية كقوى اجتماعية، وكحقيقة موجودة ، شرط ان يكون أطارها المرجعي عربيا وديمقراطيا :. وذلك ان حركة اسلامية

معادية للعروبة ، اودت توجهات خارج هذا الاطار ، من شأنها ان تعود بناء الى المشهد الأول (مشهد التجزئة)» (٣٧) وقد شهد عقد الثمانينات في نهايته اكثر من ندوة لحوار قومي / ديني .

ثالثاً : اذا كانت الاحزاب القومية التقليدية (حزب البعث العربي الاشتراكي بجناحيه، وحركة القوميين العرب وغيرهم)، لم تنجح في مهمتها القومية ، او هي كرست التجزئة باسم ماهو قومي ، او هي لم تستطع انجاز هذه المهمة وعلى حد تعبير مفكر قومي عربي،(٣٨) فإن الحاجة الآن تتزايد وفي اطار الدعوة الى حركة قومية عربية جديدة الى حزب قومي عربي جديد ، يكون بمثابة التعبير الحي عن طموحات الحركة القومية العربية الجديدة وراح من ينظر له ، ليؤكد على شعبيته وديمقراطيته(٣٩) .

رابعاً : كانت الدعوة الى تأسيس حركة قومية عربية جديدة ، تفض الاشتباك وتدعو الى تعاون استراتيجي بين فصائل الثورة العربية ، أقول : كانت هذه الدعوة تتمفصل مع دعوة اخرى تهدف الى تجسير الفجوة بين المثقف والمفكر القومي وبين الأمير القومي ، ان جاز لنا التعبير . وذلك انطلاقا من المصلحة القومية المشتركة لكليهما ، بالاضافة الى اعتبار مهم ، ويتمثل في تخلف العمل الفكري القومي عن العمل السياسي ، وبهذا التجسير يهدف الى المفرك والمثقفين القومي العربي الى تقديم النصح للأمير القومي . نصحا يتجاوز حدود النصح . ليصب في اطار جهد فكري يجمع الجميع . .

يقول خير الدين حسيب : «لم يقم التيار القومي بعمل وجهد فكري ، نظري وتطبيقي ، كاف يسبق العمل السياسي القومي ويوازيه ويدعمه ، ويطوره ويجنبه بعض الاخطاء . وقد ظهرت اهمية هذا النقص وآثاره السلبية بشكل اوضح عند وصول هذا الفصيل من التيار القومي او ذاك الى السلطة ، في الخمسينات والستينات . فلم يكن هناك جهد فكري واضح حول شكل الوحدة وصيغها ومؤسساتها وقواها وآليات الوصول اليها وموقف القوى الاجتماعية منها » .(٤٠)

ومع نهاية عقد الثمانينات وأول هلال عقد التسعينات . كان الفكر القومي العربي قد رفع راية التجديد وعلى ثلاثة محاور .

أولا : الدعوة الى حركة قومية عربية جديدة ، حيث يرتبط بالقدرة على الانفتاح والحوار ، وتجاوز التابوات المفروضة .

ثانياً : الدعو الى حزب قومي عربي جديد ، حيث يرتبط جديدة أيضا ، يتجاوز الهياكل التقليدية للحزبية العربية ، وبقدرته على اختراق السياجات الدوغمائية المغلقة .

ثالثاً : البحث عن نظرية قومية عربية جديدة بحجم التحديات (٤١) .

كانت الدعوة الى التجديد تسير بموازاة بروز العراق كقوة اقليمية كبيرة، ترفع شعار الوحدة العربية ، وقد غذى هذا البروز املاً دفينا عند القوميين العرب . فقد حرك اولا املا بامكانية وبصحة فرضية الاقليم – القاعدة . ودوره كقاعدة للإنطلاق باتجاه الوحدة الاشمل . حتى وإن رأى فيها بعض المثقفين العرب فرضية غير اجرائية وغير علمية (٤٢) وحركت ثانيا الميول البسماركية للرئيس العراقي صدام حسين املا اخر لتحقيق شكل من اشكال الوحدة العربية . وكان الفكر القومي العربي قد توقع بروز البسماركية على الساحة العربية ، وجاء من يتحدث عن أن «النمط البسماركي ، لم ينته بعد » (٤٣) وانه من الممكن ان يقدم خدمة كبيرة للوحدة العربية، فرغم ما في هذا الاسلوب من العدوانية ، ورغم ما يثيره من نعرات والتباسات ، فإنه يخلق وضعا جديدا، يطرح مهمات قومية جديدة يمكنه دون ان يلامس سقف الخيار الثوري الديمقراطي الشعبي في تحقيق الوحدة العربية القومية .

كان الوعي القومي العربي مخزونه الثقافي الذي ولدته احداث الخمسينات والستينات والسبعينات، قد توصل الى قناعة اكيدة، وهي ان العامل الخارجي لا يزال يلعب دورا كبيرا في اعاقة الوحدة . وجاءت استطلاعات الرأي العام العربي لتؤكد على اهمية هذا الدور في اعاقة العمل الوحدوي ، وجاءت آراء المبحوثين مؤكدة بنسبة ١٠,٢٪ من الأردن و ٩,١٨٪ من لبنان و ١,٣٨٪ من الكويت ، على ان حكومة الولايات المتحدة الامريكية هي العائق في طريق الوحدة العربية . (٤٤) ومع تسارع الأحداث جاءت حرب الخليج الثانية ، لتؤكد مصداقية ونبوءة الفكر القومي منها هي الولايات المتحدة الأمريكية تتزعم حربا عالمية ثالثة على العرب والعروبة . فالعرب هم كما اكد وزير الخارجية الفرنسي رولان دوما ذلك مرتين والمنطقة هي منطقة شرق اوسطية ، خليط من اثنيات واقليات . يقع عائق حمايتها وبعثها الى الواجهة على عاتق حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ، يقول ريتشارد مورفي وكيل وزارة الخارجية الامريكية لشؤون الشرق الأوسط في عهد الرئيس رونالد ريغان . وفي محاضرة ألقاها في مدرسة لندن للإقتصاد نيسان / ابريل ١٩٨٩ ، في تعريفه لمفهوم الشرق الأوسط ، المنطقة هي منطقة الشرق الأوسط . وهي تغص منذ عشرات القرون بشعوب وأثنيات ودول وأديان ومذاهب متنافرة . لكن لكل شعب فيها حق العيش باستقرار وسلام ، داخل حدود آمنة . وليس هذا حقا للشعب المعني فقط ، بل للعالم كله وأمنه وسلامه . فالشرق الاوسط مجتمع اعصاب العالم القديم، كطريق مواصلات دولية هامة . وحديثا اضيف الى ذلك ، وجود الثروات الطبيعية الضخمة فيه ، الضرورية لتقدم العالم ودائما كانت هناك قوة أو قوة كبرى . يقع على عاتقها (ضمان الأمن والاستقرار لمصلحة الجميع . ونحن هذه القوة الآن . ولا نستطيع التهرب من مسؤولياتنا)(٤٥) .

في نهاية الحرب العالمية الاولى ، كان نصيب المنطقة العربية التقسيم الى دويلات طائفية وأثنية وقبلية، وذلك من اتفاقية سايكس بيكو الشهيرة ، ١٩١٦ التي قسمت المشرق العربي ، الى مؤتمر العصير ١٩٢٢ الذي رسم حدود دويلات مجلس التعاون

الخليجي الحالي بريشة المستر بيرس كوكس المندوب البريطاني . ومع الحرب العالمية الثالثة الجديدة التي قادتها الولايات المتحدة الامريكية ضد العرب، لم تستطع الولايات المتحدة اخفاء نواياها ، فأعلنت الشمال العراقي منطقة حماية امنية . ثم اعلنت الجنوب الشيعي من خط عرض / ٣٢ / الى الجنوب منطقة حماية امنية بهدف تقسيم العراق الى ثلاث دويلات . سنية في الوسط ، وشيعية في الجنوب وكردية في الشمال . وتحدثت الصحف عن سيناريوهات متوقعة حول تقسيم المنطقة الى دويلات طائفية وأثنية ، وباتت خطة «اسرائيل» التي اعلنت في الثمانينات وكأنها قاب قوسين او ادنى .

امام هذا كله ، تجد الحركة القومية العربية الجديدة ، التي بدأت نواتها في الدعوة الى مؤتمرات قومية عربية يراد لها ان تكون بحجم التحديات(٤٦) تجد نفسها وجها لوجه امام اعدائها التاريخيين بدون متسع الوقت ، فما حدث من نتائجها ، وهي بذلك مطالبة بان تتجاوز هياكلها التقليدية القديمة ، وتلتحم بالجماهير العربية المسحوقة تحت وطأة الزحف الاستعماري الجديد ، وطلائعه من صواريخ كروز وقاذفات عملاقة من طراز ب / ٢٥ / ولعلنا لا نغالي اذا قلنا ان عقدنا الحالي ، وبداية العقد القادم من القرن القادم ، سيشهدان بروز حركة قومية عربية جديدة ، بحجم التحديات ، هي ناتج عملية مراجعة كبيرة لمسيرة الحركة القومية العربية ولخطابها القومي . ولا نغالي ايضا اذا قلنا ان البطل الايجابي على مسرح الاحداث العربية في العقدين القادمين، سيكون القومي العربي مزودا بمنهج جديد، وبرؤية جديدة .

الهوامش

١- أ . حسن البدري ، في الوحدة والتعاون العسكري والعربي ، المستقبل العربي ، عدد ١١ (١/ ١٩٨٠) ص ٦-١٥ .

ب . ناجي علوش ، الوحدة العربية ، المشكلات والعوائق (الرباط ، المجلس القومي للثقافة العربية، ١٩٩١) ص١١٢ .

٢- لطفي الخولي وابو سيف يوسف ، اليسار العربي الراديكالي (مواقفه ، ازمته، رؤيته المستقبلية)، ضمن كتاب دراسات في الحركة التقدمية العربية (بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧) ص ٥٢-٣٣ .

٣- عبدالعزيز الدوري ، دراسات في القومية العربية (بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٦٠) ص ٢٢ . نقلا عن الجابري ، الخطاب العربي المعاصر ، ص ١٠٠ .

٤- عبدالله العروي ، العرب والفكر التاريخي (بيروت ، دار الحقيقة ،١٩٧٣) ص ٩١.

٥- ناجي علوش ، حول ازمة الفكر العربي ،ص ٣-١٧، دراسات عربية ، السنة /١٧/ العدد /٧/ ، ايار (مايو) ١٩٨١.

٦- خلدون حسن النقيب ، الأصول الاجتماعية للدولة التسلطية في المشرق العربي ، العدد ٨٢/٧٢ ،ص ١٢٩-٢٣٥، مجلة الفكر العربي المعاصر . خريف ١٩٨٢

٧- محمد عابد الجابري ، العقل السياسي العربي (بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٠).

٨- هذا ما يراه كل من سمير امين ومطاع صفدي ويشاركهما بذلك العديد من المثقفين العرب القوميين فالحرب بكل معانيها كانت حربا على القومية العربية وبذلك فهي حرب كل العرب .

٩- سمير امين ، ازمة المجتمع العربي (القاهرة ، دار المستقبل العربي ، ١٩٨٥)ص ٤٠ .

١٠- المصدر نفسه ، ص ٤٠-٤٢ .

١١- لقد عبر الانتولوجي الفرنسي ستروس مرارا عن خوفه من الاسلام في كتابه المرسوم بـ «مدارات حزبية» ويقود بعض المستشرقين الاوروبيين الجدد هجمة ضارية على الاسلام جاءت متزامنة مع حرب الخليج الثانية، يقول جان كلود بارو Barreau في رؤيته للقرآن ، نص مضجر جدا، بدائي جدا ، لا يمكن مقارنته بالكتب الدينية الانسانية الكبرى ، انظر مجلة الفكر

العربي المعاصر ، العددان ٩٢/٩٣ ، ص١٠٥.

١٢- سمير امين ، ما بعد الرأسمالية (بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية، ٨٨٩١) ص ٨٥.

١٣- فرانسيس فوكوياما ، نهاية التاريخ ، ص ٨٧-٩٨، الفكر العربية المعاصر ، العدد ٨٢/٨٣ ، نوفمبر / ديسمبر ١٩٩٠ .وهذه الاطروحة في غاية البساطة وتعد امتدادا فكريا حقيقيا يشرعن للحداثة الرأسمالية المدعومة بالقاذفات العملاقة وبحقوق الانسان التي قدمت قربانا على مذبح المصالح الامريكية .

١٤- جورج قرم ، انفجار المشرق العربي (بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٨٧) ص ١٦-١٧ .

١٥- تركي علي الربيعو ، مدخل الى ظاهرة العنف في الخطاب السياسي السلطوي ، مجلة الوحدة ص ١٢٩-١٤٦، العدد / ٨١/ يونيو ١٩٩١ .

١٦- سمير امين ،أزمة المجتمع العربي ، ص ٩٥ .

١٧- جميل مطر وعلي الدين هلال ، النظام الاقليمي العربي ودراسة في العلاقات السياسية العربية (بيروت مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٣) ص٨٦ .

١٨- المصدر نفسه ص١٠٨ .

١٩- المصدر نفسه١١٤.

٢٠- محمد جابر الانصاري ، تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي ١٩٣٠-١٩٧٠ ، سلسلة عالم المعرفة - العدد / ٣٥/ المجلس الوطني للثقافة - الكويت ص ٢٢٤ .

٢١- أ - سعد الدين ابراهيم ، تجسير الفجوة بين المفكرين وصانعي القرارات في الوطن العربي ، ص ٤- ٣١، المستقبل العربي العدد / ٦٤/ حزيران يونيو ١٩٨٤.

ب - تركي علي الربيعو ، ازمة الفكر العربي في مواجهة عصر الثروة النفطية، التعاون، العدد السادس ، ابريل ١٩٨٧ ، ص ١١٠-١٣٠ .

٢٢- عبد الله بشاره ، دور مجلس التعاون في تحقيق الوحدة العربية، ص ١٢٥-١٥٨ ، مجلة التعاون ، السنة الاولى ، العدد الأول ربيع الآخر ١٤٠٦ يناير ١٩٨٦م .

٢٣- عبد الله العروي ، العرب والفكر التاريخي ص ١٧٥.

٢٤- ياسين الحافظ ، الهزيمة والايديولوجيا المهزومة (بيروت دار الطليعة ، ١٩٧٨) ص ٢٢-٢٣.

٢٥- المصدر نفسه ، ص ٢٣-٢٤ .

٢٦- الياس مرقص ، مجلة الواقع ، العدد الأول .

٢٧- احسان فراشي، المدخل الى تطبيق الماركسية في الواقع العربي (بيروت ،دار الحقيقة ، ١٩٧٥) ص ٧٩-٨٠.

٢٨- أشير هنا الى كتاب جورج قرم الموسوم بـأوروبا والمشرق العربي ، من البلقنة الى اللبننة (بيروت، دار الطليعة ، ١٩٩٠) .

٢٩- محمد حسنين هيكل ، حرب الخليج ، اوهام القوة والنصر (القاهرة ، مركز الاهرام للنشر ، ١٩٩٢) ص ١٢٠ ، ويقول: مؤلفا النظام الاقليمي العربي «تعمدت الدبلوماسية الامريكية تضخيم صورة الرئيس المصري كقيادة على مستوى مختلف عن القيادات العربية الأخرى، وركزت على الجانب الحضاري في الثقافة المصرية في مقابل التركيز على الجانب المتخلف في الثقافة العربية، وقد وجدت هذه الصيغة وهذا التضخيم قبولا لدى الرئيس المصري لأسباب تتعلق بمقوماته الشخصية والنفسية وبتاريخه قبل وأثناء الثورة المصرية ص ١١٥، ويذكر حسنين هيكل في كتابه الموسوم ب « خريف الغضب » محاولات السيدة جيهان السادات لاثبات اصلها الانكليزي .

٣٠- خلدون حسن النقيب ، المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية (من منظور مختلف)، الفصل الخامس من الدولة الربعية الى الدولة التسلطية ، ص ١٠٣-١٣٢ ، (بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٧٨).

٣١- محمد حسنين هيكل ، حرب الخليج ، ص ١٦٧.

٣٢- عبد الله بشارة ، مجلس التعاون اقطار نحو المحطة الأخيرة، مجلة التعاون ، العدد / / تاريخ.

٣٣- الحياة ٢٥/ ٥/ ١٩٩٠ وحول اطروحة فؤاد عجمي .

Fouad Ajami , The End of Pan Arabism. Foreign Affaris , VOI . 57. no 2 (Winter 1970) PP 355 - 368 . - 1978

٣٤- لطفي الخولي وأبو سيف يوسف ، مصدر سبق ذكره ، ص٣٣ .

٣٥- وانظر رد الدكتور حسن نافعة على اطروحة عجمي تحت عنوان « القومية العربية والتفكك في الوطن العربي» المستقبل العربي ، العدد / ٣٥/ كانون الثاني / يناير ١٩٨٢ .

٣٦- انظر المقدمة التي كتبها محسن عوض لندوة الحوار القومي الديني ، ص ٨ (بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٩).

٣٧- خير الدين حسيب ، المصدر السابق ، ص ٢٣ .

٣٨- ناجي علوش ، الوحدة العربية ، المشكلات والعوائق (الرباط ، المجلس القومي للثقافة العربية ، ١٩٩١) ص ٣١١ .

٣٩- ناجي علوش ، المصدر السابق ، ص ٣١١ .

٤٠- خير الدين حسيب ، المصدر السابق ، ص ٢٧٥ .

٤١- هذه الدعوة جاءت في كتاب الدكتور محمد شيا الموسوم بـ « جدلية التفتت والوحدة في المشرق العربي» (بيروت ، معهد الانماء العربي ، ١٩٩١) ص ٣٤١ . وهي دعوة قديمة / جديدة . فقد دعا المفكر القومي ناجي علوش الى ذلك في مطلع عقد السبعينات ، مجلة دراسات عربية اكتوبر ١٩٧١ .

٤٢- محمد عابد الجابري ، الإقليم القاعدة مقولة غير علمية وغير اجرائية ، مجلة اليوم السابع ، العدد / ٢٢٩/ تاريخ ٢٦/٩/١٩٨٨. نقلا عن ناجي علوش ، المصدر السابق ص ١١١ .

٤٣- ناجي علوش ، المصدر السابق ، ص ١١٣ ، ص ١١٢ .

٤٤- ناجي علوش ، المصدر السابق ، ص ٨٦ .

٤٥- رضوان السيد ، ندوة الحوار القومي الديني ، ص ٧٨-٧٩ .

٤٦- كان المؤتمر القومي العربي الأول قد عقد في تونس اوائل آذار / مارس ١٩٩٠ ،وعقد المؤتمر الثاني في عمان بعد حرب الخليج ، اما المؤتمر القومي الثالث فقد عقد في بيروت ، ١٩٩٢ . وتعد هذه المؤتمرات ظاهرة ايجابية في حركية ثقافتنا العربية القومية المعاصرة .

العرب ومشروع الوحدة العربية

أ. ناجي علوش

-١-

لنعترف، بادي ذي بدء، أن مشروع الوحدة العربية الذي أطلق، منذ أواخر القرن الماضي، لم يتحقق.

ولنعترف أيضاً أننا اليوم، لسنا أمام مشروع جاهز، قابل للتنفيذ على الصعيدين النظري والعلمي.

ولنعترف، فوق ذلك، أننا اليوم أمام مخاطر الشرذمة، أكثر من أي وقت مضى لثلاثة أسباب رئيسية:

الأول: تفرد حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بالقيادة العالمية، بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، وتوافر الظروف الملائمة لممارسة حكومة الولايات المتحدة الأمريكية هيمنتها العالمية، وتطبيق سياستها في الشرذمة والتفكيك والتركيب، كما جرى في الاتحاد السوفياتي، وكما لا يزال يجري في يوغسلافيا، وأنحاء مختلفة من العالم.

ويتضمن هذا البرنامج إثارة أوسع الصراعات لاستنزاف القوى، وتهديم البنى الاجتماعية والاقتصادية وبناء تجمعات اقتصادية «ما فوق قومية»(١). ومن ثم استخدام القوة لفرض السلام الأمريكي الذي يبرر استخدام القوة الامريكية، باسم الأمم المتحدة، وبحجة إنقاذ الآمنين، وإطعام الجياع. ولكن استخدام القوة، يُتبِع هذه البلدان، ويبقيها ممزقة، حتى ولو جرى الحديث عن عودة الدولة ..الخ.

الثاني: تخلخل النظام القطري العربي، نتيجة العجز الشامل الذي أكده في كل الميادين:

١- ففي ميدان التنمية، برز فشل تام لأن الاستيراد مازال يتسع، حتى في قضايا الغذاء، ولأن مستوى المعيشة ما زال يتدهور بالنسبة للأكثرية من الشعب؛ وتتعمق الآن أزمة المديونية، والأزمة الاقتصادية العامة، بسبب إسراف الفئات

الحاكمة وتبذيرها، وخلل برامجها الاقتصادية العامة، ونتيجة التزايد السكاني الكبير، وانخفاض أسعار الخامات.

٢- وفي ميدان الدفاع عن الوطن، أثبتت هذه الأنظمة أنها ضعيفة، أمام عدو مثل العدو الصهيوني، الذي استطاع أن يحتل الأرض، وأن يفرض الحل الذي يريد.

ويتفاقم الأمر، في هذا الميدان، منذ توقيع اتفاقيتي كمب ديفيد. وجاءت حرب الخليج (١٩٩٠- ١٩٩١)، لتكشف درجة الهشاشة والضعف، ولتثبت «استسلامية» النظام القطري العربي. وتأتي الآن اتفاقية غزة - أريحا لتخطو خطوات واسعة، نحو المزيد من الاستسلام العربي.

٣- وفي ميدان العلاقة، بين الأنظمة وجماهيرها تزداد العلاقات تدهوراً، نتيجة ما تمارسه هذه الأنظمة من قمع، وبسبب تمسك الفئات الحاكمة بمبدأ اغتصاب السلطة، والاستخفاف بإرادة الشعب.

وهذا التخلخل، إذا ما نظرنا إليه، ضمن إطار السياسة الامبريالية عامة، والامريكية خاصة، وجدنا أنه يدفع إلى تفكيك هذه الأقطار، كما هي حالة مصر والجزائر والعراق والسودان، وكما هو مخطط بالنسبة لأي قطر عربي آخر، من سوريا إلى المغرب.

الثالث: تراجع القوى الوحدوية السياسية العربية الشعبية، في العقدين الماضيين، وتحولها إلى قوى ثانوية في الصراع الكبير.

ونحن الآن نعيش دون حركة عربية قومية موحدة، ودون حزب، يحظى بتأييد قومي واسع، خارج حدود قطره.

وفي هذا الوقت، تفرّخ الأنظمة القطرية أحزاباً وقوى قطرية، تكرس الواقع القطري، وتدافع عنه.

وأمام ذلك كله، يبدو الوضع العربي، أميل إلى التمزق والتشرذم.

فكيف سننظر إلى قضية الوحدة العربية؟.

-٢-

إن قضية الوحدة، في هذا الواقع، تبدو أكثر ضرورة من أي وقت مضى.

فهي، أولا، ضرورة لمواجهة مخاطر العدوان والمطامع الخارجية، وخاصة مخاطر العدوان الأمريكي والدول الامبريالية عامة، وإن كانت مطامع الولايات المتحدة الامريكية،

هي الأساس، لأن حكومة الولايات المتحدة، التي انتزعت القيادة العالمية، لديها برنامج محدد لهذه البقعة من العالم التي تضم الوطن العربي، وسائر أقطار الشرق الأوسط.

وتترافق مع هذه المطامع مطامع الحركة الصهيونية، وحكومة «إسرائيل» بالسيطرة على الوطن العربي، وخاصة بلاد الشام، ووادي الرافدين ووادي النيل.

وتأتي من جهة أخرى مطامع دولتي تركيا وإيران، لتزيد الطين بلّة، ولتفتح أبواب كل الاحتمالات الخطيرة.

وهي، ثانياً، ضرورة لوضع أساس تنمية اقتصادية، توفر حاجة المواطنين المتزايدة، وحاجات بناء دولة كبيرة وقوية، وتواجه مخاطر المجاعة والمديونية والتكاثر السكاني المتزايد.

وكلما اشتد العدوان، واتسع مدى الاستسلام، وتفاقمت الأزمة الاقتصادية، كلما طرحت قضية الوحدة حضورها، رغم كل محاولات البلبلة والتشتيت والشرذمة.

-٣-

ولكن هذا الشعور الذي يخامرنا، ونحن نرى ما نرى من عوامل الضعف والانقسام، ومخاطر العدوان والاستسلام، يواجه، بالإضافة إلى ما ذكرنا من عوائق، عوامل أخرى، ومن أبرزها إثنان:

الأول: فشل دعوات الوحدة السابقة، دون حاجة لمناقشة الأسباب. لأن توالي الفشل، لا يشجع على التفاؤل.

الثاني: غياب أية قوة تبدو مؤهلة، سواء كانت دولة أو حزباً. فقد حوصرت محاولة جمال عبد الناصر، ومحاولات حزب البعث في سوريا والعراق، كما ضربت محاولة محمد علي، في القرن الماضي. ونمت في ظل الجامعةالعربية، كل مقومات القطرية. ولم ينجح أي اتحاد ثنائي، أو تجمع إقليمي، في اختراق أسوار القطرية التي ترتفع.

ونمت بالمقابل اتجاهات ايديولوجية، تتخطى الوحدة القومية، كاتجاه الاستسلام السياسي الذي يعتبر القومية العربية مؤامرة استعمارية(٢)، أو اتجاه العدمية القومية Cosomoplitan الذي ينحو إلى عالمية، لا تستند إلى أساس قومي، ولا ترى غير عالم الشركات المتعددة الجنسيات.

وفي الواقع، أخذ التفتت يذر قرونه إثنياً وطائفياً ومذهبياً ودينياً، وها هو يأخذ أبعاده جهوياً.

وأمام ذلك كله، يبدو أن القومية عامة تغيب عن المسرح، وأن القومية العربية في طريقها إلى الزوال؛ وكأن الذين تحدثوا عن موت القومية العربية، قبل سنوات، كانوا يعرفون ما سيجري (٣).

فهل ننفض عقولنا، لنخرج منها القومية العربية؟.

وهل سنتحول إلى دول مناطق وطوائف واثنيات؟..

هذا ما يجب أن نناقشه.

— ٤ —

لنعترف مجددا، أننا، ونحن نرى مشروع الوحدة يواجه عقبات تتزايد وتتعقد، نرى وحدة الأقطار العربية الراهنة أمام مشروع تشرذم كبير. ويعود ذلك الى ثلاثة أسباب رئيسية:

الأول: وجود مخطط دولي، ترعاه حكومة الولايات المتحدة لتفتيت العالم الثالث، وفي القلب منه الوطن العربي. وهذا المخطط، لا يستند الى تأجيج الصراعات الطائفية والمذهبية والاثنية فقط، بل يقوم الى جانب ذلك، على قاعدة: الحكومة المحلية ضد الحكومة القومية.

وهذه القاعدة، تستند الى أن دور الحكومة القومية انتهى، وأن دور الحكومة المحلية هو المطلوب (٤).

وبينما تفرز هذه الأطروحة روح التفتيت، باثارة كل النزاعات والمنافسات والمحلية، تضعف الاتجاه الى قيام الدولة الدينية، وتفسخ الاقطار التي تسكنها اكثرية موحدة قومياً ودينياً مثل مصر.

وهذا المخطط الامبريالي المطروح نظرياً، يجري تطبيقه عملياً، في انحاء العالم الثالث المختلفة. وها هو يطبق في الاتحاد السوفياتي السابق، ويوغسلافيا السابقة، وفي أنحاء مختلفة من آسيا وافريقيا.

وهدف هذا المخطط، كما بينا أكثر من مرة، تهديم بنى الدولة والمجتمع، واستنزاف الطاقات في حروب داخلية، وتحويل دول العالم الثالث إلى دويلات مقزمة، تتسول على أبواب الدول العظمى، وتفتح أبوابها لكل أنواع السلع، بلا حدود، وتصدر الخامات بأرخص الأسعار، حسب برنامج الشركات المتعددة الجنسيات(٥).

وفي مثل هذه الأجواء، يصبح مطمح بعض القادة الفلسطينيين إلى إقامة دويلة مقزمة في ظل الاحتلال الصهيوني، كما يصبح مطمع قادة البوليزاريو إقامة دولة مماثلة، في ظل الحماية الدولية، أو أية حماية ممكنة، إسهاماً في تنفيذ هذا المخطط الدولي. وهذا ما عزمت عليه «القوات اللبنانية يوماً» ، وما يسعى له بعض القادة الأكراد في شمال العراق، وبعض الطامحين في جنوب العراق. وسنرى مثل هؤلاء قريباً في الجزائر ومصر، وأنحاء الوطن العربي المختلفة. كما نرى أمثال هؤلاء في الهند، وأماكن من العالم.

الثاني : تخلخل النظام القطري العربي. لأن هذا النظام الذي حاول أن يجعل حدود الأقطار حدود أمم، وأن يقيم دولة على أساس التنافر مع دول الجوار، وأن يعبئ جماهيره بالولاء للأنظمة لا للأمة ولا للوطن، عجز في كل الميادين عن بناء أساس للدولة، لأنه:

١- حوّل الدولة، من دولة كفاف، تتلقى بعض المعونات، الى تبعية اقتصادية كاملة للنظام الرأسمالي العالمي.

٢- حول السلطة، من سلطة بدائية، الى دولة أجهزة القمع ، بلا مؤسسات وبلا قانون.

٣-اتجه الى سياسة اللعب بالتناقضات، ورعاية المؤسسات التقليدية الموروثة، من العهد العثماني والاستعماري ، والاعتماد على بعضها دون بعضها الآخر، بدلاً من أن يتجه الى سياسات الاندماج الاجتماعي التي لم يؤهل أساسا لها.

٤- استخف بالشعب وإرادة الشعب، وأحل مكانها إرادة الفئة الحاكمة.

وأدى ذلك الى اختلال كبير، بين ما هو محلي وما هو قومي، وما هو وطني وما هو تبعي، وما هو سلطوي وما هو شعبي.

أصبح القطري ضد القومي، والطائفي ضد القومي - الوطني ، وصارت التبعية أساس السياسة والاقتصاد، وصارت السلطة مجرد أداة قمع فاسدة.

وبينما نمت طبقات متسلطة في كل أركان الوطن، تدهورت حياة المواطنين الى درك المهانة والجوع.

ورغم ان كل سلطة استقوت على شعبها استقواء لا حدود له، كما هي الحال في كل مكان، كانت هذه السلطة تضعف في عيون شعبها، لأنها تعجز عن حل مشاكل الماء والغذاء والعمل، وتتنازل للأعداء عن الأرض والسيادة القومية، وتنهب الثروات وتبددها، وتختار أفسد الفاسدين، وأعجز العاجزين، ليكونوا رجالها وممثليها في كل الميادين.

ولما كان أفق التغيير مستحيلاً، عن الطريق الديموقراطي، وكان القمع يشتد، «والديمقراطية» تتحول الى أداة بيد الأنظمة القائمة لاستمرار قمعها ونهبها، فان ذلك قاد الى ما يجري في مصر والجزائر، وسيقود الى تجارب مماثلة في أقطار أخرى. وإذا كنا قد واجهنا العنف القومي أو الماركسي في العقود ١٩٢٠ - ١٩٧٠، فقد بدأنا نشهد العنف الديني والطائفي والمحلي منذ ١٩٧٠.

وفي ظل هذا كله ظل الخلاص من الطغيان مطلب الجماهير الواسعة وأملها.

ولكن دول الأقطار التي لم تتقدم على طريق الوحدة القومية، لأنها ليست مؤهلة لذلك، بحكم طبيعتها وارتباطاتها، لم تعمل على بناء الدولة الديموقراطية للأسباب عينها، أخذت تسير بسرعة، على طريق التشرذم، أي الانقسام الى عناصرها الأولية.

وحيث تقوم الدولة بدور من أدوارها المطلوبة، أو حيث امتلكت نوعاً من القوة، فان حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، وحكومات الدول الرأسمالية تقوم بدور المولد القانوني للتشرذم والانقسام على أسس اثنية حقيقية او مصطنعة؛ وطائفية مفتعلة، وعلى أساس مشاريع سلطة بلا اساس، مثل البولساريو، او تغذية مطامح بلا مقومات، مثل مشروع الدولة الفلسطينية.

ان النظام القطري العربي، بعمله الدائب على تعقيد أزماته، وبهربه من الوحدة القومية والدولة المعاصرة، يُفَرِّخ صراعاته وتشرذماته، أو يورث قواه التقليدية التي غذاها ورباها، خشية القومي والجذري والمدني، بقايا سلطاته المتداعية.

ولكنه، وهو يحتضر، يفرخ قوى مقزمة اكثر شراسة وتخلفاً ونهباً، وأكثر انسجاماً مع تطلبات «النظام الدولي الجديد».

الثالث: عجز الحركة القومية - الديمقراطية عن أداء دورها. فقد عجزت عن أن تكون قومية، بمعنى أنها عجزت عن أن تمثل إرادة الأمة العربية، وإرادة وحدتها، حتى ولو مثلت بعض النخبة، أو كانت حزباً، أو دولة. لأن تمثيل إرادة الأمة، يتطلب تجسيد مصالح الأمة كلها، والتعبير عن مطامحها، وامتلاك القدرة على ذلك نظرياً وعملياً. وهذا يشترط اندماج الثورة القومية بالثورة الديمقراطية نظرياً وعلمياً. كما يشترط اقتناع جماهير الشعب بخط الحركة القومية وسياساتها.

وإذا كنا قد رأينا إرهاصات ذلك مع جمال عبد الناصر، فإن هذه الارهاصات ما لبثت أن تبددت، بسبب القصور في برنامج جمال عبد الناصر، وبنية قيادته. ولم نر هذه الارهاصات الا مع التحدي العراقي للنظام القطري العربي وللهيمنة الامبريالية، سنة

١٩٩٠. الا أن هذه الارهاصات التي لم تعش طويلاً، ما لبثت أن تبددت، تاركة مرارة كبيرة وحلماً كبيراً لم يتحقق.

ونحن الآن، بلا حركة قومية شعبية وشاملة، وبلا حركة ديموقراطية، عميقة وشعبية، وبلا قوة مواجهة كبيرة. إن عجز الحركة القومية هذا، ساعد على تفاقم الدور الامبريالي، وسمح باستعادة القوى التقليدية (محلية وطائفية واثنية) من تخلخل النظام القطري، لأن النظام القطري أعدّها لهذا الدور، ولأن القوى الامبريالية الدولية، ساعدت في ذلك مساعدة كبرى، فهل يعني ذلك كله، من تفاقم الخطر الامبريالي، الى تفاقم مشاكل النظام القطري، ومن ازدياد مخاطر التشرذم الى عجز الحركة القومية، أن المستقبل صار ملك الامبريالية والتشرذم والهزيمة...؟!. وهل نحن في مرحلة موت الأمة العربية، لا في مرحلة انبعاثها، كما نعى النعاة؟.

—٥—

إننا لسنا من مرددي صرخات النعاة،. ورغم أننا نرى المخاطر تتراكم، نتيجة الأسباب التي ذكرنا، فإننا نرى أن هناك عوامل تدفع باتجاه الوحدة القومية، رغم كل عوامل الفرقة والتشرذم.

ويمكن إيجاز هذه العوامل بما يلي:

أولاً: إن التحدي الامبريالي الذي أخذ يهدد وجود الأمة، منذ بدايات القرن التاسع عشر، ما زال يهدد وجودها. وهو اليوم، ومنذ الهجوم الامبريالي الدولي على العراق، والحصار على ليبيا والسودان، يزيد المخاطر على وجود الأمة، ويعقد سبيل وحدتها وتقدمها.

إن هذا التحدي المصيري، لا يمكن أن يمر بدون مواجهة. واذا كانت المواجهة في الماضي قد فشلت أو قصّرت، رغم مستوى التضحيات وحجمها، فإن دروس الفشل الماضي، لا بد أن تعلمنا كيف نواجه الآن وفي المستقبل.

وهناك ما يؤكد أننا نتعلم، ولو ببطء، وأن مقاومتنا تتطور. والذي يدرس تاريخ المقاومة العربية من أحمد عرابي حتى الآن، يلمس مظاهر التطور فيها.

وهذا يعني أن مخطط سايكس– بيكو واجهته ثورات وانتفاضات وحركات سياسية. ورغم أنها لم تحبطه، فإنها كانت دروساً لمواجهة المخطط الجديد.

هذا يعني أن المخطط الجديد الذي يعرض كل وجود الأمة للخطر ، لا بد أن يواجه مقاومة أشد وأوسع، وأكثر جدارة بالنصر.

ويساعد على تفجر إرادة التحدي الشعبي بروز استعدادات الاستسلام لدى القيادات والقوى الحاكمة،كما برز في اتفاق غزة – أريحا، وما رافق ذلك من انكشاف الاستعدادات الاستسلامية للنظام القطري العربي.

نحن، اذن، لسنا أمام عدوان امبريالي دولي واستعداد استسلامي لدى قيادات وأنظمة، فقط، بل نحن أيضا أمام إرادة تحد عربي شعبي، أثبتت دائماً، وفي مثل هذه الحالات ، استعداداً للمواجهة ، كما في الجزائر والمغرب وتونس وليبيا ومصر والسودان والجزيرة العربية والعراق وسوريا وفلسطين ولبنان، خلال أكثر من مائة عام، وستثبت بما اكتسبته من خبرات، وبما تستشعره من خطورة التحديات، أنها ستتطور بما يجعلها قادرة على تحقيق أهدافها.

ثانيا: إن تحديات بناء المجتمع المدني، مثل نقص الغذاء والماء، وتناقص فرص العمل، والثورة السكانية المتدفقة، تفرض تجاوز المحلي والقطري، لأن القطري والمحلي لا يملكان حلاً. واذا كانت الثورة السكانية في الجزيرة، ونقص الماء والغذاء، قد قاد الى عدة هجرات، قبل الاسلام ادت الى قيام دول كبرى، فان الفائض السكاني في كل أنحاء الوطن، سيدفع باتجاه الوحدة، لأن فيها حلولاً لا تملك مثلها حدود الاقطار، ولا تعطي مثلها التجزئة الجديدة.

ان هذا التحدي الكبير، تحدي الكثرة السكانية والماء والغذاء والعمل، هو الذي دفع دوائر التخطيط السياسي والعسكري في الولايات المتحدة، الى البحث عن حلول لمواجهة هذه الاشكالات. وهو الذي قاد هذه الدوائر في السلطة الامريكية ، وفي مؤسسات كالبنك الدولي، الى دق ناقوس الخطر، واقتراح حلول تبدأ بدراسة سبل حل مشاكل التزايد السكاني السريع ، وتنتهي باستخدام سبيل المجاعات والحروب.

وترى هذه الدراسات أن الكثرة السكانية المتزايدة ، ستقود حتما الى أمرين:

الأول : إحداث تحول في الجغرافية السياسية العالمية، لمصلحة الدول ذات التزايد السكاني العالمي، وعلى حساب الدول المصنعة المتناقصة السكان.

الثاني: إحداث تحول عميق في بنية المجتمعات، ذات النمو السكاني العالي، يعيد بناء الدولة والمجتمع واستخدام الموارد، لمصلحة الأكثرية العاملة والجائعة.

وهو، ما يهدد ، في نظر هؤلاء المخططين، هيمنة الدول الامبريالية، لا في البلدان التابعة فقط، بل في بلدانها عينها، وما يهدد الفئات الحاكمة التابعة في البلدان المتخلفة.

ولذلك لابد من اختزال طاقة هذه الجماهير المتزايدة بالمجاعات والحروب، وإعادة تقسيم الدول الموحدة كالهند والصين والبرازيل ، ومنع الأمم التي فرضت عليها التجزئة من الوحدة، وبناء وحدات اقتصادية غير قومية، تتبع محاور رأس المال العالمي، مثل هونغ كونغ وسنغافورة الخ.

إن لهذا العامل دوره في استنهاض قوى المواجهة، وفي تطور وعي شعبي واسع، ينسجم مع مصالح أوسع الجماهير، بمقدار ما تخافه القوى المعادية.

ثالثاً: إن المجتمع العربي يعيش تحولات بنيوية نوعية، في ميادين عدة أبرزها:

أ- «العولمة» التي تعم البسيطة، والتي تخترق النسيج الاجتماعي في كل مكان؛ رغم أنها تعكس جوانب سلبية في ميادين عدة كالاستلاب والاستهلاك، فإنها تنقل الأطراف من أطراف معزولة الى أطراف مرتبطة بالتطور العلمي، بكل ما فيه، من ثقافات وخبرات متعددة ومتنوعة.

ب- التطور النوعي في التربية والثقافة والتعليم، رغم اضطراب برامج التربية والتعليم وتخلف الممارسة التربوية، وهيمنة أشكال من الثقافة المبتذلة والدعاوية الرخيصة على حياتنا.

ج - ازدياد عدد سكان المدن في كل أنحاء الوطن العربي، بما يجعل نسبتهم العامة حوالي خمسين بالمائة، وما يرافق ذلك من تطور اجتماعي.

د- تطور الاتصال بين الأقطار العربية، بسبب تطور وسائل الاتصال (إذاعة ، تلفزيون، هاتف) وتطور وسائل المواصلات ، وخاصة الطائرة والسيارة والباخرة، مما قاد الى التفاعل السياسي والاجتماعي والثقافي، رغم كل العوائق. وقد قاد ذلك الى زيادة التعارف، والى انتقال الخبرات، وانتقال لغة الخطاب السياسي والثقافي والوجداني الى مرحلة جديدة من التقارب والتشابه، بعد أن كانت اللهجات تنغلق وتتباعد.

وفي ذلك كله ما يساعد على تحقيق الوحدة، ويؤسس لحالة وحدوية، في ظل حرص السياسات القطرية على تأكيد وجودها.

فهل يمكن ان نعتبر ان هذا العوامل، وغيرها من العوامل المساعدة ، يمكن أن تكون وحدها كافية؟

-٦-

إن الاجابة على هذا السؤال، تتطلب أن نؤكد أولا أن الذاتي ابن الموضوعي، وأن الذاتي الذي لا يكون الموضوعي منطلقه، يتحول الى« «هلوسة»، أو أغنية ذاتية، قد تكون مؤثرة ، ولكنها لا تستطيع أن تتحول الى قوة تغيير.

وكل موضوعي لذلك يلد الذاتي الخاص به.

ولكن هناك فرقاً بين ذاتي وذاتي . فهناك ذاتي قاصر ومشوش ، وهناك ذاتي محدد وواضح.، وهناك ذاتي محدد نظرياً، لا يملك قواه، وهناك ذاتي محدد نظرياً ويملك قواه.

وكان عامل الوحدة العربية، منذ نهاية القرن الماضي غير محدد نظرياً، ولايملك قواه، ولذلك لم تتحقق الوحدة.

ومن المؤكد أن ذلك كانت له أسبابه الكبيرة والعميقة. ومن ذلك:

١- طبيعة القوى المعادية، أي الامبريالية أساساً، وتفوقها النظري والعلمي تفوقاً بلا حدود.

٢- طبيعة النظام العربي القائم على خريطة التقسيم الامبريالي، والمؤسس على التبعية.

٣- طبيعة النخب العربية القومية التي لم تكن تملك بحكم تخلف بنى المجتمع العربي، والأمية السائدة في صفوف الشعب، والتشتت بين السلفي والمعاصر، والديني والدنيوي ، المحافظة والاصلاح والتقدم، العلم والخرافة، والقانعة بدور على هامش الانظمة والطوائف والأحزاب والجمعيات والنقابات.

ولذلك، فإن الوحدة التي أكد الجمهور العربي الواسع التزامه بها، منذ ما يسمى عصر النهضة، حيث أتيح له أن يعبر عن رأيه، بحاجة الى أدواتها النظرية والعملية.

فعلى الصعيد النظري، إن العربي بحاجة الى ثلاثة أمور.

الأول : فكر قومي جديد يطرح كل قضايا القومية، وكل إشكالاتها، ويقدم للعربي فكراً قومياً يتجاوز، ما طرحه الكتاب القوميون، منذ ١٨٧٥ وما طرحته الأحزاب

القومية. ولنعترف أنه الفكر القومي، خلال المرحلة ١٨٧٥-١٩٩٦، لم يستطع أن يؤدي مهماته، لأنه تعاطى مع القضايا القومية تعاطياً سياسياً عابراً في معظم الأحيان. ومع أن هناك العديد من الكتاب القوميين، الا ان الذين نستطيع أن نعتبرهم منظرين، خلال كل هذه المرحلة الطويلة لا يتعدون أصابع اليد، وأبرزهم ساطع الحصري ومحمد عزة دروزة ود. نديم البيطار.

ولذلك، فنحن الآن بحاجة الى ثورة في الفكر القومي، تحلل قضاياه، وتدرس إشكالياته، وتُعمق دراسة أطروحاته، كما لم يحدث من قبل.

وهذا يتطلب:

أ- إعداد مراكز أبحاث ودراسات متخصصة، لتقوم بدورها في هذا المجال، مثل مركز دراسات الوحدة العربية، والمجلس القومي للثقافة العربية، تتعاون وتتنافس، لتغني الدراسات والأبحاث في كل الميادين.

ب- العمل على تحويل التربية والتعليم الى الخط القومي، رغم الصعوبات التي يفرضها النظام القطري، وتحويل المدارس والجامعات الى مراكز وعي قومي.

ج- العمل على بناء مراكز للموسيقى القومية، والأغنية القومية، وكل ما يغذي الوجدان القومي.

د- العمل على تكوين مدارس مبدعة في الشعر القومي خاصة، والأدب القومي عامة.

إننا بحاجة الى دور الثقافة والوعي والفكر والموسيقى والشعر في اعادة الروح الى حركتنا القومية، وفي إغناء وجداننا، وتكوين قناعاتنا الحياتية والسياسية.

فهذا ما فعلته الحركات القومية في القرون الماضية، وهي تعيد بناء الوجود القومي في أوربا وآسيا. وقد زادت حاجتنا اليوم الى ذلك كله، بسبب زيادة مخاطر الهيمنة والاستلاب، وتفاقم إشكالات الكوسموبوليتية من جهة، والتشرذم من جهة أخرى.

وعلى الصعيد العملي، نحن بحاجة الى ما يلي:

١- أدوات سياسية قادرة على التخطيط والتنظيم والقيادة. وقد تضم هذه الأدوات حزباً أو أحزاباً، وحركة أو حركات، وجبهة واسعة الخ.

والمهم رغم اختلاف الأسماء، أن تمثل جبهة شعبية واسعة قومية وديموقراطية، فقد أثبتت تجارب الوطن العربي أن نجاح الجبهة أو الحركة الواسعة يرجع على نجاح الحزب النخبوي.

واذا كنّا خلال العقود الماضية ننجح عبر الحزب أو الحركة ، فإن علينا أن ندرس الأسباب، وأن نكتشف الأسلوب المقبول، شعبياً، والقادر على تحقيق المهمات المطروحة ، في هذه الظروف المعقدة.

ويمكن البدء على محورين:

الأول: بناء جبهة قومية متحدة، في كل قطر، وجبهة قومية متحدة على الصعيد القومي، على أساس برنامج قومي ديموقراطي شعبي؛ من الأحزاب السياسية القومية، ومن جماهير الشعب.

الثاني : البدء بتأسيس حركة شعبية واسعة قومية وديموقراطية، من الجماهير مباشرة، وبالطرق المناسبة.

الثالث: بناء رأي عام قومي عربي في كل أنحاء الوطن العربي، من خلال عمل واسع شامل، تقوم به حركة قومية شعبية، تمارس كل النشاط التعبوي في كل ميادين الحياة.

الرابع: بناء قوى الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فيما يتعدى الحزب والحركة الخ...

وبذلك نبني القوى النظرية والعملية، نعبئ جماهير الشعب ونحشدها، ونتجاوز الهشاشة النظرية والعملية التي عرفناها، خلال أكثر من مائة عام.

وبناء قوى الوحدة النظرية والعملية هو الأساس في تحقيقها، مثل أي مشروع، ولقد عجزنا في الماضي، لا لوجود قوى معادية فقط، بل لقصورنا وفشلنا علمياً ونظرياً.

ورغم زيادة القوى المعادية قوة، فإن كل العوامل التي أشرت اليها، والتي اعتبرها ايجابية، اذا ما اقترنت بوضوح الفكر وحماسة الوجدان، والقدرة على التنظيم والعمل والبناء والمواجهة.

-٧-

استخلص من ذلك كله ما يلي:

أولا: إن قوى العدوان والشرذمة، بمقدار ما تخضع قوى عربية، تستنهض قوى. وكان التحدي المصيري، في كل تاريخ الأمة، يستنهض قوى كبرى، كما هي حال كل أمة في العالم. وبمقدار ما يكون الخنوع الداخلي، يطلق ذلك قوى مواجهة هائلة.

ثانيا: ان عوامل الوحدة تتراكم، تحت رماد التجزئة والشرذمة والهزيمة.

ثالثا: ان النهوض يحتاج الى تطور نوعي في العامل الذاتي، أي قوى المواجهة، المؤهلة نظرياً وعملياً. والواقع العربي الراهن، بكل تراكماته وتشابكاته، يقدم مكونات هذا التطور النوعي.

ولذلك، فإن القوى القومية النوعية مطالبة بأن تبدأ عملها النوعي، لإعادة بناء الحركة القومية. وبدء نضال قومي جديد شعبي وشامل وديموقراطي لتحقيق أهداف الأمة.

الهوامش

1- Keniche Ohmae : The Rise of The Region State, Foreign-Affairs, Spring 1993, P.P (78-87)

٢- ناجي علوش: القومية العربية والاسلام السياسي، مجلة اليسار، العدد الخامس، القاهرة.

٣- ناجي علوش: الوحدة العربية: العوائق والمشكلات. المجلس القومي للثقافة العربية، ١٩٩١.

Keniche, Ohmae: Ibid.

٤- تحدث أكثر من كاتب أمريكي عن موت الأمة العربية. فكان من هؤلاء فؤاد عجمي الامريكي العربي الأصل. ويمكن مراجعة كتابه:

Fouad Ajami: The Arab Predicament., Cambridge University pres 1981.

وأما بالنسبة لموت الأمة العربية:

Willian R. Brown: The Dyiny Arab Nation. Foreign Policy. No. 54, Spring 1989.

-حول الشركات المتعددة الجنسيات، يراجع:

د. محمد السيد سعيد: الشركات عابرة القومية ومستقبل الظاهرة القومية، سلسلة عالم المعرفة رقم ١٠٧، ١٩٨٦، وخاصة، ص ١٥٦.

-Keniche, Ohmae : Ibid.

Keniche, Ohmae : The End of Nation State, The Free Press, 1995.

٥- ناجي علوش : الوطن العربي، الجغرافية الطبيعية والبشرية، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦.

المحتويات

القسم الأول: مرحلة البدايات

القسم الثاني: الحركة العربية القومية من نهاية الحرب الأولى الى نكبة فلسطين ١٩١٨-١٩٤٨

القسم الثالث: الحركة العربية القومية من النكبة الى الانفصال ١٩٤٩-١٩٦١

القسم الرابع : الحركة العربية القومية من الانفصال إلى كمب ديفيد ١٩٦٢-١٩٧٧

القسم الخامس : رؤى وشهادات

المشاركون في هذا الكتاب:

* الدكتور ابراهيم ابراش:

أستاذ العلوم السياسية في كلية الحقوق بالرباط، ومن مؤلفاته:

١- البعد القومي للقضية الفلسطينية، بيروت ١٩٨٧.

٢- تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية، الرباط ١٩٩٤.

٣- البحث الاجتماعي: قضاياه، مناهجه، اجراءاته. مراكش ١٩٩٤.

٤- علم الاجتماع السياسي: الرباط ١٩٩٥.

* د. أحمد الجباعي:

طبيب. معني بالقضايا القومية، نشر العديد من الدراسات في المجلات العربية، ومنها مجلة الوحدة التي أصدرها المجلس القومي للثقافة العربية في الرباط.

* انطوان داغر:

أنجز شهادة الكفاءة في التربية من الجامعة اللبنانية. وكانت الرسالة عن أسعد داغر، الداعية القومي والصحافي العربي المعروف.

* أ. إلياس سحاب:

كاتب قومي، له العديد من الكتب والدراسات في القضايا القومية.

* **أمين اسكندر:**

صحافي قومي، من مصر، معني بالقضايا القومية.

* **أ. تركي علي الربيعو:**

كاتب له العديد من المؤلفات، معني بقضايا الفكر العربي المعاصر. ومن اهتماماته قضايا الاسطورة.

* **الدكتورة خيرية قاسمية:**

استاذة في قسم التاريخ بجامعة دمشق، وهي تعمل الآن استاذة للتاريخ بجامعة الرياض. من مؤلفاتها:

١- يهود البلاد العربية. مركز الابحاث- بيروت، ١٩٧١.

٢- رجال الرعيل الأول. أوراق نبيه وعادل العظمة. دار رياض نجيب الريس، ١٩٩١.

٣- أحمد الشقيري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

* **الدكتور ذوقان قرقوط:**

أستاذ في التاريخ، يحمل دكتوراه من القاهرة، عمل في قسم التاريخ بكلية الآداب بالجامعة السورية. من مؤلفاته:

١- تطور الحركة الوطنية في سورية، صدر سنة ١٩٧٢، عن دار الطليعة في بيروت.

٢- الفكرة العربية في مصر ١٨٠٦-١٩٣٦. المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت.

وله ترجمات عدة.

* الدكتورة سهيلة الريماوي:

دكتوراه في التاريخ، من جامعة عين شمس. الاختصاص بتاريخ الفكر السياسي والحزبي في بلاد الشام. استاذة بالجامعة الاردنية. من مؤلفاتها:

١- جمعية العربية الفتاة السرية. دراسة وثائقية. دار مجدلاوي عمان ١٩٨٨.

٢- التجربة الفيصلية في بلاد الشام. وزارة الشباب الاردن، ١٩٨٩.

٣- الاتجاهات الفكرية للثورة العربية الكبرى، من خلال جريدة القبلة، سنة ١٩٩٢. مؤسسة آل البيت - عمان.

* د. سي ارنست دون(C.ERNEST DAWN):

أستاذ جامعي ومؤرخ أميركي، متقاعد الآن، معني بدراسة الحركة العربية القومية، وله في هذا الميدان دراسات هامة. ومن أشهر مؤلفاته في هذا الميدان: من العثمانية الى العروبة- دراسات في أصول القومية العربية. مطبوعات جامعة الينوي ١٩٧٣.

وقد أخذنا دراسته هذه، من كتاب أصول القومية العربية، وترجمه الاستاذ نقولا ناصر.

يراجع: The Origins of Arab Nationalism, Columbia University Press, 1991.

* د. شفيق السامرائي:

أستاذ العلوم السياسية، في كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد؛ يحمل دكتوراه، من جامعة مونبلييه في فرنسا. أعد رسالة الدكتوراه حول: حزب البعث العربي الاشتراكي: دراسة سياسية فكرية.

* الاستاذ شبلي العيسمي:

من مواليد محافظة السويداء، سنة ١٩٢٥. مجاز في التاريخ وأهلية التعليم العالي من جامعة دمشق. عضو في حزب البعث العربي الاشتراكي،منذ ١٩٤٣. تولى عدة مناصب قيادية في الحزب، منها عضوية القيادة القطرية، ومنصب الامين العام المساعد منذ ١٩٦٤. وتسلم في القطر العربي السوري عدة مناصب وزارية ما بين ١٩٦٣-١٩٦٦. وله العديد من المؤلفات، ومنها:

١- حول الوحدة العربية. ط/ ١، مطبعة ابن زيدون، سنة ١٩٥٧.

٢- تاريخ حزب البعث العربي الاشتراكي. ثلاثة أجزاء.

أ- المرحلة التأسيسية. ب- مرحلة النمو والتوسع.

جـ- المرحلة الصعبة (١٩٥٨-١٩٦٨).

٣- عروبة الاسلام وعالميته:دار الطليعة للطباعة والنشر، ط/ ١ سنة ١٩٨٥.

٤- العلمانية والدولة الدينية: دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ١٩٨٦.

٥- لماذا الوحدة العربية وكيف: الجزء الاول: لماذا. دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ١٩٩٣.

* أ. عبد الله الجيزاني:

كاتب قومي، من مؤلفاته كتابه عن حزب الاستقلال في العراق.

* د. فهمية شرف الدين:

استاذة جامعية في الجامعة اللبنانية، رأست معهد الانماء في لبنان، وأسهمت في مناقشة قضايا الثقافة العربية المعاصرة ولها العديد من المؤلفات.

* الأستاذ محمد جعفر الحيالي:

يحمل الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، عام ١٩٨٥، من كلية الآداب، بجامعة دمشق. ويعد الآن رسالة دكتوراه في الجامعة اللبنانية، حول: العلاقات السورية- العراقية، دراسة في العمل القومي المشترك.

كتب العديد من الابحاث والدراسات في عدد من المجلات والصحف العربية.

* أ. ناجي علوش:

مؤلف، عمل مديراً لدار الطليعة ١٩٦٥-١٩٧٢ ورئيس تحرير لمجلة دراسات عربية. انتخب سنة ١٩٧٢ أميناً عاماً للاتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين لدورتين ١٩٧٢-١٩٧٧ و ١٩٧٧-١٩٨٠. عضو في مجلس أمناء مركز دراسات الوحدة العربية، منذ إنشائه، وعضو في المكتب التنفيذي ومجلس أمناء المجلس القومي للثقافة العربية، منذ ١٩٨٥، له العديد من المؤلفات في القضية القومية، وقضايا الفكر العربي المعاصر. من مؤلفاته:

١- المقاومة العربية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨، صادر عن مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية ١٩٦٧، وعن دار الطليعة للطباعة والنشر، سنة ١٩٧٠ و ١٩٧٥.

٢- الحركة الوطنية الفلسطينية أمام اليهود والصهيونية. مركز الابحاث ١٩٧٤ ودار الطليعة ١٩٧٨.

٣- خط النضال والقتال وخط التسوية والتصفية، دار الطليعة ١٩٧٦.

٤- الوحدة العربية العوائق والمشكلات. المجلس القومي للثقافة العربية ١٩٩١.

٥- أبو الطيب المتنبي. دراسة في هويته وشعره. دار الرواد، بيروت ١٩٩٣.

* مصطفى بلاوني:

يحمل دكتوراه في التاريخ من جامعة دمشق. وكانت رسالته بعنوان: التحولات السياسية في سورية بين الاستقلال والوحدة. أما رسالة الماجستير، فكانت أيضاً من جامعة دمشق حول الاحزاب في سورية، وفي هذه الرسالة درس «عصبة العمل القومي»، يعمل في المصرف المركزي بدمشق.

* الدكتورة نجاح محمد:

استاذة بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة دمشق. نشرت العديد من الدراسات والمؤلفات، ومن مؤلفاتها:

١- الحركة القومية العربية في سورية، من خلال تنظيماتها السياسية ١٩٤٨-١٩٦٧. الجزء الاول ٤٨-٦٣ صدر سنة ١٩٨٧. مطابع دار البعث. دمشق.

٢- المتغيرات والنظام العالمي الجديد وسورية. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٩٥.

* د. نديم البيطار:

استاذ جامعي، مقيم في الولايات المتحدة الاميركية، أصدر العديد من الكتب، في دراسة القومية العربية، وقد ذكرنا بعض مؤلفاته في ختام المقابلة التي أجريت معه، وهو صاحب نظرية في موضوع الوحدة عامة، والوحدة العربية خاصة.

* **الدكتور هاني فارس:**

استاذ في العلوم السياسية، يعمل حالياً في مؤسسة البحوث الآسيوية بجامعة كولومبيا البريطانية في كندا. شغل مناصب في هيئات التدريس في جامعة الكويت، والجامعة الاميركية بواشنطن، وجامعة هارفرد، وجامعة ماكجيل، وجامعة سايمون فريزر. شغل منصب رئيس رابطة الخريجين العرب الاميركيين. نشر العديد من الكتب والمقالات العلمية التي تعالج مواضيع في السياسة اللبنانية والعربية وقضايا التنمية.

الحركة العربية القومية
في مائة عام
1982 - 1875

يسعى هذا الكتاب، إلى سد فراغ في المكتبة العربية، يتعلق بتطور الحركة العربية القومية.

ذلك أن الحركة العربية القومية ، ورغم الدور الذي كان منتظراً منها، ورغم ما واجهته من عداء القوى المعادية، ما زالت حتى الآن لا تجد الاهتمام الكافي من أبنائها ومؤيديها. ولذلك، فان تاريخها لم ينل ما يستحق من الدراسة، ومفكريها ما زالوا غير مدروسين جيداً، وقضاياها ما زالت غير مطروحة علمياً ومنهجياً.

وإذا راجعنا ما صدر من كتب عن تاريخ الحركة القومية، وعن قضاياها ومفكريها، وجدناه قليلاً وغير كاف. هذا بالاضافة الى أن ما صدر في حينه، اختفى من واجهات المكتبات، ولم يحتفظ به في كثير من المكتبات العامة. ويجد الدارس صعوبة في الحصول على المراجع الاساسية، في تاريخ الحركة القومية.

ولذلك خططنا لاصدار هذا الكتاب، ليسد بعض النقص الحاصل، وليضيف جديداً في المعلومات والاسلوب، حيث نستطيع.

وهذا الذي دعانا الى إشراك اكبر عدد من الباحثين في انجاز الكتاب، لتغطية أوسع مساحة ممكنة، ولتوظيف معارف وخبرات عديدة.

□ تصميم الغلاف:

الناشر
دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان - الأردن
دار الشروق للنشر والتوزيع ، رام الله - فلسطين